المركز القومى للترجمة

مصر تحت حكم بونابرت

غزو الشرق الأوسط

Napoleon's Egypt

Invading the middle east

تأليف: خوان كول

ترجمة: مصطفى رياض

مراجعة وتقديم: أحمد زكريا الشّلق

2100

يتناول هذا الكتاب المواجهة السياسية والعسكرية والثقافية التي وقعت بين الفرنسيين والمصريين في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، ويعتمد في المقام الأول على قراءة موسعة لمذكرات وخطابات خلفها وراءهم شهود عيان على ذلك العصر، وبخاصة ما سجله "بونابرت" نفسه.

يطرح مؤلف هذا الكتاب أسئلة منها كيف كوَّن كل من الفرنسيين والمصريين رؤيته عن الآخر، وكيف ارتسمت صورة كل فريق في ذهن الآخر.

والكتاب يقوم على أساس أنَّ حضارة البحر المتوسط، في سياقها الواسع، ظلت حضارة واحدة منذ زمن بعيد.

تصميم الغلاف: عبد الله البسيوني

مصر تحت حكم بونابرت

غزو الشرق الأوسط

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 2100
- مصر تحت حكم بونابرت: غزو الشرق الأوسط
- خوان كول
- مصطفى رياض
- أحمد زكريا الشّلق
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

Napoleon's Egypt
INVADING THE MIDDLE EAST
By: Juan Cole

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

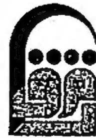
مصر تحت حكم بونابرت

غزو الشرق الأوسط

تـــــــأليف : خـــوان كـــول

تــرجمــــــــــة: مــصطفى ريـــاض

مراجعــــة وتقـــديم: أحمد زكريا الشّلق



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كول ، خوان.
مصر تحت حكم بونابرت: غزو الشرق الأوسط / تأليف: خوان كول ، ترجمة: مصطفى رياض ، مراجعة وتقديم: أحمد زكريا الشلق.
ط ١ – القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣
٥٦٠ ص،٢٤ سم
١ – مصر – تاريخ – الحملة الفرنسية (١٧٩٨/١٨٠١م)
(أ) رياض ، مصطفى (مترجم)
(ب) الشلق ، أحمد زكريا (مراجع ومقدم)
(ج) العنوان ٩٦٢,٢

رقم الإيداع: ١١٧٦٧ /٢٠١٢.
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 216 - 165 - 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المُحتَويات

تقديم

قناع الحداثة .. ومخالب الاستعمار

من الواضح أن الدراسات التي تتناول فترة الاحتلال الفرنسي لمصر (١٧٩٨-١٨٠١) لا تزال تثير اهتمام المؤرخين والكتاب، كما أن نابليون بونابرت لا يزال يحظى بالاهتمام نفسه، وربما أكثر، سواء في نطاق التاريخ الأوروبي، أو في مغامراته العسكرية خارج أوروبا، لما اتسم به صعوده وسقوطه من طابع دراماتيكي بيِّن، فلا يكاد يمر عام، أو بضعة أعوام، إلا وينشر كتاب جديد يتناول تاريخه، فالموضوع مثير، وربما اختلطت فيه الحقائق بالأساطير، فضلا عن أن تاريخه لا يتعلق بتاريخ وطنه فرنسا وثورتها الكبرى فحسب، وإنما يتقاطع ويتداخل مع بقية بلدان أوروبا بدرجة أو أخرى.

ولعل هذا ما دفع مؤلف هذا الكتاب وهو الدكتور"خوان كول" لكي يدلي بدلوه في هذا الموضوع الأثير، ويقدم لنا كتابه هذا الذي صدر عام ٢٠٠٧، تحت عنوان ترجمته "مصر النابليونية، غزو الشرق الأوسط" الذي آثرنا أن نجري عليه تعديلا طفيفا في عنوان الترجمة العربية ليصبح "مصر تحت حكم بونابرت، غزو الشرق الأوسط" ليتفق العنوان مع ثقافة القارئ العربي، فنابليون بونابرت عندما غزا مصر لم يكن يحمل سوى لقب "بونابرت" فقط، فلم يستخدم لقب "نابليون الأول" إلا فيما بعد، وهو ما اشتهر به في التاريخ الأوروبي، وما حدا بالمؤلف أن يستخدمه أنَّ كتابه موجه للقارئ الأوروبي أو الغربي عموما. ثم إننا، من وجهة نظر أخرى، نرى أن مصر لم تكن يوما نابليونية، ولا حتى مملوكية، أو عثمانية،

فتنسب إلى حكامها، وإنما كانت عبر تاريخها هي مصر المصرية، منسوبة لشعبها، لا لحكامها غرباء أو محتلين أو حتى مصريين، لتبقى دائما مصر للمصريين.

* * *

والمؤلف الدكتور خوان كول باحث ومترجم وأستاذ جامعي أمريكي متخصص في تاريخ وآداب الشرق الأوسط الحديث وجنوب آسيا. وله اهتمام خاص بتاريخ الديانات، يعمل أستاذا للتاريخ الحديث بجامعة "ميتشجان". والمعروف من ملخص سيرته العلمية أنه ولد في "البوكيرك" "بنيو مكسيكو" في أكتوبر عام ١٩٥٢. حيث كان والده يخدم في الجيش الأمريكي، ثم قضى شطرا من طفولته وصباه في فرنسا حيث تلقى تعليمه العام، ثم عاد إلى الولايات المتحدة ليحصل على درجته الجامعية الأولى من جامعة "نورث ويسترن" عام ١٩٧٤ متخصصا في التاريخ وآداب الديانات. وقد انتقل بعد ذلك إلى الجامعة الأمريكية ببيروت ليستكمل بها دراسته العليا، غير أنه لم يمكث بها سوى فترة قليلة، رحل بعدها إلى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ليدرس لدرجة الماجستير متخصصا في شئون الإسلام والشرق الأوسط، حيث تخرج عام ١٩٧٨، ثم عاد إلى بيروت ليقضي بها نحو عام عمل خلاله في جامعتها، فضلا عن اشتغاله مترجما ومحررا بإحدى الصحف.

وفي عام ١٩٧٩ شرع يستكمل دراسته لدرجة الدكتوراه، فالتحق بجامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس، حيث تخصص في الدراسات الإسلامية والعالم الإسلامي، وهناك درس تاريخ مصر الحديث والمعاصر مع عفاف لطفي السيد، ثم حصل فيه على درجة الدكتوراه عام ١٩٨٤، وعمل أستاذا مساعدا، فأستاذا للتاريخ في جامعة "ميتشجان"، وعندما حصل على منحة فولبرايت قضى بموجبها فترة دراسة في الهند ومصر بين عامي١٩٨٥ و١٩٨٦، كما عمل محررا بمجلة دراسات الشرق

الأوسط الدولية IJMES (١٩٩٩-٢٠٠٤)، ثم اختير رئيسا لمركز دراسة الشرق الأوسط في أمريكا الشمالية.

والمعروف أن خوان كول كان قد قضى نحو ثلاث سنوات بمصر، كان يعد خلالها مادة كتابه هذا، كما كان يكتب بعض فصوله، وقد ألقى ورقة بحثية عنه في أحد مؤتمرات مركز البحوث الأمريكي بالقاهرة في ربيع ١٩٩٦. وفي تحريره للمجلات العلمية، نشر مقالات وعروضا لكثير من المؤلفات المتعلقة بالشرق الأوسط الحديث، كما أن له ترجمات عن العربية والفارسية، ولعل أشهرها ترجمته لثلاثة مجلدات من أعمال جبران خليل جبران. لقد كان يجيد اللغات الفرنسية والعربية والفارسية، بحكم نشأته ودراسته، وتنقله بين بلدان الشرق الأوسط باحثا ومراسلا ومحررا، وهذا ما ظهر من سيرة حياته ونشاطه العلمي والثقافي بوجه عام. وفي دراساته ومؤلفاته يبدي اهتماما كبيرا بعلاقة الإسلام بالسياسة خاصة في إيران، وبالشيعة والبهائيين والصوفيين في العراق، وبقضية الحداثة والاستعمار، والثورة في العالم الإسلامي. وله دراسة عن الثورة العرابية وأصولها الفكرية والاجتماعية. نشرتها جامعة برنستون عام ١٩٩٣.

* * *

وقد أغرانا بترجمة هذا الكتاب عوامل عديدة: منها أن مؤلفه المؤرخ الأمريكي "خوان كول" كتبه باللغة الإنجليزية، بينما كانت المؤلفات السابقة عن الموضوع تصدر بشكل أساسي باللغتين الفرنسية أو العربية. وربما لم ينشر عمل متكامل وموسع بالإنجليزية عن هذا الموضوع منذ بداية الستينيات من القرن الماضي، عندما وضع "كريستوفر هيرولد" كتابه الشهير: "بونابرت في مصر". ولذلك رأينا أن هذا العمل يقدم مادة جديدة استقاها المؤلف من المصادر التي نشرت

مؤخرا، وأنه يتناول دراسة الموضوع من زوايا جديدة، ويقدم تحليلات وتفسيرات لها طابعها الخاص الجدير بالاعتبار. والواقع أن أحداث التاريخ ووقائعه تقرأ من زوايا مختلفة، تنبع من "ذات" المؤرخ أو الكاتب بدرجة أو بأخرى الذي له انتماءاته وانحيازاته بطبيعة الحال، والتي تطل برأسها من بين ثنايا كتاباته، ومهما حاول أن يتجرد ويدعي "الموضوعية" الكاملة، فإنه لا يبلغها إلا بقدر، وإن كان عليه أن يجتهد دوما لبلوغها وأن يتحرر من إيثار الذاتية قدر ما يستطيع.

ومن أهم ما يميز هذا العمل كذلك اعتماد المؤلف على مصدر له طابع خاص لدى المؤرخين وهو مذكرات وأوراق ومراسلات ضباط الحملة الفرنسية وجنودها، من صناع الوقائع والمشاركين فيها أو شهود العيان. وهذا المصدر مهم وملهم وله طابع إنساني، وباعتباره مصدرا غير رسمي، فإن درجة مصداقيته عادة ما تكون أعلى من المنشورات والقرارات الرسمية، خاصة وأن الحملة لم تكن مجرد حملة عسكرية، وإنما كانت لها جوانبها الحضارية والاجتماعية المتعلقة باختلاط الفرنسيين بالمصريين في أواخر القرن الثامن عشر.

ومن الجوانب المهمة التي أبرزها هذا الكتاب كذلك، أنه سجل جوانب كبيرة من العمليات العسكرية الفرنسية التي أبرزت وحشية "جيش الشرق" الاستعماري، الذي حاول الفرنسيون، ومن لف لفهم من الكتاب والمؤرخين، إخفاءها تحت قناع الحداثة والتحديث. فها هم الضباط والجنود الفرنسيون يكتبون ويسجلون في أوراقهم ومذكراتهم وخطاباتهم لذويهم، ما أحدثوه من تدمير وإحراق لقرى بأكملها سواء تلك التي أبدت مقاومة للغزو أو التي هجرها أهلها فرقا وهلعا، فضلا عن عمليات السلب والنهب التي مارسها "دعاة الحرية" من الفرنسيين!! وفي هذا الصدد يثبت المؤلف نصوصا وشهادات فرنسية لضباط الحملة وجنودها، والذين تكرر ذكر أسمائهم ومصادرهم، ومن أبرزهم جوزيف ماري مواريه، وديزفرنواه،

ولويس بريكار، وشارل أنطوان موران، وفرانسوا برتوبيه، وديترووي، وديتون، والمهندس ساي وغيرهم ...

ولا يعني ما سبق أن هذه المصادر ذكرت كل شيء، وإنما يعني أنها أبرزت جوانب وتفاصيل لم ترد في غيرها من المصادر، بل وفي المصادر الرسمية، فالمؤلف يشير – في الفصل الثاني مثلا – إلى الضرائب الباهظة التي فرضها الفرنسيون على مصر، والأساليب الوحشية في تحصيلها وذلك لتعويض خسائر الحملة، فيذكر مؤلفنا أن مذكرات الفرنسيين وأوراقهم صمتوا عنها، وهذا ما اقتضى منه أن يبرزها استنادا إلى كتابات المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي، والمؤرخ العثماني عزت الدرندلي.

° ° °

لقد كشف خوان كول في كتابه هذا عن تفاصيل مهمة بشأن مقاومة المصريين والمماليك والعثمانيين للغزو الفرنسي منذ أن وطأت أقدام الفرنسيين الإسكندرية، فصوَّر شهادات فرنسية مهمة عن إحراق الفرنسيين للرحمانية انتقاما من الأهالي الذين فروا منها، وكيف أشعلوا الحرائق في كثير من القرى في طريق زحفهم إلى القاهرة، كما أبرزت وحشية تعاملهم مع الأهالي الذين يبدون المقاومة للجيش الجمهوري الفرنسي، وأثبتت أن المعارك مع البدو والفلاحين المصريين جلبت على هؤلاء دمارا عظيما.

ومن الأمثلة التي ذكرها الكاتب والتي تدل على هذه الوحشية أنه عندما أحرق البدو أحد أمناء المخازن وخادمه الفرنسيين، استشاط بونابرت غضبا وأمر بإضرام النار في القرية كلها وقتل أهلها جميعا رميا بالرصاص أو بضرب أعناقهم بالسيوف "وهي عقوبة جماعية لا تستند إلى منطق، و"ممارسة فجة للإرهاب". وفي

إشارة أخرى مهمة للمؤلف ذكر أن الفرنسيين عثروا على خبيئة من المخطوطات القيمة في أحد أبراج الحمام في "وردان" وأن الجيش الفرنسي أصر على إحراقها "مما يلقي بظلال الشك على دعاوى بونابرت، بأنه بغزو مصر، يسهم في توطيد أركان الحضارة" حسب تعبير المؤلف الذي استمر في سخريته من جيش الحضارة والحرية، في أكثر من موضع فى الكتاب، فها هو يصور مدى وحشية هذا الجيش عندما هاجم (الخانكة وأبو زعبل). وكيف قتل جنوده الأهالي وحطموا مقاومتهم ونهبوا البلدة ثم أحرقوها "ومضت بعثة الحضارة في طريقها"!

لقد صور خوان كول في هذا الكتاب كذلك كيف قاوم العثمانيون، مع المصريين والمماليك، هذا الغزو عند إمبابة عندما دارت المعركة التي اشتهرت باسم "معركة الأهرام". فذكر أن العثمانيين قاوموا ولم يهربوا أو يستسلموا إلا بعد قتال عنيف، وذكر أن أقوال المؤرخين والدبلوماسيين الأوروبيين، "الذين روجوا لأسطورة أن العثمانيين خربوا مصر وأفرغوها من سكانها، هي أقوال لا أساس لها، وهي أسطورة نبعت من حملة بونابرت ... وأنها راقت لهؤلاء القناصل، لأنها توحي بأن الشرق سينهض بفعل الاستعمار الأوروبي". وفي هذا الصدد يقدم المؤلف – في الفصل الثامن – دراسة مهمة عن موقف الآستانة من الحملة الفرنسية على مصر، فيتحدث عن فرمانات السلطان سليم الثالث ودعوته للجهاد ضد الغزو الفرنسي. وكيف أنه أقام تحالفات مع كل من إنجلترا وروسيا والنمسا ضد فرنسا. كما أصدر أوامره بالقبض على السفير الفرنسي في عاصمة الدولة، وكذلك القبض على التجار الفرنسيين ومصادرة ممتلكاتهم في أنحاء الدولة العثمانية. كما أن الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا أصدر فرمانا يدعو المصريين إلى الصمود ومقاومة الفرنسيين ريثما تأتيهم حملة عسكرية ترسلها الدولة العثمانية إلى مصر.

ومن الموضوعات المهمة التي تفرد بها هذا الكتاب ما أورده المؤلف بالتفصيل – في الفصل التاسع – عن الحملات الفرنسية على مناطق مختلفة شرق الدلتا، ذلك الإقليم الذي رأى أنه يتميز بسمات مهمة في جغرافيته الاجتماعية، وينبه خوان كول إلى أن هذا الإقليم لم يرد شيء عنه في التاريخ السياسي المدون باللغة العربية، والذي يتخذ من القاهرة مركزا له، ويعد مصدرا لتاريخ القرن الثامن عشر، فلم ترد به أخبار عن مقاومة أهل بحيرة المنزلة، أو عن التحالفات السياسية والعسكرية التي جمعت بين الفلاحين والبدو، ولا عن أهمية منطقة المستنقعات – خاصة في أثناء فيضان النيل– والصحراء، في دعم قدر من الاستقلال المحلي. ولجوء أثرياء الفلاحين والبدو على نحو منظم لحمل السلاح. كما يكشف مؤلفنا عن التحالفات والنزاعات الاجتماعية في دمياط الواقعة على البحر المتوسط وتوجهاتها نحو الأوروبيين. والدور العسكري المهم لليونانيين والسوريين وغيرهم من المسيحيين في هذا الميناء، مما يراه علامة على "اضطراب السياسات المصرية" آنئذ.

ومما هو جدير بالملاحظة كذلك ما سجله المؤلف، نقلا عن مذكرات الضباط والجنود، من تفاصيل دقيقة عن المعارك التي دارت بين القوات الفرنسية والأهالي من الفلاحين والبدو والصيادين في دمياط والشعراء والمنزلة والمطرية، وفي المنصورة وميت غمر، وكيف قاوم الأهالي بعناد، رغم تدمير القرى ونهبها، وقد علق على ذلك بقوله إن بونابرت تبنى سياسة عشوائية، سمح بموجبها لجنوده في كثير من الأحيان باكتساب رزقهم من أعمال السلب والنهب، كما فرض ضرائب باهظة على المصريين، وأجبرهم على سداد نفقات غزو بلادهم واحتلالها. ومن الملاحظ أن مؤلفنا وهو يتحدث عن مقاومة المصريين يسجل ملاحظة "ميليه" في مذكراته عن اشتراك النساء، إلى جانب الرجال من الفلاحين، في الهجوم على

الفرنسيين شرق المنصورة، الأمر الذي يكشف عن دور النساء في ثورات القرى، وهو ما لم يتطرق إليه المؤرخون في أعمالهم.

ولعلنا نلاحظ، على امتداد الكتاب أن المؤلف تميز بنظرة نقدية، لا تستسلم لما ورد بالتقارير والمنشورات الرسمية، فهو يرى أن الفرنسيين الذين ادعوا أنهم جاءوا إلى مصر لتخليصها من ظلم المماليك واستبدادهم، لم يختلفوا كثيرا عنهم في القسوة والجشع. وأنه ربما كان وجه الاختلاف يتمثل في أنهم كانوا أكثر حرصا في الحصول على ما يلزمهم من موارد، وأنهم أفضل تسليحا مما سمح لهم بانتزاع تلك الموارد. وقد نقل عن أحد الجنود قوله: "إن أكثر ما آلمنا أن بونابرت يستخدم وسائل المماليك نفسها". ويتعجب مؤلفنا من أن "الحكم الأبوي الفرنسي لمصر صُوِّر على أنه شكل من أشكال الحرية، مثلما أعيد تأسيس شكل مختلف من أشكال السلطة الأبوية ممثلا في حكومة الإدارة في فرنسا" وينقل عن المهندس "ساي" قوله: "إن ثمة ضرورة لغرس عادة الخضوع لدى هؤلاء الأهالي المتعصبين ضد سيادة أولئك الذين يصفونهم بالكفار".

ويسخر خوان كول من استخدام ضباط الجيش الفرنسي للعبيد والجواري في مصر، فيروي قصصا عن نشاطهم في اقتناء هؤلاء ومغامراتهم الجنسية، متجاهلين القانون الذي صدر في فرنسا عام ١٧٩٤، والذي يحظر العبودية في المستعمرات الفرنسية، وهكذا بدا واضحا أن جيش الحرية الجمهوري لا يميز بين الحرية والقهر في "جمهورية مصر الفرنسية"، فيمارس العبودية التي حرمت على أرض فرنسا من زمن.

وقد حظيت "سياسة بونابرت الإسلامية" باهتمام خاص من جانب المؤلف، فخصص له فصلا مهما – السابع – كشف فيه عن كذب بونابرت ونفاقه لعلماء

الأزهر وللمصريين، واستخدامه الدين لأغراض سياسية. والموضوع في حد ذاته مثير لدهشة المؤرخين، بل وجنود الحملة وضباطها أنفسهم. الذين رأوا قائدهم يمارس خديعة كبرى، ويندمج فيها حتى كاد أن يصدقها. فروى المؤلف كيف أصدر بونابرت أوامره بأن تشارك مسيرة مهيبة من جنوده في الاحتفال بمولد النبي، مما جعل "ديتروي" يعلق ساخرا بأن "جنود المدفعية الفرنسية يحيون محمدا" كما نقل المؤلف ما كتب عن مشاركة بونابرت في الاحتفال بنفسه، وكيف أنه خلع على الشيخ البكري لقب "نقيب الأشراف" وأنه اندمج في القيام بدور "السلطان المسلم" الذي يكرم سلالة النبي من الأشراف، ولكن محاولته لم تحظ بالنجاح الكامل، لأن المصريين كرهوا الشيخ البكري. ويذكر "الكابتن ساي" الذي طالما انتقد مغازلة بونابرت للإسلام، أن القائد الأعلى ظهر في يوم الاحتفال بمولد النبي متدثرا بعباءة شرقية، وأعلن نفسه حامي حمى الأديان جميعا، وأن الحماسة انتشرت بين الناس الذين أجمعوا على تسميته باسم علي بن أبي طالب، وصاروا ينادونه بـــ "علي بونابرت" وأنهم عدوا ذلك مزحة تثير الفكاهة. وقد ذكر "بوريين" في مذكراته، بعد أن ساءه ما رأى من نفاق القائد الأعلى من استغلال الدين، أن ذلك قد أفقده الاحترام.

وفي حفل العشاء الذي أقامه الشيخ البكري لبونابرت وحضره مائة من شيوخ الزهر والكثير من الفرنسيين، ضباطا وجنودا، روى "ديزفرنواه" بأنه وصل الأمر ببونابرت إلى حد مغازلة مشاعر الشيوخ الدينية، حين صوّر لهم استعداد الجيش الجمهوري لاعتناق الإسلام قريبا، وعلق ضابط آخر بأن الجنود التزموا الأدب فلم يعلقوا، لكنهم عندما عادوا إلى ثكناتهم انفجروا بالضحك من هذه المهزلة. وإمعانا من بونابرت في التمادي في هذه الأكذوبة حاول إقناع أئمة المساجد بالدعاء له في صلاة الجمعة، كما كانوا يدعون للسلطان العثماني، لكي

يمنح لنفسه شرعية إسلامية، ولكن كان من الحمق أن يأمل في قيام الأئمة بالدعاء لحاكم أوروبي مسيحي.

وفي تصوير درامي يروي المؤلف كيف أنه نتج عن محاولات بونابرت تلك أن طلب إليه الشيخ الشرقاوي أن يعلن إسلامه، ولم يكن الشيخ يرى في ذلك غرابة، فعندما يفعل بونابرت ذلك ويسدد الضرائب إلى الباب العالي، سيطلب إلى السلطان تثبيته واليا على مصر، ذلك أن الكثير من البكوات الذين حكموا مصر ولدوا على المسيحية في بلاد القوقاز... والمعروف أن بونابرت رد على الشيخ بأن هناك عقبتين تحولان دون تحوله هو وجنوده إلى الإسلام، وهما الختان وشرب الخمر، وسرت شائعة بأن الشيوخ يلقنون بونابرت مبادئ الإسلام... وذكر القائد، وقد استمرأ أكاذيبه، بأن بعض الفقهاء قد أفتوا بإسقاط شرط الختان. لكن كان من الواضح أن الجنرال لم يوفق في إقناع الشيوخ بمنحه إعلانا شكليا يفيد تحوله إلى الإسلام، فلم يعتنق الإسلام ولم يدخل مسجدا ولا أقام صلاة، ولكنه كان يريد ذلك لأغراض سياسية، والحاصل أن خطته تحطمت على صخرة تمسك الأزهريين بأصول الدين، كما لم تنطل هذه السياسة على المصريين.

ومن الموضوعات المهمة التي أثارها كاتبنا وألقى حولها بعض الضوء. موضوع صلة بونابرت بالمشروعات الصهيونية في القدس وعلاقتها بمشروعه الاستعماري، فذكر أنه كان هناك من المقربين من بونابرت من تصوروا دورا للجالية اليهودية، خاصة عندما أفصح القائد عن خطة لغزو الشام، وعلق المؤلف بأن الجالية اليهودية كانت قليلة العدد في مصر والشام آنئذ، وأن عدد اليهود في مصر كان بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف، وأنهم لم يؤدوا أي دور خلال فترة الاحتلال الفرنسي لمصر.

ثم ذكر الكاتب أن المؤلف المسرحي الفرنسي "لاوس دي بويسي" الذي حرر مذكرات "الكابتن ساي" عبر عن آماله في تأسيس جالية يهودية موالية للفرنسيين في القدس، ورأى أن ذلك سيكون له فائدة للفرنسيين في مصر، وقد نشر "دي بويسي" ذلك في ربيع عام ١٧٩٩، في مقالة له بدورية فلسفية تصدرها جماعة من المفكرين كان لبونابرت صلة بها، حيث ذكر فيها "أن استقرار الفرنسيين بمصر يمكن أن يجلب للأمة اليهودية زمنا سعيدا.. فهؤلاء اليهود الذين تشتتوا في أركان الأرض يمكن إذا أسسوا مستعمرة مزدهرة أن يدعموا بقوة استعمار الفرنسيين لمصر... إنهم أثرياء يمتلكون رءوس أموال يمكن أن يقدموها إلى من يعيد إليهم أرض أجدادهم... إن فاتح مصر لن يخطئ في تقييم المنافع التي يمكن أن يجنيها من هذا الشعب لتنفيذ خططه الكبيرة....".

وقد علق خوان كول على ذلك بقوله بأنه يرى أن تقديم "دي بويسي" للقدس العثمانية بوصفها أرض الأجداد ليهود أوروبا، عملا يؤدي إلى إبعادهم عن باريس وروما. كما لم يكن بأرض فلسطين سوى بضعة آلاف من اليهود، وهو عدد لا يعتد به عمليا في مخططات بونابرت الاستعمارية. وأضاف أنه لا يجوز أن نفترض أن بونابرت شارك "دي بويسي" آراءه، إن كان على علم بها، كما لا يوجد دليل يشير إلى تأييده لمثل ذلك المشروع. والواقع أن المؤرخ الفرنسي الشهير هنري لورنس قدم دراسة مهمة عنوانها "بونابرت والإسلام، بونابرت والدولة اليهودية" (ترجمها بشير السباعي ونشرت بالقاهرة ١٩٩٨) أكد في خلاصتها أن سخرية التاريخ قد حكمت على بونابرت، الذي أراد أن يصور نفسه في صورة المدافع عن الإسلام، بأن يبدو، دون وجه حق، في نظر الأجيال التالية كواحد من مؤسسي الصهيونية، وهو ما لم يكنه البتة ولم يزعمه قط.

وثمة قضية مهمة أخيرة أثارها مؤلف هذا الكتاب في خاتمته، تتعلق بالدور الحضاري والحداثة اللتين عرفتهما مصر فى زمن الاحتلال الفرنسي، دلت على نظرة تقويمية مهمة، وعلى متابعة المؤلف لتيار جديد بين المؤرخين النقديين يعيد النظر في تقييم دور الحملة وارتباطه بقضية الاستشراق والمركزية الأوروبية ... وهنا يشير إشارة واضحة لها مغزاها، وهي أن بونابرت أحرق مستندات دولته ذات الصلة "بجمهورية مصر الفرنسية" بعد أن أدرك حجم الفوضى التي أحدثها في وادي النيل، والفشل الذريع الذي منيت به حملته، والإعلام والدعاية الكاذبة اللتين أحاطت بهما، وقتل الآلاف دون رحمة وإحراق القرى وتدميرها، وهو ما سجلته الوثائق الرسمية الفرنسية التي أحرقها. وهنا يتعجب مؤلفنا من أنه، رغم هذا كله، يجد من أنصار القومية المصرية في مصر - على ما في موقفهم من غرابة- من يصفوا الحملة بأنها كانت دفعة قوية نحو حداثة نشطة زلزلت مجتمعا تقليديا، وجلبت له المطبعة والطباعة، والتجارة الحديثة، والمستشفيات، والعلوم بما فيها علم الآثار، الذي تمكن علماؤه في نهاية المطاف من استعادة ماضي مصر الفرعوني... إلخ. ويرد المؤلف على هؤلاء النفر من المصريين، بأن هذه فرية جاء من دحضها من المؤرخين الاجتماعيين الذين برزوا في سبعينيات القرن الماضي وما بعدها. الذين أثبتوا أن مصر كانت لها علاقات اقتصادية ودبلوماسية مع أوروبا، خلال القرن الثامن عشر، وأنها لم تكن صحراء جرداء تنتظر بونابرت ليكتشفها ويقودها نحو الحداثة، وأثبتوا أن المخترعات المحدودة التي جاء بها جيش الشرق رحلت معه عام ١٨٠١، وأن الحملة لم يكن لها تلك الآثار التي روج لها الاستشراقيون ودعاة المركزية الأوروبية. والتي نضيف إليها أن مصر كانت تسير نحو نهضة خاصة بها، استطاع محمد علي أن يبني أساسها فيما بعد، وهو الأمر الذي كتب

عنه المؤرخون النقديون دراساتهم الجديدة ممن يعيدون تقييم أوضاع مصر تحت الحكم العثماني، قبل مجيء بونابرت وجيشه.

* * *

وإذا كان لنا من ملاحظات على مجمل الكتاب، فهي قليلة على كل حال، وإن كان من الضروري تنبيه القارئ إليها. **وأولها** أن المؤلف استخدم مصطلح **Ottoman Egyptians** عند الحديث عن الطبقة الحاكمة في مصر وهو مصطلح ترجمته الحرفية سوف تربك القارئ، فليس في مصر آنذاك عثمانيون متمصرون، أو أتراك متمصرون، فعندما شرع المؤلف يتحدث عن نزول الحملة إلى الإسكندرية ومقاومة الأهالي وبكوات المماليك لها، ذكر أن مصر "كان يقطنها نحو ستين ألفا من طبقة الأمراء الحاكمة، سواء من العثمانيين أو المماليك، وأن بها حكومة من البكوات **Beylicate** تحكم مصر نيابة عن السلطان العثماني. وكان علية القوم من المصريين ذوي الأصول العثمانية **Ottoman Egyptians**... إلخ" ثم جعل المؤلف يستخدم هذا المصطلح في معظم كتابه، وهو أمر رأينا أنه سيحدث التباسا لدى القارئ، ذلك أن مصر عندما غزاها الفرنسيون في أواخر القرن الثامن عشر كانت تضم عنصرين رئيسيين لهما السيطرة السياسية والإدارية والعسكرية.

أولهما: عنصر المماليك، وهم من بقايا الأمراء والبكوات المماليك، الذين كانوا يحكمون مصر منذ زمن دولة المماليك في مصر والشام. والكثير من عناصرهم ذوي أصول جورجية وقوقازية وتركية، وقد انضووا تحت حكم العثمانيين، عندما ضموا مصر في أوائل القرن السادس عشر، ثم ما لبثوا أن شكلوا قوة إدارية واقتصادية مؤثرة اضطرت معها الدولة العثمانية إلى الاستعانة بهم في مناصب الإدارة بمصر، وقويت شوكتهم مع ضعف

الدولة وولاتها في مصر، حتى صارت بيوتاتهم قوة خطيرة تسيطر على البلاد في ظل حكم شكلي للدولة العثمانية، حتى إن المؤرخين يذكرون أن مصر خلال العصر العثماني كانت تحت الحكم (العثماني-المملوكي) وصار أمراء المماليك يميزون أنفسهم عن العثمانيين بأنهم "الأمراء المصرلية" "أو الأمراء المصرية"، وتذكرهم المصادر بذلك باعتبارهم أصحاب مصر منذ قرون قبل الغزو العثماني. ولعلنا نذكر أنهم بلغوا درجة من القوة في أواخر القرن الثامن عشر، استطاعوا معها الانفصال بحكم مصر عن الدولة العثمانية فترة قصيرة تحت قيادة علي بك الكبير.

أما العنصر **الثاني** فهو العنصر العثماني صاحب السلطة العليا في مصر، والذي يضم الباشا الوالي ورجاله من ماليين وعسكريين وقضاة وغيرهم ممن يمثلون سلطة الدولة العثمانية في حكم مصر. والواقع أن المؤلف عندما يستخدم مصطلح **Ottoman Egyptians**، فإنما يقصد به المماليك في سياق ما يتحدث عنه، لذلك رأينا الاكتفاء بترجمته بكلمة المماليك فقط، تمييزا لهم عن الحكام والباشوات العثمانيين الذين لم يتمصروا، خاصة وأن المؤلف كان يستخدم مصطلح أمراء المماليك، في أكثر من موضع، كمرادف لمصطلحه "العثمانيين المتمصرين" (فمثلا عندما تحدث عن رواية الجبرتي التي ذكر فيها أنه عندما رأى الفرنسيون ضرورة التخلص من المماليك في الإدارة المصرية، رفض علماء الأزهر وأكدوا لهم أن سوقة مصر لا يخافون إلا منهم، بينما نقلها المؤلف عن الجبرتي **P.75** وذكر "إن السوقة لا يخافون إلا من العثمانيين المتمصرين" في حين أن نص الجبرتي عن المماليك).

وثانيها: أن مؤرخنا استخدم مصطلح "جمهورية مصر الفرنسية" على سبيل المجاز، باعتبارها ستصبح وطنا جديدا للمستعمر الفرنسي، بناء على رغبة

بونابرت وتخطيطه لتكون جمهورية تابعة للجمهورية الفرنسية، أو تابعة للوطن الأم كما دأب الفرنسيون في مصر على التعبير عنها في وثائقهم ومراسلاتهم.

وثالثها: إن مؤلفنا يشير - في الفصل الرابع- إلى أن المسلمين وصلوا إلى السلطة في عهد الحكم الفرنسي من خلال إشراك العلماء والمشايخ في الدواوين التي أنشأها بونابرت، ولم يكن هذا صحيحا، فقد اقترن تأسيس هذه الدواوين برغبة سلطات الاحتلال الفرنسية في إقامة "واجهة" من كبار الشخصيات المصرية يمكن تأليبها ضد العثمانيين والمماليك، كما كان يمكن استخدامها كحلقة وصل بين الحكام والمحكومين. والواقع أن تشكيل هذه الدواوين كان ذا أثر شكلي. فضلا عن طبيعتها الاستشارية والخاضعة لرقابة بونابرت وقادة جيشه. كذلك فإن نشاطها وتعطيلها كان خاضعا لمشيئتهم - بل إنهم اعتقلوا أعضاء الديوان ذات مرة - كذلك استخدمتهم سلطات الاحتلال وسيلة للضغط على الأهالي لتهدئتهم، وتمرير سياسة الاحتلال وتبريرها، الأمر الذي يثبت أن الفرنسيين استفادوا منهم في حكم بلاد جاءوا ليحكموها، لا ليدربوا أهلها على حكم أنفسهم (ويمكن الرجوع إلى كتابنا: الحداثة والإمبريالية، القاهرة ٢٠٠٦، ص ٦٨-٨٥ لمزيد من التفاصيل)

ورابعها: إن المؤلف لم يستفد كثيرا من المصادر والمؤلفات العربية والتركية التي تناولت الموضوع، رغم أهمية مصادره ومراجعه، مكتفيا بما كتبه الجبرتي ونقولا ترك والدرندلي، ولم يتح لنفسه فرصة الاستفادة من كثير من المخطوطات، المنشورة وغيرها مما يتصل بالموضوع، وكذلك وثائق الشهر العقاري والمحكمة الشرعية، أو الكثير من الدراسات الحديثة التي

اعتمدت عليها، التي نظن أنها، بمقارنتها بالمصادر الفرنسية، كانت ستعطي أبعادا جديدة لموضوعات الكتاب.

وأخيرا، وليس آخرا، بقى أن أذكر أن من حسن حظ هذا الكتاب أن تولى ترجمته بحدب وحرص شديدين الصديق الكريم الأستاذ الدكتور مصطفى رياض أستاذ الأدب الإنجليزي، ورئيس قسم اللغة الانجليزية وآدابها بكلية الآداب جامعة عين شمس، الذي شغف بالكتاب وموضوعه حبا منذ أن ألقى نظرته الأولى عليه. وجاءت ترجمته الأمينة والرصينة، التي لا ندرك معها أننا نقرأ كتابا مترجما، لتكشف عن مقدرة لغوية متفردة، في اللغتين العربية والإنجليزية، وتشف كذلك عن ذائقة أدبية راقية، فضلا عن ثقافة واسعة وعميقة. وهو ما يظهر جليا في سلاسة التعبير وإشراقه، وفي طلاوة العبارات وبهائها، مما دلَّ على عشق صادق للغة العربية، جعلها تكشف له عن مفاتنها، فانسابت بين قلمه رقيقة عذبة، لا إعجام فيها ولا اضطراب، لا يتزيد في غير ضرورة، ولا يسرف في مجال القصد، وإنما ظل ممسكا بناصية المجاز - وهو قمة البلاغة - في سهولة ويسر. فتحية للدكتور مصطفى رياض وتهنئة له على هذا الإنجاز الممتاز، مع أطيب التمنيات له بمزيد من التوفيق في إنجازاته العلمية القادمة ...

والله ولي التوفيق

أحمد زكريا الشلِّق

مدينة نصر، القاهرة - أغسطس ٢٠١١

شكر المترجم

أتوجه أولا بجزيل الشكر إلى الأستاذ الدكتور أحمد زكريا الشِّلق، مراجع هذا العمل، الذي أضفى على هذه الترجمة من علمه الغزير وذائقته الأدبية من القيمة العلمية والمتعة الذهنية ما يُرجى أن ينتفع به قراء هذا الكتاب. وقد كان لكتاب الدكتور الشِّلق "الحداثة والإمبريالية: الغزو الفرنسي وإشكالية نهضة مصر" (دار الشروق ٢٠٠٦) أكبر الأثر في توجيه اهتمامي لتلك المرحلة المهمة في تشكيل الوعي القومي المصري، فصرتُ منذ انتهائي من قراءة مؤلَّفه هذا مريدًا أنهل من أستاذيته وكرم أخوته. وحين اقترح الدكتور الشِّلق عنوان هذا الكتاب لترجمته بادرت بالاستجابة كي يمتد اللقاء العلمي بيننا.

كذلك أدين بالفضل لصديقين عزيزين هما الأستاذ أحمد محمد مجاهد، مدرس الترجمة بقسم اللغة العربية والترجمة بكلية التعليم المستمر، بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، والدكتور يسري إبراهيم، مدرس الفلسفة بكلية الآداب، جامعة عين شمس. فقد وطد اجتماعنا حول هذه الترجمة أواصر المودة بيننا، إذ جمع هذا العمل بين كل منهما وبيني في لقاءات، دارت فيها مناقشات حول ما طرح فيه من أفكار، وما ورد فيه من روايات وطرائف، تربط بين ماضي مصر وحاضرها، فما أشبه اليوم بالبارحة. وقد تولى الأستاذ أحمد محمد مجاهد مراجعة النص المترجم نحويًا وأسلوبيًا، في حين أضاف الدكتور يسري إبراهيم لمسات أدبية ولغوية أثرت النص وجعلت قراءته ميسورة لعامة القراء.

مصطفى رياض

إهـــداء

إلى أرمان وشينا


0 miles 50 100
0 km. 50 100
Mediterranean Sea
Rosetta
Abuqir
Alexandria
Damanhur
Rahmaniya
Shubrakhit
Damietta
Nile River
Lake Manzala
Mansura
Manzala
Matariya
Arish
Syria
BUHAYRA
SHARQIYYAH
Tanta
Zifta
Mit Ghamr
Salahiya
Shibin al Kum
Minuf
Benha
Bilbeis
Khanqa
Imbaba
Cairo
Giza
Suez
Sinai Peninsula
Madinat al-Fayum
Beni Suef
BENI SUEF
MINYA
El Minya
Red Sea
Nile River
Asyut
ASYUT
Sohag
GIRGA
Girga
Samhud
Qena
QENA
Dakhla Oasis
Qusayr
Luxor
Kharga Oasis
Esna
EGYPT
1798–1800
City or Village
Battle
Capital
PROVINCE
Naval Engagement
ASWAN
Aswan
N

قائمة باللوحات

١-"نابليون في مصر" لجان-ليون جيروم **Jean-Léon Gérôme**؛ لوحة زيتية على... من البلوط. من مقتنيات متحف الفن بجامعة برنستون، ابتاعها المتحف من مخصصات قدمها جون ماكلين ماجي (خريج الجامعة في ١٨٩٢) وجرترود ماجي. تصوير: بروس إم. وايت، حقوق النشر محفوظة لمجلس أمناء جامعة برنستون.

٢-"الإسكندرية" لفيفان دينون **Vivant Denon**، رحلات في الوجه القبلي والوجه البحري بمصر، ثلاثة مجلدات (لندن: إس. باجستر، ١٨٠٧).

٣-"نابليون في موقعة الأهرامات" حفر على الخشب لفيليب جوزيف ڤالوه **Philippe Joseph Vallot**، نقلاً عن أنطوان-جان جروه **Antoine-Jean Gros**.

٤-"القاهرة" لفيفان دينون.

٥-"دينون يرسم تخطيطاً للوحة" لفيفان دينون.

٦-"رشيد" لفيفان دينون.

٧-"ثورة القاهرة"، رسم في إيه. هوجو **A. Hugo**، محرر كتاب فرنسا العسكرية، المجلد الثاني (باريس: ديلوي، ١٨٣٥).

٨-"بونابرت" يعفو عن متمردي القاهرة" لوحة في كتاب إيه هوجو.

٩-"معركة سمنود" بريشة فيفان دينون.

١٠-"عربة إسعاف الجرحى"، كتاب وصف مصر، في ٢٤ مجلدا (باريس: مطبعة بانكوش، ١٨٢٠ - ١٨٣٠).

١١-لوحة تتصدر كتاب وصف مصر.

١٢-ميناء بولاق النهري، القاهرة، من كتاب وصف مصر.

١٣-مقبرة أوزيمانديس، طيبة، من كتاب وصف مصر.

١٤-ميدان الأزبكية، من كتاب وصف مصر.

١٥-معمل تقطير، من كتاب وصف مصر.

١٦-محل لإعداد البن، من كتاب وصف مصر.

١٧-امرأة من عامة الناس، من كتاب وصف مصر.

١٨-العالمات أو راقصات الاستعراض، من كتاب وصف مصر.

١٩-الشيخ السادات، من كتاب وصف مصر.

٢٠-مراد بك، من كتاب وصف مصر.

مقدمة وشكر

يتناول هذا الكتاب المواجهة السياسية والعسكرية والثقافية التي وقعت بين الفرنسيين والمصريين في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، ويعتمد في المقام الأول على قراءة موسعة لمذكرات وخطابات خلفها ورائهم شهود عيان على ذلك العصر، وبخاصة ما سجّله "بونابرت" نفسه. وعلى الرغم من أنّ شذرات من سيرة "بونابرت" في مصر تدخل في نسيج هذا العمل، فإنّ رقعته تتسع لما هو أكثر من ذلك، إذ يبذل مؤلفه عناية كبيرة لكتابات كوكبة من الضباط ممن أحاطوا بالقائد الأعلى للقوات الفرنسية، فضلاً عن خصومه ومعاونيه من العثمانيين والمصريين. ويعد العمل أول تناول واسع يحرره متخصصٌ في شئون الشرق الأوسط يسلط الضوء على المصادر الفرنسية من منظور الوقائع التي جرت على أرض مصر. كما يهتم العمل، على نحو يفوق ما سبقه، بما خاضه الفرنسيون من صراعات في إقليم الدلتا بمصر، وبما واجهه الاحتلال من مقاومة من جانب العثمانيين والمصريين والمسلمين بشكل عام، وذلك في سياق ثقافي ومؤسسي في إطار الشرق الأوسط؛ كذلك يهتم بتفاعل الأفكار التي صدرت عن الفترة الثورية من تاريخ فرنسا مع أسلوب حياة المصريين والعثمانيين. ويهدف الكتاب إلى تقديم سرد حميم لما يُدعى بتاريخ أساليب التفكير في عرف "مدرسة الحوليات الفرنسية". وعلى الرغم من أنّ كتباً عديدة قد صدرت في فرنسا تتناول "بونابرت" في مصر، فإنّ آخر كتاب مفصّل كُتِبَ بالإنجليزية كان قد صدر في عام ١٩٦٢(*)

(*) كتاب بونابرت في مصر تأليف كريستوفر هيروالد. (المراجع)

ولم يكن مؤلفه متخصصًا في الشئون العربية. أمـــا إذا التفتنـــا إلـــى المطبوعـــات الفرنسية فإننـــا نجد أنَّ عددًا جد قليل من المؤلفين عالجوا تلك القضايا ذات الصلة بالحوار والمناظرة الثـــقافيين تفصيلاً؛ بـــل إنَّ بعـــضهم تجاهـــل بالفعـــل وجـــود المصريين في مصر! ويطرح مؤلف هذا الكتاب أسئلة منها كيف كوَّن كـــل مـــن الفرنسيين والمصريين رؤيته عن الآخر، وكيف ارتسمت صورة كل فريق في ذهن الآخر. والكتاب على ذلك لا يتصدى لما يُعرف بصدام الحضارات، ولكنـــه يقـــوم على أساس أنَّ حضارة البحر المتوسط، في سياقها الواسع، ظلت حضارة واحـــدة منذ زمن بعيد، وأنَّ المصادمات تنتج عن الصراع على الـــسلطة لا الـــصدام بـــين الحضارات في حين تتشكل تلك الحضارات في كثير من الأحيان وتتبدل من خلال الصراع والتفاعل. ويمضي مؤلف هذا الكتاب في روايته للأحداث إلى قبيل مسيرة "بونابرت" في حملته على سوريا، إذ إنَّ تلك الشهور الثمانية الأولى تحوي القضايا الرئيسية الجديرة بالاهتمام في سياق التفاعل العسكري والثقافي في مصر؛ كـــذلك فإنَّ سوريا تحتل سياقـــًا محليًا مغايرًا إلى حد بعيد.

ويبدو للقارئ أنَّ عنوان الكتاب يحوي إشارتين لا تتفقان والحقبة التاريخيـــة التي يعالجها: ففي زمن الغزو الفرنسي لمصر لم يكن "بونابرت" قـــد صـــار بعـــد "نابليون الأول"، كما كان معاصروه يتداولون فيما بينهم مـــسمى "الـــشرق" ولـــيس "الشرق الأوسط". ومع ذلك فالعنوان يدعم رؤية الكتاب من حيث قيامه على تلـــك المذكرات والتصورات التي قدم مؤلفه مصر مـــن خلالهـــا، ومنهـــا مـــا ســـطره "بونابرت" نفسه بعد أن صار إمبراطورًا. أما فيما يتصل بالعنوان الفرعي (غـــزو الشرق الأوسط) فإنَّ مؤلف هذا الكتاب آثر أنْ يُعفي قـــرَّاءَهُ المعاصرين من الخلط والاضطراب اللذين قد يثيرهما عنوانٌ يشير إلى غزو الشرق، مما ينـــتقص مـــن الفائدة التي يجنيها ما رمى إليه من مطابقة للواقع. ولذلك فإنَّ مـــصطلح "الـــشرق

الأوسط" يظهر في سطور الكتاب في سياق الأسلوب الذي يقوم على إنجليزية القرن الحادى والعشرين.

وكان أستاذي ومرشدي العلمي مارسدن جونز **Marsden Jones** قد اقترح عليَّ هذا المشروع منذ عدة سنوات. وقد حالفني الحظ إلى حد بعيد حين أصدر فيليب دي ميلينايرPhilippe de Meulenaere دراسته البيليوجرافية القيِّمة لشهادات شهود العيان في عام ١٩٩٣، وكذلك حين صدرت في العقود الأخيرة عدة مذكرات ثرية لفرنسيين منهم فرانسوا برنوييه **François Bernoyer** وجوزيف – ماري مواريه **Joseph – Marie Moiret**، وشارل – أنطوان موران **Charles – Antoine Morand**. كذلك كان الحظ حليفي حين نشرت ترجمات لمواد عربية ذات صله في العقود الأخيرة أيضًا بما فيها أقدم تاريخ كتبه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي (ربما بالاشتراك مع حسن العطار)، وتاريخ عزت حسن الدرندلي وعبد الله الشرقاوي، ورسائل من اليمن حررت في العصر ذاته. وقد منحت الترجمات الإنجليزية، التي قام بها شمويل موريه **ShmuelMoreh** وفريق من الدارسين، تحت إشراف توماس فيليب **Thomas Philipp** وموشيه برلمان **Moshe Perlman** أكبر فائدة لهذا العمل. غير أنَّ مؤلف هذا الكتاب درج على الرجوع إلى النص العربي وفضَّل في بعض الأحيان أن ينقل عنه مباشرة؛ كذلك استخدم كتاب الجبرتي "مظهر التقديس" الذي لم يترجم بعد، وهو كتاب يحوي مادة علمية وقدرًا من الأمور المهمة التي شاء الجبرتي أن يسكت عنها مما لا يتوافر في أعمال أخرى.

***

وقد شرفت بدراسة التاريخ المصري الحديث في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس على يدي عفاف لطفي السيد مارسو. ويدين كل من يعمل في هذا التخصص لأندريه ريمون **André Raymond** الذي طور على نحو ثوري فهمنا للقاهرة في القرن الثامن عشر. كذلك ألقى هنري لورانس**Henry Laurens** الضوء على الحملة الفرنسية على مصر في كتبه ومقالاته وما حققه من نصوص أصلية. كما تعلمت من أصدقائي وزملائي: كينيث كونو **Kenneth Cuno**، وجين هاثاواي **Jane Hathaway**، وجابرييل بيتربرج **Gabriel Piterburg**، وبيتر جران **Peter Gran**، ودانيال كريسيليوس **Daniel Crecelius**، من خلال المناقشات التي دارت بيننا وما ألفوه من أعمال عن حكومة المماليك في العهد العثماني بمصر. كما أدين إلى كتاب الاستشراق لمؤلفه إدوارد سعيد بكثير من النظرات الكاشفة في كتابي هذا. وأدين بالفضل أيضًا إلى آلسندرا باستجلي **Alessandra Bastagli**، محررة هذا الكتاب بشركة بالجريف ماكميلان، لإصرارها الكريم على انتزاع هذا الكتاب من قلمي انتزاعًا، كما أشكرها لما أبدته من ملاحظات ذكية تخص إستراتيجيات الكتابة، وتعليقاتها التي دونتها بقلمها الأزرق الحكيم وتعليقاتها التي أثرت الكتاب. وأودُّ أن أعبر عن عرفاني بجميل آلان برادشو **Alan Bradshaw**، وجودي هوكنسميث **Jodie Hockensmith**، وإرين إيجو **Erin Igoe** بدار نشر بالجريف ماكميلان لما قدموه لي من مساعدة. كذلك أتوجه بالشكر الجزيل إلى ديفيد برفين **David Pervin** لرؤيته لما في هذا المشروع من بشائر النجاح. كذلك أشكر بريتني بلوم **Brettne Bloom**، وستيف واسرمان **Steve Wasserman** على الرغم من مشاركتهما في وقت متأخر من المشروع، فهما يعملان بشركة كنيريم ووليامز التي تعنى بشئون النشر الخاصة بي، وقد قدما لي كل دعم وتشجيع مما يجعلني

مدينـًا لهم بالشكر. كما كان لحماسة ولدي آرمان، وتشجيع زوجتي شـاهِن ومـا أبدته من صبر خيرَ عون لي للانتهاء من هذا المشروع.

وقد قدَّم قسم التاريخ وكلية الآداب والعلوم والفنون بجامعة ميتشيجان التمويل اللازم لرحلتي إلى باريس لمراجعة المادة العلمية بالمكتبة الوطنية بباريس، وذلـك في فصل دراسي أمضيته في البحث في حين احتفظت بوظيفتي بـصفتي أسـتاذًا بجامعة هدسون، وأنا لصنيعهما من الشاكرين. كذلك أود أن أتقدم بخالص الـشكر لزملائي الكرام الذين سمحوا لي بمناقشة أفكاري في لقاءات رسمية وفـي قاعـات المؤتمرات، بما في ذلك المؤتمر الخاص بمركز البحوث الأمريكية بالقـاهرة فـي عام ١٩٩٦، ومؤتمر قسم التاريخ بجامعة ولاية أوريجون (محاضـرة كارسـون، خريف ١٩٩٦)، ومؤتمر قسم التاريخ ومركز فون جرونباوم لدراسـات الـشرقين الأدنى والأوسط في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس (١٩٩٧، ٢٠٠٠). ومـؤتمر جمعية دراسات الشرق الأوسط (١٩٩٩). وجدير بالذكر أنـني أفدت فـي كتـابي هذا من مادة نشرت من قبل في صورة أخرى في مقالة لي بعنـوان: "صـوفيون مخبولون ومحظيات حضريات" المنشور في كتاب من تحرير إيرين إيـه بيرمـان **Irene A. Bierman** الذي صدر عن مؤتمر جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس الذي انعقد في عام ١٩٩٧، ولذا فإنني أتوجه لدار نشر جارنيت بالشكر الجزيل.(*)

كما أدين بالفضل لقسم إعارة الكتب وقسم استعارة الكتب عبـر المكتبـات بمكتبة بحوث هاتشر بجامعة ميتشيجان، فقد قدما لي من المساعدة ما أسـهم فـي إخراج هذا الكتاب، وكذلك أتوجه بالشكر إلى المكتبات التي أعارتني ما احتجته من كتب لما اتسمت به من كرم بالغ. وقد تمكنت في وقت متأخر من عملي أن أسـتفيد

(*)"Sufis and Civic Courtesans," in Irene A. Bierman, ed., Napoleon in Egypt (London: Ithaca Press, 2003).

من خدمة الكتب الخاصة بجوجل **Google Books** التي أصبحت متاحة مما أفاد عملي. أما زميلاي جوشوا كول **Joshua Cole**، وجون شاي **John Shy**، فقد كانا كريمين فيما أبداه من ملاحظات على مخطوط هذا الكتاب. كذلك أبدت لين هنت **Lynn Hunt** ملاحظات على بعض ما جاء بالكتاب من خلال ما قدمته في صورة مختلفة في أحد المؤتمرات. أما ديفيد بين **David Bien** فقد أبدى كرمًا كبيرًا بمناقشته المشروع معي وتقديم المشورة الصائبة. إنَّهم جميعًا أصحاب الفضل فيما يحتويه هذا العمل من فضائل، أما المثالب فلا ألومن إلا نفسي عليها. أذكر أيضًا أصدقائي في فرنسا حيث أمضيت سنوات كثيرة من طفولتي وصدر شبابي، ومصر حيث عشت فيها ثلاث سنوات، فقد قدموا لي من وقتهم وضيافتهم الشيء الكثير، وزودوني بخبرات ما كان للكتاب من دونها أن يسبر أغوارًا أو يكشف آفاقًا.

الفصل الأول

عبقرية الحرية

لم يسلمْ حتى صغار الضباط، ومنهم الكابتن "جوزيف-ماري مواريه" **Joseph-Marie Moiret**، من الشعور بالحيرة إزاء المهمة التي أُحيطت بأعلى درجات الكتمان؛ فغاب عنهم الدافع وراء حشد عشرين ألفًا من الجنود وآلافٍ من البحارة في ميناء "طولون" **Toulon** الذي يقع في الجنوب الفرنسي في شهر "مايو" من عام ١٧٩٨. وكان الجنود، الذين سُيِّروا من الشمال إلى الجنوب، قد رأوا ما لم يألفوا في رحلتهم إلى الميناء على طريق يمتد عبر سفوح التلال السامقة التي تكسوها الخضرة، بدءًا من بساتين ممتدة زرعت بأشجار الزيتون، إلى أشجار البرتقال أو النخيل المتناثرة هنا وهناك. وكانت أسطح بيوت "طولون" ذات اللون الأحمر الأرجواني تميل ميلاً خفيفًا ناحية الميناء، في حين اكتظت أزقتها الضيقة المُلتفَّة والقذرة بالضباط والجنود في زي الثورة الفرنسية العسكري، فظهروا في ستراتهم الزرقاء وبنطالاتهم البيضاء وأغطية السيقان السوداء التي طالت ركبهم، ومنهم من كان يسير مزهوًا بالشارات العسكرية التي تضرب إلى الخضرة والصفرة، وبالأكمام والدلايات الحمراء. وما لبث الجنود والبحارة أن ضاعفوا العدد المعتاد لسكان المدينة. وكانت أبراج كنيسة سان لويس تكشف غابة من الأشرعة البيضاء في الميناء، تحت سماء ملبَّدة بالغيوم. وامتدت على سطح البحر قوة بحرية ضاربة لأميال عديدة تضم ثلاث عشرة سفينة حربية، وسبع عشرة فرقاطة، وثلاثين مركبًا مزدوج الصاري، وما يقرب من مائتي وخمسين زورقًا حربيًا خفيفًا، وزوارق مسلَّحة، وزوارق تجديف، وسفن تجارية. تمايلت القطع

الحربية على ساحل المتوسط المتعرج في ربيع ذلك العام تنتظر استكمال حشد الجنود على ساحل "طولون".

كان الكابتن "مواريه" رجلاً يتسم بدرجة من الرقي، وكان مسقط رأسه بلدةً صغيرة تقع إلى الشمال من "طولون"، وينحدر أصله، من ناحية الأم، من سلسلة من النبلاء المحليين؛ مما ألحق به قدرًا، وإن كان يسيرًا، من العار في فرنسا في عهد الثورة. وكان قد درس اللاتينية والعلوم الإنسانية على يدي مطران الأبرشية المجاورة لبلدته، وانتظم في محاضرات مدرسة الدومينيكان في "ليون" **Lyons** لبعض الوقت ثم انقطع عن التعليم وانخرط في سلك الجندية. وقد ابتعد "مواريه" مثله مثل كثير من معاصريه عن المؤسسة الكنسية، وانجذب إلى تبني رؤية عقلانية للعالم تخرج من بوتقة فلسفة التنوير التي دعا إليها مفكرون من أمثال فرانسوا - ماري آرويه دي فولتير، **François-Marie Arouet de Voltaire**، وجان جاك روسو **Jean- Jacques Rousseau**، وتوماس باين **Thomas Paine**، غير أنَّ "مواريه" لم ينبذ عقيدته الدينية. ولم يكن يخطر على بال أسلافه ما تردد من أفكار علمية في نهايات القرن الثامن عشر، وما آل إليه حال الكنيسة الكاثوليكية من فقدان لسلطتها ومكانتها، وإحلال سيادة الشعب محل الملكية، غير أنَّه عاش مع معاصريه هذه التطورات وتوافق معها.

وقد جُنِّد في فيلق آكويتاين **Aquitaine Regiment** وتدرج في الترقية إلى رتبة رقيب أول، ثم إلى رتبة ضابط في إقليم "سافوي" الذي يقع على الحدود الجبلية بين فرنسا وإيطاليا كما نعرفهما اليوم، وذلك عندما انتزعت الجمهورية الفرنسية آنذاك تلك الأرض من ملك سردينيا في عام ١٧٩٢. وقلما بلغ ما دُرِج على تسميتهم بالضباط المحظوظين رتبةً تعلو رتبة الكابتن، غير أن هناك رواية تقول إنَّ "مواريه" كان عازفًا عن ترك أصدقائه المقربين في وحدته ليحصل على

فرصة الترقي؛ فلم يكن يقود آلة حرب صمَّاء وإنَّما رجالاً دائمي التنقل تربطهم شبكة اجتماعية على قدر من الكثافة والتعقيد. وكان لواء المشاة الخامس والسبعون الذي التحق به قد أحرز لتوه لقب "اللواء الذي لا يقهر" لما أبداه من قدرة قتالية فائقة في مواجهة النمساويين في إيطاليا في موقعة "لودي" **Lodi** وغيرها. وقد تقرر تشكيل أنصاف اللواءات تلك في وقت مبكر من تاريخ الثورة بغرض استيعاب الأعداد المتدفقة من المتطوعين الذين لم يتلقوا أي تدريب؛ ولذلك فإنّ نصف اللواء جمع بين كتيبة من الجنود من ذوي الخبرة وكتيبة أخرى من الجنود الجدد.[١] ويتألف اللواء من ثلاثة آلاف رجل، غير أنّ كثيرًا من الوحدات التي حُشدت في "طولون" لم يزد عدد الرجال بها على نصف هذا العدد لأسباب يتعلق بعضها بفرار الجنود الذين لم يتلقوا رواتبهم منذ أمد بعيد، أو بعزوف بعضهم عن الإبحار لخوض مغامرة يكتنفها الغموض.

كان الجنرال نابليون بونابرت كورسيكيًا قَدِمَ إلى فرنسا للدراسة في الأكاديمية العسكرية الملكية، وقد أظهر تفوقًا ملحوظًا في الرياضيات ونشر المدافع وتزويدها بالذخائر الكافية والتجهيزات اللازمة للمعركة وتحصينها تحصينا جيدا، وكان قد عُهد إليه بقيادة "جيش إنجلترا" بعد انتصاراته الباهرة ضد النمساويين في شمال إيطاليا. وقد حافظ نابليون وحكومة الإدارة الفرنسية على السريَّة المطلقة فيما يتصل بوجهة تلك الحملة، بل إنَّ تلك المعلومات حُجِبتْ عن وزير الحربية: بارتيليمي شيرير **Barthélemy Schérer** نفسه![٢] أما مواريه وزملاؤه من صغار الضباط، وقد شملهم الجهل بالأمر، فقد دارت في رءوسهم التكهنات حول الغرض من هذه الحملة: فهل تسير على نهج غزوات النورمان أو الغزوة التي اضطلع بها القديس لويس **Saint Louis** في أثناء الحملة الصليبية الخامسة؟ وكان النورمان قد غزوا إنجلترا منطلقين من الساحل الفرنسي في عام

١٠٦٦ للميلاد، بينما شرع القديس لويس في حملته لإخضاع الشرق الأدنى. وكان الخبر قد شاع بأنَّ التجهيزات تُعَدُّ لهجوم جمهوري واقع في نهاية الأمر على بريطانيا الملكية، وأنَّ الجيش الذي يُحشد استُمِد بعضه من "جيش إنجلترا" الفرنسي. وعلى الرغم من أن إطلاق هجمة ضد بريطانيا من ساحل المتوسط لم يكن أمرًا معقولاً من وجهة النظر اللوجستيّة، فلم يكن في الإمكان استبعاد الأمر بوصفه قائمًا على إستراتيجية المفاجأة، وبخاصة إذا اقترن بعمليات تمهيدية في إسبانيا.

وكانت ثورة عام ١٧٨٩ التي أعلت من شأن سيادة الشعب قد أثارت معظم ملوك أوروبا ضد الفرنسيين وجماعات أخرى أيضًا. وقد أنزلت فرنسا الثورية الهزيمة بمعظم خصومها في الحروب التي أعقبت إعدام ملك فرنسا لويس السادس عشر **Louis XVI** وملكتها ماري أنتوانيت **Marie Antoinette**. وتمثل الرد البريطاني بشن حربٍ بحرية لا هوادة فيها وبمحاولة أصابت بعض النجاح لحصار بعض الموانئ التي تحتلها فرنسا على سواحل أوروبا. وكان الكابتن جان-أونوريه هوراس ساي **Jean-Honoré Horace Say**، وهو مهندس ينحدر من أسرة ذات شأن من الهوجونوت(*) **Huguenot** وأخو الاقتصادي البارز جان-باتيست ساي **Jean-Baptiste Say**، من بين من تقدموا لأداء الواجب الوطني في تلك الأيام في "طولون". وفي مذكرات جاءت خالية من اسم مؤلفها، تَمكنَ المؤرخون من نسبتها إليه، يسجل ذكرياته ويقول إنَّ الجمهورية الفرنسية اتجهت إرادتها في نهاية الأمر إلى الانتقام من لندن لما حلَّ ببحرية فرنسا الوليدة من هزائم ومصاعب، ولما تكلفته الوزارة البريطانية لسنوات عديدة من تضييق الخناق على التوسع، الذي لا مردَّ له، للجمهورية الجديدة التي ستُلحق الهزيمة ببريطانيا إن عاجلاً أو آجلاً.[٣] حدا الأمل بعض الضباط في أن يتجه الأسطول غربًا فيعبر مضيق جبل طارق

(*) ونطقها السليم بالفرنسية: هوجونوه.

ويتجه صوب بريطانيا مباشرة. وشاع الاعتقاد بأن الإطاحة بأسطول الملك جورج الثالث George III من البحر المتوسط، مثلما أطاحت مدفعية بونابرت بـالاحتلال البريطاني قصير الأجل لـ "طولون" ذاتها في عام ١٧٩٣، قد يمثل خطوة أولى لغزو بريطانيا. ومن أجل تحقيق هذا الهدف الإستراتيجي فإنّ استهداف جزر سردينيا ومالطة، بل وصقلية أيضًا، يعد أمرًا معقولاً فهي جزر تصلح أنْ تكون اللبنات الأولى لإمبراطورية فرنسية في البحر المتوسط.

ظهر من تكهن بأن تلك القوات ستضرب حلقة الوصل البريطانية بالهند بشن هجوم على مصر. وكانت السفن التي تحمل البضائع والجنود البريطانيين المتجهين إلى كلكتا في أغلب الأحيان تبحر حينئذ حول إفريقيا ورأس الرجاء الصالح. أما حين كان البريطانيون يرغبون في إرسال برقيات عاجلة فقد كانوا يختصرون عشرات الأميال من الرحلة إلى الهند ويعهدون بها إلى مبعوثين يحملونها عبر المتوسط إلى الإسكندرية، ومنها يتجهون بحذاء النيل إلى القاهرة ثم يتخذون الطريق البري إلى البحر الأحمر، حيث يستقلون سفنًا تبحر بهم بيسرٍ إلى ساحل اليمن، الذي يستمد ثراءه من تجارة البن، إلى بحر العرب، ومنه يبحرون على صفحة المحيط الهندي الهادئة. ولم يكن لهذا الطريق المختصر قيمة تجارية بعد، إذ إنّ السفن البخارية لم تبدأ في شق عبابه إلا بعد عدة عقود منْ الزمن. ومع ذلك كان للطريق أهمية إستراتيجية بوصفه حلقة الوصل مع جوهرة التاج البريطاني. وكان ظن عدد قليل من الضباط قد اتجه إلى احتمال أن تبحر الحملة إلى مصر، غير أنّ "مواريه" وجد قدرًا من اليقين يدعم هذا الرأي لما لمسه من حشد أعداد من المثقفين المدنيين، والعلماء، والفنانين، الذين أُلحقوا بالحملة على نحو شابه الغموض. تشكلت لجنة العلوم والفنون من ١٥١ فردًا، منهم ٨٤ يتمتعون بمؤهلات

فنية، و ١٠ من الأطباء، يشكلون جميعهم أكبر مجموعة من الخبراء انضمت إلى حملة فرنسية عسكرية.(٤)

غادر بونابرت ذو الثمانية والعشرين ربيعًا باريس سرًا في صبيحة يوم ٥ مايو تصحبه زوجته الفاتنة جوزفين **Josephine**. وكان بونابرت، وقد اتخذ قراره بخوض غمار مغامرة تحفها المخاطر، يواجه أزمة شخصية موجعة، فقد كان يفكر جديًا في أن يصطحب جوزفين معه في تلك الحملة، وقد سبق أن واجهها في الشتاء الماضي بإشاعات تتناول سيرتها بالقيل والقال، وقد أنكرت كل ما نُسِب إليها، فصدقها لأنـه أراد ذلك، إلا أنَّ الشائعات كانت تستند إلى وقائع ثابتة. وربما لم يركن إلى الثقة بها بحيث يتركها وراءه وهو غائب عنها، غير أنه لم يكن يدور بخلده حينئذ أنَّ جوزفين كانت قد اختصرت عدد عشاقها إلى عشيق واحد في المرة الواحدة. وقد أصر أن تصحبه إلى الميناء كي يتيح لنفسه على الأقل فرصة كي يؤجل قرارًا صعبًا بشأن اصطحابه لها في الحملة.

وكان الجنرال الشاب الذي تناقلت الأخبار ما اتصف به من طباع متقلبة انتهازية يمر بلحظة نادرة في عمره قوامها الحب الحقيقي المخلص والعاطفة الصادقة لزوجته التي اقترن بها منذ عامين. شَبَّت جوزفين عن الطوق في جزر المارتينيك في البحر الكاريبي، وكان أبوها، "تاشر دي لا باجيري" **Tascher de la Pagerie**، ينتمي إلى الدرجات الدنيا من النبلاء الذين لم يحالفهم الحظ فإذا به يكسب قوته بالعمل في ضياع الآخرين. أما هي فكان اسمها في الأصل "روز" **Rose**، وقد انتقلت إلى فرنسا وتزوجت من ضابط ثري يُدعى "آلكسندر دي بوهارنايه" **Alexandre de Beauharnais**، وافتتحت صالونًا أدبيًا، غير أنها شهدت بعد قيام الثورة الفرنسية إعدام زوجها الذي ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، والذي شارك في معركة خاسرة إلى جانب البروسيين وعدّته الثورة عدوًا لها. وما

لبث اليعاقبة أن ألقوا بها في السجن، وحددوا لها موعدًا مع المقصلة إلا أن أحد عشاقها ممن يتمتعون بصلات جيدة مع المسئولين أنقذ حياتها. تقلبت بعد ذلك في فراش عدد من العشاق كان أحدهم "بول بارا" Paul Barras السياسي الناشئ الذي صار فيما بعد عضوًا في حكومة الإدارة الفرنسية. ولما ضاق بإسرافها الشديد قدمها إلى بونابرت، وهو الشاب الذي يحمل بين جنباته قلبًا ساذجًا ينبض بالعاطفة. أطلق عليها بونابرت اسم "جوزفين" وجعل يخطب ودها ثم تزوجها. وفي إحدى رسائله المبكرة إلى "مدام بوهارنايه"، وهي رسالة تحفل بأخطاء إملائية تشي بأصوله الكورسيكية، كتب يقول "إنني أستيقظ من نومي وقد ملكت علي عقلي وقلبي، إن صورتك والذكرى المسكرة لليلة أمس تحرمني الراحة".(٥) وفي عام ١٧٩٦ مهد له "بارا" الطريق كي يتقلد منصب القائد الأعلى للجيش الفرنسي في حملته في شمال إيطاليا التي كانت تقع تحت حكم النمساويين، وهي الحملة التي أبعدته عن زوجته بعيد زواجه منها معظم العامين التاليين. وكان يُكثر من الكتابة إليها ويبثها مكنون صدره، غير أنها نادرًا ما كانت ترد على تلك الرسائل. وفي أثناء الحملة كتب إليها من بولونيا محتجًا ومعاتبًا، "تقولين إنك تعانين من الحزن والمرض ولا تكتبين إليّ أبدًا... هل ضاع حبك الذي كنت تحملينه لحبيبك؟ ... لربما عقدتُ الصلحَ مع بابا روما كي أهرعَ إليك في القريب العاجل". وترامت إلى أذنه أخبار خيانتها له وفي بادئ الأمر كان يثور ثورة عارمة ثم ما لبث أن تجاهل تلك الشائعات.

ولم يَبْدُ أن أيًا منهما يرغب في فترة غياب طويلة ثانية، ففي "طولون" عبَّرتْ "جوزفين" عن ثقتها في قدرتها على تحمل مشاق البلاد الغريبة البعيدة؛ فبما أنَّ نشأتها الأولى كانت في جزر المارتينيك فلن تجد فيما تصادفه ما لم تعتده من قبل. انتظرا معًا في الميناء هدوء العاصفة، وأثناء ذلك جال بونابرت سطح سفينة

القيادة "لوريان" The Orient مُرَحِّبًا بالجنرالات والعلماء الذين شاركوا في الحملة. وعندما كانا يخلوان أحدهما إلى الآخر، كانا يناقشان بجد واهتمام ما إذا كانت "جوزفين" ستصحبه في حملته، ويطلقان العنان لعاطفة مشبوبة تقطع حبل تلك المشاورات. وقد حدث أن اقتحم الجنرال "ألكسندر ديما" Alexandre Dumas خلوتهما ذات مرة فوجدهما يتجادلان ورأى "جوزفين" عارية في الفراش تبكي تَردد زوجها. وفي نهاية المطاف قرر نابليون أن يؤجل قراره فأرسلها إلى عيون بلومبير Plombière ذات المياه الشافية تلك التي تقع في الجبال في الجنوب الشرقي لـ "باريس" Paris، وقال إنَّه قد يستدعيها حين يؤمِّن انتصاره الجديد وخصوصًا أن الحملة تكتنفها الأخطار. غير أنَّ أخطارًا من نوع آخر كانت تكمن في ترك "جوزفين" الشَّبِقة وحدها في فرنسا.

وفي التاسع من مايو عام ١٧٩٨ استعرض نابليون عقب وصوله جندَ الجمهورية وألقى كلمة ليبث فيهم روح المغامرة أغراهم فيها بوعود امتلاك الأرض عند عودتهم. وكان وعده هذا الذي نُشِرَ في الصحيفة الرسمية: "المونيتير" Moniteur لا يقع في حدود صلاحياته، فلم يكن، باعتباره جنرالاً، مخوَّلاً للتشريع فيما يتصل بحقوق المدنيين في ملكية الأراضي؛ مما اضطره عندما وجد نفسه في مواجهة عاصفة مع رؤسائه أن يدَّعي أنَّ نص كلماته قد لحقه التحريف. وقد استبدلت الهيئة العسكرية بيانًا إضافيًا بكلمته، نُشر في "المونيتير" بوصفه النص الأصلي للكلمة التي ألقاها.(٦) وقد أصدر نابليون أمرًا بتوزيع البيان على نطاق واسع بل جعله إعلانًا معلَّقًا لجنده. وفي تلك الكلمة، شبَّه نابليون "جيش إنجلترا" الفرنسي بجند الإمبراطورية الرومانية الذين قاتلوا قرطاج Carthage المستبدة في الشمال الإفريقي، وأرعد صائحًا "إنَّ عبقرية الحرية التي نصَّبت الجمهورية منذ مولدها حكمًا في أوروبا تنطلق اليوم إلى بلاد بعيدة".

وبثت كلمات نابليون الثقة في نفوس الجنود. ويؤكد لنا "مواريه" أنَّ الجيش حافظ على ثباته وثقته بقدراته على تحقيق أهدافه أيًا كانت. وهناك آخرون أيَّدوا ما ذهب إليه "مواريه" من تقييم لسحر الشخصية التي كان يتمتع بها نابليون، ومنهم "ميشيل دي نييلو سارجي" **Michel de Niello Sargy** أحد صغار الضباط في "طولون" إذ كتب يقول: "عندما اندفعت للمشاركة في تلك الحملة التي تكتنفها المخاطر لم تتوفر لدي أدنى فكرة عن طبيعة الصراع الذي يُعَدُّ له، ولم أعرف عن وجهتها ولو النذر اليسير، غير أنَّني كنت مثل غيري من الشبان مسحورًا بما لقائدنا من صيت وما لأسلحتنا من قوة ضاربة. كانت حمى الحماسة متسلطة علينا جميعًا فيما يشبه القوة القاهرة". لقد ترك سحر شخصية "بونابرت" وحماسته أثرًا عميقًا في النفوس، مع ما اتصف به خطابه من لكنة إيطالية وما تخلله من أغلاط نحوية. إنَّ حملة "بونابرت" على شمال إيطاليا في عامي ١٧٩٦ و١٧٩٧ حققت نجاحًا يفوق الخيال، وأسست عقيدة "عبادة البطل" بين كثير من الضباط والجنود. وكان فيما قاله نابليون بعد أن أصبح إمبراطورًا: "إن المؤسسة العسكرية منظمة سرية وأنا كاهنها الأعظم".(٧)

أشعلت الثورة الفرنسية وإيديولوجية الجمهورية في بواكيرها مشاعرَ الحماسة في نفوس الضباط والجنود الفرنسيين. وكان الفرنسيون في تلك الآونة يستخدمون كلمات: الأمة والوطن **patrie** والدستور والقانون والإحياء والفضيلة؛ لوصف الانتساب إلى المجتمع الثوري. ويرى أحد مؤرخي تلك الفترة البارزين أنَّ الثوّار علقوا أهمية بالغة على استخدام طقسي للكلمات؛ لأنَّهم كانوا يسعون لإيجاد بديل لسحر النظام الملكي وجاذبيته.(٨) اعتمدت البلاغة الثورية على ترديد كلمة "الحرية" عقب كل قول، فترى الجنود يهتفون بحياة الجمهورية الخالدة في استجابة منهم لخطاب "بونابرت" الذي ألقاه في ٩ مايو وهو الخطاب الذي اعتمد على تلك

المصطلحات الأساسية نفسها. وفي الليلة ذاتها أصدرت السلطات الأوامر بإضاءة بناية "الكوميون" Commune (المجلس البلدي الثوري في "طولون") وغرس الجنود أمام البناية شجرة مهداة إلى "الحرية" ونقشوا على لوحة عبارة: "تترعرع الحرية يومًا بعد يوم".[٩] وكان مؤيدو الثورة يغرسون أشجار الحرية في شهر مايو من كل عام وكثيرًا ما زينوها بألوان العلم الفرنسي. وقد قصدت السلطات أن يكون غرس شجرة الحرية في طولون طقسًا لتعزيز التضامن بين الجنود. أوضح "نابليون" في بيانه أن الجيش الجمهوري هو تجسيد لفضيلة الحرية، وأنَّ الوقت قد حان لتصديرها إلى خارج الحدود، وبذلك يتحمل الجيش مسئولية غرس أشجار الحرية على أوسع نطاق.

وكان الطقس لا يزال معاكسًا، فكتب "بونابرت" إلى القيادة السياسية في باريس يقول: "إنَّنا أمضينا ثلاثة أيام في مرسانا أيها المواطنون المديرون، وقد أعددنا العُدَّة للإبحار، غير أن الريح تهب عنيفة وغير مواتية".[١٠] أصدر القائد الأعلى أوامره بشأن توقيع العقاب على عدد غير قليل من الجنود والبحارة الذين فروا في اللحظات الأخيرة ممتنعين عن المشاركة في رحلة إلى المجهول، ومضحين بفرصة كي "يُعيدوا للأسطول الفرنسي مجده". وربما فرَّ بعضهم لنقص الغذاء، فقد تذمر تاجرٌ يُدعى جرانجان Grandjean فيما بعد من أنَّ الجوع قد عضه بنابه طوال يومين أمضاهما في استيفاء بعض الأوراق الرسمية في "طولون" فبدا له اليومان قرنين من الزمان، إذ إن تدفق القادمين الجدد وتدافعهم جعل الحصول على كسرة خبز أمرًا تحوطه المصاعب، وإن وجد الخبز فإنَّه يُباع بأسعار خيالية. وفي نهاية المطاف، هدأت رياح "المسترال" "mistral" في الثامن عشر من مايو.

ويتذكر أحد البحارة، وكان شابًا في مقتبل العمر حينئذ، ما خطه في مذكراته كما يلي:

وفي أحد الأيام في نهاية ذلك الشهر اعتلى القائد الأعلى "بونابرت" سطح "لوريان" تصحبه كوكبة من مستشاريه العسكريين البارزين ثم انتقلوا بعدها ليتفقدوا جميع السفن الراسية على الخط نفسه. وطوال ذلك اليوم أقام الأسطول كله الاحتفالات وأطلقت المدفعية تحية من واحدة وعشرين طلقة تردد صداها في الميناء. ما أروعه من منظر! وما إن وصلنا إلى سفينتنا التي تُدعى "ديبوا" **Dubois** حتى وقعت عيناي على الجنرال "بونابرت" لأول مرة، فَسَرَتْ في جسدي رعدة تحت وطأة ملامحه الجادة الصارمة، ومع قِصَر قامته بدا وكأن هالة المجد تحيط به مما جعله يعظم كثيرًا في تقديري.

واستقل الجنود ظهر سفنهم ملؤهم النشاط والثقة في منظر ذكره كثير ممن شاهدوه مقارنًا بالعرسان الذين ينطلقون بحماسة إلى حفل زفافهم. ويسجل المدفعجي "لوي بريكار" **Louis Bricard** الذي أبحر من "مارسيليا" **Marseilles** لا من "طولون" شعور "السعادة العُلويَّة" التي سادتهم، غير أنَّه أُثبت أيضًا في مذكراته أن حبيباتهم لم تشاركهم تلك البهجة بل تعالت شكواهن ودموعهن منهمرة لإرسال زهرة شباب فرنسا بعيدًا عن الوطن وإلى المجهول، وسادهن خوف من ألا يعودوا إلى فرنسا ثانية. (١١)

أما الضابط المسئول عن التموين والزي العسكري ويُدعى فرانسوا برنوييه **François Bernoyer** وهو جمهوري صميم يحمل إخلاصًا شديدًا لفلسفة التنوير العقلانية، فقد علَّق على الروح الاحتفالية التي سادت الجنود، وكتب أنَّ دوي طلقات التحية من المدفعية صاحب إبحار العمارة البحرية في التاسع عشر من

مايو، وفي البداية سلك الأسطول مسلكا متعرجا وفي بعض الأحيان ساد الهـدوء. وانتشرت التكهنات وثارت التساؤلات حول ما إذا كانـت الـسفن سـتبحر حـذاء الساحل، ثم صدر الأمر بالانطلاق في عُرض البحر وتأكـد لـدى الـبعض أنهـم يستهدفون "صقلية". غيـر أنّ لقـاءً منظمًـا مـع مزيـد مـن الـسفن تـم أولاً في"كورسيكا"**Corsica**. ويقول برنوييه، العاشق لمستحدثات التكنولوجيا آنذاك فـي وصف تجمع الأسطول أو توجيهه وجهة أخرى، إن المناورة كانت فائقة الجمـال فالحركة بين قطع العمارة البحرية الضخمة في البحر كانت تماثل حركـة الجنـود على البر.(١٢)، ثم ما لبث الأسطول أن أبحر مسرعًا تاركًا "صقلية" خلفه مما أخمد الشائعات عن الرسو في تلك الجزيرة. اتجهـت التكهنـات حينئـذ إلـى جزيـرة "مالطة" **Malta** وهي جزيرة صغيرة لا تبعد كثيرًا عن "تونس" ظلت لقرون تحـت سيطرة فرسان القديس يوحنا الأورشليمي **Knights of St. John of Jerusalem.**

وكان الفرنسيون جميعهم يتملكهم القلق مـن احتمـال مواجهـة الأسـطول البريطاني. وفي بادئ الأمر كانت المخابرات الفرنسية قد أشـارت إلـى غيـاب دوريات الأسطول البريطاني من مياه البحر المتوسط، ثم توالت التقارير عن رؤية أسطول "نلسون" **Nelson**، غير أنّ تلك التقـارير كانـت تفتقـر إلـى الوضـوح والاتساق. وفي أحد الأيام رأى البحارة الفرنسيون أشرعة سفن على الأفق فـسرى الانزعاج من مواجهة دامية مع البريطانيين، إلا أنّ الأشرعة كانت لقافلـة بحريـة فرنسية أبحرت من سيفيتّافيتشيا **Civitavecchia** بإيطاليـا **Italy** بـأمر الجنـرال "بونابرت" لتلحق بالأسطول الفرنسي. والواقع فإنّ الأدميـرال هوراشـيو نلـسون **Admiral Horatio Nelson** كان في تلك الأثناء يبحث عن أسطول نابليون بلا كلل ولا ملل. وكانت السلطات البريطانية قد أرسلت نلسون إلى "نابولي" **Naples** عندما اشتعلت الحرب بين بريطانيا العظمى وفرنسا في بواكير تسعينيات العقد الأخير من

القرن الثامن عشر بغرض جلب الإمدادات والتعزيزات من هنالك إلى "طولـون"، وقد سبق أن سلّم الفرنسيون الأرستقراطيون المناوئون للثورة في "طولون" المدينة الساحلية في أغسطس من عام ١٧٩٣ إلى قوات مشتركة من الأسطولين البريطاني والفرنسي. وسار الجيش الجمهوري جنوبًا لرد الغزاة المعتدين. وقام "بونابرت" بنفسه، وكان أكثر الضباط الفرنسيين نشاطًا في عملية قيادة هجوم المدفعية، بابتكار وسائل جديدة لاستغلال قوة المدافع الفرنسية ومداها البعيد، مما أدى إلى هزيمة نلسون والأسطول البريطاني على أيدي الجيش الجمهوري الفرنسي، ووضع حد لجهود البريطانيين للسيطرة على التراب الفرنسي لأغراض معادية لثورتها.[١٣] وباتت رؤية نلسون المهزوم بعدئذ للتاريخ على أنّه جولة مستمرة على امتداد خريطة العالم وقودها الكراهية.

وبينما كان نابليون يُعد جيشه في "طولون" لتحدٍ أكبر للأسطول البريطاني، فإنّ نلسون تلقى معلومات من القنصل البريطاني في "لجهورن" **Leghorn** دفعته لتحريك أسطوله إلى البحر المتوسط كي يطارد غريمه. وكانت عواصف المتوسط التي تهب في الأيام الأخيرة من فصل الربيع قد ألحقت الضرر ببعض صواري أسطوله وأجبرته أن يرسو لإجراء بعض الإصلاحات في الوقت الذي كان "نابليون" يبحر فيه من "طولون". ثم أبحرت سفن نلسون من جديد، وفي لحظة عابرة مر الأسطولان الفرنسي والإنجليزي جنبًا إلى جنب في ضباب كثيف فلم يعلم أي من الجانبين بأمر الآخر. وبعدئذ انطلق نلسون بسفنه انطلاقًا تخطى به السفن الفرنسية خشية أن يفقد أثرها.

وما كان للأسطول الفرنسي الكبير أن يختفي عن الأنظار لولا أن الضباب كان شديد الكثافة، فقد ارتفع عدد الرجال على متن السفن الفرنسية التي التقت بالوحدات الأساسية من الموانئ الكورسيكية إلى حوالي ٣٦٠٠٠ ألفًا، منهم ٢٧٦

ضابطًا، و٢٨٠٠ من جنود المشاة، ٢٨٠٠ من الخيَّالة، و٢٠٠٠ من جنود المدفعية، و١١٥٧ مهندسًا عسكريًا، و٩٠٠ طبيبٍ وصيدليٍ، وممرضات، وعلماء، وفنانين، وأدباء.(١٤) وإذا أخذنا في الحسبان الإداريين، والبحارة، والتجار، والمتسكعين ممن لا عمل لهم، فإنَّ العدد الإجمالي يبلغ حوالي ٥٤٠٠٠ رجل منطلقين صوب المجهول على صفحة مياه المتوسط شديدة الزرقة. ومثل هذا العدد يساوي تعداد مدينة متوسطة الحجم في ذلك الزمان.

وكانت الأمواج العاتية قد دفعت بالجنود إلى سطح السفن ليلقوا ما في بطونهم غذاءً للأسماك، بل إن الجنرال "بونابرت" نفسه أمر بسريره أن يُرفع على جرَّايات آملاً في تخفيف أعراض دوار البحر في أثناء محاولته النوم. وكان "برنوييه" قد ذهب ذات مرة لزيارة سفينة القيادة العملاقة "لوريان"، التي كانت تحمل حسب تقديره ١٢٠ مدفعًا، و١٣٠٠ بحارٍ، ومئات الجنود، وهناك رأى مقر إقامة "نابليون" وشهد مسلكه. يقول "برنوييه" في مذكراته إنَّ جناح الجنرال فاخر الرياش يَنُمُّ عن ذوقٍ راقٍ سليم، وإنَّ الحجرة التي يستقبل بها ضيوفه تدل على سعة الجاه وتحوي بديع الأثاث حتى لكأنَّها أُعِدَّت لاستخدام ملك اعتاد حياة الدعة والراحة فلم يشغل باله بعمل نافع لا لاستخدام جنرال ينتمي إلى الجمهورية الفرنسية قَدَرُه أن يجلبَ المجد لوطنه. وكان الضباط منشغلين بألعاب الميسر حول مائدة من ذهب كما لو كانوا في طريقهم لغزو "بيرو" **Peru**. وقد عبر "برنوييه" عن استهجانه لتلك الممارسات المتكلفة التي أعادت إلى ذاكرته زمن الغزاة الإسبان الذين كانوا يُمنحون الصكوك الملكية ويُبعثون إلى العالم الجديد منقبين عن المعادن الثمينة، فلم يجد فيما شهده جيشًا جمهوريًا يقاتل من أجل الحرية والمساواة والإخاء. ويضيف "برنوييه" القول إنَّ نظامًا صارمًا للغاية يسود بين الجنود الذين يتحرون أدق قواعد اللياقة في تعاملهم مع الجنرال، فكأنَّهم يسعون لإحياء

الممارسات البائدة في بلاط الملكية، وهي ممارسات تبدو للفرنسيين في سخفها مثلما تبدو تقاليد السيد الإقطاعي بين أهل سبرطة. وكان ما قاله برنوييه، وقد نفد صبره، معبرًا عن آراء كثير من رجال الجمهورية ممن باتوا تساورهم الشكوك في ما يتكلفه "بونابرت" من طقوس، وما يؤسسه من رتب جديدة تحل محل تلك التي أطاحت بها الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩.

***

وفي التاسع من يونيو ١٧٩٨، ألقت قطع الأسطول مرساها في مالطة. وطالب "بونابرت" الكاهن الأكبر لفرسان القديس يوحنا الملقبين بالمضيِّفين أو "الاسبتارية" **Hospitallers** بالسماح لسفنه بدخول الميناء والتزوُّد بالماء والمؤن. وكان هؤلاء الفرسان يحكمون الجزيرة الكبرى إلى جانب جزيرتين صغيرتين هما "جوزو" **Gozo** و"كومينو" **Cumino**. وجاء رد الفارس الأكبر البارون "فرديناند فون هومبش" **Ferdinand von Hompesch** بعدم السماح لأكثر من سفينتين أجنبيتين بدخول الميناء في المرة الواحدة. أدرك "بونابرت" أنَّ مثل ذلك الترتيب سيستغرق وقتًا طويلاً وسيُعرِّض قواته لخطر هجمة الأسطول البريطاني؛ ولذلك فقد أمر المدفعية بإطلاق وابل من طلقاتها على سبيل الانتقام.

ولم يكن "بونابرت" يتوقع ضيافة فقد عارض تعيين "فرديناند فون هومبش" فارسًا أكبر منذ عامين، وأراد لهذا المنصب فارسًا ينتمي إلى دولة صديقة لفرنسا. ويكتب الكابتن "ساي" في مذكراته أنَّ تعداد جزر مالطة الثلاث يبلغ مائة وخمسين ألفًا، وأغلب الرجال يعملون بالبحر، أما النساء فإنَّهن تعملنَّ بغزل القطن ونسجه. ويتحدث أهل مالطة لهجة مشتقة من اللغة العربية ويدينون بالولاء للكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وكان بوسع الفرسان من الناحية النظرية أن ينشروا بميدان

القتال ستة عشر ألف رجلٍ إلا أنَّ قوتهم العسكرية الفعلية حينئذ كانت متدنية. ومع ذلك، فإنَّ غزو مالطة لم يكن ليخلو من الصعاب. وكانت أعوام قد مـرت منـذ أنْ كتب "صامويل تايلور كولردج" **Samuel Taylor Coleridge**، الأديب الإنجليـزي، عقب زيارته للجزيرة أنَّ المساحة المأهولة من الجزيـرة بأكملهـا تحتمـي وراء تحصينات فعالة تخدم أغراض الدفاع والهجوم جميعًا. ويـضيف قـائلاً إنَّ هـذه المساحة مُقسَّمة إلى حقول صغيرة لا تزيد في مساحتها على حدائق الأكواخ، وكل من هذه التقسيمات الصغيرة من الأرض يحيط به سور حجري ضـخم.(١٥) كمـا أشار في مقالته إلى أنَّ ضباط البحرية في القرن الثامن عشر يؤثر عنهم القول بأنَّ مصر مفتاح الهند، وأن مالطة مفتاح مصر.

توافرت للفرنسيين دواعٍ عديدة لمعاداة الفرسان الذين سـمحوا للبريطـانيين بتجنيد البحارة من مالطة، كما أنَّ الكاهن الأكبر قدَّمَ السلاح إلـى إسـبانيا حـين شاركت في التحالف الكبير ضد فرنسا الثورة، وسمح لهـا بالاسـتعانة بخـدمات البحارة المالطيين. أمَّا مَنْ وَالى الثورةَ من أهل مالطة فقد تعرض للاضطهاد على أيدي الفرسان ومنهم كثيرون أُرسلوا إلى المنفى ظلمًا وعدوانًا. وفي مايو من عـام ١٧٩٧، أُلقي القبض على أعداد غفيرة من المالطيين ذوي الاتجاهات الديموقراطية واحتُجزوا في السجون شأنهم في ذلك شأن معتادي الإجرام. بل إنّ الكاهن الأكبـر ما لبث أن سعى طالبًا الحماية من قيصر روسيا بولس الأول **Paul I** وهـو حـاكم رجعي وعدو لدود للثورة الجمهورية.(١٦)

ألقت سفن "بونابرت" مرساها في مالطة في سبعة مواقع في صباح ١١ مـن يونيو. ونزل "لوي باراجي ديلييه" **Louis Baraguey d'Hilliers** بجنوده ومعداتـه الحربية في الجانب الغربي من الجزيرة الكبرى بمالطة، وكان "ديلييـه" قـد نجـا بصعوبة من محاولات الراديكاليين للتخلص منه إبَّان عهد الإرهاب، واحتل بعدئـذ

موقع حاكم "لومباردي" **Lombardy** أثناء الحملة الإيطاليــة فــي عــامي ١٧٩٦-١٧٩٧. وصمَدَ "ديلييه" وجنده طوال عملية الإنزال في مواجهة وابل مــن نيــران المدفعية التي صُبَّتْ عليهم من الحصون المالطية. لقي الجنود الفرنــسيون بعــض المقاومة غير أنَّهم نجحوا في دحرها. لكنَّ فرسان مالطة الذين لم يكونوا على أهبة الاستعداد، والذين سرى بينهم قدرٌ من الانحلال والإحباط، أعادوا تنظيم صــفوفهم وبلغ عددهم حوالي الألفين؛ مما دعا الفرنسيين إلى تصعيد هجماتهم. وبعد معركــة شرسة بالمدفعية دامت أربعا وعشرين ساعة أُجبر معظم المالطيين فــي الجانــب الغربي على الاستسلام. واحتل الجنــرال "كلــود أنــري فوبــوا" **Claude-Henri Vaubois** البلدة القديمة التي تقع في قلب الجزيرة والتي فتحت أبوابها دون أدنــى قتال. وكان الفرسان الذين تعود أصولهم إلى القدس، إذ تسيَّدوا الساحة فــي بــلاد الشام في عهد الممالك الصليبية قصيرة الأجل قبل أن يخرجهم المسلمون منها إلــى الجزر الغربية بالمتوسط، بقايا ماضٍ يحمل سمات الإقطاع والفروسية والدين. وهم الآن قوة حربية على شفا الاندثار ذهبت ضحية عصر التنوير.

وشرع "بونابرت" في التفاوض مع سادة "فاليتا" **Valetta** المدينــة الحــصن، راميًا إلى رشوة الفرسان. وقَــبِــل الكاهن الأكبر تسوية تضمن له معاشًا كريمًا ثم فتح أبواب المدينة لــ"بونابرت" الذي يُحسب له الاستيلاء على أحد أكثر الحــصون منعة في أوروبا دون أن يُطلق قذيفة واحدة. ويقول "بونابرت" لاحقًــا إنَّ الموقــع يتمتع بلا ريب بأدوات هائلة تتيح له مقاومة مادية غير أنَّه يفتقد القــوة المعنويــة افتقادًا. ويقول أيضًا إنَّ الفرسان لم يجلبــوا علــى أنفــسهم عــارًا، إذ إن إتيــان المستحيلات يقع خارج التزامات البشر.(١٧) ويقول كابتن "مواريه" إنَّه دخل "فاليتــا" بصحبة زملائه من طليعة الجند في الثاني عشر من يونيو، وتبعهم جند الأســطول في اليوم التالي. ويرى "مواريه" أيضًا أنَّ فاليتا، العاصمة وميناء شــمال شــرقي

مالطة، كان أجدر بها أن تقاوم لفترة أطول. ويضيف "مواريه" إنَّ الجنود الفرنسيين داخلتهم الدهشة إذ وجدوا أنفسهم سادة مدينة بها من الكثير من التحصينات. غير أنَّ "مواريه" يختلف مع قائده في تفسيره للحدث إذ يصِمُ من دافعوا عن المدينة بأنهم جنود يفتقرون إلى المهارة والقيادة الرشيدة.

غير أنَّ ما غفل "مواريه" عن ذكره هو أن حوالي نصف الفرسان كانوا فرنسيين رفض معظمهم القتال. أضف إلى ذلك أنَّه ما إن تسلمت حكومة الثورة مقاليد الحكم بعد عام ١٧٨٩ حتى شرعت في تجريد أرستقراطية العهد البائد والكنيسة من ممتلكاتهما تدريجيًا، وبما أنَّ الفرسان كانوا يتلقون الدعم من هذين المصدرين فإنَّ الثورة الفرنسية أحرجت موقفهما المالي. وقد خصص "بونابرت" مبلغًا من المال لإعاشة "هومبيش" في ألمانيا، كما عرض على قدامى الفرسان الفرنسيين الفرصة للعودة إلى فرنسا مخصصًا لهم معاشًا. فالفرسان لم تلحق بهم هزيمة في واقع الأمر، بل استسلموا في مفاوضات حصلوا من خلالها على مقابل مجز. وبلغ مجمل ما تكبدته فرنسا من تكاليف ثلاثة ملايين من الفرنكات حسب تقدير ضابط الخيَّالة الشاب "نيكولا فيليبير ديسفرنوا" **Nicholas Philibert Desvernois** من "لون لو سونييه" **Lons-le-Saunier** القريبة من "جنيف" **Geneva**.

لم يمضِ أسبوع واحد قبيل رحيل الفرنسيين عن مالطة حتى أسس "بونابرت" إدارة محلية ووضع دستورًا جمهوريًا مُعلنًا مالطة محميَّةً فرنسية، ورتب بعثات دراسية إلى فرنسا. كما أنَّه اصطحب معه شباب الفرسان ودمجهم في جيشه. وأغلق "بونابرت" الكنائس كافة وحوَّل كنوزها من الذهب والفضة إلى سبائك واستحوذ على خزانة الفرسان. ويقول كابتن "ساي" الذي وضع أول مذكرات منشورة عن الحملة إنَّ الاستيلاء على جزيرة مالطة قد ضمن السيطرة على تجارة شرق المتوسط.

فكَّ "بونابرت" قيود العبيد من الأتــراك والعــرب الــذين كــان الفرســان يحتجزونهم، ونقلهم على سفنه راميًا إلى إطلاق سراحهم في مصر، وقــد حققــت مبادرته الكريمة نجاحًا وطد علاقاته بأهل البلاد وعاد عليه بالنفع. وكتب "بونابرت" على الفور إلى قناصل فرنسا في تونس وطرابلس والجزائر ليخطرهم بأن "مالطة" صارت فرنسية، وأنَّ على حكام تلك البلدان المــسلمة أن تُطلــق ســراح العبيــد المالطيين وإلا استحقت عقاب الجمهورية الفرنسية. وقد عني بقولــه أنَّ احتجــاز رعايا "مالطة" في الأسر حال كونها دولة مستقلة صغيرة لا يتــساوى واحتجــازهم متى أصبحوا رعايا فرنسيين مما يمثل إهانة لجمهورية فرنسا. غير أنَّ "بونـــابرت" بادر أيضًا بتقديم غصن زيتون وأعلن أنَّه أصدر أمره بتحرير ألفي عبــد عثمــاني ومغربي كانت جماعة فرسان القديس يوحنا من أورشليم تحتجزهم للتجديف علــى سفنها.[١٨] وبهذه الخطوة شرع "بونابرت" في توجيه غزل سياسي إلى المــسلمين. وفي مالطة، ظفر "بونابرت" بكثير من أهلها، ومن العبيد الذين يتحدثون العربيــة؛ فكانوا عونًا له في صفوف جيشه وفي أعمال الترجمة.

ولم تطل إقامة الجنود الفرنسيين بمالطة سوى بضعة أيام تزوَّدوا فيها بمــا ينقصهم من مؤن. وترك "بونابرت" خلفه حامية تتألف مــن أربعــة آلاف رجــل يرأسهم الجنرال "فوبوا"، ورحل عن مالطة في التاسع عشر من يونيــو. وثــارت التكهنات مرة أخرى عن وجهة الأسطول غير أنَّها لم تستغرق إلا وقتــًا قــصيرًا، فقد أصدر "بونابرت" الأمر بنشر إعلانه الثاني على الجنود، وهو الإعــلان الــذي حرَّره على ظهر سفينة القيادة "لوريان" يوم ١٢ يونيو. وجعل الرجــال يتــذاكرون "الإسكندرية"، ويتخيلون مدينة البطالمة والإمبراطورية الرومانية، فقد كان الضباط والمثقفون الفرنسيون في القرن الثامن عشر متبحــرين فــي التــاريخ الإغريقــي والروماني يعرفونه معرفة وثيقة ويرون في أنفسهم امتدادًا لــه. وقــد اســتثارتهم

مغامرتهم العسكرية في الشرق بقيادة "بونابرت" واستدعت في نفوسهم ذكريات فتوحات "الإسكندر" و"أوغسطوس قيصر". ويقول مواريه إنّ الجنود انغمسوا في أحلام يقظة تصور نساء مصر على هيئة كليوباترا، وفي مذكراتهم عن بدايات الحملة رسم الفرنسيون صورة مثيرة للشرق الذي تخيلوه رائعًا متألقًا.

يقول "بونابرت"، أيها الجنود، إنّكم مقبلون على فتح لا يمكن تصور أثره في حضارة العالم وتجارته، إنّكم ستكيلون إلى إنجلترا أقوى الضربات وأبعدها أثرًا وستتاح لكم الفرصة لتوجيه الضربة القاضية إليها. وتعالت شكواه من البكوات أو رجال الحرب الذين يحكمون مصر، وكثير منهم من المماليك الذين ارتفع شأنهم وظفروا بالحرية والسلطة وحكموا البلاد بوصفهم ولاة للسلطان العثماني. وأضاف "بونابرت" أنّ هؤلاء المماليك شرعوا يفضلون التجارة مع الإنجليز ويحتقرون التجار الفرنسيين، بل إنّهم يسوسون أهل النيل المساكين بطغيان مستبد. ولم يخفف "بونابرت" من قسوة الحملة على جنوده غير أنّه أقسم إنّ المماليك لن تقوم لهم قائمة في بضعة أيام من وصولهم. وطالب "بونابرت" جنوده بالحذر كل الحذر من المفكرين الأحرار، وأتباع المذهب العقلاني المسيحي، والملحدين، والكاثوليك من أتباع كنيسة روما، ودعاهم إلى احترام الإسلام، ومحمد، والتقاليد الإسلامية، مثلما أظهروا التسامح تجاه يهود أوروبا ومن يدينون بالكاثوليكية من أهل إيطاليا، وذكرهم بالتسامح الديني الذي ميّز الجنود الرومان. كما لفت نظرهم إلى اختلاف تعامل المسلم مع المرأة، وحذرهم من استباحة الأملاك والأعراض. قال بونابرت لجنوده إن الإسكندرية هى مقصدهم الأول[١٩].

•••

إن خطة "بونابرت" لغزو مصر تعود لأصول متشعبة. وطوال القرن الذي سبق حملة "بونابرت" داعبت الفكرة بعض المفكرين والتجار الفرنسيين مدفوعين بما لمصر من موقع مركزي لا يُجارى في قيمته للتجارة الفرنسية في البحر المتوسط والمواقع التي تقع شرقه. ويبدو أنّ "بونابرت" نفسه شرع في التفكير جديًا في غزو مصر أثناء صيف ١٧٩٧ على إثر حملته على إيطاليا، إذ إنّ الإمارات الإيطالية التي تطل على "البحر الأدرياتيكي" **Adriatic Sea** طالما حافظت على مصالح لها في جزر الآدرياتيكي و"كرواتيا" **Croatia** و"ألبانيا" **Albania** العثمانية. وكان للبندقية ومدينة راجوسا **Ragusa** الإيطالية دورٌ رائد في الوجود التجاري الأجنبي بين مجتمعات التجار في ميناء "الإسكندرية" المصري. كما أنّ فرنسا الثورة التي استقرت أوضاعها بوصفها القوة صاحبة الأمر والنهي في إيطاليا، باتت لها مصالح في المشرق أكثر من ذي قبل، وهي أمور لم تغب عن فهم "بونابرت" الحاكم الفعلي للأراضي الإيطالية.

وكان "شارل موريس تاليران" **Charles Maurice Talleyrand**، وهو من رجال السياسة والثورة البارزين وقس سابق، قد أعلن في المعهد القومي في الصيف السابق عن رأي مؤداه أنّ فرنسا في حاجة إلى مستعمرات كي تزدهر.(٢٠) (وكانت فرنسا قد خسرت مستعمراتها في "كندا" **Canada**، و"لويزيانا" **Louisiana**، وكثيرًا من ممتلكاتها في البحر الكاريبي **Caribbean**، والهند منذ عقود مضت). وقد أقام تاليران مطلبه على أساس من أخلاقيات الثورة فقال إنّ المهمة الضرورية لدولة الدستور الحرة تتمثل في أن تضع الأمور في نصابها دون إبطاء، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي بما يعود بالخير على الجنس البشري. وأضاف قائلاً إنّه شعر بالدهشة أثناء إقامته القصيرة في منفاه بالولايات المتحدة في عهد الإرهاب إزاء اختلاف الأوضاع في الفترة التي أعقبت قيام الثورة الأمريكية مقارنة بالأوضاع بفرنسا، إذ تغيب عنها العداوات والصراعات الداخلية الشرسة، وأرجع

تاليران ذلك السلام الاجتماعي النسبي إلى المنهج الذي يستوعب الطاقات المتدفقة للثوريين القدامى كي يحققوا الاستقرار في قارة شاسعة. وذكّر تاليران بخطط قديمة لإقامة مستعمرة فرنسية في مصر، وأشار إلى زراعات قصب السكر البريطانية بالبنغال، في إشارة ضمنية إلى أنّ إنتاج السلع في المستعمرات يعزز من قوة ذلك الخصم، وأن على فرنسا أن تسعى هي الأخرى إلى تحقيق مكاسب من خلال المستعمرات التي يمكن أن تنتج محاصيل نقدية مجزية. كما أشار إلى أنّ أيام العبودية معدودة، واقترح أن يحل محل المستعمرات التي تدر ثروات على أساس من عمل أقنان الأرض، جمهورياتٍ على النظام الفرنسي تسيطر عليها باريس.

وفي أثناء تسعينيات القرن الثامن عشر حصرت السيادة البريطانية البحرية التوسع الفرنسي في نطاق القارة الأوروبية وأحبطت محاولات فرنسا الإطاحة بالخصم البريطاني. وقد استند تاليران إلى حجة مؤداها أنّ تجديد فرنسا لسياساتها الاستعمارية يحررها من سيطرة الدول المنافسة التي ما زالت تحقق انتصارات على حساب أخطاء فرنسا وتقاعسها. فالفرنسيون كانوا قد فقدوا موطأ قدمهم في "بونديشيري" **Pondicherry** بجنوب الهند، على صغر مساحته، بعد أن انتزعه منهم البريطانيون، غير أنّهم يحاولون عقد التحالفات مع الحكام الهنود المعادين للبريطانيين يدفعهم الأمل لطرد شركة الهند الشرقية البريطانية من شبه القارة الهندية. ويعد احتلال مصر خطوة تمنح فرنسا السيطرة على سلع قيمة وبخاصة السكر، وربما وفرت لها الوسيلة كي تسد الطريق على تنامي الإمبراطورية البريطانية في الشرق.

وقد تولى تاليران منصب وزير خارجية فرنسا بُعيد إعلانه لهذه الآراء، وكان خطابه قد سجّل دحضًا لأفكار فلاسفة التنوير الذين أدانوا المظالم الناتجة عن السياسات الاستعمارية، ولنظريات "تورجو" **Turgot** الاقتصادية التي تنفي الفائدة الاقتصادية عن امتلاك المستعمرات، إذ إنّ "تورجو" أدرك أن أسعار السلع

المُنتجة في المستعمرات التي تتسم بالانخفاض تتساوى مع أسعارها في الدول التي لا تمتلك مستعمرات.(٢١)

وكان الفيزيوقراط، وهم اقتصاديون قصروا القيمة على الأرض، قد استبعدوا التجارة الخارجية على أساس عدم أهميتها النسبية ووجدوا في الطبقة المالكة للأرض قبل الثورة حلفاء لهم. ومع صعود النظام الجمهوري برزت مصالح جديدة، كما رفض "تاليران" حجج اليعاقبة(*) المبدئية والنابعة من حقوق الإنسان التي تدعو لتصفية الاستعمار، وهي الحجج التي وجهوها لدعم إلغاء العبودية في عام ١٧٩٤. اعتقد "تاليران" أن باريس تستطيع أن تفرض نموذجًا لجمهورية تقوم على أكتاف الطبقة الوسطى في المناطق المدارية على نحو يسمح ببناء سياسة استعمارية جديدة تخلف فترة العبودية. وشملت الدوائر التي قدمت الدعم لخطط "تاليران" المقاولين العسكريين، وطبقة التجار القوية في مارسيليا، والشبكة الفرنسية للمستوردين والمصدرين مع شرق البحر المتوسط. وتشكلت دائرة أخرى من ضباط جيش إيطاليا الذين حيل بينهم وبين الاستيلاء على فيينا في اللحظة الحاضرة، وكان وعيهم قد تنامى مؤخرًا بأهمية شرق المتوسط من واقع تمركزهم في شبه الجزيرة الإيطالية فباتوا يسعون إلى ميادين أخرى لنيل مجد الانتصار. وقد كان خطاب "تاليران" بمثابة نقطة تحوُّل مثيرة لليسار الفرنسي تجاه إحياء الدعم لضرب من التوسع الخارجي كان يحظى بتأييد أشد رجال البلاط محافظة في نظام فرنسا الملكي إبَّان القرن التاسع عشر، ولذا يجوز النظر إلى ذلك الموقف بوصفه إحياءً للنزعة المحافظة في القرن الثامن عشر.

(*) اليعاقبة حزب ثوري فرنسي تشكَّل عام ١٧٨٩، نُسب اسمه إلى الراهب يعقوب، وقد تحالف مع روبسبيير وصار أقوى وأكثر الأحزاب تطرفًا في ثوريته، وقد سيطر قادته على لجنة الأمن العام في فرنسا، واستطاعوا قيادة عهد عُرف بالإرهاب والدكتاتورية استمر حتى انقلاب يوليو ١٧٩٤. (المراجع)

وما إن حقق "بونابرت" انتصاراته في إيطاليا حتى بادر بالكتابة إلى "تاليران" وغيره من الزعماء حول إمكان وضع سياسة فرنسية في المتوسط تلحق الضرر بالمصالح البريطانية. ففي السادس عشر من أغسطس عام ١٧٩٧ كتب "بونابرت" أنَّ فرنسا لن يطول بها الأمد حتى تدرك أنَّه يتعين عليها أن تحتل مصر كي تنزل ببريطانيا دمارًا محققـًا، وأضاف أنَّ الانهيار التدريجي للإمبراطورية العثمانية الممتدة يُلقي بالمسئولية على فرنسا كي تعمل الفكر سعيًا لإيجاد الوسائل التي تتيح لها الحفاظ على تجارتها مع شرق المتوسط.(٢٢) وكان العهد البائد في فرنسا، وعصر الجمهورية في بواكيره، قد قدم الدعم للإمبراطورية العثمانية من منطلق حرمان منافسي فرنسا الأقوياء في القارة الأوروبية من الوصول إلى شرق المتوسط. غير أنَّ "بونابرت" و"تاليران" صارا مقتنعين بتسارع السقوط العثماني وهو ما يمثل دافعًا له خطورته تحاول بمقتضاه بريطانيا وروسيا أن تغتصبا أراضي الدولة العثمانية حين سقوطها. فإذا ما شرعت القوى الأوروبية في القريب العاجل في اقتطاع أقاليم إمبراطورية سليم الثالث والاستحواذ عليها لنفسها فإنَّ "بونابرت" و"تاليران" عزما أن تكون فرنسا سبَّاقة في هذا المجال. وجاء الحلم الفرنسي بتحويل البحر المتوسط إلى بحيرة فرنسية وفتح طريق إلى الهند عبر البحر الأحمر واستعادة "بونديشيري"، وغيرها من الممتلكات الفرنسية على ساحلي "كوروماندل" **Coromandel** و"مالابار" **Malabar**، بعد أن وجد الفرنسيون أنفسهم وقد قطع عليهم الأسطول البريطاني الطريق في شمال الأطلنطي وفاتهم ضم أراض بالقرب من رأس الرجاء الصالح.

وعندما قَدِمَ الجنرال "لوي ديساي" **Louis Desaix** لزيارة "بونابرت" في مقره بالقرب من البندقية في سبتمبر من عام ١٧٩٧، تناقشا في إمكان احتلال مصر بواسطة خمس فرق عسكرية. وكان "جاسبار مونج" **Gaspar Monge**، رئيس

البعثة الفرنسية للعلوم والآداب في إيطاليا، قد أعد ملفًا من سجلات وزارة الخارجية الفرنسية وقدَّمه إلى بونابرت؛ ويحوى هذا الملف تقاريرَ عن فوضى الحكم في مصر من جرَّاء مظالم حكامها الذين ينوبون عن العثمانيين، وآراءً لمسئولين في قنصلية فرنسا ومنهم "شارل ماجالون" Charles Magallon تشير إلى الضرر الذي تلحقه تلك الأوضاع بالتجارة الفرنسية.(٢٣) وكان "تاليران" قد هيَّأ نفسه للاقتناع بأنَّ السلطان في الآستانة مدرك للمخططات البريطانية والروسية فيما يتعلق بمصر، وأنَّه سيرحب بضربة استباقية يقوم بها حليفٌ قوي تمنع الإقليم المصري من الوقوع في براثن قوى معادية. لقد كان "تاليران" أول سياسي غربي، وليس الأخير بكل تأكيد، يبالغُ في تقدير ما قد يجلبه احتلال أجنبي عسكريٍ من مشاعر العرفان بالجميل بين شعوب الشرق الأوسط.

وكان للجمهورية الفرنسية هيئةٌ تشريعية تتكون من مجلسين ما بين عامي ١٧٩٥ و١٧٩٩: مجلس الخمسمائة الذي يقترح القوانين، ومجلس الحكماء أو الشيوخ الذي يصدرها، وقد انتخب مجلس الحكماء هيئة خماسية عُرفت باسم حكومة الإدارة. وقد تذبذبت سياسة حكومة الإدارة، فحين تأسيسها في نوفمبر من عام ١٧٩٥ أدان أعضاؤها سياسات "روبسبيير" **Robespierre** المتطرفة والراديكاليين الذين أطلقوا العنان لعهد الإرهاب في عامي ١٧٩٣ و١٧٩٤ فمارسوا الاضطهاد ضد كل من يشكُّون في تعاطفه مع الملكية أو الكنيسة وأرسلوا كثيرين إلى المقصلة. وتبنت الحكومة الجديدة شروطًا للمشاركة في العمل السياسي تعتمد على الملكية، وعززت من الحماية الدستورية لحقوق الأفراد، وفرضت تطبيقًا محايدًا للقانون بوصفه أحد المفاهيم الرئيسية لأمن الفرد.(٢٤) ويرى أحد المؤرخين أنَّ حكومة الإدارة ما كانت لتقدم على ما أقدمت عليه من إجراءات لولا الحاجة إلى الخروج من عهد الإرهاب، ثم الخروج على الجمهورية ذاتها. وما لبثت حكومة

الإدارة في بواكير أيامها أن خففت من القيود على طقوس العبادة الكاثوليكية وسعت لإرساء أسس مزيد من السياسات المدنية.

وجاءت انتخابات ربيع ١٧٩٧ إلى المجلس التشريعي بعدد أكبر من المحافظين وبعض الملكيين، مما أثار مخاوف اليسار الفرنسي من ضياع إنجازات الثورة على أيدي اليمين الذي بُعِثَ من مرقده. ووقعت ردة الفعل في أوائل سبتمبر ١٧٩٧ عندما قام سياسيون من يسار الوسط بنوع من الانقلاب تمثل في إعفاء عضوين من حكومة الإدارة من منصبيهما ثم استغلال سيطرتهم على حكومة الإدارة، وكثير من الإدارات المحلية؛ لإعادة تأكيد القيم الجمهورية وكراهية الأرستقراطية والإكليريكية. وفي بادئ الأمر اتجهت رغبة المتآمرين إلى استقدام بونابرت من إيطاليا إلى باريس ليحملونه مسئولية السيطرة عليها لصالحهم، غير أنَّه رغب في الحفاظ على موقع القيادة الذي يحتله خارج فرنسا وبعث نيابة عنه بالجنرال "بيير أوجيروه" **Pierre Augereau** المعادي للنظام الملكي ليقدم الدعم العسكري لذلك الانقلاب الرخو.

وفي ربيع عام ١٧٩٨، صدقت التوقعات بتحول الناخبين إلى اليسار، ورفضت حكومة الإدارة أن تسمح لعشرات من الأعضاء المنتخبين بدخول المجلس التشريعي خشية تزايد تأثير اليعاقبة. وقد دلَّت تلك الأحداث على حالة من عدم الاستقرار تهز أسس نظام حكومة الإدارة؛ فقد فشلت تلك الحكومة في عقد اتفاقات ضرورية لنشر الثقة بين اليسار واليمين بما يسمح بالتغلب على إرث عهد الإرهاب على جانبي الموقف السياسي، كما أضرت بشرعيتها أبلغ الضرر باعتيادها التلاعب بنتائج الانتخابات.

وكان "بونابرت" مدركًا لقيمة الدور الحاسم الذي يضطلع به الجيش الثوري في تشكيل نتائج الصراعات السياسية، وعلى الرغم من إعلانه الولاء للأفكار الجمهورية، فإنَّه كان بالفعل أحد نقاد الديموقراطية الليبرالية. ويُذكر أنَّه وجَّه قوله إلى أحد الدبلوماسيين الزائرين مستنكرًا أن يكون انتصاره في إيطاليا لرفعة شأن رجال حكومة الإدارة من القانونيين من أمثال "كارنو" **Carnot** و"بارا" **Barras** أو لتأسيس جمهورية، وأضاف القول بأنَّها فكرة سخيفة. وعبر عن اعتراضه على قيام جمهورية تتكون من ثلاثين مليون نسمة يختلفون فيما يحملون من قيم. (وكان ذلك الرأي شائعًا بين كثير من منظري النظام الديموقراطي في القرن الثامن عشر، حتى إنَّ الأمريكي "جيمس ماديسون" **James Madison** كان في حاجة إلى أن يقتنع بما للمراجعات والتوازنات من قدرة على منع النظام الديموقراطي الضخم من الانحدار إلى الديماجوجية أو طغيان الأغلبية). ويقول "بونابرت" عن الجمهور الفرنسي: إنَّهم في حاجة إلى تحقيق المجد وإرضاء ما يعتمل في أنفسهم من غرور، ولكن مالهم والحرية، إنهم لا يمتلكون الفهم الأدنى لها.(٢٥)

وقد رأى بعض المشرعين والأعضاء في حكومة الإدارة أنَّه يتعين أن تقوم فرنسا بحملة جديدة فيما وراء البحار، وذلك لما شهده المجتمع الفرنسي من استمرار في الانقسامات الداخلية، ولتجدد التطرف بين من كان ميلهم إلى اليعاقبة، ولما مثلته شعبية "بونابرت" من خطورة (وكان يحكم إيطاليا في واقع الأمر كما لو أنَّها عزبته الخاصة)، وتوقع عودة عشرات الآلاف من الجنود المُسَرَّحين إلى فرنسا بعد الانتصارات في "لومباردي" **Lombardy**. وما بين ديسمبر من عام ١٧٩٧ وفبراير من عام ١٧٩٨، أخذ بعض السياسيين في الحكومة الفرنسية مأخذ الجد إطلاق هجمة عبر القنال الإنجليزي ضد بريطانيا. أعفت حكومة الإدارة

"بونابرت" من منصبه القيادي بإيطاليا، وأصدرت إليه أمرًا بدراسة إمكان قيادة جيش إنجلترا إلى "دوفر" Dover.

استشاط "بونابرت" غضبًا لِمَا عَدَّه حطًّا من شأنه وساوره القلق بشأن ما عُرِف عن الرأي العام الفرنسي من تذبذب، وشعر أنَّ أوروبا لا تسعه هو ورجال الإدارة متواضعي الأحلام معًا. وسعى لدى حكومة الإدارة كي ينصبه المجلس التشريعي عضوًا بالحكومة، ولكن حتى صديقه الحميم وراعيه "بول بارا" أخبره أن مثل هذه الخطوة غير دستورية بسبب صغر سنه وآليات الاختيار المنصوص عليها قانونًا. ثم اتجه "بونابرت" للتخطيط لحرب أخرى ضد النمسا. ويُقر "بارا" في مذكراته أنَّ أعضاء حكومة الإدارة بدأوا يستشفون المخاطر كلها التي ستواجه الجمهورية لو لم يُرسل "بونابرت" في مهمة خارج البلاد.(٢٦)

استحسن بعض أعضاء المجلس التشريعي، وشاركهم في الرأي أعضاء حكومة الإدارة، وضع سياسة استعمارية جديدة لفرنسا بوصفها بديلاً عن هجمة مباشرة مكلِّفة ضد بريطانيا. وسعى حزب الحرب هذا إلى إحياء مركز فرنسا الدولي المسيطر الذي حظيت به قبل عام ١٧٥٠، وجاء هذا الرأي ردًا على الحصار البحري البريطاني والتوترات الداخلية. وشكل مجلس الخمسمائة لجنة لدراسة إمكان تأسيس مستعمرات فرنسية في غرب إفريقيا لما تتميز به من صفة الجِوَار. واستقر رأي بعض أعضاء البرلمان الفرنسي على أنَّ ذلك المشروع يبدو جديرًا بأُمَّة حُرَّة مُجَدِّدة تتطلع إلى الجديد وتتجلى عبقريتها في الاستكشاف: أي أنهم ربطوا بين الاستعمار والمعارف والاكتشافات العلمية، وبذلك عزفوا على وتر رئيسي من أوتار فلسفة التنوير حتى وهم يتخذون موقفًا أدانه معظم منظري تلك الفلسفة. ولعل أحد أصول تلك الروح الحربية الجديدة تعود إلى مؤسسات تزويد المحاربين بالسلاح والعتاد التي تزايد ارتباطها بالبرلمانيين الفرنسيين.(٢٧)

وفي أبريل من عام ١٧٩٨، رفعت اللجنة التي رأسها المُشرِّع "جوزيف إيشاسريوه" Joseph Eschasseriaux تقريرًا يفيد أنَّ المناقشات اتخذت مسارًا لم يكن في الحسبان صرف أعضاءَ اللجنة عن الرأس الأخضر Cape Verde و"سييرا ليون" Sierra Leone ويمَّمَ بهم شطر وادي النيل. ربط التقرير الصلة بين التقدم في العصر الحديث على أرض الوطن والمستعمرات خارج حدودها وعَبَّرَ عن مشاعر القلق من عدم الاستقرار الذي قد ينتج عن الانطلاق الذي شهدته فرنسا مؤخرًا لطاقاتٍ يجدر إيجاد سبل لتصريفها على نحو منتج بعيدًا عن أرض الوطن. ساورَ السياسيون المدنيون مشاعر القلق تجاه انغماس الجنرالات الذين يحظون بشعبية واسعة في السياسة يساندهم في ذلك الشعب وحشود المواطنين التي جُيِّشت مؤخرًا. وعبَّر "إيشاسريوه" عن رأيٍ مفاده أنَّ حظ مصر في تلك اللحظة من الحضارة لا يعدو النصف، وأنَّه لا يفصلها عن فرنسا سوى رقعة محدودة من اليَّم، وأنَّه من السهل غزوها. وأنهى تقريره بالقول "يا له من إنجاز رفيع يُنسب إلى أُمَّة منحت الحرية إلى أوروبا وحرَّرت أمريكا، أن تبعث الحياة بكل معانيها في بلد كان مهدًا للحضارة... وأن ترُد إليها بضاعتها من صناعة وعلوم وفنون وأن تُرسي على أرض التاريخ أسس "طيبة" جديدة أو "ممفيس" أخرى".

وفي الشهر ذاته (أبريل)، زكَّى المجلس التشريعي ذلك التقرير إلى حكومة الإدارة، وحثها على أن تضع مشروعًا استعماريًا مناسبًا. وأشار أحد أعضاء مجلس الحكماء يُدعى "جيه. بي. لوكوته" J. B. Lecouteulx إلى الأسلوب الذي اتبعته "البندقية" في الماضي في تجارتها مع الهند عبر مصر التي قامت بدور المعبر لتلك التجارة. إنَّ مصر تقع على أحد الخطوط إلى الهند، وكان "بونابرت" قد اقترح بالفعل في فبراير الماضي إرسال حملة إلى شرق المتوسط تمثل تهديدًا لتجارة البريطانيين مع الهند. واستند تاليران إلى حُجة مؤداها أنَّ غزو مصر

سيضع حدًا للاعتداء الذي يقع على التجار الفرنسيين على أيدي الأمراء الذين يحكمون البلاد باسم السلطان العثماني، وسيمنح فرنسا مستعمرة جديدة غنية، ولعلها تكون نقطة انطلاق لطرد البريطانيين من الهند، جوهرة التاج للإمبراطورية البريطانية والمصدر الإضافي للثراء القائم على التجارة الذي يسخره البريطانيون لمحاربة فرنسا. وقد سُرَّ "بونابرت" نفسه من مجريات الأمور تلك، وقال إن الأقدار العظيمة لا تُصنع إلا في الشرق، فأوروبا أصغر من أن تستوعبها.(٢٨)

***

أبحر أسطول "بونابرت" شرقًا يمخرُ عباب البحر، وعلى ظهر سفينة القيادة "لوريان" اجتمع ألفا رجل منهم عدد كبير من أعضاء لجنة العلوم والآداب. وكان "بونابرت" يجد متعةً في محاورة العلماء الذين اصطحبهم في مجالات الكيمياء، والرياضيات، والأديان، ومن هؤلاء الفيزيائي ووزير الأسطول السابق "جاسبار مونج"، والكيميائي "كلود لوي برتوليه" **Claude-Louis Berthollet**، وآخرون. ويرى "لوي بوريين" **Louis Bourrienne**، سكرتير بونابرت، أنَّه كان يُفضل نزعة "مونج" للخيال الجامح وتأملاته في الموضوعات الدينية على منهج "برتوليه" الفكري التحليلي المجرد الذي يتسم بالبرود.

اعتاد "بونابرت" بعد تناول طعام العشاء أن يدعو لمناظرات بين ثلاثة أو أربعة من الضيوف في قمرته، إذ يطرح قضية خلافية ويطلب إلى البعض أن ينتصروا لها ويطلب إلى آخرين أن يدحضوا ما جاءت به. ومن أمثلة تلك القضايا ما إذا كانت الكواكب مأهولة، وما عمر الكون، وما إذا كان تفسير الأحلام يكشف ما يخبئه المستقبل. ويرى "بوريين" أنَّ "بونابرت" لجأ إلى تلك المناظرات كي يختبر معدن رجاله وليحدد ما قد يعهد به إليهم من مهام يحسنون القيام بها، ويرى

أنَّه فضل هؤلاء الذين سخَّروا قدراتهم لتقديم الدعم للقضايا السخيفة على أولئك الذين ساندوا القضايا العقلانية.(٢٩)

حاور "بونابرت" أصدقاءه في التاريخ الذي يمتد من أحداث الكتاب المقدس إلى العصور الكلاسيكية، وبخاصة الموضوعات ذات الصلة بجزر البحر المتوسط والبلاد التي يمرون بها. وقد دعاه مرأى مملكة "مينوس" **Minos**، كما يسجل سكرتيره، إلى التفكير في أفضل ما يُوضع من قوانين لسياسة الأمم، واستدعى محل ميلاد "جوبيتر" **Jupiter** في جزيرة "كريت" **Crete** إلى ذهنه ضرورة الدين لجموع البشر. لقد احتوت تلك المحاورات على لُب منهج "بونابرت" النفعي تجاه الدين الذي ما زال يترسخ تدريجيًا في نفسه، ذلك الدين الذي يتعارض ومنهج المتحمسين لفلسفة التنوير العقلانية من رجال الثورة الفرنسية أو من اليعاقبة الذين رفضوا الدين بوصفه حديث خرافة، أي أنَّ "بونابرت" رأى أنَّ الناس متدينون بالفطرة، وأنَّ استخدام الدين للتحايل عليهم لا يعدو كونه سياسة ناجعة، وعلى الجانب الآخر، فإنَّ العقلانية التي تفشت بين كثير من رجال الثورة والمفكرين جعلتهم يرون في الإيمان أمرًا رجعيًا ومنافيًا للعقل ينبغي أن يُستأصل ويطرح جانبًا قبل أن يتسبب في مزيد من الأضرار. وقد وقع الحزب المعادي للأديان تحت تأثير الفيلسوف الفرنسي "فولتير" الذي كثيرًا ما سجَّل في خطاباته عبارة: "اسحقوا العار!" في إشارة منه إلى صور التعصب وعدم التسامح الديني.(٣٠)

التهبت مشاعر الضباط حين علموا أنَّ سفنهم تُقلُّهم إلى مصر. ويبدو صوت الكابتن "مواريه"، الذي انغمس في الدرس سابقًا استعدادًا للكهنوت، أقرب إلى المفكرين منه إلى الضباط فيما كتب عن الأيام القادمة حينما كان بمالطة. ولعل عديدًا من الإشارات في مسودته تشير إلى قربه منهم على نحو غير معتد. يقول "مواريه" إنَّه وزملاءه جَد مبتهجون ومتشوقون لما في هذا المشروع المجيد من

آمال كبيرة. فهم ماضون إلى تلك الأرض العريقة، مهد العلوم والفنون، كي يعيدوا اكتشاف آثار الفراعنة التي لم ينل منها الزمان، فهناك الأهرامـات، والمَـسلات، والمعابد، والمدن، والوديان التي ضل فيها بنو إسرائيل طريقهم، إنَّها الأرض التي نالت من المجد ما أضفاه عليها المقدونيون والرومان والمسلمون وأكثر ملوك فرنسا قداسـة بأعمالهم الجليلة. وجعل "مواريه" من حملة "بونابرت" خلفـًا للحمـلات التـي قادهـا "الإسكندر المقدوني"، و"أوكتافيوس"، وعمرو بن العاص، ولويس التاسع نفسه.

ولعلنا مصيبون إنْ قلنا إنَّ "الإسكندر الأكبر" قد أحرز بعض النجـاح فـي مصر ذلك لأنَّ حملته أدت إلى قيام أسرة البطالمة الحاكمـة التـي أسـسها أحـد جنرالاته الإغريق، كما أنَّه كان قد ترك خلفه ميناءً عظيمًا يحمل اسمه. ومثل ذلك يُقال عن "أوكتافيوس"، الذي تسمى لاحقـًا بـ"أوغـسطس قيـصر"، والـذي أدت غزوته إلى انتحار آخر البطالمة، كليوباترا، وافتتاح ستة قرون من الحكم الروماني والبيزنطي على ضفاف النيل. وجاء "عمرو بن العاص" في عام ٦٣٩ علـى رأس حملة ضمَّت مصر إلى حضارة الإسلام الجديدة التي كانت مكـة عاصـمة لهـا، وجرت على يديه هو الآخر أعمالٌ عسكرية ذات شأن. إلا أنَّ كل ذلك لا يـصدُقُ على الحملة الصليبية التي قادها الملك الصليبي، "القديس لويس". اسـتولى "لـويس التاسع" على مدينة "دمياط" في ٦ يونيو ١٢٩٤ وسار إلى القـاهرة لكـن أعـداءه أحاطوا به من الجانبين وأطلقوا مياه النيل من الخزانات فحاصروا جيشه؛ إذ أحاط بهم فيض المياه وأحرزوا نصرًا سهلاً. ويقول "مواريه" إنَّ ضباط "بونـابرت" رأوا في أنفسهم صورةً مشرقةً لأكثر هؤلاء الفاتحين نجاحًا وآمنوا أنَّهم بـسبيلهم إلـى إعادة الحضارة والعلوم والفنون إلى مصر. ويضيف "مواريه" على نحو أكثر قربًا من الواقعية أنَّ مصر مستعمرةٌ جديدة ستعوض الفرنـسيين عمَّـا خـسروه مـن مستعمرات تَـمَكن الإنجليز بخبثهم ودهائهم من تجريدهم منها في العالم الجديد.

أطلق "مواريه" العنان لأفكار قيّمة تدور حول الأهمية التاريخية والجغرافية السياسية للحملة. وبالطبع فإنّ إشارته إلى خسائر فرنسا في العالم الجديد تتعلق بحرب السنوات السبع والغزو البريطاني لـ "كويبك" **Quebec** في عام ١٧٥٩. وقد أشار "ونستون تشرشل" **Winston Churchill** إلى الصراعات التي دارت في خمسينيات القرن الثامن عشر وستينياته (المعروفة للأمريكيين باسم الحرب الفرنسية والهندية) بوصفها حربًا عالمية تضمنت بصفة خاصة تنازعًا للقوة بين الفرنسيين والبريطانيين الذين امتدت معاركهم لتشمل البحر الكاريبي وجنوب الهند فضلاً عن شمال أمريكا. وقد انتصر البريطانيون في الكاريبي وجنوب الهند وهو أمر لم ينسه جيل "بونابرت" فقد حرمت قوة بريطانيا البحرية فرنسا مما تبقى لها من ممتلكات بالكاريبي. ويشير "مواريه" إلى أنّ مصر كانت دائمًا جزءًا من الإمبراطوريات العالمية العظيمة، وأنّ احتلال فرنسا الجمهورية لها يضمن مشاركتها تلك الإمبراطوريات المجد والفخار.

ولم يجد "مواريه" ولا "بونابرت" تناقضًا في مصطلح "الإمبراطورية الجمهورية". فهناك من الأراضي التي غزتها فرنسا مثل "بلجيكا" ما ضُمَّ ببساطة وبات تحت الحكم الفرنسي. كما أنّ الجمهورية الفرنسية يمكن أن تكون مركزًا إمبراطوريًا تدور في فلكه جمهوريات تابعة. وتعد "الجمهورية الباتافية" **Batavian Republic** (الهولندية) إحدى تلك الجمهوريات، وقد تأسست عام ١٧٩٥ بعد أن ألحق الجيش الجمهوري الهزيمة بالبروسيين هناك. وعلى الرغم من أن مجالس للمواطنين تحكمها، فإنّها تخضع للاحتلال العسكري الفرنسي وتقدم الجنود والدعم إلى فرنسا. وحينما كان "بونابرت" يعد العدة لغزو "مالطة" فإنّه تعامل مع السفير الهولندي وكأنّه موظف لدى الجمهورية الفرنسية، وأعفاه بجرة قلم من منصبه وقام بإجلائه.[٣١]

وقد أُنشِئت الجمهوريات التابعة على إثر الحملات الإيطاليــة فــي عــامي ١٧٩٦ و١٧٩٧، وأثبت "بونابرت" حينئذ جدارته بوصفه قائدًا عــسكريًا متميــزًا. وفي عام ١٧٩٧ أنشأ الجيش الفرنسي ما أسماه "الجمهورية الليجورية" **Ligurian Republic** في "جنوا" **Genoa** على النمط الفرنــسي وأقــام بهــا حكومــة إدارة. وأُدمجت الوحدات الإدارية الأخرى في وسط إيطاليا وشمالها اللذين يسيطر عليهما الفرنسيون في عام ١٧٩٨ فيما أُطلق عليه "جمهوريــة السيــسآلباين" **Cisalpine Republic**. وفي أواخر عام ١٧٩٧ وأثناء العام الذي يليــه، أخــضع الفرنــسيون سويسرا وأعادوا تشكيلها باسم "الجمهورية الهلفيتية" **Helvetian Republic** وأقاموا بها هي أيضًا حكومة إدارة مركزية. وكان الجيش الفرنسي قــد أخمــد المقاومــة العنيدة للوطنيين السويسريين والكاثوليــك الــذين عارضــوا الــسياسة الفرنــسية الجمهورية التي تهمِّش الكنيسة لصالح الدولة الديموقراطية. وهكذا فإنَّ الفرنــسيين لم ينظروا إلى حكومة الإدارة بوصفها شكلاً وطنيًا خاصًا بهم، بل بوصفها نموذجًا يُتــبَع في البلدان الأخرى ويُفرض عليها بالقوة إذا لزم الأمر.

لم تكن العلاقة بين فرنسا وجمهوريات الإدارة الأخرى قائمة على الأخوة بل البنوة. زعم الفرنسيون أنَّ تلك الجمهوريات التابعة تحظى بــ "الحريــة"، ولعلنــا نلتمس العذر لأهل شبه الجزيرة الإيطالية حينما وجدوا صعوبة في التوفيــق بــين "الحرية" والنهب واسع النطاق الذي يمارسه الجنود الفرنــسيون والثــروات التــي تنساب خارجةً من بلادهم لتستقر في "باريس". وكان مواطنو الجمهوريات الجديدة يحظون بقدر غير مسبوق من الديموقراطية المحلية وحرية الصحافة، غير أنَّ ذلك جاء على حساب الخضوع لقوة أجنبية واستنزاف كنوزها وآثارها الفنية.

ومن ناحية أخرى، فإنَّ حكومة فرنسا الثورية سعت لإدارة "هــايتي" **Haiti** (التي كانت تعرف آنذاك بــ "سانت دومينيجو" **Saint-Dominigue**) بوصفها مجرد

مستعمرة، وقد حدث ما لم يكن متوقعًا إذ أدى انتشار قيم الثورة الفرنسية بين أهل المستعمرة الفرنسية إلى ظهور قوة سياسية نشطة تتمثل في الزنوج الأحرار الذين نالوا حريتهم وتتمثل كذلك في الزنوج من العبيد أنفسهم. وضعت فرنسا حدًا للعبودية هناك وفقدت سيطرتها على المستعمرة في تسعينيات القرن الثامن عشر؛ فسقطت تحت سيطرة الأسطول البريطاني والزعماء المحليين، مثل الثائر "توسان لوفرتيور" **Toussaint L'Overture**. وتشكلت في ذهن "مورايه" وغيره رؤية واضحة لفرض نظام جمهوري يقوم على أساس حكومة إدارة من قبل فرنسا على مصر، مثل النظام القائم في "هولندا" و"سويسرا"، غير أن بعض ملامح مستعمرة "سانت دومينيجو" جالت أيضًا بخواطرهم.

وقد أضاف "بونابرت" فيما بعد إلى قائمة أهدافه من غزو مصر إقامة مستعمرة فرنسية على النيل، تزدهر دون عبيد وتقدم لفرنسا من الخدمات ما كانت "سانت دومينيجو" وجزر السُكَّر تقدمه.(٣٢) وكان زواج "بونابرت" من "جوزفين" التي وُلدت ونشأت في جزيرة "مارتينيك" **Martinique** من جزر الهند الغربية قد وجَّه انتباهه للشئون الكاريبية. ولذلك فقد كان يُقدم نفسه بوصفه مُقدِرًا على أقل تقدير لما تعانيه فرنسا من ضرر اقتصادي لفقدانها السيطرة على "سانت دومينيجو" في تسعينيات القرن الثامن عشر، وحاجة فرنسا إلى تعويض خسارتها. وكان "بونابرت" و"تاليران" كلاهما يُلِّحان دون كلل ولا ملل على أهمية سلعة السُكَّر، ولعل محصول مصر من قصب السكر كان عامل الجذب الرئيسي لكليهما.

حين وصل الفرنسيون إلى "الإسكندرية" في صباح أول يوليو، ضربت الرياح العاصفة سفنهم فاختلطت بعضها ببعض وضربت الفوضى أطنابها.(٣٣) وكان هناك بعض الذين أكدوا أنهم لمحوا على الأفق أشرعة أسطول "نلسون". أرسل "بونابرت" فرقاطة في مهمة استطلاعية فوجدت سفينة مصرية تقترب منها.

تمكن الضابط الفرنسي من إقناع نظيره المصري بأن يقوده إلى سفينة القيادة، وكان قائد المجموعة البحرية المصرية قد خاب مسعاه في إتمام مرواغة، فتقدم وأبلغ الفرنسيين أنّ الأسطول الإنجليزي وصل إلى ميناء الإسكندرية منذ يومين مضيا. وقد حاول البريطانيون تحذير حاكم الإسكندرية، أو "الكاشف"، السيد محمد كُريِّم من نوايا الفرنسيين الرامية إلى احتلال بلاده، غير أنّ كُريِّم رفض مستعليًا منح الإذن لسفن "نلسون" للبقاء أو للتزوُّد بالماء والمؤن. وقد أثارت تلك الأخبار قلقًا عميقًا بين البحارة والجنود الفرنسيين، الذين يحسبون حسابًا كبيرًا لما عُرف عن رجال الأسطول البريطاني من شجاعة وإقدام. ويُذكر أنّ "بونابرت" قد صاح قائلاً: "أيا ربة الحظ هل تتخلين عني؟ ألا فامنحيني خمسة أيام فحسب". وكان يعني بكلماته أنَّه سيجعل لنفسه موطأ قدم في مصر في أقل من أسبوع إن استطاع أن يتجنب لقاء نلسون في هذه المدة. وعلى الرغم من أن البعض ينكرون أنَّه تفوَّه بتلك الكلمات، فأغلب الظن أنه قد دارت بخلده الأحاسيس التي تقع وراءها.

الفصل الثانى

وارتفعت ألسنة اللهب إلى السماء

أرسل نائب الأدميرال "فرانسوا- بول بِـــروي ديجيلييـــه" François-Paul Brueys D'Aigalliers، الذي يمتد نسبه إلى عائلة من أعرق العائلات الفرنـــسية، فرقاطة كي تأتي بالقنصل الفرنسي "شـــارل ماجـــالون" Charles Magallon مـــن الإسكندرية. قدّمَ "ماجالون" تفاصيل زيارة "نِلسون" التي حملـــت للفرنـــسيين نُـــذر السوء. حيث قال إنّه يظن أنّ البريطانيين قد أداروا دفة سفنهم شطر "آلكـــسندريتا" Alexandretta على الساحل السوري مفترضين أنّه ما دام الفرنسيون لـــم يـــصلوا بعد إلى الإسكندرية فلا بد أنهم واصلوا الإبحار إلى موقع آخر ينزلون فيـــه إلـــى البر؛ وإن كان ظن البريطانيين اتجه إلى أنّ الفرنسيين يبيّتون النيَّـــة كـــي يهـــددوا وجودهم بالهند، فإنّ سوريا والعراق يصبحان مدخلين محتملين. وعلى الرغم من سرعة اندفاع المياه في نهريّ دجلة والفرات والفيضانات التي مـــا زالـــت تجتـــاح واديبهما، فإنّ مجرييهما كانا يصلحان للملاحة. وقد لجأ البريطانيون أنفـــسهم فـــي بعض الأحيان إلى سلوك هذا الطريق عبر الخليج الفارسي إلى الهند.

كانت الرياح العاصفة التي يُسمع لها صفير، وأمواج البحر المتلاطمة، التي ضربت ساحل الإسكندرية على مدى يوم أو يومين كافيةً لإقنـــاع "بـــروي" بـــأنّ الإنزال البري ينبغي أن يُؤجَّل، وخصوصًا أنّ الليل قد جنّ ولم يكن لدى البحـــارة علمٌ يقيهم الاصطدام بالشعاب البحرية أو يعينهم على تحديد مواقـــع الإنـــزال فـــي الظلام الدامس. (وكان "بروي" أرستقراطي المولد، وقد التحـــق بخدمـــة أســـطول الجمهورية الفرنسية رغم أنّه فقد عائلته وأصدقاءه في عهد الإرهاب فـــي أوائـــل تسعينيات القرن الثامن عشر، حين قام الثوار الراديكاليون بإعدام الملك وسعوا إلى

إزالة آثار العهد البائد). ضرب "بونابرت" عُرض الحائط برأي "بروي"؛ إذ اجتمعت له قيادة عمليات الجيش والأسطول معًا، وأصرَّ على الإنزال الفوري. كتب "بونابرت" إلى قبطان إحدى السفن العثمانية الراسية في ميناء الإسكندرية أن البكوات(*) "يتعاملون بالذل والاحتقار" مع التجار الفرنسيين وأنَّه حضر مطالبًا بالتعويضات. ويقول "بونابرت" في خطابه هذا إنَّه سينزل إلى الإسكندرية في اليوم التالي، ويطمئن القبطان الذي يعمل في خدمة صديق عظيم لفرنسا ألا وهو السلطان العثماني، غير أنَّه يُحذره إن صدرت عنه أقل بادرة من عداوة تجاه الجيش الفرنسي فإنَّه سيلقى معاملة العدو ولن يلومنَّ حينئذ إلا نفسه، إذ إن نواياه وما استقر في ضميره أبعد ما يكون عن الاستعداء[1]. وقد لاذ القبطان العثماني بالفرار على ما يبدو.

وتحت جنح الظلام حرَّك الفرنسيون عدة زوارق مُحمَّلة بالذخيرة إلى مواقع على طول ساحل الإسكندرية. وكان القنصل "ماجالون" قد اصطحب معه ربانًا مصريًا ساعد الفرنسيين على المرور بسفنهم خلال الشعاب البحرية. وحوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل في صباح ٢ يوليو تمكن "بونابرت" وجنوده الفرنسيون من النزول إلى البر على بعد ثلاثة أميال من الإسكندرية.

في الساعة الثالثة صباحًا تقدم الجنرالات "بون" **Bon** و"كليبر" **Kléber** و"جاك مينو" كلٌ على رأس وحدة تتكون من ٤٣٠ رجلاً في مسيرة جمعت طليعة الجيش الفرنسي إلى الإسكندرية، ولم يكن في الإمكان بعد نقلُ سلاحي المدفعية والخيَّالة إلى البر. وسار "بونابرت" راجلاً تصحبه قناصة طليعة الجيش. وما إن بلغت القوة الفرنسية موقعًا يبعد ميلاً ونصف الميل عن المدينة حتى أصبحت على

(*) يقصد بكوات المماليك، وكانت هذه إحدى ذرائع الفرنسيين لاحتلال مصر. (المراجع)

مرمى حجر من مجموعة من البدو الأعراب على صهوات الجياد، وكـانوا ممـن يرابطون على المرتفعات حول الإسكندرية للدفاع عنهـا، وبـادر هـؤلاءُ البـدو الفرنسيين بإطلاق النيران. وحين أدرك الأعراب حجم القـوة الفرنـسية سـارعوا بالانسحاب. عَبَرَ "مينو" الكثبان الرملية المنخفضة على امتـداد الـساحل قاصـدًا الأسوار الغربية للحي العربي بالإسكندرية حيث أعدَّ العدة لاقتحام الحصن ثلاثـي الأضلاع، وسار "كليبر" على رأس جنوده متوجهين إلى البوابة الكبيرة التي تقع في تلك الأسوار وتؤدي إلى عمود السواري **Pompey's Pillar**، أما "بون" وجنوده فقد تحوَّلوا إلى شرقي المدينة، إلى بوابة رشيد. وما إن حلت الساعة الثامنة صـباحًا حتى توقفت الأعمال العسكرية، وأصبح الفرنسيون وقـد اسـتولوا علـى القلعـة والبوابتين. اتجه "بونابرت" إلى عمود السواري، وبعث ببعض الجنود لاسـتطلاع أسوار الحي الغربي التي توفر الحماية للإسكندرية، وعاد هؤلاء بأنباء عن منعـة تلك الأسوار التي لا تسمح بأي اختراق.

حين وصل "بونابرت" عند أسوار المدينة القديمة في صباح ذلك اليـوم بـدا مستعدًا للمفاوضات تحدوه الثقة بأنَّ مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على ٨٠٠٠ ستستسلم في مواجهة قوة عسكرية جبارة، غير أنَّ أهل المدينة الذين حملوا السلاح مدفوعين إلى القتال بما تردد من صياح قادتهم وصراخ نسائهم وأطفالهم احتـشدوا في التحصينات الممتدة أعلى الأسوار، واتخـذوا مـواقعهم فـي الأبـراج. وجـد الفرنسيون أنفسهم في مرمى وابلٍ متصل من النيران التي أطلقها خمـسمائة مـن المماليك الخيَّالة يقودهم السيد محمد كُريِّم، محافظ البحيـرة، وأهـل الإسـكندرية المسلحون، غير أنَّ تلك المقاومة لم تُجدِ، وعلى حين غرة كشف الأمراء أو قـادة الجند من داخل المدينة عن مدافعهم التي انطلقت قذائفها ضد الأعداء.

لم تردعْ ثلاثة أو أربعة مدافع قديمة، أقامها المدافعون على الأسوار في أوضاع ثابتة يستحيل تغييرها، المهاجمين الفرنسيين. وفي مواجهة طلقات المدافعين وجَّهت فرق المشاة الأوروبية بنادقها وأمطرت المصريين بقذائف يصحبها دوي كالرعد أصابت بعضهم في مقتل، ثم تقدمت المدفعية الفرنسية الخفيفة التي وصلت إلى ميدان القتال في نهاية المطاف فرجحت كفة الفرنسيين؛ إذ أطلقوا قذائف المدافع مجبرين خيالة العدو على التراجع إلى مسافة بعيدة.

أرسل "بونابرت"، حسب تقرير "برنوييه" **Bernoyer**، رسالة متعجرفة إلى كُريِّم مطالبًا إياه بالاستسلام:

> **إنَّ الأعمال العدائية التي استقبلتني بها أثارت دهشتي. إنَّك إذا ما اعتقدتَ أنَّك قادر على مقاومتي بمدفعين أو ثلاثة فإنَّك إما جاهل أو مغرور قد بلغ بك الجهل أو الغرور مداهما. ألا فاعلم أنَّ جيشي قد قهر لتوِّه أقوى جيوش أوروبا. فإن لم أرَ راية بيضاء ترفرف فوق الأسوار في عشر دقائق فلسوف أحملك المسئولية أمام الله عن نزيف الدم الذي سيجري هدرًا، وقريبًا ستبكي الضحايا الذين أرسلتهم إلى حتفهم بسوء تقديرك.(٢)**

وبعد هنيهة أمر القائد الفرنسي بشن الهجوم إذ لم يتلقَ ردًا. ولم يكن الفرنسيون قد حاصروا المدينة بعد، وقد اطمأن الأمراء إلى وصول تعزيزات من الخيَّالة من الجانب الخلفي للمدينة. واستعد رجال الخيَّالة من الأتراك المتمصرين لجولة ثانية يداخلهم يقينٌ في غلبة ينالونها بفضل سرعة خيولهم في مواجهة عدو أغلب جنوده راجلين. ويقر "مواريه" بصغر حجم الخيَّالة الفرنسية التي، مع امتيازها، لا تقارن بخيالة عدوهم التي تفوقها عددًا.(٣)

وعمومًا فإنَّ المحاربين الراكبين، سواء أكانوا من البدو الرحل أم من الخيالة العسكرية، كانوا قد حققوا انتصارات سهلة على أهل القرى والحضر، بل على المشاة المدربين في حروب دارت في منطقة الشرق الأوسط(*) في العصر الوسيط. ولقد تأسست الإمبراطوريات العظمى للمسلمين العرب، ومن بعدهم إمبراطوريات المغول، والسلاجقة الأتراك، والصفويون، والعثمانيون، بفضل رجال اعتلوا ظهور الخيل والجمال في المقام الأول. أما في أوروبا فقد أضعف التقدم في وضع خطط المشاة من قوة الخيَّالة، وخصوصًا إذا ما اقترنت تلك الخطط باستخدام بارع للمدفعية. أضف إلى ذلك أنَّ قوة المدفعية ومداها في القرن الثامن عشر قد طرأ عليهما تحسنٌ كبير من خلال تصنيع أفضل للبارود وسبيكة القذائف. وكان "بونابرت"، الذي انتقل من تخصص الرياضيات إلى المدفعية، قد علا نجمه إذ استغل التقدم في هاتين الصناعتين في تنظيم المشاة وإطلاق ذخيرة المدافع. أما المحاربون الراكبون الفخورون بقدراتهم في ما نطلق عليه حاليًا "الشرق الأوسط"، فقد آن الأوان أن يُقابلوا من سيتصدى لهم في نهاية المطاف على هيئة جيش جمع ما لم يكن في الحسبان من الفلاحين الفرنسيين الذين تدعمهم مدافع لم يُـرَ لقوتها مثيلٌ تنطلق مجتمعة كلها على نقطة هجوم واحدة.

وتزعم المصادر الفرنسية أنَّ مصر كان يقطنها حين مقدم الحملة الفرنسية حوالي ستين ألف من طبقة الأمراء الحاكمة ومماليكهم، منهم ستة آلاف مدججين بالسلاح وكاملي العتاد. ويرى مؤرخون لاحقون على الحملة أنَّ ذلك التقدير معقول، وإنْ لم يشمل فرق الجند العثمانيين كافة في البلاد. وقد انخفضت أعداد الأمراء منذ سبعينيات القرن الثامن عشر، ويعود ذلك في جانب منه إلى وقوعهم ضحايا الحروب التي كانوا يشنونها بعضهم ضد بعض.(٤) وقد رسخ في اعتقاد

(*) كان الاصطلاح المستخدم آنذاك هو المشرق العربي. (المراجع)

الفرنسيين أنَّ الأمراء جميعهم من المماليك المجلوبين للخدمة في الجيش المصري. غير أنَّ هناك آخرين من غير العبيد ولذلك يُفضل أن يُشار إليهم بالأمراء (وتعني "القادة" في أصلها العربي)، وكذلك في رتبهم الأعلى بالبكوات (وهي كلمة مشتقة من التركية وتعني "السيد")، وتُدعى حكومة البكوات الـ **beylicate**، وكانت تلك المجموعة تحكم مصر نيابة عن السلطان العثماني. وكان علية القوم من المصريين ذوي الأصول العثمانية(*) **Ottoman Egyptian** وزوجاتهم يمتلكون ضياعًا شاسعة وقصورًا منيفة ورد وصفها في مذكرات "مواريه". يقول "مواريه" إنَّ البكوات

> **يمتلكون كل شيء: الديار والضياع وغير ذلك من المتاع، ويتوفر لهم دخل سنوي كبير. ولا يختلف لباس الأثرياء عن لباس الفقراء إلا في فخامة الأقمشة، فهم يرتدون قمصانًا من حرير تحتها صدار يشبه ما كان يرتديه الرهبان الفرنسيون في الماضي، ولكنه يفوقها في ثمنه الباهظ، وسراويل فضفاضة لا شك أنَّها استهلكت ما لا يقل عن عشرة أو اثني عشر مترًا من القماش لصناعتها، كما أنَّهم ينتعلون خفافًا مغربية ضخمة من الجلد. ولا شك أنَّ عمائمهم الفخمة تكلفهم من المال الشيء الكثير. وهم يحلقون رءوسهم عدا خصلة من الشعر في منتصف الرأس يقولون إنَّ محمدًا سيجذبهم منها إلى الجنة في اليوم الآخِر.**

(*) يستخدم المؤلف عادة مصطلح **Ottoman Egyptians** ليقصد بهم أمراء المماليك المصريين، لأنهم تمصروا، وكان الكثير منهم من عناصر تركية الأصل قبل ظهور الدولة العثمانية، ثم حكموا مصر والشام وأسسوا دولة المماليك. وعندما غزا العثمانيون مصر، صار المماليك يحملون لقب الأمراء المصرلية أو المصرية طوال العهد العثماني. وقد فضلنا ترجمة مصطلح المؤلف بكلمة المماليك تمييزًا لهم عن العثمانيين. (المراجع)

جمع الأمراء والمماليك الذين يدافعون عن الإسكندرية صفوفهم لهجمة ثانية، غير أنهم فشلوا في اختراق الخطوط الفرنسية التي اتخذت تشكيلات منيعة مربعة من الرجال الذين يشرعون البنادق والحراب المثبتة بها عاليًا. تراجع المماليك(*) ثم اندفعوا مرة أخرى وتلا ذلك مرات ومرات من كر وفر ولكن دونما جدوى؛ إذ إنَّ الخيل لا تجرؤ، مع ما تتمتع به من قدرة على الانطلاق والمراوغة، على مهاجمة مربع منتظم من المشاة شاكيّ السلاح. وفوجئ الأمراء بحقيقة أنَّ البنادق المثبت بها الحراب التي تمكن المشاة من إطلاق النيران واستخدام الحربة للطعن ضد الخيَّالة، قد منحت مشاة القرن الثامن عشر ميزة جديدة لا يُستهان بها. وكانت التعزيزات تتوالى تترى على التحصينات الفرنسية. غير أنَّ "بونابرت" لم يكن قد استخدم المدفعية الثقيلة؛ إذ لم يتمكن رجال الأسطول من نقلها إلى البر بعد، ولذلك فقد افتقد الوسيلة لإحداث ثغرة في أسوار الإسكندرية. وبحلول الظهيرة شنَّ الأوروبيون هجمة حاسمة وطاردوا الخيَّالة، واعتلوا أسوار الإسكندرية، واستولوا عليها. أقام الفرنسيون خيامهم داخل أسوار الإسكندرية وخارجها حتى حل الظلام، واتخذ كبار الضباط سكناهم في بيوت علية القوم من العائلات الموسرة. غير أنَّ جميعهم عانى من لدغات البعوض والحرارة والمياه الآسنة، وفي بادئ الأمر أطلق بعض الأهالي النار على الفرنسيين، ورموهم بالحجارة حتى بعد الهزيمة، لكن مظاهر التحدي تلك تراخت أمام التفوق العسكري الفرنسي. ويختلف المؤرخون في تقدير ضحايا المعارك اختلافًا كبيرًا، ومعركة الاستيلاء على الإسكندرية مثال لذلك الاختلاف. فقتلى الفرنسيين يتراوحون بين عشرين ومائة وجرحاهم بين مائة

(*) هنا يتضح أنَّ المؤلف يستخدم هذا المصطلح من عنده وهو ليس دقيقا لأنه في بداية الفقرة يستخدم المصطلح السليم، وهو "المماليك"، ولذلك سوف نترجم مصطلح Ottoman Egyptians إلى المماليك في سائر فصول الكتاب مع التمييز بينهم وبين العثمانيين حتى لا يختلط الأمر على القراء.

وثلاثمائة. وكان من بين الجرحى الجنرالان "كليبر" و"مينو"، وقد تلقى "كليبر" قذيفة في وجهه أطلقها أحد المدافعين المصريين، فطرحته أرضًا، غير أنَّه نجا وتعافى من جرحه.

وما إن حلت فترة ما بعد الظهيرة حتى كان "بونابرت" قد اتخذ من مقر الحاكم مقرًا له، وفي اجتماع حضره أشراف المدينة أكد "بونابرت" لهم احترامه لدينهم وممتلكاتهم، وتعهدوا من جانبهم بترك التآمر ضد الحكم الفرنسي. وأقر "بونابرت" السيد محمد كُرِيِّم في منصبه حاكمًا للإقليم وقلده وشاح الثورة ثلاثي الألوان.

وعلى الرغم من استعراض "بونابرت" لجنوده في أجواء من العظمة والأبهة، فإنَّ "برنوييه" يقول إنَّ المصريين لم يبد عليهم الانبهار وظلوا على تحديهم للفرنسيين. وقد لزم الدور من لم يهرب من المدينة منهم، وظن كثير من عامة الشعب أن حياتهم ما زالت مهددة، وأن مدينتهم عرضة للتدمير لما أبدوه من مقاومة عنيفة في مواجهة الغزو. يقول "بيير أميديه جوبير" **Pierre Amédée Jaubert**، مترجم بونابرت للغة العربية، إنَّ أهل الإسكندرية بدا عليهم الذهول لأنَّ الفرنسيين لم يضربوا أعناقهم[٥]. آثر السكندريون السلامة فلم يخرجوا إلى الطرقات خوفًا من الأجانب. ومنذ ذلك الحين لم تتعد مقاومة أهل الإسكندرية للفرنسيين اختطاف الجنود الذين يقودهم حظهم العاثر إلى السير فرادى في الطرقات الخلفية، ثم ذبحهم إن استطاعوا وأمنوا المراقبة. وكان الفرنسيون في بادئ الأمر في حاجة إلى سكن مناسب، وقد خططوا لتسكين بعض جنودهم في المدينة القديمة، إلا أنّ تلك الهجمات جعلتهم يتخلون عن خططهم.[٦]

كانت السيادة الاقتصادية قد انعقدت في الإسكندرية لأوروبا وما لبث الفرنسيون أن حولوا تلك السيادة إلى سيطرة سياسية، وعلى الرغم من أنَّ الإسكندرية كانت ميناءً عثمانيًا يمثل محطة على الطريق الرئيسي للتجارة البحرية في الإمبراطورية، وكان يصلها بالآستانة وسميرنا (أزمير حاليًا)، فإنَّ القباطنة الأوروبيين قاموا بدور تتزايد أهميته في إدارة تجارة المدينة مع العالم. وكان الأتراك العثمانيون يشكلون ما يقرب من نصف عدد التجار الذين يستأجرون السفن التي تبحر بين موانئ البحر المتوسط، غير أنَّ السفن كانت مملوكة لأوروبيين في الغالب. وكانت التجارة في العقد السابق على الحملة الفرنسية على مصر تنقل على السفن الأوروبية التي تولت التعاملات التجارية كافة بين الإسكندرية وأوروبا، كما استأثر التجار والقباطنة الأوروبيون بنسبة ٩٥% من التعاملات التجارية مع طرابلس، وتونس، والجزائر. وكان الفرنسيون في مقدمة التجار الأوروبيين الذين يملكون السفن التجارية، وكانت سفنهم تحمل نصف التجارة بين الإسكندرية وأوروبا. وفي تسعينيات القرن الثامن عشر تحدى البكوات تلك السيطرة التجارية الفرنسية مفضلين التعامل مع مجموعة أصغر من التجار البريطانيين. وقد تعالت الشكاوى بين التجار الفرنسيين الغاضبين في مارسيليا، ودفعت شكاواهم حكومة الإدارة للتدخل. وكانت الديار الفسيحة التي يمتلكها التجار الأجانب في الإسكندرية تقع في أجمل أحياء المدينة، وكانت علامة على السيطرة التي تمارسها فرنسا والبندقية، وأبدى ذلك الجانب من المدينة الذي يمكن القول إنَّه قد وقع تحت الاحتلال من قبل ترحيبًا حارًا بمقدم "بونابرت".

أُنزلت المدافع الثقيلة في أبي قير وانتشر جنود المدفعية في تحصينات المنارة. وكان "برنوييه" Bernoyer وهو مواطن مدني لا تتوفر له الخبرة العسكرية متجهًا إلى الساحل لأمر يخصه فأدهشه أن يرى رمال الشاطئ، وقد

غطتها عربات الذخيرة، والقنابل، وقذائف المدفعية، والمدافع. وكان هناك ما يربو على ألف رجل يجرون هنا وهناك بين الشاطئ والسفن يُنزلون حمولتها المروعة التي جلبها الفرنسيون لإخضاع وادي النيل بأكمله. وقد صدم "برنوييه" مرأى أهل الإسكندرية وهم يفدون إلى الشاطئ للاستحمام وإقامة الصلاة، دون أن يعيروا أي اهتمام لما يقوم به رجال الأسطول من إنزال لتلك الأسلحة الرهيبة. فَسَّرَ "برنوييه" لا مبالاتهم بأنّها نقص غريب في روح الاستكشاف والمعرفة، ولم يدر بخاطره أنّ الاستمرار فيما اعتاد عليه الناس من أعمال يومية كثيرًا ما كان سلاح المقاومة السري الذي تلجأ إليه الشعوب المهزومة كي ترفع من معنوياتها.

أرسل البدو الذين قاوموا التقدم الفرنسي في ذلك الصباح وفدًا من ثلاثين رجلاً يعرضون التحالف مع الفرنسيين ويشاركونهم الطعام لإقرار هذا التحالف، وقالوا إنَّه ترامى إلى علمهم أنّ "بونابرت" لا يسعى إلا للإطاحة بحاكمي مصر: إبراهيم بك ومراد بك. وقد أكد لهم القائد الأعلى صحة ما علموه وشاركهم الطعام إقرارًا منه بصدق نواياه، وأعاد ما سبق أن تعهد به من عدم المساس بدينهم أو نسائهم، بل اقترح هدنة مطالبًا إياهم بالانضمام إليه في حربه ضد البكوات. ومن جانبهم، تعهد البدو ألا يتعرضوا لجنوده وأن يقدموا من الرجال من يحارب سيديّ مصر السابقَين. أما "بونابرت" فوعدهم أن يرد إليهم بعض الأراضي التي كانوا يمتلكونها من قبل وصادرها منهم الأمراء ما أن يخلص له حكم مصر.

انسحب البدو فترة من الزمن وأمَّنوا الطرق غير أنّ الأمر لم يدم على هذا الحال، فلم تكن مجموعة الزعماء القليلة التي عاهدت "بونابرت" تمثل البدو كافة، وكان هناك من البدو من رأى أن ذلك الاتفاق غير ملزم لهم فواصلوا الاعتداء على الفرنسيين. وقد وصف "مواريه" البدو، مظهرًا الاحتقار الذي يبديه مراقب من الحضر، فقال إنَّهم قطاع طريق ذوو بأس شديد، ولم يلتفت إلى ما يقومون به من

أعمال الرعي وإنتاج اللحوم والألبان على أطراف الصحراء ودورهم في إدارة الاتصالات والتنقل عبر مسافات شاسعة. يراهم "مواريه" رجالاً مدججين بالسلاح، عادة ما يملك كل منهم جوادًا وبندقية قصيرة وغدارتين وسيفًا من الصلب الدمشقي. ويقول إنَّهم ما داموا في خيامهم فإنَّ الجواري الصغيرات لا تفارقهم؛ إذ يتتبعن الخيل حاملات المهامز بين أيديهن. ويشير "مواريه" والفرنسيون عمومًا إلى البدو بالعرب، ويعنون بذلك البدو الرحل. ويعدُّ البدو أنفسهم عربًا؛ إذ ينحدرون من القبائل التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية. أما القاهريون المهذبون فيعدون أنفسهم رعايا السلطان العثماني لا عربًا وذلك قبل نشأة القومية الحديثة بقرن من الزمان.

كانت خيبة أمل الفرنسيين كافة في الإسكندرية كبيرة؛ ذلك أنَّهم نشأوا على أقاصيص المصادر الكلاسيكية التي تحدثت عن عظمة الميناء في العصور القديمة. نعى التاجر "جرانجان" على المدينة تداعي آثارها القديمة تحت حكم الأتراك. يقول "جرانجان" والدموع تكاد تخنق صوته: لم يعد هناك ما تقدمه الإسكندرية سوى مظاهر البؤس وديار آيلة للسقوط كانت قد أقيمت على بقايا القصور والمعابد العظيمة. ولم يجد في الإسكندرية ما يثير إعجابه إلا مساكن الجاليات الأجنبية من التجار وقصور القناصل. وكان لكل دولة حي خاص بها، وكانت الأحياء كلها تشكل الحي الأوروبي الذي يقع في منطقة الميناء الجديد والميدان الكبير. ويضيف "جرانجان" أنَّ بقية المدينة يسكنها المسلمون واليهود وبعض كبار التجار الذين يسعون للسكنى بجوار الأوروبيين.[٧] كانت أحوال الإسكندرية متردية في واقع الأمر ويعود ذلك في جانب منه إلى سوء الإدارة، وقد تناقص عدد سكانها لعدم وجود نظام للحجر الصحي؛ مما أودى بأرواح أعداد كبيرة منهم عندما حل بها الطاعون في العصر الوسيط. كما كانت الإسكندرية تعاني نقص المياه، فقد تغير

مجرى النيل الذي بنيت المدينة عند مصبه في بادئ الأمر وباتت المدينة عرضة للجفاف إلا من قناة ضيقة تحمل بعض المياه إلى المدينة وتسمح بشحن البضائع من الإسكندرية وإليها، وذلك حين لا يحولها المزارعون عن المدينة لري أراضيهم.

وكان "برنوييه" في صحبة علماء، مثل "شارل نوري" **Charles Norry**، وهو واحد من مائة وواحد وخمسين عضوًا في لجنة الفنون والآداب التي اصطحبها "بونابرت" معه، أثناء تفقدها لما تبقى من الآثار القديمة في الإسكندرية. وقد نعى "برنوييه" على بعض هؤلاء العلماء حماستهم وشهوتهم للاستكشاف التي جعلتهم يجولون بعيدًا ويقعون في أيدي البدو، غير أنَّ البدو أعادوهم إلى "بونابرت" في مقابل مكافأة احترامًا منهم لاتفاقهم معه. أما "نوري" فقد سجل خيبة أمله في الإسكندرية المعاصرة: "كان المشهد أمامنا صادمًا، لكننا تقدمنا لمعاينة ما تبقى من آثار الماضي. رأينا من حولنا أعمدة من الجرانيت بعضها قائم، وبعضها الآخر ملقى بإهمال في الطرقات والميادين بل على شاطئ البحر حيث وجدنا أكوامًا منها. كما وجدنا قطعًا أثرية مصرية تحمل نقوشًا هيروغليفية وتستخدم عتبات للأبواب أو مقاعد للجلوس". ويضيف قائلاً "إنهم لم يجدوا إلا النزر اليسير من بقايا ميناء البطالمة، منها بعض الأعمدة المنهارة التي تحمل رسومًا فرعونية مستغلقة المعنى إلى ذلك الحين". وقد لاحظ أنَّ أهل المدينة استخدموا حجارة تحمل حروفًا هيروغليفية في بناء بوابات الأسواق.(٨)

اجتمع الضباط الفرنسيون على رأي رجل واحد فيما أصابهم من خيبة أمل سجلها العلماء. وكان مبعث حزن الكابتن "مواريه" أنّه لم يتبق من آثار الإسكندرية سوى عمود السواري ومسلتين لكليوباترا إحداهما مطروحة على الأرض، ويقول "مواريه" إنّه جلس على تلك المسلة وسار بجوارها، وإنَّ مبلغ علمهم حينئذ أنَّ معظم الإسكندرية القديمة قد ابتلعها البحر بفعل الزلازل، وإنَّ التدهور الحضاري

لا بد له في ذلك الدمار. ولنا أن نرى بداية أخرى ضمن بدايات عدة صاحبت الغزو الفرنسي، ألا وهي بداية السياحة في مصر. كان "مواريه" يبحث عن الإسكندرية القديمة؛ ولذا لم تكن الإسكندرية التي تموج بالحياة ويتحدث سكانها العربية، ذلك الميناء القائم على أرض الإسلام والذي يصدر الحبوب المصرية وغيرها من السلع إلى الأناضول وحتى إلى أوروبا، لتدخل الرضا إلى نفسه. ويشير اهتمام "تاليران" بمزارع السكر في البنغال و"الأنتيل" **Antilles** إلى أنَّ هذا المحصول يحتل أهمية كبرى لدى صفوة الفرنسيين وأنَّهم اعتقدوا أنَّ الخطر كل الخطر يكمن في أن يسمحوا للبريطانيين باستغلال فائض الأرباح التي يجنونها من ذلك المحصول المداري في حين أن فرنسا محرومة من مصادر ثروة مماثلة. لم تحتل كليوباترا وعظمة الإسكندرية القديمة إذن إلا أقل القليل من الدواعي التي جعلت الجنود الفرنسيين يزحفون في أنحاء الإسكندرية.

سجل "مواريه" انطباعاته عن أهل الإسكندرية، إذ وجدهم يتمتعون ببنية قوية، ولذا فهم معافون من الأمراض، ولاحظ لون بشرتهم البرونزي، ولو أنَّ كثيرًا منهم من السود أو المخلطين. إلا أنَّ "مواريه" كان ناقدًا لا يرحم إذا ما تعلق الأمر بذوقهم فيما يلبسون. يقول "مواريه" إنَّ الفلاحين كثيرًا ما يتجولون عرايا، أما أهل الحضر فإنَّ ملابسهم لا تعدو أن تكون أقمشة مهلهلة يسترون بها أجسامهم على نحو عجيب، ويلفون الرءوس بقماش خفيف وكأنَّهم يحملون عشَّ طائرٍ وهي عمائمهم، وهم لا يعتمرون القبعات ولا يلبسون الأحذية.(٩) غير أنَّ "مواريه" أطلق ألسنة حدادًا انتقد بها نساء العامة وما جلبه الفقر عليهن من اتخاذ ملابس غير محتشمة وإن سعين إلى حجب وجوههن.

لم يشاطر الضباطُ الفرنسيون "مواريه"، وهو تلميذ اللاهوت السابق، رأيه المتعالي في النساء المصريات، إذ إنَّ ما سجله "مواريه" عن النساء اللائي تحجبن

الوجوه ولا يعنيهن ستر بعض المفاتن، يخص نساء الحضر اللائي ينتمين إلى المراتب الأدنى من الطبقة المتوسطة، وهن غالبًا تسعين لتقليد حجاب الطبقة العليا من المصريات ذوات الأصول العثمانية غير أنّهن لم تمتلكن من المال ما يتيح لهن ملابس تحفظ حشمتهن. ولم تكن النساء جميعهن تتخذن الحجاب سواء في الزي أو في الاحتجاب الكامل عن الرجال في تلك المرحلة التي سبقت الحداثة في الشرق الأوسط، فنادرًا ما كانت نساء الفلاحين أو البدو تشغلن أنفسهن بالحجاب إذ كن تتجشمن عناء العمل بين الرجال خارج بيوتهن.

إنّ صورَ النساء المصريات التي يقدمها "مواريه" من واقع خبرته المبكرة في مصر تتخذ طابعًا واقعيًا خشنًا لا يمت بصلة إلى خيالاته عن كليوباترا. وقد لجأ إلى نظرية التدهور كي يفسر التناقض بين الخيال والواقع. يقول "موراية" وفي نفسه حسرة وألم إنّ ما بالإسكندرية من بؤس وقذارة أثار في الجنود الرغبة في التراجع على الفور والعودة إلى أوروبا. ويؤكد "مواريه" أنّ الجنود لم يفتهم ملاحظة التدهور الذي حل بأبناء كليوباترا وشعبها، فلم يعد ميناء مصر الأول يقدم للزائر إلا أطلال مدينة كانت عظيمة في الزمان الغابر، ورذائل شعب مُستعبد مُسَخَّر.

أصبحت مسألة التدهور الذي حل بالعالم الكلاسيكي موضوعًا ساد أدبيات القرن الثامن عشر بعد أن استفاض بشأنه الرحالة والكتاب الفرنسيون الذين زاروا بلاد اليونان أو كتبوا عنها(١٠). وقد فتحت نظرية التدهور الذي لحق بالحضارة الكلاسيكية الباب أمام الفرنسيين ليستحوذوا على تلك الحضارة التي غربت أمجادها في ماض بعيد، ولم يعد ورثتها جديرين بها مما يخلع على الفرنسيين أمجاد تلك الحضارة. ومع ذلك، فجدير بالذكر أنّه على الرغم من الإيحاءات العرقية التي تحملها تلك النظرة فإنّ الفرنسيين في عهد حكومة الإدارة لم يقصدوا بالتدهور أي

أمراض موروثة، بل آمنوا أنَّ أحوال مصر المناخية والاجتماعية أفرزت طغيانـــا وإسرافا في الأمر يُمكن أن يقوَّم فتعود البلاد إلى ســـابق عهـــدها. وكانـــت هـــذه المحاولة لاستعادة عظمة مصر، ولمنحها الحرية والحداثة لتبرأ من حالة التـــدهور التي تعاني منها، هي لب خطاب الحملة الفرنسية.

وفي الثالث من يوليو أصدر "بونابرت" عدة قرارات مهمة: "إن القائد الأعلى يدعو الترك (المسلمين) أن يقيموا الصلاة في مساجدهم مثلما اعتادوا، وقد أصـــدر أمرًا صريحًا للفرنسيين كافة ألا يدخلوا المساجد وألا يجتمعوا أمـــام أبوابهـــا".[١١] وطالب "بونابرت" أهل الإسكندرية بتسليم أسلحتهم إلى الموقع الذي يحـــدده القائـــد الفرنسي المحلي في خـــلال أربع وعشرين ساعة، عدا علماء المسلمين، والقضاة، وأئمة المســـاجد، إذ يراهم عماد النظام الجديد. وأضـــاف بونـــابرت: "يجـــب أن يعتمر كافة سكان الإسكندرية القبعة ثلاثية الألـــوان علـــى اخـــتلاف جنـــسياتهم، ويجوز لأهل الفتوى وحدهم التزين بالوشاح ثلاثي الألوان. ويحتفظ القائد الأعلـــى بحق منح التكريم نفسه إلى علماء الدين وأئمة المساجد الذين يتميزون بالاســـتنارة والحكمة والفضيلة".

وكانت حكومة الإدارة قد خالفت نهج اليعاقبة الثوري بشأن المساواة فأقرت ضروبًا من التمايز مثل الذي بين أصحاب الأملاك، الذين يجيز لهم قدر ما يملكون ممارسة السياسة، وغيرهم ممن لا يملكون أرضًا ولا عقارًا. أقام "بونابرت" مثـــل تلك الرُتب في مصر الفرنسية بين من يحملون السلاح ومن لا يحملونه، وبين مـــن يعتمرون القبعة ومن يتزينون بالوشاح. وكان الوشاح تكريمًا لحكام المدن تحت ظل حكومة الإدارة. ومما يُثير العجب أنَّ خلفاء فولتير أقدموا في فاتحة عهدهم بمصر على تعديل ميزان القوى فركنوا إلى علماء الدين المسلمين ومنحوهم حـــق حمـــل السلاح.[١٢] وقد سعى "بونابرت" إلى كسب ود طبقة العلماء ليضم له حلفـــاء مـــن

الطبقة الوطنية الوسطى يقفون في صفه ضد البكوات. ومن ناحية أخرى اعتمد "بونابرت"، حسبما يسجل المؤرخ العثماني المعاصر عزت حسن الدرندلي، على إطلاقه سراح العبيد المسلمين من مالطة وإحضارهم معه إلى الإسكندرية كي يشفعوا له عند حلوله بالقاهرة، فيرى المصريون أنَّ الفرنسيين قد جاءوهم مُحرِرين حقًا وصدقًا. زيَّن الفرنسيون المدينة بأعلام الثورة الفرنسية وأجبروا أهل المدينة على تسليم أسلحتهم، وكذلك فعلوا أينما توجهوا في الديار المصرية. وشرعوا يكرمون الشخصيات البارزة ويقلدونهم النياشين ثلاثية الألوان. وانتهى بهم الأمر إلى أن فرضوا ضريبة باهظة على الأهالي، الذين خاب أملهم في وعود "بونابرت" بأن يقيم بينهم نظام حكم أفضل من حكم المماليك الجشعين[١٣]. (بعض ما ذكر من تفاصيل مستمد من المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي، والمؤرخ العثماني عزت حسن الدرندلي؛ أما أصحاب المذكرات من الفرنسيين فقد لزموا الصمت بشأن تلك الإجراءات التعسفية).

***

بعد أن انتهى "بونابرت" من تأمين الإسكندرية، أصدر وثيقة أوضح فيها للمصريين أسباب غزوته، وشرح لهم ما تتوقعه حكومة فرنسا منهم. ترجم الاستشراقي الفرنسي "جان ميشيل دي فنتور دي بارادي" **Jean Michel de Venture de Paradis** الوثيقة وربما عاونه في ذلك بعض المالطيين، بلغة عربية ركيكة لم يألفها أهل مصر. وكان أهل مالطة من المسيحيين الكاثوليك يتحدثون لهجة عربية تَمُتُ بصلة بعيدة للهجة شمال أفريقيا، غير أنَّهم نادرًا ما عكفوا على دراسة الكتابة العربية الفصحى التي تختلف في تراكيبها النحوية ومفرداتها ومصطلحاتها عن لهجات الحديث المختلفة. وكان "فنتور دي بارادي" قد أقام في تونس حيث درس النحو العربي وحصَّل مفردات اللغة العربية، غير أنَّه لم يفلح في

استخدام ما تعلم في كتابة عربية سلسة وسليمة. وهكذا بدت صورة الفرنسيين لصفوة المصريين المتعلمين مثيرة للضحك والسخرية من خلال لغة سقيمة وكتابة رديئة، رغمًا عن دعاوى "بونابرت" المستعلية. بدا الأمر وكأنَّ الفرنسيين قد غزوا إنجلترا وأصدروا أول إعلان لهم بلهجة الأسواق التي يتحدثها أراذل الناس. غير أنَّ ما مثلته تلك الوثيقة من صعاب للمصريين لم يقتصر على المثالب اللغوية، وإنَّما تعداها عندما استغلق على معظم المصريين كثير مما جاء بها من معانٍ، فقد حوَت مفاهيم لم يكن لها في العربية نظير.

شهدت فرنسا في القرن الثامن عشر ثورات عديدة في الفكر والمؤسسات تفوق ما شهده أي بلد آخر في العالم عدا الولايات المتحدة التي تمثل استثناءً محتملاً. صحبَ تلك الثورات خطابٌ جديدٌ ومفرداتٌ جديدة. زعم "بونابرت" في وثيقته أنَّه إنما جاء بإذن من السلطان العثماني سليم الثالث كي ينزل العقاب بالمتمردين من البكوات المماليك، وهم من الأجانب المجلوبين من بلاد القوقاز الذين ما زالوا يثقلون كاهل المصريين بصنوف الاستغلال وألوان الضرائب. وأعاد "بونابرت" على العلماء تأكيده بمواصلة إقامة الشعائر في المساجد وبرفع العلم الفرنسي على المدن والقرى. وحذر المصريين الذين يتحدثون العربية من موالاة السادة من الأتراك المتمصرين وأنذرهم بإضرام النيران في القرى المتمردة.

استند "بونابرت" في وثيقته على مفهوم سياسي لما تعتنقه فرنسا من رؤية عقلانية للدين وما ترفضه من سيطرة الكهنوت الكنسي، واستدلَّ بذلك المفهوم كي يبرهن على أنَّ الفرنسيين في واقع الأمر مسلمون (وردت كلمة مسلمين في النص الأجنبي بما ينفي أنَّها اسم علم: **muslim**، أي أنهم يسلمون وجههم للإله الواحد). وبذلك فإن الفرنسيين يخالفون المسيحيين في إيمانهم بإله واحد لا ثلاثة، وهم لذلك أعدى أعداء البابا في روما. (وتستدعي الإشارة إلى البابا غزو روما بأمر من

"بونابرت" إلى الجنرال "لوي ألكسندر برتييه" **Louis Alexander Berthier** في عام ١٧٩٧، واحتجازه البابا "بيوس السادس" **Pius VI** أسيرًا). لم يرَ "بونابرت" ضيرًا في أن يصدر وثيقة بالعربية يعلن فيها أنَّ الفرنسيين مسلمون (موحدون على أساس من المذهب العقلاني) وهو يتخذ من الدين وسيلة سيطرة. كان ادعاؤه سخيفا وإن لم يبلغ في سخفه ما ورد في الترجمة الإنجليزية للوثيقة، ففي اللغة العربية تعني كلمة "مسلم" كل من أسلم وجهه للإله الواحد، ونجد في القرآن من غير المسلمين من يُدعوْنَ بالمسلمين بهذا المعنى.

تصور "بونابرت" أن وثيقته هذه أداة رئيسية للدعاية؛ إذ لم يستطع أن يدرك مدى رداءة أسلوبها العربي. وفي ٧ يوليو أصدر أمره بنشرها. كما أصدر أمرًا بإنزال المطابع الفرنسية، والعربية، واليونانية، وطبع أربعة آلاف نسخة من الوثيقة في ترجمتها العربية.(١٤) كان "بونابرت" لا يشق له غبار في أمور الدعاية السياسية القائمة على توجيه الرأي العام، وتبدو عبقريته في ذلك المجال في المصادر العربية التي سجلت كيف أُخذت أكثر مزاعمه غرابة مأخذ الجد بين أبناء القرى المصرية.

يكتب الاستشراقي "جوبير" إلى أخيه خطابًا بعد حين قائلاً "إنَّ أهل الإسكندرية الذين لم يغادروها وهم قلة قد طالعوا بفرح شديد الإعلان الذي طبعه القائد الأعلى بالعربية والذي لا بد وأنَّك قد قرأته في الصحف".(١٥) ويقص على شقيقه كيف أنَّ الفرنسيين في الليلة السابقة احتجزوا بعض الأتراك والعرب واصطحبوهم إلى سطح سفينة من سفن الأسطول، قاصدين إلى تهدئة خواطرهم وتجنيدهم لحساب الحملة الفرنسية. عزم الفرنسيون على تلقينهم وثيقة "بونابرت" مع ما بدا على هؤلاء الرجال من جهل بالقراءة والكتابة. ويضيف "جوبير" أنَّ الفرنسيين ضموا إلى صفوفهم قَسًا مارونيًا من دمشق للقيام بتلك المهام، ودأب

الفرنسيون على السخرية منه كلما أعلن أنَّه يدين بدين الفرنسيين ألا وهو المسيحية. وكان كثير من الفرنسيين قد تحولوا إلى رؤية عقلانية للدين، أي أنَّهم كانوا يؤمنون أنَّ الله، على افتراض وجوده، هو صانع الكون الذي نفخ الحياة فيه ثم لم يشغل نفسه بعدئذ بأموره. ولم يكن معظم هؤلاء العقلانيين يعدون أنفسهم مسيحيين، وكانوا يكنون الاحتقار لمسيحيي الشرق الأوسط الذين في رأيهم يخضعون للقسس ويعيشون حياة متخلفة. ويتذكر "جوبير" مهمة القس الماروني الذي طُلب إليه أن يقرأ الوثيقة ويعلق عليها أثناء القراءة. وبالنظر إلى محتوى الوثيقة فإنَّ القس كان في حيرة من أمره يكاد لا يفقه ما يقول. وقد وجد "جوبير" تسلية عظيمة فيما يقوله القس الماروني لأهل الإسكندرية المهزومين عن الفرنسيين الذين بادرهم بالتحية بوصفهم أخوة كاثوليك موالين لبابا روما، إذ يشرح لهم أنهم فرقة من "المسلمين" الذين انقلبوا على البابا وعزلوه! وفي خطاب آخر وجهه لشخص آخر يقول "جوبير" إنَّ عامة أهل باريس ربما ضحكوا ملء الأشداق حين قرأوا وثيقة القائد الأعلى، ويقول إنَّ "بونابرت" مع ذلك محصن من كل نقد، وإنَّ فعلته تلك لا شك سينتج عنها أعجب الأمور.

لكن كيف استقبل شيوخ السنة المسلمون في الجامع الأزهر هذه الوثيقة التي انتشرت في طول البلاد وعرضها؟ كان رد فعل شيوخ القاهرة ومن بينهم الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، وهؤلاء هم من افترض "بونابرت" أن وثيقته تلك ستترك فيهم أثرًا بالغًا، مزيجًا من السخرية، والحيرة، والغضب.[١٦] سجل الجبرتي ملاحظات سريعة على هامش الوثيقة توحي هيئتها أنَّها لا تخلو من عنصر السخرية، إذ إنَّ العلماء من أمثال الجبرتي عادة ما يضيفون تعليقاتهم على هامش القرآن لا الوثائق الفرنسية.

شرع الجبرتي في نقد ما حوته الوثيقة من أغلاط نحوية وسقطات أسلوبية، ثم انتقل إلى ملاحظة مؤداها أنَّ العبارة الافتتاحية في الوثيقة تثبت أن فرنسا الثورية تتفق في بعض الوجوه مع ما جاءت به الأديان الثلاثة (اليهودية، والمسيحية، والإسلام)، إلا أنَّها في وجوه أخرى تخالفها جميعًا. يقول الجبرتي إنَّ الفرنسيين يتفقون مع المسلمين في قول "بسم الله الرحمن الرحيم" وفي إنكار أن يكون لله ولد أو شريك، غير أنَّهم لا ينطقون بالشهادتين ولا يقرون محمدًا على نبوته ولا يؤمنون بما أرسل الله من رسل يؤمن المسلمون بما جاءوا به من عند الله، في حين يوافق الفرنسيون النصارى في معظم ما يقولون وما يفعلون، غير أنَّهم يخالفونهم في التثليث وفيما يعتقدون من وحي السماء، فضلاً عن أنَّهم أسقطوا الكهنوت، وقتلوا القسس وهدموا الكنائس.

أما الإشارة إلى "الفرنساوية" التي تعلن الوثيقة أنَّها صادرة عنهم، فإنَّ الجبرتي يُبيِّن أنَّه بخلاف مجتمعات عديدة لا يوجد لدى الفرنسيين عظيمٌ أو سلطان يضفون عليه شرعية ويتحدث باسمهم، ويقول أيضًا إنَّ الفرنسيين خرجوا على ملكهم منذ ست سنوات خلت وقتلوه، وإنَّهم اجتمعوا على رأي مؤداه ألا يحكمهم حاكم فرد، وإنَّما يدير مجموعة من الحكماء وأصحاب الرأي السديد من بينهم أمر دولتهم، وبلادهم، وشئون الإدارة بها (وإن بدا للقارئ أنَّ وصف الجبرتي لفرنسا الثورية يبعد بها عن وصف الدولة الديموقراطية ويقترب بها من حكومة الفلاسفة المماثلة لما ذهب إليه سقراط في "جمهورية أفلاطون"، فذلك ليس من قبيل المصادفة، إذ إنَّ الجبرتي (مسلم يعتنق أفكار الأفلاطونية المحدثة). شرح الجبرتي كيف يقع اختيار الفرنسيين على قادة جيوشهم، وكيف ينتظم الضباط، والأفراد والإداريون في المراتب الأدنى، ويجري التشاور بين القادة والتابعين، شريطة توفر المساواة بين الجميع، وألا يعلو البعض على البعض الآخر إذ إن البشر متساوون

بالفطرة. ويقول الجبرتي إنّ الفرنسيين جعلوا من ذلك المبدأ منهاج حياة وهو ما عنوه بقولهم "على أساس الحرية والتسوية". إلا أنّ الجبرتي لم يفهم ما عناه "بونابرت" من أنّ الفرنسيين أحرار، فقد رأى أن ما كتبه "بونابرت" لا يعدو أن يكون فخرًا بأنّه ليس عبدًا مثل كثير من أمراء مصر.

ويبدو أن الجبرتي تكوّن لديه انطباع بأنّ الفرنسيين كانوا في الأغلب الأعم جنودًا وطنيين وأنّهم يديرون مؤسستهم العسكرية بأسلوب ديموقراطي. ولم يكن لهذا الانطباع نصيب من الصحة مع ما ابتدعه الفرنسيون من تجنيد عام للفلاحين، وبعض محاولات للتشاور مع الوحدات العسكرية في الأيام المبكرة من الثورة سرعان ما توقفت. بل إنّ وصف الجبرتي للفرنسيين ينطبق بالأحرى على بدايات العقد الأخير من القرن الثامن عشر، ولعله كان على صلة قبل وقوع الغزو بسنوات بمن زوّده من الأوروبيين بمعلومات عن المستحدثات في فرنسا.

يقول الجبرتي إنّ الفرنسيين يحافظون على حلق اللحى والشوارب، وينتهي بعد أن يصف زيهم (وكان يرى أن ما يعتمرون من قبعات سخيف على وجه الخصوص) ويبين كيف يختلف هذا الزي تبعًا لرتبهم العسكرية، وينتهي إلى القول بأنّ الفرنسيين يلتزمون بقانون يساوي بين الكبير والصغير، والعظيم والوضيع، والرجال والنساء. غير أنّه يشير إلى أن الطموح أو الطمع قد يغريانهم في بعض الأحيان على الخروج على هذا المبدأ. ويلتفت الجبرتي بعد ذلك إلى موضوع النساء الفرنسيات فيقول إنهن لا تتخذن الحجاب ولا تتسمن بالحياء ولا حتى إن انكشفت منهن العورات، ويزعم الجبرتي أنّ الرجال والنساء يزنون تبعًا لأهوائهم، ويضيف قائلاً إنّ النسوة الفرنسيات تذهبن إلى الحلاقين من الرجال لإزالة شعر العانة ويغدقن عليهم من الوصل أجرًا لهم. كما يقول إنّ الفرنسيين يقضون حاجتهم أينما كانوا حتى في الطريق العام. ويبدي الجبرتي، وهو ينتمي لثقافة توجب

الاستنجاء بعد قضاء الحاجة، انزعاجًا شديدًا لما يراه من استخدام الفرنسيين ما يصل إلى أيديهم من ورق في هذا المقام أو إهمالهم مقتضيات النظافة كلية.

وما إن انتهى الجبرتي من أحوال الفرنسيين التي أثارت في نفسه القرف، انتقل إلى القيم التي أكدها الفرنسيون في الوثيقة فرفضها جميعها. كان شكه عظيمًا في إعلان "بونابرت" تبجيله للنبي محمد واحترامه للقرآن، إذ رأى أن التبجيل والاحترام لا يكونان إلا باتباع الحق واتخاذ الإسلام دينا. وأشار إلى أنَّ محرر الوثيقة أخطأ في إعراب كلمة "مسلمون" عند زعمه أنَّ الفرنسيين مسلمون، وفي ذلك دلالة على فساد ما جاءوا به. كما رفض الجبرتي دعوى المساواة التي جاءت بها الوثيقة، فأرغى وأزبد معلنا أنَّ ذلك كذب وبهتان وجهل وحمق، إذ إنَّ الله سبحانه وتعالى فضَّل الناس بعضهم على بعض وأشهد السماوات والأرض على هذا.

مثلت فرنسا في عهد الثورة لغزًا محيرًا للعالم المسلم، فمن الناحية الدينية فإنَّ الفرنسيين موحدون لا يؤمنون بالتثليث مثلهم في ذلك مثل المسلمين، غير أنَّهم يشبهون المسيحيين في أعرافهم الاجتماعية ويرفضون وحي النبوة أو الشرع المنزَّل، الذي هو لب الدين حسبما يرى الجبرتي. إن "بونابرت" قد ارتكب الخطأ الذي ما زال يصدر عن الغرب الذي لا يرى في الإسلام سوى عقيدة، في حين تتخذه شعوب الشرق الأوسط أسلوب حياة. إن الجبرتي، مثله مثل المسلمين جميعًا، يرى أنَّ الإسلام يقوم على أركان خمسة هي الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وإقامة الصلاة لأوقاتها الخمسة، وصوم شهر رمضان، والزكاة، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً ولو مرة في العمر. لم يكن لدى "بونابرت" ما يقوله عن تلك الأركان عدا نصف الركن الأول ألا وهو "التوحيد". ولذلك فإنَّ الجبرتي يرى أنَّ التطابق في مجال العقيدة وحدها لا يستدل به على

تطابق نظامين ينتميان لدينين مختلفين (وإلا سهل دمج اليهودية والإسلام). ومع ذلك، فإنّ الوثيقة لم تكن معدومة الأثر، فمن قرأها من الفلاحين الذين يجيدون القراءة والكتابة انتهوا إلى فهم مختلف عن فهم عالم القاهرة الجليل، إذ ينقل في كتابه أن دعوى "بونابرت" بالتصرف نيابة عن السلطان العثماني لقيت على ما يبدو آذانا مصغية عند البعض في ريف مصر.

كشف الجبرتي أيضًا النقاب عن الأحداث الصاخبة التي أثارها احتلال الفرنسيين للإسكندرية والتي وقعت في القاهرة التي تبعد ١٤٠ ميلاً إلى الجنوب.[١٧] يقول الجبرتي: "لما وردت هذه الأخبار مصر حصل للناس انزعاج وعوّل أكثرهم على الفرار والهجاج، وأما ما كان من حال الأمراء بمصر فإن إبراهيم بك ركب إلى قصر العيني وحضر عنده مراد بك من الجيزة لأنه كان مقيمًا بها، واجتمع باقي الأمراء والعلماء والقاضي وتكلموا في شأن هذا الأمر الحادث"، ويضيف الجبرتي أنّ الجمع قرر مكاتبة السلطان العثماني وطلب العون منه، وكلّف الوالي العثماني على مصر أبو بكر باشا بتحرير الرسالة. وعادة ما كان العثمانيون يبعثون بمن يشغل منصب الحاكم أو الوالي، وكذا قاضي القضاة الشرعيين. ونادراً ما كان الوالي، الذي عادة ما يُعفى من منصبه بعد أجل قصير، يتمتع بقدر كبير من السلطة الفعلية. وقد حدث في بعض الأحيان أن رفض المماليك سداد الضرائب إلى الباب العالي بإستانبول مدفوعين إلى ذلك بما جبلوا عليه من غرور وعجرفة، ولو أنّ مثل تلك الأفعال جلبت عليهم الوبال إذ أعقبها هجمات عسكرية عثمانية. ولم يزد عدد الجند الوافدين من الأناضول التركية في مصر على بضعة آلاف، وكانت بيوتات المماليك بها من الرجال ما يدفع بهؤلاء الأتراك إلى الهامش على نحو متزايد. وكان الأتراك كثيرًا ما يعملون في الحرف والتجارة في الأسواق، وبخاصة سوق خان الخليلي الشهير كي يتكسبوا ما يُضيفونه

إلى رواتبهم الهزيلة. والآن وعلى حين غرة، أصبح الأمــراء المتغطرســون فــي حاجة إلى السلطان والجيش العثماني.

استقر عزم المماليك على حشد جيش يتولى مراد بك قيادة أكبر فرقه. ومــا إن انتهى مجلس الزعماء حتى بدأ الجند يعدون العدة لملاقاة الأعداء، وأســتغرقهم التزود بالطعام والبارود والخيَّالة والمدافع وغير ذلك من الضرورات خمسة أيــام. فرض الحكام على الناس ضرائب باهظة في وقت قصير وقاموا ببساطة بمصادرة كثير من أموالهم، وفي الوقت نفسه عَّمت الفوضى أسواق العاصمة وشــوارعها إذ دفع الخوف عامة الناس للاحتماء داخل بيوتهم، كما هُجرت الطرقــات لــيلاً ممــا أعطى اللصوص فرصة سانحة للسيطرة عليها، بل إنَّ الأمر وصل إلى حد أنَّه لــم يعد في الإمكان المرور بالطريق الغربي. وقد عبر الجبرتي عن أسفه لما وجده من خلو الطرقات تمامًا من المارة.

وما لبث رئيس الشرطة أو الأغا والوالي (راجع الجبرتي) أن تحركــا فــي مواجهة الأزمة، فأصدرا أوامر مشددة بأن تظل الأسواق والمقاهي مفتوحــة لــيلاً وأن تبقى المشاعل موقدة خارج الدور والدكاكين. ويقول الجبرتي إنَّ تلك الأوامــر قد صدرت لسببين هما تهدئة خواطر الأهالي وتضييق الخناق على العــدو إذا مــا أراد التسلل إلى المدينة. انطلق مراد بك على رأس جنده بعد صلاة الجمعة غير أنَّه توقَّف عند الجسر الأسود حيث مكث مدة يومين لجمع شمل جنوده مــن الــراجلين والخيــالة. كما انضم إليه على باشا الطرابلسي ونصــوح باشا. وعلى الرغم مــن أنَّ مراد بك قد رتب أمر ذلك الاستعــراض الكبير لجمع القوة والمــؤن والمــدافع ربما لطمــأنة الأهــالي وتثبيت دعــائم سلطته، فإنَّه ارتكب بلا ريب خطأ فاحشا إذ أخر رحيله أسبوعًا كاملاً. ثم خرج مراد بك عن طريق البر ومعه الخيَّالة وتبعه على صفحة النيل مجموعة مختلطة من المشاة القلينجية والأروام والمغاربــة فــي غلايين صغيرة.

كان الأتراك المتمصرون موقنين بأنهم لا يُقهرون إذا لقــوا عــدوهم بــرًا، ولذلك فقد خشوا أول ما خشوا دخول السفن الفرنسية عبر النيل لتهــاجم القــاهرة. أصدر مراد بك أوامره حين رحل عن الجسر الأسود بصناعة سلسلة ضخمة مــن حديد تُشدُّ عند مضيق برج المغيزل بين ضفتي النيــل كــي تمنــع مــرور ســفن الفرنسيين".(١٨) ويقول الجبرتي إن العلماء أقاموا الصلوات بالجامع الأزهر كل يوم أثناء فترة غياب مراد بك، وتبعهم آخرون من الصوفيين أو أتباع الطريقة الأحمدية وغيرها من الطرق الصوفية، وكذلك أطفال المكاتب (وهي المدارس الابتدائية فــي ذلك الزمان) وهم يذكرون اسم الله "اللطيف". يُقِــرُّ الجبرتــي أنَّ تلــك الــصلوات والأذكار لم يكن لها أثرٌ يذكر في مجريات الأمور، غير أنَّها بعثت شعورًا بمزيــد من التآلف في مدينة تَمُر بأيام عصيبة.

وعلى سبيل الاحتياط، أمَرَ إبراهيم بك بالقبض على الأوروبيــين المقيمــين بالقاهرة كلهم وحبسهم، بل أمَرَ بعد حين بقتل الأسرى المحبوســين فــي قــصره بجزيرة الروضة. وفي بعض الأحيان أظهرت زوجات كبار السياسيين حنكة تفوق ما لأزواجهن الذين تقودهم السلطة بمرور الزمن إلى الغطرسة. ولعل زليخة هانم، حرم إبراهيم بك وزوجته المفضلة، رأت أنَّ من المنــافي للحكمــة قتــلَ رجــال أوروبيين من ذوي الأملاك العظيمة في وقت وصل فيه إلى البلاد اثنان وثلاثــون ألفًا من الجنود الذين يعدون العدة للزحف على العاصمة. حالت زليخة هــانم بــين هؤلاء الأسرى وجلاديهم واصطنعت حجة مفادها أن الرســول (ص) تنبــأ بــأن الفرنسيين سيستولون على مصر، ثم نقلت الأسرى إلى مخبأ فــي جانــب القــصر الخاص بها.(١٩)

***

وفي الإسكندرية توفر سببان دفعا "بونابرت" للعجلة، فقد أراد أن يقطع الطريق على البكوات في العاصمة قبل تجهيز استعدادتهم الدفاعية أو نقلهم للمؤن خارج المدينة، ولكنه كان يشعر أيضًا بأنَّ "نلسون" في إثره. وزع "بونابرت" الأحذية والأطعمة الجافة، وبادر بإصدار أوامره إلى الجيش بتشكيل ثلاثة صفوف تسير وراء الخيَّالة متوجهين إلى القاهرة. ترك "بونابرت" خلفه ألفي رجل في الإسكندرية يرأسهم الجنرال "كليبر" الألزاسي الذي ما زال يعاني من جرح في رأسه. ويعد شهر يوليو في مصر شديد القيظ تحت شمس ملتهبة ورياح جافة ساخنة إذ تصل درجة الحرارة إلى ٤٦° مئوية. ولم يكن "بونابرت" قد استوفى معلوماته عن ضرورات الحرب في وادي النيل في مثل ذلك الوقت من العام، ويبدو أنه لم يدرك أنَّ توافر مياه الشرب أمرٌ غاية في الضرورة، إذ سيَّر جنده دون نقطة مياه واحدة. ولعله تصور أن المياه متوافرة في آبار القرى التي تقع على طريق سير الجيش، غير أنَّه إن كان قد ظن ذلك فقد جانبه الصواب. لقد سار "بونابرت" بجيشه في موسم انخفاض النيل وقد غاضت المياه، أضف إلى ذلك أن بعض البدو الذين واصلوا المقاومة ضد الفرنسيين وجدوا سعادتهم في إخفاء الآبار التي تقع في طريق الفرنسيين أو تلويثها. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى اتهام الجنرال يتعمد استنزاف رجاله ومطالبتهم بالمستحيلات. ولا ريب أنه عمد إلى ذلك مرارًا وتكرارًا، إلا أنَّ المسألة يمكن حلها بأسلوب يجمع بين البساطة وحسن التدبر مما يقودنا إلى القول بأن "بونابرت" كان يجهل المشكلة منذ البداية ثم إذا به يتعامل معها بقسوة مخيفة عند اكتشافها. كان "بونابرت" ربيب الجُزُرِ الذي صنعَ أعظم أمجاده العسكرية في إيطاليا إلى ذلك الحين، فلمْ يدرك الصعوبات الشديدة التي يتسبب فيها نقص المياه في حرب الصحراء. أضف إلى ذلك إنه كان يسابق الزمن ولا يكاد يوقن بالفوز وهو يعلم مدى قرب الأسطول البريطاني وقوة تسليحه.

كانت السفن الفرنسية قد ألقت مراسيها في الركن الشمالي الشرقي من القارة الإفريقية، حيث وجد الفرنسيون أنفسهم في مدينة ساحلية تقع في دلتا النيل التي رسَّبها النهر عبر ملايين السنين لتمتد سهلاً منبسطًا؛ ويحمل النهر فيضانا سنويًا يغمر ضفتيه وينتهي به المطاف إلى مصبه على ساحل البحر المتوسط. وقد عاش معظم المصريين متزاحمين على ضفتي النيل وفروعه. وعلى الرغم من أنَّ النيل في الأزمنة الماضية جرى إلى مصبه عبر عدة أفرع، فإنَّ للنهر في الزمن الحاضر فرعين هما فرع رشيد في غرب الدلتا، وفرع دمياط في شرقها. كان لا بد للفرنسيين أن يسيروا إلى الفرع الغربي للنيل ويتابعوا السير بحذاء النهر إلى أن يصلوا إلى عاصمة مصر العثمانية، القاهرة التي يُطلق عليها "مصر" أو "المحروسة"، وتقع حيث ينقسم النيل إلى فرعيه.

وفي الخامس من يوليو، شرع صفَّان من الجند في السير غربًا على طول قناة جافة كان الماء يجري فيها إلى الميناء. وفي اليوم التالي سار صفٌ ثالثٌ على ساحل البحر في اتجاه ميناء مدينة رشيد التي يتمتع أهلها بثراء معروف، ومن هنالك اتجهوا جنوبًا بحذاء الفرع الغربي للنيل. اتخذ "مواريه" موقعه في الفرقة المتجهة شرقًا تحت قيادة الجنرال "شارل فرانسوا دوجا" **Charles François Dugua** وعلى الرغم من المتاعب التي عانى منها الجنود فإنَّ حظهم كان أوفر من رجال الفرقة الأخرى. ما إن مرت ساعتان على خروج فرقة "دوجا" حتى وجد الجنود أنفسهم في قلب صحراء محرقة وقد تمكن منهم الإجهاد والعطش. واصل الجنود السير في جو قائظ وتحت سماء ملتهبة دون أن يصادفوا في طريقهم أحدًا ولا مصدرًا للماء.

حاول الجنود الفرنسيون التماس الماء تحت رمال الصحراء القريبة من البحر إلا أنَّهم لم يجدوا إلا القليل من المياه القذرة التي لا تفي باحتياجاتهم، فهلك

كثيرٌ من الجنود من العطش والجفاف إذ إنّهم كانوا يقيئون ما يشربونه من المياه الجوفية القذرة، كما انتشر الإسهال والدوسنتاريا بين الجنود مما زاد من وطأة الجفاف عليهم. غير أنّهم ما إن وصلوا إلى أبي قير حتى وجدوا مياهًا نقية فاستقروا بها لقضاء الليل. كانت المسيرة أكثر هونا في صباح اليوم التّالي إذ تخللتها راحة انتظر خلالها الجنود المراكب التي أقلتهم عبر خليج يفصل بين الإسكندرية ومدينة رشيد التي لم تكن بعيدة عنها.

وفي صباح اليوم التالي، ٨ يوليو، انطلق الجنود في الساعة الثالثة، وواصلوا السير وقد أمضّهم العطش ونال منهم الإرهاق كل مبلغ. تختلف المصادر في رواية أحداث ذلك اليوم الذي وصل فيه الجنرال "دوجا" وجنوده مشارف مدينة رشيد. يقول الجبرتي إن معظم أهل تلك البلاد خرجوا على وجوههم فرارًا من القوة الأجنبية الزاحفة على مدينتهم. ويقول مصدرٌ فرنسي إنّ أهل رشيد فتحوا البوابات وبعثوا برسول يتقلد وشاحًا من ألوان الثورة الثلاثة، إذ يبدو أنّ الأخبار قد وصلتهم بشأن ذوق فرنسا الجمهورية في الملبس. وحيث إنّ رشيد مدينةٌ مفتوحة على العالم فمن غير المستبعد أن يُظهر مسيحيوها والأجانب التي يقطنونها ترحيبًا بالغزاة في حين أنّ كثيرًا من المسلمين الذين تربطهم أواصر قوية بالبكوات قد لجأوا إلى الفرار. ويُلاحظ أن فن كتابة التاريخ لدى قوم من الأقوام يحفظ في ذاكرته ما يروق لهم بشأن ما التبس من أمر مجريات الأحداث. ومع ذلك يُجمع المؤرخون على أنّ معظم الجنود قد حلوا بالمدينة وهم منهكون فانقضوا بشراهة يملأون البطون من الأطعمة والأشربة التي تقدمها مدينة اشتهرت بثرائها، فمن مياه نقية وزبيب وتمر إلى شيء من النبيذ الرديء الذي يبيعه يهود المدينة حسبما يروي "مواريه". ويصف "بيير ميليه"، وهو واحد من فرسان الخيالة الفرنسية، مدينة رشيد التي يُقدر عدد سكانها حينئذ بما يقرب من ١٥٠٠٠، والتي ازدهرت

نتيجة للإهمال والتدهور الذي لحق بالإسكندرية تحت حكم إبراهيم ومراد. يقول "ميليه" إنَّ رشيد تبعد عن البحر بمقدار فرسخ، وهي تقع على المصب الغربي للنيل، وهناك شاهد الفرنسيون لأول مرة النهر الأشهر الذي تناقلت كتب التاريخ اسمه، ويضيف "مواريه" إنَّ رشيد تحيط بها البساتين المثمرة إذ نجد فيها النخيل وأشجار الليمون والبرتقال والتين والمشمش وغيرها من صنوف الفاكهة[٢٠]. وتزدان رشيد بميدان يقع به نُزُل التجار والقوافل، به مخازن وتنتشر حوله الدكاكين. وتتنوع جماعات أرباب الحرف والصنائع برشيد فتشمل السمَّاكين والسقائين والجزارين والصباغين والترزيَّة والشرباتلية وصنَّاع الحديد والنحاس المشغول فضلاً عن كبار التجار الذين يشتغلون بالتصدير والاستيراد. وتنتج معامل رشيد زيت الزيتون والسمك المملح والأنسجة والنارجيلات. كما أنَّ بها دار صناعة سفن. رحلت فرقة "مواريه" عن رشيد في منتصف الليل وقد تزودوا بالأطعمة الجافة، وحيث إنَّهم كانوا يسيرون بحذاء النيل فقد أضحوا يتزودون من مياهه للشرب. وفي ١١ يوليو التقوا بصفيّ الجيش الفرنسي الآخرين في الرحمانية.

وكان "برنوييه"، وهو الضابط المسئول عن التموين، قد انضم إلى أحد صفيّ الجيش الذي شرع في المسيرة غربًا ثم اتجه جنوبًا، وقد عانى هو وزملاؤه من الجنود معاناة فاقت ما حلَّ بفرقة "مواريه". يقول "برنوييه": لقد تضعضعت قوانا إلا أنه كان لزامًا علينا أن نعبر تلك الصحراء المحرقة تحت وطأة حرارة لم نجد لها مثيلاً من قبل في بلادنا، ودون ظل نتفيأه ليقينا وهج الشمس، ناهيك عن افتقارنا للماء الذي نروي به عطشنا الذي كاد يهلكنا. وسرعان ما نفدت مؤونتنا من المياه ولم يعد هناك أمل في التزود بما يسد حاجتنا الملحة". إلا أنَّ "برنوييه" كان ينبغي له أن يرضى بما توفر له من نصيب من مياه، فإنَّ الجنود الذين لم يذوقوا قطرة ماء واحدة نال منهم العطش والنَصَب وكانت معاناتهم بالغة السوء إذ جفت الحلوق

وتصاعد البخار من أجسادهم. وكانت الوقفات أثناء الليل قليلة لأنَّ "بونابرت" الذي صحب جنوده على ظهر جواده أراد أن يستفيد من السير ليلاً مهتديًا بالنجوم ليخلف وراءه هذه الأرض القاحلة في أسرع وقت ويصل إلى القاهرة قبل عودة "نلسون". ويصف السارجنت "فرانسوا" ما حدث في يوم ٤ يوليو حين اكتشفت فرقته آبارًا بقرية في طريقهم إلى دمنهور. لم تمض دقائق خمس حتى غاضت المياه من تلك الآبار، وكان تزاحم أعداد كبيرة من الجنود للنزول في الآبار سببًا في اختناق الكثيرين، في حين قضى آخرون نحبهم تحت الأقدام. وقد تجاوز عدد القتلى الثلاثين حول تلك الآبار، وكان هناك من أقدم على الانتحار بعد عجزه عن التحصل على الماء". ويكشف لنا "فرانسوا" أنَّ كثيرًا من الجنود الذين ساروا جنوبًا وجدوا زيهم العسكري الأوروبي وما يحملون من متاع عبئا يثقل كاهلهم، ولذا فقد طرحوا معاطفهم وقمصانهم وألقوا بالطعام الذي تزوَّدوا به من الإسكندرية مدركين أن اللباس والطعام يمكن تعويضهما بعد حين، ويقول "فرنسوا" إنَّ الجنود غاب عليهم ما شهدوه من أنَّ أهل الإسكندرية كان يتخذون ملبسًا يختلف تمامًا عن ملابس الأوروبيين.(٢١)

ويحكي ضابط شابٌ اسمه "شارل أنطوان موران" **Charles Antoine Morand** عن حادثة عرضت للجنود وهم يبحثون عن بعض العشب الجاف كي يضرموا فيه نارًا إذ لقوا في البريَّة امرأة تحمل طفلاً بين ذراعيها. دفع الفضول "موران" لاستطلاع الأمر فوجدها فتاة يتراوح عمرها بين السادسة عشرة والثامنة عشرة في ثوب مهلهل وقد نحلت فصارت جلدًا على عظم، وكانت عيناها قد سُملتا ولم يلتئم جرحهما بعد. كانت مستلقية على الرمال الساخنة وهي تهمهم بصعوبة وقد جف حلقها وتحول لون شفتيها إلى السواد. وكانت تحمل رضيعها على صدرها. قدم لها "موران" بعض الطعام والشراب آملاً في إفاقتها فشربت الماء

ورفضت الطعام، ونقلها الجنود إلى حيث تروي ظمأها، غير أنَّها لم تلبث أن قضت نحبها، وسحب أحد البدو جثمانها بعد أن ربطه بحبل خلف جواده ليتخلص منه بعيدًا في بقعة قاحلة. وقد أجرى مترجم الجنرال "لوي ديساي" بعض التحريات في القرية القريبة وعرف أنَّها ضحية جريمة شرف، فقد "أدينت بارتكاب الزنا وحُكم عليها وعلى وليدها بعذاب فظيع، فسُملت عيناها لأيام تسع خلت، وألقي بهما في العراء. وكانت تقتات على ما تصل إليه يداها في الصحراء من جذور وحب وعشب".(٢٢)

كانت تلك الحادثة مقدمةً عملية للجنود الفرنسيين للتعرف على قيمة أساسية في الشرق الأوسط، حيث يعتمد شرف الرجل على قدرته على حماية نسائه من سعي الآخرين لإغوائهن والحفاظ عليهن عفيفات طاهرات. وفي بعض الأحيان يقع عقاب القبيلة على النساء اللائي يجلبن العار على أسرهن. وتنتشر تلك المجتمعات التي تقصر معنى الشرف في الحفاظ على عفة المرأة في شرقي البحر المتوسط بين المسلمين فضلاً عن المسيحين أنفسهم. وقد نزلت آيات من القرآن تشدد شرط ثبوت الزنا بشهادة أربعة رجال، وتحدد عقوبة الجلد، غير أنَّ تأثير من أسلموا من اليهود وما جاء بالتلمود من شرائع دفع بعض الفقهاء لتفضيل عقوبة الرجم. أما ما تعرضت له الفتاة من فقأ عينيها ونفيها إلى الصحراء، بل التسبب في قتل صغيرها، فلم يرد لمثل تلك العقوبات ذكر في الشرائع. ولعل فقهاء المسلمين كانوا سيشاركون الفرنسيين الشعور بفظاعة ما قام به الجهال من ذكور القرية بدافع الانتقام لشرفهم من أنثى ضلت السبيل. أما "موران" فعلى الرغم من شعوره بفظاعة العقاب فإنه لم يرَ في عقوبة الإعدام ذاتها ما يثير العجب، إذ إنَّ القانون الفرنسي يعترف بما لخيانة الزوجة من إهانة لشرف زوجها بما يشكل حجة تحسب له في جرائم الشرف.

وما إن بدأ الفرنسيون في السير في اتجاه الجنوب الشرقي حتى تبع البدو صفوفهم وأسروا من تخلف عن المسيرة منهم. وحين دنا البدو من الصفوف الفرنسية، وجَّه الفرنسيون مدافعهم إليهم وأطلقوا عليهم النيران مما دفعهم للاختباء قليلاً ربما لفترة بعد الظهيرة. سادت بين الضباط والجنود الفرنسيين كراهية شديدة لهؤلاء البدو الرحّل إذ استمرت المطاردة، فكدرت على الفرنسيين مسيرتهم وأودت بحياة الأصدقاء والزملاء. وفي بعض الأحيان أبدى أهالي القرى عداوة مماثلة، وفي هذا الشأن يحكي السارجنت "فرانسوا" عن تعرض الجنود لنيران مكثفة عند اقترابهم من مدخل إحدى القرى؛ يقول "فرانسوا" "بما أنَّنا لا ندع السلاح من أيدينا فقد رددنا عليهم بالمثل فحمي وطيس المعركة. ثم ألقينا القبض على كثير من الأهالي وأعدمناهم. وردعت تلك القسوة أهل القرية عن الثورة".[٢٣] وبمجرد القضاء على ما واجهه الفرنسيون من تحدٍ، شرعوا في شراء ما يلزمهم من مؤن من فلاحي تلك القرية.

وفي يوم ٩ يوليو سار "برنوييه" مع جنوده نهارًا. وكانت الشمس تلهب رءوس الجنود الذين اصطكت ركبهم، وكادوا يختنقون من مخاط ثخين غطى شفاههم وحلوقهم؛ فكادت رئاتهم تتوقف عن العمل. ويتذكر كابتن "فرتراي" Vertray أنَّ حرارة الجو كانت تبخر الماء القذر في البرك فيلمع الملح المترسب لمعان الماء، وكان كثيرٌ من الجنود يهرعون وفي أيديهم آنية لملئها ولكن أملهم يخيب عندما يجدون أنه كلما تقدموا غاض الماء تحت أقدامهم.[٢٤] وعلى الرغم من ورود مثل تلك الظاهرة في كتب القدماء، فإنَّ السراب لم يكن معروفا أو مفهومًا حتى زمن الحملة الفرنسية على مصر، وإلى أن كتب عالم الطبيعة "جاسبار مونج"، الذي ينتسب إلى المجمع العلمي المصري، بحثا عنه بعد أن أدرك الجنود أنه خداع بصري بزمن. ولكن ما إن فهم الجنود كنه السراب حتى حاصرهم اليأس من كل

جانب. واضطر "برنوييه" أنْ يتجاهل أنات الجنود المثيرة للشفقة وهم يتساقطون من الجفاف ويطلبون الماء ويحتضرون. ويسجل "برنوييه" دهشته، فهو ليس جنديًا محترفًا، إذ يمضي في طريقه متخطيًا جثث الجنود دون مبالاة. غير أنه كان هو نفسه يتقدم بصعوبة شديدة ولم يعد لديه من القوة ما ينفقه في رعاية الآخرين. وبعد قليل تراءى للجنود من الأشجار ما يدل على اقترابهم من منطقة مأهولة ففرحوا وكأنهم بحارة وصلوا إلى البر، ونزلوا إلى دمنهور في الغسق ولا تكاد أقدامهم تحملهم. ويقدر "ديزفيرنوا" عدد من قضى من الجنود الفرنسيين في تلك المسيرة التي انطلقت من الإسكندرية واستغرقت أربعة أيام بـ ١٥٠٠ جندي.

ويسترجع الجنرال المساعد "أوجستن – دانيال بييار" **Augustin-Daniel Belliard** وهو ابن النائب العام ذكرياته، ويُذكر أنه قد كوَّن ميليشيا من الفرنسيين الوطنيين في زمن الثورة شكلت جانبًا من الحرس الوطني وضمنت له مستقبلاً في الخدمة العسكرية. يقول "بييار" إن الظلمة كانت قد بدأت تلقي ظلالاً كثيفة في حين سار الجنود مدفوعين بروح التحدي، وإذا بهم يرون نور المشاعل التي يحملها حشدٌ من الناس متجهين إليهم.(٢٥) كان هؤلاء وفدًا يتقدمهم مفتي المدينة، ويقول "بييار" إنهم حملوا إليهم مشاعل وخبزًا وعسلاً وجبنا. طلب الفرنسيون أماكن لإقامتهم وقد شجعهم ما وجدوه من محاولة الأهالي كسب ودهم، غير أنَّ المفتي قابل طلبهم هذا بالرفض القاطع (يرجح "بييار" أنَّ الرفض سببه نظرة الأهالي لهم بوصفهم كفارًا سيلحقون الدنس بأتباع محمد، غير أنَّ تساؤلاً يتبادر إلى الذهن عمَّا إذا كانت إحدى البلدات الفرنسية سترحب بتوفير الإقامة لجنود ألمان). ويقول "بييار" إن الفرنسيين قنعوا بالمبيت في الحمامات حيث أمضوا الليل على الحصير المفروش. أما الجنرال "ديساي"، الذي ينحدر من أصول أرستقراطية ولكنه انضم إلى الجيش الثوري، فقد ضاق صدره بعادات أهل البلدة فاقتحم بوابات المسجد

الجامع وحلٍّ به. وغني عن القول إنَّ تحويل المسجد إلى ثكنة للجنـــود الفرنـــسيين ترك انطباعًا سيئا لدى مسلمي دمنهور.

كان أغلب سكان البلدة التي يبلغ تعدادها أربعة آلاف نسمة قد لاذوا بـــالفرار حين علموا بمقدم الفرنسيين، وأخذوا معهم مؤنهم، وماشيتهم، وحتى بوابات بيوتهم في بعض الأحيان (إذ يعد الخشب المحفور سلعة ثمينة في البلاد التي يسودها جـــوٌ جافٌ). ونذكر من ضباط الحملة "جان-بيير دوجورو" Jean-Pierre Dogucreau وهو ملازم في سلاح المدفعية من أسرة متوسطة الحال في "أورليـــان" Orleans بوسط فرنسا (وكان أبوه صانعًا للشعر المستعار)، وقد حارب "دوجورو" في جيش الراين ثم كُلف بالانضمام إلى الحملة على مصر. يصف "دوجورو" دمنهور بأنهـــا مجموعة من الأكواخ تشبه أبراج الحمام وتقع على ربوة.(٢٦) ويضيف أنَّ بعـــض المساجد لها مآذن تعانق النخيل السامق وتبدو من بعيد مشهدًا يسُر الناظرين، غيـــر أنَّ جمال المنظر يتلاشى إذا ما اقتربنا منه". بذل الفرنسيون جهدًا كبيرًا ومالاً كثيرًا ليجدوا ما يقتاتون به، كما أنَّ أهل البلدة كانوا يستخفون بنقودهم ولا يرضون بهـــا. نظر الفرنسيون إلى أهل دمنهور بوصفهم قتلة يضمرون الشر ويتحالفون مع البدو المحيطين ببلدتهم، إذ تربطهم بهم كثير من العلاقات ويتسمون بكثير من صـــفاتهم. وقد توقع محررو المذكرات من الضباط أن يخضع الفلاحون لهم، ولكنهم أصـــيبوا بخيبة أمل مرة بعد مرة. وقد شرع "دوجورو" في إيجاد مبررات لتفسير تمرد أهل دمنهور وعزى ذلك إلى ما للبدو من تأثير سيِّئ عليهم.

ويؤكد "ديزفيرنوا" أنَّ الضباط واجهوا "بونابرت" في دمنهور بشأن الكارثـــة التي حلت بهم إذ تحالفت الصحراء ومشاكسات البـــدو علـــى جنـــودهم فـــأرهقتهم واستنفدت جهدهم. يقول "ديزفيرنوا" إنَّ الجنرال "ميرير" Mireur من "مونبلييـــه" Montpellier حمل حملة شعواء على حكومة الإدارة لإرسالها الجيش إلى مـــصر،

وأصر على الرحيل فورًا إلى إيطاليا حيث تنتظره في "ساردينيا" و"نابولي" مهام أولى برعايته. أراد "ميرير" أن تُتبع خطة طويلة المدى للسيطرة على شرقي البحر المتوسط تتضمن العودة إلى مصر في الوقت المناسب. لم يكن هناك مجال للشك في وطنية "ميرير" الذي قام بدور كبير بحق في شيوع نشيد "المارسيلليز"[*] Marseillaise بوصفه نشيد الثورة، غير أنَّ خطابه الحماسي لم يكسبه تأييدًا، إذ يزعم "ديزفرنوا" أنَّ "بونابرت" أعرض عن ذلك الرجاء الحار للانسحاب وقابله ببرود شديد. عزم "بونابرت" على غزو مصر دون توان، ولذا فقد نهض وأنهى الجلسة. أما "ميرير" فقد أدرك أن مستقبله المهني قد انتهى فخرج على صهوة جواده إلى الصحراء وأطلق النار على رأسه. وكان "ديزفيرنوا" في صحبة جماعة الجند التي عثرت على جثته. أُقيمت جنازة عسكرية له ووري الثرى في مقابر المسلمين.[٢٧]

كان وقع وفاة "ميرير" قاسيًا على الضباط والجنود الذين عرفوه، وكثيرٌ منهم فضل أن يقتنع بإشاعة فحواها أنَّه سقط ضحية لاعتداء من البدو على قبول انتحاره يأسًا. يسجل "موران" في خطاب أنَّ صديقه "ميرير" اختفى عن الأنظار خلف تل من الرمال ووقع في كمين بعض البدو الذين اتخذوا من ذلك المكان مخبأً لهم. ويضيف "موران": "أن مصر، والعمليات العسكرية التي نضطلع بها، وخرائبها، وآثارها، تثير الاشمئزاز في نفسي، تحيط بي الأهوال من كل جانب، وتزدحم مخيلتي بصور مرعبة وقد كانت لزمن طويل مضى لا يداعبها سوى أرق التصورات وأعذبها؛ وهي الآن تهيم في عالم تسكنه الأشباح باحثة عن روح "ميرير" الصريع. لقد فقدناه. انتزع القتلة الهمج حياته فقضى وهو في ريعان

(*) ونطقه السليم بالفرنسية: مارسييز.

شبابه، شجاعًا، صالحًا، مُقدرًا لحق المجد والصداقة، محترمًا من زملائه، حاملاً على جبينه أكاليل الغار. سقط ضحية في أيدي البدو قساة القلوب".(٢٨)

وحدث في دمنهور أن تعرض "بونابرت" لركلة جواد عربي في ساقه اليمنى. ويقول طبيب الجيش إنَّ تلك الحادثة نتج عنها كدمة مؤلمة يُخشى من تعرضها لإصابات أخرى، غير أنَّه حرص على تجنيب "بونابرت" تلك الإصابات وساعده في وقت قصير على الشفاء مع ما عاناه من ألم في مشيته وقيامه بمهامه الاعتيادية دُون راحة.(٢٩) اتخذ القائد الأعلى من بيت عمدة دمنهور مقرًا له، وكان البيت حديث الطلاء ولكنه متواضع لا يشي بثراء قاطنه. ويروي سكرتير "بونابرت" الخاص "لوي دي بوريين" Louis de Bourrienne ما دار من حديث بين القائد الكورسيكي ومضيفه المغلوب على أمره عندما سأله "بونابرت" عن السبب الذي آثر معه أن يعيش في بيته عيشة الفقير المعوز، فأجابه العمدة أنه بعد أن فرغ من تجديد عمارة بيته، وطيرت الأنباء الخبر إلى القاهرة، جاءه من يطالبه بسداد مال فُرض عليه لأنَّ مصروفاته تدل على ثرائه. يقول العمدة "رفضتُ أداء المبلغ المفروض فأهانوني واضطروني اضطرارًا لسداده". ويسجل "بوريين" دهشته بشأن ما يملكه الحاكم من حق استخدام القوة لإرغام الناس على دفع ضرائب لا طاقة لهم بها. وواقع الأمر أنَّ بونابرت كان حينئذ يخطط لوضع خطط استحواذ من عنده على ممتلكات المماليك. يثبت المهندس "فييه دي تيراج" Villiers du Terrage في مذكراته تحت يوم ١١ يوليو قرار تشكيل لجنة تتولى مسئولية جرد ممتلكات المماليك والاستحواذ عليها.

ويروي "جاك ميوه" Jacques Miot، مسئول التغذية في الجيش الفرنسي، في مذكراته عن الغزو، حادثةً أخرى تؤكد ما ذهب إليه عمدة دمنهور من حرص تمثل في إخفاء ما يملك وحجبه عن الأعين. يقول "ميوه" إنَّ الجند انتشروا في

دمنهور بحثا عن القمح، فصادفوا بيتا للحريم لا نوافذ له ويقع بعيدًا عن الأعــين، وعثروا فيه على ثلاث جوارٍ زنجيات هن ملك يمين العمدة الـشيخ. لــم تكــن الجواري على درجة من الجمال إلا أنّ "ميوه" يُقر بأن الصحراء لم تدع لهم تــرف الاختيار المدقق. منى الجنودُ أنفسَهم بأول لقاء يجمعهم بالنساء في مــصر، ولكــن سرعان ما خاب أملهم إذ اكتشفوا أنّ الشيخ قد وضع أحزمة العفة الحديدية حــول خصر النساء الثلاث، وثبتها فاستحال عليهم نزعها عنهن.(٣٠)

وكان "برنوييه" إثر وصول الفرنسيين إلى دمنهور خَلَدَ إلى بقعة ظليلة فــي البلدة وأرسل خادمه ليجد طعامًا يأته به. ولبث "برنوييه" في موقعه ينتظر خادمــه وقد استسلم لنوم متقطع وهو يتضور جوعًا. وعندما انتبه وجد زوجة أحد الجنــود تقدم له بعض الحساء، غير أنه اعتذر عن قبول الطعام في أدب لا يتفق والظروف التي يمر بها. وكان هناك عددٌ من زوجات الجنود اللائي صحبن أزواجهن، وأغلب الظن أن أكثرهن لم تكتب لهن النجاة. يقول "برنوييه" إنه كان يفضل أن يدفع للمرأة ثمن ما أعدت له من طعام، إلا أنه ما كان ليقبل بأي حال من الأحوال استــضافة المرأة المسكينة له. ثم جاءه الخادم بجبن أبيض تعافه النفس فلــم يقربــه. الــتمس "برنوييه" الطعام على مائدة أحد الضباط، وهناك سمع ما لا يرضــيه مــن تهديــد ووعيد بإلقاء القبض عليه لتخليه عن موقعه، إذ إنّ الأوامر كانت قد صــدرت لـــه بمرافقة فرقة المعدات. قال "برنوييه" إنه انتظر الفرقة في الإسكندرية إلى أن كادت مسيرة الجيش الزاحف إلى القاهرة تختفي عن ناظريه فرأى أنه مــن الأفــضل أن يمضي قدمًا وحده. حينئذ روى له الضباط ما جرى فقد ضــلت فرقــة المعــدات وقوامها اثنان وستون جنديًا الطريق وذبحوا جميعًا على أيدي البدو.

انطلق الفرنسيون مجددًا في تلك الليلة، وكانوا أثنــاء وجــودهم بــدمنهور يتغنون بأناشيد الحرب ونشيد "المارسييز" القومي؛ ثم لم يلبثــوا بعــد الرحيــل أن

التزموا بصمت مطبق خشية أن ينتبه أمراء المماليك لمسيرتهم حسبما يروي السارجنت "فرانسوا". ويتذكر الجراحُ دي جيه لاري **D. J. Larrey** كيف تقدم الجند الفرنسيون على أرض تتزايد مخاطر مسيرتهم عليها بمرور الوقت، ويقول إنَّ فرقة المقر التي سار معها قائمًا بعمله في رعاية الجرحى قد تعرضت لهجمات من كل جهة على أيدي الخيالة من البدو والمماليك. ويروي "لاري" أنه كان لا مفر من الاستسلام لولا مسارعة فرقة "ديساي" لإنقاذهم، ولولا الخطط البارعة والانتباه للخطر الذي أبداه الكولونيل "دوبا" **Dupas** الذي يقود كشافة الجيش. وعلى الرغم من ذلك كله فإنَّ بعض رجال الفرقة لقى حتفه وأصيب بعضهم الآخر بجروح.(٣١) وفي صباح اليوم التالي يسجل "برنوييه" أنَّ البدو أسروا ضابطًا شابًا ممتازًا، وطلبوا فدية لتسليمه. وجاء رد "بونابرت" بالرفض قائلاً إنه إن اضطر لدفع فدية لكل من يقع أسيرًا لدى البدو في الطريق إلى القاهرة، فإنَّ خزانته ستصبح خاوية. وحين وصلهم الرد لم يكن لدى البدو أدنى رغبة في إيواء الأسير وإطعامه فأطلقوا النار على أسيرهم على مرأى من الفرنسيين. وكان "بونابرت" قد استجاب من قبل لطلب الفدية لآخرين ولذا لم يكن مفهومًا لِمَ رفض دفع الفدية هذه المرة. لم يكن المبلغ المطلوب كبيرًا وكان القرار للجنرال وحده. أثار قرار "بونابرت" اشمئزاز "برنوييه" الذي انتقل من الحياة المدنية إلى الحياة العسكرية، إلا أنَّ كثيرين شاركوه الشعور ذاته.

وما إن وصلت فرقة "مواريه" إلى مشارف الرحمانية في ١٠ يوليو حتى ظهر لها بعض الأمراء، فانطلقت فرقة الخيالة الخامسة عشرة التي يقودها "ديساي" في إثرهم.

الفصل الثالث

واختمرت الفِكرُ في الأذهان

وفي الرحمانية، جاءت الهجمة الفرنسية سريعة؛ فاندفع الجنود شاهرين السيوف، غير أنَّ سرعة الخيول العربية سمحت للأتراك المتمصرين بالمراوغة السهلة بعيدًا عن مجال السيوف الفرنسية. شنَّت الخيَّالة المسلحة الهجمة تلو الأخرى يحدوهم الأمل في الفوز، لكنهم وجدوا صعوبة جمة في تحقيق التلاحم المباشر الذي قد يمهد لهم إلحاق الهزيمة الساحقة بعدوهم الذي يتّسم بخفة الحركة. تكبد الفرنسيون بعض الخسائر في الأرواح إثر هذا اللقاء السريع بعد ما أوقعوا أربعين من القتلى في صفوف الأتراك المتمصرين.

وفي تلك الأثناء، برزت من جهة الشمال قافلة من سفن مصرية تحملْ المؤن إلى القاهرة، فأطلقت عليها مدفعية الأسطول الفرنسي النيران ففرقت سفنها. انسحبت السفن ولكن الأتراك المتمصرين وجدوا أنفسهم وجهًا لوجه مع قوة بحرية فرنسية كانت قد أبحرت من الإسكندرية، وقد حاولت القوة الفرنسية أن تدفعهم إلى تسليم المؤن التي تحملها سفنهم، غير أنَّ المصريين تمكنوا من المراوغة والإبحار في النيل. وقد كتب "بونابرت" إلى المواطن الجنرال "دوجا" بما سمع من صدام الجنرال ديساي، الذي لم يدم طويلا، مع ألف من الجنود الأتراك المتمصرين عند الرحمانية، وما نما إلى علمه من أنَّ أداء الجنود المصريين لم يكن مرضيًا، وأضاف أنَّه لا ينقصه إلا مقدمه ووصول الزوارق المحملة بالمدافع ليبدأ الزحف الكبير إلى القاهرة.(١) ويبدو من وصف "مواريه" للمعركة أنَّ "بونابرت" توَّفرت له معلومات عن الاشتباك الأول مع الأمراء عند الرحمانية حملت مبالغة في حجم المعركة وحسن التخطيط لها.

وما إن وصل الجنود إلى مشارف الرحمانية حتى وجدوا أنفسهم في نهاية المطاف على مرمى حجر من مياه النيل العذبة، ومع ذلك ساد شعورٌ بأنهم غرباء في بلاد غريبة تكمن المخاطر في أكثر بقاعها سحرًا. ويروي جندي المشاة "فرانسوا فيجو-روسييون" **François Vigo-Roussillon** في مذكراته أنَّ الجيش كله، بما في ذلك الخيل والحمير، ألقوا بأنفسهم في النهر الذي طال الاشتياق إليه. كم بدا لهم رائعًا ومياهه المنعشة تبعث فيهم النشاط، غير أنَّ التماسيح كانت لهم بالمرصاد فبترت أطراف البعض، وحملت البعض الآخر بعيدًا. ويضيف "فيجو-روسييون" أنَّ وحدته تقدمت حوالي فرسخٍ ثم أقامت الخيام على هيئة مربعات (لا شك؛ لمراقبة جند العدو فضلاً عن تماسيح النيل)[٢].

يصف "مارمون" الرحمانية فيقول إنَّها قرية تتألف الدور التقليدية بها من أكواخ جدرانها بنيت بالطمي أو في بعض الأحيان من الطوب اللِّبن الذي جففته الشمس، وترتفع أربع أقدام. ويتناسب حجم الكوخ مع الأسرة التي تسكنه. ويتحرك الداخل إلى الكوخ وهو منحنٍ حيث لا يتسع الباب لمن يدخل وقامته معتدلة. وعادة ما ترتفع بناية حسنة الصنع فوق البيوت تقوم مقام العش لأعداد كبيرة من الحمام. ورأى "مارمون" خارج تلك الدور المتواضعة المصنوعة من الطمي والقش تلالا مما حصد الفلاحون من العدس والفول والبصل. ويضيف "مارمون" أنَّ بجوار أي قرية مصرية بستانًا من نخيل - وهي أشجار تجلب دخلاً كبيرًا (تنتج النخلة الواحدة ما قيمته سبعة فرنكات من التمر في العام الواحد). وهي بالإضافة إلى ذلك على جانب كبير من الجمال تعلوها تيجان شامخة تبرز ما يميزها من سمو ورشاقة.[٣] لم يفلح "مارمون" حينئذ في فهم الأسباب التي دعت المصريين لبناء دورهم على تلك الصورة. ومن المعلوم أنَّ المناخ الحار يدعو إلى إرساء القواعد تحت سطح الأرض بمسافة كافية تسمح بتبريد الدور من الداخل، في حين

يفضل الطوب المصنوع من الطمي والقش الحجارة عند البناء؛ فالأمطار جد شحيحة في مصر.

ويذكر "مالوس" Malus أنَّ بعض كبار القوم جاءوا يحملون "أعلامًا تركية" يطلبون مقابلة الفرنسيين. ومن غير المعلوم إن كانت تلك الأعلام تركية أو إسلامية، كما أنه من غير المعلوم إن كانت علامة تحدٍ مضمرة أو نتيجة لما نشره "بونابرت" بين الناس عن مجيئه بإذن السلطان سليم الثالث الجالس على سرير الملك في إستانبول. حط "برنوييه" أيضًا رحاله في الرحمانية التي تقع على الجانب الغربي للنيل في العاشر من يوليو، ولم يكن قد سمع بأخبار المعركة مع أمراء المماليك، ولكنه سجّل في مذكراته أنَّ أهل البلدة فرّوا من وجه الفرنسيين كما جرت العادة. وتقدم لنا دمنهور والرحمانية مثالين لما حل بالفرنسيين من إحباط في تقدمهم جنوبًا على ضفتي النيل على أيدي النساء المصريات اللائي لجأن ببساطة إلى الفرار من بلداتهن وهن تحملنَّ من المؤن كل ما وصلت إليه أيديهن. وهكذا حرَمْنَ الفرنسيين من الطعام والجنس. إنَّ قبول النساء هجر دورهن كي يحرموا الفرنسيين من كل راحة لم يكن الدافع إليه الخوف فحسب، فإنّهن لو خضعنَ للفرنسيين فإنَّ الخوف سيتملكهن سواء بسواء، وإنّما كان في فرارهن سياسة تحدٍ على المدى الطويل. نَهَبَ الجنود الدقيق من بعض البيوت التي هجرها أصحابها وصنعوا بعض "البسكويت" والتهموه بشراهة. وفي بعض الأحيان كان الجنود الفرنسيون، الذين يضيقون بما نزلوا به من قرى خاوية لا نفع فيها، يضرمون فيها النيران انتقامًا من أهلها. يقول "برنوييه":

وفي اليوم العاشر من يوليو وصلنا إلى الرحمانية بعد ساعتين، وهي بلدة تقع على ضفة النيل. وما إن رآنا أهل القرية على البعد حتى فرّوا هاربين، وكانت النساء تصرخن

وتولولن وتثرن التراب تحت أقدامهن في اندفاعهن، وكلها علامات تدل على الرعب في هذا البلد. وعلى الرغم مما تتمتع به تلك البلدة من جمال، فإنّ شعورًا بالحزن والوحشة خيَّم عليها بعد فرار سكانها منها. ولمّا وجد الجنود أنفسهم محرومين من الموارد في ظل تلك الظروف دفعتهم الرغبة في الانتقام إلى إشعال الحرائق في أرجاء البلدة، وكم كان مشهد البلدة التي أتت النيران على نصف أحيائها مخيفًا.(٤)

ولم يكن التعامل الوحشي مع الأهالي الذين يبدون المقاومة للجيش الفرنسي الجمهوري أمرًا عارضًا، ولم يقتصر إيقاع مثل ذلك العنف من قبل الجنود الفرنسيين على الأجانب وحدهم منذ بدايات العقد الأخير من القرن الثامن عشر.

إن أحداث انتقام من هذا القبيل ضد من يرفض التعاون من بين أهالي القرى والمدن يعيد إلى الأذهان الأسلوب الذي تعامل به الجيش الجمهوري مع الثورة التي قام بها فلاحو "فينديه" **Vendée** في غرب فرنسا تأييدًا للملكية والكنيسة بين عاميّ ١٧٩٣ و١٧٩٦. ففي تلك الفترة، أحرق الجيش الثوري المدن والقرى وأعدم المتمردين دون محاكمة. ويقدر الحد الأدنى للضحايا الذين سقطوا من إجمالي سكان هذا الإقليم البالغ عدده ثمانمائة ألف بأربعة وعشرين ألفا، ويقدر بعض المؤرخين العدد بأكثر من ذلك بكثير. ولم يَفُتْ المراقبون المعاصرون لتلك الأحداث أوجه الشبه بين الحدثين، إذ يكتب الجنرال المساعد "إي إف داما" **E. F. Damas**، الذي تولى رئاسة الأركان في عهد الجنرال كليبر فيما بعد قائلاً إنّ المعارك مع البدو والفلاحين أثناء زحف الفرنسيين من الإسكندرية إلى القاهرة، جلبت دمارًا يفوق معارك "لا فنديه"(٥). كما استدعت تلك الأعمال ما قام به الفرنسيون من قمع وحشي لثورات الفلاحين في الحملة الإيطالية في عامي ١٧٩٦ و١٧٩٧.

وهناك بعض المؤرخين من ذوي الاتجاهات اليمينية الذين يرون أنَّ الثورة الفرنسية كان مقدرًا لها بحكم جوهرها أن ترتكب أحداث العنف في عهد الإرهاب، وأن تمارس القمع الذي وقع على إقليم "فنديه"، فهي ثورة ذات إيديولوجية كُلِّيَّة داست تحت أقدامها حقوق الفرد في انحياز معلن لمفهوم الإرادة العامة التي روَّج لها الفيلسوف الاجتماعي "جان جاك روسو".[٦] أيّ أنَّهم يقصدون أنَّ الثورة خطَت أولى خطواتها مدفوعة بروح شمولية؛ لأنَّ قادتها رأوا الخير السياسي كله في الوحدة لا التعدد الذي يقوم على مصالح مشروعة ومتنافسة. غير أنَّ تلك النظرة النقدية قوبلت بالرفض عمومًا، إذ إنَّها تقدم تبسيطًا مخلاً لا يأخذ في الاعتبار تعقيدات السياسة الفرنسية في تسعينيات القرن الثامن عشر. ففي البداية استهدفت المُثل العليا التي تضمنتها وثيقة حقوق الإنسان والمواطن، والتشريعات التي نظمت عمل المؤسسات السياسية، والتي صدرت في عام ١٧٨٩، حماية حقوق الأفراد وسمحت بقيام مجتمع ذي طابع تعددي. أضف إلى ذلك أنَّ الدولة الفرنسية في السنوات الأولى من العقد الأخير من القرن الثامن عشر حتى منتصفه لم تكن تخضع لحكومة مركزية في واقع الأمر، بما لا يتفق والنموذج الشمولي؛ بل كيف للمرء أن يفسر فترة الهدوء النسبي بين عامي ١٧٨٩ و١٧٩٢، وكذلك الاتجاه نحو الليبرالية بعد عام ١٧٩٤ على أيدي دعاة متحمسين لثورة ١٧٨٩ وقيمها مما أدى إلى قيام حكومة الإدارة. ومن ناحية أخرى، فإنَّ قادة الحركات التي دعت إلى العودة إلى النظام الملكي، مثل زعماء التمرد الذي وقع في إقليم "فنديه"، لم يكونوا بأي حال أقل وحشية. فإذا كان ممارسة الفرنسيين للعنف في "فنديه" أو في مصر جزءًا لا يتجزأ من فلسفة الجمهورية، فما كانت لتثير نقد أعضاء الحملة الجمهوريين الملتزمين لها. وقد شهدنا كيف تأذَّى "برنوييه" من حجم العنف الذي مارسه الفرنسيون في مصر.

استقر الجند عند أطلال الرحمانية في انتظار وصول مركبين يحملان المدافع، وسفينتين صغيرتين وعشرين سفينة نقل محمّلة بالمؤن والذخيرة. وصلت الفرقة الثالثة في نهاية المطاف، وفي فترة ما بعد الظهيرة من يوم الثاني عشر من يوليو، استعرض "بونابرت" جنوده وألقى خطبة يعلنهم فيها بأن معاناتهم لم تنته بعد؛ فما زال عليهم أن يقطعوا الفيافي والقفار ويشتبكوا في عدة معارك قبل أن يصلوا إلى القاهرة "حيث ننال من الطعام كل ما نشتهي". ويتذكر "مواريه" أيضًا أنّه أثار الحماسة في نفوس رجاله، إذ لوّح لهم بعودة سريعة إلى فرنسا تعقبها هجمة ضد إنجلترا. وهكذا حلّ دافع رئيسي محل مداعبة أحلام المجد الحضاري، وكانت العودة هي الدافع الأوحد الذي يمكن للجيش الفرنسي أن يستجيب له في تلك اللحظة. ويقول "برنوييه" إن خاطرًا مر به حينئذ أوحى له أنّ الحاجة إلى الخبز وحده ما كانت لتبرر رحلة شاقة إلى إفريقيا، على افتراض أن ذلك كان هو الهدف المنشود.

ويعلو صوت "فيجو – روسييون" **Vigo-Roussillon** شاكيا قصر نظر القائد الأعلى فيما يتعلق بأبسط الترتيبات، فيقول إنّ الأغذية الجافة التي يزوّد بها الجند قد فسدت، "فإذا بنا بعد الأهوال التي قاسيناها من العطش، عرضةً للهلاك جوعًا وسنابل القمح تمتد من حولنا من كل جهة"(٧). ولم يكن بمصر طواحين تعمل بقوة الهواء أو الماء، ولم يكن الفرنسيون قد نقلوا معهم طواحينهم الصغيرة التي تُدار يدويًا. كما أنّهم افتقدوا الأخشاب اللازمة لإنضاج الطعام. وكان نقده لـ "بونابرت" لاذعًا: "إنّ الافتقار إلى التخطيط كان خطيئة لا تغتفر أنزلت بالجيش أذىً كبيرًا". ويقول إنّ مجرد تزويد الجند بحاجتهم من الطعام والشراب كان سيحول دون معاناة كبيرة، ناهيك عن تجنب إزهاق أرواح الجنود الذين قضوا أثناء مسيرتهم إما عطشًا أو انتحارًا. ويقول أيضًا إنه إذا كان توزيع المؤن الغذائية والماء في "طولون" كان

سيفضح وجهة الأسطول الفعلية لدى الأعـداء، فقد كان في إمكـــانه أن يحمّــل إحدى السفـن سرًا بتــلك المؤن ثم يقـوم بتوزيعها على الجنود حـين وصـولهم إلى الإسكندرية.

وكان "بونابرت" قد أنزل العلماء وغيرهم من أعضاء الحملــة مــن غيــر المقاتلين على ظهر سفنه في الرحمانية. ففي مثل ذلك الوقت من العام يكون النيـل في أدنى مستوياته فاقتصر استخدام الفرنسيين على سفنهم الصغيرة، وهــالهم مــا رأوا من ضحالة النهر الشهير في بعض المواقع. وكان القائد الأعلى قــد خطــط لنشر قواته البحرية على صفحة النهر، وقواته البرية على إحدى ضفتيه على نحو يسمح لأفراد كل قوة أن يروا أفراد القوة الأخرى. إلا أنَّ رياح المتوســط القويــة دفعت بالسفن الصغيرة في اتجاه القاهرة بسرعة تفوق زحــف الجنــود؛ فانفــصل جنــاحا الجيش. انطلق المشاة في اتجاه شبراخيت في مساء ١٢يوليو، وفي أقــوال أخرى في صبــاح ١٣ يوليو. وما إن قاربوا مشارف البلدة حتى رأوا الخيالة مــن الأتــراك المتمصرين من وراء تحصيناتهم على ضفة النهــر وهــم علــى أهبــة الاستعداد للهجوم.

يسجل أحد الضباط ويدعى "ديتروي" **Detroye** وكان علــى رأس الكتيبــة الهندسية ذلك المشهد فيقول إنَّ القوات المصرية وأعلامها وعتادها غطت الــسهل دونما تنظيم، بينما اتخذت المدفعية والقوارب الطويلة التي تحمل المدافع مواقعهــا على نحو يحقق لها السيادة في انحناءة على جانب النهر.(٨) وكان الجنــاح الأيمــن من الجيش الفرنسي في شبراخيت يدعمه النيل، أما قلب الجيش فقــد أدار ظهــره للنيل بينما امتد الجناح الأيسر وراء شبراخيت. استعرض القائــد الأعلــى قواتــه وأوصى الضباط بإصدار أوامر دقيقة، وأوصى الجنود بالانتظــار إلــى أن تقــوم الخيالة بالهجوم. كما أمر "بونابرت" فرقة "ديساي" باحتلال قرية شبراخيت ووجّــه

فرقة "رينيه" للسيطرة على الجانب الأيمن للقرية، وفرقة "بون" للسيطرة على الجانب الأيسر، لتقع القرية بين شقي الرحى. أما فرق "دوجا" و"فيال" فإنها امتدت إلى اليمين من فرقة "رينيه" جنوبًا في اتجاه النيل.

انطلق صفٌ من الخيالة من بستان للنخيل للاشتباك مع الجناح الأيسر للجيش الأوروبي وقد شكل نصف دائرة كي يحاصره. ويطلق الأتراك المتمصرون على هذه المناورة اسم الدائرة.(٩) ويستدعي الكابتن "ديبونتون" **Deponthon** في مذكراته ما جرى فيقول: "تضاعفت أعداد المصريين على نحو ملحوظ، وقد اصطفوا صفا واحدًا أمام قرية شبراخيت بحيث يحتمون بالنيل من الناحية اليمنى ويواجهونا بامتداد داخل القرية من الناحية اليسرى، وقد بلغ عددهم ما يقرب من اثنى عشر ألف أو ثلاثة عشر ألف رجل، ولكن ثلاثة آلاف منهم راكبون والآخرون من الرقيق أو القرويين بعضهم يحمل البنادق وأكثرهم يحملون العصي".(١٠) ثبت الفرنسيون في مواقعهم آملين أن يبدأ أمراء المماليك الهجوم، إذ رأوا أنَّ ذلك في صالحهم، غير أنَّ الأمراء قدَّموا وحدات قليلة من الخيالة استعرضت قوتها أمام الفرنسيين إلى أنْ أطلق الفرنسيون النار عليها. واستمر الحال على هذا المنوال إلى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي.

أصدر "بونابرت" الأوامر إلى الفرق كافة بتشكيل مربعات من المشاة تحمي وراء صفوفها المعدات الحربية والفرسان الفرنسيين المعدودين الذين جلبهم الفرنسيون ضمن قواتهم؛ اتخذ الجنود مواقعهم على هيئة متدرجة فأصبحت كل فرقة مجاورة للفرقة التي تليها. واحتلت المدفعية مركز التشكيلات.(١١) ويتذكر "فرتراي" استعداد الجيش الفرنسي لملاقاة الأمراء الفرسان الذين ضُربت بشجاعتهم الأمثال شارعين السلاح المثبت ببنادقهم. أمر "بونابرت" بإطلاق نيران المدافع عند اقتراب الأمراء وجنودهم من الرقيق من مرماها. وتساقطت القذائف تبث الرعب

في النفوس فلم تواتِ الأمراء الشجاعة للهجوم. كما أطلق الفرنسيون بعض القنابل المتفجرة التي لم يعهدها الأتراك المتمصرون ولا خيولهم من قبل. وحتى بعد أن استجمعوا شجاعتهم في مواجهة نيران المدفعية التي توالت بكثافة لم يسبق للأمراء أن خبروها من قبل، استحال عليهم اختراق مربعات المشاة. ويسجل "مواريه" أنَّ العدو حاول أن يدفع بالخيالة لشن عدة هجمات باءت جميعها بالفشل إذ كروا وفروا محاولين الكشف عن ثغرة في صفوف الفرنسيين. لم يزل الأمراء يظهرون التحدي في مواجهة الفرنسيين ويحاولون الالتفاف من جهة اليسار ليلتفوا حول قواتهم. ويقول "ديبونتون" **Deponthon** إنَّ الأمراء أصابتهم الدهشة حين واجهوا فرقة الجنرال "رينييه" التي احتلت الموقع الأيمن من القوات الفرنسية، والتي أطلقت من نيران المدافع ما فرَّقَ صفوفهم وشتتها تشتيتا. ولم يكن حظهم في الجانب الأيسر بأفضل مما حل بهم في الجانب الأيمن الذي يواجه فرقة الجنرال "بون". أما الموقع المركزي فقد حرص الفرنسيون على الدفاع عنه.

كان الأمراء أصحاب صولات وجولات حين يواجهون الفلاحين أو المحاربين من أهل البلدات غير المدربين فيبثون في قلوبهم الرعب بما يظهرونه من مهارات الفروسية وهجمات الخيالة الشرسة، إلا أنَّ الفرنسيين كانوا قد تلقوا تدريبات شاملة اكتشفوا من خلالها وسيلة جديدة لانتقال المشاة من الصفوف إلى هيئة المربع التي تشكل أمام خيالة العدو خصمًا لا يقهر. أضف إلى ذلك أنَّ الفرنسيين يحوزون مدافع أفضل لها مدى أبعد مما يربك خيالة العدو ولا يمكنهم من نشر مدافعهم على نحو حاسم لقهر التشكيلات الفرنسية. شرع الجنود الأوروبيون بنادقهم التي تفوق ما لدى الأتراك المتمصرين في قوتها ومداها ودقة تسديدها مما جعل لهم اليد الطولى.

وفي لحظة تراءى للخيالة المصرية وجود ثغرة تقع بين الجيش الفرنسي والنيل فاندفعوا إليها، غير أنّها لم تكن إلا كمينا نصب لهم فما إن تقدموا داخل الثغرة حتى أمطرهم الفرنسيون المختبئون برصاص البنادق فسقط منهم كثيرون صرعى واختلطت دماؤهم بالتراب. تمكن المشاة الفرنسيون من الاستيلاء على المدافع التي أقامها أعداؤهم على ضفة النيل ونقلوها على عربات. وجاء هجوم خيالة مراد بك دفعة واحدة، وقد بلغ منهم اليأس مبلغه، فانطلقوا تجاه الفرنسيين متحزبين للقتال بسرعة البرق الخاطف. أما رجال المدفعية وفرق المشاة الذين يحملون البنادق فقد انتظروا حتى وصلت الخيالة إلى مدى نيرانهم ثم أنزلوا عليهم عناقيد القنابل في قذف متوالٍ مرعب فصرعوا كثيرين منهم، وبلغ من كثرة الضحايا أن وصف أحد شهود العيان تلك الواقعة بالمجزرة. أما من نجا من المصريين فقد استداروا وانسحبوا جنوبًا، حيث يجدون الحماية في سفنهم المسلحة. ويقول "فيرتراي": إنّ تلك المعركة البرية دامت حوالي أربع ساعات.

أما "برنوييه" المسؤول عن زي الجنود فقد انتقل إلى ظهر سفينة ومعه بعض المدنيين الآخرين، وكانت السفينة التي استقلها تحت إمرة قبطان بولندي يُدعى "ياونسكي" **Yaounsky**. وكانت تلك السفينة مثلها مثل بقية قطع الأسطول تدفعها الرياح يمنة ويسرة في اتجاه الجنوب، فلم تقترب من البر ولم تشارك في دعم الجيش في معركة شبراخيت. وحدث أن مرت السفينة بتحصينات للعدو على ضفة النيل وشاهد القبطان "ياونسكي" الأسلحة المصقولة والأزياء الحريرية الفخمة للجند المصريين مما أثار في نفسه العجب. ولما كان "ياونسكي" قد تصور أن المصريين لم يعرفوا المدفعية بعد فقد تمنى أن يراهم، وقد اقتربوا من مدافعه كي يستمتع بما توقعه من مفاجأتهم عند سماعهم صوت القذيفة. ويعلق "برنوييه" ساخرًا أنّ المفاجأة لم يطل انتظارها غير أنّها أتت من جهة أخرى، فقد فوجئ البحارة

بمرأى ثلاثة من مدافع مراد بك مخبأة على ضفة النيل وأدركوا أنهم يقعون في مرماها. فزع البحارة وقفز منهم كثيرون في النيل ولم يكترثوا بالعمل معًا للإبحار بسفينتهم إلى الضفة الأخرى بعيدًا عن مرمى المدافع الثلاثة. وانطلقت نيران المدافع وحطمت سفينة "ياونسكي" تمامًا فتناثرت أجزاؤها.

وما لبثت سبع سفن مصرية أن ظهرت واشتبكت مع الأسطول الفرنسي، واتسع مجال المعركة ليشمل صفحة النيل أيضًا. وكان الضابط البحري الفرنسي "جان باتيست بيريه" يقود الأسطول الفرنسي من على ظهر سفينة نقل، فأمر السفن التي يتولى قيادتها بإلقاء مراسيها وإطلاق مدافعها. ويقول الجبرتي إنّ خليل الكردلي قائد الأسطول المصري رد بإطلاق المدفعية هو الآخر. ساد الشك بعض الوقت حول تحديد المنتصر غير أنّ السفن المصرية العثمانية بدت وكأنّها المسيطرة على مجريات القتال. ويعترف "بيريه" لـ "بوريين" بأن الأتراك يلحقون ضررًا بنا يفوق ما نلحقه نحن بهم. نفدت الذخيرة من الأوروبيين ولا يزالون بعيدين عن الجيش، ووجد كثيرٌ من الركاب، والعلماء، والفنانين أنفسهم مضطرين لحمل السلاح كي يمنعوا البحارة المصريين من اعتلاء ظهر سفينتهم. ويقول الكابتن "ساي" في هذا المقام إن الفرنسيين جميعهم جنود. وفي لحظة استولى الأتراك المتمصرون على أقوى سفينة فرنسية وعدة سفن أخرى، ويقول "بوريين" إنّ البحارة ذبحوا طاقم السفن أمام أعينهم وعرضوا عليهم رءوس الرجال المقطوعة بوحشية منقطعة النظير. ويبدو أنّ الأسطول الفرنسي قد دُمر ولو أنّ الفرنسيين استعادوا السفينة الكبيرة بعد قتال مرير.

ثم حدثت واقعتان أنقذتا أسطول "بونابرت" النهري من كارثة محققة. بادئ ذي بدء يقول الجبرتي إنّ شراع سفينة القيادة أمسكت به النيران وانتشرت إلى مخزن الذخيرة فانفجر؛ مما أدى إلى مصرع القبطان وبحارته. ثم إنّ "بيريه" تمكن

من إعلام "بونابرت" بالمخاطر التي واجهها مع ما كلفه ذلك من خطر محقق، فحث القائد الأعلى الجانب الأيسر من الجند على الإسراع بحذاء النيل لملاقاة الأمراء ومماليكهم مع ما أدى إليه هذا القرار من ضياع فرصة إتمام حركة "كماشة" تقوم بها القوات التي على الجانب الأيمن لقطع الطريق على الخيالة وسحقها، ولذلك فقد أتيحت الفرصة لهم كي يهربوا آمنين. قاد "بونابرت" بعد ذلك مسيرة ضرورية لإنقاذ الأسطول. وعندما رأى الرجل الثاني في جيش المماليك الجيش الفرنسي يدنو من موقعه رفع مراسي سفنه وانسحب في اتجاه القاهرة. واعتلى الجنود الفرنسيون ظهر السفن المصرية التي لم تتمكن من الهروب. ويعترف "بورييين" أنّ أسطول الأعداء ألحق بالسفن الفرنسية ضررًا بالغا بينما لم يتكبد خسارة تذكر. ويروي "بورييين" أنّ عشرين فرنسيًا سقطوا في تلك المعركة وجرح كثيرون. وكانت ألف وخمسمائة قذيفة قد سقطت أثناء الاشتباكات. ويبدو أنّ "بورييين" كان يجهل أمر الكارثة التي حلت بسفينة القيادة. أما المعركة البرية فإنّ التقديرات الفرنسية بشأن أعداد الخيالة المملوكية بقيادة مراد بك تتفاوت تفاوتا كبيرًا من بضع مئات إلى أربعة آلاف. وعلى أي حال لم يكن في الإمكان أن يهزم المماليك أيًا كان عددهم آلاف المشاة الفرنسيين الذين تدعمهم المدفعية. وكان لزامًا على ستة آلاف من الخيالة من الأتراك المتمصرين، الذين وجدوا في أنفسهم حتى ذلك الوقت القوة الكافية للسيطرة على أربعة ملايين من المصريين، أن يواجهوا أبعادًا عسكرية جديدة جاءت بها الثورة الفرنسية ونظام التجنيد الجماعي. وحين ترامت أنباء معركة شبراخيت إلى القاهريين صار موقف مراد بك وخيالته حرجًا. يقول الجبرتي "التقى العسكر المصري مع الفرنسيس فلم تكن إلا ساعة، وانهزم مراد بك ومن معه ولم يقع قتال صحيح وإنما هي مناوشة من طلائع العسكرين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين، واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة

والآلات الحربية". غير أنّ الجبرتي يبدي إعجابه وتقديره لقائد المدفعية البحرية خليل الكردلي الذي لقى حتفه في الحريق بعد أن برز كالليث فأسقط قنابل أسطوله على السفن الفرنسية على صفحة النيل. ويرى الجبرتي أنّ تلك الكارثة البحرية هي العامل الرئيسي الذي دعا مراد بك لاتخاذ قراره بالانسحاب إلى قاعدته بالقاهرة تاركا خلفه القطع الحربية الثقيلة وغير ذلك من العتاد الحربي.

وعلى الرغم من أن الجنود الفرنسيين ألحقوا الهزيمة بالأمراء المماليك فإنهم سجلوا إعجابهم بعدوهم. يقول أحدهم إنّ المعركة الأولى في شبراخيت علمتنا أننا سنواجه في مصر أفضل خيالة في العالم أجمع. ويحاول "ميوه" بعد ذلك أن يقدم تقييمًا لعدوه من حيث إنّهم رجال مقاتلون. فقال: "إن المماليك المجلوبين من كل أقطار الأرض مطبوعون على السيطرة على خيولهم منذ نعومة الأظفار".(١٢) أما خيولهم فقد حرص المماليك على أن تطيعهم طاعة مطلقة وأن تمتثل لأوامرهم بالوقوف فجأة؛ ولذلك الغرض يستخدمون قطعة تكبح سير الفرس مثل اللجام تثبت عند فجوة الذقن وتترك أثرها على فك الفرس على نحو يجعل الامتناع عن الطاعة أمرًا غير وارد. كما برع المماليك في استخدام المهماز الحاد بوصفه أداة قتال في الميدان. ولا يصلح هذا النوع من المهماز للأوروبيين الذين يسيرون منتظمين في صفوف لأنّ مستخدمه لا بد أن يلحق الأذى بزميله. ولكن المماليك لا يميزون إلا بين أمرين هما الجبن والشجاعة. وتسمح لهم صهوات خيولهم بالاستقرار فوقها كما لو كانوا جالسين على مقاعد يميلون بظهورهم عليها، ولذا فإنّهم لا يسقطون عن خيولهم وإن جرحوا. ولا تحمل خيول المماليك العتاد بل تشتغل بالحرب وحدها مثل أسيادها، ولا تنطلق إلا إلى ميدان القتال مجهزة بالعتاد العسكري. وتصمم أزياء الفرسان القاهريين لتقيهم أذى ضربات السيوف، ويحمل الفرسان الغدارات في أحزمتهم كما يحملون في سروجهم مزيدًا من الغدارات والسيوف، وكذا بعض

البلطات وبندقية وأخرى قصيرة الماسورة يسهل إطلاقها من على صهوة جواد. ويتسلح الفارس نفسه وكذا فرسه بالأسلحة النارية كافة؛ مما يسهل عليه استخدامها ويضمن ألا يهمل أحدها. ويرتدي كثير من الفرسان حلة حديدية وخوذة لا قناع لها وإنما يعترض واجهتها قضيب يحمي الوجه. ومع ما تتسم به سيوفهم من قوة بتارة فإنها معرضة للكسر، ويخدم تصميمها الغرض منها الذي يتمثل في توجيه ضربات سريعة ومباشرة إلى العدو وليس لاتقاء ضربات العدو فهي تتكسر سريعًا. ولذلك فإن الفرس هو الذي يتقي ضربات الخصم.

أما المصريون الذين لم يفروا من ميدان المعركة فقد سعوا إلى إقامة حالة من الصلح المؤقت مع الوافدين الجدد، إذ تقدم أحد الأئمة إلى "بونابرت" حاملاً عَامه. ويقول "مالوس" Malus إنَّ القائد الأعلى وجه خطابه إليه قائلاً "عُدْ إلى مسجدك واحمد الله أن نصرَ من يدافعون عن أكثر القضايا عدالة". وبدا "بونابرت" مزهوًا كما يصفه "مينو" في روايته عن المعركة. يقول "مينو" إنَّ الفرنسيين لقوا خصمهم واشتبكوا معه منذ يومين مضيا، وقصد مراد بك وقد جاء على رأس ثلاثة أو أربعة آلاف مملوكٍ على صهوة خيولهم، وعشرين مدفعًا، وبعض الزوارق التي تحمل بعض المدافع، قصد أن يحول بين الفرنسيين والمرور عبر شبراخيت. ويضيف مينو أنَّ الفرنسيين استولوا على مدافعه وقتلوا وجرحوا حوالي خمسين من رجاله، منهم كثير من الزعماء، وأغرقوا سفينة محملة بالمدافع وعليها قائدها التركي. ويسجل "مينو" أنَّ المماليك منذ ذلك اليوم يولون الأدبار ليل نهار وأغلب ظنه أنهم لن يعترضوا دخول الفرنسيين إلى القاهرة.[١٣]

غزا الفرنسيون معظم إقليم البحيرة وأصبحت صفوفهم بمثابة خناجر موجهة إلى العاصمة. ولعلنا نتساءل عن حال المجتمع الذي يصبو "بونابرت" لحكمه. فما الذي يسعى لإزاحته من طريقه على وجه الخصوص؟ إنَّ بمصر مجتمعًا يتحدث

العربية في المقام الأول، ولكنها خضعت آنذاك للحكم الاسمي للإمبراطورية العثمانية وعاصمتها إستانبول (القسطنطينية تحت حكم الرومان والبيزنطيين). وحين غزا العثمانيون مصر في عام ١٥١٧ حلوا محل طبقة حاكمة من الجنود الأرقاء يعرفون بالمماليك، وكان معظمهم شبابًا يدينون أصلاً بالمسيحية تعود أصولهم إلى أرض الجركس ببلاد القوقاز، وهناك وقعوا في الأسر إثر هزيمتهم على أرض المعركة. وكان الحكام المسلمون في القرون الوسطى يخشون الركون إلى المحاربين القبليين أو إلى جيش يُجند من بين الرعاة ذوي الروابط القبلية القوية؛ إذ يؤدي ذلك إلى إعلاء تلك الجماعات مصالحها الإقليمية والانقلاب على حكامهم. وكثيرًا ما كان الحكام يطمئنون إلى الجنود الأرقاء، إذ إنَّ الرّق ضرب من الموت الاجتماعي يقطع الصلة بين الفرد وأسرته ومسقط رأسه. وساد اعتقاد أنَّ الأرقاء يفتقرون إلى صلات القرابة الوثيقة مما يعزز من ولائهم للحاكم. وكانوا يُجبرون على التحول إلى الإسلام وتنقطع صلة معظمهم بأسرهم في تلك البلاد البعيدة. ومع أنَّ المماليك يبدءون حياتهم الجديدة وهم في رق فإنّهم يتقاضون مكافآت مجزية، وتتاح لهم الفرصة للترقي في صفوف الجيش أو النظام الإداري أو قصور الحكام. كما أنّهم يمنحون حريتهم عند بلوغهم مرتبة الرجال ولكنهم يظلون أوفياء لأسيادهم السابقين. ومن العجيب أنَّ القشلاقات التي تعج بالمماليك الأرقاء باتت مراكز لتكوين شبكات جديدة من الأصدقاء والاتصالات بين أبناء المهنة الواحدة؛ مما مهد الطريق لهم في كثير من الأحيان للقيام بحركات ناجحة للتمرد ضد سلاطينهم. وكان للدولة الأيوبية في مصر، وأشهر سلاطينها صلاح الدين قاهر الصليبيين، مماليك كثيرون. وفي عام ١٢٥٠ حين توفي السلطان الأيوبي ومصر على شفا حرب مهلكة على أيدي جحافل المغول، أطاح الجند المماليك بحكم الأيوبيين وتقلدوا زمام الأمور وحكموا البلاد لقرنين ونصف من الزمان.

وفي الرابع والعشرين من يناير عام ١٥١٧ دخل السلطان سليم الأول منتصرًا إلى القاهرة وأخضعها لإستانبول.[١٤] ضمَّ العثمانيون مصر إلى واحدة من أكبر الإمبراطوريات في التاريخ، وأكثر المراكز التجارية ازدهارًا فقد ربطت الهند في الشرق بإستانبول عبر العراق، ثم إستانبول بمارسيليا في الشرق عبر البحر المتوسط. وتكونت الإمبراطورية في ذروة مجدها من اثنين وثلاثين إقليمًا منها ثلاثة عشر يتحدث أهلها العربية، وصارت مصر، أكثرها سكانا وأغزرها في الإنتاج الزراعي، سلة حبوب الإمبراطورية. أخضع العثمانيون المماليك الجراكسة في مصر لأساليبهم في الإدارة ولنظامهم في الرق العسكري. وضعت إستانبول الأساس لسبع فرق مقيمة بمصر صار لها شهرة واسعة، خمس منها فرق خيالة واثنتين من المشاة، وتكونت تلك الفرق من صفوة متعددة الأعراق والأجناس يجمعهم الولاء للسلطان والإسلام، وتمكنهم من اللغة العثمانية (وهي لهجة تركية يتحدثها علية القوم تأثرت نهايات كلماتها باللغة الفارسية)، وتقنياتهم الإدارية والعسكرية العثمانية. وكان منهم أتراك الأناضول، والبوسنيون، والألبان، ومن أسلم من اليهود، والأرمن، والجركس، وأهل جورجيا. وفي داخل المؤسسة العسكرية ظهر التمايز بين الجنود الذي استرقوا وظلوا على قمة الهرم، وهؤلاء المتطوعين من أهل القرى الفقيرة بالأناضول. ولم يفلح كثيرٌ من جنود الأناضول الذين يتحدثون التركية في تدبير أحوالهم بالرواتب التي تقاضوها؛ ومن ثمَّ اتجهوا تدريجيًا إلى العمل بالمتاجر والصناعات في أوقات فراغهم.

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر برزت مصر بوصفها مركزَ تجارة ضخمًا ومجزيًا للبن.[١٥] ومن المرجح أن تكون شجيرات البن قد انتقلت إلى اليمن من إثيوبيا، وقد عرف القاهريون في القرن السادس عشر أنَّ غلي الحبوب وتحضير شراب ساخن منها يشيع في صنعاء؛ وبخاصة بين أهل التصوف الذين

يستعينون بشراب القهوة كي يمضوا الليل في العبادة والتأمل. وبحلول القرن السابع عشر انتشرت عادة شرب القهوة بين الصوفية وعامة النـــاس، وفتحـــت المقـــاهي أبوابها في أرجاء الإمبراطورية العثمانية، وكثيرًا ما أثار ذلك اســـتياء الـــسلاطين والحكام المستبدين الذين خشوا من تحول المقاهي إلى مواقع للفتنة التي قـــد تطـــل برأسها في مناقشات ساخنة سخونة المشروب نفسه. ومع ذلك فقد باءت محاولات العثمانيين لحظر المقاهي بالفشل الذريع. وفي الفترة من منتصف القـــرن الـــسابع عشر إلى آخره بدأت بعض المقاهي تفتح أبوابها في أوروبا، وفـــي بـــادئ الأمـــر أثارت المقاهي مخاوف ملوك أوروبا مثلما أثارت مخاوف سلاطين العثمانيين مـــن قبل. افتتح المقهى الأول في باريس عام ١٦٧١، وبعد حين صار مقهى "لوبروب" **Le Procope** الذي بدأ نشاطه في العاصمة الفرنسية عام ١٦٨٩ مركزًا للمناقشات الفكرية والأفكار الثورية. أصبحت القاهرة أحد أكبر مراكـــز تـــسويق الـــبن فـــي الإمبراطورية العثمانية وإلى أوروبا. ولعلنا نقول، ولو على سبيل الدعابة، إنْ كان لنجاح المقاهي أي صلة باندلاع الثورة الفرنسية، فإنّ تجار الـــبن المـــصريين لـــم يدركوا أنهم أججوا المناقشات المحمومة التي يغذيها كافيين القهوة، تلك المناقـــشات التي أطاحت بالنظام الملكي في فرنسا وأدت في نهايـــة المطـــاف إلـــى وصـــول الأسطول الفرنسي إلى ساحل الإسكندرية.

***

تزايد اتصال الأتراك المتمصرين بأوروبا، وفي عشرينيات القـــرن الثـــامن عشر نشب نزاع بين محمد بك الجركسي وذو الفقار بك للسيطرة على مصر انتهى بهزيمة محمد بك الذي استعد للتوجه إلى إستانبول لحبك مؤامرات ينال من ورائها الدعم السلطاني. غير أنَّ فرصة أخرى لاحت له، فهـــرب عبـــر ســـاحل أفريقيـــا الشمالي ووصل إلى الجزائر، ومن هناك أقلع على ظهر سفينة متجهة إلى "تريست"

Trieste، وهناك حاول أن يخطط لمؤامرة بمشاركة الإمبراطور النمساوي شارل السادس Charles VI، غير أنَّ السلطان العثماني بعث باحتجاج شديد اللهجة إلى فيينا مما اضطر محمد بك إلى العودة لشمال أفريقيا، فنزل في طرابلس بليبيا ولم يزل تراوده أحلام تكوين جيش وغزو مصر. جمع محمد بك جيشاً وسار به إلى القاهرة غير أنَّ غريمه علي بك قطامش أنزل به الهزيمة. وبينما كان يحاول الفرار وقع في أحد المستنقعات التي سعى لحكمها وغرق.[١٦]

وفي حين رفض النمساويون انتهاز الفرصة التي واتتهم، صار التحالف مع مصر مسألة مغرية لقوى أوروبية أخرى. ولأنَّ كثيرًا من المماليك جلبوا من جورجيا في القوقاز فإنَّ بعضهم كان يتحدث الروسية ويحاولون أن يقيموا علاقات دبلوماسية وعسكرية مع حكومة كاثرين العظيمة (١٧٦٢-١٧٩٦). ولم يكن اهتمام العواصم الأوروبية في القرن الثامن عشر بوادي النيل أمرًا غير مسبوق.

وخلال ذلك القرن تزايدت أهمية بيوتات المماليك المجلوبين من جورجيا وأصبحت قادرة على إخضاع الفرق العثمانية السبع والسيطرة على تجارة البن المربحة. وقد قام مملوك مصري عثماني يُدعى علي بك الكبير بحركة تمرد في ستينيات القرن الثامن عشر وسبعينياته، فاتجه إلى تقويض سلطة السلطان العثماني بأن أكد سيادته على البحر الأحمر وفتحه للتجارة الأوروبية، فضلاً عن غزوه سوريا. ولكن السلطان وضع حدًا لتمرده، غير أنَّ بكوات القاهرة ما لبثوا أن عادوا بعد حين للامتناع عن سداد مستحقات السلطان العثماني؛ مما استثار العثمانيون للقيام بغزوة في عام ١٧٨٦ أنهت توّجه الإقليم المصري للحكم الذاتي. وعلى الرغم من أنَّ المؤرخين اتجهوا إلى الكتابة عن القرن الثامن عشر بوصفه عصر بعث الحكم المملوكي في مصر كما لو كانت الدولة القديمة للمماليك التي دامت من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر قد بعثت من جديد، فإننا نعلم الآن أن

تلك الآراء غير دقيقة. فقد نقل العثمانيون إلى مصر، على الرغم من استقلالها في بعض الأحيان، مؤسساتهم بما فيها من شكل متميز من الجنود الأرقّاء. ولذلك فمن الأصوب أن ندعو الصفوة ممن حكموا مصر في القرن الثامن عشر "الأتراك المتمصرون". وكثيرًا ما يشير إليهم مؤرخو ذلك الزمان بالغز في إشارة إلى قبيلة الأوغز التركية، مما يعني أيضًا أنهم كانوا يعدون من العثمانيين (من الأسر التركية)، وقد تمكن أغلبهم من التركية العثمانية والعربية، في حين احتفظوا بمعرفتهم باللغات القوقازية، مثل الجورجية والجركسية. ولم يكتسب الأمراء جميعهم الأصول الجندية ذات الصلة بالاسترقاق، فكان بعضهم مصريين يتحدثون العربية.

ولم تشهد مصر خيرًا في القرن الثامن عشر، فقد حلت بها فيما بين عامي ١٧٤٠ و١٧٩٨ كوارث عديدة فقد ساءت أحوالها الاقتصادية بصفة عامة، وامتدت فترات الجفاف، وشح فيضان النيل، وتفشت الأوبئة والأمراض مرارًا وتكرارًا. أضف إلى ذلك أنَّ بيوتات المماليك شنت بعضها على بعض حروبًا شرسة ومستمرة؛ مما استدعى رفع الضرائب على سكان الحضر إلى درجة نزلت بهم إلى درك البؤس. وها هي الآن الطامة الكبرى قد حلت عليهم، إذ خطط "بونابرت" لمنح مصر حريتها!

***

واصل الجيش الفرنسي زحفه إلى الجنوب حيث تقع القاهرة على بعد ٨٥ ميلا من حدود البحيرة، ويدون "فيجو – روسييون" في مذكراته أنَّ الجيش تقدم كما فعل في اليوم السابق، وذلك على هيئة مربعات عميقة الصفوف: أي ستة صفوف لكل ضلع من المربع. واحتلت المدفعية مواقعها في الفجوات بين الفرق.[١٧] ويقول

أيضًا إنّ لهذا التشكيل مزايا عظيمة إذا ما التقى الجيش بخيالة العدو المغامرة، ولكنه تشكيل يحد من مرونة المدفعية، فإذا دعت الحاجة إلى خروج صفوف من التشكيل، انفصلت أول ثلاثة صفوف وتقدمت، وبقيت الصفوف الثلاثة الأخرى محافظة على موقعها في التشكيل المربع بصفة احتياطية.

سمح "بونابرت" لجنوده في تلك المرحلة بالسير بحذاء النيل لضمان الحصول على المياه النقية، غير أنّ الخبز لم يكن متوفرًا وصار لزامًا على الجنود أن يعتادوا على أكل وجبة الفلاح المصري ألا وهي الفول المدمس. وفي بعض الأحيان توفر للجنود لحم الجاموس، وفي أحيان أخرى لحم الخيول بديلاً عنه. سار الجيش الفرنسي حتى يوم السادس عشر من يوليو دون أن يصادف في طريقه الجنود الأتراك المتمصرين، غير أنه تعرض لمضايقات البدو التي تواصلت دون رحمة؛ مما أدى إلى قطع خط اتصاله بالوحدات الخلفية، وكذلك بالإسكندرية. وقد اختفى الفلاحون في القرى التي مرّ بها ومعهم ماشيتهم، غير أنّهم أبدوا مقاومة في بعض الأحيان. وكثيرًا ما نزل الجنود مدفوعين بالجوع واليأس على القرى ينهبون ما بها على الرغم من أوامر قادتهم باجتناب تلك الأفعال. أما الكابتن "مواريه" الملتزم بالمثل والمبادئ العليا الذي كان قاب قوسين أو أدنى من الدخول في الكهنوت، فإنه يسجل كيف ترفّع الضباط عن مشاركة الجنود في أكل الدجاج المسروق، فهم رجال على مستوى رفيع، ولذلك فضلوا تحمل ما لم يقدر عليه جنودهم من المعاناة، واكتفوا بنصيبهم الضئيل من الفول المدمس. وهناك كثيرٌ ممن دوّنوا مذكراتهم قرروا أنهم لم يتناولوا طعامًا سوى البطيخ. ويتذكر أحد الضباط كيف وجّهوا أسلحتهم في حرب شنوها على الحمام.(١٨) أقام "بونابرت" خيمته بين جنوده البائسين، يشارك زملاءه من الضباط وجبات العدس، وأصاب الإرهاق الجميع ولازمهم الجوع والعطش وهم يسيرون في وادي النيل في قيظ منتصف

يوليو يتعرضون لمضايقات السكان المحليين الذين انتابهم الفزع وكثيرًا ما وقعوا هم ضحايا لتصرفات وحشية.

ويقول "بونابرت" في مذكراته إنَّ الجنود كانوا على شفا التمرد، وأن الشر كان يختمر في العقول. ويضيف قائلاً إنَّ إشاعة راجت مؤداها أنَّ العاصمة الرائعة، أي القاهرة العظيمة، لا وجود لها، وأنها لا تعدو أن تكون مجموعة من الأكواخ المقامة من الطمي والقش على غرار ما رأوه في دمنهور، فهي مكان يستحيل العيش فيه. ويتذكر "بونابرت" حديث الضباط عن السياسة في الأمسيات واللعنات التي كانوا يوجهونها لحكومة الإدارة التي أبعدتهم إلى مصر. كما أنَّهم أنحوا باللائمة على العلماء الذين عكفوا على دراسة الآثار المصرية التي وجدوها في طريقهم واتهموهم بأنهم من وراء الخطة المجنونة للمجيء إلى مصر، ولا يزالون يسخرون منهم، بل وصل بهم الأمر إلى أن خلعوا اسم "العلماء" على الحمير التي يركبونها.

ويذكر "بيليبور" أنه في يوم ١٥ يوليو تخطت إحدى الفرق حدود الشكوى وعصت ما صدر لها من أوامر. علم "بونابرت" بالأمر فانطلق إلى تلك الفرقة على ظهر جواده، وأمرهم بتشكيل مربع مشاة. وقف في وسط المربع وخاطبهم بقوله إنَّ الشجاعة في ميدان القتال لا تكفي لصناعة الجندي الأمثل، بل إن الجندي يظل في حاجة إلى الشجاعة في مواجهة التعب والحرمان. ماذا لو إنني نويت أن أنطلق إلى آسيا بعد غزو مصر؟ كي أسير في خطى الإسكندر لا بد أن يكون لي جنده".[١٩] ويقول "بيليبور": إنَّ الفرقة واصلت المسيرة دون أن ينبس فرد واحد منها ببنت شفة.

كان غضب الجنود يخفي وراءه بؤسًا حقيقيًا. أما "مواريه" فإنه شهد سقوط كثيرٍ من الجنود وقد صرعهم الجوع والإرهاق، وكثيرين غيرهم ممن انتحروا وقد بلغ بهم اليأس مداه، ويروي "مواريه" كيف احتضن شقيقان كلاهما الآخر وألقيا بنفسيهما في النيل. وفي يوم ١٧ يوليو وقعت غارة شنها الأتراك المتمصرون على الجنود الفرنسيين الذين لم يهنأوا بنومهم إلا قليلا، فهبوا ليلاقوا عدوهم ويحققوا نصرًا سهلاً. ثم ما لبثوا أن واصلوا مسيرتهم الشاقة في جو قائظ في اتجاه العاصمة، وكان نصيب الجندي ثلاث قطع من البسكوت الجاف في اليوم، وحدث أنْ استولى الفرنسيون على سفينة للعدو وحصلوا منها على نصيب إضافي من البسكوت وجدها "مواريه" من أردأ الأنواع، فهي قذرة وقد صنعت بدقيق سيئ، وخلطت بسمن قديم تعافه حتى الفئران. ويضيف "مواريه" أنَّ الشجاعة اللازمة لتناول هذا الطعام لا تتأتى إلا لمن هم في موقفهم. وزع "مواريه" نصيبه إلى أربعة أجزاء موزعة على أربع وجبات صغيرة في اليوم الواحد، فكان يغمس البسكوت في الماء ليخفف من ملوحته وصلابته.

***

وما إن اقترب الجيش الفرنسي من القاهرة في مسيره بحذاء الضفة الغربية للنيل حتى اجتمع صفوة القاهريين وأعدوا عدتهم. واتخذ الوالي العثماني أبو بكير باشا والقائد المحلي إبراهيم باشا ومجموعة من رجال الإدارة وعلماء الدين قرارهم بالصمود عند ميناء بولاق النهري على الضفة الشرقية للنيل. أقاموا المتاريس ووجهوا المدافع شطر الشمال تحسبًا لمجيء الفرنسيين من الضفة الشرقية، كما حشدوا البدو ليتخذوا مواقع في شبرا وغيرها من الأماكن إلى الجنوب من بولاق. كما دعوا الرجال الأصحاء كافة إلى المتاريس وأعلنوها حربا مقدسة على الكفار الغزاة.[٢٠] وشرع حكام القاهرة في البحث عن الأسلحة في دور التجار الأوروبيين

وغيرهم من السكان. كما وضعوا المسيحيين المقيمين تحت المراقبة سواء أكانوا أروامًا، أم أقباطًا مصريين، أم سوريين. وانتشرت الشكوك بين أهل القاهرة من المسلمين في ولاء المسيحيين للإمبراطورية العثمانية. ويؤكد الجبرتي أنَّ مثيري الشغب كانوا ليذبحون المسيحيين لولا قيام السلطات بمنعهم.

ويسجل الجبرتي أنه في يوم ١٧ يوليو أصدر الأمراء أوامرهم بانتقال العامة إلى التحصينات. وحددت نقابات الحرف والصنائع التي ينتظم بها معظم العمال القاهريين مبلغا من المال يتقاضونه من المساهمين لتوفير الخيام لرجال الحرف والصنائع المتجهين إلى بولاق. كما تبرع غيرهم من أهل القاهرة بالمال لتجهيز الجنود الشوام والمغاربة الذين شاركوا بوصفهم فرقا تتلقى تمويلها من عامة الناس. ورفع المتصوفة والدراويش أعلامهم في الطرقات وضربوا على آلاتهم الموسيقية متغنين بأشعار في حب الله. وأقام عمر مكرم، نقيب الأشراف الذي يزعم أنه من سلالة الرسول محمد، ضربًا من العروض، فصعد إلى القلعة وجلب منها علمًا كبيرًا يُعرف بالبيرق النبوي، قام بفرده وحمله من القلعة إلى بولاق، وقد التف حوله الآلاف يحملون عصيهم ويرفعون أصواتهم بالصياح والهتاف والتكبير.[٢١] وقصد بإبراز ذلك الأثر النبوي حلول بركته على العاصمة المهددة بالغزو. قرعت الحشود الطبول ونفخوا في المزامير ولوَّحوا بالأعلام. ويقول الدرندلي إنهم بدوا وكأنهم يحتفلون بحفل زفاف مصري تقليدي. وما لبث رجال القاهرة من الأقوياء أن تجمعوا في بولاق لحماية المدينة في حين لم يبق بدورها أحد سوى النساء والأطفال. وهُجرت الطرقات والأسواق وتراكم التراب بها إذ لم يوجد من يعتني بكنسها ورشها، ثم إنَّ الشخصيات البارزة بالقاهرة نصحوا مراد بك أيضًا بإقامة تحصينات بإمبابة التي تقع إلى الشمال من الجيزة على الضفة الغربية للنيل. وبالفعل أقام التحصينات هناك لتمتد لمكان يُدعى بشتيل، وساعده في المهمة ضباط

من السناجق والأمراء وغيرهم من زملائه، مثل علي باشا ونصوح باشا. يصف الجبرتي لنا المشهد فيقول: "أحضروا المراكب الكبار والغلايين التي أنشأها (مراد بك) بالجيزة وأوقفها على ساحل انبابة [إمبابة] وشحنها بالعساكر والمدافع".

ودعا مراد إليه قبائل البدو بمصر: الخبرية، والقيعان، وأولاد علي، والهنادي وغيرهم كي يدعم بهم قوة الخيالة. ومن ناحية أخرى بدأ البكوات في نقل كنوزهم في دور صغيرة آمنة بعيدة عن الأنظار بعضها يقع في بلدات الريف. وكان لا بد من نقل الذهب والمجوهرات وغير ذلك من الثروات على ظهور قوافل من الحمير والبغال ولم يعد في الإمكان حفظ الأمر سرًا فلا يطلع عليه أهل القاهرة، فلما ذاع الخبر أصاب القاهريين الهلع، فأهل اليسار والأغنياء أعدوا العدة للفرار ولولا أنَّ الأمراء عنفوهم وخوّفوا من ينوى منهم الرحيل، لم يكن ليبقى واحد منهم بالقاهرة.

ويذكر المؤرخ المصري انهيار الأمن والنظام في الأرياف، فيقول متحسرًا: "انقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام واشتغالهم بما دهمهم. وأما بلاد الأرياف فإنها قامت على ساق يقتل بعضهم بعضًا وينهب بعضهم بعضًا، وكذلك العرب غارت على الأطراف والنواحي، وصار قطر مصر من أوله إلى آخره في قتل ونهب وآفة طريق وقيام شر وإغارة على الأموال وإفساد المزارع، وغير ذلك من أنواع الفساد الذي لا يُحصى". كما شاعت الفوضى بين صفوف الفرنسيين أيضًا، وعزل ميناءا الإسكندرية ورشيد، اللذان يسيطر عليهما الفرنسيون على ساحل المتوسط، عن معظم الجيش الفرنسي. ويسجل "فييه دي تيراج" الذي استقر في رشيد ما يلي في يوم ١٦ يوليو: 'علمنا من الجنود الذين وصلوا أمس باندلاع حركة تمرد محدودة في الإسكندرية. أطلق الأهالي النار من النوافذ وسقط أحد جنود المدفعية جريحًا".

تمكن الجنرال "كليبر" بمعاونة ألفي جندي من استعادة السيطرة على الميناء، ولكن قلب المدينة ظل منطقة محرَّمة على الفرنسيين. لم يخلف "بونابرت" وراءه تحصينات في الناحية الغربية بدمنهور بعد أن اجتازها الجيش الفرنسي. وإنما ترك لكليبر في الإسكندرية أن يتم عملية إخضاعها. استعان "كليبر" ضمن الجنود الذين أرسلهم بفرقة من أهل مالطة الذين يتحدثون العربية حتى يتسنى لهم التواصل مع المصريين. غير أنَّ المالطيين استعصوا على التدريب أو التنظيم ولذلك تراجع "كليبر" عن إرسال معظمهم وبعث بجنرال يُدعى "دومي" **Dumuy** على رأس مجموعات من المشاة وعشرين من الخيالة التابعة للفرقة الثالثة لتأمين دمنهور.[٢٢] وما إن وصل "دومي" إلى مشارف دمنهور حتى قابله الأهالي بثورة مسلحة، وتمكنوا بمعاونة حلفائهم من بدو الإقليم الراكبين أن يهزموا القوة الفرنسية قليلة العدد ويقتلوا عشرين جنديًا فرنسيًا. عاد "دومي" وجنوده إلى الإسكندرية يجرون أذيال الخيبة والفشل بعد أن أساءوا إلى أبعد حد تقدير القوة اللازمة لهزيمة أهل دمنهور والسيطرة عليها بصفة دائمة. وكان المصريون قد ثاروا من قبل ضد الحكم الفرنسي قبل أن يصل الفرنسيون إلى القاهرة. وفي مواجهة التعديات المتزايدة شعر "كليبر" أنه محاصر، فكتب إلى الجنرال "مينو" في رشيد يقول إنه لم يصله أنباء عن الجيش... وإنَّ البدو من الأعراب يحيطون به من كل جانب. ويضيف أنَّ تجربة "دومي" في دمنهور بثت في نفوسهم الجرأة، وأن الفرنسيين لقوا ٤٣ منهم على بعد نصف فرسخ من المدينة فأداروا فيهم الطعن بالسيوف. لم تكن الحاميات التي خلفها "بونابرت" وراء الخطوط الفرنسية المتقدمة إلى القاهرة ظافرة، بل كانت رهن الحصار، وعرضة للهجمات والمضايقات.

ooo

وفي تلك الأثناء توالت مقاومة القرويين والبدو للجيش الفرنسي الذي يتقدم جنوبًا في اتّجاه العاصمة. بل إنَّ بعض النساء أبدين مقاومة عنيفة للغزاة الفرنسيين. ويسجل "برنوييه" ملاحظة في يوم ١٦ يوليو والجيش على أعتاب القاهرة فيقول إنَّ مساعد القائد قد قتل حين تقدم كثيرًا قبل الجيش على مشارف إحدى القرى إذ اندفعت امرأة بقسوة وحشية لتفقأ عينيه بمقص وطفلها بين ذراعيها. أمر الميجور جنرال "برتييه" **Berthier** بإطلاق النار عليها فورًا في محل الحادث وسلم الطفل إلى أحد القرويين.(٢٣) وكان السلاح المستخدم في الاعتداء مناسبًا لجنس المهاجم ألا وهو المقص الذي تستخدمه النسوة في أعمال الخياطة والتطريز، ويُلاحظ أن الطفل كان لا يزال بين يدي المرأة حين وجهت ضربتها. لقد قدَّم لنا "برنوييه" صورة رهيبة للأمومة في الريف الثائر تتصف بالوحشية ولا تقف عند حد في مقاومتها للسيطرة الاستعمارية.

أقامت وحدة السارجنت فرانسوا **François** خيامها في قرية الخانكة في ١٨ يوليو. ويقول فرانسوا إن بعض الضباط تأخروا في الطريق إلى الخانكة لقضاء حاجة فوقعوا في أسر البدو. وكانت القبيلة التي ينتمون إليها قد أسرت أحد الفرنسيين من قبل فساروا بأسراهم الجدد إلى الخيمة التي احتجزوه فيها. غير أنَّهم انشغلوا بهؤلاء الأسرى فأهملوا في حراسة الأسير الأول فتمكن من الهرب وسعى إلى "بونابرت" وكشف له موقع الخيام. يقول فرانسوا إنَّ بونابرت بعث "فنتور دي بارادي" بفدية قيمتها ٥٠٠ قرش إسباني (من الفضة) وأحد الأدلة المحليين إلى شيخ القبيلة. ولما وصل "دي بارادي" إلى مقصده عقد اجتماعًا مع الزعيم وسلمه مبلغ الفدية على مرأى من رجال القبيلة. وما لبث رجال القبيلة أن اجتمعوا لدى زعيمهم يتشاكسون ويتعاركون، فما كان من الزعيم إلا أن شرع غدارته وأطلق منها رصاصة أصابت في مقتل ذلك الضابط الفرنسي "ديزنانوه" **Desnanots**، الذي

أظهر "بونابرت" اهتمامًا عظيمًا به، ثم أعاد مبلغ الفدية وقال إنه يرى ألا حق له في الاحتفاظ به إذ لم تعد لذلك المبلغ فائدة. غادر "دي باراداي" الخيام بدون الأسرى الذين ظل مصيرهم مجهولاً.[٢٤] ولعل أرجح تفسير لتلك الرواية إنَّ النقود لم تكن كافية إذا ما أراد الشيخ توزيعها على رجال القبيلة الذين، كما يعرف هو جيدًا، يرغب كلٌ منهم في نصيب منها. فإذا لم يتمكن من توفير فئة أصغر من النقود لتوزيعها فإنَّ البعض لا بد أن يشعر بالإهانة وسينشب قتال داخلي وصراعات بينهم. (وكثيرًا ما انشق رجال القبائل إذا شعروا بالإهانة). كما تشير تلك الرواية إلى تفضيل شيوخ البدو السلام الاجتماعي داخل القبيلة على مظاهر الثراء.

أمضى عدد كبير من الجنود الفرنسيين يوم الثامن عشر من يوليو في واحة النخيل بالوردان، وكان "بونابرت" قد احتاط للأمر فأرسل رسلاً أمامه لطمأنة الأهالي الذين لم يهربوا بالتالي بالأعداد المعتادة في غيرها من القرى. استطاع الجنود أن يحصلوا على بعض المؤن من القرويين كما استطاعوا أن يطحنوا بعض القمح ويصنعوا خبزًا من الدقيق كما تناولوا طعامًا منعشًا من ثمار البطيخ و جوز الهند المتوفرة بكميات كبيرة. أضف إلى ذلك ما وجده الفرنسيون من متعة النظر إلى فتيات القرية حيث يسجل "مواريه" في مذكراته أنَّ من الشائع تجوال الفتيات اللائي تتراوح أعمارهن بين الثانية عشرة والرابعة عشرة في القرى جميعها عرايا(*) على مرأى من الجميع. ويضيف "مواريه" أنَّ الفقر هو السبب وراء ظهورهن على ذلك الحال غير المحتشم الذي يخالف عادات

(*) ينطوي هذا القول على مبالغة غير صحيحة، وربما قصد أن ثيابهن ممزقة وأنهن شبه عرايا. (المراجع)

الأوروبيين وأخلاقهم.(٢٥) ولا شك أن الشرق الذي يصفه "مواريه" ليس هو الشرق الأوسط المعاصر.

فأخلاقيات أهل القرى المصرية في أواخر القرن الثامن عشر بشأن عري الأطفال الذين لم يبلغوا لا تختلف كثيرًا فيما يبدو عن القواعد الأخلاقية في جوانب من أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى حتى القرن العشرين (لا يرتدي الأطفال من الجنسين إلا ثيابًا قليلة في شهر يونيو).

بل إنَّ الفتيات اللاتي لم يصلن إلى مرتبة النساء في مجتمعات الحضر التي يسود فيها التعليم لا تطالبهن الشريعة الإسلامية بتغطية الوجوه، مما دعا بعض المسلمين الذين حيرهم الأمر إلى طلب الفتوى من شيوخهم في القرون الوسطى، تساءلوا لمَ يفرض الحجاب على امرأة تجاوزت الثمانين في حين لا يفرض على فتاة نضجت قبل الأوان في سن الثالثة عشرة. وبالطبع فإنَّ الشريعة الإسلامية وما درج عليه المسلمون من عادات استنكرت العري في الأماكن العامة، غير أنَّ القرويين الأميين في القرى النائية لم يبالوا بالاستنكارات الصادرة عن المساجد الكبرى بالعاصمة. ولعل الاهتمام المتزايد بحجاب النساء بل الفتيات الصغيرات في المجتمعات المسلمة الحديثة في الأزمنة التالية وثيقة الصلة بمشاعر الذل التي يشعر بها المسلمون تجاه تولي الإداريين والجيوش الأجنبية الاستعمارية وغيرهم من غير المسلمين مواقع السلطة في بلادهم.(٢٦)

وفي الوردان سعد الجند حين رأوا تفضيل القرويين لأزرار زيهم العسكري بديلاً عن النقود. وقد لاحظ "برنوييه" بعين صانع الأزياء أنَّ الجنود يخلعون أزرار زيهم العسكري لاستخدامها في مقام النقود، غير أنَّ الكثيرين منهم ما لبثوا أن أصيبوا بخيبة أمل حين وجدوا أنَّ أزرار زي جنود المدفعية وحدها هي العملة

المقبولة لأنها مصنوعة من نحاس خالص، في حين احتوت أزرار غيرهم من الجند على الخشب. وتدل ملاحظة "برنوييه" أنَّ الأهالي يرغبون في عملات من النحاس الخالص ويثقون بقيمتها. رأى القرويون في تلك العملات النحاسية نقوذًا تصلح لعمليات البيع والشراء في الأسواق، وبخاصة وأنَّ نساءهم وكذلك نساء البدو اعتدن أن يخيطن العملات في ملابسهن، ولذا فعلى الأرجح أنهم افترضوا أنَّ رجال المدفعية يتبعون العادة نفسها. وهناك من يرى أنَّ رفض القرويين الاحتفاظ بالعملات الأوروبية يعود إلى خشيتهم أن يدانوا بوصفهم متعاونين مع الفرنسيين إذا ما عاد المماليك إلى السلطة. ولكن البحوث التي أجريت في سجلات المحاكم المصرية في القرن الثامن عشر قد أظهرت أنَّ العملات الأجنبية انتشرت في أقاليم مصر في ذلك الزمان؛ ولذلك فلا يُتصور أنَّ في حيازتها دليلاً على الخيانة.(٢٧) أما رجال المدفعية الذين بدت عليهم علامات الإرهاق فقد انغمسوا في التعاملات مع أهل القرية دون تردد وقد علت وجوههم الابتسامات.

وفي ذلك اليوم الذي نعم فيه الجميع براحة قل أن استمتعوا بمثلها، نزل "بونابرت" بين جنوده وتحدث معهم في جو من الألفة، واستمع إلى شكواهم مما يعانون من بؤس شديد؛ حاول القائد الأعلى أن يبث في قلوبهم الأمل فوعدهم باحتفالات وولائم متى غزوا القاهرة، وأضاف إلى وعده السابق بالخبز الوفير المغريات من اللحوم والنبيذ والسكر والقهوة. ولا يُتاح لنا أن نعلم الآن مدى اقتناع الجنود بتلك الوعود التي تراوحت بين ما تخيله "بونابرت" من مخبوزات وما تقدمه مطاعم فرنسا الفاخرة من المأكل والمشرب، ولكننا نعرف كثيرًا عن تصورات "بونابرت" بشأن الأسلوب الأمثل لتحفيز رجاله. يقول "مواريه" إنَّ الجند قنعوا بالوعود إذ لم يتوفر لهم غيرها.(٢٨)

وقد وقعت حادثتان في هذه الفترة تحملان دلالة على واقع القوة الفرنسية الوليدة في مصر. وقعت الحادثة الأولى في الوردان حينما عثر الفرنسيون على خبيئة من المخطوطات في أحد أبراج الحمام. وعلى الرغم من أن الجيش الثوري الفرنسي الذي يلتزم بالعلمانية لا يضم بين صفوفه رجال دين فعلى نحو ما كان هناك بينهم الأب سيكار **Sicard** (وربما كان مجرد جندي أو ضابط سبق أن درس للالتحاق بالكنيسة) الذي أصر على إحراق المخطوطات لأنها مؤلفات في السحر. وفي تلك الفترة أيضًا حدث أن أرسل أحد أمناء المخازن بالجيش الفرنسي إلى قرية مجاورة لشراء قمح، وأثناء وجوده مع خادمه في تلك القرية هاجمهما البدو وقيدوهما إلى شجره وأشعلا فيهما النار. وحين وصل الفرنسيون وجدوا النار لا تزال مشتعلة في جسديهما. استشاط "بونابرت" غضبًا فأمر بإضرام النيران في القرية، وقتل أهلها جميعًا رميًا بالرصاص أو بضرب أعناقهم بالسيوف. لم تستند تلك العقوبة الجماعية إلى المنطق السليم، مثلها في ذلك مثل العقوبة التي حلت بالرحمانية حيث أتت النيران على جانب منها، وإنما بدت وكأنها مجرد ممارسة فجة للإرهاب. كما أنَّ تدمير مخطوطات قيّمة يلقي بظلال الشك على دعاوى "بونابرت" بشأن إسهامه بغزو مصر في توطيد أركان الحضارة. بل إنَّ سماح الجيش الجمهوري لرجل دين أن يرتكب تلك المحرقة القائمة على عقيدة غيبية يدل أبلغ دلالة على امتداد عنيد لأساليب فكرية من قبل عصر التنوير بين هؤلاء الذين أعلنوا العقل إلهًا لهم. ويسجل الرقيب "فرانسوا" أحداث اليوم التالي، التاسع عشر من يوليو فيقول إنَّ الجنرالات أرسلوا عدة وحدات إلى القرى الواقعة على ضفتي النيل.[٢٩]

وفي إحدى تلك القرى وتعرف باسم شوم اجتمع ألف وثمانمائة رجل ليحولوا دون دخول الوحدتين التاسعة، والخامسة والثمانين، من القوة التي يقودها "رينيه"،

وكان "فرانسوا" في طليعة تلك الحملة وقد سجل في مذكراته أنَّ كل أهالي القرية اجتمعوا ورفضوا تزويد الفرنسيين بالمؤن ثم ما لبثوا أن أطلقوا النار على الأجانب؛ فما كان من الجنرال "كامبيز" Cambise قائدهم إلا أن أمر رجاله بالهجوم. يقول "فرانسوا" إنَّ الجنود تسلقوا الأسوار واقتحموا القرية وهم يطلقون رصاص بنادقهم على الحشود، فقتلوا تسعمائة رجل، هذا عدا النساء والأطفال الذين ظلوا في مساكنهم التي أمسكت بها نيران البنادق والمدفعية. ويقول أيضًا إنّهم ما إن انتهوا من السيطرة على القرية حتى جمعوا كل ما وقع تحت أيديهم من جمال وحمير وخيول وأبقار، ومن بيض ولحم، ثم أشعلوا النار فيما تبقى من بيوت، أو بالأحرى أكواخ، قبل أن يغادروا كي يضربوا مثلاً يبعث الرهبة في قلوب "أولئك البرابرة أنصاف الوحوش". ويسجل "فرانسوا" إنه ما إن حل المساء حتى سعى كبار رجال القرية ليعلنوا استسلامهم ويقدموا خدماتهم التي قبلها الفرنسيون. ويقول "فرانسوا": إنَّ الجنرالات الفرنسيين وزعوا على هؤلاء الرجال إعلان "بونابرت" إلى الشعب المصري.

نجد أن رواية "فرانسوا" تتبع خطا متصلاً من الأحداث يبدأ من الغزو ثم مقاومة الإرهاب إلى أن ينتهي بالخضوع والاستسلام. وواقع الأمر أن ما حدث ينهج دورة تتابع فيها مراحل الغزو والثورة والإرهاب والتواصل السلمي، وتتبادل فيها المواقع. إنها دورة الاحتلال والمقاومة لا صلة لها بما يُطلق عليه صدام الحضارات في عصرنا الحالي. وجدير بالذكر أنَّ احتلال مصر للسودان أو سوريا فيما بعد لقى أيضًا مقاومة في كثير من الأحيان.

وبعد أن نال الفرنسيون قسطًا من الراحة في يوم أو يومين حسب تاريخ وصولهم إلى الوردان، سار الجنود في طريقهم وقد تجدد نشاطهم، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما استنشقوا هواءً ملتهبًا يكوي الصدور، وسقط مزيدٌ من

الرجال، منهم من راح ضحية الجفاف وما يتبعه من فشل كلوي ومنهم من انتحر. يقول "فرنسوا" إن الأهالي هجروا معظم القرى التي مر بها الجيش الفرنسي. وفي الحادي والعشرين من يوليو وقعت عيون الفرنسيين للمرة الأولى على مشهد الأهرامات المهيب. وكانت الأهرامات حينئذ ما زالت محاطة بكثبان رملية تحجب بعض جوانبها ولم يُعرف بعد الغرض من بنائها، ولو أنَّ البعض رجح إقامتها لتضم رفات الفراعنة. وقد أطلق المسلمون المصريون اسم أبي الهول (على التمثال الرابض أمام الأهرامات) إذ رأوا فيه أثرًا قديمًا شهد أمورًا مرعبة. وما لبث الجنود الفرنسيون أن صادفوا طليعة جيش مراد بك. وكان الأوروبيون وهم يتقدمون عبر القرى قد أزاحوا الأتراك المتمصرين من طريقهم، غير أنه في حوالي الساعة العاشرة من صباح يومهم هذا انكشفت أمامهم القوات الرئيسية لجيش المماليك. وقف "بونابرت" يحدث جنوده قائلاً: "أيها الجنود، إن أربعين قرنا من الزمان تطل عليكم من ذرى هذه الأهرامات".

الفصل الرابع

القاهرة العظيمة

أصبح لزامًا على جيش "بونابرت" عقب سيره من الوردان أن يقاتل العدو على أرضه[1] وقد بلغ به الجوع والعطش والإرهاق كل مبلغ. ويصف "مواريه" حالة الجيش الفرنسي في مذكراته ونكاد نسمع لهاثه حين يشير إلى اختناق الجند الفرنسيين تحت وطأة الحرارة التي انقطعت معها الأنفاس. سارت فرقة "مواريه" منذ الصباح في تشكيل المربع الذي لم يدع سبيلاً لأي جندي أن يخرج عنه ولو ليعدوَ إلى ضفة النهر كي يروي ظمأه برشفة من مياهه العذبة. ويُذكر أن "بونابرت" وقادةَ جيشه عمدوا إلى فرض ذلك النظام في سير الجيش ملتزمًا بتشكيله إذ إنَّهم أرادوا أن يباعدوا بين جنودهم والنيل الذي يسيطر عليه الأتراك المتمصرون. غير أن بعض التعساء الذين لم يتحملوا العطش خرجوا على الصف وانطلقوا إلى النهر، ولكنهم ما كادوا يتناولون رشفات منه حتى برز لهم العدو ففروا عائدين إلى صفوفهم.

لم تترك كلمات "بونابرت" البليغة عن قرون الزمان الأربعين أثرًا يذكر في نفوس الجنود، ويؤيد مساعد القائد "بيير بيلبور" **Pierre Pelleport** هذا الرأي فيقول إن معظم الرفاق لم يفقهوا مما قاله "بونابرت" شيئا، كما لم يدركوا أن شجاعتهم وقدرتهم على تحمل الصعاب أوشكتا أن توضعا على المحك؛ فالجيش الفرنسي جيشٌ جرَّار يدين بوجوده إلى عصر التنوير، ويتشكل من مربعين كبيرين يمتد كل منهما إلى عمق ستة صفوف من الجند وتتقدم المدفعية بينهما. ويقول الكابتن "جان-باتيست فرتراي" إن وحدات الخيالة القليلة كانت في بادئ الأمر تتخذ مواقعها

داخل مربعي المشاة لتتقي هجمات فرسان الخيالة التركية الذين يتصفون بالشجاعة والإقدام، غير أنها ظلت على أهبة الاستعداد للهجوم عندما تسنح لها الفرصة.

تحصنت الخيالة وعلى رأسها مراد بك في قرية إمبابة واتخذت مواقعها خلف قوات مدفعية جمعت بين القوة والضخامة اللتين تبثان الرعب في قلوب الأعداء. غير أن "بونابرت" توفرت له معلومات مفادها أن مدافع عدوه لا تحملها مركبات متحركة بل هي ثابتة في أماكنها مما يحد من فائدتها على نحو كبير. أما الخيالة المصرية فقد امتد النيل خلفها وعلى ضفته الأخرى تقع القاهرة، حيث تحصن إبراهيم بك وحاشيته أيضًا على طول ضفة النهر في شبرا وبولاق.

وفي المدينة، تطوَّع بعض السكان الذين انتابهم الخوف، للقتال إلى جانب الأمراء، وبقى البعض الآخر بدورهم، أو حاولوا الفرار فشدوا الرحال على طرق تتزايد مخاطرها باطراد. وينعي الجبرتي هجر الناس الأسواق وتراكم الأتربة فيها، واتساع المجال لأنشطة اللصوص وقطاع الطرق وحدهم دون غيرهم. أما في الريف فقد صدَّق كثيرٌ من الفلاحين ما نشره "بونابرت" من دعاية مؤداها أنَّه مبعوث السلطان العثماني. وعلى صفحة النيل احتشدت السفن الكبيرة للأسطول النهري المصري الذي صنعت قطعه في الجيزة.

انعكس البريق الصادر عن لباس الأمراء العسكري الموشى بالذهب والفضة وأسلحتهم اللامعة تحت الشمس، فأرسل وهجًا مبهرًا أعشى عيون الفرنسيين. اعتلى أمراء المماليك صهوات خيولهم العربية وهم مدججون بالسلاح، يحمل كلٌّ منهم خمس غدارات أو ست مقابضها من عاج ومُرصَّعة بالجواهر، وسيفًا من الصلب الدمشقي حادًا كالشفرة وذا انحناءة يطيح برأس العدو في ضربة متقنة

واحدة. وقد انبهر "مواريه" انبهارًا عظيمًا بما رآه منهم من كر وفر أمام معسكرهم، وبدا له واضحًا أن مناوراتهم تلك تمهد لهجمة فاستعد الفرنسيون لتلقيها.

وفي مذكرة إلى حكومة الإدارة حررها "بونابرت" بعد انقضاء أحداث ذلك اليوم بثلاثة أيام كتب يقول إنّه أصدر أوامره لفرقتي الجنرالين ديساي ورينييه كي تتخذا موقعيهما إلى اليمين، بين الجيزة وإمبابة، على نحو يقطع طريق الاتصال بين العدو وصعيد مصر الذي يمثل مجالا طبيعيًا لانسحابه.(٢) ويستعيد "بونابرت" الأحداث فيقول إنّ الساعة كانت قد تخطت الثالثة ظهرا حينما اندفع مراد بك في سرعة البرق الخاطف على رأس فرقة من صفوة فرسان الخيالة في اتجاه فرقتي رينييه وديساي يصحبه آلاف الفرسان. وكاد المماليك أن ينالوا من الفرنسيين الذين باغتتهم الهجمة. أما بقية أفراد الجيش المصري فقد افتعلوا هجومًا على الكتلة الرئيسية للفرنسيين بهدف منع الوحدات الأخرى من تقديم المساعدة.

ويتذكر "فرتراي" الأمر الذي أصدره الجنرال "رينييه" حين اقتربت خيالة المماليك، ففي لمح البصر انتظم الجنود الفرنسيون على هيئة مربع عمقه ستة صفوف من الرجال مستعدين لتلقي صدمة الهجوم. قام الجنود بتلك المناورة تحت وابل من النيران بدقة ورباطة جأش تثير الإعجاب، ثم أطلق جنود المدفعية قذائفهم على المهاجمين من مدى بعيد، وهو أمر لم يعهده الأمراء ومماليكهم الذين لم يخبروا أو يتوقعوا إطلاق قذائف تتخطى المدى المتوسط. استدار كثيرٌ من خيالة المماليك على أعقابهم وانسحبوا ما إن سقطت أول قنبلة بينهم. وعلى الجانب الآخر من النهر في المدينة القديمة بدا دوي المدافع للجبرتي أقرب إلى صوت غليان المرجل فوق نيران متأججة. وقد حاول مراد بك أن يلتف ويهاجم الفرنسيين من الخلف غير أنّ الفرقتين استعدتا بتشكيل المربع وشرعتا غابة من الأسلحة المثبتة بالبنادق عجز عن تجاوزها حتى قبل أن يطلق الجنود الفرنسيون نيران بنادقهم.

كان الفرنسيون يتمتعون بمنعة من هجمات الخيالة طالما حافظوا على نظامهم وضموا صفوف المشاة، إذ لو تفرق بعض الجند وخرجوا على صفهم لأصبح المجال متاحًا للخيالة المهاجمة كي ينالوا منهم ثم يهاجموا الأضلاع الأخرى للمربع الذي انفرط عقده.

أصدر "بونابرت" أمره إلى فرقة الجنرال "دوجا" بالتقدم نحو كتلة الجيش العثماني بحيث تتخذ قوات المدفعية موقعها بين النيل وفرقة الجنرال "رينييه". يسجل القائد الأعلى في مذكراته أنّ الجيش الفرنسي ترك العدو يتقدم تجاهه مسافة خمسين قدمًا ثم استقبله بوابل من القنابل وأمطره برخات من طلقات متتالية صرعت منهم كثيرين سقطوا قتلى على أرض المعركة. وما إن انطلقوا في المساحة الواقعة بين الفرقتين حتى نزلت بهم نيران من الجانبين ألحقت بهم الهزيمة. تساقط جنود مراد بك كالرطب الجني من هزة نخلة وقد صرعتهم طلقات المشاة أو قذائف المدفعية. أما من نجا فقد سارع بالانسحاب، غير أنّ ما يقرب من ألف وخمسمائة مقاتلٍ عثماني ومثلهم من الفلاحين واصلوا المقاومة في إمبابة نفسها.

كما أصدر "بونابرت" أمره إلى فرقة الجنرال "بون" التي احتلت مواقعها على ضفة النيل كي تتحرك لمهاجمة تحصينات العدو، وطلب من "بون" أن يَحُولَ بقواته بين الأمراء الذين يعدون أنفسهم للهجوم والمدافعين عند إمبابة. ويقول "بونابرت" إنّه استهدف منع الخيالة من دخول إمبابة وقطع طريق الانسحاب في وجه المدافعين، ومهاجمة القرية من الجهة الغربية إن لزم الأمر. ويضيف أنّ الوحدات الأولى من كل فرقة اتخذت هيئة صفوف القتال بينما حافظت الوحدتان الثانية والثالثة على مواقعهما ثم شكلتا مربعات مشاة. تقدمت تلك المربعات لدعم صفوف القتال، ويضيف "بونابرت" أنّ صفوف القتال التي قادها

الجنرال "رامبون" **Rampon** اندفعت نحو التحصينات بما عرف عنها من عنف متهور مع تعرضها لنيران كثيفة من المدفعية، وعلى الجانب الآخر انطلق الأتراك المتمصرون مهاجمين تنهب خيولهم الأرض نهبًا وتعكس قمصانهم الحريرية أشعة الشمس ألوانًا متماوجة. ثم توقف الفرنسيون فجأة وشكلوا صفًا أماميًا واستقبلوهم بالأسلحة المثبتة بالبنادق التي أطلقت خزائنها وابلاً من الطلقات. نظر المدافعون في هلع إلى انقطاع طرق الاتصال أمامهم على نحو متزايد مما أضاع منهم تدريجيًا فرصة الانسحاب. عرض الفرنسيون عليهم الاستسلام لكنهم رفضوا مفضلين الموت.

وأثناء المفاوضات عانى الفرنسيون من عدم القدرة على السيطرة على جنودهم، فما إن انهارت المفاوضات حتى اندفع رجال المشاة الغاضبون إلى إصابة مستهدفين أولاً رجال المدفعية التركية فأعملوا فيهم أسلحة بنادقهم واستولوا على مدافعهم. لاذ الجنود الأتراك بالفرار غير أنَّ الجانب الأيمن من الجيش الفرنسي قطع عليهم الطريق وأطلق قذائفه عليهم، فمن لم يلق مصرعه ألقى بنفسه في النيل كي ينضم إلى قوات إبراهيم بك على الضفة المقابلة. غرق كثيرون أو أصيبوا برصاص الفرنسيين. واستولى الأوروبيون على أربعين قطعة مدفعية وكم كبير من العتاد والذخيرة، وأربعمائة جمل محملٍ بالذهب والفضة. وعلى مر الأيام التالية استخرج الفرنسيون من مياه النيل جثث المصريين وفتشوا جيوبهم بحثًا عن قطع الذهب. ولم يتكبد الفرنسيون خسائر تُذكر إذ يُقدر عدد القتلى بين صفوفهم بثلاثين والجرحى بمائتين وستين، في حين سقط ما بين ثمانمائة، وألفٍ وستمائة من الأتراك المتمصرين صرعى. ويقول "بونابرت" إن عددًا كبيرًا من كبار البكوات قد أصيب بما فيهم مراد بك الذي تلقى ضربة على خده. أما "مواريه" فلم يجد عيبًا في

شجاعة المصريين العثمانيين أو في روحهم القتالية ويرى أنـهم لـو تـوفر لهـم معرفة بخطط القتال الأوروبية لألحقوا بالفرنسيين المنتصرين خسائر فادحة.

وفي خطاب إلى حكومة الإدارة خلع "بونابرت" اسمًا عظيمًا ورنانًـا علـى المعركة فسماها "معركة الأهرامات"، ولو أنّها لا تكاد تُـرى من إمبابة. وسجل في خطابه معلومات عن أحدث فتوحاته، كتب يقول "إنَّ ثراء هؤلاء الناس يتمثل فـي خيولهم وعتادهم الحربي. أما البيوت فهي في حالة يرثى لها، ومن الصعب أن نجد مثيلاً لهذه الأرض التي تجمع بين الخصب من ناحيـة وفقـر أهلهـا وجهلهـم أو خضوعهم للاستبداد من ناحية أخرى. وهـم يفـضلون أزرار الـزي العـسكري الفرنسي على النقود الفرنسية". وهنا ترد ملاحظة رددها آخرون وهـي أنَّ فنـاني العصر الرومانسي الذين صوروا انتصار الفرنسيين في معركة الأهرامات فاتهم أن يسجلوا اختفاء الأزرار من معاطف رجال المدفعية.

ويعبر الميجور جنرال "برتييه" **Berthier** عن مشاعر الفخر فيقول إنّه مـا من معركة أفضل من "معركة الأهرامات" تثبت تفوق خطـط القتـال الأوروبيـة بالمقارنة بخطط الشرقيين، وتؤكد ميزة الشجاعة المنظمة على الحماسة الفوضوية. غير أنَّ الإقرار بإسهامات واضعي الخطط القتالية من العـسكريين الفرنـسيين لا ينبغي أن ينسينا أنَّ مزايا عديدة اجتمعت للفرنسيين في تلك الموقعـة. ففـي عـام ١٧٩٨ كان تعداد فرنسا حوالي ٢٨ مليونًا مما يجعل المقارنة مع المصريين فـي صالح الفرنسيين بنسبة خمسة إلى واحد. وبطبيعة الحـال فـإنَّ عـدد المحـاربين الفرنسيين في مصر هو الأهم، وحتّى في ذلك المجال فـإن الغلبـة فـي صـف الفرنسيين، فقد شارك ثمانية وعشرون ألفًا من الجنود الفرنسيين في معركة إمبابـة معظمهم صهرتهم الخبرة في الحملات الإيطالية. وتثبـت الوثـائق المحفوظـة أن الفرق العثمانية السبع لم يزد عدد رجالها على ثمانية عشر ألفـًا من الرجال فـي

عام ١٧٩٧، منهم ثمانية آلاف من الخيالة وعشرة آلاف من المشاة. أضف إلى ذلك أنَّ بيوتات المماليك جمعت من الخيالة عددًا كبيرًا لم يشملهم نظام الفرق القديم ولذلك فإنَّ أعدادهم لم تُحصَ، ولكن مراد وإبراهيم جانبهما الصواب حين قسما قواتهما وبقي إبراهيم مع نصف القوات في بولاق. أما في إمبابة فلم يقف في مواجهة الفرنسيين في تلك الموقعة سوى بضعة آلاف من الأمراء ومماليكهم إلى جانب من استدعاهم البكوات من البدو الحلفاء ويبلغ عددهم حوالي ثلاثة آلاف من الجنود غير النظاميين وحوالى عشرين ألفًا من أهل القرى والبلدات المصرية ينقصهم التدريب والسلاح فحصدتهم المدافع الفرنسية حصدًا.(٣) أما فيما يتعلق بالجند النظاميين المدربين فإنَّهم في الجانب الفرنسي فاقوا من تجمَّع من الجنود والخيالة المصريين في إمبابة بنسبة أربعة إلى واحد على الأقل.

أضف إلى ذلك أنَّ بنادق الفرنسيين ومدافعهم لها من القوة والمدى ما يفوق دون أدنى شك الأسلحة التي قاتل بها المصريون. وقد أثبتت مربعات المشاة الفرنسية التي يحمل أفرادها البنادق المثبت بها أسلحة الطعن أنَّها تستعصي على هجمات الخيالة ما لم تصحب تلك الهجمات قوة مدفعية فائقة المستوى.(٤) وقد نُقل عن مفكر فرنسي فيما بعد قوله إنَّ المماليك رأوا في الجيش الفرنسي، الذي يسير في مربعات محكمة، الارتباطَ الوثيق الذي يجعل المسيرة تشبه بنية الأهرامات.(٥) إن مهارات "بونابرت" العسكرية غير قابلة للنقاش إذ إنَّ عبقريته بوصفه قائد عمليات جلبت له الانتصار على عديد من الجيوش النظامية الأوروبية في الأعوام الخمسة عشر التالية لمعركة الأهرامات. وفي نهاية المطاف نذكر أنَّ الأمراء وعموم الشعب المصري لم يكونوا في أفضل حال في عام ١٧٩٨، فقد جلب القرن الثامن عشر الكوارث على مصر فغاضت مياه النيل في سنوات عديدة لنقص في الفيضان، وانتشر الجفاف، وزيدت الضرائب، واشتعلت الحروب الأهلية بين البكوات.

طارد الجنرال "ديساي" قوات مراد بك المنسحبة إلى قبيل الجيزة حيث التقى الجمعان في معركة حامية الوطيس دامت ساعتين ثم حل الظلام، وهي المعركة التي تلقى فيها مراد جرحًا في وجهه وهُزمت خيالته فلم تقم لها قائمة بعد ذلك. عزم مراد بك ورجاله على الفرار، وفي بادئ الأمر أرادوا أن يستقلوا سفينة كبيرة غير أنَّ مستوى النيل المتدني لم يسمح لها بالإبحار. وبما أنَّ تلك السفينة حوَت مخزنًا كبيرًا من الأسلحة والذخيرة فقد أضرم مراد بك فيها النيران حتّى لا تقع في أيدي الفرنسيين. وتصاعدت ألسنة اللهب في المساء مما أضاف رعبًا على رعب في نفوس القاهريين. وما لبث مراد ورجاله أن فروا في اتجاه الصحراء جنوبًا.

فرض الفرنسيون سيطرتهم على الضفة الغربية لنهر النيل وأعدوا العدة للعبور إلى القاهرة وهم يخشون أن يلقوا مقاومة عنيدة من قوات إبراهيم بك المتحصنة على الضفة المقابلة؛ غير أنَّ من تبقى من جنود بالعاصمة استقر رأيهم على أنّه لا سبيل إلى هزيمة الفرنسيين في معركة تقليدية فانطلقوا يشعلون النيران في مراكب التجار ودورهم الفخمة كي لا يضع الفرنسيون أيديهم عليها ثم هجروا العاصمة. ولم يمض شهر إلا والفرنسيون قد غزوا صعيد مصر وأطاحوا بالنظام المملوكي.

ويسجل الجبرتي أنَّ أفواج القاهريين الذين ظنوا أن الفرنسيين أقدموا على إحراق السفن انتقامًا وتخريبًا هاجوا وماجوا كبحر متلاطم بالأمواج، وأثاروا التراب تحت أقدامهم فحملته الريح العاصفة التي هبت في ذلك اليوم فأعشى عيونهم. وأطلقت النساء صراخًا عاليًا من البيوت. أما إبراهيم بك فقد هجر تحصيناته ببولاق وأرسل يأخذ حريمه وكذلك من كان معه من الأمراء. "وخرج أكثرهم ماشيا أو حاملاً متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على قدميه، وخرجت أغلب النساء ماشيات حاسرات

وأطفالهن على أكتافهن يبكين في ظلمة الليل".[٦] ولعل الجبرتي يشير في روايته هذه إلى نساء الطبقات الأعلى إذ إنَّ سيرهن في الطرقات حاسرات يعد ذلاً لا يضارعه إلا اضطرارهن إلى الفرار من بيوتهن. كما جاء شيوخ الأزهر المرموقون من أمثال الشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ سيد خليل البكري بنسائهم وحاجياتهم وهجروا المدينة دون أن يعرفوا لهم وجهة محددة، وتبعهم في ذلك عامة الناس الذين غلبهم الخوف. وارتفعت أسعار النقل والانتقال ارتفاعًا كبيرًا.

بات أهل المدينة الذين تملكهم الفزع وجميع ما حملوا من ثروات صيدًا سهلاً لقبائل البدو التي تلقفتهم ما إن خرجوا من أبواب القاهرة. ولا شك أن إحدى النتائج التي ترتبت على الغزو الفرنسي تتمثل في انتقال كبير للثروة من الاقتصاد الحضري إلى الرعاة من البدو. يقول الجبرتي "فكان ما أخذته العرب شيئا كثيرا يفوق الحصر بحيث إن الأموال والذخائر التي خرجت من مصر في تلك الليلة أضعاف ما بقي فيها بلا شك، لأن معظم الأموال عند الأمراء والأعيان وحريمهم وقد أخذوه بصحبتهم ". وقد وَصَفَ الجبرتي الحشود التي قاست العري والبؤس وهم يتعرضون للنهب في طريق فرارهم إلى الريف، في حين تمتع من بقي بما هجره أهله من الدور. يقول الكابتن "ساي" إنَّ الناس تحرروا من استبداد المماليك وزحفوا على قصورهم فنهبوها وحرقوها.[٧] ومن الواضح أنَّ أحداث السلب والنهب وإحراق القصور لم تنتشر انتشارًا واسعًا إذ سعد الفرنسيون فيما بعد بالانتقال إلى تلك الدور. ويكتب عزت حسن الدرندلي، المؤرخ العثماني الذي عاصر تلك الأحداث، أنَّ أغلب سكان القاهرة هجروها فتحولت إلى مدينة أشباح مما سهل مهمة السارقين. وقد نهبت قصور إبراهيم بك ومراد بك في حي قوصون المشهور بفخامته ثم أضرمت فيها النيران.

وبعد مرور عدة أيام، في الرابع والعشرين من يوليو تحديدًا، جاست قوة كبيرة من الجيش الفرنسي في طرقات العاصمة المهزومة ساعة الظهر تحت سمع حشود الناس وبصرهم. ويقول ضابط الخيالة الشاب "ديزفرنواه" إنَّ أنظار القاهريين تعلقت "ببونابرت" الذي عُرف الآن بينهم بالسلطان العظيم. ويضيف ما وجده من إعجاب القاهريين برجال الخيالة الفرنسية وكذلك بالمهندسين الذين ظهروا بلحى جميلة منسقة. ويلاحظ "ديزفرنواه" أنَّهم لا يعيرون المشاة التفاتًا لما يشعرون به من احتقار لمعظم رجال المشاة العثمانيين. غير أنَّه بمرور الوقت عرف الفرنسيون أنَّ المصريين ينزلون الرجل حليق اللحية منزلة الرقيق، وأنَّ المماليك لا يُسمح لهم بإطلاق اللحية إلا بعد منحهم حريتهم، ويعد إطلاق اللحية في حالتهم علامة على بلوغهم مرتبة الرجال أيضًا. وقد حرص الفرنسيون فيما بعد على إطلاق ولو شواربهم كي يحظوا بالاحترام.

اتخذ "بونابرت" من قصر الألفي بك بالأزبكية مقرًا له. ويسجل "أوجوست مارمون" **Auguste Marmont**، أحد مساعدي "بونابرت" في مذكراته أنَّ القاهرة بدت له جميلة مع أنَّها مدينة تركيةً، فالدور مشيدة بالحجارة وهي ترتفع عالية وتطل على شوارع ضيقة مما يعطي انطباعًا أنَّها تكتظ بسكانها. كما ازدانت القاهرة بميادين واسعة تطل عليها قصور كبار البكوات. وعمومًا فإن "مارمون" يقر بأن اللوحة بأكلمها تفوق التصور الذي ارتسم في أذهان الجنود الفرنسيين من قبل. وقد توزع سكان القاهرة البالغ عددهم حينئذ حوالي مائتين وسبعة وستين ألفًا على خمسة وسبعين حيًا يرأس كل منها رئيسٌ يقره إبراهيم بك على رئاسته. على رأس كل منها مسئول يقره إبراهيم بك أيضًا.

ويتذكر الملازم أول "لافال" **Laval** دخول القاهرة في الرابع والعشرين من يوليو ويقول إنَّ الناس جميعهم بدوا في كرب عظيم[٩]؛ إذ إن مصرع كثير من

عظماء الأتراك المتمصرين الذين تربط معظمهم علاقات المصاهرة بأهل المدينة أثار حفيظة الأهل المحزونين تجاه الوافدين الجدد. ويضيف "لافال" أنَّ الأيام الأولى مرت والمدينة مقفرة فكل الأسواق مغلقة. ويقول "إيتيين مالوس" **Étienne Malus**، وهو ضابط شاب له معرفة واسعة بالرياضيات، إنّه لولا عويل النساء في حرملك الدور لبدت المدينة مهجورة تمامًا. غير أنَّ "لافال" يسجل الاتصال بين الفرنسيين والمصريين الذي بدأ بطيئًا مما أتاح للفرنسيين سبلاً لشراء المؤن. وما إن اكتشف التجار القاهريون أنَّ الفرنسيين ملتزمون بسداد ثمن ما يشترون حتى حرصوا على عرض ما يباع عليهم. ويقول الجبرتي إنَّ الجنود دفعوا أسعارًا أوروبية أساسًا لشراء سلع، مثل: البيض، والخبز، والسكر، والتبغ، والقهوة، وما هي إلا أيام قليلة حتى أظهر أصحاب المحال التجارية الود للفرنسيين. كان التواصل صعبًا واضطر الجنود الفرنسيون إلى اللجوء إلى لغة الإشارة. ويقول "لافال" إن الفرنسيين أنفقوا بعض الوقت في تعلم القليل من العربية، إلا أنَّ بعض اليهود الذين يعرفون قدرًا من الإيطالية تطوعوا للشرح وفي كثير من الأحيان عملوا بالترجمة. وأصبحت الأماكن العامة والمقاهي التي يبلغ عددها ألفًا وخمسمائة مقهى تجذب الزبائن الفرنسيين.

وصل إلى القاهرة في أحد الأيام الأخيرة من شهر يوليو مساعد آخر "لبونابرت" يُدعى "أنطوان-ماري شامان دي لافاليت" **Antoine-Marie Chamans de Lavalette**. ويسجل "لافاليت" دهشته لرؤية أعيان المسلمين الذين يتنقلون بين حين وآخر على بغالهم وقد تقدمهم رجال يحملون عصيًا يضربون بها من يعترض طريق البغال، بل يضربون من لا يقف احترامًا لمقدم هؤلاء الأعيان. أما الشحاذون فقد حجبوا وجوههم وأطلقوا من الصرخات ما بدا وأنها صيحات غضب لا استعطاف. ولم يتوفر بالقاهرة، وفي الشرق الأوسط عمومًا، عربات تجري على

عجلات لأنّ ما كسا الأرض من تراب ورمال جعل حركتها مستحيلة، كما أن الحفاظ على الشحم الذي ييسر حركة المركبات أمر صعب وببساطة لا تتمكن تلك المركبات من قطع أية مسافة. كما أن معظم الدلتا تتحول إلى مستنقعات في أواخر فصل الصيف وفي الخريف بسبب فيضان النيل مما لا يمكن معه للعربات التي تجر أن تسير على طرقاتها. ولما انتفت الحاجة إلى العربات فإنّ الحاجة انتفت أيضًا لشق طرق واسعة مستقيمة؛ فالجمال والبغال يمكنها السير بيسر في الحارات الملتفة الضيقة.(١٠) فإذا أخذنا في حسباننا أنّ معظم سكان مصر يقيمون بجوار النيل أو بالقرب من المجاري المائية التي تتفرع منه، وأنّ تكلفة النقل النهري أقل كثيرًا من النقل البري، فإنّ الاقتصاد المصري الذي ينتمي إلى عالم ما قبل الحداثة لم يتأثر كثيرًا بغياب عجلات المركبات. ولكن الأمر يختلف حين يتعلق بعجلات المدافع التي تعطي قدرًا أكبر من المناورة بالمقارنة بالمدافع الثابتة وهو ما ساعد الفرنسيين على إحراز انتصارهم. ويستنشق "لافاليت" الروائح المنبعثة من الشوارع الضيقة في القاهرة ويضايقه ما لا يستطيع تحديده من رائحة أشبه برائحة المومياوات. كما شهد كيف يجول الجنود الفرنسيون في طرقات المدينة على ظهور الحمير وهم يضحكون ويصخبون جيئة وذهابًا. ويقول "فرانسوا" إنّ عبثهم هذا وُضع له حدّ في مساء السابع والعشرين من يوليو عندما صدر أمرٌ يمنعهم من ارتياد المدينة بسبب مؤامرة استهدفت ذبحهم، وقد أُلقي القبض على كبار المتآمرين وضُربت أعناقهم. ويضيف فرانسوا أن التوجيهات قد صدرت إليهم ألا يتخلوا عن سلاحهم حتى إن تجولوا في تلك الأحياء التي ينزلون بها.

ويبدو أن بعض المسيحيين المصريين شعروا بسعادة كبيرة لحلول إخوان لهم في الدين من الفرنسيين بينهم، غير أنّ الصلات القوية التي ربطت مسيحيين كثيرين بالبكوات المخلوعين أضفت لبسًا على مواقفهم. وينقل لنا الكابتن "ساي"

أنـــه في الرابع والعشرين من يوليو قام أحد كبار رجال الدين من الأقباط، ويصفه "ساي" خطأ بالمفتي، قام خطيبًا في أكبر مساجد القاهرة، وانطلق في ترنيمة شـــكر بالقبطية احتفالاً بدخول "بونابرت" إلى القاهرة على رأس محاربي الغـــرب. فـــإذا فرضنا أن هذا الحدث قد وقع بالفعل فهو يعد رمزًا مذلاً للمسلمين المهزومين إلـــى حد كبير. ولعل ما حدث أنَّ قسًا ألقى عظة في كنيسة قبطية باللغـــة العربيـــة وأنَّ نصًا مشوهًا قد بلغ "ساي" الذي نقله لنا بدوره، وفيه يتنفس ذلك القس الصعداء "لأنَّ الرب لم يعد غاضبًا علينا؛ فقد تجاوز عن أخطائنا التي كفرنا عنها بما لقينـــا مـــن اضطهاد المماليك الذي طال أمده". وقد نعى على الأتراك ظلمهم وجورهم وقسوتهم (وبالفعل فإنَّ الجماعة الجورجية بالغت في جباية الضرائب من أهل المدن بـــصفة خاصة في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر).

يقول "ساي" إنَّ ذلك القس امتدح الفرنسيين لأنهم يعبـــدون الله ويحترمـــون شرائع رسوله، ويحبون الناس وينجدون المظلوم. ولا يبدو منطقيًا أن يشير قس من الأقباط إلى محمد بوصفه رسولاً، إلا إذا كان "بونابرت" نفسه هو من وضع هـــذه الخطبة التي تحتوي على إشارات استخدمها سابقًا في خطبه التي قصد بهـــا إلـــى تهدئة خواطر المسلمين. ويمضي القس في كلمته فيقول إنَّ أقباط مصر لم يعدوا أن يكونوا شعبًا يعاني التدهور والاضمحلال فأصبحوا في يومهم هـــذا فـــي مـــصاف الشعوب الحرة بفضل عزم المحاربين الغربيين. ويقول "ســـاي": إنَّ تلـــك العظـــة انتشرت بين أفراد الجيش الفرنسي.(١١) وكان بعـــض المـــصريين، ســـواء كـــانوا مسيحيين أو مسلمين، على صلة وثيقة بجالية التجار الفرنسيين فـــي مـــصر وبلـــغ أسماعهم نتيجة لتلك الصلة أخبار الثورة الفرنـــسية منـــذ عـــام ١٧٨٩. وبخـــلاف الجبرتي الذي افترض في بادئ الأمر أنَّ "حرية" الفرنسيين تعنـــي أنـــهم ليـــسوا جنودًا من الرقيق فإنَّ القس القبطي وُفِّق في استحضار أساليب يوضح من خلالهـــا

فكر الحرية السياسية لجمهور من المصريين، والعهدة على "ساي" وما جاء في تقريره عن تلك الخطبة التي أصابها التحريف (ولكنها مع ذلك تجد تأكيدًا من جانب "ديزفرنواه" الضابط الشاب).

بسط "بونابرت" نفوذه على القاهرة، ومن يفُزْ بالقاهرة فقد فاز بمصر. فإلى أي مدى وقع ذلك النفوذ على مَنْ بها مِنْ بشر؟ يقدر علماء الديموجرافيا عدد سكان مصر في عام ١٨٠٠ بأربعة ملايين وخمسمائة ألف نسمة، ويقيمون تقديرهم هذا على أساس تعدادات سكان لاحقة يجرون عليها عمليات حسابية تعود بهم إلى زمن الحملة الفرنسية. وقد وضع العلماء الذين صحبوا الحملة تقديرًا يزيد قليلاً على نصف هذا العدد غير أنهم لم يُتح لهم القيام بتعداد سليم. ويرى مؤرخ مصر العظيم "أندريه ريمون" **André Raymond** أن الحسابات تشير إلى أن سكان مصر ارتفع عددهم من حوالي ثلاثة ملايين نسمة في عام ١٥٠٠ (في أعقاب وباء الطاعون) إلى حوالي أربعة ملايين وخمسمائة ألف نسمة في عام ١٨٠٠، ذلك لأن المحيط المادي للقاهرة زاد بمعامل يصل إلى ١,٥ (واحد ونصف) في الحقبة العثمانية إلى عام ١٧٩٨. فإنْ صح تقدير "ريمون" يمكن القول إنَّ الحكم العثماني وفر من الأمن والبنية الأساسية ما أتاح للمجتمع أن يزدهر، إذ خفض سلاطين آل عثمان الضرائب ووفروا الأمن والبنية الأساسية وألغوا الاحتكارات الحكومية. غير أنَّ معظم تلك الزيادة السكانية حدثت على الأرجح بين عامي ١٥٠٠ و١٧٢٠ أو ما يقرب من ذلك، وربما أصاب الزيادة السكانية الركود في القرن الثامن عشر بما جلبه من بشاعات، فقد عانى الناس كثيرًا من شح مياه النيل أو فيضانه المدمر، ومن الحروب الأهلية التي دارت بين المماليك. وعلى الرغم من أن بعض البلدان شهدت نموًا سريعًا في عدد سكانها (تضاعف عدد سكان بريطانيا من خمسة إلى عشرة ملايين نسمة)، فإن نمو السكان في مصر لزم حدودًا معقولة. ولعل تفشي

الأوبئة على نحو مستمر بما فيها الطاعون يُعد أحد الأسباب التي حدت من النمو السكاني في وادي النيل، وعلى الرغم من المقاومة المتزايدة التي أبداها الأهالي لمكافحة تلك الأوبئة فإنها تمكنت من البقاء والتوطن في الأجواء الدافئة في الشرق الأوسط التي تختلف عن أجواء أوروبا.

وقد درجت أجيال من المؤرخين والدبلوماسيين الأوروبيين على الإصرار على فكرة مفادها أن العثمانيين خربوا مصر وأفرغوها من سكانها، وهي أسطورة نبعت من حملة بونابرت على مصر. اعتمد الفرنسيون حينئذ على إحصاءات مستقاة من مصادر رومانية تقدم تقديرات غير معقولة لسكان مصر أثناء حكم القياصرة، تتراوح بين سبعة ملايين أوضعف ذلك العدد. ولذلك فقد عبر الفرنسيون عن خيبة أملهم لانخفاض عدد السكان ووجهوا اللوم إلى سوء إدارة المسلمين للبلاد مما أدى إلى انحطاطها. وقد نشر قناصل أوروبا فكرة اختفاء شعب مصر طوال القرن الثامن عشر، وهي فكرة يمكن دحضها على أساس من تعدادات السكان التي اكتشفت مؤخرًا. وقد راقت الفكرة لهؤلاء القناصل لأنها توحي بأن الشرق الأوسط سينهض بفضل الاستعمار الأوروبي.

داخل "بونابرت" السرور الذي امتزج بالدهشة لما وجده من سقوط سهل للقاهرة بين يديه، وشرع يؤسس جمهورية فرنسية تابعة في مصر لها حكومة إدارة تخصها وتتكون من صفوة من علماء المسلمين. وقد سبق لـ"بونابرت" أن وجه إعلانًا إلى أعيان القاهرة وعلمائها في الثاني والعشرين من يوليو (الرابع من ترميدور للعام السادس) قال فيه "بالأمس وقع معظم المماليك إما صرعى أو أسرى، وإني ساعٍ وراء من نجا منهم، أرسلوا لي سفنًا من جانبكم ووفدًا يفيد استسلامكم، وأعدوا الخبز واللحم والقش والشعير لجيشي، ولا تخشوني فإني وحدي أود تقديم ما من شأنه سلامتكم".[١٢]

تطلع علماء الأزهر من جانبهم للاتصال بـ"بونابرت" حتى قبل أن يعبر النيل، فاجتمع من لم يهرب منهم فزعًا في الجامع الأزهر وقرروا أن يستدعوا تاجرًا مسلمًا يتمتع بمكانة كبيرة وهو من طرابلس ويتحدث الفرنسية، فحرر رسالة إلى "بونابرت" يطلب إليه الأمان لمن بقي من سكان العاصمة. وحين استقبل "بونابرت" الرسل أكد لهم أنه سبق أن أعلن الناس بمنحهم الأمان وطلب منهم أن يتقابل مع وفد من العلماء، كما زوَّدهم بإعلان يقول فيه إنَّ الفرنسيين ما جاءوا إلا لملاقاة أعدائهم من البكوات، وإنَّ على كبار القوم والعلماء والعاملين بالأجر والعامة أن يطمئنوا ولا يخشوا شيئًا. ثم قال لهم أيضًا إنَّ شيوخ الأزهر وأعيان المدينة يجب أن يجتمعوا به لأنه سيعين من بينهم أعضاءً في ديوان يشكله من سبعة رجال من الحكماء لإدارة شئون البلاد. وأرسل "بونابرت" إليهم وفدًا يرأسه الجنرال "ديبوي" يحمل رسالة القائد الأعلى، ويصحبه الضابط الشاب "إيتيان مالوس". ويذكر "مالوس" فيما سجله أنهم التقوا شيوخ الأزهر المتخصصين في الشريعة وأنَّ هؤلاء الشيوخ قاموا إلى صلاتهم في وجود الفرنسيين بعد أن تبادلوا معهم مجاملات التعارف. وقد تلقى الشيوخ رسالة "بونابرت" بقدر من الارتياح وعَبَر الشيخ مصطفى الصاوي، والشيخ سليمان الفيومي وآخرون للقاء "بونابرت" في الجيزة. سخر "بونابرت" من مخاوفهم، ويقول الجبرتي إن كبار الشيوخ أبدوا استعدادًا للتواصل معه.

رأى الفرنسيون الذين غزوا مصر في الطبقة الحضرية المتوسطة التي تتحدث العربية عمادًا ممكنًا لجمهورية فرنسية بالبلاد، مثلما قامت حكومة الإدارة في باريس على أكتاف الليبراليين من الطبقة المتوسطة، كما رأوا في علماء الأزهر القادة الطبيعيين لتلك الطبقة. وكانت المدارس ومنها الأزهر مقارًا لالتقاء هؤلاء العلماء، ولعل الأزهر أقدم جامعة في العالم فقد أسس في القرن التاسع الميلادي.

وواقع الأمر أن العدد الأكبر من الطلاب الذين يبلغ عددهم أربعة عشر ألفًا حسب تقدير "بونابرت" يُعدون لتولي الأعمال الخاصة أو إدارة شئون العقارات والأراضي وليس للدعوة الدينية في المساجد. أما من يستكمل دراساته في علوم الدين فإنّه مؤهل لمناصب القضاء الشرعي أو الفقه أو لمنابر الدعاة الذين تذيع شهرتهم بين الناس ويمارسون عليهم سلطة أخلاقية كبيرة؛ ثم إنّهم في كثير من الأحيان يمتلكون القرى ويعملون بالتّجارة ويعدون من سراة القوم. وقد جرت العادة في مصر، مثلها في ذلك مثل مجتمعات مسلمة أخرى، أن توقف عقارات وأراضٍ لخدمة أغراض دينية (وعائلية في بعض الأحيان)، وقد بلغت أراضي الأوقاف في مصر حينئذ خُمس الأراضي الزراعية. وعلى سبيل المثال فإنّه ما إن يُعلن عن وقف أرض زراعية حتى يوجه الإيراد الناتج عن محاصيلها إلى إدارة شئون مسجد أو مدرسة دينية. وعادة ما يعين شيخٌ للإشراف على الوقف ويُكافأ بنسبة عشرة في المائة من الإيرادات نظير عمله هذا.

ويروي الكابتن "ساي" أنَّ القائد الأعلى تفرغ لإقامة حكومة في القاهرة تماثل حكومات الجمهوريات الجديدة في أوروبا، فأعلن عن تشكيل حكومة إدارة وأنشأ الهيئات الإدارية في مختلف الأقاليم.(١٣) ويسجل الجبرتي اجتماع أحد نواب "بونابرت" مع شيوخ الأزهر في السابع والعشرين من يوليو كي يتشاور معهم في تعيين عشرة من كبار العلماء بالديوان، ثم شاور هؤلاء لإجراء التعيينات في فروع الحكومة الأخرى. تشكل الديوان من صفوة علماء البلاد وفقهائها وشمل الشيخ عبد الله الشرقاوي، والشيخ سيد خليل البكري، والشيخ مصطفى الدمنهوري، والشيخ مصطفى الصاوي، والشيخ شمس الدين السادات، وغيرهم من المدرسين والكتاب المحترمين، وتختلف الأقوال في تشكيله على وجه الدقة.

وجاءت الخطوة التالية لتعيين القادة العسكريين والرؤساء الإدرايـين، وقـد اعترض الفرنسيون في بادئ الأمر علـى شـغل أشـخاص مـن ذوي الأصـول الجورجية أو الشركسية تلك المناصب، فقد استهدفوا تطهير الصفوة المصرية مـن العناصر المملوكية. غير أنّ علماء الأزهر أكدوا لهم حسبما يـذكر الجبرتـي "أن سوقة مصر لا يخافون إلا من المماليك ولا يحكمهم سواهم".استجاب الفرنسيون لذلك الرأي وسمحوا بالتعيين من بيوت الأمراء العريقة هؤلاء الذين لم يستبدوا بـالحكم مثل غيرهم.(١٤) وهكذا تولى حسن أغا محرم المعروف بنزاهته منصب المحتـسب ليضبط الأسعار ويحافظ على مكارم الأخلاق في الأسواق.

كان أقل ما يوصف به تولي علماء مـصريين يتحـدثون العربيـة تعيـين الشركس والجيورجيين أنه أمر غير مألوف، غير أنّ عزوف الفرنسيين عن تعيين كبار التجار بدلاً من الشيوخ في الديوان أمرٌ مستغرب، فهؤلاء التجـار يتمتعـون بالثروة والسمعة الطيبة في العاصمة؛ وأغلب الظن أنّ "بونـابرت" رأى أن العقبـة الرئيسة لقبول سلطة الفرنسيين في مصر تكمن في الإسلام، وأن حكومة مشكلة من العلماء وحدهم هي القادرة على تدعيم حجته القائلة بأنّ المسيحيين الذين يعتنقـون المذهب العقلاني المسيحي هم حكام يرضى بهم المحكومون مثلهم مثل المـسلمين. وبالطبع فإنّ كبار الشيوخ أنفسهم في كثير من الأحيان ينتمون إلـى طبقـة كبـار التجار أو يتصلون بتلك الطبقة من خلال علاقات المصاهرة. ومن سخرية الأقـدار على أي حال أن يصل علماء المسلمين إلى السلطة في الشرق الأوسط أربع مرات في التاريخ الحديث: في ظل الحكم الجمهوري الفرنسي في مصر، وحكم الخوميني وخلفائه في إيران، والطالبان في أفغانستان، ويمكننا القول إن المرة الرابعة تحققت بموجب انتصار الائتلاف العراقي الموحد في العراق في انتخابات الثلاثـين مـن

يناير عام ٢٠٠٥ (بزعامة رجل الدين الشيعي عبد العزيز الحكيم). وفي المـــرتين الأولى والرابعة حظي العلماء بدعم الغرب المستنير.

جاء التكليف الأول من "بونابرت" إلى الديوان عندما اجتمع بأعضائه في يوم الخميس التالي فطاليهم بوقف أعمال النهب التي انتشرت في المدينة. وشـــكا إليـــه العلماء قلة حيلتهم إزاء وقف تلك الأفعال. وقـــد اتهـــم الجبرتـــي بعـــض الجنـــود الفرنسيين بفتح "بعض البيوت المغلوقة التي للأمراء ودخلوها وأخذوا منهـــا أشـــياء وتركوها مفتوحة، فعندما يخرجون منها يدخلها طائفة الجعيدية ويستأصلون ما فيهـــا". واستغرق الختم على بيوت كبار القوم من قبل الفرنسيين بضعة أيام انتهى بعـــدها النهب والسلب، وألقى الفرنسيون القبض على شيخ الجعيدية لدوره في تلك الجرائم وأعدموه ومن معه.

شرع الفرنسيون في سياق جهودهم لاستعادة النظام العام في خلـــع "أبـــواب الدروب والعطف والحارات"، وواقع الأمر أنَّ أحداث الهدم تلك لاقـــت اســـتنكارًا واسعًا لما لها من أثر في انعدام أمن أهالي القاهرة من العامة الـــذين اعتـــادوا أن يغلقوا بوابات أحيائهم ليلاً أو في زمن الأزمات.(١٥) وقد سجل من كتبوا مـــذكراتهم من الفرنسيين أنَّ أبواب البيوت المصرية ليس لها أقفال مما أثار دهشتهم، غير أنَّ سكان الحي الواحد نتيجة لذلك اعتمدوا على نظام رقابة يقوم به الجيـــران لتـــأمين حيهم من الغرباء واللصوص أثناء النهار، وبوابات تغلق كل مساء.

أخذ كثيرٌ من الفرنسيين إعلان "بونابرت" عن نيَّته منح المصريين حريـــاتهم من خلال مؤسسات، مثل الديوان الذي يضم أعضاءً من العلماء، على محمل الجد. لم يقتصر الفرنسيون على فهم مصر بوصفها أقرب إلى عالم القرن الثامن عـــشر الذي ألفوه بل أقدموا أيضًا على فهم تاريخهم في ضوء ما شهدوه في مصر. فمثلما

رأى الضباط العقلانيون في إسلام العامة نظيرًا للكاثوليكية الرجعية، ساوى الفرنسيون الجمهوريون البكوات المهزومين بالعهد الفرنسي البائد ورأوا في الإطاحة بهم وإقامة مؤسسة للانتخابات البلدية مدخلاً إلى الحرية.

ويعبر الكابتن "ساي" عن مشاعر الدهشة فيقول إنَّ شعبَ مصر بائسٌ حقًا إذ كيف يفوته الاحتفال بالحرية التي منحه الفرنسيون إياها؟[١٦] ويشير "ساي" إلى أنَّ معظم الأرض الزراعية مملوكة للأتراك المتمصرين في حين يسدد غيرهم ضرائب ورسومًا لا حصر لها ولا يبقى للفلاحين إلا القليل. أما الملكية الخاصة فإنَّها معرضة للمصادرة تحت وطأة الغرامات. وهناك مئات الجواسيس على أهبة الاستعداد للإبلاغ عن هؤلاء الذين يكنزون الثروات بعيدًا عن العيون فضلاً عن أعدائهم. ويصف "ساي" أهالي القاهرة بالقذراة وثيابهم بالأسمال البالية. ويقول إنَّ أحكام الإعدام شاعت تحت حكم المماليك، إذ تصدر هذه الأحكام بعد محاكمات صورية لا يشرف عليها سوى قاض وشرطي، فهانت حياة البشر. ويتفق "برنوييه" مع الرأي القائل إن الاستبداد والضرائب نشرت البؤس بين العامة، وكتب إلى زوجته يقول بكل ثقة في صيف عام ١٧٩٨ إن "بونابرت" سيضع حدًا دون شك لتلك الأحوال.[١٧]

ويشير المعنى المضمر إلى أنَّ البكوات جلبوا الفاقة على أهل البلاد لاستئثارهم بنصيب الأسد من مواردها لأنفسهم، أضف إلى ذلك أنَّهم لا يمثلون سوى حلقة حديثة في سلسلة طويلة من المستبدين، بل إنَّ "برنوييه" استهدف الأهرامات بنقده فرأى فيها أعمالاً تنم عن الزهو والخيلاء لطغاة سعوا إلى تخليد أنفسهم بتكلفة باهظة حملها عنهم العامة. ولذلك فهو يؤكد أنَّ الفرنسيين بخلعهم الأتراك المتمصرين قد غيروا ذلك النمط من الطغيان الممتد في التاريخ وفتحوا الأبواب لتوزيع أكثر عدلاً للثروة، ولكن مصير العامة لن يتحسن بمجرد استلامهم

لحصة أكبر من الثروات القائمة، بل يتم لهم ذلك ما أن تصبح الحرية نفسها قوة محركة تنتج الثروة. ويصف "برنوبيه" أحوالهم المعيشية فيقول إن بيوتهم مقامة من الطين والقش غير أنَّ الرخاء الذي تولِّده الحرية سيخرجهم من تلك الأكواخ. اعتقد الفرنسيون إذن أنَّ الحرية بما تعنيه من الإطاحة بالصفوة الحاكمة من الأتراك المتمصرين، ومنح الحقوق والإعلاء من شأن سيادة القانون، وإقامة حكومة منتخبة تحت الوصاية الفرنسية هي العوامل التي تجلب الرخاء على نحو فعال.

وعلى الرغم من أنَّ "بونابرت" احتل موقعه بوصفه السيد لبلد جديد والعقل المدبر لحريته فإنَّه قد وقع فريسة لإحباط مدمر وعزم على العودة إلى فرنسا في أقرب وقت، فقد انغمست "جوزفين" في علاقة امتدت لفترة طويلة مع أحد مرافقيها وهو يعمل مساعدًا للجنرال "شارل لكليرك" **Charles Leclerc** واسمه "هيبوليت شارل" **Hippolyte Charles**. وكانت شائعات حول هذه العلاقة قد وصلته أثناء وجوده في إيطاليا فهدد زوجته "جوزفين" بالقتل إن صح ما يُروى عن تلك العلاقة، كما أنَّه سعى لطرد "شارل" من الجيش (فكورسيكا مجتمع يحكمه مفهوم الشرف مثلما هو الحال في مصر). ولعل ما يحمله "بونابرت" من مشاعر صادقة لـ"جوزفين" واشتياق لها أزعج مرافقيه الذين يهتمون بأمره طوال المسيرة من الإسكندرية إلى القاهرة، وخصوصًا إذا أخذنا في الحسبان أنَّ علاقة "جوزفين" المشينة "بشارل" تتناقلها الألسنة في باريس.

دبَّر لوسيان، الأخ الأصغر "لبونابرت" وأحد اليعاقبة المتحمسين، ترتيبات لمعالجة الأمر بالتعاون مع زميلي سلاح وجنرالين تربطهما به صداقة، هما الجنرال "جان آندوش جونو" **Jean-Andoche Junot** و"لوي آلكسندر برتييه" **Louis Alexandre Berthier**. كتب "بوهارنيه" **Beauharnais** وهو ابن "جوزفين" البالغ من العمر سبعة عشر عامًا خطابًا إلى والدته من الجيزة قال فيه "إن

"بونابرت" بدا عليه الحزن على مر الأيام الخمسة الماضية، وقد ظهر ذلك الحـزن عليه بعد حوار مع "جوليان"، و"جونو" وحتّى "برتييه"، وقد تأثر بهذا الحـوار إلـى حد بعيد يصعب عليّ تصديقه. وما ترامى إلى سمعي من كلمات تشير إلى استقلال "شارل" لعربتك قبل وصولها إلى باريس بثلاث محطات، وأنّكِ التقيـت بـه فـي باريس، وأنـّكِ ذهبتِ معه إلى المسرح وانفردتما معًا في البنوار الرابع الخـاص، وأنّه أهداكِ كلبك الصغير، وأنّه ملازم لك حاليا. هذا كل ما سمعت مـن كلمـات غاب بعضها عني. تعلمين يا أمي أنّني لا أصدق ما يُقال ولكني موقنٌ أنّ الجنرال تأثر بكل ذلك تأثرًا كبيرًا".(١٨) حرص "يوجين" أن يؤكـد لأمـه أنّ "بونـابرت" لا يُسيء معاملته، فقد عزم الجنرال ألا يصب على ابن زوجته جام الغضب الذي تولد داخله لما يشعر به من إحباط تجاه زيجته. وقد وجه "بوريين" اللوم إلـى "جونـو" وحده لما أظهره من تصرف غير مسئول وحدد للوقائع التي كشفها تاريخًا لاحقًـا بعدة أشهر من وقوعها، وقد أقر أن "بونابرت" يشعر بالحزن إذ اكتشف أنّ زوجته غير مخلصة له. ويتذكر "بوريين" تأنيب "بونابرت" لسكرتيره لإخفائه الحقيقة عنـه ووصفه "لجونو" بالصديق الوفي. وتعالت شكواه وهو يصيح ""جوزفين"!... إنّنـي على بعد ستمائة فرسخ... كان لزامًا عليكَ أن تخبرني... "جوزفين"! يا لـي مـن مخدوع! اللعنة عليهم جميعًا! سأتخلص من جميع هؤلاء الأوغاد والمدعين! ... أما هي فإنـّه الطلاق! نعم، الطلاق! طلاق يتردد صداه في أنحاء البلاد".(١٩)

كتب "بونابرت" خطابًا مشبوبًا بالعاطفة إلى أخيه "جوزيـف" **Joseph** وهـو يشعر بوطأة المأساة: "إن مصر تتمتع بثراء لا نظير له في أي بلد من بلاد العـالم فيما تملكه من حبوب وأرز وخضروات وماشية ولكن شعبها يعيش في حالة بدائية مطلقة. لا نستطيع الحصول على المال حتى لسداد مرتبات الجنود. وقد أعود إلـى فرنسا خلال شهرين". كان من الواضح أنّ أمل "بونابرت" قد خاب فـي الوضـع

الاقتصادي في البلد الذي غزاه مؤخرًا وأنه قرر أنَّ مصر ليست المكان الذي يضمن له صعود نجمه. غير أنَّ قراره بالابتعاد عن ميدان المعركة في الشرق، مع ما بذل من جهود سابقة ليضع ضغوطًا لا تعرف الرحمة على حكومة الإدارة وليستولي على غنائم الحرب التي فازت بها الجمهورية من سويسرا، يرجع أيضًا إلى أزمته الخاصة. ويضيف "بونابرت" في خطابه إلى أخيه: "إننى أود أن أشركك في همي، فأنا أعاني من أحزان عائلية إذ إنَّ الغشاوة قد زالت تمامًا من أمام عيني، ولم يعد لي سواك على وجه الأرض فصداقتك هي أغلى ما عندي، ولو فقدتها أو خذلتني فإننى لن أجد في نفسي شيئًا سوى كراهية البشر".

طلب "بونابرت" من أخيه أن يجهز له منزلاً خارج باريس أو في "برجندي" **Burgundy**. وذكر أيضًا في خطابه: "إننى أفكر في قضاء الشتاء هناك واعتزال الناس... إننى في حاجة إلى الوحدة والعزلة. إن مظاهر العظمة تبعث السأم في نفسي، وأشعر بذبول مشاعري وبعبث السعي وراء المجد. لقد استنفدت كل شيء ولما أبلغ التاسعة والعشرين".[٢٠] ومن سخرية القدر أنَّ "جوزفين" لم تكن في حالة تسمح لها بإثارة غيرة "بونابرت" في هذا الصيف. فبينما كانت تمضي وقتها للاستشفاء في حمامات "بلومبيير" وتقضي وقتًا طيبًا مع أصدقائها، خطت إلى شرفة انهارت بها. وكان نجاتها من الموت أعجوبة غير أنها أصيبت إصابات بالغة ولزمت الفراش لشهور. ولم تستطع زوجة "بونابرت" البائسة حتى أن تنفذ ما اعتزمت عليه من الإبحار إلى الإسكندرية متى استقر الأمر للجنرال هناك. وفي ذلك خير لأن الأنباء الواردة أفادت أن البريطانيين استولوا على السفينة التي كانت تنوي أن تستقلها إلى مصر.[٢١]

وبغض النظر عن الإرهاق الذي عانى منه "بونابرت" فقد أطاح بحكومة البلاد ولم يعد لديه خيارٌ إلا أن يحاول إدارة دفة الأمور بها ولو بدت المهام التي

تنتظره أمورًا حياتية عادية. ولما كان نباح الكلاب الضالة في الطرقـات يـزعج الجنود الفرنسيين أصدر القائد الأعلى قرارًا بقتل الكلاب المتمردة دفعـة واحـدة، وهي مهمة أمضى فيها القناصة ليلتين لإنجازهـا.[٢٢] داخـل كُتّـاب المـذكرات الفرنسيون اقتناعًا بأنّ المصريين يعتقدون أن سوء معاملة الكلاب تجلـب الـنحس ولذلك فقد تركوا الكلاب طليقة في شوارع مدنهم. ولعل الأرجـح أنّ المـصريين استخدموا الكلاب حراسًا غير رسميين للأحياء والممتلكات فقـدموا لهـا الطعـام وتركوها في الطرقات. وعلى هذا الوجه فإنّ الكلاب مثلت عائقًا يحد مـن حريـة الفرنسيين في الحركة، غير أنّ التخلص منها انتقص من شعور المصريين بالأمان. أضف إلى ذلك أنّ الحيوانات النافقة تنقل الأمراض بما فيها الطاعون، ولـذا فقـد عرّضت مذبحة الكلاب الصحة العامة للخطر بما في ذلك صحة الجنود الفرنـسيين أنفسهم. وفي العصور الوسطى، كان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله قد أمر بقتـل الكلاب في القاهرة عام ١٠٠٥ ميلادية، ويشير المؤرخون إلى الحدث بوصفه أحد الأسباب التي دعت إلى الاعتقاد بجنونه.

أما فيما يتصل بالبشر فقد طارد "بونابرت" الأمراء، ولكنه ظل قلقـًا مـن الميليشيات المحلية وبخاصة تلك القادرة على جمع الخيالة وجذب حلفاء لهـا مـن البدو. لذلك أمر على الفور بمصادرة كل الخيول ذات السروج في القـاهرة وهـدد بفرض غرامات باهظة ضد من يقاوم الأمر من أصحاب الخيول.[٢٣] كما أمر بأن يرد كل من نهب بيوت الأمراء ما سلبوه إلى الإدارة الفرنسية.

***

انتقمت المدينة، التي اشتهرت بالعمل الدائب والثراء، من فاتحيها في الفترة الممتدة من منتصف شهر يوليو إلى الأيام الأخيرة منه وذلك بالهجرة أو برفض التعاملات التجارية المعتادة. وكان المماليك قد أخفوا معظم ما بالمدينة من ذهب وفضة مما اضطر "بونابرت" إلى البحث عن تلك الثروات في قصورهم ومصادرة ما يجده منها، كذلك لجأ "بونابرت" إلى زوجات البكوات المنفيين كي يدعم جيشه. فقد واصلت نساء الحريم من الشركسيات والجورجيات والأرمن أداء أدوارهن بوصفهن نبيلات لهن قدرهن بعد أن فتح الفرنسيون القاهرة وبعد مصرع كثير من الأتراك المتمصرين أو هروبهم جنوبًا. كانت زوجات البكوات تتمتعن بالثراء وتمتلكن مالاً خاصًا إذ تستفدن مما نصت عليه الشريعة الإسلامية التي تعطي النساء الحق في الملكية على نحو يفوق ما شاع في أوروبا حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر.(٢٤) فبخلاف الحال في بواكير العصر الحديث في أوروبا، لم تفقد النساء المسلمات سيطرتهن على أملاكهن عند زواجهن مثلما تقضي الممارسة القانونية البريطانية على سبيل المثال. أوقفت نساء الأتراك المتمصرين مبانيَ لها قدرها لأغراض خيرية ودينية فتركن بصماتهن على شخصية المدينة التي أقمن بها. تملكت النبيلات المسلمات ضياعًا شاسعة وفي بعض الأحيان عملن بالتجارة من خلال وكلاء من الرجال. وعلى الرغم من أعراف الطبقات العليا في الشرق الأوسط التي تقضي بحجاب النساء وعزلهن عن الحياة العامة، وهي أعراف تمنعهن من ارتياد الأماكن العامة أو تحتجزهن في هوادج مزخرفة إذا ما ارتحلن، فقد أدين أدوارًا سياسية واقتصادية مهمة من وراء الستار. وتتمثل إحدى العجائب التي يحفل بها التاريخ في أن نساء الطبقة الحاكمة من المسلمات كن الأقوى والأغنى بين نساء العالم في العصور الوسيطة ومطلع العصر الحديث، ولو أن

كثيرات منهن فضلن حياة العزلة في الأجنحة الداخلية لقصورهن فعشن فيها ترفلن في ثراء صاحبات الملايين.

خضع نظام الحريم لقواعد واضحة في ترتيب المنزلة، إذ احتلت الزوجات الشرعيات المكانة الأعلى من حيث القوة والثراء في حين قنعتْ الجواري بمكانة أقل إلا إذا حصلن على حريتهن وتزوجن. وهناك من الجواري من تخدم الزوجات ونادرًا ما تتعاملن مع سيد القصر، ولو أنَّ السيد يملك الحق الشرعي في معاشرة أي من جواريه. عُرف الحريم بأنَّه مركز القوة والتأثير وقد ساهمت مشاعر القلق التي انتابت الرجال تجاه الخطط السرية التي تحاك فيه في إنتاج الأنماط التي روَّج لها المستشرقون بوصفه وكر الأفاعي الذي يفرخ المؤامرات (كما لو أن رجال البلاط لا يحيكون المؤامرات!).

أصبح لزوجات المماليك الآن الحق في التصرف في أملاك أزواجهن التي تركوها وراءهم فأدين دورهن بوصفهن قنوات اتصال مع الأزواج الهاربين، واحتفظن بمواقعهن التي سمحت لهن بتعبئة شبكات تدين لهن بالولاء من بين عملاء أزواجهن. صارت أجسام هؤلاء النسوة اللائي ينتمين للطبقات العليا وأملاكهن مطمعًا للضباط الفرنسيين. وقد أنذر "بونابرت" حين سيطر على زمام الأمور في القاهرة هؤلاء النساء بتسجيل كل ما تسلمن من أزواجهن من منقولات ومجوهرات في أربع وعشرين ساعة.[٢٥] سمح "بونابرت" لزوجات البكوات بالبقاء في القاهرة تحت "الحماية" الفرنسية،، وأصدر قرارا يسمح لهن بالبقاء في قصورهن ما دمن قد سددن الضرائب المستحقة إلى الفرنسيين والتي تحدد حسب قيمة العقارات.[٢٦] كما فرض عليهن الإبلاغ عن عدد الرقيق من البيض والسود في قصورهن.

وعلى الرغم من الضمانات التي منحها الفرنسيون لزوجات البكوات فقد فرضت عليهن الضرائب على نحو متكرر في كثير من الأحيان، وبخاصة زوجات كبار البكوات الذين لا يزالون يقاتلون الفرنسيين في صعيد مصر. وحين تلقى أحد قادة الوحدات ويدعى "راب" Rapp طعنات في شارع من شوارع القاهرة، تصاعدت مخاوف الفرنسيين من احتمال وجود المماليك خفية في العاصمة. وحامت الشبهات حول قصر مراد بك فأرسل "بونابرت" ابن زوجته "بوهارنيه" في زيارة إلى نفيسة هانم ليحذرها. يقول "بوهارنية" إنّ نفيسة هانم أحسنت استقباله وأكرمت وفادته وقدمت له القهوة بنفسها. عبرت نفيسة هانم عن احتجاجها مؤكدة أنها ملتزمة بكل الشروط التي وضعها الفرنسيون وحاولت إقناعه بأنها لم تستقبل في قصرها أي شخصيات تثير الشبهات. وصممت على أن يصحبها في جولة بالقصر فوافق ولو أنّ بعض القلق داخله من ظهور أحد المماليك المهرة في فن قطع الرءوس من وراء أكوام الحشايا الوثيرة. احتلت المحظيات من الجواري الطابق الأول من القصر، وما إن رأين "بوهارنيه" حتى نهضن سريعًا والتففن من حوله مما أثار شعوره بالحرج. يقول "بوهارنيه": "لقد أظهرن فضولا مصحوبًا بإلحاح شديد فأحطن بي وتزاحمن من حولي وامتدت أيديهن إلى ملابسي يردن خلعها، بل تحسسن جسمي على نحو خرج عن حدود اللياقة والحشمة. ولم تُجدِ أوامر نفيسة هانم لهن بالتراجع فاضطررت إلى دفعهن عني بخشونة. ولم تجد نفيسة هانم بدًا من النداء على الطواشي الخصيان الذين جاءوا يهرولون فور سماعهم صوت سيدتهم، وانهالوا ضربًا بالكرابيج على هؤلاء النسوة المهتاجات واضطروهن إلى أن يفلتوني".(٢٧) ولعل هؤلاء الجواري وقد شعرن بوطأة البؤس بعد رحيل سيدهن كن يأملن أن يلتحقن بمنزل ضابط فرنسي. وقد حدث أن تحققت آمالهن في كثير من الأحيان.

وفي نهاية الزيارة قدمت له نفيسة هانم شالاً ثمينًا وبعض أسلحة زوجها، وارتفعت عنها، إلى حين، شبهة إيواء المتمردين. في بادئ الأمر أصدر "بونابرت" قرارًا يقضي باحتفاظ نفيسة هانم بأملاكها وعبيدها، غير أنه فرض عليها سداد مبلغ ستمائة ألف فرنك إلى الجيش الفرنسي وإلا صوردت الأملاك التي تركها لها زوجها. وواقع الأمر أنَّ ذلك القرار تبعه قرارات أخرى إذ أُلزمت زوجة مراد بك بسداد ضرائب عدة مرات آخرها ثمانية آلاف تالاريات.(٢٨) ويقول الجبرتي إن الفرنسيين ابتزوا النبيلات الأخريات بالطريقة نفسها مثلما ابتزوا كثيرًا من الضباط والجنود من خلال وسطاء من المسيحيين السوريين والأجانب.

ويزعم ضابط شاب يُدعى "جان جابرييل سارجي" أنَّ زوجة عثمان بك حُبست وفُرضت عليها غرامة تبلغ عشرة آلاف تالاريات بعد اتهامها بمواصلة الاتصال بمعسكر زوجها. كما فُرضت الضرائب على زوجة سليمان بك على الرغم من أن قصرها كان من بين أول القصور التي نهبها العامة بعد سقوط الحكومة السابقة. ويُستثنى من تلك المعاملة زليخة هانم، زوجة إبراهيم بك، التي قامت بدور مهم في حماية التجار الأوروبيين المقيمين بالقاهرة من القتل أثناء الغزو الفرنسي. وقد كافأها "بونابرت" بوثيقة تتيح لها حرية الحركة وخصص لها حارسًا (ومع ذلك تمكنت من الفرار من مصر لتلحق بإبراهيم بك في سوريا).

لم تقتصر أطماع الضباط الفرنسيين على مجوهرات زوجات البكوات وممتلكاتهن بل امتدت إلى أكثر من ذلك. يقول "نييللو سارجي" **Niello Sargy** إن نساء العامة بشعات، ولكن البكوات تركوا وراءهم زوجات أرمينيات وجورجيات جميلات، وقد تخاطفهن الجنرالات في سبيل ما دعوه بصالح الأمة. بل إنَّ "بونابرت" نفسه وقد عانى من خيانة "جوزفين" له وعقد العزم على تأكيد فحولته أمضى وقتًا طيبًا مع بعض زوجات البكوات والمماليك. غير أنه لم يجد تجاوبًا

من هؤلاء النساء الجيورجيات الجميلات كما لم يسعد بصحبتهن. شعر "بونـــابرت" بالخواء فيهن جميعًا، واشتاقت نفسه إلـى الفرنـسيات الـصديقات والإيطاليـات الشبقات. أما الضباط فقد درجوا على مغازلة عدد كبير مـن النـساء بمـا فـيهن زوجات الآخرين.

مَثَّلَ كبارُ التجار وطوائف الحرف بالقاهرة المجموعةَ الأخرى التـي اتجـه "بونابرت" إليها لتغطية حاجته إلى المال. وكان بالقاهرة في ذلك الزمان نحو مائتي طائفة، ولو أنَّ هذا العدد تناقص في القرن الثامن عشر مع تدهور الاقتصاد، شملت صاغة الذهب الأثرياء، والسقائين الذين لا غنى عن خدماتهم، والقوادين من أراذل الناس. أصدر "بونابرت" أمره بأن يسدد التجار الأقباط ستين ألفـًا من التاليريـات، كما فرض على تجار البن وهم الأغنى في البلاد سداد مائة وثلاثة وأربعين ألفًا من التاليريات.(٣٠) حافظ تجار البن المصريون على نفوذهم ومكانتهم التجاريـة علـى الرغم من أنـهم دخلوا في منافسة مؤخرًا مع زراعات البن الأوروبية الاستعمارية في البرازيل وجزر الهند الشرقية التابعة لهولندا. مارس معظم ضحايا "بونـابرت" نشاطهم في أقدم أحياء القاهرة الذي يضم سوق خان الخليلـي المغطـاة وأسـواق المجوهرات الذهبية، ومشغولات النحاس، والسجاد، والأقمشة، والتوابل، والمنتجات الجلدية. وقد بلغت الأموال التي تتحصل من التجارة في ذلك الحي تسعين في المائة من إجمالي تجارة القاهرة.(٣١) ويعتقد الجبرتي أنَّ تقديرات "بونابرت" تتسم بالتفاؤل الشديد ويقول إنَّ الفرنسيين دعوا الأعضاء الذين ينتمون إلى طوائف التجار التـي تتخذ مقارها في الأسواق إلى اجتماع فرضوا عليهم فيه مبلغـًا كبيرًا مـن المـال بصفة قرض. ثار اللغط بين التجار واتجهوا إلى منطقة الحسين والأزهر ليستنجدوا بعلماء المسلمين. توسط العلماء وقد صاروا أرباب الديوان لصالح التجار وأقنعـوا الفرنسيين بتخفيض المبلغ المطلوب إلى النصف ومنح التجار مهلة لتـدبير المـال.

ولقد قام العلماء والأعيان بتلك المهمة مرارًا فتوسطوا بين التجار والبكوات، ولـذا فإنـهم في تلك المناسبة لقنوا الفرنسيين درسًا في أصول حكومتهم القائمـة علـى الشورى.[٣٢]

أصبحت القاهرة في قبضة "بونابرت" لكن مصر لم تسقط في يده بعد. فلعل إبراهيم بك ومراد بك ما زالا قادرين على جمع الصفوف لاسترداد الإقليم الـذي فقداه. وقد تمكن إبراهيم ورجال خيالته البالغ عددهم ألفي رجل من السيطرة علـى إقليم الشرقية المجاور وعاصمته بلبيس، وقد ضم إليه أبـو بكيـر باشـا، الـوالى العثماني بمصر ورمز الشرعية لكثير من المصريين. أما في الجانب الآخـر مـن صحراء شبه جزيرة سيناء فإنَّ الحاكم العثماني في سوريا والتابع العثمـاني الـذي يحكم إقليم عكا ويمارس القرصنة أحمد باشا الجزار، وفرا لإبراهيم باشـا الـدعم والعمق الإستراتيجي. ومما زاد الأمور سوءًا للفرنسيين إنهما قد يتقدمان بجيشيهما لمساندته. وبما أنَّ إبراهيم باشا قد حمل معه كنزًا كبيرًا مـن الـذهب والمقتنيـات الثمينة من القاهرة فإنَّ "بونابرت" تطلع إلى تلك الثروات مثلما تطلع لأسـر البـك نفسه. كما أن احتجاز الوالي العثماني يجعله رهينة على جانب كبير مـن الأهميـة ويضع حدًا لتهديدات محتملة.

شرع الكورسيكي في إعادة تنظيم جيشه، فألحق فرقة الخيالة الخفيفة السابعة بفرقة "رينييه" وكلفه بغزو إقليم الشرقية. ويقول "ديزفرنواه" إنَّ "بونـابرت" أراد أن يطهر ذلك الإقليم على الفور. غير أن الجيش الفرنسي لم يستكمل بعد حاجته مـن الخيالة إذ لم يصحب معه من أوروبا إلا عددًا قليلاً من الخيول الأوروبية، ونجـح في تدريب عـدد محـدود من الخيول العـربية التي استولى عليها.[٣٣] ولذا فـإنَّ كفة الفرنسيين لا ترجح كفة الخيالة التركية والبـدو إذا مـا واصـلت مطـاردتهم والاشتباك معهم.

وفي أول أغسطس وجَّه "بونابرت" مذكرة إلى "ليكليرك" يـأمره بـالتحرك صوب بلبيس وبالتحصن في أفضل القرى التي يمر بها. كما أمره بإقامة علاقـات مع قبائل البدو الخمس أو الست في تلك المنطقة وأن يخطرهم بأنَّـهم إن تجاسروا على ارتكاب أقل التجاوزات فإن خيامهم وقراهم ستسوى بـالأرض. كمـا كلـف "بونابرت" حامية "ليكليرك" بجمع المعلومات عن الموقف في الشرق ونقلهـا إليـه، وتقصي تلك المعلومات من القوافل أو من جهة إبراهيم بك أو من سوريا. أضـف إلى ذلك أنَّ "بونابرت" أمر بإقامة طواحين لإعداد الدقيق في كـل قـرى الـشرقية بغرض إمداد القوات الفرنسية بالخبز.(٣٤) وهكذا أعد "بونـابرت" قائمـة واجبـات تشمل المهام التي تضطلع بها الإمبريالية العملية، من اهتمـام بالدبلوماسـية، إلـى جانب الإرهاب، والجاسوسية، وتوفير الطعام.

انطلق "ليكليرك" صهر "بونابرت" وقائد الخيالة من القاهرة في الثـاني مـن شهر أغسطس على رأس أربع وحدات، وجماعة من الخيالـة الخفيفـة، والمـشاة المسلحين تسليحًا خفيفـًا، وفرقة وقطعتين من المدفعية الخفيفة. ويُذكر أنَّ كـابتن يُدعى "مالوس" حرر سلسلة من الرسـائل القـصيرة إلـى الجنـرال "كافـاريللي" **Cafarelli** عن تقدم تلك القوة.(٣٥) تقدمت القوة عبر المطرية حيث وجدت طعامًـا ومياهًا وفيرة ومؤنـًا، ولم تلق أية صعوبة. ثم شنت تلك القوة غـارة علـى أبـي زعبل إذ ترامى إلى علمهم أنَّـها تحوي ثروات كثيرة غير أنَّ الفرنسيين لقوا دفاعًا قويًا من قبل البدو والجند غير النظاميين من الفلاحين، ولذا فقد غيـروا مـسارهم وساروا مرة أخرى إلى الخانكة، وهي قرية تقع على بعد تسعة أميال من بلبيس في الطريق إلى سوريا. سيطر الفرنسيون على القرية بعد مقاومـة ضـعيفة فـي أول الأمر في الرابع من أغسطس. وفي صباح الخامس من أغسطس سجل "ديزفرنواه" في مذكراته أنَّ إبراهيم بك هاجم الفرنسيين على رأس قوة من البدو والمماليك.(٣٦)

الفصل الخامس

هروب إبراهيم بك

في أول الأمر رأت طلائع "ليكليرك" مائة أمير على رأس جماعات من البدو والجنود غير النظاميين من الفلاحين، ولكن عدد خيالة إبراهيم بك ما لبث أن ارتفع فجأة ليصل إلى الألف. ويقول الكابتن "مالوس" إنَّ: معظم خيالة البدو خرجوا حوالي الساعة العاشرة صباحًا من بساتين النخيل بأبي زعبل تتبعهم حشودٌ من الفلاحين الذين لا يحمل البنادق منهم سوى السدس على وجه التقريب، في حين بدا وكأن الآخرين لا يحملون إلا العصي. يمضي "مالوس" في روايته قائلاً: "انتشروا من حولنا وحاصرونا ونصبوا لنا الأكمنة في الحقول". وفي تلك الأثناء انضم إليهم سكان القرى الأخرى. يقول "مالوس" إنَّ القوة المصرية حاولت الهجوم على الفرنسيين من عدة زوايا في الوقت نفسه غير أنَّ الجنود الفرنسيين تمكنوا في بادئ الأمر أن يبقوهم على بعد مطمئن بإطلاق قذائف القنابل. ويستعيد الملازم أول الشاب "ديزفرنواه" أحداث معركة الأهرامات حين تناثرت أشلاء المدافعين على أرض المعركة.(1) لكن الهجوم تواصل وأجبر الفرنسيين على إعادة نشر قوتهم، ولم يكن لديهم سوى ستمائة من المشاة تفرقوا على رقعة شاسعة. ويقول "مالوس": إنَّ نتائج الدفاع العنيد بدأت تتضح "ليكليرك" إن هو واصل القتال.

لقد ثار أهل الخانكة أنفسهم ضد أسيادهم الجدد من المستعمرين فقتلوا الحرس واغتالوا الخبازين والجزارين الفرنسيين؛ فهؤلاء الفلاحون الذين يعيشون مهددين بالجوع يعرفون أين يوجهون ضرباتهم الموجعة للجنود من فلاحي فرنسا. اتخذ "ليكليرك" قراره بإعادة تشكيل وحداته والصمود في أحد المواقع شرقي القرية. ويؤكد لنا "مالوس" في تقريره أنَّ العدو بدأ حينئذ يتراجع فجأة. ولعل تلك

الرواية عن تراجع عدوهم جعلت تقريره البائس أكثر قبولاً للجنرال كافاريللي، ولكنها رواية لا ترقى إلى المصداقية، كما أنّ "ديزفرنواه" لا يذكر أنهم صادفوا مثل هذا التطور السعيد، بل على العكس قال إنّ الذخيرة كادت أن تنفد من قوات "ليكليرك" مما اضطره إلى الانسحاب. وصل الفرنسيون إلى معسكرهم خارج القرية في الرابعة مساء وقد تضعضعت معنويات الجنود. ويقول "مالوس" إن أصواتهم علت معبرة عن مشاعر القلق؛ ولذا فإنّ الجنرال "ليكليرك" قرر الانسحاب في ليلته هذه إلى المطرية.

إن الاقتصار في وصف تلك المعارك على التشهيلات العسكرية والخطط الحربية وأوامر الجنرالات يجانبه الصواب، فالكارثة التي حلّت بالفرنسيين في الخانكة تكشف عن الدور المهم الذي يلعبه العامة في تلك الصراعات. فقد ثار القرويون من الفلاحين في وجه الغزاة الجدد وقد استمدوا الشجاعة من وقفة إبراهيم بك، فقتلوا الحرس الفرنسي بل العاملين الذين يزودون تلك القوات الأجنبية بالغذاء. وبدا الأمر وكأنّهم يريدون أن يحفروا لأنفسهم أثرًا على مستوى طبقتهم الاجتماعية. وبالمثل فإنّ الفلاحين تدفقوا إلى أرض المعركة من القرى المجاورة يحمل خمسة عشر بالمائة منهم البنادق. والأرجح أنّ من تمكن منهم من حمل قطعة سلاح ينتمي إلى العائلات التي تسود تلك القرى فهم أثرياء الفلاحين الذين يتمتعون بملكية الأرض وحقوق لا تتأتى للعامة من المزارعين والعاملين.(٢) لم تكن القرى منعزلة بعضها عن بعض؛ فسكانها يتنقلون بينها في أيام الأسواق ولزيارة أضرحة الأولياء. وهناك كثير من الفلاحين ينتمون إلى خلفيات بدوية ويحافظون على صلة الرحم مع البدو الرعاة الذين يسيطرون على شبكة من الاتصالات الخاصة بهم. بل إنّ عامة المصريين ليسوا الشعب المنعزل الخانع الذي رسم "بونابرت" صورة له في توقعاته. أضف إلى ذلك أنّ "ليكليرك" قد أُجبر على التراجع من قبل قوى أدنى

تتمثل في رجال المشاة الفرنسيين (وكثير منهم فلاحون مجندون) إذ شعروا أنَّ مصريين ينتمون إلى طبقتهم الاجتماعية كادوا أن يذبحوهم ذبحًا.

احتل رجال القبائل من البدو أيضًا موقعًا مركزيًا في القتال ضد الفرنسيين؛ فقد ازدهرت تلك القبائل البدوية في الأراضي التي تقع بعيدًا عن النيل على نحو يصعب معه مدها بمياه الري، ولكن الكلأ ينمو بها أحيانًا. وتعد أهم تلك القبائل وأكبرها من الناحية السياسية تلك التي ترعى الجمال، ويليها في الأهمية القبائل الأصغر حجمًا التي ترعى الماعز والخراف. وقد ساد الاعتقاد بين الفرنسيين بأنَّ القبائل الستين من هؤلاء البدو قادرة على تقديم عشرين ألفًا من الخيالة المسلحة إلى الحكومة العثمانية بمصر عند الحاجة، ويعد هذا التقدير منخفضًا إذا ما أخذنا في الحسبان أنَّ البدو يشكلون عشرة بالمائة من تعداد السكان. ويُذكر أنَّ زعماء البدو أو بالأحرى شيوخهم انخرطوا في البنى السياسية لمصر العثمانية وفي كثير من الأحيان تقلدوا حكم الأقاليم، وتولوا الإشراف على المشروعات الاقتصادية مثل المناجم، ومنحوا ملكية الضياع مكافأة لهم لتوفير الأمن للفلاحين ولضمان تسليمهم للمحاصيل الزراعية؛ فشيوخ البدو من أغنى رجال مصر، على الرغم من أنَّ أفراد القبائل التي يتزعمونها قد لا تزيد ثروتهم عن الطيور الداجنة. ومع ذلك لم يعان البدوي من الفقر الذي يحل بالفلاح البسيط الذي لا يملك أرضًا.

دفع نجاح رجال القبائل في القيام بدور المقاتلين "بونابرت" ليكتب إلى حكومة الإدارة والمرارة تملأ نفسه: "إن حشود العرب تقض مضاجعنا دون توقف، إنَّهم أكبر لصوص وأكثر أهل الأرض شرًا، فهم لا يتورعون عن قتل المسلمين مثلما يقتلون الفرنسيين، بل يقتلون كل من يقع بين أيديهم".[٣] وكان "بونابرت" يتعامل دونما رحمة أو شفقة مع البدو في كل أرض يغزوها، إذ يأمر بتجريدهم من سلاحهم، وبضرب بعض الرقاب، وأخذ أسرى منهم. وغالبًا ما نجح البدو في

مقاومة محاولات إخضاعهم، غير أنَّ بعضهم تحالف مع الفرنسيين. انقسمت قبائل البدو في إقليم القاهرة إلى خمس قبائل رئيسية هي العايد، والبيلي، والحويطات، والصوالحة، والترابين، وقد ظلت قبيلتا الصوالحة والترابين على عدائهما للفرنسيين، وقد أمر "بونابرت" بحرق قراهم وتدمير قطعانهم؛ وكثيرًا ما أغاروا على أطراف القاهرة لكن نيران المدفعية المكثفة تولت دفعهم بعيدًا. ثم ما لبثت قبائل العايد والبيلي والحويطات أن تحالفت مع الفرنسيين في نهاية المطاف، فقد وقعت فتيات زعيم الصوالحة في الأسر واحتجزن لدى حاكم القاهرة، فانضم شيخ البيلي ومقاتلوه ومائتا جمل إلى صفوف الفرنسيين، وكذلك فعل شيخ الترابين ورجاله المحاربون من راكبي الجمال.(٤) ويذكر "مالوس" أنَّ رجال قبيلة البيلي سبق أن شاركوا في الهجوم على الفرنسيين بالقرب من بلبيس. ولولا تهديدات البدو العنيدة لتمكن الفرنسيون من اقتحام بلدات مثل الخانكة والسيطرة عليها بيسر معتمدين على عدد أقل من القوات.

خرج "ليكليرك" ورجاله كي يخضعوا إقليمًا ويتخلصوا من واحد من بكوات مصر العظام لكنهم وجدوا أنَّ كفة عدوهم هي الأرجح وأنَّ رجال القبائل الأشداء قد ضربوا عليهم حصارًا. وما إن بلغ "بونابرت" خبر الصعوبات التي واجهها "ليكليرك" ورجاله وهم في طريقهم صوب الشمال الشرقي، قبل أن يصله نبأ المعركة، حتى رأى أنَّه مطالب بالقيام بعمل ما. حرر القائد الأعلى خطابًا إلى حكومة الإدارة في الخامس من أغسطس يبلغها بقراره إرسال الجنرال "رينييه" إلى الخانكة كي يعزز من قوة خيالة- "ليكليرك" التي تحارب حشود البدو والفلاحين غير النظاميين على أرض إبراهيم بك. وقد قصد "بونابرت" إلى الاستحواذ على ما هو أكثر من القرى نفسها؛ إذ تطلع إلى قوافل الحج التي تنزل بتلك المنطقة في طريق عودتها من مكة بوصفها كنزًا من المعلومات. أصدر "بونابرت" تعليماته إلى

الجنرال "رينييه" بإجراء استجوابات دقيقة وذكية مع كل القادمين من بلبيس أو سوريا وأن يرسل إليه التقارير. كما أصدر أمره بدعم الحامية الفرنسية في الخانكة كي تصد أي هجمة إذا ما قرر إبراهيم بك أن يعود إلى القاهرة.[٥]

سجل "بونابرت" في تقريره أن قوة "رينييه" قتلت حوالي خمسين فلاحًا وبعض البدو واحتلت موقعًا بالخانكة. وأصدر أوامره للوحدات التي يقودها الجنرال "جان لان" Jean Lannes (وكان يتدرب على مهنة الصباغة عام ١٧٩٢ حين التحق بالجيش الجمهوري)، والجنرال دوجا أن تشارك في المطاردة، بل خرج للمشاركة في المطاردة بنفسه. ويقول المؤرخ المصري الجبرتي إنَّ القوات الفرنسية تحركت من العاصمة صوب الشرق "طائفة بعد أخرى".[٦] مر الجنود الفرنسيون بالخانكة فوجدوها خاوية وقد دُمر المخبز الذي بها (ولعل القرويين المصريين لاحظوا عشق الفرنسيين لخبزهم فخربوا المخبز الذي أقاموه بصفة مؤقتة عمدًا). اتجهت القوات الفرنسية مرة أخرى إلى أبى زعبل حيث طالبوا أهلها بالمؤن، ويقول الجبرتي إنَّ الأهالي رفضوا تزويدهم بالمؤن فما كان من الفرنسيين إلا أن "قاتلوهم وضربوهم وكسروهم ونهبوا البلدة وأحرقوها"، ومضت بعثة الحضارة في طريقها. ويضيف الجبرتي أنَّ كل الجنود الفرنسيين وعلى رأسهم "بونابرت" اتجهوا إلى عاصمة الإقليم، بلبيس.

توقع "بونابرت" أن يجد في بلبيس مقوماتِ مدينةٍ ذات ثروةٍ واسعة إذ إنَّ التجار يحلون بها في طريق عودتهم من الحج. ولكن الجبرتي يسجل أنَّ معظم المسافرين قد سلكوا طرقًا متفرقة، فقد استعان الفلاحون من الحجاج العائدين في قافلة مكة بالبدو كي يوفروا لهم وسائل الانتقال ويحملونهم وزوجاتهم وعائلاتهم إلى قراهم وبلداتهم بالغربية والمنوفية وغيرها من الأقاليم الواقعة إلى الغرب. وكان قائد القافلة، وهو أمير الحج ويُدعى صالح بك، قد جاء في صحبة كبار

التجار إلى بلبيس في بادئ الأمر بناء على دعوة من إبراهيم بك، ولكنه عندما فر في اتجاه الشمال الشرقي تبعوه. وفي مراسلات تبادلها صالح بك مع "بونابرت" حاول القائد الفرنسي أن يقنع التجار العائدين من الحج أن ينزلوا بالقاهرة ووعدهم بقوة ترافقهم مكونة من أربعة آلاف رجل؛ ولكن إبراهيم بك سبق أن كاتبهم داعيًا إياهم النزول بعاصمته، فاتجه عدد قليل من التجار الذين وجدوا في أنفسهم القدرة على مواجهة حاكم مسيحي إلى القاهرة (ويسجل "مالوس" أنَّه شاهد قافلة منشقة صغيرة من أربعين جملاً بالقرب من المطرية في وقت مبكر من الحملة)، أما معظم التجار فقد اتجهوا إلى بلبيس في بادئ الأمر.

وجد الفرنسيون بلبيس خاوية على عروشها بعد رحيل إبراهيم بك ومؤيديه فاحتلوها دون أن يطلقوا رصاصة واحدة. وقد شرح "بونابرت" في خطابه الذي أرسله بعد ذلك إلى حكومة الإدارة أنَّ القوات الفرنسية تمكنت قبل وصولها إلى بلبيس من إنقاذ قافلة في طريق عودتها من مكة استولى عليها البدو وساروا بها إلى الصحراء. والأرجح أن الأغنياء من التجار قدموا رشى إلى البدو ليسهلوا لهم الهروب؛ فقد وجد الفرنسيون أربعة أو خمسة آلاف جمل في حراسة مائة بدوي. ويقول "ديتروي" **Detroye**، وهو قائد وحدة من المهندسين، أنَّه شاهد ألفي حاج في أسوأ حال وبعض النساء البائسات وغيرهن ممن احتمين بالهوادج. وما إن دنا القائد الأعلى من هؤلاء حتى حيوه وكأنَّه ملك فرنسا فأعلن عن نيتّه بسط حمايته عليهم جميعًا.(٧) وقد خصص "بونابرت" قوة لحماية تلك القافلة والعودة بها في أمان إلى القاهرة.

ويروي "ديتروي" أنَّ بلبيس قرية صغيرة لا نفع فيها سوى أنَّها تحتل موقعًا يصلح لإقامة حامية، فهي على هيئة شبه دائرية على مسطح ممتد. وما لبث أهل القرية أن أقاموا الأسواق للوافدين، ولم يقتصر نشاط القرية على التجارة، فقد

شارك النساء من جانبهن بعرض مفاتنهن علانية في الطرقات لقاء قطع النقود الصغيرة، فاصطف المشاهدون المتحمسون للفرجة.

وهكذا فإنّ لنا أن نضيف منتديات التعري الاستعمارية إلى قائمة الابتكارات العبقرية التي خرجت إلى حيز الوجود في جمهورية مصر الفرنسية، كما أشرنا من قبل إلى ابتكار الحرية تحت الاحتلال العسكري الأجنبي. وكانت القرين المحطة التالية في الطريق إلى الصالحية، وقد وجدها "ديتروي" قرية فقيرة بائسة مثلها مثل الخانكة يعتمد سكانها في غذائهم الرئيسي على رغيف خبز لا يكاد تنضجه النار. يقول "ديتروي" إنّ هذه القرى في الشرقية لا تشبه قرى الدلتا، فهي تمتد على هيئة أراضٍ ذات حدود مرسومة، وتنقسم إلى قرى عديدة أصغر بها دور لا يظللها سقف، فلا يرى المرء بيوتًا بل أشجارًا بحيث تبدو القرية وكأنها غابة صغيرة.

لاذت جماعة أخرى من التجار العائدين من الحج بالفرار حين اقترب الفرنسيون واتفقوا مع البدو كي يوفروا لهم رحلة آمنة إلى القرين. غير أنه قبل أن يصلوا بهم إلى منتصف الطريق، خلف البدو وعودهم وسلبوا الحجاج ممتلكاتهم بل جردوهم من ثيابهم. وكان الشيخ سيد أحمد المحروقي، وهو من كبار الملاك، ضمن الضحايا. وعندما وصل الفرنسيون إلى القرين لقوا بقايا تلك القافلة.[٨] ويشير "بونابرت" إلى ما قام به البدو من سلب ونهب غير محدود فيقول إن أحد التجار أقسم له أنّه خسر ما قيمته مائتا ألف من الفرنكات الفرنسية حين سلبه البدو ما كان يحمل من أقمشة وبضائع أخرى جاء بها من الهند، وكان الرجل يصطحب معه زوجاته وفقًا لتقاليد البلاد؛ فخصص "بونابرت" جمالاً تحمل العائلة إلى القاهرة إذ بدا متحمسًا ليؤلف قلوب طبقة كبار التجار. ويقول "بونابرت" إن النساء كن محتجبات حسب العادات المحلية التي وجد الفرنسيون صعوبة كبيرة في الاعتياد عليها. ويشير الجبرتي ضمنًا إلى أن التزام النساء بالحجاب، وهو علامة العفاف،

لم تمنع البدو من الاعتداء على نساء الحجاج من التجار اللائي صرخن باكيات عند رؤيتهم. ويقول المؤرخ المصري إنّ القائد الأعلى وبخهم لثقتهم في الأمراء والبدو. وربما أكد ذلك اللقاء التعس مع بقايا القافلة "لبونابرت" أهمية مشروعه الاستعماري الذي بدأه في خدمة التجارة إلى الشرق وتوفير الأمن لها.

ويروي الجبرتي أنّ "بونابرت" أمر باستدعاء عمدة القرين ويدعى أبو خشبة وطالبه باستعادة المسروقات التي نهبها البدو من الحجاج، وأرشد أبو خشبة الفرنسيين إلى مخبأ به بعض المسروقات فحملها الفرنسيون على جمالهم. ثم اصطحبهم إلى موقع آخر ودخله وهو يعدهم بالخروج محملاً بمزيد من الكنوز، ولكنها كانت حيلة فقد هرب من باب آخر. وجد الفرنسيون ذلك المخزن خاويًا، فعاد الفرنسيون إلى "بونابرت" بحمولة جمل ونصف. ويُذكر أن "بونابرت" صاح "لا بد أن نعثر عليه دون توان". انطلق "بونابرت" وجيشه، بعد أن خاب أملهم في العثور على مسروقات القافلة وكنوز البكوات، في أعقاب الأتراك المتمصرين مرة أخرى. ويرسل "بونابرت" إلى رؤسائه من سياسيي باريس ليبلغهم أنّه يسير بهمة لأيام طوال في اتجاه سوريا في إثر إبراهيم بك وجيشه الذين يهربون أمامه. وفي نهاية المطاف يصل الجيش الفرنسي إلى الصالحية التي يصفها القائد الأعلى بأنّها آخر أقاليم مصر المعمورة التي تجود فيها المياه، فلم تكن بعيدة عن حاجز الصحراء التي تقع وراءها سيناء ثم سوريا، ويلحقون بإبراهيم وجنده. شرع إبراهيم في الانسحاب مسرعًا فور علمه بمقدم الفرنسيين. ويقول المؤرخ العثماني الدرندلي إنّ البدو عقدوا صفقة مع إبراهيم بك حين حل بالصالحية؛ فأكد له شيخ القبيلة صعوبة ملاقاة أعدائه من موقعه هذا إذا ما هوجم، وذلك لأن نساءه وعياله معه، وأشار عليه بالتقدم مبكرًا بضع ساعات لمواجهتهم، بينما يتولى البدو حماية النساء والأطفال والثروات في الصالحية ويُؤمنون الجميع من كل سوء.

شعر الفرنسيون بالقلق إذ إن هروب الأمراء والمماليك إلى الصحراء يضيع عليهم اللحاق بأعدائهم وبخاصة أنهم تنقصهم المؤن والسبل لمطاردتهم. ومما زاد الأمر سوءا أن "بونابرت" انطلق مبكرًا في صباح ذلك اليوم خشية أن تفلت منه فريسته، فلم ينتظر وصول فرقة المشاة التي يقودها "لان" **Lannes**، وقد ترتب على ذلك أنَّ القوات التي توفرت له أساسًا ليواجه قوات الأمراء والبدو الراكبة هي الخيالة، وقد سبق أنَّ أثبت أعداؤه جدارة في المعارك التي يواجه فيها خيالة الفريقين بعضهم بعضًا. كما دار بخاطر القائد الأعلى أنَّ الليل كاد يرخي سدوله وأنّ الخيل قد بلغ بها الإرهاق مبلغه. ويقول "ديتروي" إنَّ طلائع الجيش الفرنسي شاهدوا إبراهيم وضباطه عند أيكة قريبة يسارعون بتحميل عتادهم وإعداد خيولهم. أمر "بونابرت" خيالته بالتوقف والانتظار إلى أن تصل فرقة المشاة التي يرأسها "لان"، والتي تقطع الطريق بسرعة بدون قائدها الذي ضل طريقه. خرج صف الجنود الأتراك المتمصرون من الغابة في اتجاه الصحراء وجمالهم محملة بكل غال وثمين، وصبر حرس المؤخرة في مواقعهم حتى ابتعد صف الجنود نصف فرسخ من الأشجار.

وعلى الرغم من الأخطار المحتملة، أمر "بونابرت" الجنرال "ليلكيرك" بمهاجمة حرس المؤخرة لجيش إبراهيم. يقول "بونابرت" إنّه تابع القوة التي يقودها "ليكليرك" مع عدد الخيالة المحدود الذي يقع تحت إمرته. ويذكر "بونابرت" أنَّ أكياس السروج الضخمة مرت أمام أعين الفرنسيين. ويبدو أنَّ تلك الأكياس الضخمة احتلت في ذاكرة "بونابرت" مساحة تفوق تلك التي احتلها إبراهيم بك. وكذلك استدعت ذاكرة "ديزفرنواه" قافلة الأمير التي ينوء جمالها بالكنوز والسيدات المرفوعات على الهوادج. ويروي "بونابرت" ما حدث حينئذ من هروب مائة وخمسين من خيالة البدو من فرقة إبراهيم بك، واتصالهم بالفرنسيين عارضين

القتال إلى جانب الأوروبيين في مقابل نصف الغنيمة. والبدو معظمهم أميون وفي كثير من الأحيان لا يأخذون دينهم مأخذ الجد، ولذلك فإنهم يقيمون تحالفاتهم السياسية على اعتبارات عملية لا صلة لها بالدواعي الدينية المثالية. ويروي الجبرتي أن البدو أعلموا الفرنسيين بمخبأ قافلة إبراهيم بك ويضيف قائلاً إنَّ إبراهيم علم بذلك أيضًا فقرر السير مع صالح بك وبعض الأمراء والمماليك لملاقاة الفرنسيين.

انطلقت خيالة "ليكليرك" تسابق الريح مسافة فرسخ قبل أن يصلوا إلى مدى طلقات القوة المملوكية. ويقول "ديزفرنواه" إن ألف وخمسمائة من الأتراك المتمصرين لاحظوا أنَّ عددًا لا يزيد على مائتين من الخيالة الفرنسية تتعقبهم على خيول نال منها إجهاد السفر في الصحراء. ولذا فقد استداروا على حين غرة وهاجموا أعداءهم. ويسجل "ديزفرنواه" في مذكراته أنَّ المفاجأة نزلت عليهم كالصاعقة وتلاها اشتباك دموي "حاربنا واحدًا ضد خمسة وقد زحف العدو نحونا بحماسة كبيرة وصيحات مروعة. سقط من زملائي على اليمين ثلاثة صرعى وأُصيب ثمانية، واندفع نحوي خمسة مماليك أو ستة تختلط ألوانهم فمنهم الأبيض ومنهم الأسود، فصرعت واحدًا منهم بغدارتي وألحقت باثنين آخرين أو ثلاثة جروحًا بسيفي. ويسجل "دارندلي" أنَّ قطع المدفعية الفرنسية عاقت مسيرة الخيالة الفرنسية؛ ولذا فقد اقتصر الاشتباك مع المماليك على الخيالة وحدها. وعلى الرغم من وفرة عدد الخيالة الفرنسية فإنَّهم ليسوا ندًا لشجعان المماليك الذين هاجموهم وفرقوا صفوفهم. سحب فدائيو المماليك سيوفهم المصنوعة من الصلب الدمشقي وأغاروا على الفرنسيين فأنزلوا بهم الهزيمة". خشي "ديزفرنواه" أن ينزل خطر الدمار الشامل بجماعته، وعبر "ديتروي" عن دهشته لما أبداه خيالة الأتراك من

براعة فالطلقة التي تصيب الفرنسي من بندقية مملوكية يصحبها في آن واحد ضربة سيف من اليد نفسها التي أطلقت البندقية.

حالف الحظ "ليكليرك" ورجاله، الذين غلبت شجاعتُهم حُسنَ تقديرهم دائمًا، إذ وصلت إلى أرض المعركة الفرقة الثالثة للمشاة، والفرقة الرابعة عشرة للخيالة. ويروي "بونابرت" كيف استقبل الأمراء الهجوم الفرنسي الثاني بثبات وكيف ألحقوا ضررًا بالغا بأعدائهم. ويقول "بونابرت" "أصيب قائد المجموعة "ديتريه" **Détrès** من الفرقة السابعة للخيالة بجرح أودى بحياته، وتلقى مساعدي "سولكوسكي" **Sulkowsky** سبع أو ثماني ضربات من سيوف المماليك وأُطلق النار عليه عدة مرات". ومع ذلك عبر القائد الأعلى عن إعجابه بشجاعة المماليك: "إنَّهم جماعة متميزة من الخيالة الخفيفة، يلبسون الثياب الفاخرة، ويعتنون عناية كبيرة باختيار أسلحتهم، ويعتلون ظهور أفضل الخيول". ويتذكر "بونابرت" كيف اشتبك المماليك في قتال مباشر مع الضباط والجنود الفرنسيين: "وقد أسقط "لاسال" الذي يرأس الفرقة الثانية والعشرين سيفه أثناء الاشتباك، ولكنه أوتي من البراعة والحظ ما سمح له بالنزول عن جواده والعودة ثانية إلى صهوته لمواصلة الهجوم على أحد أشجع المماليك".

يصف "ديزفرنواه" ما حل بالمشاة الفرنسيين من صراع، فهم إنْ أطلقوا نيرانهم على الجمع أصابوا زملاءهم مع من يصيبون من الأعداء؛ ولذلك فإنَّ مدفعية سلاح الفرسان أطلقوا حممًا من اللهب فلاذ المماليك بالفرار. وفي حين أنَّ القوة المجتمعة للمشاة والمدفعية الخفيفة لها في كثير من الأحيان اليد العليا في الصدام مع المماليك، فإنَّ الجبرتي يقدم تعليلاً آخر لانسحاب المماليك حينئذ. فقد بلغت إبراهيم بك أنباءٌ عن قيام البدو أنفسهم بنهب كنوزه حين اكتشفوا انشغال الفرنسيين والمماليك بقتال بعضهم بعضًا. ولذا فقد فض إبراهيم بك اشتباكه مع

الفرنسيين وسعى وراء البدو ففرقهم وأبعدهم عن ممتلكاته وقتل عددا منهم. ثم شد إبراهيم بك الرحال بصحبة أبي بكير باشا إلى العريش وهي بوابة سيناء. ويخلص القائد الأعلى إلى القول، ونغمة الرضا ظاهرة في كلماته، إنّ إبراهيم بك يتجه حاليًا إلى صحراء سوريا وهو مصاب بجرح في المعركة التي دارت. ويتفقد "ديزفرنواه" ميدان المعركة فيحصي مائة من المماليك يرقدون صرعى ولكنه يقر بأنّ خسائر الفرنسيين مساوية لخسائر عدوهم. غير أنّ "ديتروي" هوّن من شأن خسائر الفرنسيين فسجل في مذكراته مصرع ثلاثة عشر فرنسيًا وإصابة ثمانية وثلاثين، منهم ثلاثة عشر تلقوا ضربات أودت بحياتهم فيما بعد. وقد سقط ثلاثة ضباط فرنسيين صرعى ويصف "ديزفرنواه" مقتلهم بالمجزرة البشعة. ويقر "ديتروي" بالتعرف على ما يقرب من جميع من سقطوا في ميدان المعركة. وقد سعى "بونابرت" مرة أخيرة لتحويل مسار حملته إلى الأفضل فأرسل خطابا مع رسول إلى إبراهيم بك في الثاني عشر من أغسطس، ترجمه المستشرق "جان ميشيل فنتور دي بارادي" إلى العربية. يقول "بونابرت" في خطابه "لا قبل لأحد أن يواجه ما للجيش الذي أقوده من قدرات فائقة، وإنك على وشك أن تغادر مصر وتجد نفسك مضطرًا لقطع الصحراء، ولكنك تستطيع أن تجني الثروة والسلامة إذا ما اعتمدت على كرمي، فلا يحرمنك منهما القدر في القريب العاجل حسبما أرى. اكتب لي ردًا يعلن عن نيّاتك. إنّ نائب السلطان في صحبتك، فلتبعثه إلى حاملاً ردك وأنا أقبل به بوصفه وسيطًا".(٩) وقد سجل الجنرال "أوغسطين بليار" **Augustin Belliard** فيما بعد أنّ إبراهيم بك سبق أن اتصل عبر شبكات الاستخبارات البدوية بالسواحل المصرية وعرف ما لم يعرفه "بونابرت" من هجوم قوات البحرية البريطانية على الأسطول الفرنسي حينذاك. ولذلك فإنّ إبراهيم بك،

الذي لم يعد واثقًا فيما تجري به المقادير، لم يرسل ردًا على رسالة "بونابرت".(١٠)

ويُذكر أن "بونابرت" حار في أمر ذلك الصمت إذ إن مراد بك سبق أن أبدى استعدادًا للمراسلة على الأقل مع الضباط الفرنسيين الذين يطاردونه في الجنوب.

ترك "بونابرت" فرقة "رينييه" في الصالحية كي تحرس مدخل مصر وأمر ببناء حصن بها. وقد كشف عالم الأحياء المهتم بالنشوء والارتقاء "جوفري سانت هيلير" **Geoffrey Saint-Hilaire** في خطاب كتبه إلى والده بعد شهر من تلك الأحداث أنَّ الفرنسيين في واقع الأمر حولوا مسجد القرية إلى حصن لهم. ويقول "ديتروي" إنّه لُقِّن درسًا في استحالة الهجوم بفرقة خيالة وحدها على الخيالة المصرية. أما القائد الأعلى فقد فشل في تحقيق أهدافه الأربعة من حملته كلها: فلم ينجح في تحويل إبراهيم بك إلى عميل للفرنسيين، ولم ينجح في احتجاز الوالي العثماني، كما لم يضع يده على الكنوز العظيمة التي أخرجت من المدينة، ولم يستعد من ثروات حجاج القوافل إلا القليل.

***

وما إن اختفى إبراهيم بك في صحراء سيناء حتى أذن غيابه بنهاية حوالي ربع قرن من التاريخ المصري، فقد حكم مصر بمشاركة مراد بك منذ منتصف سبعينيات القرن الثامن عشر. وعقب تلك الأحداث انطلق هاربًا إلى الشرق مثلما هرب مراد بك إلى الجنوب، تاركين قصورهما فجأة لسكنى الضباط الأجانب وزوجاتهما لسداد الضرائب للجمهورية الفرنسية، أو للتقلب في أحضان الجنرالات، وحاشيتهما ومماليكهما وقد تفرقت بهم السبل أو قتلوا أو اتجهوا بولائهم إلى غيرهم. ويُذكر أنّه منذ منتصف القرن الثامن عشر تزايد نفوذ دائرة صغيرة من

بكوات المماليك وهم الجند المبرزون الذين نالوا حرياتهم و شغلوا أعلى المناصب. ولكنهم لم يمثلوا صفوة ذات خلفية واحدة، بل ضموا بين صفوفهم بعض كبار القوم ممن لا تاريخ لهم في الجندية، وتشكلت بيوتاتهم الكبيرة من الجنود الأرقاء، ورجال الحاشية، وعملائهم، وقوة مسلحة، فإذا هي أشبه بالعشيرة في القيام بوظائفها، وسعت تلك العشائر للثأر بعضها من بعض. وشهدت الأرياف الخراب الذي نتج عن حروبهم العشائرية، في الوقت الذي عطلت ضرائبهم، المبالغ في تقديرها، الاقتصاد الحضري بالفعل. وقد أجبر بكوات المماليك على الركون إلى دخل ضياعهم الزراعية الشاسعة لما لحق بتجارة البن المصرية من تدهور في مواجهة المنافسة مع المزارع الأوروبية الاستعمارية في البحر الكاريبي، والبرازيل، ثم أندونيسيا بعدها.[١١] وقد ظل السلطان العثماني مواظبًا على تعيين الولاة الواحد بعد الآخر، ولكن هؤلاء الولاة لم يتقلدوا سلطة حقيقية في مصر، بل فشلوا في بعض الأحيان في جمع الضريبة السنوية وإرسالها إلى الباب العالي بالآستانة.

وقد سبق لإبراهيم بك أن ضل طريقه في دهاليز السياسة من قبل ولكنه اهتدى إلى النجاة والعودة إلى السلطة. فقد توفي مالكه محمد أبو الذهب في عام ١٧٧٥ في سوريا أثناء قيامه بحملة نيابة عن السلطان العثماني لقمع ثورة قادها شيخ الجليل بعكا. وفي عشر السنوات التالية وطد إبراهيم ومراد مركزيهما بوصفهما أكبر بكوات مصر، في حين قوى المماليك الجيورجيون روابطهم بوطنهم الذي وقع تدريجيًا تحت تأثير "سان بطرسبرج" في زمن التوسع الروسي في القوقاز، وبدأ هؤلاء المماليك في البحث عن تحالف روسي. وقد واجه كبار المماليك صعوبات في تجنيد عدد كاف من الجند الأرقاء ليضموهم إلى صفوفهم، مما اضطرهم إلى جلب خمسمائة من الجنود الروس في عام ١٧٨٦. وفي أوائل

ثمانينيات القرن الثامن عشر ساور الباب العالي مخاوف تجاه القازداغلية(*)، فأصدر بيانًا في عام ١٧٨٣إلى والي سوريا يحذره من الأضرار التي ستحل بالإمبراطورية العثمانية من جراء تقارب هؤلاء البكوات غير الملتزمين مع روسيا.(١٢)

غير أنّ تطور الأحداث أثبت أن تحالفات البكوات الخارجية لم تمثل المشكلة الكبرى في الإمبراطورية العثمانية. ففي عام ١٨٨٤ رفع القناصل الأوروبيون تقارير إلى عواصمهم مفادها أنّ البكوات اشتبكوا فيما بينهم فيما يمكن وصفه بالحرب الأهلية. واضطر مراد بك أن يغادر القاهرة ثم يعود إليها مصحوبًا بحلفائه مما اضطر خمسة بكوات آخرين إلى الفرار. تنازع مراد وإبراهيم واشتبكا في موقعة نهرية أطلقت فيها القنابل، ثم عقدا الصلح بينهما ولكنهما عادا للقتال بعد ذلك. وتشير صحيفة "جازيتا دى مدريد" **Gazeta de Madrid** الصادرة بتاريخ ٤ أكتوبر من عام ١٧٨٤ إلى ما ورد إليها من تقارير القناصل: "إنّ الصلح بين إبراهيم بك ومراد بك لم يدم طويلاً حسب المتوقع. وهما الآن في حالة حرب معلنة. وقد شد إبراهيم بك الرحال إلى صعيد مصر حيث يمكنه تحصين مواقعه، في حين ظل مراد بك سيدًا في الدلتا، ويُخشى أن ينتقل الصراع قريبًا هناك". ويُذكر أن مراد بك سعى للحفاظ على ولاء قواته في الدلتا فتهاون في حسابهم لما بدر منهم من سوء معاملة الأهالي، فقد ألزموهم بالحصاد قبل نضج المحاصيل وصادروا ما حُصد. وهكذا أثرت ظروف الحرب الأهلية سلبًا على موسم الحصاد.

(*) القازداغلية أحد البيوت المملوكية الكبيرة في مصر، من أصول جيورجيه، وقد أسسه عثمان كتخدا القازدوغلي كإحدى فرق الإنكشارية، ثم تطور دورهم حتى برز منهم على بك الكبير الذي حاول الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر. (المراجع)

وفي ربيع عام ١٧٨٥، وردت تقارير تفيد أنَّ شريف مكة رفض السماح للمصريين بالحج وزيارة قبر الرسول بالمدينة المنورة احتجاجًا على عدم قيام البكوات بإرسال الضرائب السنوية لثلاثة أعوام متتالية.

وفي عام ١٧٨٥ أورد الجبرتي في تاريخه حركات تمرد قام بها بعض حكام الأقاليم، وحروب خاضها البدو بعضهم ضد بعض في إقليم البحيرة، ومشاجرات في شوارع الإسكندرية، وغارات للبدو على قوافل الحجاج العائدين، وتضخم منفلت في الأسعار، وفضلاً عن ذلك كله تفشي الوباء. وحدث أيضًا أن نشبت أزمة دبلوماسية حين منح مراد بك الفرنسيين الحق في نقل بضائعهم من مستعمرة "بونيشيري" بجنوب الهند عبر السويس، وقد جاء قراره ذلك فجأة لحاجته إلى المال في صراعه ضد بيوتات المماليك الآخرين. وقد احتج البريطانيون احتجاجًا عنيفًا، إذ إنَّهم سبق أن وقعوا اتفاقية مع السلطات العثمانية في الآستانة تقضي ألا يُمنح الفرنسيون مثل هذا الحق. كان البريطانيون والفرنسيون في ذلك الحين يتنافسون في السيطرة على الهند، ومن ثمَّ فقد أمَّد مراد بك باريس بمساندته على حين غرة.

وقد بدا الصراع حول نقل البضائع أمرًا لا خطر منه، وتزايد الشعور بعدم أهميته بالمقارنة بالضرائب والرسوم التي فرضها البكوات على التجار لما لها من آثار مخربة. فقد أفلست البيوت التجارية الفرنسية بالقاهرة وحاول ملاكها الفرار من البلاد. وفي فبراير ومارس من عام ١٧٨٦، رفع القناصل بالإسكندرية تقاريرَ تفيد أنَّهم تلقوا طلبًا بمبالغ مالية كبيرة من أحد بكوات القاهرة يصحبه تهديد بأنَّه في حالة عدم السداد فإنَّ الدمار سيلحق بإحدى كنائسهم التي جددها المماليك مؤخرًا. استجار الأوروبيون بنفيسة هانم، حرم مراد بك، للتوسط غير أنَّ وساطتها لم تنجح، وشرع رجال إبراهيم بك في هدم الكنيسة. أما التجار فقد أبحروا على السفن

الفرنسية وأرسلوا رسائل عاجلة إلى الآستانة. وقد ساور القلق مركز الإمبراطورية العثمانية في الآستانة من الأوضاع في مصر ولكن التهديدات الصادرة عن روسيا والبلقان حولت الاهتمام عن مصر. غير أنَّ الاعتداء على الأوروبيين في الإسكندرية دفع الوزير الأكبر كوكا يوسف **Koca Yusuf**، الذي تولى مهام منصبه في فبراير من عام ١٧٨٦، إلى اتخاذ بعض القرارات.

وفي وقت متأخر من ربيع ذلك العام وصل رسولٌ من الآستانة يحمل قائمة طويلة من المطالب. أُخطر بكوات القاهرة أنَّهم تأخروا في سداد الضرائب المستحقة عليهم للسلطان في الآستانة على نحو جاوز الحدود المقبولة؛ "وطالبت الرسالة بسداد المستحقات المتأخرة للخزانة فضلاً عن سرعة إرسال الحبوب والأموال المخصصة للحرمين الشريفين عن الأعوام السابقة". أضفت السيطرة على الحرمين الشريفين شرفا ومهابة على السلاطين العثمانيين، إذ يفد آلاف المسلمين للحج في الأراضي المقدسة من كافة أرجاء العالم القديم. غير أنَّ الحرمين يقعان في إقليم الحجاز بغرب شبه الجزيرة العربية تحيط بهما الصحاري والأراضي القاحلة فلا تتوفر لهما مقومات إعاشة سكانهما ناهيك عن الأعداد الغفيرة التي تزورهما كل عام لتأدية فريضة الحج، مما استلزم جلب الغذاء من خارجهما. وقد سبق للعثمانيين أن أوقفوا ضياعًا شاسعة في مصر لهذا الغرض، لكن البكوات نهبوا الحبوب والمكاسب التجارية على الأرجح مما يعني أنَّهم سرقوا العثمانيين. وقد شاعت أقاويل في القاهرة تنبئ باقتراب سفن حربية عثمانية من ميناء الإسكندرية بقيادة القبطان حسن باشا. وواقع الأمر أنَّ أحمد باشا وهو حاكم جدة قد وصل إلى الميناء المصري الكبير، وجدة هي الميناء الذي يستقبل حجاج بيت الله الحرام، ولذا فإنَّ بعض مهامه تقتضي أن يراجع تسليم الحبوب في ذلك الميناء على ساحل الحجاز.

انزعج بكوات المماليك وحاولوا كسب الوقت، وفي الأيام الأولى من يوليو وصل إلى القاهرة مبعوث آخر من السلطان عبد الحميد الأول فأعاد على البكوات أوامر الباب العالي، وركب وجهاء المدينة إلى القلعة، وهي حصن ضخم يطل على القاهرة، لمقابلة الوالي العثماني محمد باشا. وتقدم مراد بك برجاء لتأجيل سداد الضرائب المتأخرة وعرض أن يقوم علماء الأزهر بتحرير التماس إلى السلطان يودعوه مشاعر الصالحين الأتقياء ويرجون عفوه. اجتمع لتحرير مسودة الالتماس الشيخ سيد خليل البكري والشيخ مصطفى الصاوي وغيرهما من العلماء البارزين، غير أنّ مراد بك أصدر تهديدًا بدوره قال فيه إنّه في حالة رفض السلطان رجاء العلماء سيمتنع عن إخراج المحمل من القاهرة إلى مكة في موسم الحج لذلك العام، كما سيمنع توريد الضرائب بعد عامه هذا. ويقول الجبرتي إنّ إبراهيم بك، إذ شعر أنّ شريكه في الحكم قد تجاوز الحد في حضرة الوالي العثماني، حاول تهدئة كل منهما. وفي تلك الأثناء، انتشرت شائعات تشير إلى تحركات تقوم بها القوات العثمانية، وكذلك إلى وصول مزيد من سفنهم إلى الإسكندرية مما أثار الفزع بين الأهالي. وأرسل إبراهيم ومراد قادة قواتهما إلى ميناء رشيد في محاولة لضمان إقامة التحصينات به على نحو سليم، كما دخلوا في معاهدة دفاع مع بدو الإقليم وهم قبيلة الهنادي.

وصل الكومودور العثماني حسن باشا في يوليو من عام ١٧٨٦ إلى الإسكندرية على رأس حملة صغيرة الحجم من الجنود. وبعد أن أجرى مبعوثه مفاوضات لم تتوج بالنجاح مع إبراهيم بك، سار إلى رشيد وبعث بالرسل إلى القرى يُعلن أهلها أنّ السلطان العثماني أصدر قرارًا بتخفيض الضرائب تخفيضًا كبيرًا. يقول الجبرتي إنّ الفلاحين دبت فيهم الحماسة فقد حسم الأمرَ الوعدُ الذي تلقوه بعودة سيادة القانون فضلاً عن ولائهم للسلطان والمقام الرفيع الذي يحتله

مركز الإمبراطورية في نفوسهم، أو كما قال الجبرتي "فقد اعتقد الناس أنه يرفع الظلم ويمشي على قانون دفتر السلطان سليمان، وكان الناس يجهلون أحكامهم فمالت جميع القلوب إليهم، وانحرفت عن الأمراء المصرية"(*).

ولما وجد إبراهيم ومراد وغيرهما من كبار البكوات حرج موقفهم أعلنوا العصيان وتنادوا بالحرب. أخفى البكوات كنوزهم في بيوت صغيرة آمنة وعبروا النيل كي يقيموا معسكرًا حربيًا مع بقية قادة المماليك في إمبابة. أما حسن باشا فقد استلم الالتماس الذي خطه الشيخ مصطفى الصاوي وبعض الشيوخ الأجلاء، وحفظه معلنًا أنه بصفته المستشار المبجل للسلطان العثماني لا يرى ضرورة لتقديمه. وأغلب الظن أنَّ حسن باشا رأى الخطر كله فيما لشيوخ الأزهر من مكانة قد تقنع الباب العالي بخلاف ما قرر، ولم يكن يرغب في المخاطرة بإثناء الإرادة الإمبراطورية عما اعتزمته. خطط إبراهيم بك لوقفة جماعية بإمبابة ولكن شريكه مراد بك لم يقتنع بخطته، وكان إبراهيم يرى أنهما إنْ لم يتمكنا من الحفاظ على سيطرتهما على القاهرة فيمكنهما الانسحاب إلى صعيد مصر حيث يترقبان الفرصة المناسبة للعودة إلى الحكم. ويُقال إن مراد بك رأى أنها خطة الجبناء وأصر على الزحف إلى الرحمانية لملاقاة جيش السلطان. حلت الهزيمة بجيش مراد بك وعادت القوارب محملة بالجرحى وبقايا الوحدات المحاربة، فانتشر الذعر في القاهرة. وتقول المصادر الإسبانية إنَّ السكان المسيحيين خشوا انتقام البكوات لأن أقاويل انتشرت مفادها أن الأهالي من غير المسلمين جلبوا الغزو على البلاد برفعهم الشكاوى إلى الباب العالي. اتجه إبراهيم بك إلى القلعة وقد عقد العزم على

(*) الجبرتي. عجائب الآثار، ج ٢، تحت تاريخ ١٨ يوليو ١٧٨٦، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، القاهرة ١٩٩٨. (المراجع)

التحصن بها، غير أنَّ الوالي العثماني سبق أن وفق في كسب ولاء فرق العزبان(*) فانصاعوا لأمره بحبس كبار البكوات من المتمردين في القلعة، ثم دعا إليه شيوخ الأزهر الأجلاء ليجتمع بهم في القلعة في إشارة إلى ولاء هؤلاء للإمبراطورية العثمانية. وقد سارع الشيخ سيد خليل البكري بالاستجابة بينما تباطأ آخرون ورفضوا إدانة البكوات.(١٣)

بعث الوالي العثماني محمد باشا رسالة إلى زميله القبطان حسن باشا يطلب إليه المجيء إلى القاهرة على الفور، مع أنَّ العدد الأكبر من القوات العثمانية (وقوامها حسب قول السفير الإسباني بالآستانة خمسة وعشرون ألفًا) لم تكن قد وصلت بعد. ثم جمع الوالي المتمردين من الرتب الأدنى في ميداني قرة ميدان والرميلة وأعلمهم أن مراد بك وإبراهيم بك مطاردان، وأنَّ العفو متاح لمن يطلبه. قابل الأقوياء من البكوات عرض الوالي بالرفض ومنهم سليمان بك وأيوب بك الكبير اللذان طاردا رسول الوالي ومزقا رسالته وظلا على ولائهما لإبراهيم ومراد. حاول المتمردون أن يغيروا على اصطبلات الجمال ليستولوا على ما يعينهم منها على شن الهجوم، لكن فرقة شمال إفريقيا العسكرية، التي تحرس الجمال والتي سبق أن أعلنت ولاءها للوالي العثماني، فرّقتهم وطاردتهم. ولما علم محمد باشا أن جند الإنكشارية لم يتلقوا حصصهم اليومية منذ زمن وأنَّ إرادتهم نال منها الغضب وقوتهم نال منها الجوع، أرسل إليهم نفحات من مال فاجتمعوا حوله قلبًا وقالبًا.

(*) وهي إحدى فرق المشاة المسلحة بالبنادق وسميت عزبان لأن أفرادها لم يتزوجوا، ويشكلون طائفة مستقلة بذاتها يقوم أفرادها بأداء الخدمات السلطانية الشريفة كحفظ القلعة وحراستها. (المراجع)

تصالح إبراهيم ومراد اللذان دب الخلاف بينهما بشأن حملة الرحمانية ضد القوات العثمانية، وهي الحملة التي انتهت بكارثة حلّت بالمماليك، فنزل جنودهما إلى المدن في غارات يستولون على البضائع والأطعمة والحمير والبغال والخيول والسفن. وانقسمت القاهرة وهي تشهد حربًا أهلية وظلت المنطقة المتاخمة للقلعة على ولائها للوالي العثماني. شرع مراد في إقامة المتاريس ببولاق التي تقع في حماية أسطوله النهري، لكن السفن العثمانية وصلت قبل أن يتم استعداداته مما أجبره ورجاله على الهرب. تقدمت القوات العثمانية في اتجاه العاصمة في أعداد كبيرة تطلق مدافعها وتكسب ولاء القاهريين. فقد مراد وإبراهيم الأمل فحررا خطابًا إلى محمد باشا وسارعا بإرساله إلى القلعة معلنين توبتهما عن العصيان وعارضين العودة إلى سابق العهد. وينسب الجبرتي إلى الوالي العثماني الذي لم ير خيرًا فيهما أنّه قال "يا سبحان الله، كم يتوبون ويعودون..."[*]

وفي تلك الليلة دخل حسن باشا ميناء بولاق وتعالت أصوات العامة وانطلقت المدفعية تحية له. بدت سعادة الناس غامرة ورأوا في حسن باشا مهدي زمانه حسبما يقول الجبرتي. ويتوقع الناس حسب تراث الإسلام الشعبي ظهور المهدي المُخلّص في نهاية الزمان ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جورًا. ولعل الجبرتي لم يقصد إلا الاستعانة بتعبير خيالي حين أشار إلى المهدي، غير أنّ مصر في أواخر القرن الثامن عشر راجت بها عقيدة نهاية الزمان. وصل القبطان حسن باشا في نهاية المطاف إلى القاهرة وصعد إلى القلعة كي يتشاور مع الوالي محمد باشا، ثم ما لبثا أن فتحا أبواب القلعة وأعادا النظام والأمن تدريجيًا إلى العاصمة. وكان بعض الدهماء قد نهبوا قصور إبراهيم ومراد ولكن الجبرتي يؤكد أنّه لما ترامى خبر تلك السرقات إلى حسن باشا، أصدر الأوامر إلى جنوده بوقف أعمال السلب

---

[*] الجبرتي. عجائب الآثار، ج ٢، ٨ أغسطس ١٧٨٦. (المراجع)

والنهب وإطلاق الرصاص على السارقين وإن كانوا من رجاله. ويتعارض وصف الجبرتي لمهمة حسن باشا التي لم تدم طويلاً لاستعادة الأمن والنظام على أسس عثمانية، وهو وصف يغلب عليه الإعجاب والإكبار، وتقارير القناصل الأوروبيين الذين نعوا فيها حالة الفوضى التي ظلت البلاد تعاني منها.

صدرت أولى قرارات حسن باشا بإلغاء الضرائب غير النظامية التي فرضها المماليك، وبخاصة تلك المفروضة على التجار الأوروبيين.[١٤] ويقدم الجبرتي صورة لحسن باشا بوصفه عازمًا على إعادة ترتيب النظام الإداري في مصر العثمانية، فاجتمع وعلماء الأزهر الذين يُقال إنهم رفعوا شكاوى مُرة بشأن ما يفرضه البكوات من ضرائب تجاوزت الحدود وما يمارسونه من استبداد. ثم قام بتأسيس ديوان جديد أو مجلس حكام يضم بين أعضائه كبار الضباط من قادة وحدات الإنكشارية والحاشية من كبار البكوات الذين يدينون بالولاء للسلطان العثماني. واستطاع بذلك أن يبطل أثر اغتصاب أعيان القازدوغلية لسلطات مجلس الحكام أو الديوان في القلعة بوصفها مركز القوة السياسية.[١٥] كما عين قادة جدد لبعض ثكنات الإنكشارية السبع، بل قام بثورة مضادة فألزم جند الإنكشارية بعاداتهم وتقاليدهم القديمة، ومنحهم السيطرة مرة أخرى على جمارك التوابل وإيرادات الذبائح التي سبق أن اغتصبها إبراهيم بك. وما إن اكتسب هؤلاء السلطة ثانية حتى شرعوا في مزاحمة أصحاب المحال التجارية والتجار يبتزونهم ويقحمون أنفسهم بوصفهم شركاء في أعمالهم. ثم حدث أن أخل حسن باشا تدريجيًا بما تعهد به من تخفيض للضرائب وطالب تجار القاهرة بقرض ضخم، كما فرض "ضريبة تحرير" على الفلاحين وجعلهم يسددون ما أنفق على غزو بلادهم. ثم أصدر الكومودور قوانين تحظر على المسيحيين ركوب الخيل أو إلحاق مسلمين في خدمتهم، أو تملك الجواري أو الأرقاء السود، وذلك للتأكيد على موقعهم بوصفهم رعايا من الدرجة

الثانية. كما حُظِر على المسيحيين واليهود التسمي بأسماء الأنبياء التي وردت في القرآن ومعظمها مشابه لما ورد من أسمائهم في الكتاب المقدس (أي الأسماء العربية لإبراهيم، وموسى، ويوسف، وإسحق، إلى غير ذلك من أسماء). وقد اتُخذ ذلك الإجراء لتيسير مهمة التمييز بين المسلمين وغير المسلمين فلم يكن التمييز على أساس الانتماء الديني وحده متاحًا. ولذلك فإنَّ إبراز علامات التمييز سمح بخفض منزلة غير المسلمين في المجتمع. ولعل حسن باشا حقق نجاحًا في هذا الصدد فاق ما توقع، فقد شرع دهماء المسلمين في التعدي على المسيحيين مما اضطره إلى إصدار مرسوم يضمن حياة المسيحيين وأملاكهم بوصفهم رعايا للسلطان العثماني. كما أصدر حسن باشا أوامر تقضي بالحد من حرية الحركة للنساء.

استدعى حسن باشا زوجات المماليك المتمردين وأجبرهن على دفع مبلغ كبير من المال والتنازل عن مجوهراتهن. ويقول الجبرتي: "وطولبت زليخة زوجة إبراهيم بك بالتاج الجوهر وغيره"(*). أما زوجة مراد بك فقد اختبأت، ولكن مراد سبق أن أودع بعض كنوزه لدى الشيخ سيد البكري بصفة أمانة، فقام الشيخ بتسليمها إلى حسن باشا. وقد حاول شيوخ الأزهر التوسط لزليخة هانم لديه ولكن دون جدوى. كما عرض حسن باشا جواري ومحظيات حريم البكوات المتمردين للبيع بأثمان بخسة لإذلالهم، لكن علماء الأزهر ومنهم الشيخ السادات والشيخ أحمد العروسي ركبوا إليه ليناقشوه في ذلك الإجراء الذي لا يستهدف سوى الانتقام، وأوضحوا له أنَّ الشريعة الإسلامية تحظر بيع الحرة كما تحظر بيع الجارية التي حملت طفلاً لسيدها ويصبح أبناؤها أحرارًا. ويُذكر أنَّ القبطان حسن باشا استشاط

(*) الجبرتي. عجائب الآثار، جـ ٢، في الإثنين ١٤ أغسطس ١٧٨٦، يقصد غيره من المصاغ، وأنها حبست حتى صالحت بجملة من المصاغ والمال وأطلق سراحها. (المراجع)

غضبنا، ووبخ العلماء لجرأتهم على التدخل، وانقلب ضدهم. وقد تناقل الدبلوماسيون الأوروبيون حكايات تروي ما كان من تصرفات حسن باشا الفظة تجاه هؤلاء النساء اللائي ينتمين إلى الصفوة وتعتبرها ضربا من الاستبداد الوحشي.

استهدف حسن باشا في وضعه لنظام الحكم إعلاء شأن الأتراك المتمصرين على حساب الصفوة المصرية التي تتحدث العربية، مثل علماء الأزهر وكبار تجار البن. ولم يأت في سياسته تلك بجديد، إذ إنّ السلطة قد تركزت في أيدي البكوات القازدوغلية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر مما أدى إلى نشوء هذا الترتيب الطبقي.

وقد أعدت أحداث الثمانينيات من ذلك القرن الساحة للغزو الفرنسي الذي أعقبها ولو أنّها لم تجلبه بالضرورة. فقد انزعج التجار والدبلوماسيون الفرنسيون مما علقه البريطانيون من أهمية كبرى على مركزهم المتميز في الإسكندرية، بل في مصر بوصفها الحلقة الرئيسية لتجارتهم في الهند واتصالاتهم بها. كما ثار الذعر بين المراقبين الفرنسيين لما لمسوه من اهتمام روسي بمصر، وما لقي ذلك من اهتمام مقابل من طرف المماليك والجنود الجيورجيين الذين يتمتعون برعاية "سان بطرسبرج". وبدأ بعض الدبلوماسيين الفرنسيين في رسم صورة للاضمحلال العثماني الذي يصحبه على الأرجح وعلى نحو متزايد قيام بريطانيا أو روسيا بمحاولة السيطرة على الإقليم المصري. وطوال السنوات العشر التالية علا صوت دعاة السياسة النشطة في باريس لتوجيه ضربة استباقية لضمان ألا تقع مصر في قبضة أية قوة أوروبية أخرى عدا فرنسا.

وفي أغسطس من عام ١٧٨٦ توجَّه إبراهيم بك ومراد بك إلى صعيد مصر، حيث جمعا حولهما من تبقى من البكوات وتحالفا مع بدو الإقليم. وقد اتجه

حسن باشا جنوبًا مستهدفًا إلحاق هزيمة ساحقة بهما. غير أنَّ الحملة صادفت صعوبات في الخريف حين استولى المتمردون على المدافع العثمانية في معركة دارت بين الطرفين مما اضطر الباشا إلى الانسحاب لموقعه الآمن في القاهرة.

غادر حسن باشا القاهرة في عام ١٧٨٧ مع تصاعد احتمالات الحرب ضد روسيا. وقبل رحيله أصدر عفوًا عن إبراهيم بك ومراد بك غير أنَّه اشترط بقاءهما في صعيد مصر. وبحلول عام ١٧٩١، اتجهت اهتمامات الآستانة إلى أماكن أخرى. وفي العام نفسه تفشى الطاعون في مصر فقضى على عدد من صفوة الحكام فضلاً عن مؤيديهم من العامة مما أضعف نسيج المجتمع الحضري.

وتعد الأوبئة ظاهرة مرتبطة بالحضر، فهي تنتشر في ظل ازدحام المدن وتنتقل بواسطة البراغيث التي تحملها الفئران. أما البدو الرحل فإن بيئتهم الصحراوية بسكانها المحدودين وأحوالها الصحراوية التي يغلب عليها التجرد والخشونة تقيهم شر انتشار الأوبئة. وقد نتج ضمنًا عن هذا الاختلاف في أثر الأوبئة على البدو والحضر في مجتمعات الشرق الأوسط أنَّ دورات الأوبئة أضعفت من المدن وعرضتها لغزوات البدو الدورية. نَعِم إبراهيم بك ومراد بك وقواتهما وحلفاؤهما من البدو بالسلامة في صعيد مصر في حين أنَّ الوالي العثماني الذي يحمل على عاتقه مسئولية إدارة البلاد قضى نحبه، مما أتاح لهما السير بكامل قواهما عائدين إلى القاهرة مؤسسين حكومة البكوات من جديد ومنفذين لسياساتهما السالفة من فرض الضرائب على التجار الفرنسيين وغيرهم من التجار إلى حد إلحاق الفقر بهم وتحدي مطالب السلطان سليم الثالث بشأن الضرائب.

ولم تمض سبعة أعوام على استعادة سيدي مضر لكرسيهما في عام ١٧٩١ إلا وقد حل جيش "بونابرت" الجرار بالإسكندرية ردًا على الاعتداءات التي أنزلها

البكوات بالجالية التجارية الفرنسية، وتخوفًا من انفصال المماليك الجورجيين بمصر عن الإمبراطورية العثمانية مما يمهد لسقوطها تحت الحكم البريطاني أو الروسي. وتعد حملة "بونابرت" مشابهة إلى حد كبير لحملة حسن باشا إذ تتفق معها في أدق التفاصيل، مثل المعسكرات الدفاعية التي أقيمت بإمبابة وبولاق، ومحاولة مراد بك صد الهجوم بالرحمانية، واستعانة الطرفين بما لعلماء الأزهر من سلطة معنوية، وقطع الوعود بتخفيض الضرائب (ثم نقضها لاحقًا)، والدور الذي قام به القناصل الأوروبيون في جلب الغزو، والثورة الثقافية التي حاول الحاكم الجديد أن ينشرها. وبالمثل فإنّ البكوات المخلوعين لجأوا في الحالتين إلى الانسحاب إلى الصعيد.

غير أنّ وجه الاختلاف ظهر في السياسة الاجتماعية، فقرارات حسن باشا قصدت إلى إعادة تأسيس القيم العثمانية والتأكيد على الترتيب الطبقي للمجتمع بما يسمح للمعينين من قبل الآستانة أن يتخذوا مواقعهم في صدارة المجتمع. ومن الواضح أنّ حسن باشا لم يقبل بالتدخل من قبل المصريين بل من علماء الأزهر، وهم القائمون بأمر تطبيق الشريعة الإسلامية، ففي أغلب الأحيان احتل القانون الإداري العثماني موقعًا يعلو الشريعة في الإمبراطورية، ولو لم يقر المفكرون العثمانيون بذلك صراحة. وبالمثل فإنّ الجند الإنكشارية أنفسهم في ثكناتهم احتلوا مرتبة تعلو عن أصحاب المحال التجارية والتجار الذين يتحدثون العربية، في حين يعلو هؤلاء القاهريون المسلمون على المسيحيين واليهود، أما النساء فإنّهن تخضعن وتُبعَدن عن الحياة العامة. ولم يكن هناك من داع لما أصدر حسن باشا من قرارات، إذ شاركه أغلب المصريين في رؤيته عن المجتمع الصالح. غير أن الزمان لم يلبث أن أتى بسلطان جديد له توجهات أوروبية أعلن تحديه لمثل هذا البرنامج المحافظ حتى في الآستانة نفسها.

وجاء "بونابرت" بمراسيم وقرارات قلبت ما وضعه حسن باشا رأسًا على عقب. فقد دفع بالمسيحيين قدمًا ليصبحوا صفوة جديدة بالمجتمع، فعيَّن برتلمي الرومي على رأس الشرطة المصرية، وقلد الأقباط مناصب الإدارة العليا في الأقاليم، كذلك دفع بعلماء الأزهر الذين يتحدثون العربية ليصبحوا أعضاءً في الديوان الجديد، ونزل بالصفوة العسكرية التركية العثمانية من أعلى الدرجات الإدارية إلى أدناها. ورفع "بونابرت" القيود عن النساء. لقد اختلف محتوى المراسيم والقرارات اختلافًا جذريًا، ولكن ماذا عن الوسائل؟ على أي حال فإننًا نفهم الآن لماذا لم يستسلم إبراهيم بك ومراد بك لمشاعر اليأس والإحباط على الرغم من الهزيمة التي مُنيا بها وجلبت عليهما الذل؛ فقد هبطا إلى درك الذل الأدنى من قبل وصعدا إلى العظمة والأبهة مرة أخرى.



وفي السابع والعشرين من يوليو ولم يمض وقت طويل على بداية الغزو، طلب "بونابرت" من بعض مساعديه طرح أفكار حول إصلاح أحوال مصر، فعلى سبيل المثال تساءل عن أفضل السبل لتطبيق القانون المدني والجنائي. لم ينتظر "بونابرت" جوابًا، بل أصدر أوامره بشأن إدارة الأقاليم في اليوم نفسه، فقد قرر إنشاء ديوان في كل إقليم، وكلمة "ديوان" مصطلح عثماني يشير إلى مجلس الحكم، وهو المقابل من حيث المفهوم لما يعرفه "بونابرت" من نظام حكومة الإدارة. وقد شكل "بونابرت" الديوان من سبعة أشخاص ليضعوا حدًا للنزاعات بين القرى، وليراقبوا الشخصيات المشبوهة، وينزلوا بها العقاب إن لزم الأمر، ويجوز لأعضاء الديوان أن يستدعوا الجند الفرنسيين لإنجاز تلك المهام ويقدموا تبريرًا للأهالي بشأنها. كما خصص "بونابرت" قوة شرطة لكل إقليم يرأسها أغا من الإنكشارية العثمانيين وتتكون من ستين من الأهالي يُعهد إليهم بحفظ النظام. أما حكام الأقاليم

فهم من الجنرالات الفرنسيين وهي إشارة إلى غرابة الجمع بين الاحتلال الأجنبي ولجان الإدارة المحلية "الديموقراطية" التي تمثل الإمبراطورية الجمهورية.

التزم "بونابرت" طوال تاريخه العسكري بإجبار الشعوب التي استعمرها بسداد تكاليف الغزو وبث الرعب في النفوس بغرض إخضاعها. وما لبثت جمهورية مصر الفرنسية أن تعرفت على رؤية الجنرال الكورسيكي عن الحرية. وقد بلغ تعداد المصريين آنذاك أربعة ملايين ونصف المليون منهم ثلاثة ملايين ونصف المليون من الفلاحين يزرعون الأرض في قرى صغيرة على امتداد نهر النيل، يستخدمون أساليب ري متطورة ويستفيدون من الفيضان السنوي الذي يجلب لأراضيهم الطمي وهو سماد طبيعي لا يكلفهم أية نفقة. غير أنَّ "بونابرت" احتقر الفلاحين: "إنهم في القرى لا يعرفون حتى المقص. دورهم مقامة من الطمي ولا تجد من الفرش بها إلا سريرا من قش ووعائين من الفخار أو ثلاثة. وهم لا يستهلكون أو يأكلون إلا أقل القليل، ولا يعرفون الطواحين حتى إننا كنا دائمًا نقيم خيامنا بجوار أكوام القمح ولا نجد دقيقًا فنقتات على الخضروات ومنتجات الحيوانات. وهم يستخدمون الحجارة كي يطحنوا بعض الحبوب دقيقًا. وفي القرى الكبيرة يستخدمون الأبقار لطحن الحبوب".(١٦) إن وصف "بونابرت" للفلاح المصري يحط كثيرًا من شأنه، ولعله نسي كيف استخدمت إحدى الفلاحات المقص استخدامًا ذهب ببصر أحد جنوده.

أصبح "بونابرت" الآن على رأس بلد عماد سكانه من الفلاحين، ولذا وجد لزامًا عليه أن يبتّ في شئون الملكية العقارية والضرائب الزراعية. تتسم نظرية ملكية الأراضي الزراعية بمصر في القرن الثامن عشر بالتعقيد، ولعل من الأفضل ألا ننظر إلى الأرض بوصفها سلعة يملكها مالك أوحد، بل إنها مصدر ثروة "يمتلكه" عديد من الأفراد الذين يُحصّل كل منهم بعض المكاسب من النشاط

الزراعي. وبعبارة أخرى، فإنَّ طبقات الملكية تتداخل ولا تسمح بوجود مالك مستقل. فمن الناحية النظرية فإنَّ الأرض ملك للسلطان العثماني، أما البكوات من أتباعه فإنَّهم يتنافسون فيما بينهم لتحصيل الضرائب الزراعية، أو على حقهم في جباية الضريبة من قرى بعينها فيحتفظون بجانب من الإيراد لأنفسهم ويوردون معظمه إلى الحكومة في القاهرة (والمفترض أن ينتقل المال إلى الوالي العثماني، ولو أنَّ هذا الترتيب لم يعد شائعًا على نحو تزايد أثره في أواخر القرن الثامن عشر). أما عُمد القرى فإنَّهم يطالبون بحقوقهم في زراعة الأراضي ويجنون أرباحًا من إنتاج معظم أراضي قراهم، كما يحافظ الفلاحون على حقوق لهم في الأرض التي استقروا بها وزرعوها إذ يبيعون حقوقهم في تلك الأرض ويشترونها (حقوق انتفاع) مما يدل على أن المجتمع يعترف بتلك الحقوق المحلية مع ما للسلطان العثماني من حق اسمي وما للصفوة المحلية من حقوق في جباية الضرائب.(١٧)

أصبح لكل إقليم مسئول ضرائب من الأقباط لضمان توريد الضرائب، مثل: ضريبة الميري (وتحسب على أساس عمل الفلاحين في الأراضي المملوكة للدولة)، وضريبة الفدان (وتحسب على الأراضي الزراعية الأخرى على أساس من مساحتها)، وهي الضرائب التي قام على جبايتها فيما سبق صفوة الأتراك المتمصرين، فصار توريدها إلى الجمهورية. مُنح مسئول الضرائب القبطي حق تعيين مأموري الضرائب على النحو الذي يسهل له أداء تلك المهمة، وصار هو نفسه مسئولاً عن رفع تقرير عن إدارة تلك الشئون المالية لموظف فرنسي. وقد سبق "لبونابرت" أنْ وعد المصريين بإعفائهم من الضرائب والرسوم التي اعتاد البكوات على جبايتها منهم، ولكنه أصبح يطالبهم بالضرائب نفسها لحساب إدارته.(١٨) ويُذكر أن الأقباط يتمتعون بحقوق تتعلق بالحياة والملكية وحرية

ممارسة شعائر دينهم بموجب الشريعة الإسلامية، غير أنّهم لا يتساوون في المكانة مع المسلمين، ويُقدر تعداد الأقباط بحوالي ستة بالمائة من سكان مصر حينئذ، وقد سبق لحكام مصر من الأتراك أن عهدوا إليهم بمهمة المساعدة في إدارة الحسابات إذ رأى البكوات في الأقباط قومًا لا تربطهم صلات القرابة وغيرها من الصلات بالأغلبية المسلمة مما يسهم في الحد من الفساد. ونجد أنَّ الجماعات العرقية أو الطبقية كثيرًا ما تتخصص في مثل تلك الأعمال في إطار الأنظمة البيروقراطية ذات الطابع الفردي في الشرق الأوسط والهند، ويختلف الأمر في الصين حيث يتقدم غالبية السكان من "الهان" لاختبارات لشغل المناصب. وقد حقق بعض أعيان الأقباط الثروة والقوة معًا بفضل صعود نجم الصفوة العسكرية المركزية القوية في القرن الثامن عشر.

التحق أعيان الأقباط بخدمة كثير من بيوتات المماليك في القرن الثامن عشر وعُهد إليهم بمسئوليات لها خطرها في إدارة الأموال أو في الوظائف المكتبية لمراجعة الحسابات.[١٩] وقد تراكمت ثروات هؤلاء الأعيان الذين ينتمون لعموم الشعب فأصبحوا من المحسنين والرعاة لكنيستهم وبرزوا بوصفهم زعماء الملة فأزاحوا القسس جانبًا. ارتفعت مكانة الأقباط إذن بفضل تدفق الثروة عليهم وأصبح زعماؤهم ضيوفًا في الاحتفالات حتى الإسلامية منها. لذلك لم يستحدث "بونابرت" أمرًا حين اعتمد على الأقباط في الإدارة المالية أو حين دفع بهم ليحتلوا مواقع اجتماعية أعلى، غير أنّه أثار حنق المسلمين إلى أبعد حد حين سمح لهم باحتلال مواقع تعلو على المسلمين في بعض نواحيها. ويعود جانب من نجاح "بونابرت" في استلام مقاليد الحكم في مصر بقدر كبير من السلاسة إلى أنّه تبنى ما وجده من ترتيب قائم تمثل في تلك الدائرة القبطية التي طالما اعتمد عليها الأتراك المتمصرون أيضًا. ولا شك أن القنصل "ماجالون" وغيره من الخبراء في الشأن

المصري قد أمدوا "بونابرت" بمعلومات عن الأهمية التي يمثلها الأقباط في مثل تلك الأمور.

ولكن تعيين أقباط، مثل: متى صرافيم وبينوف جيزاوي رؤساء إقليميين لتحصيل الضرائب بدا لبعض المسلمين في صورة السيطرة المسيحية على البلاد وبخاصة إذا ما أُخذ في الحسبان ما للفرنسيين من سيطرة عسكرية.(٢٠) وينعي الجبرتي وهو العالم المسلم على الفرنسيين أنهم حينما أقروا الملتزمين في مواقعهم اتجهوا إلى تعيين محصلي ضرائب لهذه الأراضي من الأقباط. يقول الجبرتي: "ونزلوا في البلاد كالحكام، وبلغوا أغراضهم في المسلمين بالحبس والضرب والإهانة، والحث في الطلب والتخويف بإحضار عساكر الإفرنج، إن لم يدفعوا المقرر بسرعة، وكل ذلك بترتيب القبط ومكرهم"(*)(٢١)

ومما هو جدير بالذكر أن "بونابرت" وبخ الجنرال "جوزيف زاجونشك"، حاكم إقليم المنوفية، بعد أسبوعين من غزو القاهرة، لما رآه من نقص في مهاراته الإدارية. وفيما يبدو أنّ ذلك اللوم قد صدر في حقه لأنّه أنهى خدمة أحد مسئولي الضرائب من الأقباط وأهانه علنًا. يقول "بونابرت" إنّه استاء لمسلك "زاجونشك" تجاه القبطي، وإنّه يخطط للتعامل مع الأقباط على نحو يتسم باللياقة والاحترام. وطلب "بونابرت" من الجنرال إخطاره بأسماء من يثبت أنَهم مثار شكوى ليقوم هو نفسه باستبدالهم. ويضيف "بونابرت" استنكاره لاحتجاز مسئول الضرائب القبطي دون إجراء تحقيق لمعرفة ما إذا كان مذنبًا أم بريئًا، ثم إطلاق سراحه بعد اثنتي عشرة ساعة، ويرى أن ما حدث يعد أسوأ تصرف يُقدم عليه من يريد أن يتقرب من قوم ما. وينصح الجنرال أن يدرس من يخالط من ناس ويحدد من منهم يمكن

(*) الجبرتي. تاريخ مدة الفرنسيس بمصر. تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٨٣. (المراجع)

الاستعانة به، ويدعوه إلى أن يجعل من بعض الناس عبرة لمن يعتبر فيوقع بهم عقابا شديدًا عادلاً، ومع ذلك فعليه أن ينأى بنفسه عن الهوى أو الإساءة إلى مشاعر الآخرين.(٢٢)

من الواضح أنَّ "بونابرت" رأى في مسئولي الضرائب من الأقباط أحد أسس الإدارة الاستعمارية بمصر، فهم بوصفهم مسيحيين تتوفر لهم المعرفة بظروف البلاد وعادات أهلها، يمكن أن يقيموا بيروقراطية متواطئة مع المحتل الأوروبي. وظل "بونابرت" على أهبة الاستعداد لمحاسبة جنرالاته إذا ما شعر أنهم يعرضون العلاقات الطيبة مع الأقباط للخطر. ففي الثاني والعشرين من أغسطس أصدر قرارا لكل للجنرالات يحظر عليهم صراحة التدخل في عمل مسئولي التوريد من الأقباط المكلفين بتوريد المؤن إلى الجيش.(٢٣)

أصدر "بونابرت" من القوانين حينئذ ما يفيد استمرار ولاية القضاء المدني مثلما كان الحال سابقًا، وكذلك ما يفيد استمرار المعاملات التجارية دون تغيير. كما أقر كل المالكين في مصر في أملاكهم وحافظ على الأوقاف ولو ظاهريًا لتمويل المساجد وبخاصة الحرمان الشريفان.(٢٤) لم تخضع أملاك الأوقاف في ذلك الزمان للضرائب حسبما تقضي الشريعة، وقد خُصِّص ما يقدر بخمس الأراضي الزراعية في مصر لأغراض عائلية أو خيرية أو دينية (ويُفترض دوام احتجازها لتلك الأغراض). وقد توفر سببان يدعوان "بونابرت" لذلك الخطاب، فقد رغب أولاً في كسب ود علماء المسلمين الذين يعتمدون على الأوقاف في كسب دخولهم، ثم إنَّ العائلات الثرية دأبت على توجيه أموال الأوقاف لدعم الأعمال العامة وعقارات العائلة؛ ولذا رأى "بونابرت" أنه من الأفضل الحفاظ على الأوقاف كي يطمئن الطبقة الوسطى من المسلمين الذين يتحدثون العربية.

ونرى مصداق ذلك في خطاب وجهه "بونابرت" إلى الجنرال "أونوريه فيال" **Honoré Vial**، حاكم إقليم دمياط، بتاريخ الثاني والعشرين من أغسطس: "حيث إنَّ القائد الأعلى عزم على صيانة جميع المنشآت الدينية واحترامها، أرجو أن تطمئن على توفير الحماية والأمن للبصرات وكفر الجديد وما يتبعهما من أراض، وكلها أملاك أوقفها عبيد الله الرومي لصالح ذريته وللإنفاق على ضريحه، وسبيل مياه عام، وخزان مياه جميعها بالقاهرة. أرجو كذلك أن تصدر أوامر تحظر جباية الضرائب في هاتين القريتين اللتين تُوَجَّه إيراداتهما لما ورد ذكره من منافع عامة."(٢٥) وواقع الأمر أن الجبرتي يشكو من تعيين الفرنسيين الأقباط والسوريين المسيحيين مشرفين على كثير من الأوقاف ومن استيلائهم على إيراداتها. ويسجل في تاريخه أنَّ حشدًا كبيرًا من المسلمين المصريين ممن يعتمدون في معاشهم على الأوقاف اجتمعوا في منتصف شهر أكتوبر في بيت الشيخ البكري، وهو أحد شيوخ الأزهر الأجلاء، وشكوا له انقطاع معاشهم ومخصصاتهم من الخبز (الجراية)، وضمت المجموعة المتنوعة التي تثير الشفقة عميان ومؤذنين ومرضى بالمستشفى (البيمارستان) المنصوري، وأطفال المدارس أو الكتاتيب، وغيرهم ممن يعتمدون في معاشهم على إيرادات العقارات التي أوقفها أحد كبار الأعيان ويدعى عبد الرحمن كتخدا.(٢٦) ويبدو من خطاب بونابرت ما يقع خلف قناع القوانين والتعقل من حقائق كئيبة تقوم على الفساد والسلطة والإرهاب.

وحين عهد "بونابرت" إلى الجنرال "مينو" بإدارة شئون ميناء رشيد المهم غير البعيد عن الإسكندرية، كتب إليه بصراحة غير معتادة يقول: "إن الأتراك لا يسلس قيادهم إلا بأقصى درجات العنف، وإنني أصدر أوامري بضرب أعناق خمسة أو ستة، ولقد تعاملنا معهم إلى الآن بأسلوب ينفي الأقاويل التي سبقتنا

ونسبت الإرهاب إلينا، أما اليوم فمن الضروري أن نصطنع لهجة تجبرهم على طاعتنا، والطاعة بالنسبة لهم تعني الخوف".(٢٧)

وبالطبع فإنَّ بونابرت يقصد المسلمين كلهم حين يشير إلى الأتراك، ويصف الجبرتي في تاريخه أحداث الإعدام في القاهرة مع عزوفه عن ذكر العقوبات التي وقعت على من يسميهم بالرعاع. كما تحفل مذكرات الضباط الفرنسيين بوصف المذابح التي شهدتها القرى، ولكنهم لا يتحدثون بالقدر نفسه من التفصيل عن الموقف في القاهرة نفسها. ولا مفر لنا من أن نقبل ما قاله "بونابرت" على عواهنه، فإذا اتخذ من إصدار أحكام الإعدام عادة له فإنَّ القائد الأعلى يكون قد أقام مجزرة بالقاهرة يفقد فيها ما بين مائة وخمسين ومائة وثمانين رجلاً حياتهم كل شهر في القاهرة في الظروف العادية.

ولعل "مينو" وحده من بين جنرالات "بونابرت" أخذ تعليمات القائد الأعلى بجدية فائقة، فقد سار على هذا النهج في التعامل مع الأهالي الذين خضعوا للاحتلال. ولنا أن نلاحظ الفرق بين معاملة "بونابرت" لعامة المسلمين الذين يعدم بعضهم يوميًا لإرهاب الآخرين، وتعليماته بعدم المساس بمحصلي الضرائب من الأقباط.

الفصل السادس

أجمل أنهار الأرض قاطبة

في اليوم الأول من أغسطس، خرج المهندس والعالم "بروسبير جولوا" Prosper Jollois الذي استقر به المقام بميناء رشيد لينطلق مع بعض أصدقائه إلى قرية "أبو مندور".[1] وقد أثار إعجابهم برجٌ كبير مربع الأضلاع يُعد العلامة المميزة للقرية على ما حل به من مظاهر الإهمال والتصدع. وما إن حلت الساعة السادسة وبينما أخذت كتلة الشمس المتوهجة تميل إلى المغيب حتى وصل إلى سمعه فجأة دوي ضجةٌ عظيمة. ميزت أذناه بوضوح هدير المدافع وتأكد لديه على الفور أن مصدر تلك الضجة هو الأسطول وقد تعرض لهجوم. هرع "جولوا" إلى البرج فاعتلى سطحه وقد قصد إلى مشاهدة الاشتباكات غير أنه سرعان ما داهمه تصور الاحتمالات الفظيعة التي قد تجلبها تلك المواجهة في أثرها، فنزل من موقعه وهو يتحسس موطأ قدميه وعاد إلى بيته برشيد عبر طرق ملتفة. وهناك أكد له زملاؤه أنّ الأسطول الفرنسي مشتبك في معركة.

لم ينم "جولوا" إذ عاوده الشعور بالقلق فاعتلى الدرج إلى سطح المنزل. يقول "جولوا" إنّ الظلام الدامس لم يكشف له سوى ما أضاءته نيران المدافع بوضوح من مشهد السفن التي تلاصقت جوانبها وجعلت تتبادل إطلاق القذائف، ثم علت الجلبة وحمي وطيس المعركة. ويضيف وقد بلغ به التأثر مبلغه أنّ الحروب البحرية أمر رهيب. استسلم "جولوا" لمخاوفه التي صوّرت له سوء العاقبة وحينئذ بزغ ضوء أبيض ثابت أخذ يتزايد فأعشى العيون. ثم انتشر بسرعة وهجٌ أزرق شاحب فلم يعد هناك مجالٌ للشك أن إحدى السفن قد أمسكت بها النيران. تمايلت تلك السفينة مع الرياح ثم انطلق منها ما يشبه الألعاب النارية التي تصاعدت نورًا

ونارًا إلى عنان السماء. بدا واضحًا أنَّ النار قد امتدت إلى مخزن الذخيرة الذي يقع أسفل سطح السفينة. ويتذكر "جولوا" صورة السفينة وهي تنفجر عاليًا في الجو في مشهد يجمع بين الجلال والرهبة. ثم توقف القتال على ما يبدو وأوى "جولوا" إلى فراشه غير أن النوم استعصى عليه لما ساوره من ترقب وقلق.

وفي صباح اليوم التالي انطلق "جولوا" عَدْوًا إلى البرج بأبي مندور. وعلى الرغم من أنَّ القتال خفت حدته حوالي الساعة العاشرة أو الحادية عشرة من مساء اليوم السابق، فقد اشتعلت جذوته مرة أخرى مع حلول الليل، ثم تأجج في الفجر. تواصلت المعركة ونشرت السفن أشرعتها للريح وتباعدت بعضها عن بعض. استمر القتال طيلة اليوم، ويقول "جولوا" إنَّ الأمر بدا وكأن كفتي القتال متساويتان بل إنه ظهر له في بعض اللحظات أنَّ العلمَ الفرنسي ثلاثي الألوان سيعلو في نهاية المطاف منتصرًا.

وفي اليوم الثالث من شهر أغسطس اختفت سفن الأسطولين المتحاربين عن نظر "جولوا" فلبث في انتظار الأنباء وقد نفد صبره. وفي هذا اليوم قدَّم الجنرال "جاك مينو" رشوة إلى البدو كي يذهبوا إلى أبي قير حيث ألقى الأسطول الفرنسي مراسيه ويعودوا بالخبر اليقين. وفي الساعة الثانية وصل قارب سبق أن أرسل في مهمة وتمكن بحارته من مراقبة المعركة عن بعد، ولكنهم اضطروا للإبحار تجاه مصب النيل خشية أن يلاحقهم الأعداء. وقد تخلص البحارة من مدفعهم لأنهم خشوا أن يعوق تقدمهم في مجرى النهر الضحل بما يزيحه من مياه. تجمع حشدٌ من الفرنسيين ما إن دنا القارب من المرسى النهري برشيد، ونزل الربان يحمل البشرى بحماسة لا تدع مجالاً للشك.

ومر اليوم السابع عشر من "ترميدور" ولما ترد أنباء جديدة عن نتيجة المعركة، ثم ورد خطاب من "كليبر" بالإسكندرية إلى "مينو" في نهاية الأمر، وظلت محتويات الرسالة سرًا. ويرى "جولوا" أنَّ الخشية من انتشار الخبر لهي أكبر دليل على سوئه، لكن المقربين من الجنرال عرفوا الحقيقةَ وهي أنَّ الأسطول الفرنسي لم تعد له قائمة وأن السفينتين اللتين غرقتا هما "لوريان" و"آرتميس". كما ورد مزيد من الأنباء إلى رشيد حملها بحارة هاربون. يقول "جولوا" إنَّ وقع الحزن والبؤس على الجميع كان أبلغ أثرًا لأنهما جاءا في أعقاب فرحة طاغية. وقد وقعت السفينة التي تحمل طرود البريد في أيدى البريطانيين الذين غنموا فجأة ثروة من المعلومات عن العمليات الفرنسية في مصر، فضلاً عن الفرصة التي سنحت لهم للتسلية بمطالعة المراسلات الخاصة بالجنود الفرنسيين بما في ذلك مراسلات "بونابرت" نفسه، وسرعان ما نشر البريطانيون تلك المراسلات.[٢] وأسقط في يد "بونابرت"، الذي كان يعاني حينذاك من الاكتئاب، من جراء الأنباء التي تفيد خيانة جوزفين، فوقف عاجزًا وهو يرى ألد أعدائه ينشر تلك الأخبار في العالم أجمع.

وواقع الأمر أن الأدميرال "هوراشيو نلسون" قد عاد بأسطوله إلى الإسكندرية وما إن تراءت له أشرعة الأسطول الفرنسي حتى اندفع مهاجمًا في وقت متأخر من المساء، مع ما في قراره هذا من مخاطرة الاشتباك في معركة ليلية.[٣] فعادة ما يعزف قادة القوات البحرية عن الدخول في معارك في ظلمة الليل لما في ذلك من التعرض لمخاطر المياه الضحلة التي لا تَرِد في الخرائط، ولإطلاق القذائف على السفن التابعة لهم على سبيل الخطأ. لكن لم يَبْدُ على "نلسون" الذي يتسم بالثقة بالنفس لحظة تردد؛ كانت الكفتان متساويتين على وجه التقريب إذ يحوز كل جانب ثلاث عشرة سفينة، وتسعمائة مدفع (لم تكمل عدة المدافع الألف والست والعشرين على السفن الفرنسية)، غير أن الفرنسيين لم يستغلوا ما لسفنهم

من مزايا الخفة في الحركة والقدرة على المناورة مع ما تحمله تلك السفن من مدافع أثقل قليلاً من المدافع البريطانية. قاتل الفرنسيون وسفنهم قد ألقت مراسيها، وأنفقوا وقتا طويلاً في تحميل قذائف مدافعهم التي تزيد في وزنها على وزن قذائف البريطانيين، كما أنّ الفرنسيين أطلقوا قذائف المدافع عالية فلم تصب أهدافها ولعل ذلك يرجع إلى تفضيلهم توجيه القذائف إلى صواري سفن العدو وأشرعتها لا هيكلها، فضلاً عن أساليبهم الحربية الخاصة بسلاح المدفعية، إذ اعتمد الفرنسيون على توجيه الضربات إلى الصواري والأشرعة لأغراض دفاعية تمنع العدو من التقدم وتوجيه ضربات ساحقة. ويسجل بعض من دونوا مذكراتهم عن المعركة من البريطانيين دوي قنابل الفرنسيين وصفيرها فوق رءوسهم. أما القباطنة البريطانيون فقد نجحوا قبل مغرب ذلك اليوم في إسقاط صواري سفينة "جربيه" وتدمير السفينة "كونكران"، ولعل نجاحهم هذا يرجع إلى إستراتيجية خططوا لها من قبل المعركة، أو إلى معرفة بالخطط الفرنسية، أو إلى مجرد البراعة في فنون القتال. وقد احتجزت إحدى السفن البريطانية في مياه الإسكندرية الضحلة التي يخشاها البحارة، ولكن قبطان تلك السفينة نجح في تحذير سفينتين كانتا تتبعانه.

اصطفت السفن جميعها؛ بعضها في مواجهة البعض في ظلام دامس لا يضيئه سوى وهج القذائف، وتوالى القصف من الطرفين. وانطلقت من سفينة "سباسيات" الفرنسية شظايا على سفينة القيادة البريطانية وقد عكف الأدميرال "نلسون" على خريطة يدرسها على سطحها؛ فأصابته شظية على حين غرة فشجّت رأسه وأفقدته بصره. ظن "نلسون" أنها النهاية، ولكنه تعافى سريعًا وخضع لجراحة في وجهه. وما إن حل المساء حتى أخذ البريطانيون بالثأر، فقد اقتربت سفينتا "سويفت شور" و"آليكسندر" سريعًا من سفينة القيادة "لوريان"، فتلقى الأدميرال "بروي" طلقة في معدته كادت أن تصرعه، وتتالت قذائف "آليكسندر" على "لوريان"

مما أشعل بها النيران، وحولها إلى كتلة من اللهب العائم مما شكل خطورة على سفينة "آليكسندر" نفسها تلك التي كانت في مهب الريح الآتية من السفينة المشتعلة. اضطر قبطان "آليكسندر" أن يقطع الحبال التي تربط السفن بمرساها ويبتعد مسرعًا خشية أن تمسك النيران بأشرعتها، كما سارعت السفن الفرنسية بالابتعاد عن ساحة القتال. وما إن قارب الليل على الانتصاف حتى اشتعل مخزن ذخيرة "لوريان"، سفينة القيادة وفخر البحرية الفرنسية، فانفجرت وتناثر حطامها. انتشر حطام السفينة في دائرة واسعة وصعد عاليًا ليتساقط على أسطح بعض السفن البريطانية ويشعل حريقًا على إحداها سارع البحارة بإطفائه. كذلك اشتعل غضب بحارة "لوريان"، أما حجرة "بونابرت" الرسمية، التي ضمت بين أثاثها مائدة البلياردو المذهبة التي أثارت اعتراض "برنوييه"، فقد اختفت إلى الأبد. وبينما تعالت أصوات البحارة البريطانيين بالتهليل ساور الشعور بالأسى بعض قادتهم لما رأوه من فظاعة الكارثة، وقد تمكن البريطانيون من إنقاذ أربعة عشر بحارًا فرنسيًا نجوا من المحرقة.

تواصل القتال بعدئذٍ في الليل واستمر في صباح الثاني من أغسطس. لحق الدمار بسفينة فرنسية كبيرة أخرى وهجرها بحارتها، في حين هربت سفينتان كبيرتان أخريان. استولى البريطانيون على تسع سفن واحتجزوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسين أسيرًا فرنسيًا منهم ألف جريح، ويقدر عدد قتلى الفرنسيين بألف وسبعمائة رجل في حين سقط من الجانب البريطاني مائتان وثمانية عشر. كما تكبد الأسطول البريطاني خسارة كبيرة وكان بعيدًا عن أي ميناء به استعداد لإصلاح سفنه، وقد تعذر على كثير من السفن البريطانية التي لحقها الضرر أو التدمير أن تواصل الهجوم على الفرنسيين، ولعل توقف القتال قدّم إلى باريس والقاهرة النبأ السعيد الأوحد. وقد اضطر البريطانيون، الذين احتجزوا عددًا كبيرًا من الأسرى

وتناقصت مواردهم إلى الحد الأدنى، إلى إعادة كل الجرحى وكثير من البحارة الفرنسيين الأصحاء إلى الإسكندرية، وقد خرج البدو إلى ساحل البحر للاحتفال بانتصار الأسطول البريطاني وأشعلوا النيران تكريمًا للبريطانيين.(٤)

كان وقع أنباء خسارة الأسطول بين الفرنسيين في مصر مثل صدمة كهربية، كتب "مالوس"، عالم الرياضيات، في مذكراته أنه بات مقدرًا أن ينقطع الاتصال مع أوروبا، ويضيع الأمل في العودة إلى أرض الوطن. رحل "مالوس" عن الصالحية قاصدًا القاهرة وهو يشعر بالتعب والحزن والمرض.(٥) ويروي ضابط فرنسي أنه رأى مئات الجثامين لبحارة لفظهم البحر على الشاطئ وقد لفت انتباهه أنّ العفن لم ينل منها مثلها في ذلك مثل مومياوات المصريين القدماء وذلك لما يتميز به المناخ من جفاف شديد. لكن ذلك لم يدم طويلاً إذ يكشف لنا "جولوا" كيف تصاعدت رائحة الموت سريعًا على طول الساحل ثم علقت بالجو لأسابيع تلت، وكثيرًا ما صدم المارة المشهدُ الرهيب للأذرع أو السيقان البشرية التي تكشف عنها رمال الشاطئ.

وقد علم القائد الأعلى بنبأ الكارثة التي حلت بالأسطول الفرنسي أثناء وجوده بالصالحية في الثاني عشر من أغسطس، وذلك بعد أن نجح في مطاردة إبراهيم بك وإجباره على مغادرة مصر.(٦) وما إن عاد إلى القاهرة حتى نقل إلى جنرالاته الأخبار الفظيعة. ويذكر "بوريين" سكرتير "بونابرت" الخاص أن كارثة "أبو قير" نزلت نزول الصاعقة على "بونابرت"، ويسجل "مارمون" في خطاب ما دار بينه وبين "بونابرت" من حوار حينذاك، قال "بونابرت": "إنّ السبل قد تقطعت بيننا وبين الوطن ولا نملك وسائل اتصال آمنة، حسنا، لا بد أن يعلم الجميع أننا نتمتع بالاكتفاء الذاتي، فموارد مصر عظيمة، وعلينا أن نرتقي بها. وقد كانت مصر في

زمان مضى مملكة قائمة بذاتها، ... والمهم هو حماية الجيش من مشاعر الإحباط ففي تلك المشاعر بداية النهاية". (٧)

واجه "بونابرت" حنق ضباطه المحصورين في مصر وهو يهوي إلى أدنى مدارك الاكتئاب التي لم يخبرها من قبل حين واجه خيانة "جوزفين". ويحرر "بيير بوييه" Adj. Gen. Pierre Boyer خطابًا إلى "بونابرت" يحذره من رغبة جنرالاته في العودة إلى فرنسا، ومن انتشار السخط بين صفوف الجيش. وقد سبق أن نقل "مورا" و"لان" و"برتييه" إلى "بوريين" ملاحظات تنبئ بحالة هي أقرب إلى العصيان. وكان "بونابرت" يأمل ما أن تتم له السيطرة على مصر أن يبحر إلى "طولون" ويصحب معه الأسطول الفرنسي، فأصبح هو وجيشه محاصرين في مصر. ومما زاد من مشاعر اليأس ما حل بالفرنسيين من انقشاع الأوهام التي نسجوها حول مصر وضياع أحلام المستشرقين، يقول "بوريين":

> **إن مصر لم تعد إمبراطورية البطالمة بمدنها الغنية العامرة بل أرضًا تقدم وجهًا واحدًا لا يتحول، جوهره الدمار والشقاء. ويضيف "بوريين" إنه بدلاً من أن يتلقى الفرنسيون العون من أهالي مصر، الذين حل بهم الخراب على أيدي الغزاة على أي حال، مقابل تحريرهم من سطوة البكوات، فإنهم وجدوا الكل من مماليك وبدو وفلاحين ضدهم. فلم يأمن فرنسي على حياته إن ابتعد ولو قليلاً عن الشوارع المطروقة أو عن المجموعة التي ينتمي إليها. (٨)**

وينقل إلينا "ديزفرنواه" ما دار بين الفرنسيين من أفكار تهدف إلى السعي لإيجاد السبل لمواصلة حياتهم بمصر ما داموا قد عجزوا عن مغادرتها، كما تهدف

إلى جذب المصريين للقضية الفرنسية. بل برزت فكرة مؤداها ضرورة تجنيد مصريين في الجيش الفرنسي مثلما فعل المماليك بنجاح من قبل.(٩) ويبدو من استعداد الفرنسيين قبول جنود مصريين في صفوف الجيش الجمهوري، بغض النظر عن الأفكار العنصرية التي تمسكوا بها في بعض الأحيان، أنَّ الروح العالمية لإيديولوجيتهم الثورية قد أقنعتهم أن الشعوب الأخرى مهما اختلفت في ثقافاتها وعاداتها، يمكن أن يجري دمجها بنجاح في نهاية المطاف في تلك الإيديولوجية. بل إننا نجد أنَّ "بونابرت" نفسه وضع تلك الفكرة حيز التنفيذ ويسجل "ميوه" الأمر الذي أصدره القائد الأعلى بأن يضم إلى الألوية الفرنسية صغار المماليك ممن تتراوح أعمارهم بين الثامنة والسادسة عشرة كافة، وكذا الصبيان من العبيد البيض أو السود ممن شردوا في أنحاء القاهرة، وذلك بصفة جنود أو قارعي طبول.(١٠) وهكذا فإن الروح العالمية مع شديد الأسف قادت الفرنسيين الثوريين لممارسة القهر والضغط في الدعوة إلى المشاركة في قضيتهم، كما أنهم لم يتورعوا عن ابتكار شعارات نابعة عن توجهات عنصرية كريهة. ففي بادئ الأمر حملت أوراقهم الرسمية على رأسها تعبير "جيش الشرق" جنبًا إلى جنب مع "الحرية"، و"المساواة"، و"الجمهورية الفرنسية"؛ وما إن مر عام على الوجود الفرنسي بمصر حتى ظهرت الأوراق الرسمية وعلى رأسها كلمة "المستعمرات"، غير أن التناقض قد بدا في احتفاظهم بالكلمات الأخرى دونما تغيير.(١١)

كان لزامًا على "بونابرت" في أول الأمر أن يتعامل مع السخط الذي انتشر بين ضباطه. دعا القائد الأعلى الجنرال "شارل جوزيف دوجا" الذي أبلى بلاءً حسنا في معركة الأهرامات إلى العشاء، وطلب منه أن يدعو بدوره بعض الجنرالات بمن فيهم "موراه" وآخرون سماهم ليشاركوهما. نفذ "دوجا" التعليمات وما إن انتهى

العشاء وجَّه "بونابرت" سؤالاً إلى زملائه عن أحوالهم في مصر، فجاء الرد من الجميع أنهم في أفضل حال.

أمَّن القائد على استجابتهم وأضاف موجهًا حديثه إليهم: "إنني أعرف أنَّ عددًا كبيرًا من الجنرالات يشجعون العصيان ويدعون إلى التمرد، فليحذروا، فإنني لا أرى فرقًا بين جنرال وقارع طبول، وإن دعت الحاجة فإنني على أتم استعداد أن آمر بإطلاق الرصاص على أي منهما ببساطة". ويُذكر أنَّ الجميع لزموا الصمت احترامًا.(١٢)

غير أنَّ أهل القاهرة أطلقوا ألسنتهم في أحوال الفرنسيين، ويحكي لنا الجبرتي ما كان من أمر تاجر الصابون الكبير السيد أحمد الزرو الذي تناول في أحاديثه هزيمة الأسطول الفرنسي في أبي قير.(١٣) يروي الجبرتي أنَّ الزرو قد أخطأ حين تحدث في ذلك الأمر على مسمع من مسيحي سوري نقل إلى الفرنسيين ما قال. استدعى الفرنسيون أحمد الزرو وواجهوه بما ورد إليهم من معلومات عن أحاديثه. أجاب تاجر الصابون الكبير بأنه ينقل ما سمعه من رجل مسيحي يعرفه، فجاء الفرنسيون بذلك الرجل، هدد الفرنسيون الرجلين بقطع لسانيهما ما لم يدفع كلٌّ منهما مبلغ مائة فرنك، وهو مبلغ طائل. سعى علماء المسلمين للتوسط لهما لدى الفرنسيين إلا أنَّ وساطتهم قوبلت بالرفض. وبعد جهد كبير قدم الشيخ مصطفى الصاوي، عضو الديوان، مبلغ مائتي فرنك وقبلت وساطته، وطلب الضابط الجمهوري منه توزيع المال على الفقراء. ويقول الجبرتي إنَّ الأهالي امتنعوا عن الخوض في ذلك الأمر عقب تلك الأحداث. ومع ذلك، فإنَّ من يعارضون الفرنسيين ارتفعت معنوياتهم لدى سماعهم بالكارثة التي ألحقها الأدميرال "نلسون" بهم. وكان منهم مراد بك الذي ما لبث أن ضاعف مقاومته للغزاة من مكمنه الحصين في صعيد مصر. وتشير الحادثة إلى أساليب انتقال الشائعات في العاصمة، وإلى الدور

الذي يلعبه البدو في نقل الأنباء بسرعة البرق في طول البلاد وعرضها، مما شكل أداة مقاومة ضد الفرنسيين دعتهم إلى مراقبة تلك الشائعات وتوقيع أقصى العقوبات على مروجيها، وهي عقوبات سبق أن شاعت بين رجال لويس الرابع عشر، بل بين سلاطين آل عثمان.

***

ويعد افتقاد "بونابرت" للشرعية إحدى العقبات الرئيسية التي اعترضت محاولته حكم مصر، فهو جنرال أجنبي من أصول أوروبية كاثوليكية، وقد خشي كثير من المصريين من أن يجبرهم على التحول عن الإسلام. يدون "سان إيلاير" **Saint-Hilaire** عالم الأحياء في أغسطس من ذلك العام في مذكراته أن حجم المخاوف التي اعترت النساء فاق ما شعر به الرجال، فلم ينقطع نحيبهن وتعالت أصواتهن خوفا من أن يُجبرن على التخلي عن دينهن".[١٤] وتلقن الشريعة الإسلامية والتقاليد في القرون الوسطى المسلمين ضرورة تجنب الخضوع لغير المسلمين ما دام ذلك ممكنا، وإن اقتضى الأمر الهجرة إلى بلاد أخرى. وهناك من الفقهاء من سمح باستثناء إن ثبت أنّ الحاكم غير المسلم لا يعادي الإسلام ويسمح بممارسة شعائره. وتلك هي الثغرة التي مثلت لـ"بونابرت" الأمل الوحيد في حكم مصر، وقد تمسك بها مثل محام مراوغ يتولى قضية لا بديل له عن الفوز بها.

ومن أجل تعزيز موقفه بوصفه حاكما مواليًا للإسلام في بلد مسلم، تقدم "بونابرت" على رأس المحتفلين بوفاء النيل والمولد النبوي في أغسطس. وعلى الرغم من أن المصريين قد تخلوا لقرون خلت عن وثنيتهم حين عبدوا النيل بوصفه الإله "حابي" الذي يفيض بالخير، فإن هالة من الإكبار الديني ما زالت تحيط به في نفوسهم، فأطلقوا عليه "النيل السعيد" أو "النيل المبارك".[١٥] ويلاحظ مسئول المؤن

والأزياء العسكرية "برنوييه" أنَّ المصريين يرون في النيل أباهم، وفي الأرض أمهم، ويتساوى عندهم أن يقضوا نحبهم في مياه النيل أو على أرض مصر. وفي ذلك الزمان أيضًا ترقب المصريون فيضان النيل ورأوا في وفائه بشرى خير وفي نقصه نذير شر لعام مقبل. والنيل أطول أنهار الأرض وهو يتدفق من منابعه وروافده الإفريقية بإثيوبيا والسودان فيشق طريقه في الصحراء المصرية ويهيئ أرضًا لسكنى البشر على جانبيه. وفي فصلي الشتاء والربيع تغيض مياه النيل وتظل في أدنى مستوى لها، ثم يأتي فصل الصيف بأمطار موسمية غزيرة فيفيض النيل الأزرق في مرتفعات إثيوبيا بالمياه التي تصل مصر في شهر يونيو، وما إن يحل منتصف أغسطس أو أول سبتمبر حتى تفيض ضفتا النهر بالمياه المتدفقة.

وقد اعتاد المصريون على مر العصور على التعايش مع ذلك الفيضان السنوي الطبيعي الذي يجلب لهم الخير؛ فأقاموا مساكنهم وأعدوا مزارعهم على النحو الأمثل للاستفادة من مياهه، وكذلك كي يبقوا على أرضهم ولا يهجروها. تحولت القاهرة إلى "بندقية" أخرى في نصف شهور العام وباتت الدلتا أشبه بمستنقعات فلوريدا. رفع القرويون دورهم على قواعد معظم أيام السنة حتى لا يلحق بها ضرر من الفيضان، كما أقاموا نظامًا من سدود صغيرة سمحت لهم بتحويل المياه إلى زراعاتهم لريها ثم تحويلها عنها بعد ذلك. شق مهندسو المدينة القنوات والبحيرات لاستيعاب فيض المياه. وفي كل عام تنحسر المياه فتخلف من ورائها طبقة سميكة من الطمي الذي يعد مخصبًا طبيعيًا جعل من وادي النيل سلة غلال شرق البحر المتوسط على مر تاريخ عدة إمبراطوريات. فإن جاء الفيضان منخفضًا فلن تغمر الأراضي الزراعية مياه كافية، وتتأثر تبعًا لذلك المحاصيل الزراعية، أما إن جاء عاليًا فالمحاصيل يلحق بها الضرر. ولذلك فإن الأنظار تتجه بقدر غير قليل من القلق إلى مقياس النيل بالروضة الذي يقدم نبوءة دقيقة عن

أحوال الاقتصاد في البلاد في العام المقبل، فإن وصلت مياه الفيضان إلى ستة عشر مكعبًا على الأقل فإن السدود تجري إزالتها. خرج "بونابرت" إذن مثله في ذلك مثل أي حاكم مسلم ليتفقد مقياس النيل بالروضة.(١٦)

في صباح يوم الاحتفال بوفاء النيل أمر "بونابرت" بتزيين سفينة نهرية تدعى "العقبة"، كما قام قلة من البكوات، وهم الموالون للفرنسيين، بتزيين عدة غلايين أخرى. دعا القائد الأعلى أهل القاهرة، الذين ما زالوا يخشون غياب الأمن على الساحة السياسية الجديدة، أن يخرجوا إلى المتنزهات على ضفتي النهر وفي جزيرة الروضة كما اعتادوا. ويذكر الجبرتي أن كثيرًا من القاهريين تلقوا الدعوة بمشاعر اختلط بها الغضب والكآبة؛ فهناك الضرائب الجديدة التي نشط جامعو الضرائب في جمعها منهم، وهناك أيضا نهب الدور، وملاحقة النساء والجواري، بل اختطاف بعضهن والزج بهن في السجون، وغير ذلك من الأمور الشنيعة. أما نائب الوالي العثماني مصطفى باشا، فقد نزل من داره ولحق بـ"بونابرت" ثم انضم إليهما أبرز علماء المسلمين السنة من أعضاء الديوان، وأغا الإنكشارية، وغيرهم من الأعيان والوجهاء. سار الجميع في موكب يمتطون صهوات الجياد المطهمة إلى جسر السد. جلس "بونابرت" ونائب الوالي العثماني، الذي يمثل ما تبقى من الشرعية العثمانية في مصر، في خيمة عظيمة وانضم إليهما كبار جنرالات الفرنسيين. حرص الفرنسيون على حشد أكبر عدد من الناس في المتنزهات وعلى صفحة النيل، ولعبت الفرق الفرنسية والمصرية مقطوعات موسيقية.

وحين أعطى "بونابرت" الإشارة لإزالة السد فإنَّ المياه حسب وصف "ديزفرنواه" في مذكراته تدفقت من فتحة السد في تيار قوي إلى القناة، وعَبرَ قاربٌ يحمل اسم "الوالي" القناة يتهادى، وفي تلك الأثناء، انتشرت الفوضى وألقى الرجال والنساء والأطفال بأنفسهم في النيل، كما ألقوا خصلات من ذؤابات الخيل وخرقا

من قماش وغير ذلك من القرابين لينعم الله على نسائهن بالخصوبة أو ليحفظ عليهن جمالهن. ويسجل الكابتن "ساي" أنَّ طائفة من الراقصات انطلقن على طول القناة يحيين من تجمع لمشاهدتهن برقصاتهن الخليعة. وتذكر صحيفة "كوربيه دي ليجيبت" **Courrier de L'Egypte**، التي تصدر بالفرنسية في القاهرة، أنَّ "بونابرت" ألقى كميات كبيرة من العملات الصغيرة بين الناس، كما ألقى قطعًا من الذهب على سطح القوارب المارة. كما منح شيخ الأزهر كسوة سوداء، وشيخ الأشراف كسوة بيضاء. كما وزع القفاطين على كبار الضباط الفرنسيين تكريمًا لهم.

وجاء العمال بتمثال صغير لامرأة صُنع من الطين ويدعى "المخطوبة" ويرى "ساي" في ذلك امتدادًا لعادة فرعونية قديمة تقضي بإلقاء عذراء في مياه النيل. ولاحظ "ساي" أنَّ الناس سكارى. ثم ما لبث الموكب الرسمي أن انسحب فتبعه الناس وهم ينشدون المدائح النبوية، وكذلك مديح الجيش الفرنسي كما يزعم "ديزفرنواه" الذي يقول أيضًا إنَّ الناس هتفوا باسم القائد الأعلى، ووصفوه بأنه مرسل إليهم من قبل الرسول لأنه أحرز انتصارًا وسيطر على أجمل أنهار الأرض قاطبة.

فاضت قنوات القاهرة ومجاريها المائية غير أنَّ الفرنسيين لم يسمحوا للمياه بالتجمع في بركة الأزبكية لبعض الوقت لأنَّ عتادهم الحربي ظل محفوظًا هنالك. ويسجل الجبرتي ما لاحظه من عزوف العائلات عن ركوب القوارب في القنوات في تلك الليلة مثلما اعتادوا من قبل، عدا المسيحيين والسوريين والأقباط والأوروبيين وزوجاتهم. ويقول الجبرتي إن مسلمي القاهرة، عدا قلة من العاطلين، لم يشاركوا في الاحتفالات المسائية. وهكذا فإنَّ الفرنسيين يحتفظون بذكرى حشود المسلمين الذين خرجوا للاحتفال بنهاية عهد البكوات في نهار اليوم وخلعوا على

"بونابرت" صفات النبوة (فإن لم تكن تلك الهتافات قد أطلقت على سبيل الدعابة التي تفتقر إلى الجد، فإنها كفر صريح)؛ أما الجبرتي فإنه يحتفظ بذكرى شعب غاضب نهبت ثرواته واغتصبت نساؤه وأُجبر على الخروج في نهار يومه وكأن شيئا من هذا لم يكن، ثم عاد إلى دوره في المساء يشغله التفكير في أمره. وحقيقة الأمر أنَّ الفرنسيين لم يستطيعوا التمييز بين الأقباط والمسيحيين السوريين من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى، وسعدوا بخروج الطبقات الدنيا من المسلمين الذين تطلعوا لالتقاط بعض عملات "بونابرت" الصغيرة. وهكذا بدت لهم جموع الناس سعيدة راضية، أما الجبرتي فإنه تجاهل الجماعات المسيحية وطائفة العمال من المسلمين ووَّجه انتباهه إلى طبقتي المسلمين الوسطى والعليا، وهما طبقتان وَجَدا في يومهما هذا من الحزن ما طغى على أي احتفال.

وفي الأسابيع اللاحقة عادت بحيرة الأزبكية وقنوات المدينة لمركزها المهم في حياة القاهريين الذين ارتادوها للترويح عن أنفسهم وركوب القوارب في المساء. ويستعيد الكابتن "ساي" بعض الذكريات الجميلة التي تثير الحنين في نفسه فيقول إن زرقة السماء التي لا يحجبها ضباب في أغلب الأوقات، وتألق النجوم في السماء على خلفية زرقاء، وتوهج النيران التي انعكست على صفحة المياه، تبعث البهجة في النفوس أثناء النزهات سواء في النهار الذي تصفو سماؤه أو في الليل الذي يسوده طقس منعش بديع. ويلمس الكابتن "ساي" مدى سرور الناس الذين جاءوا ليستنشقوا الهواء النقي على صفحة تلك البحيرات بعد نهار طويل تحت الشمس المحرقة.

وتنتشر في يوم الاحتفال بوفاء النيل مشاهد الحواة والعروض الشعبية، ويُرى العرافون ورجال الطرق الصوفية في حلقاتهم. ويعود الاحتفال بوفاء النيل إلى زمن الفراعنة وشعبهم، ثم اتخذه الأقباط المسيحيون عيدا بعد تعديله وكذلك

المسلمون، غير أنَّ المسيحيين والمسلمين لم يتخلوا عن السِّمة الوثنية المصاحبة للاحتفال من وقف العمل بالسلوك الأخلاقي؛ إذ يشهد اليوم أحداث السُكر واللهو والقصف، بل إن بعض الوفيات قد تقع أثناء اليوم.[١٧] وقد استنكر مراقبون فرنسيون ممن يميلون إلى المذهب العقلاني استنكارًا شديدًا ما رأوه من مظاهر إسلام العوام بين المصريين، إذ وجدوا في تلك المظاهر ممارسات خرافية يأتي بها العامة.

ويعد "فرانسوا بيرنوييه"، المسئول عن تصميم الأزياء العسكرية للجنود وصناعتها في مصر، واحدًا من هؤلاء العقلانيين بل يمكن القول إنه ينتمي إلى اليعاقبة. يصف "برنوييه" احتفالاً للصوفية شهده أثناء الاحتفال بوفاء النيل. لا يولي "برنوييه" شيوخ الطرق الصوفية أي احترام، إذ يرى أنهم دجالون يخدعون الناس، يقول "برنوييه":

> **كانوا يتدثرون بزي الرهبان وقد جلس شيخهم الكبير على الأرض يحيط به مريدوه. تقدم رجل من الجمهور كي يتلقى نفحة إلهية، فاقترب من الشيخ الجليل وقبل الأرض بين يديه مرارًا. أمسك الشيخ بخصلة من شعر المريد وجذبه إلى أعلى فأقامه من سجدته، ثم إنه أمر الرجل وقد بدت على وجهه الصرامة أن يغمض عينيه ويفتح فاه. ثم ما لبث الشيخ أن بصق في فيه فبدأ الرجل يهتز بعنف وقد تخشبت أعضاؤه حتى أن صوت قرقعة عظامه صارت مسموعة، وبدا وكأن عينيه ستخرجان من محجريهما، ثم ظهر الزبد على شفتيه وجعل يتقلب عاريًا على الرمال.**[١٨]

يقول "برنوييه" إنَّ الشيخ (الذي ينتمي إلى الطريقة السعدية الصوفية على الأرجح) أنهى طقوس الاحتفال بأن استخرج من داخل جلبابه جوالا به ثعابين أطلقها على الرجل. ويسجل "برنوييه" فيما بعد أنه رأى امرأة عجوزا بلغت الستين من عمرها، أو تجاوزتها، تمتطي صهوة جواد أصيل وهي عارية تمامًا، ويضيف "برنوييه" أنَّ تلك العجوز تلقى الاحترام العميق من الناس جميعهم حين تتوقف أمام دورهم. يقول "برنوييه" إنهم يلمسون مؤخرتها بأصابعهم ثم يرفعونها إلى شفاههم.[١٩] ويعبر عن دهشته لالتماسهم البركة من مؤخرة تلك المرأة، غير أن المترجم لم يكن في صحبته فلم يفهم معنى ما رأى. ويسود الاعتقاد الشعبي الإسلامي في مصر أن البركة يمكن التماسها في أشجار بعينها أو أضرحة أو أشخاص. إن ما اتسمت به المرأة من حال معكوس، فكونها امرأة عارية وهي امرأة على ظهر جواد، منحها قوى غيبية في عيون القوم. ويروي الجبرتي أيضًا قصتها بوصفها امرأة صوفية مجذوبة من الشعب. ويتفق الجبرتي مع "برنوييه" في ما انتابه وراوده من شعور باحتقار الممارسات الدينية الشعبية.

غير أنَّ "بونابرت" قدِّر له أن يخيب آمال الجبرتي و"برنوييه" كليهما بما وضعه من سياسة بشأن الدين. فعلى الرغم من تصريحات "بونابرت" السابقة المعادية لرجال الدين فقد رأى أنه في حاجة إلى كسبهم إلى صفه. ولم يهتم "بونابرت" كثيرًا بأي صور التدين يتبع كي يكتسب شعبية بين الناس. وقد هداه حدسه إلى كسب ود علماء المؤسسة الرسمية كي يضمن نجاح مسعاه في مصر. وعندما خاب أمله أو كاد بدا على أتم الاستعداد أن يغازل الإسلام الشعبي، وما اتصل به من الطقوس والأولياء ذوي الكرامات والبركات، إن بلغ بذلك كله نيل ولاء الشعب. وكانت رعاية "بونابرت" لاحتفال وفاء النيل في نظره الخطوة الأولى نحو اكتساب الجاذبية الدينية في مصر بوصفه السلطان الأعظم وحامي حمى الإسلام.

***

إن المسيرة الاضطرارية للفرنسيين من الإسكندرية إلى القاهرة لم تتح لهم وقتا لتأمين أراضي مصر السفلى التي تقدموا خلالها، فظلت تلك المناطق متمردة تستعصي على الخضوع، وقد زاد أهلها جرأة في الهجوم على الفرنسيين حين ترامت إليهم أنباء غرق الأسطول في أبي قير. ولم يجد "بونابرت" مفرًا حينئذ أن يجعل من الدلتا مقرًا لقواته إذ انقطعت به السبل وبات يواجه مقاومة منظمة في الجنوب. وصار لزامًا، بعد أن ضرب الأسطول البريطاني حصارًا على المدن الساحلية على البحر المتوسط، أن يزودوا تلك المدن بحاجاتها من الريف الواقع إلى الجنوب منها، وهي مناطق لم يكن الفرنسيون قد سيطروا عليها بعد. سيطر زعماء البدو الذين ظلوا على ولائهم للمماليك على طرق التجارة ومخازن الغلال والقرى وبعض المدن، في حين اختبأ بعض الأمراء في بلدات الدلتا وقراها وقادوا المقاومة من مكامنهم. وفي بعض الأحيان أثارت خطط الفرنسيين لإرهاب السكان عزيمتهم للمقاومة لا خضوعهم.

بل إن الجنود الفرنسيين الذين يمكثون قريبًا من العاصمة لم يسلموا إن تخلوا عن حذرهم من هجمات القرويين والبدو. ويروي لنا "ميليه" أخبار تكليفه ووحدته باتخاذ مواقعهم في منطقة الأهرامات لأسبوعين في آخر يوليو وأول أغسطس.[٢٠] وفي موقعهم هذا وسط رمال الصحراء وآثار الفراعنة المهيبة لم تتوفر لهم الحاجات الأساسية مثل الخبز. يقول "ميليه" إنّ عددًا كبيرًا من الخيالة والفرسان انطلقوا إلى قرية مجاورة ليجدوا ما يقتاتون به، وعلى ما يبدو نهبوا بعض محال القمح المملوكة للقرويين وشرعوا في طحنها دقيقًا مستخدمين طواحين يدوية في تلك المحال.

وعلى حين غرة برز لهم أربعون بدويًا عرفوا أن هؤلاء الجنود لا يحملون أسلحة يدافعون بها عن أنفسهم فذبحوا هؤلاء الجنود البائسين وعددهم حوالي

العشرين. وقد هرب اثنان منهم فاختبأ أحدهما في فرن والآخر في زير مياه. وقد عرف الجنود في المعسكر بوجود البدو في تلك القرية غير أن الجنرال المسئول في الجيزة، حسب رواية "ميليه"، ظن أن الجنود مسلحون فلم يرسل لهم إمدادات. يقول الجنرال إن سوء الفهم الذي أدى إلى نتائج مأساوية قد نتج عن خطأ أحد المسئولين، وهو "ميجور" مساعد رأى أن الجنود دائمًا ما يتخطون حدود أوامرهم؛ فحظر على الجنود حمل سلاحهم خارج المعسكر، فتسبب في النكبة التي حلت بهؤلاء الجنود التعساء.

وحتى في الشرقية التي كان "بونابرت" قد أخضعها لتوه، واجهت الحامية التي تركها في بلبيس مزيدًا من الثورات، إذ يسجل السارجنت "فرانسوا" بتاريخ التاسع عشر من أغسطس أن عمدة القرين حضر ليحذر قائد الحامية أن ما يتراوح بين ألف وخمسمائة إلى ألف وثمنمائة رجل من البدو والقرويين اجتمعوا في قريته، وقد عقدوا العزم على الهجوم على الفرنسيين لعلمهم أنهم أقل منهم عددًا. كان عدد الفرنسيين أربعمائة وثمانية وخمسين رجلاً.[٢١] ويقول "فرانسوا" إنَّ هؤلاء المجرمين هاجموا المعسكر من جميع الاتجاهات، غير أنَّ الجنود الفرنسيين الذين تحصنوا وراء الجُدر قتلوا منهم ثلاثة وثلاثين. واصل الفرنسيون بناء حصنهم ببلبيس مستخدمين طوبًا مصنوعًا من الطمي، وابتاعوا اللحم والدواجن من القرى المجاورة وكذلك "الفطير" الذي وجدوه طيبًا نظيفًا إذا ما قورن بطعام الأتراك الذي يتسم عمومًا بقذارته، ويضيف "فرانسوا" أنهم لم يمعنوا النظر فيما يأكلون؛ إذ افترضوا أنهم قد يصبحون مسلمين في يوم من الأيام وقنعوا بأن يشاركوا المسلمين بؤسهم. أما الأفراد غير المقاتلين فقد كان أسوأ ما يمكن أن يواجهوه، إن لم يهلكوا على أيدي أهل البلاد الذين يحملون لهم العداء، هو أن يتمثلوا عادات البلاد وتقاليدها بمرور الزمن ويصبحوا من أهلها.

مثلت الأقاليم إلى الغرب من بلبيس خطورة أكبر على الفرنسيين. ويذكر "نييللو سارجي" Niello Sargy أنه في أغسطس من عام ١٧٩٨ لم يتح للفرنسيين الإبحار في النيل دون الاضطرار إلى مواجهة هجمات البدو والأعراب الذين ينضم إليهم سكان القرى المجاورة للنهر. وقد تعرضت السفن المبحرة من رشيد ودمياط لاعتداءات متزايدة.[٢٢] ويقر المهندس "فيبه دي تيراج" Villiers du Terrage أن جانبًا من متاعب الفرنسيين ناتج عن عدوانيتهم، ويقول إنه اضطر لاصطحاب قوة مسلحة في سفره من الرحمانية إلى القاهرة في منتصف أغسطس لتوقع هجمات من القرى التي أغار عليها الفرنسيون والبدو مؤخرًا. ويصف الكابتن "تورمان" عودته في قارب صغير من القاهرة إلى الرحمانية يوم الثالث والعشرين من أغسطس وتعرضه وزملائه للتوقف الاضطراري أمام كثبان من الرمال أخفتها عنهم مياه الفيضان المرتفعة، يقول "تورمان" إن القوارب الصغيرة تتوقف مسيرتها في النيل مما يعطي فرصة سانحة للبدو والفلاحين لإطلاق النيران على من يستقلها، فيرد الفرنسيون بإطلاق النيران في حين ينشغل البحارة بمحاولة إعادة القوارب إلى مسارها. وقد سقط في تلك الرحلات كثير من الرجال بين قتيل وجريح.

وتتوالى شكوى "نييللو سارجي" من تعذر الهروب من السفن الحربية البريطانية الرابضة عند مصبي النيل. ويصف الجنرال "أوجست مارمون" صعوبة الموقف فيقول إنَّ تلك الفترة شهدت الحاجة الملحة للجيش الفرنسي للسلاح والذخيرة المحفوظة في مخازن بالإسكندرية، وكذلك حاجة الإسكندرية للقمح المخزون برشيد وقرى النيل. وكانت فروع النيل قد جفت منذ زمن، مما ترك الإسكندرية بدون مصدر طبيعي للماء العذب الذي بات يُنقل إليها من داخل البلاد. وصار لزامًا على المسئولين أن يثنوا الفلاحين عن الإسراف في استخدام مياه القناة التي تمد الإسكندرية بالماء، وتطلب الأمر السيطرة العسكرية على الدلتا.

قصد "نييللو سارجي" دمنهور حيث واجه الجنرال "فيليكس دومي" Félix Dumuy تمردا في منتصف شهر يوليو، نتج عنه اضطراره للانسحاب إلى الإسكندرية. وفي منتصف شهر أغسطس أعد كليبر المتحصن بالإسكندرية حملة لقمع البدو واستعادة دمنهور، وفي الثامن عشر من أغسطس كتب "بونابرت" إلى الجنرال "مارمون" موجهًا إياه أنه في حالة فشل الحملة في السيطرة على دمنهور فعليه أن يقود صفين من الجنود ويطهر الإقليم كله من الأعداء ثم ينزل بسكان دمنهور عقوبات لمسلكهم تجاه الجنرال "دومي".[٢٣] وواقع الأمر أن الجنرال "كليبر" أعاد المدينة التي يبلغ تعدادها أربعة آلاف نسمة إلى السيطرة الفرنسية، ولذلك فقد وجد "نييللو سارجي" أن الأمور رهن السيطرة. وقد ساورت "كليبر" الشكوك أن حاكم البحيرة السيد محمد كريم ضالع من وراء الستار في ثورة دمنهور وأنه يوجه أعوانه لتقديم معلومات عن تحركات الفرنسيين إلى البدو. تولى الجنرال الملتزم القادم من إقليم الألزاس إعداد قضية محكمة ضد الحاكم وأقنع "بونابرت" بعدالتها ثم ألقى القبض عليه في الخامس عشر من أغسطس بتهمة خيانة الجمهورية الفرنسية، وهي تهمة لم يكن لكريم أن يتخيل أن توجه إليه في حياته مسبقا.[٢٤]

ويأسف "نييللو سارجي" أنه على الرغم من ورود بعض الأنباء المشجعة بشأن أمن القوات الفرنسية، فإنَّ الفرنسيين في تلك الأيام كانوا يواجهون العوز الشديد. كان دخل جمارك الإسكندرية من الصادرات والواردات يبلغ ثلاثمائة ألف فرنك في الشهر وقد عوّل "بونابرت" على الاستحواذ على هذا الدخل، غير أن ذلك لم يعد ممكنا بعد الحصار البريطاني. لم يعد أمام الفرنسيين خيار سوى تحويل السبائك الذهبية التي نهبوها من مالطة إلى مال، وكانت تلك السبائك قد نقلت إلى رشيد في مكان آمن عقب الهجوم البريطاني. أمِلَ الفرنسيون الحصول على مائة

وخمسة وثمانين ألف فرنك في مقابلها بما يساوي شهرين من دخل جمارك الإسكندرية سابقا. وقد أصدر "كليبر" تعليماته إلى "مينو" برشيد أن يمتنع عن نقل الرسائل بحرًا ما دام الحصار البريطاني قائمًا. أصبح الفرنسيون إذن محاصرين في الدلتا.

عندما جاء الضابط الشاب "جان بيير دوجورو" **Jean-Pierre Doguereau**، ابن صانع الشَعر المستعار، إلى الإسكندرية في أغسطس رأى حطام الأسطول الفرنسي متناثرًا على الشاطئ، كما شهد حادثة تؤكد إحساس بعدم الأمان الذي شاع بين الفرنسيين في دلتا النيل.[٢٥] فقد وصلت سفينة أبحرت من فرنسا إلى الإسكندرية ورصدها الأسطول البريطاني بين مريوط وبرج العرب فطاردتها قطعه البحرية، ولما شعر قبطان السفينة الفرنسية بتعقب الإنجليز لسفينته قرر أن الهرب ضرب من الشجاعة؛ فاتجه إلى الشاطئ وأنزل البحارة ليكملوا رحلتهم سيرًا على الأقدام، ونقل البحارة حمولة السفينة الثمينة معهم غير أنهم لم يحتاطوا فتركوا سلاحهم في السفينة، فما إن وطأت أقدامهم رمال الشاطئ حتى هاجمتهم قبيلة من البدو جردوهم من ملابسهم وضربوهم وقتلوا بعضهم، ثم هربوا بما غنموا.

وعندما حاول الفرنسيون أن يرحلوا عن المكان برز لهم بدو آخرون أعملوا في معظمهم سيوفهم وأسروا البعض طمعًا في الحصول على فدية مقابل إطلاق سراحهم. لم ينج إلا خمسة عشر رجلاً من البحارة أو الركاب من السبعين الذين نزلوا من السفينة. وكان من بين القتلى جنرال في الجيش الفرنسي. عرض البدو على كليبر افتداء الأسرى مقابل مبلغ من المال فوافق على عرضهم، فأطلق البدو سراحهم عرايا وقد لفحتهم الشمس وهم أقرب للموتى منهم للأحياء.

ظل الفرنسيون عاجزين عن إحكام قبضتهم على الدلتا، وعلى الرغم من أنهم أقاموا تحصينات خفيفة في بعض المدن فإن الخطر كل الخطر كان يكمن في الريف. ويسجل "مارمون" في مذكراته أن "مينو" اقترح القيام برحلة من رشيد إلى داخل البلاد التي ما زالت أرضًا شبه مجهولة للفرنسيين. واصطحب "مينو" و"مارمون" معهما بعض العلماء منهم "آليكس ديليل" **Alix Delile**، و"ديودا دولوميه" **Déodat Dolomieu**، و"دومينيك فيفان دينون" **Dominique-Vivan Denon**، وفنان يرسم المناظر الطبيعية اسمه "جولي" **Joly**، بالإضافة إلى قوة من ستين من المشاة مسلحين بالبنادق. وحدث أن تقدم الضباط والعلماء وهم على ظهور جيادهم فسبقوا القوة المصاحبة لهم فوجدوا أنفسهم في مواجهة حوالي مائتين من الفلاحين المسلحين الغاضبين خارج أسوار قرية كبيرة تحتل موقعًا على قمة مسطحة لتل مرتفع أنشأه الأهالي أنفسهم، وربما كان اسم القرية كفر شباس عمير، صاح بهم الفلاحون: ارجع! ارجع! وأطلقوا الرصاص فوق رءوسهم. مرت لحظة عصيبة برز أفراد المشاة بعدها وما إن أدركوا الموقف حتى بادروا بالهجوم ثم انطلقوا فدكوا أسوار القرية ثم أشعلوا النيران في أبوابها الخشبية وحاصروا أهلها من المحاربين المتحصنين بالداخل. وفي نهاية المطاف سقطت القرية في أيدي الفرنسيين غير أنَّ القرويين الماكرين واصلوا هجماتِهم وقد استتروا بظلمة الليل مما مكنهم من قتل وجرح عشرين جنديًا. أصيب جواد "مينو" وهو على ظهره فنفق، وتلقى "جولي" الفنان رصاصة قاتلة في رأسه. عادت فرقة "مارمون" إلى رشيد، ويذكر أنه قارن قبيل تلك الرحلة بين ذكاء البدو وما أبدوه من فضول تجاه الفرنسيين وما رآه من بلادة الفلاحين، الذين يمرون بجوار القوات الفرنسية دون أن ينظروا إليهم.

غير أن تلك الملاحظة صدرت عن حس متعال لم يصب الحقيقة، فما لم يعرفه "مارمون" يتعلق بمجتمعات آسيا وشمال إفريقيا الطبقية؛ إذ لا يجوز لمن هو في وضع أدنى اجتماعيًا أن يرفع رأسه وينظر إلى من هو أعلى منه مرتبة وجهًا لوجه وإلا فإنّ الموت مصيره. لم يكن الفلاحون أغبياء ولم يفتقروا إلى الفضول بل كانوا مطحونين من قبل على يد المماليك وغير راغبين في أن يلقوا حتفهم على أيدي المماليك الجدد إن بدرت عنهم أي إساءة غير مقصودة. غير أنّ مغامرة "مارمون" الأولى في الدلتا تلك التي انتهت نهاية مؤسفة كشفت له أنه متى توفرت الفرصة للفلاحين المسلحين تسليحًا جيدًا والمتحصنين فإنهم يبدون استعدادًا لمقاومة الغزاة مقاومةً عنيدة. ويسجل "جولوا" **Jollois** في مذكراته بتاريخ الثالث عشر من أغسطس برشيد عودة فلول صف الجند الذين كلفوا بإحراق قرية على ضفة النيل.(٢٦)

تلقى الجنرال "أونوريه فيال" **Honoré Vial** أوامر بالتوجه إلى ميناء دمياط على ساحل البحر المتوسط إلى الشرق من الإسكندرية، بصحبة خمسمائة رجل. وفي الرابع من أغسطس أصدر أوامره لمائة وعشرين رجلاً باتخاذ مواقعهم في عاصمة الإقليم، المنصورة، وهي بلدة يبلغ تعدادها ثمانية آلاف نسمة وتبعد ثمانية وسبعين ميلاً عن القاهرة.(٢٧) أسس "فيال" في المنصورة ديوانا محليًا من الأعيان الذين أبدوا استعدادهم لدعم الفرنسيين، كما صادر مائة من سروج الخيل وفرض ضريبة كبيرة على محصول القطن بالإقليم ثم رحل عن المنصورة. ويسجل نيقولا ترك المؤرخ السوري المصري أن السوق يُقام في المنصورة يوم الخميس من كل أسبوع حين يتوافد عليه أعداد كبيرة من البدو والفلاحين من الريف. وقد استغل الناس هذا التجمع للقيام بحركة تمرد.

وفي الثامنة من صباح التاسع من أغسطس، تجمع حشد مسلح من الناس ونظموا هجمة على الموقع الفرنسي. بلغ عدد المتمردين أربعة آلاف رجل. تراجع الجنود الفرنسيون إلى ثكناتهم غير أنَّ جموع الناس تبعوهم هناك وحاولوا إشعال النيران في الثكنات، إلى أن أبعدهم الفرنسيون بطلقات بنادقهم. ولما تناقصت ذخيرة الفرنسيين رأوا أن بقاءهم في الثكنات يعرضهم لاقتحام المتمردين؛ ولذلك فقد انطلقوا في هجمة كبدتهم بعض القتلى الذين سقطوا برصاص الأهالي. حاول الفرنسيون استقلال بعض المراكب على النيل، غير أنَّ القرويين أطلقوا عليهم النار من الضفة الأخرى فقتلوا بعضهم واضطروا بعضهم الآخر للفرار. اتجه الجنود الفارون جنوبًا في اتجاه القاهرة وهم عرضة لطلقات القناصة طوال الطريق فتقلص عددهم إلى ثلاثين؛ مما اضطرهم إلى أن يتركوا الجرحى وراءهم، فكان القرويون يقتلون هؤلاء على الفور. وما إن نفدت الذخيرة حتى لحق بهم متعقبوهم وجزوا رقابهم. وقد تمكن أحد الفرنسيين من الهرب ولجأ إلى قرية شبرا حيث جاء ضابط فرنسي لاصطحابه لاحقا. كما نجت امرأة فرنسية كانت في صحبة زوجها، فأُسرت وزوجت قسرًا إلى شيخ أبي قوْرة.

وفي دمياط، حاول الجنرال "فيال" تلك الليلة أن يرسل جنودًا في اتجاه الجنوب الغربي إلى المنصورة غير أنهم وجدوا أن قرويين مسلحين متحالفين مع البدو قد قطعوا عليهم الطريق، فاضطروا إلى مغادرة قواربهم والعودة برًا إلى ميناء دمياط. فقد الجنود واحدًا منهم وجرح منهم خمسة حسب تقدير الكابتن "بيير فرانسوا جربوه" **Pierre-François Gerbaud**. أما "تيبللو سارجي" المقيم في رشيد فقد قدم تمرد المنصورة بوصفه هجمة بدوية. ولا يشير التقرير المفصل الذي رفعه المقدم "تيفيوت" **Théviotte**، وهو التقرير الذي استقى مادته على ما يبدو من الناجين من الرجال، إلى البدو. وعلى ضوء ملاحظات "تورك" **Turk** فإن الأرجح

أن جماعات مختلطة من أهل البلدة والبدو والفلاحين ممن جاءوا إلى المنصورة يوم السوق شاركوا في الثورة.

اعتاد الفرنسيون أن ينظروا إلى المصريين الذين يفتقرون إلى النشاط بوصفهم شعبًا لا يُقدِم على المبادرة ولا تتوفر له قوة الدفع، وأن يحملوا البدو مسئولية كل أحداث العنف المنظمة، غير أنَّ تلك نظرة قاصرة عن رؤية الواقع بوضوح. فالمنصورة، وهي بلدة مصرية متوسطة الحجم، ومركز تجاري يقصده فلاحو الدلتا، ويتمتع سكانها بقدر من الثروة وتوفر الأسلحة والتنظيم الذي يسمح بالإعداد للثورة دون مساعدة خارجية وإن شارك الفلاحون والبدو فيها. ويقول ترك إنَّه بعد حدوث الواقعة سعى شيوخ المدينة إلى تحميل الفلاحين والبدو المسئولية. ولا شك أن المسألة التي أطلقت شرارة التمرد تمثلت في مشاعر الغضب تجاه الاحتلال الفرنسي، والتخوف من فرض الفرنسيين ضرائب كبيرة يبدو أن "فيال" أشار إليه بها على نحو افتقر إلى الحكمة.

أسقط في يد "فيال" في مواجهة تلك الثورة الكبيرة فكتب إلى "بونابرت" الذي كان في القاهرة. وبخ القائد الأعلى "فيال" لأنه ترك حامية صغيرة بالمنصورة (غير أنَّ "بونابرت" يتحمل بعض اللوم لأنه حشد آلاف الجنود في القاهرة لحمايته شخصيًا، وفيما يبدو خفض عدد الجنود في رشيد ودمياط). أرسل القائد الأعلى الجنرال "دوجا" إلى المنصورة على رأس عدة صفوف قوية من الجنود، وتمكن هؤلاء من تفريق البدو الذين حاصروا المنصورة واستولوا على المدينة التي هجرها أغلب أهلها حين دخلوها.

أمر "دوجا"، على سبيل الانتقام الرمزي، بإعدام اثنين من أعيان المنصورة اللذين تيقن الفرنسيون من دورهما في إثارة التمرد وتمويله. ويزعم ترك أن "دوجا"

أخطر أهل البلدة بتلقيه أوامر بإحراق الأحياء التي شاركت في التمرد، غير أنه قال إنه لن يُقدِم على تنفيذ أوامره إذا ما سدد الأهالي غرامة مقدارها أربعة آلاف قطعة فضية من العملة العثمانية. وافق الأهالي على سداد الغرامة واتبعوا التعليمات.[٢٨] كما أكد "دوجا" للأهالي ما ورد من تعليمات ل"بونابرت" تقضي بأن يرفعوا العلم الفرنسي على مآذن المساجد في المنصورة و أنحاء الدلتا كافة، وأن تحرق البلدات والقرى التي تمتنع عن تنفيذ الأمر.

كما أكد مسئول الطباعة أ. جالان **A. Galand** في مذكراته أنَّ "بونابرت" أصدر أوامره أن ترفع السفن النيلية الشراعية العلم الفرنسي؛ يقول "جالان": "وعلاوة على ذلك أُمر الأهالي برفع الأعلام نفسها أعلى المآذن في عواصم الأقاليم مما أثار بعض الحزن في نفوس المسلمين".[٢٩] ولعل أسوأ ما واجهه المسلمون من إذلال وأثار في نفوسهم الغضب تمثل في رفع علم أوروبي لدولة كافرة على مآذن المساجد.

وعلى الرغم من انتصار الجنود الفرنسيين في ميدان القتال، فقد واجهوا تحديات كبيرة تمثلت في تدهور حالتهم الصحية في منطقة الدلتا المزدحمة التي تنتشر بها المستنقعات. ويسجل "ميليه" الذي بُعث إلى المنصورة لفترة قصيرة بعد أن استعادها الفرنسيون: "شهدتُ هناك مرضًا فظيعًا يصيب العين وينتشر بين الجنود جميعهم، وقد نتج عنه أن فقد عدد كبير منهم البصر في إحدى العينين أو كلتيهما".[٣٠] وتعد "التراكوما" ويطلق عليها الفرنسيون اسم "أوفتالميا" **opthalmia** مرضًا تسببه البكتيريا ينتشر في وادي النيل. ويسبب المرض ندبات على الجفون فتنمو الأهداب إلى الداخل وتتحول إلى أسلحة قاطعة تؤذي قرنية العين؛ مما يؤدي في بعض الأحيان إلى تدميرها.

وفي المنوفية، قاتل الجنرالان "فوجيير" Fugière و"زايونشك" Zajonchek "حشود البدو المتمردين"، وأشعلوا النار في قرى كثيرة "لإرهاب سكانها الجامحين" حسبما ورد في مذكرات "نيبيللو سارجي" الذي يعبر عن آرائه صراحة. يرى "سارجي" أنَّ غزو الدلتا يعتمد على إخضاع أكبر إقليمين: المنصورة والشرقية. يقول "سارجي": "من المستحيل مصادرة ممتلكات المماليك في هذين الإقليمين للمقاومة التي تبديها القرى، وللمعاملة التي يلقاها جنودنا من أهلها".(٣١) وقفت المعارضة المحلية إذن حجر عثرة في وجه الفرنسيين المتعطشين للمال والمتطلعين لمصادرة كنوز الطبقة الحاكمة السابقة. وهكذا وجد الفرنسيون أنهم بإطاحتهم بالدولة المصرية العثمانية، قد فجروا دون أن يدروا ثورة العامة، وصار لزامًا عليهم أن يخمدوا تلك الثورة إذا ما رغبوا في البقاء بمصر بعد كارثة أبي قير. ولعل جشع الضباط الفرنسيين لم يكن ليبلغ ذلك المدى، ولعلهم كانوا سيتوصلون إلى تسوية مع زعماء الأقاليم لو لم يُغرق نلسون الأسطول الفرنسي، ولو لم يفتقدوا الأمن العسكري والاقتصادي. غير أنَّ الأمر الواقع فجَّر مظاهر التمرد في أرجاء الدلتا.



١- "نابليون فى مصر" لجان ليون جيـــروم Jean-Leon Gerome ؛ لوحة زيتية على .... من البلوط من مقتنيات متحف الفن بجامعة برنستون، ابتاعها المتحف من مخصصات قدمها جون ماكلين ماجى (خريج الجامعة فـــى ١٨٩٢) وجرترود ماجى. تصوير: بروس إم وايت حقـــوق النـــشر محفوظـــة لمجلس أمناء جامعة برنستون.



٢- "الإسكندرية" لفيفان دينون ViVant Denon، رحلات فى الوجه القبلى الوجه البحرى بمصر، ثلاثة مجلدات (لندن: إس. باجستر، ١٨٠٧).



٣- "نابليون فى موقعة الأهرامات" حفر على الخشب لفيليب جوزيف فالوه Philippe Joseph Vallot، نقلا عن أنطوان -جان جروه Antoine-Jean Gros .



٤- "القاهرة" لفيفان دينون.



٥- "دينون يرسم تخطيطًا للوحة" لفيفان دينون.



٦- "رشيد" لفيفان دينون.



٧- "ثورة القاهرة"، رسم فى إيه. هوجو A. Hugo، محرر كتاب العسكرية، المجلد الثانى (باريس: ديلوى، ١٨٣٥).



٨- "بونابرت يعفو عن متمردى القاهرة" لوحة فى كتاب "أيه هوجو".



٩- "معركة سمنود" بريشة فيفان دينون.



١٠- عربة إسعاف الجرحى"، كتاب وصف مصر، في ٢٤ مجلداً (باريس: مطبعة بالكوش، ١٨٢٠-١٨٣٠).



١١- لوحة تتصدر كتاب وصف مصر.



١٢- ميناء بولاق النهرى، القاهرة، من كتاب وصف مصر.



١٣- مقبرة أوزيماندياس، طيبة، من كتاب وصف مصر.



١٤- ميدان الأزبكية، من كتاب وصف مصر.



١٥- معمل تقطير، من كتاب وصف مصر.



١٦- محل لإعداد البن، من كتاب وصف مصر.



١٧- امرأة من عامة الناس، من كتاب وصف مصر.



١٨- العالمات أو الراقصات الاستعراض، من كتاب وصف مصر.



١٩- الشيخ السادات، من كتاب وصف مصر.



٢٠- مراد بك، من كتاب وصف مصر.

الفصل السابع

عليّ بـونـابـرت

على الرغم من تفاؤله المفرط، فإن "بونابرت" لم يرَ في وجوده على رأس المحتفلين بوفاء النيل، بما يصحبه من معاني التبرك والرخاء في عقيدة العوام بمصر، سوى نجاحه في مهمة من مهام العلاقات العامة. تطلع "بونابرت" إلى المناسبة التالية، وقد عقد العزم أن يحقق من خلالها نجاحًا مماثلاً. وكان السلطان قد كتب إلى الجنرال "فيال" في دمياط ما يلي: "أتصور أنكم تخططون للاحتفال بمولد النبي بقدر أكبر من الفخامة ... إن احتفال وفاء النيل اتصف بالجمال، والاحتفال بمولد النبي سيكون أكثر جمالاً".(١)

ويسجل الجبرتي أنَّ النخبة المسلمة بالقاهرة قد عزفت عن الاحتفال بمولد النبي في ذلك العام، غير أنَّ "بونابرت" ما إن علم بنياتهم حتى ألح عليهم أن يعيدوا النظر في قرارهم. جاء رد السيد خليل البكري بالاعتذار عن عدم إقامة الاحتفال لأنَّ الموقف يتصف بعدم الاستقرار، فضلاً عن أنَّ علية القوم لا يتوفر لديهم المال اللازم لرعاية أحداث الاحتفال. تقدم "بونابرت" بناء على ذلك لتمويل الاحتفال بنفسه وقدَّم ثلاثمائة فرنك فرنسي إلى الشيخ البكري. ظهر التردد نفسه في أقاليم مصر، وقد وصف الفنان "دومينيك فيفان دينو" **Dominique Vivant Denon**، الذي رسم بورتريه لفولتير، بقدر من الغضب، كيف انتوى مفتي رشيد ألا يحتفل بالمولد النبوي كي يبعث برسالة إلى الأهالي فحواها أن الفرنسيين يعارضون إحدى أكثر المناسبات الإسلامية قداسة.(٢) وقد رأى "مينو" أهمية إقامة الحفل في الساعات الأخيرة فأمر المفتي بتنظيم المناسبة.

بدأ الاحتفال بالمولد النبوي في العشرين من أغسطس قبل موعده الرسمي بثلاثة أيام.[٣] ويذكر "ديتروي" **Detroye** أنّ القاهريين رفعوا المصابيح الملونة على الأعمدة في موقعين بميدان الأزبكية مما كان له أجمل الأثر عندما حل المساء. وفي العاشرة مساءً اتجهت مسيرات المسلمين الأتقياء من أحياء المدينة إلى المساجد المختلفة يقودها رجال يحملون المشاعل، أو الثريات الكبيرة التي تحمل كل منها أربعين مصباحًا. ويشكو "ديتروي" من الضجة المدوية الصادرة عن أغنيات معقدة النغمات موسيقاها أكثر تعقيدًا. ويضيف أنّ الموكب اخترق طرقات المدينة ليلاً وسط صياح الجموع محدثا ضجة كبيرة. ويقول "مواريه" إن أهل المدينة طافوا بالطرقات تميزهم علامات تدل على مكانتهم الاجتماعية أو صناعاتهم، يصحبهم العبيد الذين يحمل بعضهم السلاح ويحمل بعضهم الآخر المشاعل. وفي الأزبكية رفعوا صورة زخرفية لقبر الرسول بالمدينة.

ويقول "ديتروي" إنّ الاحتفالات تواصلت لليوم الثاني على التوالي وساد الهرج والمرج على نحو فاق ما جرى في اليوم السابق. وشهد اليوم التالي مزيدًا من المواكب والغناء والضجيج. ولعل المصريين استفادوا من الرخصة التي منحها إياهم الفرنسيون كي يحتفلوا بإجازتهم الدينية ويؤكدوا صمودهم وإيمانهم، في وقت تعرضوا فيه لهزة تحت وطأة غزو الفرنسيين من الكفار لمصر التي ظلت تحت الحكم الإسلامي منذ القرن السابع الميلادي.

ويسجل "ديتروي" في مذكراته أنّ يوم مولد النبي تحديدًا شهد من الاحتفالات ما فاق الأيام السابقة عليه: "ازدحمت الأماكن العامة بعروض متواضعة يُرى فيها الدببة أو القرداتية، والمغنون والمغنيات الذين يقدمون عروضًا تمثيلية يستخدمون فيها الحوار، ونساء يلقين الشعر، وسحرة يستعينون بأقداح تختفي

الثعابين فيها، وغلمان يرقصون رقصًا متهتكًا، ومصارعون يتقاتلون رجلاً لرجل، إلى ما غير ذلك".

وعلى الرغم من السمة الدينية لتلك المناسبة فإن العامة غالبًا ما ينخرطون في رقصات خليعة للاحتفال بها. وقد شهد "دينون" في رشيد مشهدًا مماثلاً لكنه لرجال وليس لأطفال: "جاءت الرقصة التالية شبيهة بالأغنية فلم تبعث في النفوس فرحا ولا بهجة بل أشاعت جوا من الشهوة ما لبث أن تحول سريعًا إلى خلاعة مقززة، وظل الممثلون وجميعهم من الذكور يأتون بأفعال شائنة في مشاهد لا يمارسها الرجال مع نسائهم إلا في الخلوات".(٤) وجدير بالذكر أنّ "دينون" وهو مؤلف قصة قصيرة عابثة تحت عنوان "غدٌ لا يأتي" ولا يدخل في عداد المتزمتين، لم يستأ إذن من الجانب الشهواني في العروض، ولكنه سجل اعتراضه على الأسلوب الفاضح لتلك العروض العامة التي انتشرت في مصر. وربما وقع "دينون" تحت تأثير صدمة إذ إنه يسجل في مذكراته مشاركة الرجال في أداء علني له طابع الشذوذ الجنسي. ويقول "ميليه" الضابط بقوة الطلائع إنّ المصريين لا يستحون؛ فالمسلم الحق لا يُمانع أن تشاهد أسرته أكثر الرقصات والعروض خلاعة.(٥) علت حمرة الخجل وجوه العابثين الباريسيين الذين يعشقون الحياة وهم يشاهدون عروضًا راقصة منها هز الأفخاذ ممن يُظن أنهم مصريون مسلمون محافظون. وفي الوقت ذاته فإنّ المؤرخ المصري الجبرتي عبر عن رؤية ناقدة للسلوك الجنسي لرجال فرنسا ونسائها.

وما إن حل المساء حتى جاءت الجماعة التي لم تنل رضا "برنوييه" وهم الدراويش أو رجال الطرق الصوفية يرتدون خرقا مهلهلة ويطلقون شعورهم. ويصفهم "مالوس" قائلاً: "إنهم قديسو البلاد، يعيشون حياتهم في حالة نشوة دائمة، ويسمح لهم بما لا يسمح لغيرهم، ومنهم من يطوفون الطرقات عراة مثل القردة

طوال العام، يتعيشون من الصدقات وحدها". ويقول "فييه دي تيراج" Villiers du Terrgac فيهم إنهم "أشبه ما يكونون بالمجانين وهم يلقون احترامًا بالغا ويـرُخص لهم بفعل كل ما يريدون، ويُنظر إلى الإهانات التي تصدر عنهم بمثابة تكريم حتى من قبل النساء اللاتي تسلمن أنفسهن إليهم". ويصف "ديترواي" فيقول إنَّ المريـدين تحلقوا حولهم وتزاحموا ثم تشابكت أذرعهم وبدءوا يتحركون على نحو عنيف، كل رجل على حدة والرجال جميعهم في الدائرة، ويتمايلون يمنةً ويسرى، وبـدا أنهـم يبذلون جهدًا كبيرًا. وظل الجمع يواصلون حركاتهم معًا حتى بلغ مـنهم الإجهـاد مبلغه". وقد قيل إنَّ هناك في بعض الأحيان مريدين يتوفون وهم قيام. إن الحركـة الجماعية والإنشاد الديني يرقى بالصوفيين، كما يتصورون، إلى مراتب عليا مـن السمو يصل بهم إلى الشعور بالتوحد مع خالقهم.

وفي صباح ذلك اليوم، أصدر "بونابرت" أوامره بتقدم مـسيرة مهيبـة مـن قوات الحامية احتفالاً باليوم العظيم، فامتزجت نغمات الفرقة العسكرية المـصاحبة للجنود بالأناشيد التى يتغنى بها المسلمون. ويعلق "ديتـروي" سـاخرًا أنَّ رجـال المدفعية الفرنسيين يحيون محمدًا. مَثُل كبار الضباط الفرنسيين أمام الـشيخ سـيد خليل البكري وهو أحد الشيوخ البارزين، وفي حـضور أعـضاء الـديوان قـام "بونابرت" بإهداء الشيخ معطفا من الفراء الثمين وخلع عليه لقب: "نقيب الأشراف"، أي زعيم جماعة يتتبع أعضاؤها أصولهم إلى الرسول، وقد منحَ الشيخ البكري هذا اللقب بعد سفر حامله السابق الشيخ عمر مكرم إلـى سـوريا. ويقـوم الأشـراف المزعومون الذين ينتسبون إلى طبقة اجتماعية تحظى بالتكريم، برئاسة مظاهر هذا الاحتفال بالمولد النبوي. كما أصدر "بونابرت" أوامره بأن يرفـع المـصريون أي خلاف ينشأ بينهم وبين أعضاء نقابة الأشراف أمام الشيخ البكري ليفصل فيه. نجـد في كل ما أقدم عليه "بونابرت" من خطوات حرصه على القيـام بـدور الـسلطان

المسلم، فهو يُكرِّم سلالة النبي من الأشراف، وهم يتعهدون له بالحفاظ على الوضع القائم ويتوسطون بما لهم من مكانة دينية بين الحاكم والمحكومين. غير أنَّ تلك المحاولة لكسب الشرعية من خلال سلالة النبي لم تحظ بالنجاح الكامل. يقول المؤرخ المسيحي السوري نيقولا ترك الذي سجل تاريخ الاحتلال الفرنسي إنَّ الشيخ خليل البكري كان يحمل المودة للجمهورية الفرنسية، ولذلك فقد كرهه المصريون المسلمون. غير أنَّ الشيخ البكري، الذي كان طموحًا يرفل في الثراء ويتحصن بمكانته بوصفه سليل بيت النبوة وبعلو قدره بين الشيوخ، صمد في وجه عاصفة الاحتقار التي أثارها الناس ضده.

ويذكر الكابتن "ساي" الذي طالما انتقد مغازلة "بونابرت" للإسلام أن القائد الأعلى ظهر في يوم المولد النبوي متدثرًا بعباءة شرقية وأعلن نفسه حامي حمى الأديان كلها. انتشرت الحماسة بين الناس الذين أجمعوا على تسميته باسم زوج ابنة النبي، وصاروا ينادونه باسم "علي بونابرت"[٦]. ويعد المسلمون من السنة عليًا بن أبي طالب، وهو ابن عم الرسول وزوج ابنته، الخليفة الراشد الرابع، أي خليفة رسول الله. وإذا كان المصريون خلعوا على "بونابرت" الكورسيكي ذلك الاسم فقد عدوا الأمر مزحة تثير الفكاهة. ويقول "بوريين" الذي ساءه ما رآه من نفاق القائد الأعلى القائم على استغلال الدين مما أفقده الاحترام أنه لن يرتدي ملابس المصريين أبدًا إذ يتملكه شعور بعدم الارتياح حين يرتديها.

وفي تلك الليلة، أقام الشيخ حفلا عظيمًا لـ "بونابرت" في بيته، حيث اجتمع مائة من كبار شيوخ الأزهر وقد افترشوا الأرض حول عشرين منضدة منخفضة وشرع واحد منهم في رواية سيرة النبي بنغمة وجدها الفرنسيون مملة. أعدت للفرنسيين موائد وقدمت لهم أدوات مائدة وصحافا فضية بل قنينة نبيذ معتق، ثم مدت الموائد بالمشويات والمقبلات والأرز والعجائن وكلها مطهوة بالتوابل. ويقول

"ديزفرنواه" إنّ العرب يأكلون بأصابعهم غير أنه للأمانة يسجل أنهم يغسلون أياديهم ثلاثًا أثناء تناول الطعام. ولا يصعب تخيل ما دار من حديث على موائد الطعـــام. يقول "ديزفرنواه" إنّ "بونابرت" تحدث مرارًا مع شيوخ الأزهر ساعيًا إلى التعـــرف على حاجات البلاد والوسائل التي يتحقق بها رخاؤها. وفي بعض الأحيـــان يـــصل الأمر إلى مغازلة مشاعرهم الدينية إذ يصور لهم "بونابرت" مدى استعداد الجـــيش الجمهوري لاعتناق الإسلام في القريب العاجل. ويقول ضابط آخر إنّ القائد الأعلى لم يدخر وسعًا لإقناع المصريين بما يكنه الجيش الفرنـــسي مـــن تـــوقير عظـــيم للرسول. أما الجنود فقد التزموا الأدب في ما يقولون، ولكنهم ما إن عـــادوا إلـــى ثكناتهم حتى ضجوا بالضحك لما رأوه من تلك المهزلة.(٧)

ويتذكر "بونابرت" لاحقا في منفاه بـــ"سانت هيلانة" الأيـــام العـــصيبة التـــي عاصرها في أغسطس من ذلك العام.(٨) كان الفرنسيون يواجهون مصيرًا غامـــضًا فلم يلقوا قبولا من المؤمنين لأنّ هؤلاء فاجأتهم الأحداث المتلاحقة فخضعوا للقـــوة، غير أنهم ما لبثوا أن أعلنوا استياءهم لما أحرزه الكفار مـــن نـــصر ولمـــا جلبـــه وجودهم من نجس طال مياه النيل المباركة، ثم علت شكواهم لما لحق بمصر وهي البوابة الأولى للكعبة المشرفة من خزي وعار. وشرع أئمة المـــساجد فـــي تـــلاوة الآيات التي تحض على جهاد الكفار، ووُصفت مياه النيل من وجهة نظر إســـلامية بالمباركة وعُزي ما لحق بها من نجاسة إلى الغزو الفرنسي الكافر. أضف إلى ذلك أنّ مصر تتولى حماية الكعبة التي يطوف حولها المسلمون، ويتـــذكر "بونـــابرت" غضب المصريين لأن مفتاح الكعبة نفسها صار في حوزة غير المسلمين.

أدرك "بونابرت" تمام الإدراك أنّ المصريين المسلمين من المثقفـــين كافـــة يستدعون الحروب الصليبية التي دارت رحاها في القرون الوسطى بوصفها سابقة تفسر الغزو الفرنسي، كما أدرك أنّ رؤية المصريين للفرنسيين بوصفهم صليبيين،

يمثلون بصفة خاصة سعي العالم المسيحي للسيطرة على الشرق الأدنى، لن تؤدي بهم إلى الرضا عن الحكم الفرنسي. ويستعيد "بونابرت" كلمات الكونت "فولني" Count of Volney الذي جاء إلى مصر وسجل رأيًا في عام ١٧٨٨ مؤداه أنَّ من يغزو مصر مضطر إلى شن حرب على ثلاث جبهات: الجبهة الأولى ضد البريطانيين، والثانية ضد الإمبراطورية العثمانية، والثالثة – وهي الجبهة الأكثر صعوبة – ضد أهل مصر من المسلمين. ولم يقصد "فولني" أن يتقدم بهذه الرؤية تمهيدًا لغزو مصر ولكن "بونابرت" رأى في ما قاله تحديًا. ففي اليوم الثلاثين من يوليو كتب "بونابرت" إلى الجنرال "كليبر" في الإسكندرية يطلب منه تأسيس ديوان محلي يضم الموالين للفرنسيين. وقد سبق لـ"بونابرت" أن أصدر تحذيرًا من الخطر الناشئ عن انتشار مخاوف المصريين إن رأوا في مقدم الفرنسيين الروح التي حركت حملة القديس لويس (لويس التاسع)، وفي سلوكهم ما يدل على أنهم في دولة مسيحية.[٩] إنَّ حملة القديس لويس لاقت فشلاً حتى في إطار دوافعها، ولا شك أنَّ تصور المصريين لحملة "بونابرت" بوصفها حملة صليبية كفيلٌ بإسقاط مشروعه بأكمله. ولذلك فإنَّ "بونابرت" أخذ يباعد بينه وبين المسيحية بكل ما أوتي من سرعة.

أمل "بونابرت" في إقناع أئمة المساجد أن يدعوا له في صلاة الجمعة على منابر المساجد، وقد جرت العادة في مصر حينذاك أن يدعو الأئمة للسلطان العثماني سليم الثالث، ولكن القائد الأعلى رغب في أن يُمنح الشرعية الإسلامية التي يضفيها هذا التكريم. وبالطبع فإنَّ عقد الأمل على قيام الأئمة بالدعاء لحاكم أوروبي مسيحي ضربٌ من الحمق. وظل القائد الأعلى طوال الصيف يجادل شيوخ الأزهر كلما التقى بهم، فهو يرى أنهم مقصرون كل التقصير في وضع حد للإثارة المحمومة التي يقودها هؤلاء الدعاة، وأراد منهم إصدار فتوى تدعو إلى طاعة

الدولة الجديدة. يقول "بونابرت" إنّ وجوه الشيوخ علاها الشحوب وبدا عليهم التوتر والقلق، ثم تقدم الشيخ الشرقاوي آخر الأمر للرد عليه فقال له: إنك تطلب حماية النبي وهو يحبك، وترغب أن يسير المسلمون في ألويتك، وتأمل في إعادة أمجاد بلاد العرب، وإنك لست بعابد أوثان، فلتعلن إسلامك! إن مائة ألف مصري ومائة ألف آخرين من بلاد العرب ومن مكة والمدينة سيصطفون خلفك، فإن دربتهم ونظمت صفوفهم حسبما ترى فإنهم سيقهرون الشرق كله تحت إمرتك، فتعيد بذلك مجد موطن الرسول.[١٠] ويقول "بونابرت" إنه في تلك اللحظة تلألأت وجوه الشيوخ المتغضنة بالبشر وانطرحوا جميعًا أرضًا ساجدين داعين الله أن يشملهم برعايته.

ولعل ما دعا الشرقاوي "بونابرت" إليه من التحول إلى دين الإسلام أمرٌ معقول، غير أنه ليس من المعقول أن يتحدث إليه على أساس من مصطلحات، مثل: "العروبة" و"القومية" و"الموطن"، قبل أن تبرز تلك المفاهيم إلى حيز الوجود بين المتحدثين بالعربية، والأمر لا يعدو أنّ الكورسيكي أضفى على حديث الشرقاوي ما يعرفه من نظم أوروبية. وغاية الأمر أنّ الشرقاوي رأى في تحول "بونابرت" إلى الإسلام الطريق إلى رفعة شأن العالم الإسلامي، ولعل الأمل قد راوده في إسلام "بونابرت" الذي سيبادر بسداد الضرائب المستحقة إلى الباب العالي ويطلب إلى السلطان العثماني تثبيته واليًا على مصر. فمن وجهة النظر المصرية لا يعد مثل هذا التصور غريبًا؛ فكثير من البكوات الذين حكموا مصر ولدوا على الديانة المسيحية في بلاد القوقاز، وقد درج السلطان على منحهم اعترافًا بأثر رجعي متى أمسكوا بزمام السلطة بين أيديهم.

وقد تدبر القائد الأعلى ذلك الأمر جديًا ولو على نحو شكلي على الرغم من إنكاره اللاحق. يقول "بونابرت" في رده على الشيخ الشرقاوي: إنّ هناك عقبتين

تحولان دون تحوله وجنوده إلى الإسلام، الأولى الختان، والثانية الخمر؛ فلن أتمكن أبدًا من إقناعهم بالتخلي عنها فقد اعتادوها منذ الصغر. ويروي "بونابرت" أنَّ الشيخ محمد المهدي، الذي تحول من المسيحية إلى الإسلام ليتلقى العلم في الأزهر، اقترح أن يجتمع ستون شيخًا لمناقشة الأمر علنا وتدارسه. ويضيف "بونابرت" أنَّ شائعة انتشرت في البلاد مفادها أنَّ الشيوخ تلقن السلطان العظيم مبادئ الإسلام. وجدير بالذكر أنَّ "بونابرت" معروف بصفة سخيفة تجعله يصدق ما يردد من دعايات كاذبة، أو على الأقل يمضي في ترديدها، حتى بعد أن يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنها غير معقولة. إنَّ وصفه للمسلمين المصريين الذين تلقوا بالبشر والسرور خبر انكباب الجنرال الكافر على حفظ القرآن عن ظهر قلب يتعارض تمامًا مع ما نعرف عن العدواة العميقة التي يكنها المسلمون المصريون لحكامهم الجدد. بدا وكأن "بونابرت" واثق من الفائدة التي ستعود على قضيته من إجراء النقاش العلني حول ما إذا كان الفرنسيون سيتحولون إلى الإسلام. ويقول "بونابرت"، وقد استمرأ كذبته، إن أربعة من فقهاء المسلمين أصدروا فتوى بعد شهر أسقطوا فيها شرط الختان إذ إنه حسب قولهم ليس فرضًا إسلاميًا، كما أضاف أنهم أفتوا أيضًا أن شاربي الخمر من غير المسلمين يجوز أن يصبحوا مسلمين، غير أنَّ مصيرهم سيكون جهنم إذا واصلوا شربها بعد إسلامهم. وقد أعلن القائد الأعلى عن سعادته لتخطي العقبة الأولى ولكنه أبدى انزعاجًا مما جاء بالفتوى بشأن شرب الخمر فلم ير فيها ما يشجع على اعتناق الإسلام. وقد رأى الشيخ المهدي أن يُعلن الجزء الأول من الفتوى على أي حال لما سيتركه من أثر طيب بين المصريين. ويضيف أن شيوخ الأزهر عادوا إلى مناقشة الأمر الثاني وأرسلوا المكاتبات إلى زملائهم بمكة. وأخيرا، اتفق العلماء على جواز شرب الخمر لمن تحول من دينه إلى دين الإسلام شريطة أن يُعاقب بغرامة يدفعها. وتحيط الشكوك

برواية "بونابرت"، وعلى الرغم من أن الفتوى الثانية قصد بها أن تحل المشكلة، فإن الموضوع برمته أُسقط منذ ذلك الحين. ومن الواضح أنَّ "بونابرت" لم يوفق في إقناع شيوخ الأزهر بمنحه إعلانا شكليًا يفيد تحوله إلى الإسلام.

وعلى الرغم من أنَّ "بونابرت"، وكذلك "بوريين" الذي نصب نفسه مدافعًا عنه، قدَّما لروايتهما بالقول إنَّ "بونابرت" لم يعتنق الإسلام قط، ولم يدخل مسجدًا ولا أقام صلاة، فإنَّ ما قالاه لا قيمة له. إذ إنه من الواضح الجلي أنَّ "بونابرت" سعى إلى إعلان الفرنسيين أصحاب المنهج الديني العقلاني مسلمين لأغراض سياسية. وتتفق تلك السياسة مع ما جاء في إعلانه الأول لأهل مصر، ذلك الذي جاء فيه أنَّ الجيش الفرنسي لا يدين بدين بعينه ويرفض التثليث، وهو بذلك يؤمن بشكل من أشكال من الإسلام. وبالطبع فإنَّ الشرعية، لا الإسلام، هي ما كانت تعني "بونابرت"؛ فبدون الشرعية لا يمكن للفرنسيين أن يأملوا في حكم مصر على المدى البعيد، فإذا ما أقر لهم بأنهم من المسلمين فإنهم بذلك يسلكون أقصر الطرق للحكم وفي ذلك ما يُرضي "بونابرت". لكن تلك الخطة تحطمت على صخرة تمسك الأزهريين بأصول الدين.

غير أنَّ إعجاب "بونابرت" بالرسول كان حقا، وقد سجل في مذكراته أنَّ بلاد العرب انتشرت بها عبادة الأوثان حتى ظهر محمدٌ بعد سبعة قرون من ميلاد السيد المسيح فهدى الناس إلى دين إله إبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى. انتقد الكورسيكي حروب العقيدة التي سالت فيها الدماء في تاريخ المسيحية الأول وما صحبها من خلاف حول طبيعة الأب والابن والروح القدس. ويضيف بنبرة إعجاب أنَّ محمدًا أعلن أنَّ الله واحدٌ لا شريك له، وأنه لم يلد ولم يولد، وأنَّ التثليث مفهومٌ منقولٌ عن الوثنية، غير أنه تطوع لتفسير الملذات الحسية للجنة كما وردت في القرآن فأرجعها لفقر العرب وجهلهم في ذلك الزمان، إذ لم يتمتعوا بترف حياة

التأمل التي قدر للأثينيين أن يعيشوها، فكان لزامًا على محمد أن يَعِدَ تابعيه الذين يعانون شظف العيش بالجنات التي سيخلدون فيها تحت ظلال الأشجار وبالحور العين من ذوات البشرة البيضاء والعيون السوداء. نظر "بونابرت" إلى المسلمين الأوائل بوصفهم بدوًا أثارتهم تلك الآمال فأضحوا أبطالاً. إنَّ محمدًا أميرٌ جمَّع أصحابه حوله، وقهر من أسلموا على يديه نصف العالم في سنين قليلة. كما يرى "بونابرت" أنَّ محمدًا أنقذ أرواح الناس من آلهة زائفة وأسقط هذه الآلهة، وأزال في خلال خمسة عشر عامًا معابد لأوثان يفوق عددها ما دمَّره أتباع موسى وعيسى مجتمعين في خمسة عشر قرنا.

***

لم يتوقف "بونابرت" عن محاولاته لاستخدام أساليب البلاغة الإسلامية بوصفها جزءًا من إستراتيجيته لحكم مصر؛ فما كادت تمضي أيامٌ على الاحتفال بمولد النبي في الثامن والعشرين من أغسطس حتى كتب خطابًا إلى واحد من أبرز شيوخ الإسكندرية هو الشيخ المسيري، وكان قد التقى به حين فرض الفرنسيون سيطرتهم على المدينة، وثبت لاحقا أنَّ الشيخ أبدى تعاونا مع "كليبر" فشغل منصب رئيس الديوان بالإسكندرية. يقول "بونابرت" في خطابه: "إنك تعلم التقدير الذي أكنه لك منذ التقينا للمرة الأولى"، ويعبر عن أمله في أن يلتقي به وبعلماء البلاد وحكمائهم قريبًا وذلك لوضع أسس نظام موحَّد قائم على مبادئ القرآن الكريم وهي وحدها المبادئ الحقة التي تضمن دون غيرها خير البشرية.(١١) ويُفهم من ذلك أنَّ "بونابرت" قصد إلى إتاحة الفرصة للمسيري كي يتقلد منصبًا عامًا يسمح له بالتأثير في مجريات الأمور وكذلك إلى الإعلان عن وعد يقضي بإقامة حكم الشرع بمصر. وهو التفسير الذي يَرِدُ على أقل تقدير في ذهن علماء الدين المسلمين للحكم

بما يقضي به القرآن. وجدير بالذكر أنَّ الإمبراطورية العثمانية نفسها لم تلتزم دائمًا بتطبيق الشريعة كما يفسرها الفقهاء.

لجأ "بونابرت" إلى القرآن الكريم يحتمي به وإلى علماء الدين يستعين بهم في تنفيذ مخططه؛ إذ وجد نفسه في عزلة عن وطنه بسبب الحصار البريطاني، وفي مواجهة أهالي مصر الذين يحملون عداءً شديدًا له ولثورات تنتشر يقوم بها البدو وأهل الحضر. وهكذا، شرع اليعاقبة الفرنسيون الذين حولوا كنيسة "نوتردام" إلى عبادة العقل، والذين غزوا "الفاتيكان" وأخضعوه، في إقامة أول جمهورية إسلامية حديثة عرفها العالم في مصر.

وفي منتصف أغسطس، كتب "بونابرت" إلى شريف مكة غالب بن مسعد الهاشمي يُعلنه بوصوله إلى القاهرة ويعلمه بالإجراءات التي اتخذها للحفاظ على الأموال المخصصة للحرمين الشريفين في مكة والمدينة.(١٢) وكان شيوخ الأزهر قد أطلعوا "بونابرت" على ما بمصر من أراض زراعية يوقف دخلها من المحاصيل على الإنفاق على الحرمين؛ فسعى "بونابرت" إلى شرعية إسلامية تسمح له بأن يحل محل السلطان سليم الثالث الذي يوفر احتياجات الأراضي المقدسة من الغذاء. ولم يفت "بونابرت" أن يشير في خطابه إلى شريف مكة أنه يبسط حمايته على الأئمة والأشراف والفقهاء جميعهم. كما أبلغه بقراره تعيين مصطفى بك، وهو نائب الوالي العثماني السابق أميرًا للحج، ووعد بتزويد قوافل الحجيج بالقوات اللازمة لحمايتهم من غارات البدو. وعرض جنودًا من الفرنسيين أو المصريين يشاركون في تلك القوات. أما غالب فقد شُغِل بمواجهة تحديات الوهابيين من نجد، كما رأى أنَّ العثمانيين لم يتقدموا لمساندته في صراعه معهم. لذلك فقد أبدى استعدادًا لإقامة علاقات طيبة مع الفرنسيين وخصوصًا أنَّ اقتصاد الحجاز في غرب شبه جزيرة العرب، حيث الحرمين الشريفين، يعتمد على مصر اعتمادًا كبيرًا لما تدره عليه من

محاصيل الأوقاف، وللعلاقات التجارية التي تواكب وصول قوافل الحجيج منها، فضلاً عن تجارة البن. اتخذ "بونابرت" إذن موقف حامي حمى هذا الإقليم بضمان اقتصاده، وبالتالي صار الداعم الرئيسي لفريضة الحج.

وفيما يبدو فإنّ "بونابرت" عيّن سرًا مصطفى بك أميرًا للحج، وهو كما ذكر سابقًا نائب الوالي العثماني السابق الذي فر مع إبراهيم بك إلى سوريا. وفي الثاني من سبتمبر أقام "بونابرت" رسميًا حفل تنصيب خلع فيه على مصطفى بك عباءة خضراء في حضرة أعضاء الديوان وشيوخ الأزهر، كما قلده درعًا مرصعًا بالماس وأهداه جوادًا مطهمًا.[١٣] وانطلق أمير الحج بعد تنصيبه من القلعة يصحبه مساعدوه وأطلقت المدفعية ست طلقات تحية له. كانت رحلة الحج السنوية مصدرًا كبيرًا لثروة مصر التجارية وقد رغب "بونابرت" في دعمها، واعتمدت تلك التجارة على نقل الثوم والبن والأقمشة والزيوت والدهانات والحناء بين شمال أفريقيا والبحر الأحمر. وكان تعيين أمير الحج حقا يختص به الوالي العثماني، ولذلك فإنّ استحواذ "بونابرت" على هذا الحق يدل على سعيه للحصول على الشرعية الإسلامية الرسمية.

طلب السلطان العظيم ("بونابرت") من شيوخ الأزهر كتابة خطاب إلى شريف مكة بهذه المناسبة، ورد فيه على لسانهم أنهم تلقوا تأكيدات من "بونابرت" باعترافه بوحدانية الله، وتوقير الفرنسيين للرسول والقرآن، وأنهم يعدون الإسلام أفضل الأديان. ومما يثبت حبهم للإسلام أنهم حرروا المسلمين الأسرى في مالطة، وأنهم دمروا الكنائس وكسروا الصلبان في مدينة البندقية، وأنهم طاردوا البابا الذي يصدر أوامره للمسيحيين بقتل المسلمين ويعد ذلك واجبًا يمليه الدين. أرسل "بونابرت" نسخة من ذلك الخطاب إلى "كليبر" لطباعة ستمائة نسخة منه، يُرسل أربعمائة منها إلى شبه جزيرة العرب.[١٤]

ولا نعلم ما إذا كانت أخبار تدمير الفرنسيين للكنائس والصلبان قد أدخلت الطمأنينة على نفوس أشراف مكة؛ إذ يرى المسلمون حسب شريعتهم أنَّ المسيحيين من أهل الكتاب، فهم إخوان لهم في ديانة التوحيد يدينون بدين له شرعيته. ويعد موقف المسلمين الذين سمحوا لأتباع الديانات الأخرى بممارسة شعائرهم بين ظهرانيهم مخالفا للمعتاد؛ ففي أوروبا الكاثوليكية أثناء عهد محاكم التفتيش لم يسمح لمسلم بسكنى البلاد، وفي إسبانيا أُجبر مئات الآلاف من المسلمين على اعتناق الكاثوليكية بعد استعادة الإسبان للبلاد في العقد الأخير من القرن الخامس عشر، ومضت قرون بعد ذلك حُرِّم على اليهود فيها العيش في إسبانيا. أما في البلدان الإسلامية فإنَّ اليهود والمسيحيين سمح لهم بالاستقرار وممارسة شعائرهم ما داموا يسددون مبلغا من المال على سبيل الجزية ويظهرون الولاء للدولة وإن فرضت عليهم بعض القيود. وبالطبع شهد التاريخ وقوع اعتداءات على تلك الأقلية من قبل حكام أو شيوخ ظالمين ومتعصبين، ولكن تلك الأحداث لم تمثل القاعدة؛ مما يؤكد التناقض الصارخ مع ما جرى في أوروبا في القرون الوسطى وبدايات العصر الحديث.

إنَّ ما ورد على لسان شيوخ الأزهر، بإيعاز من بونابرت، لا يرقى إلى التسامح المعتاد في الشريعة الإسلامية، وقد أثارت سياسة "بونابرت" الإسلامية جدلاً حامي الوطيس بين ضباط الجيش الفرنسي وجنوده ولم يخشَ بعض الضباط من إعلان استنكارهم لما تضمنته تلك السياسة من نفاق. وقد كتب الجنرال "ديبوي" خطابًا إلى أحد التجار بمدينة "تولوز" جاء فيه ما يلي: إننا نحتفل هنا بكل الحماسة بأعياد محمد، ونخدع المصريين بما ندعيه من رابطة تربطنا بدينهم الذي لا يؤمن به "بونابرت" ولا أي منا مثلما لا نؤمن بعقيدة البابا "بيوس" المخلوع.(١٥)تكشف الإشارة التي تخلو من الاحترام إلى البابا والكاثوليكية الرومانية عن تيار قوي معادي لرجال الدين وتؤكد توجهًا إلى العلمانية المتطرفة. غير أنَّ المواقف

الفرنسية خالفت العقل، فلم تنتج في مصر احتقارًا لدين غريب بل أسست لادعاء احترام الإسلام بوصفه وسيلة لخداع أهل مصر. وقد استندت تلك المواقف إلى حسابات دقيقة ونزعة لا ترى الخير في القيم الإنسانية. ويمضي "ديبوي" في خطابه قائلاً: "لن تصدقني إن أكدت لك أننا أضحينا في حماسة أكثر المتعصبين الدينين غلوًا، بل وصل بنا الأمر إلى المشهد التمثيلي الثالث الذي قمنا به، فاستقبال قوافل الحجيج القادمين من مكة أمر خطير الشأن، ولن تملك إلا الابتسام لو كنت قد شاهدت معي جنودنا وهم يعزفون الموسيقى في مقدمة ركب الحجاج". ويكشف لنا "ديبوي" أنَّ "بونابرت" أصدر أوامره للتحضير لاستقبال الحجاج الذين عادوا وما زال تراب مكة الطاهر يغطي أجسامهم، استقبالا فرنسيا مهيبًا يدل على التقوى والورع.

كان شهران قد مضيا على الاحتفال بالمولد النبوي حين سجل الكابتن "مواريه" في مذكراته أنَّ مبالغ مالية قد دفعت للعرافين كي يعلنوا أن "بونابرت" جاء في مهمة ربانية لقهر أعداء الإسلام وقد ورد ذكر تلك المهمة فيما لا يقل عن عشرين آية من آيات القرآن الكريم.(١٦) كما تنبأ هؤلاء بأنَّ السلطان الفرنسي سيخضع للختان قريبًا ويعتمر عمامة، ويتبع دين محمد ومن بعده جميع أفراد جيشه. ويضيف "مواريه" أنَّ "أهل السياسة" في القوات الفرنسية رأوا في الخطاب الإيجابي حول الإسلام ورفع توقعات أهل مصر ضرورة لضمان أمن الجيش الفرنسي. وأشار هؤلاء إلى الممارسات الرومانية التي كانت تتجنب دومًا إحداث أي تغيير في عادات الشعوب المقهورة أو أخلاقها أو قوانينها أو دياناتها. فبدلا من إرغامهم على عبادة آلهة روما فإنَّ آلهة الإغريق وقرطاجنة كانت تنصب لهم لعبادتها. ويزعم "مواريه" أنَّ هذا الرأي قوبل بالترحاب من جانب الجيش وحظي بتبني "بونابرت" نفسه له.

يقول "موريه" ساخرًا إنَّ الجنود الفرنسيين ما كانوا ليمانعوا في الفوز بالجنة التي وُعد بها المسلمون، في إشارة عابثة إلى ما ورد في القرآن من وعد بالأبكار أو الحور العين اللاتي يصاحبن رجال الجنة. ويضيف أنَّ الفرنسيين كانوا سيطمحون إلى سكنى تلك الجنة لو أتيح لهم اعتناق الإسلام وقد مُنحوا إعفاءً من الختان وتحريم الخمور. وقد سبق ل"مواريه" فور وصوله إلى القاهرة أن عبر عن شكوى مريرة من عدم شرب المصريين للخمور لأن مشرعهم الرسول محمد حرَّمها عليهم، كما أقر بأنَّه ليس من المحتمل أن يحصل الفرنسيون على رخصة لشرب الخمر إن اعتنقوا الإسلام. ويقول "موريه" إنَّ أبناء عصر التنوير من العقلانيين انقسموا بين غاضب وساخر من التوقعات التي ترد عن تحول "بونابرت" إلى الإسلام. وكانت حجتهم أنهم لم يسقطوا الخرافات في أوروبا كي يتبنوا غيرها في المشرق، وأنه لا يحق لأحد أن يتحدث إلى الناس بغير الحق.(١٧) رأى "مواريه" في هؤلاء العلمانيين المتطرفين أقلية لا تتمتع بدعم كبير بين الجنود الفرنسيين الذين فضلوا وثنية "بونابرت" البراجماتية التي تتبع النموذج الروماني.

أما "برنوييه" المسئول المدني بالجيش، فقد كتب خطابات غاضبة لأهله في فرنسا عن الإسلام، وفي أحدها شن هجومًا عنيفا على علماء المسلمين الذين دعاهم بالمدلسين واتهمهم بالضغط على المسلمين ليؤمنوا بسخافات منها أنهم، أي العلماء، وكلاء الخالق وموضع سره. ويقول "برنوييه" إنهم لا يثيرون دهشته، ولكن ما يصعب عليه تصديقه هو وجود من يصدقهم من البلهاء. ويروي "برنوييه" إنه حين رأى الحجيج يعودون إلى القاهرة من مكة وهم حشود ينتمون إلى أمم وأعراق مختلفة، انتابته رغبة في أن يصرخ في وجوههم معلنا حقائق التنوير، وأنه ليس هناك إله يقوم بالتدخل في مسار التاريخ، غير أنه اختتم روايته بقوله: ولكن ما الفائدة؟

***

أثارت سياسة "بونابرت" الإسلامية مناظرات فكرية تتسم بالحيوية، ولكن الفرنسيين الذين أقاموا علاقات شخصية حميمة مع المصريين من حولهم انكشفت لهم معاني عميقة عند احتكاكهم بالإسلام. وتعد حالة الجنرال "جاك مينو" هي الأبرز في سياق الاقتناع الكامل بما جاء في خطاب القائد الأعلى من إظهار الود للإسلام، وهي حالة تتعلق بها أحداث جديرة بالرواية.

إنّ وجود القوات الفرنسية في بلدات الدلتا أدى إلى اضطراب كبير في الترتيبات الاجتماعية المعتادة في المجتمع المصري. فقد اعتادت نساء الطبقى الوسطى في رشيد، على سبيل المثال، قبل حلول الفرنسيين بينهم أن يخرجن من بيوتهن أثناء النهار ليجتمعن في الحمامات العامة، فلم يكن تقليد حجب النساء في بيوتهن يمارس عادة إلا في عائلات الأتراك المتمصرين الثرية، وندرت ممارسة هذا التقليد في الطبقتين الوسطى والوسطى الدنيا. فحجب النساء كان يُعد علامة على ثراء رب البيت الذي يسمح له باستخدام من يقمن بحاجات البيت ويشغلن جانبًا من الحرملك بقصره. كذلك أقام الأغنياء حمامات في دورهم، فلم تضطر نساؤهن إلى الخروج إلى الحمامات العامة. أما وقد بدأ انتشار القوات الفرنسية في شوارع المدينة فإنّ الأزواج المصريين، كما يروي لنا "نيبللو سارجي"، منعوا زوجاتهم من الخروج. اجتمعت النساء وأرسلن وفدًا منهن إلى "مينو" حاكم رشيد يطالبنه باتخاذ إجراءات تسمح لهن باستعادة حقهن في حرية الحركة، ولعلهن قصدن إلى أن يحكم "مينو" السيطرة على القوات المرابطة حول الحمامات. وقد قدمن اثنتين من أجمل نساء رشيد لتتحدثان باسمهن جميعًا. كانت زبيدة ابنة مالك الحمام العام بالمدينة إحدى هاتين المرأتين، وكان لأبيها مصلحة اقتصادية في رفع الحظر غير الرسمي على حركة الزوجات. استجاب "مينو" لمطلب نسوة رشيد وأصدر قرارًا يفيد بأنّ النساء محل احترام الفرنسيين، ودعا رؤساء العشائر

والعلماء للسماح لهن بحرية الحركة في المدينة مثلما كان الحال سابقا. ويبدو أنَّ "مينو" رأى من زبيدة ما جعله يهيم بها فبادر بخطبتها، ولا بد أنَّ أباها محمد علي البواب أخطره بضرورة اعتناقه الإسلام إن رغب في الزواج منها؛ لأن الشريعة الإسلامية تسمح للرجال بالزواج من غير المسلمات من أهل الكتاب، ولكن النساء لا يُسمح لهن بالزواج إلا برجال مسلمين. وجدير بالذكر أنَّ عائلة البواب ترجع أصولها من طرفي الأب والأم إلى بيت النبوة، فهم من الأشراف الذين لا يتهاونون في مثل تلك الأمور. اعتنق "مينو" إذن الإسلام واتخذ اسم "عبد الله" وفي ربيع عام ١٧٩٩ تم زواجه على زبيدة ابنة مالك الحمام العام ومطلقة سليم أغا نعمة الله.

تواترت تعليقات "بونابرت" عن بعد أفراد جيشه عن التدين، ولكن الواقع يشير إلى وجود كثير من المتدينين بين صفوفهم أربكتهم سياسات الثورة الفرنسية المعادية للنظام الكنسي، وعانوا صدمة حضارية في الشرق الأوسط، بعض هؤلاء اعتنقوا الإسلام لما لمسوه فيه من مرجعية تؤسس لحس تقي فضلاً عن كونه الرابطة التي تصلهم بوطنهم الجديد. وجَّه "مينو" خطابًا في أكتوبر إلى الجنرال "مارمون" بشأن اقتراح إداري قدمه الجنرال إليه جاء فيه: إنك رجل لا نظير لك يا عزيزي الجنرال، وإنني أدعو الله ورسوله وكل أوليائه الذين يسكنون جناته ويذكرْهم القرآن أن يُوضع اقتراحك موضع التنفيذ".[١٩] شغل "مينو" منصب رئيس جهاز أمن الجمهورية في باريس في سبتمبر من عام ١٧٩٥ في زمن المؤامرة الملكية. ولم ير السياسيون الذين تزايدت مخاوفهم في شخصه الحزم الكافي فأبعدوه وأتوا بـ"بارا" **Barras** و"بونابرت". وبعد نحو ثلاث سنوات إذا به يصير حاكمًا لرشيد يدين بالإسلام. ولعل استخدام ضابط فرنسي في مصر لكلمات كاثوليكية ورعة في قالب إسلامي لم يكن ليخطر على بال اليعاقبة في حكومة الإدارة والمجلس التشريعي الذي حث على غزو مصر.

بادئ ذي بدء يجدر القول إنَّ "مينو" تفرد في استعداده لاعتناق الإسلام كي يعقد زواجه في مصر؛ إذ إنَّ معظم الضباط الفرنسيين اكتفوا باتخاذ عشيقات من المصريات. ومع ذلك فإنَّ بعضهم عانى مشكلات شبيهة بتلك التي عانى منها "مينو". يسجل "مواريه" بعد شهور من زواج "مينو" من زبيدة أنه أقام علاقة غير شرعية مع أرملة تدعى زليمة كانت زوجة لأحد الأعيان الأقل شأنا، وقد هرب زوجها كي يلجأ إلى أحد أسياد دمياط.[٢٠] يقول "مواريه" إنَّ مسكنه يقع على الطريق إلى المسجد، وأنه لاحظ أنَّ امرأة تنتمي للطبقة الثرية كثيرًا ما تتلكأ أمام باب منزله في ذهابها إلى المسجد وإيابها منه (ففي بعض الأحيان يُخصص في المساجد مدخل جانبي للنساء تدخلن منه لأداء الصلوات، ولكن هذا الترتيب ليس شائعًا)، أثارت المرأة فضول "مواريه" الذي لم يستطع رؤية وجهها الذي أسدلت عليه نقابًا، ولكنه حياها في يوم ما فوضعت يدها على صدرها. وفي مساء ذلك اليوم سعت وصيفتها إلى "مواريه" ورتبت معه أن يتولى تعليم سيدتها. تفاهم "مواريه" مع الوصيفة لأنها من "مارسيليا" وقد أسرها القراصنة على ساحل الشمال الإفريقي وباعوها هنالك في سوق الجواري. أتاح الثراء والحرية لزليمة أن تتلقى الدروس على يدي "مواريه" في الرياضيات واللغة الفرنسية، وكانت تستبقي وصيفتها معها أثناء الدرس. ويسجل "مواريه" حياة زليمة كما روتها له، فقد بيعت في جورجيا ولكنها أرسلت إلى القاهرة، لا إلى الآستانة، لأنها لم تكن ممتلئة بالقدر الكافي الذي يسمح بعرضها في أسواق العاصمة الكبرى. تقول زليمة إنَّ البك الذي اشتراها أهملها بعض الوقت وهو يأمل أن تكتنز لحمًا وشحمًا. ويذكر "مواريه" أنَّ زليمة شكت من الاضطهاد على أيدي نساء الحريم الأكثر نفوذًا، فهي تتعرض للإذلال والاستعباد وتحدد إقامتها في شقة داخلية لا يصحبها فيها سوى العجائز من الجواري، وتروي زليمة أيضًا لـ"مواريه" أنَّ الزوجات والجواري لا صلة لهن

بأي رجال عدا رب الدار الذي يزور محل سكنهم من حين إلى آخر فتتضمخن بالعطر وتقدمن بين يديه أطايب الأطعمة. وتمضي نساء الحريم أيامهن في التطريز وفي بعض الأحيان يدعون "عالمة"، وهي تقوم بعمل فتاة الجيشا اليابانية، لترقص لهن وتحكي لهن قصصًا عاطفية. وفي فترة بعد الظهيرة يتناولن الشاي والفاكهة، وفي بعض الأحيان تخرج النسوة لنزهة على صفحة النيل. غير أنَّ ألوان الترف الذي تستمتعن به لا يوازي المعاملة القاسية التي تتعرضن لها. ينقل "مورايه" رواية زليمة عن إحدى زوجات رب الدار، وهي من أصل جركسي، خرجت مع إحدى جواريها العجائز إلى المسجد، وبينما هما خارج البيت ترامى إلى سمع تلك المرأة كلامٌ بلغة أجنبية فالتفتت إلى مصدر الصوت ورأت رجلاً أوروبيًا يتحدث مع رجل يقف بجواره. ويبدو أن الجارية أبلغت البك بما حدث فما كان من الطاغية الجبار إلا أن جذب الزوجة المذنبة من شعرها وضرب عنقها بسيفه. أعلنت زليمة عن مشاعرها في نهاية الأمر، ولعلها نقلت الرسالة عبر وصيفتها الفرنسية: إنني ألجأ إليك أيها العاشق الشاب والمحارب الساحر كي تنتشلني من هذه البلاد الكريهة، وأن تصطحبني إلى فرنسا إن قدر لك أن تعود إليها". يقول "مواريه" إنَّ دموعها زادتها جمالاً وإنه وعدها بتنفيذ رجائها، غير أنه ما لبث أن حاصرها مطالبًا إياها بأن تتيح له الأمل في وصالها، كما عبر عن رغبته في أن يجد لديها تجاوبًا لحبه الذي أقام عليه الدليل بما بذل من وعد. غدا من الواضح أنَّ "مواريه" لن يكتفي بما عبرت عنه زليمة من عرفان بجميله بل سعى إلى الحصول منها على ما يدل أنها تبادله مشاعره. وجاء رد زليمة يعبر عن تساؤل لها عن مدى صدق ما وعدها به مما لا يدعمه بعد سند من دين أو قانون، فالفرنسيون حسب قولها لا أمان لهم، ما إن تتأجج عواطفهم حتى تخمد سريعًا، (وإن صحت تلك الصورة التي تقدمها زليمة فهي تفسر علاقات الفرنسيين بالنساء في مصر).

قدّم "مواريه" نفسه بوصفه استثناءً من تلك القاعدة، لكنه ألح عليها أن توضح له ما تقصده بسند الدين بينما أكد لها بحزم أنه لن يعتمر العمامة، ولن يخضع للعملية المشينة التي يتميز بها المسلم واليهودي (الختان)، ولن يتخلى عن الخمر "التي كان النبي نوح أول من أعدها وشربها". فهو لن يحذو حذو "مينو" الذي اعتنق الإسلام واتخذ اسم عبد الله مما أطلق ألسنة الجنود الفرنسيين جميعهم في حقه، كما أنه يرفض أن يكون أضحوكة بين زملائه. ويختم "مواريه" حديثه إلى زليمة مستنكرًا أن تتشكك في وعده لها ما دام قد أظهر لها التزامه بدينه الذي نشأ عليه. أبدت زليمة اعتراضها فهي لن ترتد عن الإسلام؛ إذ إن سيدها التاجر أبو الفرو Aboulferu متمسك به ولن يسمح لها باعتناق غيره. رد "مواريه" على اعتراضها بجفاء مهددًا بوضع حد لعلاقتهما، غير أنَّه أضاف إلى ما قال ثقته بأنها لن تقبل بإنهاء تلك العلاقة.

وجاء رد زليمة يعرض عليه حلاً وسطًا، فقد طلبت منه أن يعود إلى فرنسا وحينئذ ستصحبه وهي تحمل أموالها ومجوهراتها، ومتى وصلا إلى فرنسا فإنَّ الإله الذي ستؤمن به سيكون إله "مواريه". ويضيف الضابط الفرنسي أنه ظل يزورها كلما أمكن ذلك، وأنه واصل مهمة تعليمها حتى نقل لموقع آخر في التاسع عشر من يوليو من عام ١٧٩٩. وحين انسحب الفرنسيون في عام ١٨٠١ لم تتمكن زليمة من لقاء "مواريه" في الإسكندرية وسقطت في أيدي البكوات الذين عادوا مع الجيش العثماني.(٢١)

وعلى الرغم من اللمسات الرومانسية وقصة الحب التي دارت أحداثها من وراء الحجاب والدموع التي أضافت إلى جمال زليمة ووعود الحب الخالد فإنَّ ما دار بين "مواريه" و"زليمة" يكشف النقاب عن عملية مساومة قام بها الطرفان، فـ"مواريه" يقدم لزليمة الملجأ الذي تلوذ به من الأتراك المتمصرين متى رحل

الفرنسيون عن مصر، أما زليمة فهي تعده بثروتها التي آلت إليها عقب وفاة زوجها، (وقد ذكرت تحديدًا أنها ستنقل مجوهراتها وثروتها إلى فرنسا)، فحقيقة الأمر أنها عرضت على "مواريه" أن تتكفل وحدها بمتطلبات زواجها منه. وفي بادئ الأمر راقت لـ"مواريه" فكرة أن يتخذ له عشيقة من مصر، على الرغم من أنه لم يكن ليواجه الصعوبات نفسها إنْ بحث لنفسه عن امرأة يبادلها الحب حال عودته إلى فرنسا. لكن احتمال زواجه بها في دمياط حال دونه عزوفه عن اعتناق الإسلام وعدم قدرتها على اعتناق المسيحية؛ إذ في ذلك ما يهدد ما تنعم به من رعاية في وطنها. وعلى الرغم من أنَّ "مواريه" أعلن أنه لن يصبح أضحوكة ولن يقبل التحول إلى عادات وتقاليد غريبة عمَّا ألِف، فإنَّ قراره يقوم على أساس من عقيدته الدينية.

وعلى خلاف كثير من ضباط الجمهورية فإنَّ "موريه" يدين بالكاثوليكية، وقد سبق أن انضم إلى إحدى مدارس اللاهوت بمدينة "ليون" وقد عزم أن يصبح قسًا يتبع رهبان "الدومينيكان"، وقد صوَّر "موريه" الأمر وكأن كليهما قد شغلته التقاليد الاجتماعية والصورة الشخصية على نحو لا يقبل بأنصاف الحلول الضرورية لإتمام الزواج في مصر. ومع ذلك فقد اتصف "موريه" بطابع نبيل منعه من مجرد الإشارة إلى ما كان يجري بينهما أثناء زيارات زليمة له تحت دعوى تلقي العلم على يديه.

كما أثارت المشكلات نفسها التي اعترضت زواج "مواريه" الكاثوليكي وحبيبته زليمة العقبات أمام أحد اليعاقبة الذي لا يؤمن بدين، ألا وهو "فرانسوا برنوييه".[٢٢] وجد "بونابرت" أنَّ جنوده يرزحون تحت وطأة ملابسهم الأوروبية الثقيلة في حر مصر الخانق منذ وصولهم إليها؛ فأصدر أوامره لـ"برنوييه" بتصميم أزياء جديدة تناسب الظروف المحلية وبالإشراف على إنتاج ما يلزم أفراد

الجيش منها. غير أنَّ مصمم الأزياء واجه نقصًا فيما يتطلبه عمله من قماش الكتان السميك، فطلب من وكيله المصري ويدعى أحمد على الأرجح، وكان يعرف قدرًا من الفرنسية، أن يساعده. تعرَّف "برنوييه" عن طريق أحمد إلى أحد أصحاب مصانع النسيج يعمل لديه حوالي ثلاثمائة عامل من الرجال والنساء، ووافق الرجل على تزويد "برنوييه" بأربعمائة ياردة من القماش يوميًا.[٢٣] وفي صباح اليوم التالي ذهب "برنوييه" بصحبة أحمد ليتفقد عملية إنتاج ما طلب من أقمشة فوجدا البوابة الخارجية مغلقة، نزل "برنوييه" من على جواده ودلف إلى داخل المصنع وقد عهد إلى أحمد بالعناية بجواديهما. وما إن تخطى العتبة حتى رأى شابة جميلة تستقي ماء في إبريق، التفتت الفتاة لما ترامى إلى سمعها وقع أقدامه فجفلت تاركة الإبريق خلفها وقد أخفت وجهها بيديها. اتجه "برنوييه" إلى الإبريق فأخذه وبنبله المعهود حمله وانطلق خلفها وناداها بعربية ركيكة: يا صديقتي الجميلة لقد نسيت إبريقك. توقفت الفتاة فسارع إلى جانبها وقد مد يده بالإبريق يسلمها إياه. كان لزامًا على الفتاة كي تتلقى منه الإبريق أن ترفع إحدى يديها عن وجهها فتكشف عن جانب منه. يقول "برنوييه" إنَّ ما رآه من وجهها كان كافيًا لإقناعه بأنَّ تلك الفتاة المصرية تتميز بجمال باهر. ويضيف أنه أحبها في التو على نحو اختلت معه موازين إدراكه فتجمد دون حراك للحظات. جاء صاحب المصنع ليصحب "برنوييه" في جولة بمصنعه وهو فخور بما يعرض من تفاصيل غير أنَّ "برنوييه" لم يكد يستمع إلى كلمة مما يقال؛ فاعتذر عن عدم استكمال الجولة لسبب اختلقه. ولما ابتعد مع أحمد على ظهر جواديهما سأله وكيله عمَّا ينوي فجاءت إجابته: لا بد لي أن أحظى بتلك الفتاة الجميلة.

وعده أحمد بأن يفعل ما في وسعه، ولكنه صارحه بعدة مشكلات أولاها التعرف على الفتاة التي رآها "برنوييه"؛ فالنساء كافة لا يكشفن وجوههن أمام

الرجال الأجانب. فضلا عن ذلك فعاملات المصنع مصريات مسلمات يُحظر عليهن التعامل مع غير المسلمين من الرجال. وأضاف أحمد أنّ المسلمين يشعرون بالحرج الشديد في مواجهة تلك المسائل، ولذلك فعلى الأرجح لن يُقدموا على مساعدة "برنوييه". لكن "برنوييه" أعلن أنّ تلك الصعاب لن تردعه، بل على العكس، فإنها تحفز رغباته وتدفعه إلى تحقيقها. تمثلت أمام الرجل الفرنسي صورة شبقة للمرأة المسلمة التي يحيط بها سياجٌ من الصعوبات والمحرمات، فهدد بالاستغناء عن وكيله إذا لم يُبدِ تعاونا في الوصول إلى تلك الفتاة. ومع ذلك فقد شعر بالخجل لما أبداه من الإساءة لمشاعر وكيله، ولما صدر عنه من ضعف في التحكم بتلك العاطفة المشبوبة التي أثارت في نفسه شهوة أخضعته لسلطانها. تساءل "برنوييه" إن كان لحرارة الطقس يد في إثارة تلك الرغبات القوية التي لم يعهدها في نفسه من قبل قط. وبذلك أصبح الشرق نفسه سببًا مختلقا لإخضاع الشرق!

تمكن أحمد بعد محاولات دائبة أن يتعرف على فتاة المصنع التي وصفها له "برنوييه" وعرف أنّ اسمها فاطمة وأنّ أباها نجارٌ رقيق الحال. وضع "برنوييه" خطة لكي يزوجها زواجًا شكليًا بخادمه عليّ، فنبهه أحمد إلى أن القاضي الذي سيعقد تلك الزيجة ينبغي أن يطمئن أن لعليّ مصدرًا كافيًا للدخل، وأنّ له سكنا خاصًا به ووعاء للطهي وآخر لإعداد القهوة ونارجيلة، في حين يسير علي في واقع الأمر حافي القدمين. قدم "برنوييه" لأحمد مبلغا من المال وطلب منه شراء ما يلزم علي، ثم أنه أرسله إلى النجار والد العروس كي يخطب منه فاطمة لعلي، مدعيًا أنّ عليًا لمحها في المصنع وأنه يعمل في ورشة لدى الفرنسيين. كان سرور النجار عظيمًا لما رآه من عقد صلة عمل وإن لم تكن مباشرة مع سادة البلاد. ذهب الأب وأحمد إلى القاضي وحصلا منه على عقد الزواج، غير أنّ "برنوييه" سجل في مذكراته أنّ الزيجة تمت دون موافقة الفتاة؛ إذ إنّ الآباء في مصر يمارسون

سلطة مطلقة على بناتهم. حُدد يوم الحادي عشر من نوفمبر للزفاف، ويحكي لنا "برنوييه" في مذكراته عن حيرته إزاء إيجاد وسيلة لمنع ذلك "المغفل" عليّ من قضاء ليلة العرس مع الفتاة. يقول "برنوييه" إنّ الصعوبة تكمن في أنّ أم العروس عادة ما تصحب ابنتها إلى مخدعها قبل أن يصل العريس الذي يبقى بالخارج مع أصدقائه، ثم تقوم الأم بفض بكارة الابنة بأصبعها ثم تخرج بعد أن تغلق الباب لتعرض أصبعها بفخر وقد تلوث بالدماء أمام العريس والمدعوين. وتتلقى الأم التهنئة من الجميع فقد أفلحت في الحفاظ على عفة ابنتها ثم تسلم الأم مفتاح المخدع إلى الزوج وترحل. يصطحب الأصدقاء العريس إلى باب المخدع ويهنئونه قبل أن يرحلوا هم أيضًا. وكان "برنوييه" في حاجة إلى وسيلة تسمح له أن يحل محل خادمه في اللحظة الأخيرة.

ولما بلغت الحيرة به مبلغها طلب النصح من جارة له تُدعى مدام "جونتران" **Madame Gontrand** وهي زوجة أحد الخياطين الذين يعملون تحت إمرته، وكان قد أرسله لتوصيل الملابس العسكرية إلى الجنود في صعيد مصر. شرح لها المشكلة التي يواجهها فعرضت عليه حلاً لها: أوعزت إليه أن يستبدل مفتاح غرفتها بمفتاح غرفة العروس، ولم تكن غرفتها بعيدة على ما يبدو عن غرفة "برنوييه" التي تقع في الدور الثاني من ذلك البيت الكبير. وعلى هذا النحو تتاح لها فرصة استقبال عليّ في الوقت الذي يستخدم "برنوييه" المفتاح الذي في حوزته ليدخل إلى مخدع العروس. احتضنها "برنوييه" بقوة فرحًا مسرورًا، ولكنها دفعته بعيدًا فقد كاد يخنقها. ولم يفت "برنوييه" أن يلاحظ غرابة ما أبدته مدام "جونتران" من استقبال شاب مصري مثل عليّ في مخدعها وخصوصًا أنه لم يكن يتصف بأي قدر من الوسامة. غير أنه انتهى إلى أنّ عليًا في آخر الأمر رجلٌ وأنّ النساء في سن متقدمة لا تتمسكن بترف الاختيار. أضف إلى ذلك أنّ "برنوييه" أفصح لاحقًا

في مذكراته عن منحه مدام "جونتران" شقة واسعة في القصر الذي آل إليــه، وقــد أقامت تلك السيدة الفرنسية مشروعًا لإعداد الوجبات للخياطين الفرنسيين ورجــال المدفعية بجزيرة الروضة، فصارت مدينة لــ"برنوييه" لما طوق بــه عنقهــا مــن جميل. أغلق "برنوييه" باب غرفة مدام "جونتران" بالمفتاح وأعطاه لأحمد. وفي تلك الأثناء استمر حفل الزفاف في حديقة المنزل وقد التفت خمس نساء حول العــروس في جانب وقد أسدلن جميعًا النقاب على وجوههن، والتف خمسة رجال حول علــيّ في الجانب الآخر. وما إن انفض الحفل ولم يبق إلا توقيع الشهود على العقد حتــى اصطحب أحمد الأم والعروس أعلى الدرج إلى غرفة "برنوييه". وحين عــادت الأم شاهرة إصبعها الذي يقطر دمًا وسلمت المفتاح إلى عليّ تمكن أحمد على ما يبــدو من استبدال المفتاحين. صعد الرجلان بعدئذ إلى الطابق الأعلى وقاد أحمد العريس إلى غرفة المرأة الفرنسية، ثم أعطى "برنوييــه" مفتــاح مخــدع العــروس وزوّده بملابس مصرية ليرتديها كي لا تتفاجأ العروس.

يصف "برنوييه" شعوره الذي تراوح بين العاطفة المشبوبه ونفاد الصبر، أما أحمد فقد عاد إلى حديقة المنزل لينهي إجراءات عقد الزواج ويوقعه بصفته شاهدًا. جاهد "برنوييه" كي يمنع نفسه من اقتحام الغرفة فلم يكن يريــد أن يخــدش حيــاء العروس. ويطلب "برنوييه" من قارئه أن يتخيل ما حل به من اضطراب شديد حين فتح الباب ورأى إلهة الحب ممددة على فراش من قش على أرض الحجــرة وقــد بدت مفاتنها أمام ناظريه، لم يتمالك عندها نفسه فاضطجع إلى جانبها وهــو يظــن أنها ستبدي دهشة أو غضبًا، ولكنه وجد ألق الفرح في عينيها وهي تهمس في أذنه بكلمات الحب والهيام. أمضى العروسان ليلتهما وجانبًا من نهار اليوم التــالي فــي فراشهما، ثم عرض "برنوييه" ما صنع لها من ملابــس واصــطحبها فــي جولــة

بالمنزل مما أدخل على نفسها السعادة. يقول "برنوييه" إنها أخذت تجرب ملابسها الجديدة واستسلمت بسعادة لشعورها بالاستقرار في بيتها الجديد.

كافأ "برنوييه" مدام "جونتران" بصُرة صغيرة من الماس، ومنح أحمد مائتي فرنك، مكافأة لهما على دورهما. ويؤكد أنه لم يكن ليمانع في دفع أضعاف ما دفع ليجد مثل تلك الفتاة، ففي بلد تندر فيه الجميلات من النساء فإنه جد سعيد بالعثور على ذلك الكنز". وقد سبق لـ"برنوييه" أن تعرض لمصائب عدة في مغامراته لإشباع رغباته العاطفية في القاهرة، ومن ثمَّ فهو يرى النجاح كله في ارتباطه بفاطمة. إنَّ الاحترام الشكلي للتقاليد الاجتماعية والدينية أنتج ميزة تمثلت في الحفاظ على المظاهر على الجانبين وأبرزت بوضوح سياسة "بونابرت" تجاه الإسلام. وبمضي الوقت، زعم الجبرتي أنَّ زيجات الفرنسيين والنساء المسلمات قد شاع.(٢٤) فقد صارت أفضل العائلات المصرية تقبل تلك الزيجات بإغراء من الثروة الواسعة التي امتلكها الفرنسيون. أما الفرنسيون فقد فقدوا تدريجيًا ما شعروا به في بادئ الأمر من احتقار للتقاليد الإسلامية، ورضوا بتحول شكلي إلى دين الإسلام بوصفه ضروريًا لعقد قرانهم. ويسخر الجبرتي من هؤلاء الذين لا يتوفر لهم من الإيمان القدر الذي يبعث في نفوسهم الخوف من فقده.

***

لم يكن هناك بد من رؤية اليعاقبة للإسلام بوصفه مستودعًا للخرافات؛ فقد رأوا من الشواهد في كثير من الأحيان ما يدل على حماسة دينية لدى العامة تتضمن طقوسًا غريبة ووحشية من وجهة نظرهم. وبالطبع فإنَّ علماء الدين المسلمين يعلنون أن تلك الممارسات لا صلة لها بالإسلام، وقد كان المصريون الذين يتقنون الفرنسية من الطبقة الوسطى هم الناقلين الأساسيين لمعنى الممارسات

الدينية الشعبية، وغالبًا ما نقلوا ما يشعرون به من اشمئزاز تجاهها إلى الفرنسيين. ولذلك فإنَّ تلك الصورة عن إسلام العوام لم تكن من صنع سياسة الاستشراق الأوروبي وحدها، وإنما هي إنتاج مشترك.

حملت الحضارة العربية الإسلامية بوصفها رمزًا حضاريًا معاني عدة للفرنسيين من عصر التنوير والحقبة الثورية؛ ففي بعض الأحيان أشار الفرنسيون إلى الإسلام والممارسات الإسلامية لتأكيد اختلافهم عن سكان الشرق الأوسط. وقد أوضح فيلسوف السياسة "شارل دي مونتسكيو" **Charles de Montesquieu** في منتصف القرن الثامن عشر، في معرض حديثه عن مزايا فصل السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، أنَّ اتحاد هذه السلطات الثلاث في شخص السلطان العثماني ينتج عنه طغيان مرعب.[٢٥] (وقد بالغ "مونتسكيو" في سلطة السلطان بشأن إملاء الأحكام على القضاة أو المحاكم الشرعية، ولم يأخذ في الحسبان قوة الوزير الأول والوزراء في مواجهة السلطان، ولذلك فإنَّ الصورة التي قدمها للطاغية الشرقي لا تعدو أن تكون وصفا ساخرًا للنظام العثماني). وهناك بعض المفكرين الفرنسيين ممن حاولوا أن يظهروا كيف يمارس الأوروبيون الإسلام دون أن يعرفوه، وأظهروا بذلك نقدهم للدين. وتصف مسرحية "محمد" لـ "فولتير" الرسول وصفا لا يليق، غير أنَّ "فولتير" قصد إلى نقد المؤسسة الدينية، وليس الإسلام في حد ذاته، وقد أعلن لاحقا أنه أساءَ إلى النبي وظلمه. أما "بونابرت" فقد انتقد المسرحية وقال إنَّ "فولتير" حَطَّ من شأن شخصية محمد العظيمة مستخدمًا حيلا متناهية في دناءتها، فقد قدم رجلاً غيَّر وجه الأرض كما لو كان وغدًا حقيرًا يستحق الموت شنقا.[٢٦] ويسجل "فولتير" في كتابات لاحقة أنَّ محمدًا رجلٌ عظيم، وأنَّ رجالاً عظماء تربوا على يديه، وأنه لو قُدر لأعدائه أن يهزموه في موقعة بدر عام ٦٢٤ ميلادية لتغيَّر تاريخ العالم.

وفي بعض الأحيان استخدم كتاب الموسوعة الفرنسية الكبيرة في القرن الثامن عشر، وهي المحاولة الحديثة الأولى لجمع المعارف في عمل واحد، الإسلام بوصفه نظامًا ينقدون من خلاله الخرافات الشائعة والجمود العقائدي الذي لمسوه في الكاثوليكية.[٢٧] وفي أحيان أخرى حرر مؤلفون آخرون في الموسوعة ذاتها مقالات عن مزايا العلوم في الحضارة العربية الإسلامية، وقابلوا ما بين تلك الإنجازات وإغراق الأوروبيين في التدين الذي يشيع الجهل ويعادي العلم. وقد عبر "بونابرت" نفسه عن إعجابه بالعلوم العربية،[٢٨] كما قابل بين تقاليد حضارة الشرق الأوسط وحضارة البدو الرحل على سهول آسيا وصحاريها، وهم من تسببوا في دمار إمبراطوريات كانت مستقرة وعامرة، فقد كانوا معادين للعلوم والفنون، ويضيف "بونابرت" أنَّ ذلك الاتهام لا يمكن أن يوجه إلى العرب ولا إلى محمد. وامتدح "بونابرت" أيضًا خلفاء بني أمية في القرنين السابع والثامن الميلاديين بوصفهم شعراء ومتذوقين للشعر الجيد الذين قدروه، حسبما يقول، بقدر الشجاعة في ميدان القتال. كما حيا الخلفاء العباسيين في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين وأنزلهم منزلة أكبر؛ فالمنصور وهارون الرشيد والمأمون حسب "بونابرت" رعوا الفنون والعلوم، وأولعوا بالأدب والكيمياء والرياضيات، وأمضوا حياتهم بين العلماء، وأمروا بترجمة تراث اليونان والرومان إلى العربية. ويقول "بونابرت" إنَّ الكيمياء، وعمليات التقطير، وصناعة المزولة والساعات، والأعداد كلها، من اختراع العرب. أما حكاياتهم الأخلاقية، فليس هناك ما يوازيها في سحرها، وأما شعرهم فيهو ينبض بحرارة الحياة. وقد امتدح محمد العلماء والرجال الذين أوقفوا حياتهم على التأمل ورعاية الآداب. إنَّ "بونابرت" أدخل تحولاً كبيرًا على ساحة النقاش في تلك الأمور، وأصبح النظر في أمر الإسلام، بعد وصول اثنين وثلاثين ألفا من الجنود الفرنسيين إلى مصر، أبعد من مجرد لعبة يتسلى بها الأوروبيون. لقد شارك الفرنسيون في اللقاء الأكبر لثقافة غرب أوروبا بثقافة الشرق الأوسط المسلمة منذ عصر الحروب الصليبية.

الفصل الثامن

العقل ينتصر دائماً

في الأيام الأخيرة من شهر أغسطس كتب "كليبر" خطابًا إلى "بونابرت" من الإسكندرية يبلغه فيه أنَّ عمدة دمنهور الأمير إبراهيم شوربجي زاره وصارحه بأنَّ السلام لن يتحقق مع قبائل المنطقة إلا إذا احتجز الفرنسيون رهائن من بين رجالهم. وقد سبق للأمير إبراهيم أن شارك في الثورة ضد الفرنسيين لكنه اقتنع في نهاية المطاف بقبول حكمهم، وأوصى "كليبر" باستخدام الرأفة في التعامل معه. أبدى الأمير إبراهيم استعداده بعد ذلك للتعاون في توصيل المياه من الرحمانية إلى الإسكندرية (أو بمعنى أدق ضمان عدم تحويل المياه على طول مجراها)، واشترط مقابل ذلك أن تُدفع إليه المكافأة نفسها التي سبق أن حصل عليها في عهد البكوات العثمانيين.[١]

ومع ذلك، فعلى الرغم من نصح الأمير إبراهيم وعونه، فإنَّ الفلاحين الذين يحتاجون إلى الماء أشد الحاجة انقادوا وراء إغراء تحويل المياه من القنوات التي تنقلها إلى الإسكندرية، وخصوصًا أنَّ عملهم هذا إلى جانب جلبه للفائدة يعد مظهرًا لتحدي المحتل الأوروبي. تحالفت قرية بركة غطاس مع قبائل أولاد علي من البدو ومنعوا تدفق المياه، مما دعا "كليبر" إلى إرسال ستمائة جندي في الثالث عشر من سبتمبر لمعاقبتهم. أمر "كليبر" بإعدام الرجال وقطع رءوسهم ورفعها على أعمدة حتى يراها القاصي والداني، ثم أمر بحرق القرية بعد خروج النساء والأطفال والعجائز. ولما عادت القوة في السادس عشر من سبتمبر كان أفرادها قد قتلوا خمسين مصريًا، وحملوا معهم أعدادًا كبيرة من الدواجن والماشية. أرسل "كليبر" منشورات يهدد فيها أهل القرى الأخرى بمصير مماثل إن هم عبثوا بالقناة.[٢]

وعلى الرغم من أنَّ الفرنسيين أخمدوا ثورة المنصورة في منتصف أغسطس، فإنَّ الإقليم ظل مضطربًا. وقد رفع الجنرال "دوجا" تقريرًا يفيد بأن ثورةً اندلعت بقوة في قرية سنباط. يقول دوجا إنَّ سنباط تضم بين سكانها ما بين ثلاثمائة وأربعمائة بدوي من قبيلة الدِرن الذين تعود أصولهم إلى الصحراء غرب الإسكندرية، وكان أيوب بك، عين أعيان سنباط، قد استدعاهم منذ أربع سنوات كي يفرضوا النظام بين سكان سنباط الذين يتقاتلون يوميًا. حمل الفرنسيون ضغينة في نفوسهم ضد الدِرن الذين قادوا الهجمة التي نتج عنها قتل أفراد حاميتهم في المنصورة. وقد أراد "دوجا" أن يقود حملة لتأديب أهل سنباط ولكنه شعر بالحاجة إلى أسلحة كافية؛ لأنَّ سكان القرية الذين يزيد عددهم على الثلاثمائة عقدوا تحالفا مع رجال القبائل. شعر "دوجا" أنَّ الدِرن أثاروا كراهية القرى المجاورة لما قاموا به مؤخرًا من أعمال سلب ونهب مما يطمئنه على حياد تلك القرى.(٣)

جاء رد "بونابرت" على "دوجا" في السادس من سبتمبر يبلغه فيه بأنه سيرسل الذخيرة التي طلبها الجنرال، وأضاف أنه من المفترض أن تصله مع خطابه هذا، الذي يرجو "بونابرت" فيه أن يكون "دوجا" قد نجح في إقناع البدو الملاعين من قرية سنباط بالكف عن المقاومة، ويدعوه إلى أن يحرق تلك القرية ليجعل منها عبرة و مثلاً مرعبًا، وألا يسمح لهؤلاء العرب بالعودة إليها وسكناها حتي يسلموا إليه عشر رهائن من أعيانهم، يرسلهم إلى "بونابرت" ليسجنوا في القلعة.(٤)

استخدم "بونابرت" وجنرالات جيشه أساليب الأتراك المتمصرين في التعامل مع قوى سياسية مثل البدو والقرويين الثائرين تحت رعاية الزعماء المحليين، مثل الأمير إبراهيم، وهي أساليب ترهيب لا مجال فيها للرحمة. وفي الثاني عشر من سبتمبر أرسل الجنرال "دوجا" الجنرال "جان أنطوان فردييه" **Jean-Antoine**

Verdier جنوبًا حذاء النيل على رأس خمسمائة وخمسين رجلاً وبعض قطع المدفعية.(٥) وفي اليوم الرابع عشر من الشهر نفسه نزل الجنود بالقرب من سنباط وسعى "فيردييه" لمقابلة أعيان قرية هانود القريبة ملتمسًا مساعدتهم في التعرف على المنطقة وتجنب المستنقعات التي خلفها فيضان النيل. ويُذكر أنه حين غزا الفرنسيون مصر في يوليو استغل الدرن فرصة انهيار النظام والقانون ونهبوا ممتلكات شيخ هانود وغيره من أعيان القرية مما أشعل نزاعًا محليًا. ولذلك فإنَّ شيخ الهانود، حسب التقرير الذي قدمه "فردييه" إلى "دوجا"، تقدم صفوف الفرنسيين دائمًا وهو يشعر بسرور غامر ودلَّ الجنود إلى كل الطرق التي تؤدي بهم إلى الوصول إلى عدوهم بسرعة. وما إن وصلت طليعة الجيش الفرنسي إلى مخيم للدرن خارج حدود سنباط حتى خرج حوالي نصف عدد الرجال يهاجمون الفرنسيين في حين حاول النصف الآخر تهريب متاعهم ومن بالمخيم من نساء وماشية. يقول "فيردييه" إنَّ المشاة تحت قيادة "لوجييه" Laugier شنوا هجمة بما عرف عنهم من سرعة خاطفة؛ فصدوا ثلاثمائة من البدو وأرغموا الآخرين على التخلي عن ما جمعوه كي يهرعوا لنجدة إخوانهم ويشاركوا في الدفاع عن مخيمهم الذي اقتحمه الجناح الأيمن لقوة "لوجييه". وفي تلك الأثناء، قاد "فيردييه" وحدته المكونة من خمسمائة جندي حول المخيم ليصلوا إلى أقصى اليمين مما أربك البدو ودفعهم كلهم للفرار وترك متاعهم وراءهم. وجد "فيردييه" أن مطاردتهم صعبة؛ فهو يقول إنَّ البدو يركضون كالأرانب ويسبحون في الأنهار بغض النظر عن أحوالها. ولا يبدو في واقع الأمر أن البدو يجيدون السباحة ولعل بعض الفلاحين الذين اعتادوا الخوض في مستنقعات الخريف كانوا بينهم.

وحَّد البدو والفلاحون صفوفهم في سنباط واتخذوا مواقع مرتفعة حول القرية، لكن الفرنسيين أجبروهم على التقهقر مرة أخرى؛ فلاذوا بالمستنقعات

المحيطة وألقوا بالسلاح حتى لا يعوق حركتهم. يصف "فيردييه" مطاردة الفرنسيين لهم حتى تيقنوا من غرقهم أو اختفائهم. ولعل من الأرجح أن رجال الدِرن وسنباط اختفوا في مستنقعات الخريف التي هم أكثر الناس دراية بها. ويعبر "فيردييه" عن أسفه لإفلات كثير من أفراد العدو من القتل نظرًا لعطب كمية كبيرة من الذخيرة التي وصلته من القاهرة، ففي كثير من الأحيان كانت الذخيرة تخطئ هدفها أو تنطلق لمسافة لا تزيد على عشرين قدمًا. عثر الفرنسيون على ثلاثة جياد رائعة أخفاها خدم الأمراء في القرية حين هربوا من أمام الفرنسيين. ووجد الفرنسيون أن بعض القتلى من البدو كانوا ينتعلون أحذية فرنسية مما يدل على تورطهم في المذبحة التي راح ضحيتها رجال حامية المنصورة. كان "فيردييه" مزهوًا بانتصاره فكتب إلى قائده يقول: "إنك أصدرت أمرك بتدمير أوكارهم، والآن أطمئنك أنها لم تعد لها قائمة". كشف "فيردييه" عن خبيئة من الأسلحة تحت طبقة من الطمي وفكك الأسلحة النارية، كما أكد لقائده أنّ هانود وشبرا وما تبقى من سنباط أغلقت أبوابها في وجوه الدِرن، أما الخسائر التي تكبدتها الجمهورية فلا تعدو إصابة جندي من المشاة ينتمي إلى الفرقة الخامسة والعشرين، في مقابل مكاسب تمثلت في عدد كبير من الخراف وخمسة وتسعين جملاً بعضها كبير وبعضها الآخر صغير، يسوقها "فيردييه" أمامه إلى القائد. ويتضح من حاجة الجمهورية الفرنسية إلى بعض الخراف والجمال المنهوبة من قرية مصرية مدى الأزمة التي تعانيها في تلك المرحلة. فبما أنّ "بونابرت" قد عجز عن سداد رواتب جنده فقد اتجه هؤلاء في كثير من الأحيان إلى سلب السكان ممتلكاتهم التي أشاروا إليها في خطاباتهم واصفين إياها بالمساهمات التي يتولون جمعها.

***

وفي القاهرة، نشرت القوات الفرنسية بما تملكه من قوة بشرية كبيرة الخوف بين الأهالي مما وفر لها درجة من الأمان وأتاح لـ"بونابرت" حرية العمل على إنشاء المؤسسات. ففي أغسطس أقام المجمع المصري، على نمط المجمع الفرنسي، ليصبح جمعية علمية تقوم بدراسات متعمقة عن مصر وتفي بمتطلبات الجيش الفرنسي. يقول الكابتن "ساي" إن تأسيس "بونابرت" للمجمع العلمي قصد به فتح الطريق أمام غرس الحرية في مصر، إذ إنّ أسلوب إدارته الذي يعتمد على المساواة في الحقوق يضمن تحقيق النجاح بعيدًا عن التمييز".[٦] وقد تكشفت اهتمامات العلماء والإداريين في مصر في الجلسة الأولى للمجمع العلمي.

وتشير مذكرات "بونابرت" إلى الموضوعات العلمية والاستعمارية المتنوعة التي طرحت في جلسة الثالث والعشرين من أغسطس: "هل يمكن تحسين أداء الأفران التي تمد الجيش الفرنسي بالخبز؟ هل من بديل لزهرة الدينار كي تصنع البيرة في مصر؟ كيف يمكن تنقية مياه النيل؟ أيهما أفضل لمصر: إقامة طواحين الماء أم طواحين الهواء؟ هل يمكن صناعة البارود في مصر؟ ما موقف الفقه والقوانين المدنية والجنائية في مصر؟ هل يمكن إدخال التعديلات عليها؟".[٧] لم يبدُ "بونابرت" مهتمًا بالمساواة أمام القانون قدر اهتمامه بأن يجعل من المجمع العلمي فرعًا مؤازرًا لمشروعه العسكري.

غير أنّ المعهد أُنشِئ في الأساس ليكون مؤسسة ثقافية وعلمية. كذلك رأى "بونابرت" أنّ فنون الأداء والمسرح مدرسة عامة للأخلاق[٨]، وينسب إليه فيما بعد القول إنّ المسرح أداة عظيمة إنْ أحسنت الحكومات استخدامه. ويقول جان لامبير تاليان، الصحفي اليعقوبي والبرلماني السابق الذي صحبه "بونابرت" إلى مصر، إنّ القائد الأعلى يعلق أهمية كبيرة على تأسيس مسرح وعروض احتفالية أخرى بالقاهرة، فقد قرر أن يوجه جهده وجهود بعض المفكرين الآخرين لتشكيل لجنة

لإقامة قاعة للعروض بالقاهرة، وجمع الممثلين الذين سيقدمون مجموعة من المسرحيات. وتختار تلك اللجنة حديقة عامة تطلق منها الألعاب النارية كل أسبوعين، وتضاء مرتين في الأسبوع.

وينصبُّ اهتمام الكابتن "ساي" في مذكراته، التي حررها الكاتب المسرحي لوي لاوس دي بواسي، **Lois Laus de Boissy** الذي كان ضيفا دائمًا في صالون جوزفين والذي ألف كتاب "المرأة الجمهورية الحقة" **The True Republican Woman**، على استخدام الثقافة على نحو خاص لدعم الروح المدنية والمُثل الجمهورية بين المصريين. كتب "ساي" يقول إنّ المجمع العلمي المصري شكل لجنة تضم فنانين كلفوا بإقامة صالة للعروض والرقص والموسيقى والألعاب النارية، وعبر عن الأمل في أن تصبح تلك الصالة واحدة من عدة وسائل مبتكرة للارتقاء بنفوس هؤلاء القادمين الجدد إلى الحرية، وإشاعة روح عامة في هذه البلاد تمثل العنصر الخامس لشعب حر".(٩)

وأشار "ساي" إلى العوالم أو الراقصات بوصفهن ضمن أرباب الفنون الذين سيقومون بدور كبير في هذه العروض العامة. وكانت هؤلاء الراقصات حينذاك فنانات مثقفات تؤدين عروضهن أمام النخبة من الأتراك المتمصرين. ولم يخفَ على "ساي" الطبيعة الحسية فيما يقدمن من أعمال حين طرح هذا الاقتراح العجيب، ولعل من المفيد أن نتتبع الأسباب التي دعته إلى طرحه. ويضيف "ساي" أنَّ المغنيات يُدعون العوالم وهو اسم مشتق من العلم، ويؤكد أنهن يستحققن الاسم عن جدارة لما تلقينه من تعليم يفوق ما تحصل عليه غيرهن من النساء، وهن حسب قوله "إلاهات الرغبة". ويشرح "ساي" متطلبات الالتحاق بصفوفهن ومنها الصوت الجميل، والتحكم في مخارج الألفاظ، وموهبة تأليف بيتين من الشعر على الأقل حسب المناسبة الاجتماعية وأدائهما غناءً. ويقول "ساي":

إن تلك المناسبات لا يكتمل رونقها إلا بوجود هؤلاء العوالم، فبعد أن تنشدن الأغاني يقمن بأداء عروض قصيرة من حركات تعبيرية لا تصحبها كلمات عادة ما يمثل الحب موضوعها الأساسي. وفي بداية رقصاتهن تسقطن حياء جنسهن مع ما سقط من حجابهن، فالعالمة لا ترتدي سوى قميص من حرير خفيف يصل إلى قدميها، ويحيط بخصرها حزام فخم غير محكم، وينتشر شعرها المضفر المعطر على كتفيها، ويبدو نهداها من وراء صدار يشف عما وراءه، إذ إنَّ نسيجه شديد الرقة وكأنه نسمة من هواء. وما إن تبدأ في التمايل حتى تتحرك خطوط جسمها بالتتابع فيحسب الناظر إليها أنَّ لكل خط حياة تخصه وحده. ويمضي "ساي" في وصفهن فيشبههن بكاهنات "باخوس"، إله الخصب والزراعة، وقد اندمجن في حالة من الوجد فغبن عن الوجود، وعند تلك اللحظة تنقطع صلة العالمة بمن حولها وتستسلم لعربدة حواسها فتعلو صيحات الإعجاب من جمهور لم يعتد الرقة كما لم يعتد الصبر على كشف ما يختبئ وراء حجاب.

وقد عدَّ الفرنسيون استخدام مواهب هؤلاء الراقصات وسيلة لدفع ثقافة الجمهورية المدنية قدمًا.

وعلى الرغم من توجيه المؤلفين الفرنسيين المنادين بالإصلاح والمناصرين للثورة الفرنسية النقد إلى العهد البائد لما شابه من فجور، فإنَّ الإثارة الجنسية صارت أداة لخدمة الأغراض الثورية. وإننا نجد تلك الدعوة إلى الفجور في إطار

الهجوم على الملكية والطبقة الأرستقراطية في رواية "بيير دي لاكلوه" Pierre de Laclos "علاقات خطرة"، وفيها نرى كيف كان عبث الأرستقراطية القاسي بالمشاعر الإنسانية. كما يتضح لنا هذا الأمر في كتيبات من الأدب المكشوف انتشرت بين العامة ومنتقدي الملكية تظهر فيها الملكة ماري أنطوانيت في صورة فاضحة. ومن ناحية أخرى فإنّ استنكار الكنيسة لجموح الشهوات بدا ثوريًا لهؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم وشهواتهم. يصعب إذن القطع برأي فيما إذا كانت تلك الموضوعات تؤدي إلى تحرير المرأة أم قهرها، فكل ذلك لم يشغل ذهن كتاب المذكرات من الرجال الذين رأوا الثورة من منطلق أخوي ولم يعدوا النساء، مع سعيهم لصحبتهن، شخصيات عامة وسياسية.(١١)

***

وعلى الرغم من أنّ ساي سجل في مذكراته عدم رضائه بالجوانب الحسية في أداء العوالم (والأمر الذي يثير الدهشه ما ورد على لسانه من وصف يكشف عن إعجابه بهن)، فإنّ هؤلاء النسوة كن تمثلن إرثا دنيويًا في فنون الأداء رغب المسرح الجمهوري في الاستحواذ عليه. ويقول "ديتروي" إنه رأى في شوارع القاهرة أثناء احتفالات فيضان النيل "مغنيات يقدمن مشاهد يتبادلن فيها جمل الحوار". ولعل التعاملات الاجتماعية بين الفرنسيين ونساء مصر المسلمات أوحى بإمكان تغيير أدوارهن تغييرًا كبيرًا؛ فالغزاة نصبوا أنفسهم محررين للمرأة المصرية ورأوا فيها، بالإضافة إلى نساء الأقباط والروم، دائرة محتملة لثورة ثقافية تقوم على ضفاف النيل.

ظل الأمل يراود الفرنسيين في اجتذاب حتى علماء الدين المسلمين إلى القيم الثورية، واعتقد كثيرون في احتكام هؤلاء إلى العقل في آخر المطاف. وينقل لنا

"تيبللو سارجي" انطباعه القوي لما لمسه من اهتمام كبار أعضاء الديوان (الشيخ المهدي، والشيخ الفيومي، والشيخ الفاسي، والشيخ البكري) بالمطبعة القومية التي يديرها "إم. مارسيل" **M. Marcel**. كانت المطبعة الفرنسية تتسم بدرجة أكبر من الدقة والسرعة وتفوق مثيلتها التي عاينوها في إستانبول أو في دير المارونيين في كسروان. يقول "سارجي": "قَدِم الشيخ البكري كي يشاهد المطبعة وسأل إن كانت تلك المطابع منتشرة في فرنسا وأوروبا عامة، ثم سأل عن روسيا. رد "تيبللو سارجي" أنَّ روسيا بدأت خطواتها الأولى بعد عهود التخلف باستخدام المطبعة على نطاق واسع منذ أوائل القرن الثامن عشر. وينقل "سارجي" قول البكري إنَّ هناك كثيرًا من الأعمال العربية الرائعة التي يتعين طباعتها.(١٢) وعلى الرغم من أن غرب أوروبا بدأ عصر الطباعة من ألواح معدنية متحركة حوالي عام ١٤٥٠ فإنَّ انتشار التكنولوجيا في أرجاء العالم تأخر إلى حد كبير. يُستثنى من ذلك الصين واليابان وكوريا حيث استخدمت ألواح من الخشب للطباعة وحيث طبعت بضعة آلاف من الكتب في بواكير العصر الحديث، أما في الشرق الأوسط، وأفريقيا، والهند، بل في معظم أوروبا الشرقية وفي روسيا، فقد ظلت الطباعة نشاطا محدودا حتى أوائل القرن الثامن عشر على أقل تقدير. ومنذ حوالي عام ١٧٢٠ تولت مطبعة "موتافريكا" في إستانبول طباعة كتب كثيرة وصلت شهرتها إلى بعض علماء الدين المصريين. وبما أنَّ المطابع سمحت بتقديم الرسوم التوضيحية في مجالي العلوم والتكنولوجيا على نحو دقيق لم تسمح به المخطوطات من قبل، فإنَّ انتشارها في أوروبا الغربية عقد قصب السباق لهذا الإقليم في مجال التقدم العلمي في بدايات العصر الحديث. ولم يجد الشيخ البكري وغيره من العلماء الذين تعرفوا مسبقا على الطباعة في الإمبراطورية العثمانية صعوبة في الاقتناع بمدى أهميتها.

***

ومثلما حاول الفرنسيون أن يقدموا إلى علماء الدين رؤية مستنيرة للعالم أساسها العلم تتخطى معارفهم، حاولوا أيضًا أن يمهدوا لهم طريق الاقتناع بالنظام الجمهوري. كان الجمهوريون يضعون شارة الجمهورية ثلاثية الألوان[١٣] على قبعاتهم في كثير من الأحيان أو يثبتونها بملابسهم في أحيان أخرى، وصار تثبيتها إلزاميًا في المرحلة الثورية، وفي عامي ١٧٩٧ و١٧٩٨ أكدت حكومة الإدارة ضرورة استخدام الفرنسيين جميعًا لتلك الشارة وأصدرت أحكامًا قصيرة بالسجن على بعض النساء اللائي أهملنها. احتدم النقاش حينئذ في مجلس الخمسمائة وفي الصحف حول الملزمين بتثبيت الشارة، وجاء رد اليعاقبة بأنهم جميع الفرنسيين، بل الأجانب على الذين يعيشون على أرض فرنسية. غير أنَّ بعض ساسة حكومة الإدارة وبعض المفكرين رأوا أن الشارة ينبغي أن ترتبط بالخدمة العسكرية، ومن ثمَّ فإن تثبيتها يقتصر على المواطنين من الذكور، وهناك من أصر على أنها لا تمثل المشاركة العسكرية أو السياسية وحدها بل الهوية الفرنسية؛ ولذا فإن النساء والأطفال والأجانب المقيمين في فرنسا يجب أن يحملوها.

وفي صيف عام ١٧٨٩، أصدر "بونابرت" أمره إلى المصريين جميعًا بتثبيت شارة الثورة، ويسجل المهندس "بروسبر جولوا" في مذكراته أنَّ الفرنسيين احتفلوا في رشيد في التاسع والعشرين من يوليو بغزو القاهرة، وأنّ أصحاب مناصب الإفتاء، والزعماء الجدد الذين رشحهم الأهالي، قلدوا وشاح الثورة ثلاثي الألوان. وبعد الانتهاء من مراسم الاحتفال تحركت مسيرة مدنية إلى قلب المدينة يتقدمها فريق موسيقى. وفي نهاية الاحتفال أطلقت السفن الفرنسية الصغيرة الراسية في النيل أمام رشيد مدافعها. ويذكر "فيبه دي تراج" فيما بعد في مذكراته ليوم الثلاثين من يوليو برشيد أنَّ الأهالي شرعوا في تثبيت الشارة الثورية.

كانت رشيد مرفأً منفتحًا على العالم يسكنها عدد كبير من المسيحيين، لكن ديوان المسلمين في القاهرة اعترض، فعقد "بونابرت" اجتماعين مطولين مع أعضائه وانتهى إلى إقناع الأعضاء جميعهم. بل إن القائد الأعلى، حسب قول "ساي"، اشتبك معهم في جدل ديني أثار دهشة المسلمين وأقنعهم بحججه. بدأ أعضاء الديوان بتثبيت الشارة وتبعهم في ذلك أهل مصر. ويؤكد المؤرخ السوري نيقولا ترك أنَّ رجال مصر ونساءها اتخذوا شارة الثورة الفرنسية. وصار لزامًا على المصريين جميعهم أن يلتزموا بذلك إذ إن تلك الشارة ترمز إلى دخول مصر في البلدان الفرنسية، وحقيقة الأمر أنها كانت شارة استسلام وإذعان.

ويقول الجبرتي إنَّ "بونابرت" استدعى شيوخ الأزهر في الخامس من سبتمبر، وحين استقر بهم المقام في مجلسه قام ليضع الوشاح ثلاثي الألوان على كتفي الشيخ الشرقاوي، فأبدى الشيخ غضبًا شديدًا وألقى بالوشاح أرضًا ورجا "بونابرت" أن يعفيه من ارتدائه. تحدث مترجم "بونابرت" فنقل عنه ما يلي: أيها الشيوخ الأجلاء، لقد أصبحتم أصدقاء القائد الأعلى الذي ينوي تكريمكم بإهدائكم تلك الأوشحة، فمتى علت مكانتكم بارتدائها سيعلو شأنكم بين الناس والجند وستحتلون مكانة خاصة في نفوسهم".

وينقل الجبرتي رد الشيوخ إذ قالوا إنَّ مكانتهم أمام الله وأمام إخوانهم من المسلمين لن تقوم لها بعد ذلك قائمة.

غضب "بونابرت" وأطلق لسانه في الشيوخ، وقد أقر مترجموه فيما بعد أنه تشكك في صلاحية الشيخ الشرقاوي لرئاسة الديوان، أما بقية الشيوخ فقد حاولوا مداهنته وسعوا للحصول على إذن بعدم ارتداء الوشاح.

وافق القائد الأعلى على طلبهم شريطة أن يضعوا الشارة على صدورهم على الأقل بدلا من الوشاح، فطلبوا مهلة اثني عشر يومًا لتدبر الأمر.

ويبدو أن "بونابرت" ندم على ما بدر منه من نفاد صبر، ففي المرة التالية التي استدعى فيها الشيخ الشرقاوي حيَّاه بود مصافحًا إياه، وهش له وتبسم في وجهه متبادلاً معه المجاملات، كما أهداه خاتمًا من الماس وطلب منه أن يعاود زيارته في اليوم التالي، وهو اليوم الذي أعلن فيه التزام المصريين بوضع شارة الثورة (التي رأى فيها الجبرتي رمزًا للطاعة والمحبة). وفي روايته لهذه الأحداث يقول الجبرتي إنَّ أغلبية الناس رفضوا الانصياع في حين رأى بعضهم أنّ الأمر لا يعدو خدعة لا ضرر منها على دينهم، بل إنَّ الضرر الأكبر سينتج من عصيان الأمر، ولذا فقد وضعوا الشارة. وما لبث الفرنسيون أن أصدروا قرارًا في اليوم نفسه بإعفاء العامة من ذلك الأمر (لم يشرح الجبرتي ما دفعهم إلى ذلك، لكن مشاعر المسلمين الذين خشوا أن ينقلبوا كفارًا إذا ما حاكوا الفرنسيين كان ينذر بخطر غضبة شعبية).

وفي اليوم التالي استدعى "بونابرت" الشيوخ مرة أخرى، وعند دخول الشيخ الشرقاوي تقدم القائد الأعلى وثبت الشارة على صدره، وفعل ذلك مع الآخرين عند دخولهم عليه فوجدوا حرجًا في رفض الشارة وقد رأوا كبيرهم يتقلدها، ولكنهم نزعوا الشارة من صدروهم حين غادروا قصر الجنرال. ولم يفلح الفرنسيون إلا في إرغام الأعيان ومن سعى إلى مجالسهم على وضع تلك الشارة[١٤].

ويؤكد "ساي" أنّ ذلك اللقاء، الذي شهد ما قيل عن اقتناع الشيوخ بما لوضع شارة الجمهورية من فضائل، أثبت أن الناس جميعهم يقعون رهن تأثير الحجج المنطقية التي تصاغ في لغة الحث والترغيب حتى إنْ كانوا من النخبة المثقفة (وهنا يضيف "ساي" تعليقا مستمدًا من فكر "روسو" مؤداه أنَّ المثقفين هم أكثر

الناس ميلاً مع الهوى)، وبخاصة حين يمسك صاحب الحجة بالقوة والسلطة بين يديه. وينهي "ساي" كلامه بالإشارة إلى من قضوا على مر التاريخ دفاعًا عمّا يفهمون وما يسيئون فهمه من آراء، ويرجو ألا ينقضي القرن الثامن عشر، الذي شهد روعة الإنجازات العسكرية للأمة الفرنسية العظيمة، دون أن يمهد الطريق لدوام انتصار العقل في مواجهة الهوى.(١٥)

نجد في قول "ساي" مرة أخرى ارتباط انتصار العقل بالمسارات الفكرية لعصر التنوير بل بالإنجازات العسكرية لأمة عظيمة؛ فالوطن والجيش يقدمان بوصفهما شرطين أساسيين يساعدان على انتصار العقل، كما لو أنَّ "فولتير" شارك "بونابرت" مسيرته داعمًا إياه كي ينتصر القائد الأعلى على مدينة الألف مأذنة. (جدير بالذكر أنَّ "لاوس دي بواسي"، محرر عمل "ساي" وشريكه فيه في واقع الأمر، كان معجبًا ب"فولتير"، ويُذكر أيضًا أنه تلقى خطابًا من الفيلسوف الفرنسي). وحقيقة الأمر أنَّ الجبرتي قد أوضح أن شيوخ الأزهر رأوا في تقلد الشارة تنازلاً مهينا عن مبادئهم، فصاروا يتقلدونها في أضيق الحدود وظلوا في الوقت نفسه محافظين على علاقاتهم الطيبة مع "بونابرت". وجدير بالذكر أنَّ المسلمين في بدايات العصر الحديث حافظوا على تقاليد ثابتة في مظهرهم وملابسهم، وتناقلوا باستحسان حديثا يُنسب إلى النبي محمد مؤداه أن من حاكى قومًا صار منهم، ولذلك فقد خشوا أن يفعلوا ما قد يسلبهم هويتهم المسلمة، ورأوا في اتباع الأزياء الفرنسية مسلكا تحوطه المخاطر على نحوٍ كبير وقد يودي بهم إلى التهلكة. أما من تقلدوا الشارة فقد عدوا فعلتهم حيلة مقبولة. وهكذا نجد أنَّ ما رآه "ساي" مزيجًا من القوة والعقل، وقد تبعه كثيرون في ذلك، قد أنتج من النفاق في كثير من الحالات ما فاق أثر التنوير في التاريخ الحديث.

***

بينما انعقد ولاء المسلمين في مصر للسلطان العثماني الذي عقد العزم من جانبه على تأكيد ذلك الولاء، سعى "بونابرت" لنقله إلى الجمهورية الفرنسية بإجبار المصريين على اتخاذ شارة الثورة. وجدير بالذكر أنَّ علماء أهل السنة في مصر لم يخلعوا على الإمبراطور في الآستانة أية مكانة دينية، خاصة وأنهم قد رأوا أنَّ الخلافة أو المعادل السني للبابوية، قد انقضى عهدها منذ قرون، لكنهم أعلوا من شأنه بوصفه حامي مصالح المسلمين السنة. وقد سبق أن ورد في فصل سابق مقولة "بونابرت" التي نقلها عن رؤية "فولني" الثاقبة التي تحدد ثلاثة حروب لغزو مصر، الأولى ضد البريطانيين، والثانية ضد العثمانيين، والثالثة ضد المسلمين من أهل البلاد. وفي موقعة أبي قير البحرية تلقى "بونابرت" الرد البريطاني على حملته، والآن بدأت تتكشف له صعوبة انتصار الغازي المحتل على شرعية السلطان وسلطته الكبيرتين. تقع الآستانة على مسافة ستمائة وتسعة وسبعين ميلاً إلى الشمال من الإسكندرية عبر المتوسط حيث تطل في شموخ وتألق على الخليج المعروف باسم القرن الذهبي. وفي غربي الآستانة يقع الجامع الأزرق، وقصر توبكابي حيث يستقبل مسئولو الخارجية العثمانية سفراء أوروبا. أما في شرقي المدينة، فإنَّ "جالاتا" **Galata** أو "بيرا" **Pera** تضم الأوروبيين الذين أقاموا أحياء تسكنها جالياتهم من كبار التجار والدبلوماسيين. وكانت الإمبراطورية العثمانية قد عانت نكسات على مدى قرن بعد سلسلة من الانتصارات أحرزتها في القرن السابع عشر، فانهزمت في عدة معارك كبرى أمام الإمبراطورية النمساوية الفتية، كما أنَّ صعود نجم القوة الروسية هدد العثمانيين وبات منذرًا لهم بنكسات أخرى. أضف إلى ذلك أنَّ قبضة الإمبراطورية على الأقاليم التي تقع في أقصى حدودها - مثل الجزائر - قد تراخت، وأصبحت نظم الحكم القائمة على سيطرة الجند أو المماليك شبه مستقلة في القاهرة وبغداد. كذلك تصاعدت مطالب الزعماء المحليين بتسلم

مقاليد السلطة في أنحاء كثير في سوريا، والأناضول، وتفجرت الاضطرابات لأول مرة في البلقان. ومع ذلك فالإمبراطورية لم ينقصها الموارد، وقد أدت الخسارة المفاجئة لإقليم مهم من أقاليمها إلى تضافر جهود قادتها في بحث الأمر بحثًا مستفيضًا، فمصير مصر لا يُحدد في باريس أو لندن وحدهما، بل في الآستانة أيضًا وسط دسائس الوزارة العثمانية ومؤامرات قناصل الدول الأوروبية بعضهم ضد بعض.

يصف المؤرخ العثماني أحمد جودت صدمة الباب العالي إزاء مسلك الفرنسيين الشائن نقلاً عن مذكرات لمؤلفين عثمانيين من أواخر القرن الثامن عشر. يذكر جودت أن معظم ملوك أوروبا انقلبوا ضد الفرنسيين بسبب ثورتهم، لكن العثمانيين حافظوا على إرث طويل من العلاقات الودية مع باريس، فظلوا يمنحون التجار الفرنسيين حرية التعامل التجاري في الإمبراطورية. غير أنَّ جودت يرى أنَّ تلك الحرية أوقعت بالعثمانيين بعض الضرر، وذلك إذا ما أخذنا في الاعتبار الضغوط الكبيرة التي مارسها السفير البريطاني وسفراء القوى الأوروبية الأخرى في المطالبة بإقصاء فرنسا الثورية عن المجتمع الدولي[١٦].

وعلى الرغم من أنَّ بعض العثمانيين المحافظين استقبلوا الثورة الفرنسية بالعداء، يجدر التأكيد أنَّ الدولة العثمانية، خلافًا للإمبراطوريتين النمساوية والبريطانية، لم تُبدِ استجابة إيديولوجية تجاه الثورة. يقول "ستانفورد شو"، أعظم مؤرخي الإمبراطورية العثمانية في تلك الفترة، "بينما مثلت أفكار الثورة الفرنسية عاملاً مخربًا للبنية الاجتماعية والسياسية العثمانية في مجملها فضلاً عن مركز السلطان نفسه، لم يحدث في أي وقت أن ثارت مخاوف السلطان أو مسئوليه من تلك الأفكار، كما لم تبرز الرغبة في الانضمام إلى الحركة التي تستهدف وقف انتشارها".[١٧]

تعرض سلاطين آل عثمان للقتل على أيدي أتباعهم، وبعضهم قضى نحبه في ثورات شعبية؛ ولذلك لم تجد الآستانة في إعدام ملك فرنسا وملكتها حدثًا غير مسبوق وإن أثار الأسى. رأت النخبة العثمانية في الثورة الفرنسية حدثًا سياسيًا غامضًا ومعقدًا يخص المسيحيين اللاتين في غرب أوروبا، بل عدَّ العثمانيون تورط الأوروبيين في مثل تلك الاضطرابات الاجتماعية المستمرة دليلاً على أفضلية الحياة في دولة مسلمة مستقرة. أضف إلى ذلك أنَّ الأبعاد الجغرافية السياسية للتحالف التاريخي بين فرنسا والعثمانيين القائم على مخاوف مشتركة من روسيا والنمسا لم يطرأ عليها تغيير. ويضيف "شو" أنَّ السلطان سليم الثالث في واقع الأمر رحب بالثورة لما أثارته من صراع أبعد أعداءه عن إمبراطوريته في زمن انكشف فيه ضعفها وصارت عرضة لهجمات عسكرية.

وعلى الرغم من تعاطفه مع الفرنسيين فإنَّ سليم الثالث سعى للحفاظ على علاقات طيبة مع التحالف الأول ضد فرنسا والذي ضم النمسا وروسيا وبريطانيا وإسبانيا (١٨٩٢- ١٧٩٧) وظل شاغله الشاغل في تسعينيات القرن الثامن عشر هو إصلاح العسكرية العثمانية، فقد اتجه إلى تنظيم القوات الإنكشارية وإقامة جيش جديد (نظام جديد) يرتدي أزياءً عسكريةً حديثةً ويتلقى تدريبًا حديثًا ويستخدم معدات حديثة. رفض سليم أول الأمر أن يستقبل بعثة دبلوماسية رسمية من فرنسا الثورية في الآستانة، وذلك حتى لا يغضب القوى الكبرى. غير أنَّه خطب ود الفرنسيين بسماحه للمسئولين العثمانيين باستقبال مبعوثين غير رسميين. ونشط التجار الفرنسيون المقيمون في الدولة العثمانية في نشر أخبار التطورات في الجمهورية الفرنسية عبر صحف تصدر باللغة الفرنسية ويطلع عليها كثيرون. كما سمح العثمانيون أيضًا للجمعيات الثورية الفرنسية في إستانبول أن تصدر منشورات وأن تعقد اجتماعات عامة تحشد فيها الناس، وإن كان عددهم قليلاً، بل أن يضعوا

شارة الجمهورية. وقد استقبلت الإدارة العثمانية الاحتجاجات الصاخبة للبريطانيين والروس حول السماح للفرنسيين بالظهور بتلك الشارة في الأماكن العامة بمزيج من التسامح والاستخفاف.

وما إن بدا واضحًا أن الجمهورية الجديدة قادرة على النجاح عسكريًا بحلول عام ١٧٩٥ حتى بادر السلطان سليم الثالث باستقبال سفير فرنسا في الأستانة. ومن غرائب المصادفات أنَّ "بونابرت" نفسه أوشك أن يُبعث إلى العاصمة العثمانية في تلك الفترة، ففي ذلك العام نفسه رفض "بونابرت" الانتقال إلى سلاح المشاة الذي أرسل لقمع ثورة الفلاحين المناصرة للملكية في "فينديه"؛ فقد رأى في تلك الواجبات الداخلية الأمنية أمرًا لا يليق بمكانته، كما عدَّ نقله من سلاح المدفعية إهانة شخصية له. أصدر مكتب الأمن العام حينذاك أمرًا بفصل "بونابرت" من الخدمة العسكرية ووُضع قيد الاعتقال لفترة قصيرة، غير أنه أعيد إلى موقعه السابق سريعًا.

وفي سبتمبر من عام ١٧٩٥، اقترح اسم "بونابرت" ضمن ثمانية أسماء لمهمة عسكرية تهدف إلى إعادة تنظيم سلاح المدفعية العثماني، ولكنه كان يأمل في تقلد منصب أرفع فاستغل علاقته بـ"بول بارا"، المسئول عن أمن باريس، ليمهد له الحصول على مثل هذا المنصب. قدّم صديقه "بوريين" فكرة الذهاب إلى الآستانة بوصفها نابعة من إرادة "بونابرت" ولكن الحقيقة أنه هو نفسه الذي طرح تلك الفكرة.[١٨] وفي نهاية المطاف في أكتوبر من ذلك العام استغل "بارا" مهارات "بونابرت" ليفرق حشدًا من مناصري الملكية والمنشقين على الثورة في باريس الذين أعلنوا تهديداتهم بالإطاحة بالحكومة الثورية. أصبح الجنرال بطلاً، وعزز "بارا" من علاقتهما بتقديم "بونابرت" إلى عشيقته السابقة "جوزفين دي بوهارنيه". وكان "بارا" من الداعين إلى الابتعاد عن الراديكالية والإرهاب، وهو الاتجاه الذي بدأ بعد الإطاحة بـ"روبسبيير" **Robespierre** ومسانديه في صيف عام ١٧٩٤،

وقدم العون لتأسيس حكومة الإدارة الجديدة، ثم أتاح لـ "بونابرت" قيادة الحملة على إيطاليا، وهناك برزت مواهب الكورسيكي بوصفه صاحب فكر عسكري جديد سخر المدفعية لأغراض جديدة. ولو ذهب "بونابرت" بالفعل لتقديم النصح لسليم الثالث في شئون المدفعية لتغير وجه التاريخ.

كانت معاهدة "كامبو فوريو" **Campo Forio** في عام ١٧٩٧ قد اعترفت بالسيطرة الفرنسية على جانب من الساحل الإيطالي على البحر الأدرياتيكي وعدة جزر تقع أمام ذلك الساحل؛ ونتيجة لذلك، أصبح للفرنسيين على حين غرة موقعًا في البلقان وصاروا جيرانا للعثمانيين. وعلى الرغم من الشكوك التي ساورت العثمانيين تجاه ذلك التحرك الفرنسي شرقا، فإنَّ سفير فرنسا في الآستانة، وهو الجنرال جان – باتيست أوبير – دوبابيه**Jean-Baptiste Aubert-Dubayet**، كان محل إعزاز العثمانيين وتقديرهم وتقدير العثمانيين وأثبت استعداده لتقديم العون لهم حين ورَّد قطعًا من المدفعية الخفيفة كي تستخدم ضمن مشروع إصلاح الجيش العثماني الذي تبناه سليم الثالث. وما لبث أن انتشر حزب موَازر لفرنسا داخل الإدارة العثمانية نادى بالإصلاحات الليبرالية ومضى ينفذها.

توفي "أوبير – دوبابيه" أثناء شغله لمنصبه في أواخر عام ١٧٩٧. ورأى "تاليران" في وفاته فرصة لبدء سياسة جديدة تجاه الآستانة ترتكز على طموحات "بونابرت" في مصر. اقترح أن يُبعث سفيرًا لدى الدولة العثمانية غير أنه أجَّل ذهابه لتقلد منصبه، ثم نصَّب "بيير – جان – ماري روفان" **Pierre-Jean-Marie Ruffin** القائم بالأعمال في سفارة فرنسا بالآستانة قائمًا بأعمال السفير[١٩]. وفي خطاب سري أرسله "تاليران" إلى "روفان" في أواخر ربيع عام ١٧٩٨، كشف "تاليران" عن قرار حكومة الإدارة غزو مصر ووعد بإرسال مبعوث على مستوى

رفيع ليشرح للحكومة العثمانية كيف أن احتلال الفرنسيين لمصر يشكل بادرة صداقة تجاه السلطان.

وفي بادئ الأمر شعر السلطان سليم الثالث بالقلق من تَوَجُّه الأسطول الفرنسي، الذي أبحر من "طولون"، إلى كريت أو قبرص أو المورة (جنوب اليونان حاليًا) لتعزيز الوجود الفرنسي في شرق المتوسط بعد تأسيس موطئ قدم للجيش الفرنسي في الأدرياتيكي.[٢٠] وحين سيطر الفرنسيون على مالطة اتصل الباب العالي بـ"روفان" مطالبًا إياه بتفسير ذلك التحرك، فبادر بنفي أي نيّة عدائية تجاه العثمانيين. وفي أواخر شهر يوليو، هدد السلطان "تاليران" بأن أي اعتداء على أراضٍ عثمانية سيعد إعلانا للحرب على الفور. لجأ "تاليران" إلى الكذب وأوحى إلى السلطان أن الأسطولين الفرنسي والعثماني قد يتخذان موقفا يسمح لهما بالتعاون ضد الروس في البحرين الأسود والأدرياتيكي. كما كتب "روفان" إلى "تاليران" في الأول من شهر أغسطس يؤكد ضرورة وصول مبعوث من باريس فورًا؛ وذلك حتي يُتاح له الحفاظ على مصداقيته، وأن يتحرر من القيد المفروض عليه للحفاظ على السر.[٢١] يقول "روفان" إنَّ خبرته علَّمته أن العثمانيين في الأساس يعانون من عدم كفاءة الحكومة واستبدادها على نحو يفوق ما قد يعانونه من المشروع الفرنسي في مصر. وتنحاز ملاحظة "روفان" لاقتناعه الشخصي على حساب الواقع، وبدا كأن ما يقوله سيؤتي ثماره في الواقع الفعلي.

وما إن ترددت أصداء غزو مصر في مدن سوريا والعراق والأناضول ووصلت إلى الآستانة حتى تراجع شعور "روفان" بالتفاؤل، فقد كتب تقريرًا في العاشر من أغسطس عن لقاءين مزعجين مع المسئولين العثمانيين. حضر أولهما مفتي الديار السني الذي نقل رأي العامة في شوارع الآستانة بقوله إن هياج النفوس يتصاعد على نحو مقلق يومًا بعد يوم. ويذكر "روفان" ما عاناه الوزير الأكبر

عزت محمد باشا من همٍّ لشيوع الغضب بين الناس وانزعاج لما صرح به "بونابرت" من أن غزو مصر تم بإذن من السلطان العثماني. استنكر "روفان" ذلك التصريح ووصفه بالكذب والبهتان، غير أنَّ الوزير الأكبر أكد له توافر الأدلة على صدقه. ثبت إذن أنَّ الإمبراطوريات الكبري أيضًا تأخذ الرأي العام في الاعتبار وبدا واضحًا للوزير أن عامة العثمانيين لن يقبلوا ألا تحرك حكومتهم ساكنا في مواجهة غزو مصر.

استدعى الوزير الأكبر "روفان" لاجتماع ثان في السادس من أغسطس ونقل إليه بصراحة استياء الباب العالي وعامة الشعب من الفرنسيين. قال الوزير إنَّ السفير الفرنسي ينبغي أن يلزم قصره فلا يغادره كما لا يجوز لمترجمه المواطن دانتان أن يزور الباب العالي مرة أخرى، وإنما يمكنه زيارة الوزير مساءً إن اقتضى الأمر، ويجب على الفرنسيين تجنب الظهور في الأماكن العامة والمتنزهات والشوارع الجانبية. كما يجب عليهم أن يرفعوا شارة الجمهورية من بوابات القصر واستخدامها بالداخل. وباختصار فإنَّ رأي السلطات العثمانية الذي توصلت إليه بعد دراسة وتدقيق أنَّ حملة "بونابرت" تُعرِّض التجار الفرنسيين، وغيرهم من المقيمين في الأراضي العثمانية، لخطر تمزيقهم إربًا على أيدي عامة المسلمين الغاضبين.

وبعد ثلاثة أيام، وضع السلطان سليم الفرنسيين في الدولة العثمانية رهن الإقامة الجبرية بمنازلهم وحرَّم عليهم مغادرتها. وفي خطاب كتبه "روفان" إلى "باريس" قدَّم تصورًا عن حالة الإحباط التي ظلت تتزايد بين العامة من العثمانيين. قال "روفان" إنَّ حريقا قد شبَّ في أواخر شهر أغسطس في الآستانة، وكعادته، خرج عزت محمد باشا ليشرف على إطفائه. وقفت مالكة أحد المنازل ترقب منزلها والنيران تأكله ووجهت نقدًا لاذعًا للباشا فقالت له إنَّ الله يعاقبهم لأنهم يتباطؤون في قطع علاقاتهم مع الكفار الذين استولوا على أقرب البلدان لمكة.

أما "بونابرت"، المتفائل دومًا وموضع الأسرار، فقد كتب إلى عزت محمد باشا في منتصف أغسطس ليبلغه أن "تاليران" سيصل إلى الآستانة بوصفه مبعوثا رفيع المستوى كي يوضح أن احتلال الفرنسيين لمصر ضرورةٌ للتوصل إلى تعزيز أواصر الصداقة مع الإمبراطورية العثمانية؛ فقد تم الغزو لحشد الدعم الذي يحتاجه الباب العالي ضد أعدائه الطبيعيين الذين بدءوا في تلك الفترة يتحالفون ضده.(٢٢) وأشار "بونابرت" من طرف خفي إلى أنَّ المماليك الجيورجيين شرعوا في إجراء مفاوضات جادة وجديدة مع الإمبراطورية الروسية، ويعد ذلك الأمر مصدر تهديد شعر به العثمانيون منذ أوائل سبعينيات القرن الثامن عشر.

وجدير بالذكر أنَّ الحزب الموالي لفرنسا في الوزارة العثمانية، ومن أعضائه الوزير الأكبر، تباطأ في قضية إعلان الحرب على فرنسا. وتلقى هؤلاء المسئولون الدعم من سفراء إسبانيا (التي ارتبطت بمعاهدة سلام مع فرنسا حينذاك)، وهولندا التي تسيطر عليها فرنسا، فضلاً عن سفراء الدول التي تخشى جانب روسيا التي قد تحقق ميزة كبرى إن تحالفت مع العثمانيين، مثل السويد والنمسا.(٢٣) أما الحزب المعادي لفرنسا فلم يوفق في تقديم حجج مقنعة. وفي الواحد والثلاثين من أغسطس، تحرك السلطان العثماني فأمر بإلقاء القبض على عزت محمد باشا وآخرين من السياسيين الموالين لفرنسا في بلاطه، وعيَّن يوسف ضياء باشا، وهو من المدافعين عن علماء الدين السنة ويُعرف بميوله المحافظة، وزيرًا أكبر، ونصَّب مسانده المخلص عشير أفندي على رأس هيئة العلماء. فإذا ببلاط السلطان سليم الثالث، الذي سعى إلى الإصلاح والليبرالية، والذي استقبل الثورة الفرنسية ذات التيارات المتلاطمة بقدر كبير من ضبط النفس، يجد نفسه في أحضان الرجعية متحالفا مع روسيا وخاضعًا لتأثير صاعد للعلماء المسلمين في العاصمة ممن يسعون إلى الانتقام. ولطالما انزعج الحزب المحافظ في الآستانة من

تداعيات الثورة الفرنسية ولكن حماسة السلطان للإصلاح طغت على ذلك الشعور. أما في تلك اللحظة، فإنَّ مشاعر هؤلاء المحافظين سيطرت على الخطاب العام. ويذكر الدرندلي أن تولية يوسف ضياء باشا منصب الوزير الأكبر لم تلقَ أي اعتراض بين المسئولين العثمانيين. وهكذا أعد سليم فريقا مناسبا يتولى أمر سياسة خارجية جديدة ومحافظة، تعتمد على التحالفات القائمة ضد الثورة الفرنسية.

وفي الثاني من سبتمبر، عبَّر القيصر الروسي بولس الأول عن تأييده الحازم وذلك بأن أرسل أسطوله من "سيفاستوبول" **Sevastopol** على البحر الأسود إلى الآستانة. وسرعان ما قام سليم الثالث بأسر "روفان" وموظفي السفارة الفرنسية واحتجزهم في سجن الأبراج السبعة. وفي الوقت ذاته صدرت الأوامر بالانتقام من كل الفرنسيين في الإمبراطورية؛ فألقي القبض على التجار وصوردت ممتلكاتهم. وهكذا في لمح البصر قوَّض "بونابرت" قرونا من السياسات التجارية الفرنسية العثمانية الناجحة.

وفي اليوم ذاته، استصدر السلطان فتوى من مفتي الديار بشأن إعلان الحرب على فرنسا، وفي التاسع من سبتمبر، أُعدت مسودة لإعلان الحرب وصدرت رسميًا في الثاني عشر من سبتمبر. عبرت الوثيقة عن سخط الدولة العثمانية على الخيانة الفرنسية بعد مساندة السلطان العثماني للفرنسيين في مطلع العقد وأكدت أنَّ مصر بموقعها الرئيسي الذي يمثل بوابة الحرمين الشريفين يجعل من مسألة احتلالها أمرًا يهم المسلمين كلهم.[٢٤] ومع ذلك، فواقع الأمر أن فرمانات عدة سبق أن صدرت منذ أواخر شهر أغسطس. وفي فرمان صادر في سبتمبر ١٧٩٨، أدان السلطان "بونابرت" شخصيًا لغزوه مصر وإعلانه الحرب ضد مسلمي هذا البلد ولإشاعته أكاذيب متنوعة وتقارير كاذبة. وحذر السلطان أن الخيانة الفرنسية التي تناقض القانون الدولي قد كشفت نيات الفرنسيين في إخضاع أرض

الإسلام وإشاعة الفوضى فيها. وأعلن الفرمان بلهجة قوية أنَّ الزحف ضد الفرنسيين الكفرة صار فرض عين. وقد نص الفرمان على أنَّ ذلك الزحف هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن للمسلمين أن يأملوا من خلالها في تطهير القاهرة وما جاورها من أراضٍ من الوجود الفرنسي الذي يشيع الفساد، وفي تحرير عباد الله من المسلمين.(٢٥) وجدير بالملاحظة أنَّ الفرمان العثماني يتهم الفرنسيين في المقام الأول بانتهاك قوانين الأمم وأعرافها، وبما أنَّ الفرمان موجه إلى السلطات العثمانية فهو يدل دلالة واضحة على عقلية سليم الثالث الإصلاحية ذات الاتجاه المدني، فهو لم يصف عدوان باريس بأنه غارة الكفار ضد المسلمين، على الرغم من أنها كذلك، بل بأنها في المقام الأول جريمة ذات أبعاد دولية.

ويعد الدفاع عن جماعة المسلمين ضد أي هجوم فرض كفاية في الشريعة الإسلامية التقليدية، أي أنَّ الدفاع غير واجب على كل فرد على حدة. ولا يترك قرار توقيت الحرب أو كيفيتها للأفراد، وإنما تتخذه السلطات المعنية، وفي تلك الحالة فإنَّ المقصود بذلك هو السلطان. وتتطلب شرائع الحرب المقدسة أو الجهاد إعلانا للحرب، وتحذيرًا لقوات العدو بتعرضها للهجوم، وإتاحة الفرصة لاعتناق العدو الدين الإسلامي (مما تنتفي معه الحاجة إلى اللجوء للحرب)، والتزام المسلمين بقواعد من السلوك تحرِّم قتل غير المقاتلين من النساء والأطفال. وبإعلان سليم الثالث الحرب الدفاعية؛ أصبح واجب كل فرد أن يقاتل الفرنسيين، وهو ما يضفي شرعية على حرب العصابات التي يقوم بها الرعايا المصريون ويشكل الخطر الأكبر الذي يواجهه الفرنسيون. دمج سليم الثالث الشريعة الإسلامية والقانون الدولي بأن أعلن الجهاد للدفاع عن أرض الإسلام، وفي الوقت ذاته أشار إلى الأعراف الدولية. إذن لم ير السلطان الأمر من منظور صراع الحضارات؛

فهو لا يتوانى عن التحالف مع روسيا وبريطانيا، وهما قوتـان مسيحيتان، فـي مواجهة الجمهورية العلمانية التي ربطته بها أواصر الصداقة من قبل.

اجتمع الأسطولان العثماني والروسي لوضع حد للوجود الفرنسي في الجزر الأيونية والأدرياتيكي، في حين تولى البريطانيون، يصحبهم تشكيلٌ عثمانيٌ، مراقبة سواحل الشام ومصر. وفشلت محاولات "تاليران" في إثارة نبلاء البلقان للإطاحة بالحكم العثماني، فقد أحبطها السلطان بسهولة حين أغدق عليهم مزيدًا من الأراضي والامتيازات، فاحتجزوا مبعوثي "تاليران" من المتآمرين وأعلموا الآستانة بعملهم هذا. وهكذا تكون التحالف الثاني الكبير ضد الجمهورية الفرنسية، وقد انضم إليه بولس الأول قيصر روسيا، وحكومة ويليام بيت الأصغر البريطانية وسليم الثالث. وفي نهاية المطاف، شارك فرانتس الأول إمبراطور النمسا في ذلك التحالف أيضًا. وبعد قدر كبير من المساومات والمفاوضات وتهدئة الخواطر، منح الباب العالي حكم الإقليم المصري لحاكم صيدا أحمد الجزار باشا، وقدم له وعدًا بإمداده بأموال وجيوش لمقاومة الفرنسيين هناك.(٢٦)

انتشر خبر إعلان السلطان الحرب المقدسة تدريجيًا في مصر. ويذكر "نيللو سارجي" أن خطباء المساجد انصرفوا إلى الوعظ الديني في الظاهر ولكنهم سعوا إلى نشر فرمان سليم الثالث في الخفاء. ويقول الجبرتي إنه في الرابع عشر من سبتمبر وصلت رسالة من إبراهيم بك الذي استقر في سوريا يقطع فيها على نفسه عهداً بالعودة على رأس جيش عثماني. علم "بونابرت" بالأمر وقرأ الخطاب وقد اختلطت في نفسه مشاعر الغضب والاحتقار ووصف البكوات بالكاذبين. ثم تلا الخطاب الأول خطابٌ ثانٍ حافظ الشيوخ على سريته بقدر أكبر من الحرص. وكان "بونابرت" قد ترامت إليه شائعات حول محتواه؛ فقام للقاء الشيخ السادات في منزله في حي الأزهر، لكن الشيخ لم يكن قد تلقى بعد نسخة منه. وفي طريقه إلى منزل

الشيخ السادات مر بجامع كبير يؤمه قوم كثيرون بدا عليهم الاهتياج؛ توقف "بونابرت" ليستفسر عما وراء انفعالاتهم فقيل له إنهم يدعون لك بالخير والتوفيق؛ فتركهم ومضى في طريقه. ويقول الجبرتي إن ظهور القائد الأعلى في ذلك المكان والزمان كاد أن يفجر شغبًا، ولا يمكن تصور أن هؤلاء كانوا يدعون لجنرال أجنبي بحلول البركة.

وفي أواخر شهر سبتمبر، استصدر "بونابرت" حكمًا بإعدام رجلين نقلا رسائل من المماليك المخلوعين في سوريا وصعيد مصر وإليهم، وعرض رأسيهما في الطرقات عبرة للآخرين. أما السلطات المصرية الموالية حينذاك لـ "بونابرت" فقد دعت العامة في القاهرة إلى البعد عن الفضول والخوض في أمور السياسة، وأن يتوقفوا عما اعتادوا عليه من السخرية أو إظهار الفرح عند رؤية الجنود الفرنسيين المهزومين أو الجرحى وهم في طريقهم إلى العاصمة.[٢٧] ويعد الحظر المفروض على المناقشات السياسة أسلوبًا قديمًا استخدمه العثمانيون للسيطرة، أما استخدامه من قبل الفرنسيين حاملي راية حقوق الإنسان فيعد أمرًا شاذًا للغاية.

انتشر الفرمان الصادر عن الوزير العثماني الأكبر يوسف ضياء باشا ذي الاتجاه المحافظ يدعو المصريين إلى مقاومة الفرنسيين.[٢٨] يقول الوزير إنَّ الباب العالي أُبلغ بغزو الفرنسيين لمصر وبخداعهم ونشرهم فرمانات مزيفة تدعي أن السلطان العثماني يبارك تلك الحملة؛ فنيّات الفرنسيين تغلفها الأكاذيب والدناءة. ويتّهم الوزير الفرنسيين بأنهم يدسون السم في إقليم مصر، ويعلن آن الأوان قد حان لكشف أكاذيبهم؛ فنياتهم الدنيئة صارت واضحة في الخطابات التي أرسلوها إلى بلادهم، والتي جرى اعتراضها وترجمتها (لم يذكر الوزير أن البريطانيين هم من اعترضوا هذه الخطابات وأرسلوها إلى الباب العالي). ويحذر الوزير في خطابه أنَّ الفرنسيين لا ينوون حكم مصر وحدها بل يتطلعون إلى غزو سوريا وإيران

(داعبت "بونابرت" في بعض الأحيان فكرة تحدي البريطانيين في الهند عبر حملة برية تنطلق من إيران القاجارية وأفغانستان إلى ممر خيبر ومنه إلى دلهي فيقتفي أثر الإسكندر الأكبر). كما حذر الوزير الأكبر من أن الفرنسيين سيستولون على متاع المؤمنين ونسائهم وأطفالهم ويجعلونهم عبيدًا لهم، وسيسفكون دماء المصريين، وتوجّه بالدعاء إلى الله ليشمل الجميع برحمته. ودعا الوزير الأكبر المصريين أن يضحوا بكل ما لديهم كي يحاربوا الغزاة الجدد، ووعد بإرسال حملة لينقذ مصر من الحكم الأجنبي، وأكد أن الجيش بالفعل في دمشق (لم يكن الوزير صادقًا فقد احتاج العثمانيون بعض الوقت كي يردوا على الاعتداء الفرنسي)، ويضيف الوزير الأكبر أن الباب العالي، وقد تأسس على سلطة ملك الملوك وسيد الأبطال والمحاربين وملك البحرين والبرين وسيد العالم وقد زاده الله مجدًا بشفاعة النبي والصالحين، يوكل أمره إلى الله ويعلن الحرب على الأعداء.

خاب أمل "بونابرت" إذن في أن يقوي من شوكة علماء الأزهر فيتخلوا عن ولائهم للسلطان، أو في أن يقنعهم أنّه نائب عن السلطان، بغض النظر عما يعلنه العلماء المقهورون والخائفون أمامه. ويصف الشيخ عبد الله الشرقاوي، رئيس ديوان القاهرة، الذي كرّمه "بونابرت" ثم أذله، وقدم له الرشوة ثم احتقره، يصف الفرنسيين في كتاب "في تاريخ مصر"(*) بكلمات تعكس ما استقر في يقينه بالفعل بشأن سياسة "بونابرت" الإسلامية.(٢٩) يقول الشيخ الشرقاوي إنّ الفرنسيين الذين جاءوا إلى مصر ماديون وفلاسفة فاسقون، ويضيف أنّهم من المسيحيين الكاثوليك ممن يتبعون السيد المسيح في ظاهر الأمر، ولكنهم في الواقع منكرون للبعث والحياة الآخرة والرسل الذين بعثهم الله، وهم موحدون ويعتقدون أن الله واحد ولكنه

(*) هو كتاب "تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين". تحقيق ونشر رحاب عبد الحميد، القاهرة، ١٩٩٦. (المراجع)

يعترض على توصلهم إلى تلك العقيدة عن طريق الحجج (وليس عن طريق الإيمان)؛ فهم يتبعون العقل ويحكمونه في أمورهم ويوكلون إلى بعضهم سن شرائعهم باستخدام العقل ويطلقون على تلك الشرائع اسم "القوانين". أما في الإسلام، فهناك فرق بين الشريعة المنزلة والترتيبات المدنية، أي الأحكام التي يصدرها السلاطين والحكام. ويرى الشرقاوي أن الفرنسيين يخلطون بين الشرائع والأحكام ويضعون الأحكام محل الشرائع. ويضيف أنهم يعدون الرسل، مثل محمد وعيسى وموسى، مجموعة من الحكماء وأن ما صدر عنهم من شرائع تعبيرٌ غير مباشر عن قانون مدني نابع من عقولهم بما يتناسب مع معاصريهم.

ولهذا السبب فإن الشيخ الشرقاوي يصل إلى نتيجة مؤداها أنّ الفرنسيين أقاموا دواوين في القاهرة والبلدات الكبيرة كي تسيِّر الشئون وفقًا للعقل، وفي ذلك رحمة لأهل مصر. وفي أحد الدواوين عيَّن الفرنسيون مجموعة من العلماء وشرعوا يستشيرونهم في بعض الأمور التي لا تتفق والشرع. وعلى الرغم من أن فكرة المجالس المحلية قد راقت للشيخ الشرقاوي فإنه سجل اعتراضه على انشغال الشيوخ الذين تخصصوا في الشريعة القائمة على القرآن والسنة بالأحكام المدنية، فقد جرت العادة على أن تقوم الحكومة الإسلامية باستشارتهم لمعرفة رأي الشرع في حالة بعينها من خلال تفسيرهم المتخصص للنصوص الدينية. ينكر الفرنسيون إذن أنّ الله أرسل رسلاً، وهم يرون في الشريعة بوصفها وسيلة غير مباشرة تستهدف إقناع العامة باتباع التعليمات التي تنبع، في واقع الأمر، من استخدام العقل. وخلاصة القول أنّ الشرقاوي رأى في تعيينه بالديوان حطًا من شأنه نقله من دراسة أمور عليا إلى تقديم المشورة في أمور السياسة الدنيا إلى الكفرة من الأجانب. ويخلص الشيخ الشرقاوي إلى القول بأنّ السبب الذي دعا القاهريين وأهل

القرى المجاورة لها للالتزام بالطاعة، إلى حد ما، يكمن في عدم قدرتهم على المقاومة لأنَّ المماليك فروا ومعهم عدة الحرب.

ويقول الشرقاوي إنَّ الفرنسيين حين وصلوا إلى مصر حرروا رسالة ونشروها زعموا فيها أنَّهم لا يدينون بالمسيحية؛ لأنَّهم يؤمنون بأن الله واحد لا شريك له في حين يؤمن المسيحيون بالتثليث، وأنَّهم يعظِّمون شأن نبي الإسلام ويحترمون القرآن، وأنَّهم يحبون العثمانيين، وأنَّهم ما جاءوا إلا ليخلعوا المماليك الذين ضيقوا الخناق على التجار الفرنسيين، وأنَّهم لن يمسوا الرعايا من العامة بسوء. ويحتّج الشرقاوي قائلاً إنَّهم ما إن دخلوا البلاد حتى نهبوا ثروات المماليك وصادروها لأنفسهم كما نهبوا العامة وقتلوا كثيرين منهم.

إنَّ وصف الشرقاوي للفرنسيين ذوي الاتجاه العقلاني في تفسير الأديان دقيقٌ إلى حد بعيد غير أنَّه رآهم من منظور محلي؛ فقد شنَّ المفكرون العرب من المسلمين حروبًا ثقافية في العصور الوسطى حول مكانة العقل، وبخاصة العقل اليوناني، في المعرفة الإسلامية، وكما يعرف "بونابرت" فإنَّ علماء المسلمين حرصوا على تبني أعمالٍ علمية وفلسفية من عالم اليونان القديمة أثناء الخلافة العباسية من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر. وقد ظلت الفلسفة مادة تثير الجدل في الأزهر، ويُعزى الخلاف بين العلماء الذين أثارت علوم الفرنسيين اهتمامهم، وأولئك الذين رفضوا تلك العلوم، إلى اختلاف مواقفهم من التراث اليوناني.(٣٠)

***

وقبل انتهاء شهر سبتمبر، وصلت أنباء الإعلان العثماني الصادر بتاريخ الثاني عشر من الشهر نفسه بشن الحرب على الجمهورية الفرنسية إلى سمع

الضابط الشاب "ديزفرنواه" الذي شارك في القتال ضد قــوات إبــراهيم بــك فــي الصالحية، فاستقبله بقدر من اليأس. شعر "ديزفرنواه" أنَّ "بونابرت" تعرض للخيانة من قبل حكومة الإدارة و"تاليران" لفشلهم في الحفاظ على محاولة خياليــة للحفــاظ على التحالف مع الباب العالي في الوقت الذي يحتلون فيه إقليمًا عثمانيًا. وكان يعلم أنَّ الجيش الفرنسي قد أصبح معرضًا لهجمات الجيش العثمــاني وربمــا الجــيش البريطاني. كتب الضابط الشاب يقول إنَّه بحلول نهاية شهر سبتمبر باتــت مــصر تغلي وتمور، وتمرد البدو وخصوصًا في الدلتا.[٣١]

الفصل التاسع

عيد الجمهورية

ظل شمال شرقي مصر يفتقر إلى الأمان بعدما هدد الموقف المضطرب سيطرة الفرنسيين على أقصى الموانئ المصرية شرقي البلاد ومركز تجارة الأرز الذي تنتجه الدلتا ألا وهي مدينة دمياط. ويسجل "نييللو سارجي" في تقريره أنَّ الأعراب يهاجمون قوارب الفرنسيين ببحيرة المنزلة يوميًا وينهبونها ويقتلون من على ظهرها.(١) فقد تحالف البدو الذين يمثلون القوة السياسية في أقاليم شمال شرق الدلتا مع صائدي الأسماك من القرويين الذين يسيطرون على بحيرة المنزلة التي تمتد سبعمائة ميلٍ مربعٍ. مثلت تلك البحيرة أهمية للفرنسيين بوصفها طريقاً للنقل، كما أنَّهم قادرون- إن سيطروا عليها- أن يحافظوا على دمياط وهي الميناء المهم الذي يجاورها. ويُعرف القرويون الذين يعيشون على سواحل تلك البحيرة الكبيرة وعلى جزر المطرية، وهي مجموعة جزر داخل البحيرة، بمهارتهم في فنون البحر والصيد. ويقول الجنرال "أندريوسي" الذي كُلِّف فيما بعد بمهمة استطلاع تلك البحيرة إنَّهم يمتلكون حوالي خمسمائة أو ستمائة قارب صغير ويحتكرون حق الإبحار والصيد بالبحيرة. وهم أيضًا المسيطرون على البحيرة والأراضي على ضفتي النهر يشاركهم في ذلك البدو. ويدين هؤلاء بالولاء للملتزم حسن طوبار الذي ينتمي إلى عائلة انعقدت لها الزعامة في تلك المنطقة على مدى أربعة أو خمسة أجيال، والذي رأى فيه الفرنسيون المحرض على الثورات ضدهم في شمال شرق مصر.

وخلال موسم الفيضان السنوي، تستقبل مياه البحيرة المالحة مددًا من مياه النيل العذبة، ويتراوح عمق البحيرة بين ثلاث وثماني أقدام وتتسم بكثرة أسماكها

وتنوعها. ونظرًا للعزلة النسبية لأهل المطرية فإنّ الوباء لم يمسهم طوال ثلاثين عامًا خلافًا لأهالي مصر الذين عانوا من عدة أوبئة أنهكت قواهم، منها ما اجتاح القاهرة اجتياحًا في عام ١٧٩١، ولم يمض عليه زمن بعيد. ومع ذلك فإنّ "ميليه" يقول إنّ المستنقعات تولّد أمراض الحمى على نحو متكرر. ويعيش حوالي ألف ومائة رجل على تلك الجزر، ولا يشمل ذلك العدد زوجاتهم وأبناءهم، ويتّخذ هؤلاء من الأكواخ بيوتًا لهم ويبنونها بالطمي أو بالطوب المعد بالأفران، وتنتشر تلك الأكواخ في أرجاء تلك الجزر كافة.

حَظَرَ سكان الجزر الأصليون والمنعزلون في المطرية على جيرانهم الصيد في البحيرة، ولم يتواصلوا معهم إلا في أضيق الحدود. وهم يمضون أيامهم يكدحون في أعمالهم وهم شبه عراة في مياه البحيرة. ويصفهم "ميليه" فيقول إنّهم أقوياء أشداء لوحت بشرتهم الشمس الحارقة، ذوو شعر ولحى فاحمة السواد خشنة الملمس مما يخلع عليهم مظهرًا بربريًا. وحين يجدون أنفسهم أمام أعدائهم فإنّهم يقرعون ضربًا من الطبول أو يخبطون مقدمة قواربهم وصرخاتهم الوحشية ترتفع إلى عنان السماء. وقد تمكن طوبار من السيطرة عليهم مستعينًا بأربعة زعماء.

احتل الشيخ حسن طوبار موقعًا أشبه بملك متوّج لإقليم شمال شرق الدلتا بفضل ثروته والقروض الكثيرة التي قدمها لعملائه، وأبنائه الذين يشكلون عصبة قوية من الرجال، والرواتب التي أجراها لكثير من الناس، فضلاً عن دعم القبائل البدوية له. قدم طوبار الأرض للبدو لزراعتها حسب ما يروي "نيبللو سارجي" وأغدق على زعمائهم الهدايا الفاخرة. وقد أكد "نيبللو سارجي" أنّه على الرغم من موقعه التابع للدولة العثمانية بمصر فإنّه لم يسدد أية ضرائب منذ بضع سنوات.

وللكابتن "موراية" تصورٌ آخر مخالف لما ذهب إليه "سارجي" فهو يقول إنّ طوبار يقدم للسادة الذين يدين لهم بالولاء مبلغ خمسمائة ألف فرنك في العام. وقد زعم "سارجي" أنّ طوبار كان من القلائل الذين جمعوا ثروات طائلة تحت سمع وبصر حكام القاهرة الذين حاولوا بين حين وآخر فرض الجزاءات عليه، ولكنهم وجهوا دائمًا بالصد على أيدي قواته البدوية وفلاحيه الذين يجوبون بحيرة المنزلة. فقد مثلت أرضه التي جمعت البحيرة إلى المستنقعات والصحراء حاجزًا مثاليًا أمام اختراق سلطات الدولة. وحين وصل "بونابرت" إلى مصر، أرسل طوبار زوجته المحبوبة وأبناءهما محملين بجانب كبير من ثروته إلى دمشق، وقرر أن يلحق بهما إذا تمكن الفرنسيون من احتلال أرضه. وبما أنّ الرد العثماني على الغزو الفرنسي قد يأتي عبر تلك المنطقة فقد أعلن متفاخرًا تهديدًا بتقديم موارده كافة للقوات العثمانية التي ينتظر أن تلحق الهزيمة بالفرنسيين في نهاية المطاف. ويرى الأتراك أنّ طوبار تلقى تشجيعًا على إعلان الثورة على الفرنسيين من إبراهيم بك، وكذلك نائب السلطان في صيدا الجزار باشا، الذي ولاه السلطان العثماني أمر تجريد حملة لصد الغزو الفرنسي من جهة سوريا.

ويلاحظ الكابتن "بيير فرانسو جيربو" **Pierre-François Gerbaud** أنّ دمياط خلت من التجار الأوروبيين؛ إذ إنّ جل تجارتها تتجه إلى سوريا وقبرص وتركيا الحالية.(٢) وقد بلغ تعداد سكانها حينئذ اثني عشر ألف نسمة على وجه التقريب. يصف "ميليه" أزقة دمياط شديدة الضيق، ولكنه يقول إنّ بها ميدانًا جميلاً، ويحيط الحي اليوناني بذلك الميدان ويزيده بهاء وجمالاً. وقد أنشأ اليونانيون النُزُل والمقاهي بذوق أوروبي والتزموا بقوانينهم وتقاليدهم حتى وإنْ ظلوا خاضعين للمسلمين. ويلاحظ "جيربو" أنّ بدمياط كثيرًا من المحال الصغيرة والتجار الصغار بينما لا يوجد تجارٌ كبار. ويقع ميناء المدينة على الفرع الشرقي للنيل على بعد

بضعة أميال برا من البحر المتوسط. ويسجل أحد الضباط أنّ السفر من دمياط إلى غزة بسوريا العثمانية بحرًا يستغرق ثمانيا وأربعين ساعة.

ويكتب "جيربو" في مذكراته بتاريخ الثاني عشر من سبتمبر أنّ هناك مخاوف من تجمع ثلاثة آلاف قارب على بحيرة المنزلة غير البعيد من دمياط. وقد سلّح طوبار صائدي الأسماك وجهز قواربهم لتكون بمثابة أسطول حربي. ويذكر "ميليه" أنّه قرابة منتصف شهر سبتمبر أُرسل ورجالُ وحدته من المنصورة إلى المنزلة فتعرضوا لهجوم الأعراب وسكان كثير من القرى الذين انقضوا عليهم. مرَّ الفرنسيون في سفرهم على قناة ضيقة فكانت القوارب تكاد تمس جانبيها.(٣) يصف "ميليه" وصول وحدته أمام قرية كبيرة لا تبعد عنهم إلا بمقدار عشرين قدمًا. ولم يخطر ببال أحد الجنود أنّهم سيتعرضون لهجمة، ولكن على حين غرة انطلقت جموع الفلاحين والأعراب في اتجاههم، واستعد المهاجمون للقفز في القوارب الفرنسية.

لم يكن الفرنسيون مستعدين لمثل هذه الهجمة كما أنّهم قد عانوا الأمرين من حرارة الطقس، غير أنّهم سارعوا إلى حمل السلاح. ويصف "ميليه" المهاجمين فيقول إنّهم رجال ونساء يحملون الحراب والغدارات والسيوف. بلغ عدد الفرنسيين مائة وخمسين رجلاً بدءوا بإطلاق بنادقهم لإخافة المصريين، فهرب هؤلاء بالسرعة نفسها التي ظهروا بها. ويضيف "ميليه" أنّ الفرنسيين شرعوا في ملاحقة الفلاحين مواصلين إطلاق النار فأسقطوا منهم كثيرين بين صريع وجريح. تكبدت وحدة "ميليه" بعض الخسائر تمثلت في خمسة من القتلى واثني عشر جريحًا. ولما انتهت المعركة عبر الفرنسيون القناة ودخلوا القرية فأوقعوا بأهلها الذين انسحبوا مجزرة بشعة، وبعد أن نهبوا ما بها أضرموا النيران في جوانبها. سار الفرنسيون بعد ذلك إلى قرية سبق أنْ تركوا بها عميلاً لهم وكثيرًا من الغنائم ليجدوا أنّ العميل

قد قُتِل وأنَّ قواربهم نُهبت، فحرقوا تلك القرية أيضًا، ثم عادوا إلى المنصورة بعد أن خبروا ثورة كبيرة لم تكن في الحسبان.

جمَّع طوبار حشدًا من محاربي البدو من الدقهلية والشرقية في قوارب لمساندة فلاحي البحيرة وصائدي الأسماك بها، وأبحر تشكيل فرنسي من مائة وخمسين قاربًا في اتجاه المطرية، وهي بلدة تقع بالقرب من منتصف الساحل الغربي للبحيرة، ثم اتجه الفرنسيون إلى دمياط وقد حملتهم رياحٌ سريعة فألقوا مراسيهم عند قرية تبعد نصف فرسخ عن دمياط. ويسجل "جيربو" في مذكراته بتاريخ الرابع عشر من سبتمبر ما تيقن منه الفرنسيون من خيانة زعماء الشعراء والمنزلة وغيرهما من القرى. وبحلول منتصف الليل، احتشد البدو حول قوارب الفرنسيين، وقد تسلحوا بالبنادق والحراب والفئوس، وتمكنوا من مفاجأة الجنرال "فيال" وفرقته الثالثة عشرة الذين كانوا نيامًا في عنابرهم بالميناء. يقول "جيربو" إنَّ المهاجمين جلبوا معهم قشًا ومواد قابلة للاشتعال ووضعوها أسفل مباني الحامية الفرنسية. استولت القوة المهاجمة على خزانة المال غير أنَّهم لم يفلحوا في فتحها فانطلقوا ينهبون المدينة بدلاً من إتمام غزوتهم العسكرية على نحو منظم. ويقول إنَّهم تصايحوا متوعدين بأنَّ ذلك اليوم حربٌ على الكفار والمسيحيين الذين يوالونهم، وهو يوم نصرة الإسلام وقتل التعساء الملاعين.

تحالفت الجاليتان الكبيرتان من اليونانيين والسوريين بدمياط مع الفرنسيين واستعدوا لمقاومة مدنية ضد البدو ورجال القوارب. ويقول تُرك إنَّهم حملوا بنادقهم وأطلقوا النار على جماعة طوبار غير النظامية من أسطح منازلهم التي تقع حول الميدان الرئيسي بالمدينة. اتخذ "فيال" المحاصر تدابيره ليرحل ليلاً فشاع الرعب بين مسيحيي دمياط لما علموا باستعداده للتخلي عنهم. ويسجل تُرك أنهم أخبروه بما سمعوا من أن المهاجمين سيبادرون بقتل المسيحيين قبل الفرنسيين لأنَّهم يدعمون

الأوروبيين. أجّل "فيال" الرحيل وظل الفرنسيون في ثكناتهم في السادس عشر من سبتمبر. ويقول "جيربوه" إنّ عدوهم لم يتخل عن مواقعه، وأنّ الأنباء ترامت إليهم بزحف طوبار نفسه من المنزلة متحالفًا مع عمدة الشعراء. حاول "فيال" أن يُرسل قاربًا صغيرًا يصحبه قاربان كبيران مدججان بالمدافع إلى الجنرال دوجا. ولكن البدو اعترضوا القافلة عند ميت الخولي وذبحوا عشرين من المرافقين. وفي ساعة متأخرة من المساء وصل عشرون مهندسًا فرنسيًا إلى المدينة وأخلى "فيال" المستشفى. وفي السابع عشر من سبتمبر عَدَلَ عن خطته لمهاجمة الشعراء فلم يكن يأتمر سوى على أربعمائة رجل ولم يتوقع أن يترك خلفه حامية كافية لضمان سلامة سكان المدينة من اليونانيين. كما تمكن "أندريوسي" من الوصول بصحبة خمسين رجلاً.

وفي صباح الثامن عشر من سبتمبر، وصلت التعزيزات الفرنسية أخيرًا من طرف الجنرال "دوجا" بالمنصورة فارتفعت الروح المعنوية للفرنسيين وبصفة خاصة بين مسيحيي المدينة. وأصبح متاحًا لـ "فيال" و"أندريوسي" وقد انضم إلى قوتهم مائتان وخمسون رجلاً لحماية دمياط أن يشنوا هجوما. وفي أقل من ساعتين اضطر الفرنسيون أهل البحيرة والبدو إلى التخلي عن دمياط والهرب عبر المنزلة. تقهقرت قوات طوبار إلى قرية الشعراء حيث تلقوا تعزيزات. ويقول تُرك إنّ أهل قرية العزبة انتشرت بينهم شائعات حول مقتل الفرنسيين كلهم في دمياط فثاروا ضد حامية صغيرة بقريتهم قوامها خمسة وعشرون جنديًا، فقتلوا خمسة جنود تصادف وجودهم خارج الحصن، ثم هاجموا رجال الحامية. وبعد ساعات من القتال العنيف وصلتهم أخبار فشل الهجوم على دمياط فخشي الأهالي من انتقام الفرنسيين وجمعوا متاعهم وهاجروا جميعًا إلى سوريا. وحين وصل "فيال" لتفقد القرية وجدها مهجورة فبنى الفرنسيون حصنًا جديدًا في موقعها.

أرسل "فيال" رجاله كي يهاجموا المصريين المتحصنين بالشعراء. وما إنْ شرع جنوده في السير برًا حتى دعمه "أندريوسي" بأسطول صغير، وحين وصلوا إلى البلدة التي يسيطر عليها عدوهم وجدوا البدو قد اصطفوا في صف واحد قوامه من ألف ومائتين إلى ألف وخمسمائة رجل يمتد من البحيرة إلى النيل. بادر البدو الجنودَ الفرنسيين حين ظهروا في الأفق بإطلاق البنادق، ولكن من مسافة كبيرة لم تلحق بالعدو أية إصابات. أرسل "فيال" مجموعة من المشاة تصحبهم قطعة من قطع الميدان لإبعادهم عن حديقة نخيل وعن قواربهم التي ألقت مراسيها على ساحل البحيرة. غير أنَّ البدو كشفوا خطة الجنرال؛ مما اضطره إلى أن يرسل مائة رجل آخرين لمحاربتهم على الفور. تقدم الجنود الفرنسيون وتشتت البدو فعاد بعضهم إلى الشعراء وتراجع البعض الآخر إلى قرية منيا (وهناك وجدوا جندًا فرنسيين أكثر استعدادًا في انتظارهم). وتمكن بعضهم من الوصول إلى قواربهم على البحيرة. أما جنود "فيال" فقد غنموا مدفعين صغيرين وقاربين وقتلوا أو أغرقوا ثلاثمائة فلاح وبدوي، في حين تكبدوا بضعة قتلى وعشرين جريحًا. ويقول "ساي" إنَّ قرية الشعراء قد دمرتها النيران، ويقول تُرك إنَّ الفرنسيين قتلوا ما بقي فيها من سكان. وفي اليوم التالي نهب "فيال" قرية العزبة المهجورة. وفي العشرين من سبتمبر، وصلت إلى "جيربو" أنباء تفيد أنَّ الجنرال "داماس" ومعه ستمائة رجل أحرقوا عدة قرى موالية لطوبار. وفي الرابع والعشرين من سبتمبر، كتب "بونابرت" إلى "فيال" مهنئًا إياه بالهجوم الذي شنه ورجاله على قرية الشعراء.

كانت صفوف "دوجا" المتنقلة تراقب إقليمي الدقهلية ودمياط، وقد ساء "بونابرت" أن فَشَلَ "دوجا" في منع الهجوم على دمياط، فأمره في الرابع والعشرين من سبتمبر بتسليح خمسمائة قارب بالمدافع للسيطرة على بحيرة المنزلة بحيث يصبح سيدها الأوحد.(٤) وأضاف "بونابرت" مهمة أخرى تتمثل في إلقاء القبض

على حسن طوبار ونصحه باللجوء إلى الحيلة إن لزم الأمر. طلب القائد الأعلى من "دوجا" أنْ يجعل من بعض المتمردين عبرة لمن يعتبر، وقال إنَّه لما كانت الوحدات الفرنسية لن تبقى في دمياط والمنصورة، فمن المهم أن ينتهز الفرصة كي يخضع أهل هاتين المدينتين تمامًا. ومن أجل تحقيق ذلك الهدف يصبح من الواجب نزع سلاح الأهالي، وقطع بعض الرءوس، واحتجاز بعض الرهائن.

تكشف الحملات الفرنسية على شمال شرق الدلتا سماتٍ مهمة في جغرافية ذلك الإقليم الاجتماعية؛ فلم يرِد في التاريخ السياسي المدوَّن بالعربية، والذي يتخذ القاهرة مركزًا له ويُعَدّ مصدرًا لتاريخ القرن الثامن عشر، أخبارٌ عن أهل بحيرة المنزلة، والتحالفات السياسية والعسكرية التي تجمع الفلاحين والبدو، وكذلك أهمية منطقة المستنقعات (وبخاصة أثناء فيضان النيل في أواخر فصل الصيف وفي فصل الخريف)، والصحراء، في دعم قدر من الاستقلال المحلي، ولجوء أثرياء الفلاحين والبدو على نحو منتظم لحمل السلاح. وتشير ملاحظة "ميليه" عن اشتراك النساء إلى جانب الرجال من الفلاحين في الهجوم على الفرنسيين في شمال شرق المنصورة إلى دور تلعبه النساء في ثورات القري لم يتطرق له المؤرخون من الرجال في أعمالهم. كما تكشف تلك الحملات عن التحالفات والنزاعات الاجتماعية؛ ذلك لأنَّ توجهات دمياط الواقعة على البحر المتوسط نحو الأوروبيين والدور السياسي، وكذلك العسكري، المهم لليونانيين والسوريين وغيرهم من المسيحيين في ذلك الميناء تشير إلى تشظي السياسات المصرية في ذلك العهد. ويدل الأسلوب الذي اتبعه أحد الملتزمين المماليك، ويدعى أيوب بك، لنقل البدو من الصحراء الليبية إلى قرية سنباط على الظروف التي تسمح للرعاة والقرويين بالعمل معًا.(٥) فعادة يبرز قدرٌ من الصراع بين البدو وفلاحي القرى؛ إذ إنَّ الأرض تستخدم إما للرعي أو لزراعة المحاصيل ولا يمكن الجمع بين النشاطين.

فالبدو يربون الحيوانات الحافرة ويتنقلون سعيًا وراء المرعى، فإذا اجتاحوا أرضًا زراعية فإنّ حوافر الحيوانات تنزل الخسارة بالمحاصيل والدمار بقنوات الري. ويتمثل الأسلوب الوحيد لإقامة مشتركة ينعم فيها الطرفان بالسلم في منطقة واحدة في منح البدو أراض لا تُزرع فيلزمون حدودها، ويمكن للدولة أن تضمن بقاءهم داخل تلك الحدود. مُنِح البدو في النظام العثماني، حين استخدموا لمهام الأمن، مخصصات مالية تدفعها لهم الدولة مما ضمن أيضًا التزامهم في مسلكهم، وأغلب الظن أن البك الذي استقدم بدو الدِرن من سنباط قام بعمل تلك الترتيبات. وقد أوكل إلى البدو مهمة السيطرة على الفلاحين المتنازعين وربما أيضًا صد هجمات غيرهم من البدو، ونتج عن تلك الترتيبات علاقة مفيدة للطرفين من البدو وسكان سنباط من القرويين. فما كسبه أيوب بك من شيوع الأمن يترجم إلى محاصيل أفضل ومال أكثر. ولكن ما إن غزا الفرنسيون مصر وانهار نظام المماليك (وتوقفت المخصصات المالية التي ساهمت في حفظ الأمن) حتى أصبح بدو الدرن الذين تحرروا، على الأرجح، مصدر إزعاج للقرويين المقيمين فيما وراء الأراضي التي استقروا بها فشرعوا في الإغارة على الفلاحين ونهب قراهم؛ مما تسبب في انقسام اجتماعي استخدمه الفرنسيون لتحقيق مصالح لهم.

كذلك لم تُذكر مملكة البحيرة التي يسيطر عليها حسن طوبار في تاريخ الجبرتي، وتشير قصة بحيرة المنزلة إلى السبل التي تمكِّن تركيبات اجتماعية مختلفة، مثل البدو والفلاحين وساكني البحيرة، من تشكيل تحالفات سياسية تقصي الدولة وتعظِّم من احتفاظهم بمواردهم لأنفسهم. وفي كثير من الأحيان لم يكن الفرنسيون يقابلون أشكالا جديدة من المقاومة للحكم الأجنبي، بل مقاومة عادية صادرة عن أهالي الأقاليم ضد الحكومة المركزية أياً كانت. ولم يختلف الفرنسيون كثيرًا عن البكوات الذين اتخذوا مواقعهم من حيث الجشع والقسوة، فإن اختلفوا

فذلك لأنهم أكثر حرصًا على الحصول على ما يلزمهم من موارد، وأفضل تسليحًا مما يسمح لهم بانتزاع تلك الموارد، وهما سمتان تعودان للدولة الحديثة التي واجهها الفلاحون المصريون للمرة الأولى. ولم يرَ إبراهيم بك ومراد بك الحاجة لإخضاع حسن طوبار لما تتطلبه من كلفة عالية. أما الفرنسيون فإنهم كانوا في أمس الحاجة إلى أموال سائلة كما أنَّ القلق قد ساورهم بشأن أمن دمياط؛ فلم يعد ممكنًا أن يتركوا السلطة في أيدي هؤلاء الزعماء المحليين.

***

أما في القاهرة، فإنَّ بونابرت ظل يتبع سياسة فرض السيطرة الفرنسية على نحو رمزي وفي الوقت نفسه يواصل قادة جيشه فرضها بحرق القرى وإغراء زعمائها. وجاء اليوم الأول من "فينديميير" الذي وافق غرة السنة الثورية السابعة للثورة، والثاني والعشرين من التقويم الجريجوي. ويقام الاحتفال بذلك اليوم حسب قول الكابتن "ساي" في البلدان الفرنسية كافة، بوصفه عيدًا للثورة. جرى الاحتفال بالحرية في مصر على نحو مماثل للاحتفال في فرنسا من خلال الرموز والمهرجانات والفنون.[٦] ويقدم أحد مؤرخي هذا العصر صورة لاحتفالات أقيمت في أرجاء فرنسا جعلت من قيمتي الحرية والثورة موضوعًا لها[٧]. لكن خطاب التحرر عبر الغزو الذي حمل لواءه "بونابرت" وضباطه ضم عدة متناقضات بين الذات والأخر، وبين الحضارة والبربرية، وبين الحرية والسيطرة، وبين العام والخاص، وبين الذكر والأنثى، وبين دبلوماسية القوة الكبرى والسياسات المحلية. وتُعد الاحتفالات العامة نفسها واحدة من أساليب معالجة هذة التناقضات؛ فقد جمعت عدة خطوط وعناصر معًا تحت شارة الثورة ثلاثية الألوان.

أمر "بونابرت" بإقامة احتفالات العام السابع للثورة في في شطري جمهورية مصر الفرنسية.[٨] وأراد أن يجري الاحتفال بقدر غير مسبوق من الفخامة كي

يرى المصريون قوة الجيش الفرنسي وعظمته، حسب ما كتبه "برنوييه" في خطاب إلى زوجته. واحتفل الجنود الفرنسيون الذين يطاردون مراد بك في صعيد مصر بعيد الثورة في معبد الأقصر. وأقيمت احتفالات مماثلة تقريبًا وإن كانت أصغر حجمًا في المدن الصغيرة مثل رشيد. وفي القاهرة أقام بونابرت خيمة هرمية في ميدان الأزبكية وعلى جوانبها الأربعة كتب أسماء الجنود الذين قضوا أثناء غزو مصر. (في أوائل تسعينيات القرن الثامن عشر أقامت الحكومة الثورية هرمًا في ما يعرف بمعبد الخلود عند مبنى الجمعية التأسيسية، سُجلت عليه أسماء جيوش الجمهورية الأربعة عشر. كما أقام "بونابرت" أهرامات مماثلة أثناء حملته الإيطالية؛ ولذلك لا تحمل إقامة الخيمة الهرمية في القاهرة أية إشارة إلى حلول الفرنسيين بأرض الفراعنة على نحو خاص، ولو أنَّها اكتسبت معنى خاصًا هناك).

ومن غرائب المفارقات أن نجد المؤرخ المصري الجبرتي يصف الخيمة على نحو يشي بأنَّه لم يتعرف على بنائها الهرمي، كما لم يرد لهذا الرمز الوثني أي صدى بين مسلمي مصر في ذلك العصر. أحاط بالخيمة الهرمية مائة وخمسون عمودًا مكسوًا بالشارة ثلاثية الألوان تحمل أسماء مقاطعات فرنسا. وتسجل صحيفة "كوريبه ديجيبت" كيف جمعت باقات الزهور المزدوجة بين الأعمدة لترمز إلى وحدة أرجاء الجمهورية الفرنسية وتماسكها. وإنَّنا ليساورنا الشك في أنَّ مصر أصبحت حينئذ وحدة من وحدات فرنسا الثورية؛ ولذلك حرص الفرنسيون على تمثيل الأقاليم الفرنسية رمزيًا في قلب القاهرة.

وفي منتصف بهو الأعمدة انتصبت مسلة ترتفع سبعين قدمًا نُقش على أحد جوانبها بالذهب عبارة: "إلى الجمهورية الفرنسية في عامها السابع"، وعلى الجانب الآخر نُقشت عبارة "طَرد المماليك في العام السادس من الثورة". أما الجانبان الآخران فيحملان ترجمة عربية لتلك العبارتين. كما أُقيم على أحد مدخلي بهو

الأعمدة قوسُ نصر يمثل معركة الأهرامات. وفي المدخل الآخر كتب بالعربية "لا إله إلا الله، محمدٌ رسولُ الله". ولعل معظم الجنود الفرنسيين لم يفهموا مغزى العبارة العربية من حيث إنها إعلان عن عقيدة الإسلام، ولا شك أن من رفعها على المدخل واحد من مستشرقي المجمع العلمي المصري، ثم شرح معناها لمراسل الصحيفة الرسمية.

كان "برنوييه" يدرك ما تعنيه تلك العبارة، وكتب إلى زوجته يقول إنَّ تلك الكلمات القليلة تجسد الإعلان الأوحد لعقيدة "أتباع محمد"، وهي من القداسة بالنسبة لهم بحيث إنْ أعلنها كافرٌ بنصها العربي في ساحة قتال، وهو يكاد أن يُقتل توهب له الحياة ويُعامل بوصفه صديقاً. لم يتطرق "برنوييه" في خطابه ذلك لما اعتاد عليه من هجمات اليعاقبة على الدين، غير أننا نعلم عدم رضائه عن تلك السياسة. ظل "بونابرت" في تلك الأثناء يسعى لربط الفضائل الجمهورية بنوع من الإسلام يمثل ضربًا من العقيدة الخاضعة لمقتضيات العقل. أُقيمت الخيمة إذن لنشر الدعاية بين عامة المصريين ولدعم الشائعات القائلة بتحول الفرنسيين الوشيك إلى الإسلام.

ومن المفارقات الساخرة أنَّ حكومة الإدارة في فرنسا انصرفت همتها آنذاك إلى معاداة الدين؛ إذ كانت تسعى إلى التقليل من شأن قداس يوم الأحد بالكنائس ورموز الكاثوليكية وطقوسها في مقابل الإعلاء من شأن الاحتفالات المدنية. انقسم أسبوع العهد الثوري إلى عشرة أيام وعُدَّ اليوم العاشر إجازة يُقام فيها احتفال شعبي تناقص عدد المحتفلين به باطراد كما تناقصت قوة حكومة الإدارة.[٩]

أطلقت المدفعية ثلاث طلقات في السادسة صباحًا لتعلن بداية الاحتفال واصطف جنود حاميتي مصر القديمة وبولاق بنظام وانضباط في ميدان الأزبكية.

ويسجل الجبرتي، بلهجة يشوبها استياءٌ واضح، وصول محدثي النعمة والقوة من مسيحيي القاهرة. اتخذ جرجس الجوهري القبطي وفيلوتيوس اليوناني قفطانين فاخرين من الفراء المشغول بخيوط الذهب، واعتمرا عمامتين من الكشمير، وجاءا على ظهر بغلتين قويتين، وقد بدا عليهما البشر والسرور. وفي تمام الساعة السابعة صباحًا وصل إلى مقر الاحتفال "بونابرت" بصحبة قادة جيشه ورؤساء إدارته وعلماء المجمع العلمي المصري وفنانيه، وأمير الحج، وأعضاء دواوين القاهرة والأقاليم. يصف أحد الضباط الفرنسيين المشهد فيقول إنَّه أشبه بموكب شرقي. جلس الجميع على المنصة أو صالة المشاهدة وعزفت فرقة الموسيقى المارشات العسكرية والأغاني الوطنية التي تمثل للجمهوريين نغمات الانتصار كافة. ثم شرع الجنود في إجراء مناوراتهم وتدريبات إطلاق النار بدقة مذهلة وبعدها التفوا حول المسلة.

قام أحد المساعدين لقراءة إعلان "بونابرت" إلى الجنود.(١٠) وقد جاء فيه ما يلي: "تحتفل اليوم برأس السنة السابعة للجمهورية. مرت خمسة أعوام منذ واجه الشعب الفرنسي الأخطار، ولكنكم استعدتم "طولون" مما مهد لهلاك أعدائكم". كان ذلك أسلوب "بونابرت" في تذكير جنوده بالاحتلال البريطاني الإسباني لـ"طولون" الذي سمح لأعداء الثورة باحتلال موطأ قدم على التراب الفرنسي، وقدم الفرصة لـ"بونابرت" لوضع خطط عسكرية بارعة لسلاح المدفعية؛ مما أوقع الهزيمة بالأدميرال "نلسون" في عام ١٧٩٣، وأدى إلى طرد الجيوش الأجنبية من فرنسا. بات من الضروري أيضًا وقد أحرز "نلسون" انتصارًا ساحقًا على "بونابرت" بإغراقه الأسطول الفرنسي، أو الاستيلاء على بعض قطعه، أن يعود "بونابرت" بذاكرته إلى الانتصار الذي حققه في مواجهة الأدميرال البريطاني.

أكد "بونابرت" في كلمته للجنود أنَّ مستقبلاً باهرًا ومشرقًا في انتظارهم وشبههم بالرجال الذين كتبت أسماؤهم على جانبي الخيمة الهرمية، فهم جديرون بأعمال عظيمة وباحترام العالم لهم. ولا شك أنَّ تلك العبارة التي وردت في كلمة "بونابرت" إلى الجنود لم تنل إعجابهم. ويتضح من مذكرات ضباط الحملة أنَّ "بونابرت" قد جانبه التوفيق؛ إذ أشار في تلك الظروف التي تبعث على الحزن والأسى إلى أنَّ جنوده قد يُلاقون حتفهم في مصر. غير أنَّه لم يلبث أن استعاد التوازن فأضاف: "أو قد تعودون إلى أرض الوطن يكلل الغار هاماتكم، وتصبحون محط إعجاب الشعب كله. لقد صرنا طوال الشهور الخمسة الماضية منذ غادرنا أوروبا في بؤرة اهتمام مواطنينا. إنَّ أربعين مليون مواطن فرنسي يحتفلون في يومنا هذا بعصر الحكومات النيابية، إنَّ أربعين مليون مواطن فرنسي يرون أن دماء الجنود وتضحياتهم ستجلب السلام العام والاستقرار والرخاء والتجارة وكل مزايا الحرية المدنية". ويتذكر "جولوا" كيف هتف "بونابرت" بعدئذ "تحيا الجمهورية"، فلم يردد الجنود الهتاف وراءه فقد كان استياؤهم على نحو عام كبيرًا. ويضيف "جولوا" أنَّ "بونابرت" الذي عُرف عنه ميله للمرح عادة انقلبت ملامحه في جدية صارمة، ويقول إنَّ أفكارًا كثيرة لابد وأن تزاحمت في ذهنه.

صدحت الموسيقى بعد أن أكد "بونابرت" لجنوده أنَّهم ينشرون فضائل الحرية المدنية ويعملون على افتتاح عصر الحكومات النيابية في مصر وغيرها من البلدان. عزفت الفرقة الموسيقية ترنيمة ألَّفها المواطن "برسفال" **Parseval** ووضع موسيقاها المواطن "ريجل" **Rigel**، كما عزفت النشيد الوطني الفرنسي "المارسييز" وغيره من الألحان الوطنية. انصرف "بونابرت" وصحبه بعد ذلك إلى مقر القيادة. ويسجل "بلبورت" **Pelleporte** في مذكراته أنَّ الجيش لم يَبدُ عليه سوى شعور اللامبالاة تجاه الاحتفال، فقد ساد شعور بالحزن بين أفراده في ذلك اليوم

وفي أيام سابقة منذ غرق الأسطول. أما "مالوس" Malus الذي أثارت قلقه أنباءٌ تقول إنَّ العثمانيين غير ممتنين لما قام به الفرنسيون من إنقاذ مصر من المماليك الجامحين، فقد عبر عن آرائه بقدر أكبر من الصراحة: "كان الاحتفال ملهاة غير مجدية لم تزحزح الحزن الذي انتابني منذ فترة من الزمن. وقد انتشرت في تلك الأيام روحٌ معنوية منخفضة خشية انتشارَ الوباء بين الجنود. تبددت الأوهام بشأن نيَّات السلطان العثماني تجاه الحملة ولم يعد في الإمكان تصور الأمل في مستقبل يسوده الهدوء والسكينة".

وصف "مواريه" المأدبة التي أُقيمت بعدئذ لمئات من الضيوف بكلمات نقلها عن التقرير الصحفي الرسمي: "دُعي أعضاء الديوان وهم كبار المسئولين في كل إقليم، وقضاة القرى، إلى الاحتفال والمأدبة التي أمر "بونابرت" بإعدادها. وكانت المرة الأولى التي تتعانق فيها الألوان العثمانية والفرنسية ويختلط المعممون بمن يعتمرون قلنسوة الحرية، ويلتقي إعلان حقوق الإنسان بالقرآن، والمختونون بغير المختونين على مائدة واحدة. وتمثل الاختلاف الأوحد أنَّ المصريين تناولوا الشربات وغيره من المشروبات غير المُسكِرة في حين شرب الفرنسيون النبيذ". ويقول "برنوييه" إنَّ مصطفى بك، نائب الوالي العثماني، قد شعر بالدهشة حين رأى لوحة تصوره بالملابس نفسها التي يرتديها في هذا الحفل أمام عينيه. ويكتب "فييه دي تيراج" في مذكراته عن التناغم الإسلامي- الفرنسي في المأدبة فيقول إنَّ "جاسبار مونج"، عالم الرياضيات والهندسة، عزى ذلك التآلف إلى تطور في الحس الإنساني وتقدم في مجال التنوير.

ويقول الكابتن "ساي" إن المصريين أدهشهم عدد الجنود الفرنسيين وهندامهم البديع ودقة تصويبهم وتدريبات المدفعية التي قاموا بها، وترك كل ذلك أثرًا عميقًا في نفوسهم. وبينما شعر المصريون بالرهبة لفترة قصيرة تجاه ذلك المشهد

العسكري، فإنّ "برنوييه" يقر في خطاب إلى زوجته بأنّه من السخف أنْ يشارك المصريون المدعوون إلى الاحتفال الفرنسيين بهجتهم الغامرة. ويضيف "برنوييه" أنّه على الرغم من محاولاتهم كلها لإخفاء حقيقة شعورهم فإنّ وجوههم كشفت لمضيفيهم من الفرنسيين علامات الحزن لما نزل بهم من عقوبات فظيعة على أيدي "بونابرت" لما أبدوه من مقاومة ("تمرد" حسب قول "بونابرت"). ويعبر "برنوييه" عن إعجابه بشجاعتهم التي مكنتهم من الظهور راضين مبتسمين على الرغم مما يعتمل في صدورهم من أسى. غير أنّهم لم ينفردوا بذلك؛ فقد رأينا كيف أنّ الجيش الفرنسي لم يتحمس للاحتفال وبدا حزينًا لاحتجازه في مصر بدون أسطول.

كان المصريون محقين في فقدان الحماسة تجاه ما شاهدوه من خيمة هرمية وأعمدة لا توازي ما لدعاية "بونابرت" التي أطلقها من بريق. ويقول المهندس "جولوا" إنّ تنفيذ ذلك المشروع شابه قصورٌ كبير، إذ لم يجد الفرنسيون سوى العمال المحليين الذين لا يُحسنون عمل شيء لإقامته، ولم تتوفر أخشاب بأطوال مناسبة، كما أنّ الفنان "ريجو" وقع في أخطاء". غير أنّ ما قاله "جولوا" عن افتقار العمال المصريين للمهارة يثير شكوكا لأنهم معروفون بالصناعات اليدوية الدقيقة، وربما لم تتوفر لهم الرغبة في مد يد العون للفرنسيين كي يحتفلوا بعيدهم فتعمدوا تقديم قدم وتأخير أخرى وامتنعوا عن تقديم أفضل ما لديهم.

وفي الرابعة مساءً أقام الفرنسيون سباقًا للخيل في الأزبكية وما إن حل المساء حتى انطلقت الألعاب النارية والرقصات والعروض وطلقات المدفعية فقدمت للمصريين مشهدًا جديدًا أدخل الدهشة إلى نفوسهم. وفي الإسكندرية رفع الفرنسيون العلم الفرنسي على عمود الصواري، وقد نقش عليه أسماء من سقطوا أمام أبواب تلك المدينة، كما استخدم الفرنسيون مصابيح ملونة لإضاءة المسلة المعروفة بـ"إبرة كليوباترا".

وبينما انبهر "برنوييه" وآخرون باختلاط الشرق والغرب في ذلك الاحتفال فإنّ "ساي" أكد على مفهوم الاستحواذ لا الشراكة. يقول "ساي": "إن المشهد اجتذب الفرنسيين حين رأوا علم الثورة الفرنسية، وهو رمز حريتهم وقوتهم، يرفرف على تلك الأرض العتيقة التي قدمت المعرفة والقانون لمعظم أمم الأرض. إنّ رؤية ذلك المشهد ممتدًا من الإسكندرية إلى طيبة ومن طيبة إلى البحر الأحمر يقدم الدليل على سيادة الوطن الفرنسي"(١). وتعد "المعرفة" و"الحرية" و"القوة" و"السيادة" هي الكلمات الرئيسية في خطاب "ساي" الذي يقدم شارة الثورة ثلاثية الألوان لترمز إلى تلك الكلمات كلها. ولا يبدو أنّ "ساي" مدركٌ للتناقضات غير القابلة للحل بين تلك المفردات. فلم يرَ مانعًا من الحديث عن تحرير وادي النيل من البكوات، وفي الوقت نفسه الإشارة إلى سيادة الوطن الفرنسي على مصر. إنّ فرنسا الثورة هي على وجه من الوجوه مصر جديدة أطلت على عالمها المعاصر فهي طليعة العلم والقانون. رأى "ساي" في استحواذ فرنسا على أرض مصر العتيقة تحقيقًا لتقدمها الحضاري، ففرنسا الآن تجمع بين لغة المعرفة القديمة وفن الإدارة.

لم يرَ هؤلاء الضباط تناقضًا بين متطلبات القوة ومتعة الحرية. ففي نهاية الأمر فإنّ إنجازهم السياسي قام على الثورة أي على العنف، وإلا لتعذر الإطاحة بالعهد البائد أو لتمكن من توطيد أركانه ثانية. ولذلك فمن الواضح أنّ "الحرية" لا يمكن أن تصبح أمرًا طوعيًا في مصر العثمانية بل إنّه يجب أن تفرضها وتعززها عاصمة حرة. إن التقاء العقل والوطن والحرية والإرهاب شكل خطابًا مهمًا في الفترة التي أعقبت إعدام الملك، وعلى الرغم من نهاية عهد الإرهاب فإنّ ارتباط التنوير بالعنف استمر بين بعض مفكري حكومة الإدارة في سياق الحرب ضد النمسا في إيطاليا وألمانيا، وعلى ضوء الحاجة إلى محاربة أعداء الثورة من خارج حدود فرنسا، ولذلك أيضًا فإنّ المخلصين للحرية والعقل في مصر لم يختلفوا كثيرًا

مع مقولة "روبسبيير" إنّ الإرهاب ما هو إلا وجه من وجوه العدالة ينفُذُ على نحـو سريع وحاسم مما يجعل منه فضيلة. كما وافقوه في توجيهه لإلحاق الهزيمة بأعداء الحرية باستخدام الإرهاب الذي يبرره أنّ القائمين به هم مؤسسو الجمهوريـة.(١٢) ولذلك فحين قُتل "جوليان" مساعد الجنرال وخمسة عشر فرنسيًا أثناء رحلة نيلية في أغسطس على أيدي سكان قرية الكام فإنّ "ساي" كتب يقول: "إنّ الجنرال الذي يتسم بالشدة مثلما يتسم بالعدل أمر بإحراق القرية. ونُفِّذ الأمر بمنتهـى الحـزم. فمـن الضروري وضع حد لمثل تلك الجرائم بعصا الإرهاب".(١٣)

ويقر "ساي" بضرورة غرس عادة الخضوع لدى هؤلاء "الأهالي المتعصبين ضد سيادة أولئك الذين يصفونهم بالكفار"، وذلك في مواجهة المقاومـة المـصرية المستمرة للاحتلال الفرنسي. وفي ذلك اعتراف آخر بالسيطرة الفرنسية على البلاد وإن عبر عن أمل أن يتعلم المصريون محبة تلك السيطرة. يقول "ساي": "ينبغي لنا الاطمئنان إلى أنّ الحكومة التي توفر الحرية والمساواة لكل فـرد، ومـا يترتـب عليهما من العيش الكريم، ستؤدي إلى ثورة مرغوب فيها فـي خطـوات لا نكـاد نلاحظها". والثورة التي يقصدها "ساي" ليست حدا سياسيًا بل هي إطاحة بعهد بائـد يتمثل في السيطرة المملوكية والخضوع للتعصب الديني. فهي ثـورة لمثـل عليـا تتطلب مشاركة الفنون للدعوة إليها بحيث تخاطب العقل والوجدان معًا.(١٤)

وقد عبر "لاوس دي بويزي Laus de Boisy" عن غضبه تجـاه الانتقـادات الموجهة إلى الحملة على مصر. يقول "دي بويزي" إنّ أي رجل يخفق قلبه بالحيـاة لا يملك إلا أن يدعو إلى إنقاذ مصر من بؤسها. ومع ذلك فإنّه يجد بعـض أهـل باريس يوجّهون النقد إلى المشروع النبيل الذي تبنته حكومة الإدارة، وهؤلاء فـي معظمهم- حسب اعتراض "دي بويزي"- نساء شابات يتمتعن بالثراء وينتمين إلـى الأرستقراطية البائدة، وهن يمثلن طبقة مملوكية فرنسية لا تتوانى عن إنفاق ألفـي

فرنك في حفل راقص، ويضربن بجذورهن في شريحة اجتماعية دمرها "روبسبيير المملوكي". تدافع هؤلاء النساء في أولى خطواتهن السياسية عن المماليك المساكين الذين على حد قولهن يفرون من أمام الغضب الجمهوري إلى أطـراف الـصحراء الإفريقية. ويستخدم "دي بويزي" الإشارة إلى المماليك فيما سـبق ليعنـي أمـرين مختلفين: فهو يشير في أحد المعنيين إلى الطبقة الإقطاعية فاحشة الثراء التي ينتمي إليها رجال البلاط الأثرياء من العهد البائد، وفي المعنى الآخر يلجـأ إلـى تـشبيه يجمع بين المماليك بما عُرف عنهم من عنف لا يلجمه قانون، وغلاة اليعاقبة الذين نفذوا عهد الإرهاب في فرنسا. قدم "دي بويزي" المشهد الفرنسي قبل أفـول عهـد الإرهاب في شهر "ترميدور" عام ١٧٩٤ بوصفه موازيًا للحـروب الأهليـة بـين البيوت المملوكية في مصر العثمانية. كذلك رأى في النظـام الجمهـوري بقيـادة حكومة الإدارة الوريث الشرعي لمُثُل الثورة الفرنسية. كذلك يرى "دي بويزي" أنّ الجمهورية تواجه تحديات من فلول المماليك في صـعيد مـصر وسـوريا ومـن يتعاطفون معهم من الأبناء المدللين للطبقة الأرستقراطية الثرية في بـاريس، التـي سقطت وإن كانت لا تزال تتمتع بالثراء. ويُلاحظ أنه أشار إلى المعارضة بـضمير المؤنث ليجسد قسوتها وأرستقراطيتها من جهة وحمقها وافتقارهـا إلـى صـفات الرجولة من جهة أخرى، كما قدم أعداء حكومة الإدارة الذين ينتمون إلـى طبقـة بعينها بوصفهم نساء لاهيات من نجوم المجتمع هبط عليهن الثـراء عـن طريـق الميراث. ويعد التشبيه ذاته الذي استخدمه "دي بويزي" أداة لتقديم المماليـك الـذين أصبحوا محط تعاطف الباريسيات الموسرات في صـورة المخنثـين.(١٥) وجـدير بالذكر أنّ الدعوة إلى إيجاد وجه شبه بين تحرير فرنـسا مـن الطغيـان الملكـي وإرهاب الـ "سان كيلوت" من جهة، وتحريـر مـصر مـن الطغيـان الـشرقي والمنازعات الأهلية للبكوات من جهة أخرى، هي دعوة يتبناها مـدوّنو المـذكرات

الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة التي تتمتع بالثراء؛ فقد أطلقوا سردية رومانسية عائلية تدور أحداثها في مستعمرة مصر الفرنسية أبطالها اثنان وثلاثون ألفًا من الغزاة الذين تجمعهم الأخوة والذين يرون في المماليك شخصية الأب الطاغية أي الملك الفرنسي السابق؛ ولذا وجب القضاء عليهم.(١٦) وهكذا فإنَّ الحكم الأبوي الفرنسي صُوِّر على أنَّه شكل من أشكال الحرية مثلما أُعيد تأسيس شكل مخفف من أشكال السلطة الأبوية العائلية ممثلاً في حكومة الإدارة التي تسلمت مقاليد الحكم بعد فظائع عهد الإرهاب.

وقد أدان بعض الجمهوريين صراحة أساليب القمع والإرهاب، وهم الأقرب إلى التيار الليبرالي الذي مارس تأثيرًا في كثير من الأحيان على حكومة الإدارة. يصف "برنوييه" في مذكراته مشاعر الاشمئزاز التي اعترته حين اضطر للذهاب إلى قرية صغيرة بنيت أكواخها من الطمي في خريف هذا العام ليطالب أهلها بسداد الضرائب المستحقة عليهم، والتي تُجبى من الفلاحين عن طريق التهديد بإخضاع عمدة قريتهم لعقوبة الضرب على القدمين (الفلقة). استاء "برنوييه" للجوء الجمهوريين لهذا المسلك وأنحى باللائمة على "بونابرت" لامتناعه عن تخفيف وطأة القوانين كي يقيم حكومة حرة وعادلة ومستقلة تحل محل حالة العبودية المستمرة. ويقول "برنوييه" إنَّ أكثر ما آلمنا أنَّ "بونابرت" يستخدم وسائل المماليك نفسها.(١٧)

ويُذكر أنَّ الفترة التي سبقت الثورة الفرنسية شهدت اعتراضات متزايدة ضد أوامر الاحتجاز العشوائية وأحكام السجن أو الإعدام التي يصدرها الملك الفرنسي بتوقيعه وخاتمه **lettre de cachet**، وذلك على أساس من حق الإنسان الطبيعي في الملكية، بما في ذلك ملكية شخصه.(١٨) بدت أساليب "بونابرت" لذلك مخربة للجمهوريين الليبراليين الذين رأوا فيها إحياء لمساوئ العهد البائد أو تحولاً أملاه الدهاء جعل من الجمهوريين مماليكًا. وهكذا فإنَّ بعض كتاب المذكرات من

الفرنسيين قدموا بكوات المماليك بوصفهم رموزًا لطغيان "لويس السادس عشر" وإرهاب "روبسبيير" بل لـ"بونابرت" نفسه، ووسعوا الدائرة لتشمل الفرنسيين في مصر كلهم، حتى إننا نجد بعض الفنانين الفرنسيين الذين ينتمون إلى المدرسة الثورية يدينون لاحقًا من طرف خفي الحملة الفرنسية بتصويرهم الجنود الفرنسيين في أزياء شرقية و"بونابرت" كمن يتلاعب بأرواح البشر.[١٩]

دفع تشاؤم "برنوييه" المتزايد تجاه تحقق الحرية في مصر في نهاية المطاف إلى التعبير عن أفكار نقلها عن "روسو" بشأن الأذى الذي يكمن في صلب الحضارة. فمن ناحية شعر "برنوييه" أنَّ المصريين إذا ما تلقوا التعليم واستقبلوا التنوير فلن يخضعوا لنير الظلم بعد ذلك، فقد ساءه أنهم لا يشعرون بالظلم في حالتهم الراهنة من الجهل فهم يتحملون كل مظاهره صابرين مستسلمين، غير أنَّ جهل الفلاحين الذي يحط من شأنهم، وثقافة المتعلمين التي تدفعهم إلى التمرد، لا يرقيان في نظره للسعادة التي يشعر بها الرجل البدائي النبيل **noble sauvage** حسبما قال "روسو".[٢٠]

وهكذا فإنَّ "برنوييه" لا يرى في فلاحي مصر صورة الرجل البدائي النبيل، بل التابع الذليل الذي تلاحقه الإهانة في حضارة مستبدة. ففي مواجهة تراكم الأدلة على فشل الطغيان والحرية كليهما في تحقيق السعادة للبشر، يعود "برنوييه" إلى فكر "روسو" الرومانسي بشأن فضائل الحياة في أحضان الطبيعة، وهي حياة تُبعد من يرغب في تحقق مثل عليا منزهة عن الوجود ذاته. بل إنَّ آثار مصر القديمة، على ضوء تلك النظرة الفلسفية، لا تتحدث عن التقدم بل تدل على التعصب والعبودية وتشهد على الطغيان الشرقي. فإذا غاب العقل والحرية، فإنَّ قاعدة الاستبداد التي ارتفعت عليها أهرامات مصر تفسد جمالها.

استغل الفرنسيون الاحتفالات والعروض الشعبية لإحياء القيم الثورية ولغرس شعور بالوحدة مع الانتصارات الثورية، وقد أعادت تلك الاحتفالات إلى أذهان المشاركين أنَّهم أبطال أسطوريون يتحركون في ملحمة ثورية من صنعهم.[٢١] اتجهت النيَّات إذن إلى إشاعة الحماسة للثورة وإعادة تشكيل المجتمع المصري على الهيئة الجمهورية؛ ولذا، صدرت الأوامر بأن يعتمر الجميع قلنسوة الثورة، وأن يعلو علم الثورة ثلاثي الألوان مرفرفًا، كذلك استخدمت رمزية تداخلت معانيها واشتبكت وعبرت عنها الأعمدة والإعلانات المكتوبة، وسُيِّرت العروض العسكرية وأُطلقت المدافع على نحو يبهج الأهالي ويذهلهم.

ويبدو أنَّ بعض الفرنسيين توقعوا أن يشاركهم المصريون الذين لحقت بهم الهزيمة على أيديهم في تلك الاحتفالات، مما يدل على عدم تصورهم لحملتهم في وادي النيل بوصفها مغامرة استعمارية. ويبدو أنَّ الإيديولوجية الجمهورية استُخدمت في المقام الأول لإخفاء تلك الحقيقة عنهم.

***

عانى الآلاف من الجنود الفرنسيين في القاهرة ضجرا شديدا فقد حُرموا المشاركة في الأعمال الحربية التي يشارك فيها زملاؤهم في الدلتا، وحاصرهم الاكتئاب لفقدان أسطولهم، وآلمهم الحنين للوطن. غير أنَّ الاحتفالات المدنية التي دعمها "بونابرت" لم تفلح في التفريج عن همومهم. يقول "دوجوروه" **Doguereau:** "إنَّ الحياة التي نعيشها أدخلت السأم إلى نفوسنا على نحوٍ بالغ على الرغم من أنَّنا جماعة كبيرة. لقد اختلف الأمر عن حياتنا في أوروبا، ووجدنا صعوبة جمة في التأقلم على الحياة في مصر".[٢٢] اتجهت شكوى "دوجوروه" إلى ارتفاع درجة الحرارة التي جعلتهم عازفين عن الخروج من مواقعهم أثناء النهار، وعلى أى حال

فإنَّه لا يجد مكانًا يستحق أن يقصده: "ففي وسط الصحراء وبين أكوام القمامة تدعو الحاجة إلى توفر حماية، كما أنَّ هناك البدو الذين يشنون هجماتهم ما إن نخطو خارج بوابات المدينة. لم يكن لدينا إلا عدد قليل من الكتب واستبد بنا الشوق للعودة إلى فرنسا".

وقد عالج الضباط والجنود السأم الذين شعروا به في العاصمة بأساليب مختلفة، فأقاموا مناسبات اجتماعية ابتدعوها، وأسرفوا في لعب الميسر، وسعوا لصحبة من وجدوا في طريقهم بغض النظر عن تدني شخصياتهم. وقد جذبت نساء الحريم في قصور المماليك، وهن اللائي هجرهن أسيادهن، انتباه الشباب من الضباط والجنود. ويقول "دوجوروه" إنَّه في الأيام الأولى من شهر أغسطس أُتيحت له ولزملائه فرصة التعرف على بعض هؤلاء النسوة عن طريق زميلين استطاعا أن يقدما نفسيهما إليهن، كما استطاعا أن يجلبا نساء زنجيات أمضوا معهن بعض الوقت في الفترة المبكرة من وجودهم بالقاهرة، غير أنَّهم ما لبثوا أن سأموهن.[٢٣] ويصف أيضًا وصول قوافل العبيد من دارفور، وسنَّار، ودنقلة، وبورجو إلى العاصمة عدة مرات في العام أو على الأقل مرة واحدة كل عام، (يؤكد الطبيب لوي فرانك أنَّ أربع قوافل وصلت إلى البلاد أثناء الاحتلال الفرنسي لمصر، وأنَّ أعداد الرقيق انخفضت عامًا بعد عام على أي حال بسبب المغالاة في فرض الضرائب، فصارت أربعة آلاف بدلاً من ستة آلاف في العقود السابقة، ثم انخفضت إلى ألف أو أقل في العقد الأخير من القرن الثامن عشر).[٢٤] ويقول "دوجوروه" إنَّ النخاسين الحبشيين ساقوا الرقيق مشيًا على الأقدام مثلما يسوق تجار الخيول الأوروبية بضاعتهم. ويقول إنَّ جميعهم، ذكورًا وإناثًا، عرايا لا يسترهم إلا قماشة تغطي عوراتهم. ويضيف، ربما ليتخفف من الشعور بالألم لمصيرهم، أنَّ علامات عدم المبالاة بما ينتظرهم تبدو مرتسمة على ملامحهم.

يصف "دوجورود" أيضًا ما على أجساد العبيد الأفارقة من وشم (يشير إليه بوصفه أثرا لجرح) ويقول إنّ النساء في كثير من الأحيان يتزين بمجوهرات يثبتنها في أنوفهن. ويبلغ ثمن العبد ما بين أربعين ومائة وخمسين قرشًا تتراوح على أساس معايير من السن والجمال والقوة، ولا يقل سن أصغرهم عن ثماني أو تسع سنوات. وجدير بالذكر أنّ هناك من زملاء "دوجوروه" الآخرين من لم يسأم جواريه بل احتفظوا بهن طوال إقامتهم بمصر بوصفهن عشيقات ويكشف "سان هيلير"، المتخصص في علم الحيوان، أنّ واحدة على الأقل من جواريه كانت زنجية. كما أنّه كان يهتم بأمر جارية أخرى نيابة عن أخيه الذي انتقل إلى موقعه بالصالحية.[٢٥] ولم تكن الأمور ميسرة للاحتفاظ بالجواري لمن يتنقل بين المواقع مثل "سان هيلير"، غير أنّه يصف لنا كيف حل تلك المشكلة وذلك بترك جاريته بين حريم أحد الأعيان المصريين. يقول "سان هيلار" بعدئذ: "استرددت جاريتي الزنجية من حريم الشيخ الجليل سليمان الفيومي الذي احتفظ لي بها بين حريمه لما يكنه لي من صداقة".

وكما يقول "توري" فإنّ "سان هيلير" لم يشذ عن القاعدة؛ فكثير من الفرنسيين في مصر ابتاعوا جواري وأسكنوهن بيوتهم للخدمة أو لإقامة علاقات جنسية أو لكليهما. وكما سبق فإنّ بعض الضباط اتخذوا عشيقات من حريم المماليك المخلوعين، وكثيرات منهن كن فتيات في مقتبل العمر. وفي خطاب كتبه الأدميرال "جان – باتيست بيريه" إلى صديق له في فرنسا نجده يقول: "إنّ البكوات تركوا لنا فتيات أرمينيات وجيورجيات جميلات، وقد وضعنا أيدينا عليهن لخير الأمة الفرنسية"[٢٦] وعلى الرغم من روح الفكاهة في كلماته فإنّ التعبير يدل على رؤية الضباط لروح الذكورة التي تميز الأمة الفرنسية ورؤيتهن لنساء مصر بوصفهن بضاعة تُصادر مثلهن مثل أجولة الأرز.

اجتمع الضباط على أقل تقدير على عدم قدرة النساء المحليات على أداء أي دور في الحياة الاجتماعية الفرنسية فهن يجهلن اللغة ولم يتدربن على أصول اللياقة الفرنسية (الإتيكيت). يقول "نيللو سارجي" إنَّه "على الرغم من أنَّهن معروضات للبيع بأسعار معقولة، فإنَّهن لا يضفين بهجة على احتفالاتنا ولا يضاهين سحر النساء الفرنسيات من مختلف طبقات المجتمع وجاذبيتهن على أي حال". وعلى الرغم من أنَّه وجه اللوم إلى النساء القوقازيات لافتقارهن للمهارات الاجتماعية فإنَّ هناك دلائل تشير إلى أن العنصرية الفرنسية أسهمت في إبعادهن عن هذا الدور.[٢٧] توفر لدى "بونابرت" الدافع بعد خيانة جوزفين له كي يرتد إلى ما اعتاده أيام عزوبته فعقد صلات عديدة بالنساء. ولعله تأثر أيضًا بما اعتاده الأتراك المتمصرون من كبار القادة العسكريين من تعدد للزوجات، فإلى ذلك الحين كان التزام "بونابرت" لجوزفين وحدها منذ زواجهما. سعى "بونابرت" أول الأمر إلى النساء الجورجيات من حريم المماليك، وعلى الرغم من افتقادهن النسبي للقوة فإنَّ "نيللو سارجي" يشير من طرف خفي إلى قدرتهن على التعبير عن مشاعرهن تجاهه بلغة الجسد (أو الامتناع عن التعبير كلية)، فلم يجد القائد الأعلى منهن تجاوبًا ولا صحبة طيبة. أما الضباط الفرنسيون الآخرون فقد حظوا بعلاقة أفضل مع زوجات البكوات اللائي هجرهن أزواجهن؛ مما يدل على أنَّ النساء الجورجيات استثنين "بونابرت" فصار موضع استهجانهن وكراهيتهن فهو القائد الأعلى الذي غزا بلادهن والمسئول الأول عما آلت إليه أحوالهن.

ومن عجائب الأمور أنَّ "برنوييه"، وهو نصير التنوير اليعقوبي ومصمم أزياء الجيش الفرنسي، كاد أن يستسلم لفكرة امتلاك جارية قبل أن يلتقي بفاطمة. وكان قد التقى بكابتن يُدعى "لونل" **Lunel** من "آفينيون" **Avignon** اقترح عليه أن يذهب كلاهما إلى السوق؛ إذ إنَّ قافلة قد وصلت لتوها حملت عددا كبيرا من

الجواري معظمهن زنجيات.[٢٨] ذهبا معًا إلى المزاد الذي أقيم "في مبنى كبير يشبه ديرًا" ورأيا في ساحة المبنى العبيد المعروضين للبيع.[٢٩] لم تتخذ النساء السودانيات من ملبس سوى أوراق من نباتات مسدلة من خصرهن لتستر عوراتهن وقد فاحت منهن رائحة كريهة. وحين اعترض الفرنسيان على ما شاهداه من جواري عرض عليهما النخاس نساء أفضل حالاً غير أنّهما ظلا عازفين عن الشراء. عندئذ اصطحبهما النخاس، وقد بدا عليه التمنع، إلى الدور الأعلى لينظرا إلى فتاتين رائعتين لم يرهما شار من قبل. وجداهما جالستين على أرض الحجرة، وما إن دخلا حتى قامت الفتاتان وأسدلا الغطاء على وجهيهما. أمرهما النخاس بأن تخلعا ملابسهما لكنهما رفضتا. يقول "برنوييه":

> تقدمت نحو إحداهما مبتسمًا في رقة كي لا أفاجئها. رفعتُ غطاء وجهها بلطف فلاحظت أنّها لم تُبدِ إلا مقاومة يسيرة، ولمحتُ في عينيها بريقًا ينم عن فرحة خفية حين رأتني أتطلع برغبة إلى استدارات جسمها الخلابة. دفعها حياؤها أنْ تترك لي مهمة تجريدها من الثياب، وكانت تستر جانبًا من جسمها حين أعري الجانب الآخر. ولم يسعني إلا أنْ أُبدي إعجابي بما لجسمها من جمال مثالي، فلها ذراعان نحيفتان، وساقان متناغمتان، وثديان مستديران ناهدان، وردفان متناسقان، وكل ذلك يُبرز بطنًا ضامرًا يخلب الألباب له ثنايا قليلة من المنتصف إلى السرة. ثم إلى أسفل هناك غابة من شعر كثيف ملتف يدفع المرء لرسم صورة لمدخل سري يؤدي إلى عالم من اللذة لا سبيل للرجوع عنه.[٣٠]

وعلى الرغم من حماسته فقد وجد "برنوييه" الثمن باهظًا، فقد طلب النخـــاس ألف وثمانمائة فرنك لكل منهما. عرض "برنوييه" ألف وستمائة فرنك فـــي حـــين اعترض "لونل" لما رآه من ارتفاع العرض. انسحب الفرنسيان للتجول في الـــسوق لنصف ساعة وهما يأملان أن يتراجع النخاس. غير أنهما عادا ليجـــدا أن الفتـــاتين بيعتا مما سبب خيبة أمل لـــ"برنوييه".

ثم تصادف أنْ ذهب "برنوييه" لزيارة "يوجين دي بوهارنيه" وهو ابن زوجة "بونابرت" الذي لم يتخط سن المراهقة، ووجد أنَّه ابتاع إحدى الفتاتين لنفسه وزينها باللؤلؤ والمجوهرات وفاخر الثياب. فما كان من "برنوييه" إلا أن ذكَّره بما اعتاد أن يسمعه منه من شكاوى لتقتير "بونابرت" عليه في القاهرة في حين كانت أمه تغـــدق عليه في باريس؛ فصارحه "يوجين" أنَّه اقترض مبلغ عشرة آلاف فرنك من تـــاجر له تعاملات مع العاصمة الفرنسية، وسيحصل المبلغ من أمه فـــي بـــاريس، كمـــا صارح "برنوييه" الفتى أنَّه أوشك على شراء الفتاة غير أنَّه يثق أنَّها في أيد أمينـــة الآن؛ فأجابه "يوجين" أنَّه لم يسبق له أن أنفق مالا على ما هو أفضل ممـــا حـــصل عليه بشـــرائه الفتـــاة، وأنَّه أنفق ستة آلاف فرنك أخـــرى لتصبح في جمال ملكة، وأنَّه يحبها بجنون لما أدخلته عليه من بهجـــة لا حـــد لهـــا بحـــضورها الجـــذاب وروحها السامية".

وهكذا فإنَّ "برنوييه" نزل من موقعه الفلسفي المؤيد لـــ"روسو" صاحب كتاب "خطاب حول عدم المساواة بين الناس"، ومعارضته العنيفة لـــ"بونابرت" لتجاهلـــه لمبدأ سيادة القانون، إلى متلصص على مفاتن النساء تغلبـــه الـــشهوة، والاســـتعداد للنظر لفتاة بوصفها بضاعة تباع وتشترى، فلم يردعـــه إلا ارتفـــاع ســـعر الفتـــاة السودانية؛ ولعلها كانت تحتل مكانة رفيعة في بلادها. وهكذا اختفت ذائقتـــه التـــي عبر عنها سابقًا لمزايا الحوار المهذب وتبادل الحديث الذي يغلـــب عليـــه الـــدلال

الأنثوي وتلونه بالتورية الذكية ليحل محله حديثه عن أوصاف الجسم وشعر العانة. بل إنّه كرر دون تعليق ما سمعه من "يوجين دي بوهارنيه" عن الجانب الروحي في علاقته بالفتاة ملك يمينه وصلة ذلك الجانب بشخصيتها.

ويدافع بعض المراقبين الفرنسيين عن تجارة الرقيق بمصر فهم يرون أن الرقيق يعاملون معاملة أفضل من الخدم، وأن أسيادهم يضطرون بعد بضع سنوات أن يزوجوا الفتيات وأن يزودوا الفتيان بما يصلح من شأنهم. بل إنّ "بونابرت" نفسه قال: "إنّ العبودية في الشرق لا تقارن بالعبودية في الغرب. ففي الشرق نجد العبودية أقرب لما وصفه الكتاب المقدس، فالرقيق يرثون في ثروة أسيادهم ويتزوجون من بناتهم. ومعظم الباشوات من الرقيق أصلاً. إنّ هوة شاسعة تفصل بين المفاهيم الشرقية والغربية بحيث مضى وقت طويل قبل أن يدرك المصريون أن الجيش الفرنسي ليس مكوناً من عبيد يملكهم السلطان الأعظم".(٣١) ويقول "دوجوروه" "إنّ الجواري الزنجيات ينعمن بحياة سعيدة في مصر، فهن يُشترين ليصحبن السيدات بوصفهن وصيفات أو ليشتغلن في أعمال المنزل"، أما العبيد فيقول "دوجوروه" إنّهم يعملون في الدكاكين وفي كثير من الأحيان يتبناهم أسيادهم، ولا يقبل على شرائهم إلا الموسرين منهم. وينتهي "دوجوره" إلى رأي مؤداه أنّهم يتمتعون بحالة من السعادة تفوق ما هو متاح للفقراء من المصريين.(٣٢) ويتفق "سان – هيلير" مع "دوجوروه" في ما أورده من فرق بين الرقيق وفقراء المصريين فيقول: "إنّ العبودية تختلف في مصر عنها في أمريكا، فهي تبنٍ في واقع الأمر؛ فالفتيان اللذان ابتعتيما لا يناديانى إلا بـ"والدي"، وأنا راضٍ تمام الرضا عن خدماتيما وأبادلهما الشعور نفسه. وفي الأزمنة الماضية كان الشرف كله من نصيب من يباع ويشترى، وقد ساد هذا الرأي مما دعا بعض البكوات لإرسال

أبنائهم إلى بلاد بعيدة وعرضهم للبيع ثم شرائهم كي يعودوا، وقد اكتسبوا تقديرًا أكبر في مجتمعهم".

تظهر تلك الأفكار الشائنة عدم قدرة المثقفين الفرنسيين على التعاطف مع ما يشعر به العبيد من فقد لحرياتهم الشخصية. وبالفعل فإنَّ الرقيق في مصر ينخرطون في نظام يختلف عن الذي يخضع له عبيد "هايتي" **Haiti** على سبيل المثال. وقد أدرك "سان – هيلير" وآخرون الفرق الذي يتمثل في نص الشريعة الإسلامية على أن أبناء الجارية أحرار يتمتعون بحقوق الميراث، ويتمتعون بقدر كبير من القبول الاجتماعي، فلا يلحق بهم أو يكاد عار العبودية، فهم يختلطون بعامة المسلمين عبر زيجات تربطهم بهم. ولذلك لم ينفصل عرق من الرقيق عن عامة المجتمع. أضف إلى ذلك أنَّ العبيد الذين يعملون في الزراعة قلائل لتوافر العمالة بين الفلاحين، ولذلك اقتصر الطابع الرئيسي لعمل الرقيق على الواجبات المنزلية. وربما لم تتصف تلك الواجبات بالخشونة غير أنَّها ما زالت شكلاً من أشكال العمل القسري الذي يصادر حرية البشر ويُخضع الفتيات عنوة للمعاشرة الجنسية.

ومن جهة أخرى فإنَّ "نيبللو سارجي" يعبر عن آراء مستمدة من حركة تحرير العبيد:

> **ولكن حين نزور تلك الأسواق التي تجري فيها تلك التجارة، وحين نرى المصائب التي تحل بهؤلاء البؤساء الذين يباعون لقاء مبالغ من المال، وحين نرى فتاة لم تكد تتخطى سن البلوغ وهى تحمل طفلاً يلتقم ثديها ونعلم أن كليهما سيخضعان لمالك شره، فإنّنا لا نستطيع أن نتغلب على**

شعورنا بالألم الذي لا يخفف منه إلا الأمل في أن نرى يومًا ما انتصار الفلسفة والحس الإنساني على ضفاف النيل أيضًا.(٣٣)

بدا واضحًا أنَّ الجيش الجمهوري لن يدعم "الفلسفة والحس الإنساني"؛ فالتعارض بين الحرية والقهر في جمهورية مصر الفرنسية يبدو جلياً في الموقف من العبودية التي حُرِّمت على أرض فرنسا منذ زمن، وكان ملاك العبيد الذين يعودون بهم إلى أرض الوطن يحزنون حين تصدر المحاكم الفرنسية أحكامًا بتحريرهم.(٣٤) ولم يكن امتلاك الفرنسيين المقيمين خارج فرنسا للعبيد العاملين في الزراعة محرمًا قانونًا قبل الثورة، فقد أصدر "لويس الثالث عشر" في القرن السابع عشر قانونًا يسمح بذلك تحت ضغط من الكنيسة الكاثوليكية (كان ملاك العبيد في العالم الجديد مطالبين بتحويل ما يمتلكون من عبيد إلى الديانة المسيحية).

وقد قام النخاسون الفرنسيون بإرسال مئات الآلاف من الأفارقة من السنغال وغيرها من بلدان غرب أفريقيا إلى العالم الجديد من ميناء "نانت" **Nantes**. وكانت المزارع التي عمل بها العبيد في "المارتينيك" **Martinique** و"جويانا" **Guyana** و"هايتي"، تنتج السكر والبن ونبات النيلة وغيرها من السلع، وفرضت حياة قاسية على من يعملون بها من عبيد. وقد أدان "مونتسكيو" و"فولتير" و"روسو" ومؤلفو الموسوعة، على الرغم من إشاراتهم العنصرية تجاه العرق الأفريقي، إدانة واضحة لا لبس فيها مؤسسة العبودية بقدر طاقاتهم مع الحرص على عدم المساس بالملكية الفرنسية. وتحتوي الموسوعة على مقالات تؤكد "إنَّه إنْ أمكن تبرير العبودية على أساس أخلاقي بحيث لا تصبح جريمة، فإنَّه لن يكون هناك جريمة مهما بلغت بشاعتها إلا وأصبحت شرعية". وهناك أيضًا من يقول: "إن شراء الزنوج وإخضاعهم للعبودية تجارة تنافي الدين والأخلاق والقانون الطبيعي وحقوق الإنسان

كافة".[٣٥] وقد أدان "فولتير" العبودية في روايته "كانديد" **Candide** ووجه نقدًا عنيفًا لمزارع قصب السكر التي يديرها الفرنسيون في "هايتي" حيث يموت الناس لكي يعيش غيرهم في ترف حسب قوله. وقد وضعت الثورة قضية العبودية على جدول الأعمال التشريعي، وكذلك ثورات "هايتي" التي استثارت الملاك لكتابة رسائل تعبر عن حالة من القلق والرعب. غير أنَّ اليعاقبة تجاهلوا نداءات الملاك واعتبروها تلاعبًا من الملكيين المدللين الذين يقطنون المستعمرات. ومضى الفريق المعادي للعبودية في دعم دعواه في المجلس التشريعي، وبعد مناظرات مريرة اكتشف كثير من أعضاء المجلس أن نهاية العبودية تعني انهيار حركة الاستعمار الفرنسية فأصدر المجلس قانونًا في فبراير من عام ١٧٩٤ (العام الثاني للثورة) يحظر العبودية في المستعمرات الفرنسية غير أنَّه لم يمنع تجارة العبيد.[٣٥] ولم يُجز القانون سداد أي تعويض لمالكي العبيد الذين رأى الثوار أنَّ التعامل معهم لا يختلف عن التعامل مع الملكيين المنفيين، فهم كلهم لصوص سطوا على ملكية الشعب. وقد تجاهل المزارعون الفرنسيون في المستعمرات القانون المعلن ويقال إنَّ القانون لم يصل نصه إلى "المارتينيك". وعلى الرغم من تلك المناظرات التي دارت في عصر التنوير فإنَّ الضباط الفرنسيين وغيرهم في مصر ظلوا يشترون الخدم للقيام بالأعمال المنزلية، والجواري للمتعة الجنسية، ولم يخطر على بال أحدهم أن يتخذ من قانون عام ١٧٩٤ مرجعية له.

الفصل العاشر

مُنيَة نَفسه

على الرغم من إضرام النيران في قرية الشعراء وتجريد عدة حملات أخرى، فإنَّ حالةً من عدم الاستقرار سادت أقاليم الدلتا. ففي النصف الأول من شهر أكتوبر انتقل الامتناع عن سداد الضرائب، والثورات، والتحالفات مع خيالة البدو، من محل إلى آخر في أرجاء الدلتا. وإذا تصورنا الوجه البحري يدًا مفتوحةً إبهامها إلى اليمين فإنَّ الأصابع كلها تصبح في حركة دائمة، أما الإبهام فإنَّه الخط الممتد من الخانكة إلى بلبيس والصالحية والذي يتجه شرقًا بعد ذلك إلى السويس أو سيناء. وعلى الرغم من وجود حامية فرنسية ببلبيس فإنَّ ذلك الطريق ظل محفوفًا بالمخاطر. أما بنان السبابة فهي القرى الواقعة على بحيرة المنزلة، ويمتد الأصبع الوسطى على طول الفرع الشرقي للنيل عبر بنها وميت غمر وزفتى إلى مدينة المنصورة، وهي مخزن الأرز والقطن في قلب أراضي الدلتا، ثم شمالاً إلى دمياط والبحر المتوسط. ويمتد الأصبع البنصر بين فرعي النيل مخترقًا منوف وشبين الكوم إلى طنطا، وهي مركز صوفي يغلفه جو من قداسة، ثم عبر الفرع الغربي للنيل لينتهي عند مدينة رشيد على المتوسط. وتُعد هذه المساحة التي تقع بين فرعي النيل من أخصب الأراضي وأكثرها إنتاجًا، ولذلك رأى فيها جباة الضرائب من الفرنسيين موردًا عظيمًا للمال. ويسجل أحد الضباط الذين سافروا عبر فرع رشيد وصفًا لتلك المنطقة بقوله: "إن الخضرة التي تكسو معظم الأراضي الريفية التي تشقها قنوات الري تشبه أحجار الزمرد اللامعة على خلفية من فضة".(١) فإذا تتبعنا بنصر اليد المتخيلة، فإنَّه يمتد على طول الضفة الغربية للفرع الغربي للنيل إلى الرحمانية ثم يتجه إلى الشمال الغربي فيخترق دمنهور ويواصل

امتداده عبر قناة استقبلت مياه النيل مؤخرًا لتصل في نهاية المطاف إلى الإسكندرية. ولم يُقِم الفرنسيون في كثير من تلك المساحات الحضرية سوى حاميات متناثرة غير أنّهم نشطوا لجباية ضرائب باهظة فرضت على الماشية ومحاصيل الشتاء التي لم يأن أوان حصادها بعد.

وفي التاسع والعشرين من سبتمبر يذكر الرقيب أول "فرنسوا" أنَّ الحامية علمت من نشرة ذلك اليوم أنَّ ثورة جديدة نشبت في الوجه البحري. يقول "فرنسوا" إنَّ الشعور بالقلق ساد الجنود الفرنسيين في تلك الليلة مما اضطرهم إلى مضاعفة الدوريات الليلية.(٢) وقد زاد من اضطرابهم بداية تفشي الأمراض بينهم؛ إذ "أصاب الرمدُ كثيرين وفقد الإبصار عددٌ كبير منهم، في حين انتشرت دمامل حمراء صغيرة على أجسام آخرين وأصيب نصف رجال الفرقة بهذا المرض الذي ترك أثرًا بالغًا على أجسامهم يشبه تأثير الجَرَب، أما الثلث على الأقل فإنَّهم يعانون من أمراض العيون". توقع الفرنسيون وقوع الهجمة اليوم التالي، فحددوا مواقع لفاقدي البصر بحذاء سور الحصن ووضعوا البنادق بين أيديهم بحيث تصوب تجاه العدو الذي يتقدم نحوهم فتصيبهم في حدود ثلاثين أو أربعين قدمًا، وصدرت لهم الأوامر ألا يطلقوا رصاص بنادقهم إلا عند إصدار القائد للأمر. أما الجنود الآخرون من المرضى فقد منعوا من الخروج للقتال إلي جوار زملائهم الأصحاء. وفي اليوم التالي، وصلت أنباء تفيد أن قرية عباقة بالقرب من بلبيس تحالفت مع البدو الثائرين وحمل رجالها السلاح. خرجت وحدة "فرنسوا" لمواجهتهم وما إن اقترب الجنود الفرنسيون من القرية حتى فُتحت عليهم النيران. استخدم الفرنسيون مدفعيتهم لفتح فجوة في أسوار القرية دخلوا من خلالها وهم يطلقون بنادقهم. يقول فرانسوا إنَّ غزو القرية لم يستغرق إلا دقائق تناثر بعدها الجرحى والقتلى في طرقاتها. ويضيف "فرنسوا": "عُدنا بعد ذلك إلى المعسكر ونحن نسوق أمامنا

الخيول والجمال والجاموس والخراف والحمير والغلال التي صادرناها من القرية".

ويلاحظ الضابط الفرنسي أنَّ القرى المصرية مشيدة عادة على أرض عالية نسبيًا تحيط بها الأسوار ولها بوابتان كبيرتان. وفي كثير من الأحيان يقام برج بجوار كل بوابة يسمح لحراس القرية بإطلاق النار من زوايا متعددة. ويقول إنَّ تلك التحصينات كافية لصد هجمات البدو.

كما حدث في أواخر سبتمبر أن حارب الجنرالان "جواكيم مورا" **Joachim Murat** و"فرنسوا لانوس" **Françis Lanus** رجال البدو حول ميت غمر وهي مدينة كبرى تقع شمال القاهرة بحذاء الفرع الشرقي للنيل الذي يؤدي إلى المنصورة ودمياط.(٣) اضطر الأوروبيون إلى التخلي عن مدافعهم لعدم قدرتهم على جرها عبر القنوات والمستنقعات التي تتكون في فصل الخريف. وانسحب البدو أعلى تل أسفله مياه تجمعت من فيضان النيل. تحدى الجنود الفرنسيون العائق المائي وهاجموا التل وفي لمح البصر، حسبما يقول "مورا"، رفرف علم الأمة الفرنسية العظيمة أعلاه. سارع البدو بالانسحاب إلى مخيماتهم في سهل بعيد بحيث أصبحت المستنقعات تفصل بينهم وبين أعدائهم. وعلى الرغم من التعب الذي حل بالجنود الفرنسيين فقد قرر "مورا" و"لانوس" مطاردتهم، فـ"الحماسة الجمهورية لا تعبأ بالأخطار" على حد قول "مورا"، ويضيف "سرنا حوالي نصف فرسخ في ماء وطين". تكبد البدو خسائر فادحة وفروا من مخيماتهم تاركين خلفهم قطعان حيواناتهم. طاردهم الفرنسيون مطاردة حثيثة إلى أن أجبرهم حلول الظلام وانهيار أحد السدود على وقف تقدمهم فعادوا إلى مخيمات البدو، حيث جمعوا ما يقرب من خمسة آلاف رأس من الخراف والجمال والحمير، واضطروا إلى إطلاق النار على بعضها فلم يتمكنوا من السير بمثل تلك الأعداد الكبيرة. وعاد الجنود إلى ميت غمر حفاة فقد فقدوا أحذيتهم في الطين.

وفي مطلع شهر أكتوبر أضرب أهل طنطا بالدلتا، وهي محل لمقام السيد أحمد البدوي، عن سداد الضرائب للفرنسيين. وقد اجتمع دراويش الصوفية وهم في حالتهم المعتادة من العُري المزري في المدينة وبدا أنهم مشاركون في التمرد.(٤) (ويعد مقام السيد البدوي ضريحًا صوفيًا يبجله الصوفيون). وقد كتب الجنرال "فوجيير" Fugière إلى "بونابرت" أنه يريد أن يكبح جماح جنوده لما يُعرف عن مدينة طنطا من تقديس لأوليائها ولمكانتها، غير أنه يخشى أنَّ جنوده قد يطلقون النار على الدراويش إذا ما استفزوا. أرسل "فوجيير" "سيمون لوففر" Simon Lefebvre وبعض الزوارق الصغيرة التي تبحر في القنوات المائية إلى طنطا، وكذلك سليم شوربجي وهو ضابط عالي الرتبة في فرقة الإنكشارية التي أعاد "بونابرت" تشكيلها. أخذ شوربجي أربعة من المشرفين على ضريح السيد البدوي رهائن وبدا كأن من الممكن تجنب وقوع أزمة. ولكن ما إن قارب الفرنسيون الصعود إلى زوارقهم الصغيرة حتى تجمع أهل مدينة طنطا وانضم إليهم مائة وخمسون بدويًا وانطلقوا في إثرهم غاضبين. اضطر الفرنسيون إلى التخلي عن رهائنهم والفرار عبر القناة غير أنهم تسببوا في مذبحة فقد أطلقوا نيرانهم على الجموع الغاضبة. وكتب "فوجيير" إلى "بونابرت" يطلب إطلاق المدافع على المدينة لعقاب أهلها.

ولا شك أنَّ "بونابرت" استشار شيوخًا، مثل الشيخ البكري، فقد بعث برد حاسم يأمر فيه ألا تمس مدينة طنطا، ويقول في خطابه "أيها المواطن الجنرال، لقد علمت بمزيد من الألم ما حدث في طنطا. وأود أن أؤكد على احترام تلك المدينة. وإنني أرى أن أي تدمير يلحق بتلك المدينة التي يعدها أهل الشرق كلهم مقدسة سيعد مصيبة فادحة". ويضيف "بونابرت" أنَّ "فوجيير" يجب أن ينهي التوتر من خلال المفاوضات، وإن أراد أن يُخضع البدو فعليه أن يأخذ منهم رهائن.

جرت العادة في طنطا على إقامة أسواق للتجارة سنويًا توافق الاحتفال بمولد السيد البدوي، وتجذب تلك الأسواق عددًا كبيرًا من التجار والمشترين من قريب ومن بعيد، بل من القاهرة ذاتها.(٥) أصبحت مدينة طنطا أرضًا مقدسة للمسلمين نظرًا لأنها مقر ضريح لولي من أولياء الله البارزين، غير أنَّ الحكم الأوروبي الكاثوليكي الأجنبي بات ينذر بإلحاق النجاسة بها. وتذهب التقاليد المحلية إلى أنَّ الأولياء يمثلون "حكومة روحية" تعلو على حكومة المسئولين الظاهرة في الحياة الدنيا، وتصدر أحكامها القاطعة فيما تتخذه من قرارات. وقد سبق للفرنسيين أنْ عاقبوا صرافًا مسلمًا، فما كان منه إلا أن أعلن بكل ثقة في صيف ذلك العام أنَّ ولي طنطا الذي قضى منذ زمن طويل سيقتل كل مسيحي يمر بضريحه.(٦) ويقول الكابتن "لوي تورمان" **Louis Thurman** إنَّ في مصر أولياء كثيرين يتعثر المارة في أضرحتهم أينما اتجهوا، ويعتقد العامة أنَّهم يخرجون من قبورهم كل عام ليذهبوا إلى المدينة لزيارة قبر الرسول بالمدينة المنورة، ولا يتخلف منهم أحد. ويضيف أيضًا أنَّ هناك قبرًا بأبي مندور بالقرب من رشيد لولي من أولياء الصالحين يعتقد العامة أنَّه قد زاره الرسول نفسه على عكس المعتاد، فقد بدا أثر الزيارة النبوية في الحفاظ على برج القرية من الانهيار في النيل ومنع المياه من التحول عن الميناء بما يجره ذلك من آثار مدمرة".(٧) وهكذا فإنَّ أضرحة الأولياء مثلت تحديًا للفرنسيين فاق توقعاتهم في بداية الأمر.

وفي أوائل أكتوبر شرع الجنرال "أندريوسي" في إعداد حملة أخرى ضد حسن طوبار ورجاله حسب رواية "نيبللو سارجي". رحل الجنرال إلى دمياط في الثالث من أكتوبر في أسطول نيلي، وفي السابعة من صباح اليوم التالي نزل الجنرال يصحبه مائة جندي إلى البر وبدءوا السير بحذاء ضفة النهر التي تفصل البحيرة عن البحر المتوسط. ولم يكن بهذا اللسان البري آبار فعانى الجميع من

العطش. وتبع الجنرال مائة آخرون في زوارقهم. وفي الثالثة عصرًا وصل صف الجنود والأسطول إلى قرية ديبة حيث تلتقي مياه البحيرة بالبحر المتوسط عبر فتحة في اللسان. وهناك حصلوا على مياه للشرب بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من العطش. واصل الجند مسيرتهم في اتجاه دمياط عبر المطرية. وما إن ظهرت في الأفق مآذن قرية المنزلة حتى برز لهم أعداؤهم من رجال البحيرة في مائة قارب شقوا طريقهم مناورين في القناة نفسها التي يبحر بها أسطول "أندريوسي". أطلق رجال القوارب صيحات الغضب وقرعوا الطبول والأدوات النحاسية. أنزل "أندريوسي" الأشرعة وجمع قواته وأصدر أوامره بإطلاق النار؛ فانطلقت ستة مدافع وسقط رجال المنزلة وقد نال منهم الرعب. يقول "جربوه" إنّ القتال دام خمس ساعات إلى أن انسحب العدو في العاشرة مساء.

غير أنّ رجال المنزلة واصلوا مناوشاتهم ضد الفرنسيين حتى وصلوا إلى قرية منيا بالدلتا والتي تقع غرب دمياط. فقد ظلوا يطلقون صيحات الحرب ويقتربون من البر وكأنّهم سيهبطون من قواربهم وبدا أنّهم يحاولون إزاحة الفرنسيين من سفنهم. ولكن الجنود الفرنسيين صمدوا في مواقعهم، وأمر "أندريوسي" بإطلاق النار مرة أخرى لصد رجال المنزلة ولإخطار الجنرال "فيال" بوصوله. وفي نهاية المطاف طلع القمر في السماء فإذا بدورية بحرية تتبع الجنرال "فيال" تصل لتجبر رجال طوبار على الانسحاب.

وبعد عدة أيام كتب الجنرال "دوجا" إلى حسن طوبار لتسوية الأمر، ويسجل "تيبللو سارجي" رد الزعيم على خطاب الجنرال كما يلي:

> لا أرغب في مقابلة الفرنسيين لا من قريب ولا من بعيد... فإذا حصلت منهم على ضمانات بأن أُترك في سلام

في موطني بالمنزلة، فإنَّنى علـى استعداد أن أدفـع لهـم الضريبة التي كنت أدفعها إلى المماليك. ولكنـي لا أريـد أي اتصال مع هؤلاء الكفار.

لم تتوقف الأعمال العدائية؛ ففي الثامن من أكتوبر ظهرت قوارب العدو في بلدة منيا التي تقع على جانب البحيرة، ولكن نيران السفن الفرنسية التـي تـدعمها المدفعية جعلتهم يولون الأدبار. ثم بادر "دوجا" بإرسال طابور قوي مـن الجنـود شمالاً إلى المنزلة مقر الزعيم الثائر. تمكن الجنرال "داما" الذي تولى قيـادة تلـك المهمة من تفريق جمع من الرجال المسلحين ودخل المنزلة بدون مقاومة، ثم تبعـه فريق "نيبللو سارجي" مما اضطر رجال القـوارب إلـى الفـرار. كـذلك تمكـن الفرنسيون من تأسيس مواقع عسكرية بالمطرية والمنزلة لحماية الأسـطول الـذي يحتل البحيرة. أما حسن طوبار فقد انتقل إلى موقع آخر بالبحيرة تـصحبه فرقتـه قليلة العدد وظل مصدر تهديد لجيش "بونابرت".

* * *

فشل "بونابرت" في التنبؤ بتصاعد الغضب الشعبي في القاهرة، وقـد دفعـه نقص الأموال إلى تبني سياسات عشوائية سمح بموجبها في كثيـر مـن الأحيـان لجنوده باكتساب رزقهم من أعمال السلب والنهب. وإضافة إلى ذلك فإنَّـه فـرض ضرائب باهظة على المصريين فأجبرهم على سداد نفقات غزوهم واحتلالهم. ولـم يتقن العشرون ألف جندي المتمركزون بالعاصمة إلا القليل من اللغة العربية ولـم تتوفر لهم معرفة بثقافة المصريين المسلمين. شـرع المهندسـون مـن الـضباط الفرنسيين لإعادة تخطيط المدينة لتوافق مواصفات المدن من وجهة نظرهم، فهدموا ما اعترض طريقهم من مقابر وأضرحة صوفية تمنـع شـق الطـرق الواسـعة

المستقيمة، وأزالوا الحواجز بين أحياء المدينة. ويذكر تُرك أنَّهم دمروا مساجد ميدان الأزبكية كي يتسع الطريق لمرور عرباتهم.[٨]

وقد حدث أن هدم المهندسون الفرنسيون في إحدى المرات بعض الأضرحة، ويعلق "بونابرت" على ذلك الحدث بقوله إنَّ الخبر انتشر وأثار سخطًا عارمًا.[٩] وجاء الرد الشعبي على صورة طوفان من البشر احتل ميدان الأزبكية في الساعة السادسة مساء وعلا صوتهم بالضجيج تحت قصر "السلطان العظيم". تقدم حرس "بونابرت" وشرعوا أسلحتهم. ويقول "بونابرت" إنَّه كان يتناول غداءه حينها، فقام إلى النافذة يصحبه "فنتور" مترجمه الخاص الذي أوضح له أنَّ ما يجري علامة على ثقة الأهالي به، وأن تجمعهم أمام قصره يوافق ما تقضي به عادة أهل البلاد عند تقديم التماس لولي الأمر. نزل "فنتور" إلى الأهالي الثائرين وطلب منهم اختيار عشرين متحدثًا باسمهم لمقابلة "بونابرت" دعاهم للصعود وحياهم أحسن تحية. عومل المتحدثون معاملة الشيوخ الأجلاء وقُدمت لهم القهوة والشربات وجلسوا إلى "بونابرت" الذي أصغى إلى شكواهم. قال الشاكون إنَّ الأضرحة قد انتُهكت وأنَّ الفرنسيين يسلكون مسلك الكفار وعبدة الأوثان (وفي ذلك تذكرة لـ "بونابرت" بما أدعاه من أنَّ جيشه لا يضم كفارًا ولا عبدة أوثان بل "مسلمين"). اتصف أئمة المساجد والمؤذنون في الوفد حسب رواية "بونابرت" بالتعصب البالغ واحتدوا في حديثهم معه، لكن "بونابرت" أصغى إليهم جيدًا وألقى باللوم على المهندسين الذين صدرت لهم أوامره الفورية بوقف عمليات الهدم.

خرج الشيوخ الذين قادوا الحشود متباهين بانتصارهم وأطلقوا صيحات الفرح. اخترقت جموع الناس شوارع القاهرة يرفعون الصوت بآيات الذكر الحكيم حتى وصلوا إلى مسجد الإمام الحسين. وهناك حسب رواية بونابرت قام الإمام خطيبًا يدعو للسلطان العظيم ويتشفع بالرسول كي يحفظه ذخرًا للإسلام. ولعل

"فنتور" اعتقد بالفعل أنَّ تجمع الغوغاء أمام قصور المماليك يؤدي إلى الإطاحة برقاب الغالبية العظمي منهم، أو ربما خشي أنْ يسرف "بونابرت" في ردة فعله فيدفع الجموع الغاضبة إلى العنف. غير أنَّ اقتناع "بونابرت" و"فنتور" بأنهما تعاملا بحكمة مع زعماء المسلمين وأهل القاهرة من المتظاهرين دلت على إفراط في الثقة سيورد الفرنسيين موارد التهلكة.

لم يدر بخاطر "بونابرت" أنَّه ينتهك أسسا اجتماعيةً لها وزنها في حياة المسلمين بما يفرضه من سياسات. وفي الأيام الأولى من شهر سبتمبر، أمر "بونابرت" بإعدام السيد محمد كُريم، حاكم البحيرة السابق الذي أدانه "كليبر" بتهمة الخيانة(١٠) لتآمره مع أعداء الفرنسيين حول الإسكندرية. ولكن كُريم كان من الأشراف أي من نسل الرسول، وكان الأجدر أن يُوقع عليه عقابٌ مختلف ولو من قِبل حاكم مسلم. التهبت المشاعر الدينية لقيام جنرال فرنسي من الكفار بقتل حفيد الرسول، ناهيك عن أنَّ كريم كان يتمتع بشعبية واسعة، فقد كان مسئولاً عن الموازين (قبانيا) في ميناء الإسكندرية ونجح في كسب ثقة المسلمين من أهل البلاد والمسيحيين من الأجانب لما اتسم به من نزاهة. وقد لفت نظر مراد بك بعد حين فعينه رئيسا للديوان ولجمرك المدينة وهو منصب أفسد عليه أمره تدريجيًا، حسب شهادة الجبرتي. ومع ذلك فقد كان يتمتع، بوصفه من أصل مصرى، بدعم كثيرين؛ فقد توّسط شيوخُ الأزهر لدى الفرنسيين لكُريم عدةّ مرات وهم يمثلون حكومة الأمر الواقع حينئذ. ويقول المؤرخ المصري إنَّه في أوائل شهر سبتمبر التقى "شارل ماجالون" الذي شغل من قبل منصب القنصل الفرنسي بمصر بكُريم وأبلغه أن الإفراج عنه مرهون بفدية، وكانت قيمتها لا قبل له بها، ومنحه "ماجالون" اثنتا عشرة ساعة لتدبير المبلغ؛ فأرسل كُريم إلى شيوخ الأزهر وإلى السيد أحمد المحروقي تاجر القوافل الأشهر يرجوهم أن يجمعوا ذلك المبلغ من المال، وكتب

إليهم أن "افتدوني أيها المسلمون". غير أنّهم لم يتوفر لهم ذلك القدر من المـــال، أو لعل الشك قد داخلهم في مصائرهم فآثروا ألا يخاطروا بإنفاق ما تبقى بين أيـــديهم من أموال.

وفي الظهيرة انقضت المهلة المحددة فجاء الجند الفرنسيون وأشهروا سيوفهم فاصطحبوا حاكم البحيرة السابق وسيد الإسـكندرية وجـالوا بــه فـي شــوارع الإسكندرية يتقدمهم قارعو الطبول. مر الموكب بحي الصليبة ووصل إلى الرميلة، حيث قيدت يدا سليل بيت النبوة وأعدم رميًا بالرصاص كما جرت عادة الفرنسيين. ويذكر الجبرتي في تاريخه أنّ الفرنسيين جزوا رأسه ورفعوها على عامود وطافوا بها في الرميلة، وهتف هاتف منهم يقول إنّ هذا جزاء من يعــارض الفرنــسيين. وجاء عبيده بعد ذلك فاستلموا رأسه ودفنوها مع جسده.

أصدر "بونابرت" الأمر بإعدام كْريم في الخامس من سبتمبر وجاء في الأمر أنّ "السيد محمد كُريم المدان بالخيانة لصلته المستمرة مع المماليك بعد أن أدى قسم الإخلاص للجمهورية الفرنسية، ولقيامه بأعمال التجسس لحسابهم، سينفذ فيه حكــم الإعدام رميًا بالرصاص بعد ظهيرة الغد". ويبدو أنّ "بونابرت" لم يُعلن أمره بإعدام كْريم للعامة مما يدعم من رواية الجبرتي عن محاولة الفرنسيين ابتزاز بعض المال لإطلاق سراحه. وفي السادس من سبتمبر أضاف القائد الأعلى ملاحظة قبل نــشر الأمر بإعدام كْريم: "نُفِّذ حُكم الإعدام ظهر اليوم في ميدان القلعة، وعُرضـــت رأس كْريم في شوارع القاهرة". ويقول تُرك إنّ أسبابًا عـــدة اجتمعـــت لتـــصاعد حـــدة الكراهية للفرنسيين بما فيها قتل السيد محمد كُريم لأنه من الأشراف.(١١)

شهد "نيبللو سارجي" تراكم إحباطات القاهريين.(١٢) فقد أغضب المـــصريون الاحتياطات الدقيقة التي اتخذها الفرنسيون لمنع انتـــشار الأوبئـــة ومنهـــا إجبـــار

المصريين على تعريض ملابسهم وكذلك ملابسهم الداخلية لأشعة الشمس على مرأى من العامة. وقد تعرض الجنرال "ديبوي" **Dupuis** لكراهية خصته دون غيره حين أعلن أنَّ قذارة البيوت والشوارع أنزلت بالسكان أمراضا غير معروفة بأوروبا. كما كره المسلمون مرأى الجند الفرنسيين الذين يحرسون المساجد على الرغم من أنَّ "بونابرت" أمرهم باتخاذ تلك المواقع كي يمنعوا زملاءهم من إهانة المؤمنين أثناء صلواتهم. كما أصدر القائد الأعلى قانونًا يبيح لليونانيين أن يعتمروا عمامات من ألوان مختلفة في حين سبق أن تحدد اللون الأبيض وحده لعماماتهم، وقد أدى ذلك إلى استياء المسلمين وشعورهم بانتقاص مكانتهم. وكذلك عانى القاهريون من نقص في المال مما جعل شراء السلع الأساسية صعبا. وكان جمعٌ من اليهود والأقباط واليونانيين والأوروبيين قد قدموا خدماتهم للمماليك فجردوا المصريين من أملاكهم، ثم استخدمهم الفرنسيون للغرض نفسه. ويقول "سارجي" إنّهم أسهموا في إثارة كراهية المصريين تجاه الفرنسيين بما جبلوا عليه من سلب ونهب.

أضف إلى ذلك كله مغازلة الفرنسيين للنساء مما أذل أهل القاهرة وتسبب في احتقان العلاقات بينهم.(١٣) وقد وطدت بعض النساء علاقاتهن مع الفرنسيين وخرجن إلى الطرقات غير محتشمات. وحسب ما تراه شعوب الشرق الأوسط، فإنَّ التخلي عن الحجاب والانخراط في حياة الليل يعد علامة على الفسق والفجور، لا التقدم الحضاري. ويقول نيقولا تُرك إنَّ الفرنسيين اصطحبوا النساء والفتيات المسلمات وهن سافرات في شوارع القاهرة، وشاع بين الناس أنَّ الجنود الفرنسيين يشترون النبيذ ويشربونه.(١٤) ويشير تُرك إلى الغضب المتزايد بين العامة في القاهرة تجاه تلك الممارسات التي رأوا فيها خروجًا على التقاليد. بل إنَّ زينب ابنة الشيخ سيد خليل البكري ذات الستة عشر ربيعًا كشفت عن وجهها وبدأت تخرج مع

الضباط الفرنسيين، غير أنَّ الشائعات التي تقول إنَّ "بونابرت" نفسه خطب ودها لفترة من الوقت لا تعدو أن تكون مجرد ثرثرة لا أساس لها من الصحة. ولا شك أنَّ مسلك فتاة تنتمي إلى أسرة كريمة تعود بأصولها إلى بيت النبوة وتنتمي إلى بيت عالم جليل، يستدعي قتلها ذودًا عن الشرف أو يتطلب إصدار حكم بالإعدام من حكومة البكوات العثمانية. أضف إلى ذلك أن التغير الذي طرأ على أخلاقيات المرأة المصرية أثار مخاوف بين المصريين من اختلال توازن القوى بين الجنسين بفعل الأجانب؛ مما سيؤدي إلى فقدانهم رجولتهم. لم يعد الرجال يشعرون بقدرتهم على السيطرة على النساء وهم يرونهن سافرات في الأماكن العامة في صحبة رجال أوروبيين يركبون الخيل، وتتردد ضحكاتهن عاليًا. ويقول الجبرتي الذي وصف تلك الفظائع إنَّ الرجال الفرنسيين اجتذبوا النساء المصريات لأنهم خضعوا لهن، فالرجل الفرنسي يسعى لإرضاء زوجته ولا يعارضها وإن شتمته أو ضربته. فهؤلاء النساء اللائي يتمتعن بالحماية يسرن في الطرقات سافرات فرادى أو في مجموعات يتقدمهن حراس يشرعون العصي كي يفرقوا الجميع من حولهن كما لو كان الحاكم نفسه يمر في طريقه. ويضيف الجبرتي أن النساء أصبحن يأمرن وينهين ويضعن القوانين. لم يقتصر الأمر إذن على السلوك والأفكار الفجة التي أتى بها الرجال الأوروبيون، إذ ينعي الجبرتي على النساء المصريات أنفسهن اتباع تلك النظرة الجديدة وتبني أسلوب الحياة الأوروبي وسعيهن لإقناع نساء أخريات بأتباعه[١٥]. عبر الجبرتي في ملاحظاته عن هجمة النظام الأبوي ضد ما رأى أنَّه بدايات لحركة نسوية، فضلاً عن تعبيره أيضًا عن إحساس الرجل المصري بفقدان رجولته بخضوعه للمستعمِر.

ويسجل "ميوه" ما يذكره عن العشيقات المصريات اللائي اتخذهن الضباط،[١٦] فيقول إنَّ بعضهن يتَّسمن بالجمال وجميعهن تعلمن نطق الكلمات

الفرنسية وعلمن الضباط العربية غير أنَّ ذاكرتهن لم تعِ سوى الكلمات الفاحشة عادة. وهكذا تكوَّن مجتمع غريب تواصل أفراده من أولئك الرجال والنساء. ويتذكر "ميوه" السهرات الصاخبة التي أريقت فيها الخمور المصنَّعة محليًا وتعالت الضحكات ودارت الأحاديث حول "باريس"، فتناسى الفرنسيون حقيقة منفاهم. وربما استدعيت راقصات مصريات لتسلية المجموعة فكانت حركاتهن الشهوانية تستثير خيال الفرنسيين وتستدعي مشاهد مبهجة. ويصف "ميوه" أيضًا عملية التكيف الثقافي التي انتشرت بين الجنود كلهم فيقول إنَّ المسلمين ينظرون إلى الأمور على نحو مختلف. ومن الخطأ أنْ نقول إنَّ حدائقهم أو نساءهم لا يتصفنَّ بالجمال، ذلك لأنَّ أفكارنا ورؤانا مختلفة؛ فالمصريون كما يقول "ميوه" يفضلون نسائهم ممتلئات في حين يفضلهن الفرنسيون ذوات خصور نحيلة وأقدام صغيرة، ويضيف: "فإذا عِبنا عليهم فساد الذوق، ألا يصح أيضًا أن يتهمونا بالمثل؟" فإذا ما تحركت مشاعر الحب لدى الإنسان في أرض خارج وطنه فمن الضروري أن يرى الأمور من منظور سكانها. ويقول أيضًا إن مؤلف كتب الرحلات كلود إتيان سافاري **Claude Etienne Savary** قد خدع الضباط بتقديمه صورًا وردية عن مصر، فقد رآها كما رأوها، أو لأنَّه كان يبدع رواية خيالية.

توافر للضباط المال للإنفاق على النساء من حريم المماليك فاتخذوا منهن الجواري أو العشيقات. وأدى وجود آلاف الجنود في القاهرة، وقد أرهقهم الحر ونال منهم الملل في كثير من الأحيان، إلى زيادة سريعة في محال الدعارة. ويُعبر "نيللو سارجي" عن دهشته لأن "ما يقع من عراك أو مبارازات محدودٌ بالنظر إلى انتشار العهر، بل إنَّ الساقطات من النساء كن يزرن معسكراتنا في ذلك الحين".(١٧) ويذكر "يوجين دي بوهارنيه" حادثة شغب وقعت بالقرب من مقر قيادة "بونابرت" تسبب فيها فرنسيون حاولوا دخول مبنى لحريم أحد المماليك. يقول "دي بوهارنيه":

تجمع عددٌ كبير من الناس أمام القصر وعلت أصواتهم منددة بانتهاك الحرمات الذي يُعد من الفظائع. فأرسلت بصحبة ضباط آخرين لنضع حدًا للفوضى، فوجدنا جنوذا من فرق مختلفة في هذا القصر، وقد انغمسوا في كل الأفعال الشائنة والممارسات الوحشية التي يمكن أن تنتج عن حرمان جنسي طال أمده، وإن كان لا يصح أن يُتخذ مبررًا لتلك الأفعال"، ويمضي "دي بوهارنيه" في وصفه للمشهد فيقول إن الجند فرقوا المعتدين بكعوب بنادقهم وعوارض سيوفهم وطاردوهم حتى أخرجوهم من بيت الحريم.[١٨] وقد أثار الاغتصاب الجماعي للجواري مظاهرات عامة المصريين.

ويقول "جالان" إنَّ الدعارة منتشرة في مصر، غير أنَّ لها قواعدَ تختلف عن قواعدها بـ"باريس". فهناك قوَّادون يرتبون تلك الأمور ويحضرون النساء على ظهر الحمير للعملاء فيبقين معهم للفترة التي يريدونها. ويزعم أنَّه رأى فتيات في سن الثانية عشرة يقفن عرايا في الميدان يعرضن أجسامهن لقاء دراهم معدودة.[١٩] وليس محتملاً أن يتسامح البكوات أو علماء الدين مع مثل تلك الأمور في مركز حضري، كما أن انهيار النظام التركي في مصر، وهو الانهيار الذي تسببوا فيه بغزوهم البلاد، يُعد أحد أسباب صدمة الفرنسيين إزاء انتشار الدعارة في مصر. ويروي "برنوييه" لابن عمه رواية فاحشة يصف فيها قراره في خريف ذلك العام قبل زواجه الزائف بفاطمة أن ينهي امتناعه عن الجنس وأن يجتمع بإحدى الساقطات.[٢٠] كان يقطن في أحد القصور التي صودرت من الأتراك المتمصرين ويقع في منيل الروضة. استعان "برنوييه" بقوَّاد يدْعى السلطان جنش يعمل أيضًا في قارب على النيل. وبعد ست ساعات وصل السلطان جنش على ظهر قاربه وفي صحبته ست نساء كلهن يرتدين جلاليب وسراويل زرقاء تصل إلى الكعوب، وعباءات من القماش نفسه تغطي رؤسهن وتستر وجوههن. ويقول "برنوييه" إنَّ

مظهرهن ذكره بصف من الساعيات لطلب التوبة، ويضيف: "وجدتُ صعوبة في اختيار إحدى هؤلاء النساء التعسات، وقد جاءت بعضهن حافيات فأثرن الشفقة لا الرغبة في نفسي".

غير أنّ فضوله تغلب تدريجيًا على مشاعره الأرقى، فشرع يزيح حجابهن واحدة بعد الأخرى فتدللن وادعين الحياء، ثم تجردت إحداهن من ملابسها كلها وبرزت من بينهن وعلى وجهها ابتسامة كأنّها، حسب قول برنوييه، تسخر من خجله وتردده. جذبت الفتاة اهتمام "برنوييه" لما أبدته من تصميم وعبث، كما جذبته عيناها السوداوان، وأهم من ذلك كله أعوامها الأربعة عشر. دفع لجنش مبلغًا كبيرًا من المال ليحصل عليها وصرفه مع الفتيات الأخريات. طلب "برنوييه" من خدمه أن يحممن الفتاة، وأن يساعدنها على ارتداء الملابس التي اشتراها لها مما غير من هيئتها تمامًا. ويمتدح "برنوييه" جاذبية الفتاة وتصرفاتها البسيطة، كما يشيد بنحولة خصرها ونبل طبيعي يطبع حركاتها وسكناتها. يكتب لابن عمه قائلاً: "وإني أترك لك يا ابن عمي العزيز تقدير ما عانيت من تمالك نفسي بعد حرمان طويل". يقول "برنوييه" إنَّها صدته في بادئ الأمر برقة محببة وبقدر من المتعة يُذيب أقسى القلوب، وفي النهاية سلَّم نفسه لـ "للملذات الساحرة التي جلبتها (له) تلك الصبية الجميلة".

وبعد انقضاء تلك "الملذات الساحرة" جلسا لتناول العشاء. ذهلت الفتاة لما رأته من أطايب الطعام ودارت حول المائدة عدة مرات، ظن "برنوييه" إنَّها غير معتادة على مقاعد المائدة فقد بدا أنَّها تخاف أن تسقط إذا جلست على إحداها، ورفضت الفتاة أن تأكل من أصناف الطعام التي قُدمت لها وطلبت طبقًا من الفول المدمس، فكان إعداده سهلاً، حسب ما ذكر برنوييه. ولا بد أنَّ خادم "برنوييه" قد

ترجم له أن الفتاة التهمت الفول مع أرغفة الخبز ورأت في تلك الوجبة طعامًا يليق بزوجات السلاطين.

كان "برنوييه" يقطن القصر نفسه مع زميل له يُدعى "لالمان" **Lallemnat**، وقد اتخذ شريكه هو أيضًا فتاة، واقترح عليه أن يقضي بعض الوقت في صحبتها. وربما بدا أن مثل هذا الترتيب معقولا ولكنه أدى إلى كارثة نزلت بـ"برنوييه في أول مسعى له للاستمتاع بحياة عاطفية بمصر. سمع "برنوييه" و"لالمان" جلبة فهرعا إلى الدور الأعلى ليجدا أنَّ فتاة "لالمان" قد ألقت بقدح من القهوة على فتاة "برنوييه" تحت وطأة الغيرة لما رأته من الثياب الجميلة التي ابتاعها "برنوييه" لها. قرر "برنوييه" أن يصطحب فتاته إلى القاهرة ولا يتركها في قصره بالمنيل، فخرجا إلى ساحة القصر ولكن فتاة "لامان" كانت في انتظارهما فسددت حجرًا إلى غريمتها أصابها بجرح في وجنتها تحت العين. اصطحب "برنوييه" الفتاتين إلى القاهرة وعهد بفتاة "لامان" للشرطة العثمانية التي أمرت باحتجازها خمسة عشر يومًا، ثم علم أنَّهم قرروا أن يلقوا بها في النيل فأسقط التهمة التي وجهها إليها وسمح لهم بإطلاق سراحها. أما فتاته فقد نزفت كثيرًا وخشي الطبيب أن تفقد عينها، فاصطحبها "برنوييه" إلى بيتها وأعطاها ما يغطي مصروفات علاجها من مال فانصرفت وهي ترفع صوتها بالصياح. وجدير بالذكر أنَّ القاهرة في ذلك الحين كانت أشبه بقرية كبيرة يتناقل أهلها الأخبار بين أرجائها، ولعل مسلمي القاهرة الذين ينتمون إلى الطبقتين الوسطى والعليا قد شهدوا مئات وربما آلافا من تلك المشاهد في خريف ذلك العام، ورأوا فيها انحرافًا أخلاقيًا خطيرًا، بل ما هو أسوأ، رأوا أنَّ تلك الفعال تمثل إهانة لشرفهم بوصفهم القائمين على حماية فضيلة المسلمات.

كما لم تخلُ نظرة الطبقة الوسطى المحافظة لمحاولات الفرنسيين إقامة حياة اجتماعية محترمة من الشكوك، فهي حياة لا تخلو من الاختلاط بين الرجال والنساء واحتساء الخمر علناً. كذلك عقد أصحاب المشروعات من الأوروبيين والمصريين الأمل في تقديم خدماتهم إلى المقاهي الفرنسية التي أنشئت حديثًا، بل حتى للحانات التي تقدم المشروبات الروحية المصنعة محليًا في مصانع تقطير تخالف الشرع والقانون. ومع ذلك، فإنَّ الأنبذة التي يُستورد معظمها لم تتوفر بسبب الحصار البريطاني، ولذلك فإنَّ الجنود تعلموا الاستمتاع بتدخين التبغ المصري في النارجيلات واحتساء القهوة في أقداح صغيرة. ويقول "ميوه" إنَّهم نسوا الجلوس على المقاعد واستندوا إلى الوسائد وجلسوا على الحشايا في الدور التي سكنوها. كما أنَّ ملابسهم الضيقة لم تتناسب مع الطقس الحار فغيروها واتخذوا سراويل فضفاضة تسمح بحركة حرة للهواء لصق أجسامهم.(٢١)

ويقول "دوجوروه" إنَّ "بونابرت" الذي لم يغِب عنه أنَّ الجميع أصابهم الملل إلى درجة بعيدة، وأنَّ أفكارهم انشغلت بفرنسا، قد رغب في أن يجد وسائل لتسلية ضباطه الذين أراد عدد كبير منهم أن يعفيهم من مهامهم.(٢٢) تمنى الضباط أن تُقام لهم حديقة ملاهي شبيهة بحديقة "تيفولي" **Tivoli** بباريس في القرن الثامن عشر، مزودة بالمتنزهات والأنوار وغرف الألعاب والبلياردو. وقد قام السيد "دارجو" **Dargeau** الموظف بالإدارة المدنية بمصر بعد ذلك بإنشاء مثل تلك الحديقة التي اجتذبت الكثيرين. ولكن بمرور الوقت شكا "دوجوره" التدهور الذي حل بها وحولها إلى بؤرة فاسدة، (رأى الجبرتي المتشدد أنَّها كذلك منذ البداية). شكا الضباط أيضًا من صعوبة إقامة حفلات راقصة فلا نساء مثقفات يشاركونهم الرقص والغزل والأحاديث الذكية. يقول "نيبللو سارجي" في معرض حديثه عن النساء الفرنسيات إنَّ البعض القليل منهن ممن ارتدين ملابس الرجال ارتقين وصار لهن مكانة في

الجيش، إذ انتقلت إليهن مسئوليات رؤساء الإدارات والجنرالات.(٢٣)أما النساء الفرنسيات في القاهرة واللاتي يبلغ عددهن ما يقرب من ثلاثمائة فإنهن قدمن لمهام الغسل والطهي في المستويات الأدنى من سفن الأسطول الفرنسي، وقد ارتفعت أسهمهن حين وجد عشرون ألفا من الجنود الفرنسيين أنفسهم محتجزين بمصر، فأصبحن يتلقين الدعوات لحفلات الضباط الراقصة، ولزيارة قصورهن، بغض النظر عن خشونة أيديهن ولغتهن السوقية. أما زوجات الجنود اللائي انتقلن سرًا على ظهر سفينة نقل، ففي كثير من الأحيان صرن عشيقات للضباط الفرنسيين.

يسجل "برنوييه" في مذكراته أنَّ "بونابرت" أقام عدة حفلات راقصة رائعة وتبعه في ذلك قادة الجيش من الجنرالات فلم تخل ليله من ليال القاهرة من حفل كبير، ويقول "برنوييه" إنَّ النساء الفرنسيات كُنَّ يقمن بدور كبير في تلك الحفلات. وعلى الرغم من أنهن افتقرن إلى الصبا والجمال فقد تنافس الفرنسيون في القرب منهن ولو بهدف أن يظهروا في صحبتهن، أو لتوجيه الحديث إليهن بأسلوب العشاق الذي يطبع مسلك الرجال الفرنسيين".(٢٤) أما الفرنسيون الذين يصطحبون فتيات مصريات إلى تلك الحفلات فقد تعرضوا لسخرية لاذعة من زملائهم، فعلى الرغم من شعور الألفة الذي ساد العلاقات بين الفرنسيين والمصريات في الخفاء، فإنَّ مانعا يقوم على اختلاف الجنس برز في المجال العام ولم يجرؤ الجنود والضباط على عبوره دون أن ينالوا قدرًا من التهكم. أضف إلى ذلك أنَّ مانع اللغة في أغلب الأحيان لم يتم تخطيه. ويقول "برنوييه" في خطاب وجهه إلى ابن عمه إنَّ الجلوسَ إلى امرأة، والعجز عن التفاهم معها إلا بلغة العين واليد، موقفٌ مزعج. وما إنْ تستنفد وسائل التفاهم يتعين أن يذهب كلٌ في طريقه أو أن يجلس الاثنان وكأن على رأسيهما الطير. ويضيف "برنوييه" أنَّ مثل تلك المواقف تدخل على النفس الحزن في حين أنها تعد في الأصل بالكثير من المسرات.

وفي إحدى الحفلات التي أقيمت في خريف ذلك العام وقعت عينا "بونابرت" على "بولين فوريه" Pauline Fourès وهي زوجة أحد الضباط برتبة كابتن في فرقة الخيالة العشرين.(٢٥) وعلى الرغم من أن معظم الروايات تشير إلى أنها لفتت انتباه القائد الأعلى في الأول من ديسمبر، فإنَّ "برنوييه" كتب لزوجته خطابًا طويلاً عن علاقة جمعت "نابليون" بـ"بولين" في الخامس من ديسمبر من عام ١٧٩٨، ولذا فإنه من المرجح أن العلاقة بدأت قبل ذلك التاريخ بمدة من الزمن. كما يذكر ابن زوجة "بونابرت" تلك العلاقة التي سببت له إيذاء نفسيا في تاريخ يسبق منتصف أكتوبر. ويقول "نيبللو سارجي" إنَّ مدام "فوريه" امرأة شابة في العشرينيات من عمرها ذات هيكل صغير، ولكنها تميل إلى الامتلاء، تتسم بالطيبة والذكاء، ويقول أيضًا إنها تتمتع بقدر من التعليم ولطف المعشر على الرغم من عملها بمهنة الحياكة قبل زواجها. ويشير "سارجي" في روايته إلى العلاقة القوية التي تربطها بزوجها، واستعدادها لمواجهة الخطر في مصر من أجله، وتنكرها في ثياب رجل لتتمكن من الصعود إلى السفينة معه. ويصوغ "سارجي" روايته على نحو يجعل منها مأساة للسقوط الناتج عن الكِبر. فقد حرص الملازم أول "فوريه" كما يشير "سارجي" من طرف خفي أن يجذب انتباه الضباط من الرتب الأعلى لزوجته من خلال الأثر الطيب لوجودها الاجتماعي معه أملاً أن يؤدي ذلك إلى ترقية يفيد منها في مستقبله المهني.

ويتفق مؤلفو المذكرات على مقاومة "بولين" الذهاب إلى حفلات الضباط، وأنَّ زوجها المغرور دفعها إلى ذلك دفعًا على نحو يتسم بالخشونة والفظاظة. ومما يُذكر أنَّ أسرة الزوج كانت تنتمي إلى الطبقات العليا قبل الثورة الفرنسية. وحين رآها "بونابرت" في إحدى تلك الحفلات لم يتحول عنها إلى غيرها. وعلى الرغم من الأوصاف المثيرة للخيال التي أودعها هؤلاء المؤرخون المعاصرون مذكراتهم

فهي في نظرهم شقراء، زرقاء العينين، وشديدة الجاذبية، فقد كانت في واقع الأمر تميل إلى السمرة كما يتضح من صورتها، وقد أشار "برنوييه" في وصفه لها إلى لون عينيها الأسود. ويذكر "تيللو سارجي" أنَّها بدينة إلى حد ما (أي تفتقر إلى الخصر النحيل الذي يفضله الفرنسيون في المجتمعات الراقية)، وأنَّها "لطيفة" و"ذكية" وهما صفتان لا تعادلان على الأرجح وصف "غاوية رجال". يقول "برنوييه" إنَّ "بونابرت" راقبها في سياق الاجتماعيات الفرنسية قليلا ثم سعى للتقرب منها في إحدى الحفلات، فأثنى على تصفيف شعرها وسألها إن كانت قبعتها الجميلة مصنوعة في مصر أم فرنسا؛ فأجابته أنَّها أحضرتها معها من فرنسا. ثم ما إن بدأ الراقصون يدورون في قاعة الرقص حتى اتخذ "جونو" **Junot** مكان "بونابرت" وشرع يتجاذب أطراف الحديث معها، ثم انفرد بها في ركن من أركان القاعة وأخبرها بحب القائد الأعلى لها، وقال لها: "إنَّك إن رفضت قلبه الذي وهبه إليك تصبحين أكثر النساء قسوة وأقلهن إحساسًا". ويمضي "برنوييه" في روايته فيقول إنَّ "جونو" واصل مسعاه فأفسد العلاقة بوعد قطعه لها بأن ينال زوجها ترقية كبيرة. ويُروى عن "بولين" أنَّها ردت بحزم أن صعود زوجها إلى رتبة كبيرة على نحو مفاجئ سيسبب لها حرجًا، وسيُحقِّر من شأنها أمام نفسها لو قبلت هذا العرض. وعلى الرغم من أنَّ تلك الرواية تصف "بونابرت" بأنَّه لم يرتدع، فقد أمر بترقية "فوريه" مع ذلك كله، فإنَّ الوثائق المنشورة فيما يلي ذلك التاريخ في خريف العام تشير إلى "فوريه" بوصفه ملازم أول.

يقول "تيللو سارجي" أنَّ الخيال الجامح والملتهب سيطر على "بونابرت" فأخذ يدبر الوسائل ليمتلك مُنية نفسه، فأرسل مساعده "جونو" ليدعو "فوريه" وزوجته لتناول طعام الغداء معه. وحين وصلت "بولين" وجدت أن المائدة مُعَدة لخمسة أشخاص، ثم انطلقت الأبواق معلنة وصول القائد الأعلى الذي جاء بصحبة

"برتييه". بادر "بونابرت" الملازم أول "فوريه" بالسؤال عن تاريخه المهني وجاهد كي يبدو ودودًا تجاهه، وقبل أن يفرغ الجمع من الغداء، حسب الرواية، قام "جونو"، باتفاق مسبق، بسكب قدح من القهوة على رداء مدام "فوريه". أطلقت "بولين" صيحة وبناء على اقتراح "جونو" خرجت إلى غرفة مجاورة لتغيير الرداء أو لمحاولة إزالة البقعة. شغل "جونو" الزوج بالحديث، في حين انسحب "بونابرت" في صحبة "برتييه" على ما يبدو غير أنَّه اتجه إلى مدام "فوريه" وركع أمامها. أدركت "بولين" على الفور ما يرمي إليه القائد الأعلى؛ فقاومت الفاتح الأكبر وانخرطت في البكاء وبدا أنَّها لا ترغب في حبه على الإطلاق. ويُروى أنَّ براعتها لمست شغاف قلب "بونابرت"، أما "بولين" فإنَّها لبعض الوقت قاومت إغواءه لها الذي تمثل جانب منه في رسائل الغرام والهدايا الثمينة، ثم خضعت له في نهاية الأمر.

أرسل "بونابرت" الملازم أول "فوريه" إلى شمال البلاد وأمره بالاستعداد للعودة إلى فرنسا محملاً برسالة، وقضت أوامر الجنرال أن يحمل رفيق "برنوييه" في السكن الكابتن "فرومِن" **Froment**، ويُدعى في خطابات أخرى باسم "لالمان" التعليمات إليه. ويذكر "برنوييه" أنَّ بعد رحيل "فوريه" أصبحت "بولين" الآمرة الناهية في قصر "بونابرت"، كذلك أشرفت على المناسبات الرسمية في القصر وكأنها ملكة متوجة، واحتلت قصرًا على يمين قصر ألفي بك. لم تشعر بأي حرج بل بدت وكأنها تتبسط مع الجنرال "بونابرت"، وسعت لإضفاء جو من الأهمية يحيط بها كما اجتهدت لاجتذاب مديح المسئولين الكبار وثنائهم.

ويسجل "برنوييه" أنَّ "فوريه" انطلق ليؤدي المهمة الموكلة إليه في نوفمبر، ولكنه لم يصل إلى أبعد من الميناء فلم يستطع أن يترك زوجته فعاد ليرجوها أن تصحبه مخاطرًا بأن يسجل غائبًا دون عذر رسمي مقبول. وصل مساءً إلى منزل

الكابتن "فرومان"، حيث يقطن "برنوييه" أيضا، حريصا على أن لا تنكشف شخصيته. اكتشف الزوج المحزون أنّ زوجته انتقلت إلى قصر "بونابرت"، فأراد أن تمنح له فرصة أخيرة كي يدافع عن حياتهما الزوجية. عرض "برنوييه" الذي أشفق على الرجل وما آل إليه حاله أن يذهب لمقابلة مدام "ماليه" **Mallet** وهي من صديقات "بولين" المقربات بعد الإفطار، آملاً أنّها قد تبدى استعدادا لإحضار "بولين" إلى بيته. قام "برنوييه" بالمهمة في صباح اليوم التالي غير أنّه تلقى بعد ذلك رسالة من مدام "ماليه" تفيد بأنّ مهمته قد فشلت وأنّ "بولين" ترفض المقابلة وتقول إنّ العلاقة بينها وبين زوجها قد انتهت، وأنّها تنبأت بما سيجره عليهما طموحه وصلفه. وأضافت أنّه وحده يتحمل الخطأ في نهاية علاقتهما لأنّه رفض أن يستمع إلى نصحها. أصيب "فوريه" بحالة هيستيرية ورأى "برنوييه" لزامًا عليه أن يذهب للقاء "بولين" بنفسه، فاستغل صداقته بـ "يوجين دي بوهارنيه" ليرتب لقاء معيا. صارحها "برنوييه" بمخاوفه من ارتكاب "فوريه" لعمل طائش أو حتى إقدامه على الانتحار فردت عليه أنّ عزمها لن يلين. وتمضي "بولين" قائلة: "اطمئن، فإنني أعرف زوجي جيدًا وأعلم أنّه لن يثير فضيحة ولن ينتحر، فهو يحب الحياة ولن يضحي بها ببساطة. وليس لدي ما أود أن أقوله له سوى أنّه يجب أن يعود إلى عمله في أقرب فرصة، فإنّ "بونابرت" كما تعلم يتوقع الطاعة الكاملة من مرؤوسيه وخصوصا إن كان الأمر يتعلق بخدمة الجيش الفرنسي". وحين سمع "فوريه" كل ذلك أراد أن يذهب إليها لكن "برنوييه" أثناه عن قراره واقترح عليه أن يعود إلى فرنسا وهناك سيجد نساء كثيرات يثرن الإعجاب ومنهن من تصلح لتحل محل زوجته الخائنة.

ويبدو أنّ "فوريه" استسلم لخسارته واستعاد طموحه بعد أن انغمس في نوبة عاطفية قصيرة لم تخدع زوجته. ولا شك أنّه رأى إمكان الترقي الذي قد تتيحه له

علاقته الجديدة ب"بونابرت" على الرغم من حرجها. وفي السابع عشر من ديسمبر أصدر "بونابرت" أوامره ل"فوريه" الذي عاد إلى رشيد كي يتجه إلى الإسكندرية ليبحر على ظهر سفينة صغيرة أعدت له (ويعد تاريخ هذه التعليمات حجة تنفي الرأي القائل أن "بولين" لفتت نظر "بونابرت" في أول شهر ديسمبر للمرة الأولى). تحدد مسار الملازم أول من الإسكندرية إلى مالطة، وإيطاليا، ثم فرنسا. ويقول مدونو المذكرات أنَّ "فوريه" حُمّل برسائل إلى "بول بارا" وحكومة الإدارة. ويقول "بونابرت" في تعليماته لـ "فوريه": "ستظل في باريس من ثمانية إلى عشرة أيام، ثم تعود بسرعة مرورًا بأحد موانئ مملكة نابولي أو آنكونا **Ancona**. عليك بتجنب الإسكندرية والعودة بسفينتك إلى دمياط. وقبل الرحيل عليك بلقاء أحد إخوتي وهو عضو بالمجلس التشريعي. سيحملك بأوراق وصحف صدرت منذ شهر ميسيدور".(٢٦) وزوَّده القائد الأعلى بثلاثة آلاف فرنك لتغطية نفقات مهمته.

تشير كلمات "بونابرت" وطلبه من "فوريه" مقابلة أخيه "جوزيف" **Joseph**، فضلاً عن أوامره إليه بالعودة برسائل من حكومة الإدارة، بنشأة صلة من الثقة الغربية بين المعتدي والزوج المخدوع. ويقول بعض مدوني المذكرات إن الليوتنانت وقع في أسر البريطانيين ولم يستطع استكمال مهمته، ولكنهم يقولون أيضًا إنَّ الكومودور السير "سيدني سميث" **Sidney Smith** هو أول من كشف لـ "فوريه" خيانة زوجته وإنَّه عاد ليواجه القائد الأعلى. وهي قصة لا بأس بها لكن رواية "برنوييه" المطلع على الأمور عن قرب، وخطابات "بونابرت" التي نشرت منذ زمن طويل، تجعل من تلك القصة مجرد ميلودراما. فإن كان "فوريه" قد عاد فالأرجح أنَّه اتخذ طريقه إلى ثكنته برشيد.

استمرت علاقة "بولين" بـ"بونابرت" طوال فترة وجوده بمصر، وهناك من رآها مزينة بالمجوهرات ترفل في ثياب فاخرة، وتحمل صورة "بونابرت" في حلية

حول جيدها، في الوقت الذي احتفظ هو بخصلة من شعرها لا تفارقه. وفي كثير من الأحيان كانت "بولين" ترتدي ملابس "بونابرت" وتمتطي صهوة جواد عربي أعد لها خصيصًا يتبعها مساعدو القائد الأعلى. وكان "يوجين دي بوهارنيه"، ابن جوزفين، واحدًا من هؤلاء المساعدين وقد اضطر للركوب خلف العربة التي تقل القائد الأعلى وعشيقته حين يخرجان في جولة المساء. يقول "دي بوهارنيه": "لم أستطع أن أتحمل الإذلال فذهبت إلى الجنرال "برتييه" أرجوه أن ينقلني إلى إحدى الفرق. وقد حدثت مواجهة حادة مع زوج أمي نتيجة لذلك، ولكنه توقف منذ ذلك الحين عن اصطحاب تلك السيدة في جولات مسائية". آثر "دي بوهارنييه" أن يبقى مع زوج أمه "الذي لم يسئ معاملتي"[٢٧] على حد قوله. وعلى الرغم من أنَّ "بونابرت" أصبح أكثر حرصًا فإنَّه واصل علاقته مع "بولين". ولو أنَّها حملت له ابنًا، وهو ما حاولاه، فقد كان سيطلق "جوزفين"- على الأرجح. ودرج الجنود على تسمية "بولين" بـ "كليوباترا".

تحمل تلك القصة بعدًا أكبر من خلفيتها الخاصة، فهي تنقل إلينا صورة عن النظام الهرمي في جمهورية مصر الفرنسية، فها هو ذا "بونابرت" بوصفه السلطان الأعظم يحتل موقع إبراهيم بك ومراد بك ويصبح أقوى رجل في البلاد. كما يتعين حين يتخذ لنفسه عشيقة أن يختارها من المستويات الاجتماعية الأعلى حتى يحتفظ بمكانته أمام المصريين والفرنسيين على حد سواء. ومثلما أعلن البكوات عن وضعهم الاجتماعي باحتفاظهم بنساء كثيرات في الحريم، ومثلما امتدت أصول زوجات علية القوم إلى القوقاز، فإنَّ "بونابرت" في سياق عثماني مصري ينبغي أن يحصل على رفيقة من مستوى اجتماعي عالٍ. وقد سبق أن وردت الإشارة إلى المعاملة الفاترة التي تلقاها "بونابرت" وحده من نساء البكوات بعد أن هجرهن أزواجهن، ولذا فإن ارتباطه بتلك المرأة أصبح ذا فائدة سياسية له على الأرجح.

وفي ذلك الحين كانت النساء اللائي ينتمين إلى طبقة تعلو على الجورجيات في بيوت القازدوغلية هن بضع مئات من الفرنسيات. وعلى الرغم من أنَّ معظمهن لم ينحدرن من أسر ذات مستوى اجتماعي عالٍ في فرنسا (كانت "بولين فوريه" ابنة غير شرعية لطاهٍ)، فإنَّ ندرتهن وانتمائهن إلى العرق الحاكم أديا إلى رفعهن لقمة الهرم الاجتماعي للنساء في مصر. وما إن استبعدت الصلة بين "بونابرت" وإحدى التركيات المتمصرات فإنَّه وجد لزامًا عليه احترامًا لاعتبارات تتعلق بالمكانة الاجتماعية أن يتخذ عشيقة فرنسية. وبما أنَّ رجاله لم تتح لهم مثل هذه الفرصة فقد وجدوا أنفسهم مضطرين لعقد صلات بالنساء المصريات بصور مختلفة، فمنهم من ارتبط بهن في علاقة زوجية، ومنهم من اتخذهن عشيقات وجوار، ومنهم من عاشر الساقطات. وجدير بالذكر أنَّ تلك العلاقات التي تبلغ الآلاف عدًا وتنتشر في مجتمع يقدر الروابط الأسرية ويُعلي من شأن الشرف الاجتماعي مثَّلتْ إهانة مستمرة لحس الرجولة لدى المصريين المسلمين وباتت تشكل مصدرًا للكراهية العميقة التي يشعرون بها تجاه الفرنسيين.

***

وفي أوائل شهر أكتوبر دعا "بونابرت" إلى اجتماع بالقاهرة للمجلس الوطني أو الديوان. ويذكر الجبرتي أنَّه في يوم الجمعة، الخامس من أكتوبر، دعيت جميع الوفود التي استدعاها "بونابرت" من الأقاليم الثلاثة عشر للاجتماع ببيت القائد أغا في الأزبكية، وهو مقر الديوان العثماني المصري سابقًا.[٢٨] تشكل كل وفد من ثلاثة من علماء الدين، وثلاثة تجار، وعمدة قرية، وفلاح، وزعيم بدوي، يتلقى كل منهم مقررًا ماليًا سخيًا كل شهر. وقد قصد الفرنسيون إلى جمع تلك الوفود من الأقاليم لتكوين هيئة شبه نيابية من مائة وسبعة عشر فردًا كي تصبح أول برلمان مصري، على الرغم من أن أعضاءه لم تأتِ بهم انتخابات. حضر الاجتماع أيضًا

ضباط الفرق العثمانية، وبعض الفرنسيين والأقباط والمسيحيين السوريين. طلب الضابط الفرنسي المسئول عن الاجتماع من المترجمين قراءة وثيقة تلقي باللوم على المماليك لما حل بمصر من خراب، وتثني على الفرنسيين لنياتهم الطيبة نحو رخاء وادي النيل من خلال تجديد العلاقات التجارية عبر البحرين الأحمر والمتوسط. كما أعلن أنَّ الفرنسيين لم يتدخلوا في حياة أي مصري". وقد سجل الجبرتي سخريته من الملاحظة الأخيرة.

حاول الفرنسيون حينئذ تنظيم انتخاب رئيس من بين الوفود. انطلقت أصوات الوفود تنادي بالشيخ عبد الله الشرقاوي رئيسًا فقاطعهم المترجم صائحًا "لا... لا!" بالفرنسية، وطلب منهم التصويت باستخدام الورق. وجاءت النتيجة مماثلة ووقع الاختيار على الشرقاوي لرئاسة الديوان. استمرت الجلسة الأولى إلى المغرب، وقد طُلب من أعضاء المجلس الاجتماع يوميًا حتى يوم العشرين من أكتوبر. وأصر الفرنسيون على التزام الوفود بالانتظام في الحضور (وكانوا يتلقون مكافآتهم عن كل جلسة)، غير أنَّ الضرورة دعت إلى عدم انعقاد المجلس يوم السبت وذلك لأنَّ الشيخ الشرقاوي، الرئيس الجديد لمصر، قد وُجه إليه اتهام بإيواء تاجر ليبي عُرف عنه أنه شارك أحد مناصري مراد بك. تولى خمسون جنديًا فرنسيًا مهمة تفتيش بيت الرئيس لكن التاجر الطرابلسي كان قد هرب. وحين عرف "بونابرت" بما جرى غضب واستقر في يقينه أنَّ الرجل ما كان ليهرب لولا أنَّه مذنب بالفعل بالتواطؤ المستمر مع مراد بك. وفي صباح اليوم التالي توَّجه الفرنسيون إلى بيت الرجل ومتجره وقد هجرهما فكسروا الأختام وصادروا البضائع كلها. وما لبثت الشكوك التي حامت حول الشرقاوي حينذاك أن تبددت.

في يوم الأحد انتُخب مجلس شيوخ أو "ديوان خصوصي" يتكون من سبعة عشر عضوًا منهم شيوخ بارزون وضباط من الأتراك المتمصرين وأقباط

وسوريون وتجار مسلمون. وفيما يبدو فإنَّ المجلسين التشريعيين ربطت بينهما صلة شبيهة بمجلس الخمسمائة ومجلس الشيوخ **Council of Ancients** في عهد حكومة الإدارة الفرنسية؛ إذ يتولى المجلس الأدنى مناقشة الموضوعات ثم رفعها إلى الديوان الخاص لاتخاذ القرارات وسن التشريعات. ومارس الفرنسيون ضغوطهم على الديوان الجديد لوضع متطلبات التسجيل الرسمي للملكية، ولتثمين قيمتها، وإصدار ضرائب تصاعدية على الأملاك. كما استفسر الفرنسيون عن العادات المصرية الخاصة بمهر العروس، وقالوا إنّ العرائس في فرنسا يتلقين شوارهم ولا يتلقى الرجال شيئًا. ومن الغريب أنَّ المصريين لم يفهموا مقصد الفرنسيين وظنوا أنَّهم يعنون المورايث فافترضوا لذلك أنَّ الرجال لا يرثون وأنَّ الميراث كله تحصل عليه النساء. أصر المسلمون على توزيع الإرث حسب ما نص القرآن، وساندهم في ذلك الأقباط والمسيحيون السوريون الذين أكدوا أنَّهم عادة ما يطلبون إلى شيوخ المسلمين توزيع ميراثهم وفقًا للشريعة الإسلامية. نظر الديوان أيضًا في أمور الأحكام الجنائية وأراد أعضاؤه أيضًا أن تتضمن القوانين الأحكام الشرعية في ذلك الصدد. وقد وفَّى "بونابرت" بوعده للشيخ المسيري في الإسكندرية بتطبيق الشريعة في جمهورية مصر الفرنسية الإسلامية. وتسجل المصادر الفرنسية أنَّ عُمد القرى ألحوا لإلغاء نظام جمع الضرائب من الفلاحين، لكن كبار الشيوخ، الذين يتولون بأنفسهم في كثير من الأحيان أمر هذا النظام، تجاهلوا طلبهم وأبقوا على نظام يشيع فيه الفساد.[٢٩]

أعلن الفرنسيون جدولاً جديدا للضرائب يوم السبت الموافق العشرين من أكتوبر حسب ما أورده الجبرتي في تاريخه. قُسمت الأملاك إلى ثلاث فئات وفرضت ضريبة مقدارها ثمانية ريالات على الأعلى سعرًا، وثلاثة ريالات على الأدنى، وستة ريالات على الفئة الوسطى. ولم تفرض ضرائب على الأملاك التي تدر أقل من ريال في الشهر. أما الشركات التجارية، فقد فُرض عليها ثلاثون أو أربعون ريالاً، وقد تأثرت بذلك المحال التجارية، وسرج الزيوت، ومطاحن

السمسم، والحمامات العامة، والخانات التي تستقبل القوافل. أعلن الفرنسيون جدول الضرائب في كل تقاطع للطرق وعلى الطرق الرئيسية وكأنها بشرى للمصريين. ثم شرعوا في إرسال مثمنين لتقييم الأملاك والشركات التجارية، فانفجر غضب أرباب الطوائف. ويذكر الكابتن "ساي" أنَّ المسلمين في المدينة قالوا إنَّ الاستياء لفرض تلك الضرائب يعد السبب الأوحد لتصاعد الثورة على الفرنسيين.[٣٠]

وقد استقر في ثقافة مسلمي مصر على مدى زمن طويل أنَّ جزيةً تُفرض على غير المسلمين تسدد إلى الدولة، ذلك لأنهم لا يلتحقون بالخدمة العسكرية في معظم الجيوش المسلمة مما دعا الأغلبية أن تنظر إلى تلك الجزية بوصفها ثمن إعفائهم منها ومساهمة في تحمل نفقات الحماية من جيوش الأعداء المغيرة. ولكن بما أنَّ المسيحيين واليهود الذين يسددون الجزية يحتلون موقعًا أدنى في المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة، فإنَّ فرض الجزية عليهم ارتبط بموقعهم هذا؛ ولذلك فإنَّ المسلمين في مصر رأوا في فرض تلك الضرائب عليهم شكلا من أشكال الجزية. نظرت العائلات المصرية المسلمة المعتدة بمكانتها لدفع الجزية إلى فاتح أوروبي عبر جامعي الضرائب من الأقباط أو المسيحيين السوريين بوصفه إذلالاً لا مثيل له. أضف إلى ذلك أنَّ مصر لم تعرف من قبل فرض ضرائب تصاعدية على الأملاك أو قيام الدولة بفحص الأصول وتثمينها على هذا النحو. اجتمعت الحشود إذن حول الشيوخ الأكثر تشددًا وأصغوا إليهم وهم ينادون: أيها المسلمون، إنه الجهاد، كيف يمكن للأحرار الموافقة على دفع الجزية إلى الكفار؟ أين نخوتكم؟ ألم تصلكم الدعوة؟[٣١] اجتمع العامة في حلقات لمناقشة الأمر ولم يقتصر اجتماعهم على حي الحسين والأزهر وإنما امتد إلى الأحياء المجاورة، وتصاعد الغضب ضد أسيادهم الأوروبيين.

***

وفي صباح يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر أكتوبر، اعتلى الشيخ الشهير وتاجر القوافل سابقًا السيد بدر المقدسي صهوة جواده المطهم وتبعه جموع الناس من حي الحسين، وانضم إليهم من أطلق عليهم الجبرتي اسم "الحرافيش" من الأحياء المجاورة.[٣٢] ورددوا جميعًا الدعاء بأن ينصر الله الإسلام، وتجمع حوالي ألف شخص في صباح ذلك اليوم أمام قصر قاضي القضاة العثماني الذي سارع بغلق البوابات وقد أوجس خيفة من الجموع فبات حبيسًا في بيته. وشرع الناس يقذفون القصر بالحجارة حين لم يجدوا تجاوبًا منه؛ فلم يلبث أن حاول التواصل معهم بأسلوب يغلب عليه التأدب، ووعدهم بما هو بعيد المنال، فاجتمع الناس في ساحة قصره منادين بالحرب وبمجابهة العدو. وأغلق التجار دكاكينهم، وتجمعت حشودٌ أكبر أمام مسجد الحسين والجامع الأزهر القريب منه. خاطب الشيخ المقدسي الناس فقال لهم إنّ المؤمنين كافة يجب أن يجتمعوا بالأزهر لأن ذاك يوم الهجمة على الكفار ورفع الذل والمهانة والانتقام منهم. وقد استاء "برنوييه"، الذي لا يكن أي احترام لعلماء الأديان كلهم، من استخدامهم الإسلام لإثارة مشاعر الجمهور. ويقول إنّ توظيف الدين ملجأ القسس الذين يستغلونه دائمًا ليسيطروا على المؤمنين ويوجهونم كيف يشاءون.[٣٣]

جاءت الاستجابة الأولى من طرف الفرنسيين من الجنرال "دمينيك – مارتن ديبوي" وهو من مواليد "تولوز" في العام ١٧٦٧، وقد أبلى بلاءً حسنًا في إيطاليا حيث تقلد منصب الحاكم العسكري لـ"ميلانو" بعض الوقت. بلغت تقارير الاضطرابات "ديبوي" الذي كان مسئولاً عن القلعة التي تطل على مدينة القاهرة فتلقاها ببعض الشك ولذا فقد هبط بصحبة اثنى عشر خيالاً. ويقول "بونابرت" إنّ الجنرال "ديبوي" اعتاد تلقي مثل تلك التقارير؛ ذلك لأن القاهريين لا يستقر بهم الأمر طويلا وتتفشى بينهم الشائعات ويتنازعهم الفضول حول الأحداث. انطلق

"ديبوي" مع رجاله في شارع الغورية ثم يمم شطر الحي الذي يسكن به الشيخ عبد الله الشرقاوي، رئيس الديوان. رفض الشرقاوي أن يستقبله، وأرسل إليه بخادم يعلمه أنّ الشيخ الجليل خارج الدار. توَجَّه الجنرال الفرنسي بعد ذلك إلى بيت قاضي القضاة العثماني، ودخل عليه غير أنَّه اقترح أن يُؤجل اجتماعهما إلى الغد لما لاحظه من حالة الهياج الشديد التي كان الناس عليها؛ وما كان من قاضي القضاة الذي تمنى رحيل الفرنسيين عن قصره حتى لا يضيفوا إلى بلواه من استهداف الناس له أن وافقه تمامًا. حينئذ برز صانع عطور يلبس ملابس العلماء فيتدثر بقفطان ويربط حزامًا حول وسطه وتقدم لمخاطبة الناس وتحفيزهم فيقول الله أكبر يا مسلمون، إنّ شيوخكم يأمرونكم بقتل الكفار، استعدوا أيها الشجعان واقتلوهم حيث ثقفتموهم. وفي كثير من الأحيان تتداخل الطوائف، مثل طائفة صانعي العطور مع الطرق الصوفية، ولعل هذا الرجل كان زعيمًا صوفيًا مما يفسر إشارته إلى سلطة الشيوخ في إصدار أوامرهم. قاد الرجل الحشود في اتجاه الأشرفية حيث التقوا بجموع الناس عند قصر قاضي القضاة. ويقول "بونابرت" إن "ديبوي" صعد إلى جواده بصعوبة نظرًا للزحام الشديد، وحوصر الخيالة فلم يستطيعوا حراكًا، ووطأ أحد الجياد رجلاً من الشمال الإفريقي وهو رجلٌ يتسم بالشراسة وكان قد حضر من مكة، فما كان منه إلا أن أخرج غدارته وصوبها إلى الخيَّال وأطلق عليه رصاصة أردته قتيلاً، ثم اعتلى هو صهوة جواده. شنت مجموعة الفرنسيين هجمة وفرقوا الناس. وبينما كان "ديبوي" يخرج من ساحة القصر متجهاً إلى الطريق تلقى ضربة في رأسه من رمح ألقاه رجل اتخذ موقعًا محددًا في ذلك المكان، فسقط قتيلاً.(٣٤)

ويحكي القائد الأعلى خبر انتشار الشائعة على الفور بين الناس الذين تناقلوا ما أشيع عن مقتل "السلطان العظيم" أي "بونابرت" نفسه، وأنّ الفرنسيين تخلوا عن

تكلفيهم إظهار الود والاحترام للمسلمين وأنهم يقتلونهم. نادى المؤذنون من أعلى مآذنهم على المؤمنين المخلصين كي يتقدموا لحماية مساجدهم ومدينة القاهرة. أما فرقة الخيالة الفرنسية التي ذهبت إلى بيت قاضي القضاة، فقد احتشد حولها الناس فسعى أفرادها إلى الانسحاب عبر بين القصرين وباب الزوهومة، غير أنهم وجدوا الحشود تقطع عليهم الطريق. بلغ الغضب بالمصريين مبلغه حين رأوا محتليهم فاجتاحوا من وجدوهم في طريقهم وصرعوهم. وبالكاد تمكن بعض أفراد الفرقة الفرنسية من جمع جرحاهم وانسحبوا في اتجاه مقر القيادة، حيث قضى مزيد من الجرحى نحبهم متأثرين بإصاباتهم.(٣٥)

نظّم المتمردون المسلمون (وهو الوصف الذي أطلقه الفرنسيون عليهم) حرسًا مدنيًا حول الأحياء الرئيسية المجاورة لحي الحسين، حيث اندلعت الثورة وامتد نشاطهم إلى باب زويلة وباب الشعرية. ويتذكر "سانت هيلاري" أنَّ الجمع احتل ثلاثة مساجد كبيرة متباعدة، وتسلحوا بالسيوف والعصي الغليظة وبعض الأسلحة النارية، وحولوا المساجد إلى حصون احتموا بها واستخدموها نقطة انطلاق في هجومهم أو دفاعهم. ويشير الجبرتي إلى محاولة المتمردين الحفاظ على وحدة المنطقة التي يسيطرون عليها. غير أنهم لم يحاولوا الانتقال إلى مناطق أخرى، كما أنهم هاجموا مبنى الخزانة العامة القائم في ناحية المدينة التي يحتلونها.

لم تشارك بعض الأحياء في الثورة ومنها ميناء بولاق على النيل، وحي الأزبكية الراقي، ويعود ذلك في جانب منه إلى وجود حامية فرنسية قوية بهما، كما أنَّ بعض الشيوخ ممن يتسمون بالواقعية أدوا دورًا في تهدئة تلك الأحياء؛ فقد حذر السيد البكري أهل الأزبكية من الثورة على الفرنسيين، وكذلك فعل الشيخ الفيومي في عابدين وقوصون. كما أن كتخدا باشا، وهو من المسئولين السابقين في عهد المماليك وقد استبقاه الفرنسيون، أمر أفراد حاشيته وجيرانه بتجنب الثورة. وقد

وجد علماء المجمع العلمي المصري ومفكروه أنفسهم محتجزين في مبنى المعهد وقد نجحوا في أن ينأوا بأنفسهم عن الأحداث. ويتذكر "فييه دي تيراج" أنَّه اختفى في خيمة تقع في جانب حديقة المعهد الخلفية وأن صرخات النساء ووعيدهن ترامت إلى أسماعه من الحي المجاور.(٣٦) وقد كان لنساء القاهرة دور في الثورة غير أنَّ عددًا محدودًا من مدوني المذكرات الفرنسيين أشار إليه، ولعل ذلك يرجع إلى ما مثله دور النساء من تحدٍ لصورتهم الذكورية. أما "فييه دي تيراج" فبوصفه مدنيًا فإنَّه لم يشعر بالتهديد نفسه. ولا يتوفر مصدر يخبرنا بما قامت به نساء المماليك قبل الثورة وبعدها ولكن من المرجح أن بعضهن كن ضالعات فيها من وراء الستار.

ونظرًا لأن بولاق التزمت الهدوء فإنَّ الحامية الفرنسية بها استطاعت أن توفر جنودًا أرسلت بهم في مهمة لقمع الثورة. ويتذكر "ديزفيرنواه" الساعة التاسعة من صباح يوم ثلاثين "فنديميير" ويقول إنَّ فرقة الخيالة كان تنعم بالهدوء في مقرها ببولاق حين تعالت أصوات وصيحات تنذر بالخطر يتخللها صرخات وحشية، ثم صكت ضجة مرعبة الأسماع. وفي عشر دقائق، حسب قول "ديزفيرنواه"، اعتلى أفراد الفرقة صهوات خيولهم وانطلقوا صوب ميدان الأزبكية يضربون الثائرين الذين يعترضون طريقهم بسيوفهم. وما إن وصلوا إلى مقر القيادة حتى تلقوا توجيهات بالانتقال إلى حي الحسين حيث ثار العامة منذ الفجر بمساندة شيوخ الأزهر وطلابه.

أقام الثائرون متاريس حجرية جاءوا ببعضها من المقاعد المصنوعة من الحجارة التي يضعها أصحاب الدكاكين أمام محالهم، فبادروا بانتزاعها واستخدامها لإعاقة تقدم الفرنسيين المهاجمين. وتجمعت حشود الناس أمام المتاريس، ووقفت

مجموعة من المغاربة من حي الفحامين لحراسة تلك المواقع المحصنة بالشوائن(*) القريبة. وحين تعرضوا لهجوم الخيالة الفرنسية أطلقوا النار دون توقف فألحقوا بهم الهزيمة وأرغموهم على الانسحاب. وضلَّت وحدة صغيرة من الفرنسيين طريقها في شبكة الحواري التي لا يعرفونها فوجدوا أنفسهم في أرضٍ تجمَّع بها الثائرون ناحية النحاسين. انقض الثائرون عليهم وعلى تاجر مسيحي سوري كان قد انضم إليهم.

ويُسجل "بونابرت" في مذكراته أنَّ أصحاب الدكاكين أغلقوا محالهم، وهَرَعَ الجنود الفرنسيون من كل ناحية يسعون للعودة إلى ثكناتهم. وأوصد "المتمردون" البوابات التى ما زالت قائمة بين الأحياء لأنَّ الفرنسيين لم يكونوا قد أزالوها بعد. وأطلقت النساء من الشرفات "صيحات مرعبة". كما وَصَفَ "بونابرت" زحف الحشود على قصر الجنرال "لوي كافاريللي"، وهو القائد "ذو الساق الخشبية" والقادم من "فالجا" **Falga** بالقرب من الحدود الإسبانية والمعروف بين المصريين بأبي خشبة، ويقول "بونابرت" إنَّه تخلى عن الحرص حين اتخذ لنفسه مسكنًا بجوار الجامع الكبير. وكان المجندون يرون في "كافاريللي" شخصًا ودودًا وقد جعلوه هدفًا لمزاحهم لأنَّه حسب قولهم ترك إحدى ساقيه في فرنسا. لم يكن "كافاريللي" بمنزله حين زحفت الحشود عليه بل كان في واقع الأمر مع القائد الأعلى. ويقر "بونابرت" بما يحمله الناس من ضغينة للضباط المهندسين فهم من يزيلون البوابات بين أحياء القاهرة، ويشرفون على التحصينات بالقلعة، وكثيرًا ما ألحقوا الدنس بالمقابر كي يستكملوا مشروعاتهم. وجدير بالذكر أنَّ الرؤية الشعبية للإسلام في القاهرة تدور حول أضرحة الأولياء وما يتصل بها من المعتقدات؛ فإذا صرح

(*) ربما جمع شونة وهي الشون أو مخازن الغلال. (المراجع)

"بونابرت" أنّ ضباطه هدموا تلك الأضرحة عفوًا في إطار جهودهم لإعادة تخطيط المدينة، فلا عجب أن يحمل القاهريون قدرًا كبيرًا من الكراهية لهم.

حاول مهندسو الجيش الفرنسي أن يصدوا جموع الناس بإطلاق النيران من نوافذ القصر الذي يمثل مقرًا لهم أيضًا. وعلى حين غرة، كما يروي "سانت هيلير"، فوجئوا بجمع كبير يهبط عليهم من سطح البيت ويحاصرهم. ويعبر "بونابرت" عن أسفه لما حل ببيت "كافاريللي" من دمار فوري، فقد نهب المهاجمون الكتب والآلات العلمية النادرة، وقتلوا ستة أو سبعة أشخاص. ولعل الحشد نهب أيضًا أسلحة وذخيرة في غارتهم تلك. أما عالم الجيولوجيا "تيت فيود" **Tête Vuide** وهو رجل تقدمت به السنون، فقد حاول الهرب فغادر المنزل ليرديه حجرٌ ألقي به من السطح فما لبث الجمع أن أحاط به ودهسوه حتى الموت. استعرض المهاجمون رءوس المهندسين العسكريين في الطرقات ثم رفعوها على أبواب مسجد الحسين. يقول "بونابرت" إنّ مرأى الدم جمّع "المتعصبين" في حين احتمى أعيان المصريين، وقد تمكن منهم الرعب، ببيوتهم فلم يبرحوها. لكن الناس حسب رواية "بونابرت" اندفعوا إلى بيوت هؤلاء الأعيان وأجبروهم على الخروج في موكب نصر إلى الجامع الأزهر. غير أن بعضهم عوامل باحتقار لتعاونهم مع الفرنسيين. ويروي أحد الضباط الفرنسيين أنّ الشيخ السراج أُجبر على ارتداء زي أحد الجنود الفرنسيين من القتلى فقد كان على ما يبدو يتمتع بحماية الفرنسيين، ثم قام الناس بحلق ذقن الشيخ ثم باعوه في قلب السوق بثلاثة عشر قرشًا. وجدير بالذكر أنّ المصريين ينظرون إلى حليقي الذقن نظرتهم إلى العبيد، ولذلك السبب كانوا يكنون الاحتقار للجنود الفرنسيين. بعد ذلك شكّل "المتمردون" لجنة أو ديوانًا للدفاع، ونظّموا ميليشيات شعبية واستخرجوا أسلحة كانوا قد دفنوها واتخذوا من الإجراءات ما يضمن نجاح ثورتهم. ويذكر الجبرتي أنها ما خبأوه سابقًا من عصي

غليظة ومساوق ونبابيت، ومن لم يتوفر لهم مثل تلك الأسلحة استخدموا مصاريع الأبواب والبلط والفنوس.

راح ضيحة التمرد التجار الفرنسيون الذين استقر بهم المقام في القاهرة وتزوجوا من نساء أرمينيات فقد كانوا ضمن القتلى في بداية الثورة. صب الناس جام غضبهم على كل ما لوّثته رموزٌ أوروبية أو مسيحية؛ إذ اقتحم الغوغاء حي الچوانية حيث يقطن عددٌ كبيرٌ من السوريين والمسيحيين والأرثوذكس الشرقيين، فنهبوا بيوتهم واغتصبوا نساءهم وبناتهم بل هاجموا بعض بيوت المسلمين، ثم تحولوا إلى السوق المعروفة بخان الملايات حيث تُباع ملابس السيدات ونهبوا ما بها من بضائع. وهكذا اضطرت بعض السيدات ممن ينتمين للطبقات الدنيا بالقاهرة لتحمل المضايقات الناتجة عن ارتدائهن أفضل الأزياء طوال الفترة المتبقية من الاحتلال الفرنسي، كما حدث أن هاجم الغوغاء مستشفي إبراهيم بك كي ينهبوها على ما يبدو، وحين تصدى لهم طبيبان ومهندسان فرنسيون قتلوهم كلهم. ويروي "سانت هيلير" آسفًا خبر مقتل المواطن روسل **Roussel** ابن كبير أطباء "طولون" وضابط آخر من الطراز الأول بعد تعرضهما لضربات قاتلة من بلطة، ويقول الجبرتي إنّ العامة "أكثروا من المعايب ولم يفكروا في العواقب"، واستمرت أعمال السلب والنهب طوال الليل.(٣٩)

الفصل الحادي عشر

الثورة المصرية

اختلفت الروايات حول مكان وجود "بونابرت" يوم التمرد، فإنه، حسب روايته، لم يكن بالقاهرة في ذلك اليوم؛ فقد عَبَرَ النيل إلى الجيزة ليتفقد دار صناعة السفن الفرنسية. وربما اتجهت نيَّة "بونابرت" إلى الذهاب إلى الجيزة، ولكن شهود عيان شهدوا أنَّه لم يبرحِ جزيرة الروضة في صباح ذلك اليوم، وأنَّ الأحداث استدعته لمقر القيادة العامة بالأزبكية. ويزعم "ديتروي" أنَّ صباح ذلك اليوم شهد بعض مظاهر الاضطراب، ولكن "بونابرت" اكتفى بأن طلب إلى جنوده بأن يتسلحوا؛ ولما لم تساوره شكوك في وقوع أية أحداث خطيرة، ذهب لتفقد أعمال المهندسين الفرنسيين في مصر القديمة وجزيرة الروضة.(١)

غير أنَّ رواية "ديتروي" لا تتفق والرواية التي أوردها "بونابرت" في مذكراته، مما يثير الشكوك حول السبب في اختلاف الروايتين، فهل كان "بونابرت" يُعاني من نوبة اكتئاب وعدم قدرة على الفعل في أول أيام الثورة التي تنذر بمذبحة للجيش الفرنسي إن شارك فيها أهل المدينة جميعهم. ويزول الاختلاف بين الروايتين إن افترضنا أنَّ "بونابرت" أراد أن يتستر على امتناعه عن الفعل، فاختلق رواية تفيد وجوده بعيدًا في الجيزة طوال اليوم. إنَّ وجوده في الروضة في صباح ذلك اليوم موثَّق بشهادة الشهود، كما أنَّ عودته إلى مقر القيادة العام يسبق كثيرًا الوقت الذي أقر فيه بعودته هناك.

ويذكر الملازم أول "جان – بيير دوجوروه" ذلك الصباح في مذكراته فيقول "خرجتُ على ظهر جوادي في صحبة الجنرال دومارتان نقصد الجيزة، ولم نلقِ بالاً للشائعات التي تتحدث عن وقوع تمرد فقد بدت لنا مفتقرة إلى الوضوح. وعند

مصر القديمة، التقينا بالجنرال "بونابرت" الذي كان في طريقه إلى جزيرة الروضة فاصطحبنا معه. وبينما نحن في حضرة الجنرال "لان" **Lannes**، إذ إنَّ مقر القيادة العام يقع في تلك الجزيرة، جاءنا مَنْ يحمل تقارير عن وقوع جرحى من الضباط في شوارع القاهرة؛ وحينذاك وصل رسولٌ من مقر القيادة بالأزبكية يُعلن اغتيال الجنرال "ديبوي" أثناء محاولته فض حشد من الناس بالقرب من الجامع الكبير، على الرغم من أنَّ فرقة خيالة كانت تصحبه. ويُعلن كذلك إطلاق المدفعية على سبيل الإنذار في أنحاء القاهرة". ويذكر "ديترووي" أنَّ تلك الأنباء جاءته في العاشرة صباحًا.

ويسجل "دوجوروه" أنَّ بعض المرشدين من الخيالة سعوا لتحديد مكان "بونابرت"، وقد قصدوا إلى اصطحابه معهم إلى مقر قيادته بالأزبكية. عزم الملازم أول على الذهاب معهم لكنه يمضي قائلا، في مذكراته، إنه تعرض لحادثة مؤسفة في هذه الظروف العصيبة لم تسمح له أن يصحبهم. فقد جَفَلَ جواده وقاوم إنزاله إلى القارب. وبعد محاولات لا طائل من ورائها، تركه وراءه، واستعار جوادًا آخر، وتبع الجنرال "جان لان" **Jean Lannes** (وهو محارب مخضرم خاض حملتي إسبانيا وإيطاليا) الذي اتخذ طريقه على رأس جنوده إلى ضيعة إبراهيم بك. يقول "دوجوروه": "إنَّ الركب تعرض للقذف بالحجارة أثناء مرورهم بحي باب اللوق، غير أنه تصادف لحسن حظهم أن التقوا بمجموعة من المرشدين على ظهور الخيل كانوا قد تعرضوا للاعتداء عليهم. وقد عرفنا لدى وصولنا أنَّ عددًا كبيرًا من الفرنسيين ذبحوا في الشوارع وأنَّ التمرد امتد ليشمل أرجاء العاصمة". وصل "بونابرت" إلى قصره بحي الأزبكية بصعوبة، ونشر قطع المدفعية في مواقع حول الميدان، وعيَّن الجنرال لوي – أندريه بون (وهو ابن لأحد التجار، وقد حارب في "طولون" ثم في جبال البرانس ضد إسبانيا وفي إيطاليا) ليحل محل

"ديبوي" الصريع. حاول "بون" أن يستخدم نيران المدفعية في الطرقات الرئيسية كي يحصر المتمردين في القاهرة وضواحيها.(٢)

حان الوقت الذي أصبحت الجالية اليونانية في مصر فيه حليفا فاعلاً، وقد التزم أفراد الجالية الحياد أول الأمر، ولكنهم انحازوا إلى صف الفرنسيين حين تعرضوا لاعتداءات الدهماء الذين اتهموهم بالتواطؤ. عبر "شارل نوري" عن سعادته إذ سجل في مذكراته ما يلي: "حتى اللحظة لم يشارك اليونانيون في دعم قضيتنا، ولكنهم وقفوا إلى جانبنا في يوم التمرد، وتخلصوا من نير العبودية الذي عانوا منه طويلا تحت الحكم التركي. قام بارتلمي الرومي، الذي عينه "بونابرت" من قبل رئيسًا للشرطة، لأداء واجبه في محاربة المتمردين". ويقول "برنوييه" إنَّ من رأوه يحارب تناقلوا أعماله الجليلة، وشبهوه بالآلهة التي يرد ذكرها في إلياذة هوميروس.(٣)

ويذكر "جان – جابرييل دي نييللو سارجي" أنَّ "بونابرت" أبدى غضبًا شديدًا إزاء التحدي الذي واجهه أهل القاهرة به. وقد سمعه يقول: "هل نقبل أن تتلاعب بنا جماعات من الأوغاد، ومن العرب الذين لا يدخلون في عداد الشعوب المتحضرة، ومن أهل القاهرة وهم أكثر الأقوام وحشية في العالم كله".(٤)

انقسم علماء الدين الذين عيَّنهم "بونابرت" لقيادة جمهورية مصر الفرنسية إلى ثلاث فرق: الفرقة الأولى لاذت بالفرار واختفت عن الأنظار. ويقول الجبرتي في معرض حديثه عن علماء السنة أنَّ منهم من هربوا من بيوتهم وقبعوا مختفين في بيوت جيرانهم، ومنهم من خشوا العدو فأغلقوا بوابات البيوت واستقر بهم المقام مع نسائهم، ومنهم من هجروا بيوتهم وسعوا إلى بناية قايتباي في الصحراء واستقر بهم المقام هناك.(٥)

أما الفرقة الثانية من العلماء، وهم من يسكنون حي الحسين والأحياء المجاورة له، فإنهم إما انخرطوا في التمرد وقد شاع بينهم البشر والفرح، ومن بين هؤلاء نذكر الشيخ سيد المقدسي، وإما وجدوا أنفسهم منساقين إلى وسط المعمعمة. ويقول "بونابرت" إنّ المتمردين وقع اختيارهم على الشيخ شمس الدين السادات زعيمًا لديوان الثورة الذي تألف من مائة شيخ وداعية ومؤذن، وبعض أعيان المغاربة، وبعض من ينتمون إلى الطبقات الدنيا (ربما من أرباب الطوائف والحرف). وهكذا أصبح المصريون حتى حين تمردوا يحكمون أنفسهم بأنفسهم من خلال مجلس نيابي شعبي على الطريقة الفرنسية!

اختار المتمردون الشيخ السادات زعيمًا لهم لكنه على الأرجح لم يتحمس لحركة التمرد، فهو يدرك ما للفرنسيين من قوة عسكرية كاسحة. كان السادات أغنى شيوخ السنة وأقواهم في مصر في ذلك العهد، وهو ينتسب إلى عائلة من أبرز عائلات العلماء تمتد أصولها إلى النبي محمد. قدَّمَتْ تلك العائلة علماء كثيرين للجامع الأزهر، وتزعم أكبرهم سنا الطريقة الوفائية الصوفية، وهي جماعة من الصوفيين الذين يتسمون بالتعقل، مما أضاف إلى شرف محتدهم وعلو شأنهم بين العامة. تولى الشيخ السادات الإشراف على الأضرحة الأربعة الرئيسية ومنها ضريح الحسين، وآل إليه جانبٌ من أموال النذور التي يقدمها زوار الضريح.

وقد رعاه الفرنسيون ولم يمسوا ثروته، فقد رأوا فيه واحدًا من الأعيان المحليين الذين ينتمون إلى طبقة وسطى: فهو لا يدخل في عداد الأرستقراطية العثمانية ولا يُعد فلاحًا، ولذلك فإنه قد يصلح سندًا لجمهورية مصر الفرنسية. من ناحية أخرى رأى المتمردون فيه زعيمًا مسلمًا يدعمهم دون أدنى شك في جهادهم ضد الفرنسيين الكفار. وفي تلك الليلة لم يستطع الشيخ سيد خليل البكري، الذي كان في صحبة "بونابرت" في الأزبكية، الاتصال بزملائه في الأحياء الأخرى. ومع

ذلك، فمن الممكن أن يكون الشيخ السادات قد استطاع أن يُبلغ "بونابرت" بأنه يحاول أن يجد وسيلة لتهدئة التمرد. وقد أصدر المتمردون إعلانًا قالوا فيه إنّ الباب العالي (الحكومة العثمانية) قد أعلنت الحرب على فرنسا، وأنّ الجزار باشا وَصَلَ على رأس جيشه إلى بلبيس، وأنّ الفرنسيين يميلون للنجاة بأنفسهم ولكنهم أزالوا البوابات الداخلية بالمدينة كي ينهبوها قبل رحيلهم.(٦)

أما الفرقة الثالثة من العلماء فيتزعمها سيد البكري، وقد انحازت إلى الفرنسيين وعارضت التمرد؛ ومما دعم موقفها أنّ الثورة لم تنتشر في الأحياء التي يقطنونها بالمدينة. وبصفة عامة، فإنّ رجال تلك الفرقة كانوا أكثر ثراء وأعلى شأنا من الشيوخ الذين انضموا إلى الثورة. ويُعد الجبرتي واحدًا منهم؛ ويبدو تعاطفه مع تلك النخبة السياسية المهادنة **quietist** واضحًا في مؤلفه. اصطحب البكري شيخين زميلين له، هما الشيخ السرسي والشيخ المهدي، وذهبا للقاء "بونابرت". طلب القائد الأعلى منهم توضيحًا لما حدث فأكدوا له أنّ تلك أفعال الجُهَّال ومن لا يدركون عواقب الأفعال.

أراد "بونابرت" أن يفسر الشيخ البكري، حين زاره مع بعض الشيوخ، السبب وراء غياب بقية شيوخ الديوان الذين رفع الفرنسيون من شأنهم واصطفوهم على غيرهم حسب قول "بونابرت".

راوغ الشيخ البكري ومن معه في إجابة "بونابرت" عن سؤاله فالتمسوا العذر للغائبين بقطع الطرق وإغلاقها في وجوههم.

واصل "بونابرت" ما أبداه من إصرار فشدد على ضرورة وجودهم مع مشرق الشمس، وأعلن أنّ غيابهم بحلول الصباح، ومقاومتهم العنيدة للفرنسيين،

ستجر عليهم وابلاً من قذائف المدافع، ولن ينفعهم حينئذ عذر. ثم أصدر أوامره بأن يركب العلماء إليهم ويعدوهم بالأمان أثناء مرورهم بالشوارع والميادين.

غادر الوفد المشكل من ثلاثة من الشيوخ مقر القائد الأعلى بعد غروب الشمس، وحرروا خطابًا موجهًا إلى علماء الدين في الأحياء المتمردة؛ غير أنه حال دون وصول تلك الرسالة إليهم التحصينات والمتاريس على طرقات المدينة.

ووصف "بونابرت" لتلك الأحداث يُسلطُ الضوء على الشيوخ في حي الحسين، ويتفق مع ما سجله الجبرتي اتفاقا كبيرًا. يقول "بونابرت" إنه استدعى كبار العلماء، غير أنَّ هؤلاء الذين تولوا مهمة الحراسة من المتمردين وقفوا عند التقاء الطرق ليقطعوا سبيل المارة. كما شرع المتمردون في إقامة المتاريس وعجت المدينة بالرجال المسلحين. رأى "بونابرت" أنَّ شيوخ المسلمين الأجلاء حاولوا تحذير العامة مما تجرُه أفعالهم عليهم من نتائج حتمية، ولكن مسعاهم فشل فشلا ذريعًا، فاضطروا اضطرارًا إلى الصمت والسير في طريق التمرد الذي بات يصعُبُ مقاومته. أما "نيبللو سارجي" فقد كان له رأي مختلف، فهو يقول إنَّ "بونابرت" أمر أعيان المدينة وقادتها أن يحضروا إليه على الفور، غير أنهم قالوا إنهم يسعون إلى إيجاد وسيلة تضمن خضوع المتمردين، وأنَّ وجودهم بالديوان ضروري. ويضيف "سارجي" أنَّ "بونابرت" قابل هذا الرفض لطلبه بتوزيع السلاح على الجنود الذين حشدهم وأمرهم بحصار حي الأزهر، وإعداد المدافع أثناء الليل.(٧)

ويسجل "بونابرت" شعوره بالقلق، فالأمور بدت بالنسبة له خطيرة، وإعادة غزو القاهرة أصبح من الصعوبة بمكان. ترامى إلى سمعه ما وصفه بأصوات المؤذنين التي تقطر مرارة من أربعمائة مئذنة، تصب اللعنات على أعداء الله من

الكفار وعبدة الأوثان. ولكنه قال إنه يحاول أن يجد أساليب يخضع بها المدينة لسلطته دون أن يثير عداء سكانها، وهو قول لا يُستبعد أن يصدر عنه. أصدر القائد الأعلى أوامره إلى "دومارتان" بالسير في منتصف الليل يوم الأحد، على رأس الجنود وقوة المدفعية للهجوم على البوابة المجاورة للجامع الأزهر. أنفق "دوجوره" وزملاؤه الليل كله في سحب المدافع عبر شوارع لا يألفونها، فوصلوا إلى مقصدهم في مطلع الفجر. ويقول "مالوس" إنَّ تلك المحاولة لنشر المدفعية داخل المدينة قد باءت بالفشل، إذ إنَّ المتاريس التي أقيمت حول حي الأزهر كانت كفيلة بإحباط تلك المحاولة تمامًا.(٨) ونتيجة لذلك، فإنَّ موقف الفرنسيين ظل محفوفًا بالمخاطر.

وفي فجر يوم الاثنين، الثاني والعشرين من أكتوبر، أضحى الفرنسيون قادرين على نشر مدافعهم على نحو أكثر تأثيرًا في القلعة والمقطم في مواقع تعلو العاصمة. وكان "بونابرت" ما زال يسعى لإجبار السيد البكري على الاتصال بزملائه في حي الحسين آملاً أن يقنعهم بإخماد التمرد بأنفسهم. أجل "بونابرت" إطلاق النيران على القاهرة في حين استمر البكري في جهوده في التفاوض مع الشيوخ، كما أصدر إعلانا بالعربية والتركية قال فيه إنَّ الجزار باشا لم يقطع الصحراء قاصدًا القاهرة، وأنَّ نزع البوابات بين الأحياء يتسق ومبادئ الأمن السليمة، وأنَّ المدافع التي أقيمت في القلعة مجرد إجراء عسكري عادي. غير أنَّ سكان القاهرة تذكروا معركة الأهرامات وما فعله بهم السلطان الكبير. وأنهى البكري إعلانه بدعوة القاهريين أن يخضعوا لما يراه الديوان من رأي.

وقد أقرَّ "بونابرت" فيما بعد بأنَّ ذلك الإعلان أدى إلى تدهور الأوضاع، إذ إنه أسهم في إقناع القاهريين بأنَّ الفرنسيين خائفون مما جعلهم أكثر "وقاحة". وقد حثَّ العلماء، ومن بينهم السيد البكري غالبًا، "بونابرت" على حسم الأمر، لأن

البدو، حسب قولهم، تدفقوا على المدينة في ذلك اليوم، وقد وصلت القبائل القريبة من القاهرة إلى بواباتها وهم يعدون بالآلاف. يقول "بيلبور" **Pelleport** في مذكراته إنّ جحافل البدو الذين دعاهم زعماء التمرد اقتربوا من المدينة وقطعوا كل اتصال بينها وبين ما يقع وراء أسوارها. كما يسجل "برنوييه" في مذكراته أنه في صباح اليوم التالي قام المتمردون، الذين يحتلون قلب المدينة، بتسهيل دخول المتمردين من الأحياء المجاورة. تجمعت أكبر قوة للمتمردين في منطقة المقابر المتاخمة للحدود الشرقية للمدينة، وهي شبكة من الأضرحة والمقابر دُفِنَ سلاطين المماليك، في العصر الوسيط، في بعضها. وتعززت تلك القوة بوصول الرعاة والفلاحين من القرى التي تحيط بالعاصمة. كتب القائد الأعلى يقول إنه علِمَ بارتكاب سبعمائة أو ثمنمائة من قبيلتي البيلي والترابين لأعمال عدائية وكذلك بإقدامهم على قطع الاتصالات مع بولاق.(٩) اشتعلت إذن شعبة بدوية من ثورة المدينة، وانتشرت داخل أسوار القاهرة وخارجها، بل إنّ التمرد انتشر سريعًا في الدلتا، فلم تعد الثورة قاصرة على القاهرة.

ويسجل بورييه في مذكراته ما يلي:

> **لم يكد "بونابرت" يعود إلى مقره (الساعة الثامنة صباحًا)، حتى أُخطر أثناء تناوله طعام الإفطار أن بعض البدو قدموا على ظهور الخيل، وقد عزموا على دخول القاهرة. كان "بونابرت" حينئذ في صحبة مستشاريه، فأصدر أمره إلى "سولكويسكي" Sulkowski بأن يركب إلى باب النصر حيث يكمن الخطر الأكبر ويصطحب معه خمسة عشر كشافا. غير أنّ زميله "كروازيه" Croisier أشار إلى أنّ "سولكويسكي" ما زال يتعافى من جروح عديدة أصيب بها في الصالحية،**

وعرض على القائد الأعلى أن يحل محله. كان ما قاله "كروازيه" معقولا فاقتنع "بونابرت" بسهولة، غير أنّ "سولكويسكي" كان قد غادر بالفعل.(١٠)

شاهد "دوجوروه" من موقعه فوق تلال المقطم ما جرى من أحداث فسجل ما يلي في مذكراته: "وبعد هنيهة، رأينا على البعد رجالا كثيرين على ظهور الخيل، وفي لمح البصر تعرضنا لهجمة من جحافل البدو والفلاحين الذين اندفعوا راكبين تجاهنا". حاول الفرنسيون أن يدفعوا بالخيالة ضد البدو المهاجمين، ولكنهم اضطروا إلى التراجع إذ وجدوا أن أعداد المهاجمين لا قبل لهم بها، ثم لجأوا إلى إطلاق مدافعهم غير أنّ البدو تحصنوا من قذائفها. عاد "دوجوره" إلى موقعه أعلى المقطم فشاهد "سولكويسكي" وكشافته الراكبين يهجمون على رجال الصحراء. وحين رأى البدو عددا قليلا من الفرنسيين، اندفعوا نحوهم مهاجمين. آثر رجال الكشافة الفرنسية الانسحاب خشية أن يحاصرهم أعداؤهم، غير أنّهم لقوا في طريقهم مجموعة أخرى من المتمردين، فهلك معظمهم، في حين جاء المتمردون بـ"بسولكويسكي" ومزقوه إربا أمام أحد المساجد. وجدير بالذكر أنّ "بونابرت" أقدم على اختلاق رواية أسطورية حول مقتل "سولكويسكي" بشكل مبالغ فيه كما اعتاد، فيقول إنّ "سولكويسكي" انطلق على رأس قوة من مائتي جندي في إثر البدو، فطاردهم لعدة فراسخ مطهرًا تخوم المدينة منهم إلى أن أصيب جواده بطلقة فسقط عنه، فصار هدفا للرماح التي اخترقت جسده عشرة منها. وقد قدّم "بوريين" رؤية متوازنة لتلك الأحداث فقال إنّ بعد ساعة من خروج "سولكويسكي" ورجال الكشافة، لم يعد سوى رجل واحد تلطخت ملابسه بالدماء ليعلن لهم أنّ البدو مزقوا أفراد المجموعة جميعًا شر ممزق. ويعلق "بوريين" على السرعة التي جرت بها الأحداث فيقول إنه وزملاؤه لم يكونوا قد انتهوا من إفطارهم بعد حين بلغتهم الأنباء

السيئة.(١١) أما "ديزفرنواه" فقد أشار في مذكراته إلى التمثيل بجثامين قتلى الفرنسيين؛ فقد ألقيت أشلاء "بول سولكويسكي"، مساعد القائد الأعلى الشجاع على حد قوله، إلى الكلاب.

شاهدتْ حشودُ القاهريين، صباح الاثنين، استعدادات الفرنسيين لاستخدام المدافع ضدهم، فقرروا ألا يقبعوا في انتظار الهجمة الفرنسية. لجأ سكان حي العطوف من المتمردين إلى إعداد ثلاثة مدافع، وجدوها مهملة في منزل قائد أغا، وهو أحد الأعيان الأتراك المتمصرين، وإقامتها في حيِّهم على أسوار المدينة في مواجهة الفرنسيين، ثم ما لبثوا أن أطلقوا قذائفها. قابل الفرنسيون تلك القذائف بوابل من النيران من بنادقهم وغداراتهم ومدافعهم. ولا شك أنّ ما أظهره أهل القاهرة من استخدام فاق مهارة الأمراء في التعامل مع المدفعية يشهد بقوة شكيمتهم وبراعتهم، ولا بد أنه بعث في نفوسهم الفخر لما أبدوه من مقاومة الأوروبيين بأسلحة حديثة وليس بالعصي. اشتد القتال بين الطرفين مع تقدم ساعات النهار. ويتذكر "دوجوروه" النيران التي صبها السكان من وراء الجدر على الفرنسيين. كما يتذكر أنه لم يمر وقتٌ طويل حتى أطلقت القذائف عليهم من مدفع أقيم إلى يمينهم بمسافة قريبة. جاء الرد الفرنسي بالمدفعية الثقيلة التي أقاموها على التلال التي شغلوها. وأتيح لـ"برنوييه"، مسئول الأزياء وعاشق "روسو"، أن يرى جانبا من الهجوم الوحشي فيرصد في مذكراته كيف تحولت كل الشوارع إلى مسرح لمذابح دامية.(١٢)

شقّ الشيخ البكري وزميلان له، يصحبهم جنديان فرنسيان، طريقهم في صباح يوم الاثنين، إلى باب زويلة في محاولة أخرى للاتصال بشيوخ حي الحسين. غير أنهم لقوا حشدًا من الناس وقد استقبلوهم بغضب شديد ومنعوهم من الدخول. اضطر الشيخ البكري ومن معه إلى الانسحاب مسرعين، فقصدوا جامع

إسكندر القريب، وبعثوا برسالة إلى الشيوخ الموجودين داخل الأراضي التي يسيطر عليها المسلمون. في نهاية المطاف، ركب الشيخ الشرقاوي بصحبة مجموعة من الشيوخ للقاء الشيخ البكري ومن معه، وحاولوا إزاحة المتاريس التي سدت الطريق أمامهم إلى خارج أسوار المدينة، ولكن مجموعة من المتمردين المسلحين في حي الخراطين أطلقت عليهم النيران ودفعتهم إلى العودة. أعاد الشرقاوي وصحبه المحاولة قاصدين المنطقة التي يسيطر عليها الفرنسيون من أجل إقامة الحوار بين الطرفين، غير أنهم كانوا يلقون من يقطع عليهم الطريق في كل شارع.(١٣)

ويقول "برنوييه"، مصمم الأزياء الشكاء، إنه تقلد سيفا وتسلح بغدراة رغم أنه ليس جنديا، وصعد لينضم إلى فرقة خيالة. مَرَّ "برنوييه" في طرق مهجورة تمامًا حتى وصل إلى بركة الفيل حيث وجد جماعة كبيرة من الناس مشتبكة في قتال مع الفرقة الخفيفة الثانية والعشرين. جاءت التعزيزات الفرنسية بمدفعين صوَّبا قذائفهما تجاه المصريين. وما إن سقطت القذائف الأولى حتى سرى التردد بين الجمع، وحين سقط الضحايا بين رفاقهم مع القذائف التالية انفض الجمع وقد استولى الرعب على نفوسهم، فتدافعوا في الحارات الضيقة التي لا تسعهم فسقط كثيرون منهم تحت الأقدام. ويقول "برنوييه" إنَّ مذبحة مروِّعة قد وقعت وخلا الميدان تمامًا من البشر. ويروي "برنوييه" حكاية يقول إنها أكدت له استعداد المسلم للمقاومة حتى الموت على نحو يفوق غيره من البشر. فقد حدث أن تأخر أحدهم عن الجمع وصار وحده، فرآه "برنوييه" يحاول الهرب وأطلق عليه النار؛ سقط الهارب غير أنه ما لبث أن قام وألقى بنفسه في بركة الفيل وسبح إلى الضفة المقابلة. وما إن وصل وخرج إلى البر أصيب بطلقة نارية فسقط في الماء. ظل الهارب يسبح، وبرز في ناحية أخرى وما إن خرج من المياه حتى عاجله جندي فرنسي بضربة من سيفه، فابتلعه الماء واختفى. ظن "برنوييه" أنه قتِل ولكنه ظهر

مرة أخرى! أطلق الفرنسيون عليه وابلاً من الطلقات، غير أنه زحف خارجًا من الماء بشجاعة وجلس معتدلا. وعلى الرغم من إصاباته فقد ظل حيًا لخمس عشرة دقيقة تالية.[١٤]

نفذت الكتيبة الأولى من الفرقة الثامنة عشرة هجمتها وغيرت مسار مئات المتمردين الذين تجمعوا في المقابر وأقاموا اتصالات قوية مع البدو.[١٥] ومع تقدم الفرنسيين الذي لا راد له في صباح يوم الاثنين، وهو التقدم الذي بات مُيسرًا بفضل استخدام المدفعية ضد حشود الناس، لم يعد للمتمردين مكانٌ يسيطرون عليه سوى حي الحسين حول الجامع الأزهر، فقد كانت مداخل ذلك الموقع المنيع كلها تحت حراسة مشددة ووراء متاريس حصينة، مما يكلف الفرنسيين خسائر فادحة بين صفوفهم في حالة الهجوم المباشر بفرق المشاة. وبالفعل خاب مسعى الفرنسيين في هجماتهم الأولى. ويسجل "بيليبور" في مذكراته أنَّ جنود المشاة المسلحين بالقنابل اليدوية، تحت إمرة الكابتن بارت، ساروا مصطحبين مدفعا إلى أكثر أحياء القاهرة ازدحامًا، لكن ضيق الشوارع أجبرهم على التراجع. وحين رأت الحشود تراجعهم أقدموا على مهاجمتهم. يقول "بيليبور" إنَّ الجنود الفرنسيين ثبتوا في مواقعهم ولم يداخلهم الخوف فقتلوا كثيرين وعادوا إلى مقرهم.[١٦]

أصدر "بونابرت" أوامره لصفوف المشاة المسلحين بالقنابل اليدوية بحصار حي الأزهر، وضمان ألا يفلت أحدٌ من المتمردين. وزاد موقف الفرنسيين سوءًا أنَّ تدفق البدو والفلاحين على المدينة، ومساندتهم التمرد بات يُنذر باتساع مداه باطراد. ويقول "فيجو روسيون" في مذكراته إنَّ "بونابرت" أمر في الثانية بعد الظهر بإطلاق نيران المدفعية من القلعة على حي الأزهر.[١٧]

انطلقت المدافع من تلال المقطم، فانهالت القنابل المتفجرة على المساكن وأشعلت النار في كثير منها. يقول "برنوييه" في واحد من خطاباته إلى الوطن إنَّ القذف أحدث دمارًا واسعا وكاد أن يهدم الجامع الأزهر؛ حينئذ اضطر الأتراك إلى استعطاف "بونابرت" واللجوء إلى كرمه خشية أن يدفنوا تحت المباني المتساقطة.(١٨) وينقل "برنوييه" رد "بونابرت" الذي ذكرهم بأنهم هم الذين رفضوا كرمه من قبل، وقال لهم إنَّ ساعة الانتقام قد حانت، فهم قد خطوا الخطوة الأولى، وهو عازم على إنهاء ما بدأوه. يئس القوم من عفو "بونابرت" فحملوا السلاح لكن جنود المشاة قتلوهم دون رحمة بطعنات من الأسلحة المثبتة ببنادقهم. ويضيف "برنوييه" ما شاهده من تقدم الزعماء الكبار بخشوع، وقد تخلوا عن سلاحهم، نحو جنود المشاة، واسترحموهم مؤكدين رسالتهم بما أتوا من حركات وما صدر عنهم من صيحات، حينذاك أمر "بونابرت" جنوده بوقف القتال وأصدر عفوًا (مؤقتًا) عمَّن رجوه الرحمة.

وينقل "ديزفيرنواه"، أحد ضباط الخيالة الذي استُدعي من فرقته ببلبيس، إنه حين شارف على حدود العاصمة، ارتعد لمرأى تلك المدينة البائسة التي سقط كثير من بيوتها نهبًا للنيران التي التهمتها. ويضيف "ديزفيرنواه" أنَّ قمع التمرد بلغ حدودًا مروعة، فقد قتل الفرنسيون ثلاثة آلاف متمرد ولم يفقدوا سوى ما يزيد قليلا على مائة رجل. ولكن "جرانجان" التاجر قدَّر خسارة الفرنسيين في الأرواح بثمانمائة رجل. أما "ديتروي" فيقدر أن من سقط من الفرنسيين مائتي وخمسين قتيلاً، منهم ضابط برتبة جنرال، وضابط آخر يرأس لواءً، وبعض الجنود وعدد من المهندسين والأطباء. غير أنَّ "بونابرت" أعلن سقوط واحد وعشرين جنديًا فرنسيا لأغراض تتصل بالدعاية، وهو عدد قليل لا يكاد يُصدق. ويرى "جرانجان" أنَّ ثورة المصريين كانت كفيلة بإنهاء المشروع الفرنسي في مصر، لولا أنها

افتقرت إلى قيادة أفضل، وسلاح أمضى في أيدي المصريين. ويضيف أنَّ معظم المصريين تسلحوا بالعصي الخشبية الصلدة، التي كانت أسلحة مؤثرة بما فيه الكفاية، ولكن فعاليتها محدودة بمدى قريب. أما البنادق فكانت رديئة. وفي نهاية الأمر، لم يتمكن المصريون من تجاوز التفوق الذي أضفته المدفعية على الجيش الفرنسي. ويسجل عالم الحيوان "سانت هيلير"، بنبرة تسودها المباهاة، مدى القمع الذي يمكن للحكومة الفرنسية أن تنزله بالمتمردين، وذلك في رسالة بعث بها إلى أرض الوطن: "في الثلاثين من شهر فنديميير، اندلع تمردٌ، ودام حتى مساء الأمس. إنَّ هؤلاء المصريين البائسين لم يدركوا أن الفرنسيين هم أساتذة العالم في قمع التمرد على أساس منهجي، ولكنهم تعلموا الدرس وكلفهم تعلمه غاليًا".(١٩) أما "ديزفرنواه" فقد اقتنع، بعد أن رأى عاقبة الأمور، أنَّ الفزع الشديد قد ضرب روح المصريين، مما عاد بالفائدة على الفرنسيين الذين أنزلوا بهم هذا العقاب، فقد بات المصريون يعتقدون أنَّ الجيش الفرنسي يتمتع بحماية إلهية وأنَّ مقاومة جنوده لن تُجدي. ولعل اقتناعه بذلك أدخل الطمأنينة في نفسه.

***

أنزل "بونابرت" عقابا رادعا بالمتمردين، إذ بلغت خسارة القاهريين في الأرواح، فيما بعد الأحداث، ما يقرب من خسارتهم أثناء فترة التمرد نفسها. ويقول اللوتاننت لافال إنَّ زعماء التمرد، الذين زُجَّ بهم في السجون، أعدموا رميًا بالرصاص مع كثير من السجناء الذين ألقى الفرنسيون القبض عليهم أثناء خروجهم من المسجد؛ ويضيف "لافال" أنَّ معظمهم من لصوص البدو.(٢٠) وبطبيعة الحال لم يكن معظمهم من البدو، ولو أنَّ بعضهم ربما انضم إلى الحشد الذي حاول أن يصمد في اللحظات الأخيرة أمام مسجد الحسين. ويؤكد تجمع البدو والفلاحين من المدن والقرى حول القاهرة أنَّ التمرد لم يقتصر على التجار ورجال النقابات الذين

احتجوا على فرض ضرائب جديدة، بل إنه اتسم ببعد محلي اجتذب إليه مختلف الطبقات الاجتماعية. وجديرٌ بالذكر أنَّ كثيرين ممن ينتمون إلى الطبقات الشعبية في القاهرة، ومن تجمعهم نقابات الحرف والصنائع، وكذلك رجال الطرق الصوفية وحدوا الصفوف، وأعلنوا رفضهم لشرعية الحكم الفرنسي. ويذكر "برنوييه" أنَّ الفرنسيين ألقوا القبض على أعداد كبيرة من الناس في تلك الليلة، وتحفظوا على قرابة ألفين من المتمردين الناشطين.

وفي صباح يوم الثالث والعشرين من أكتوبر، حرَّر "بونابرت" خطابًا ناريًا ودمويًا قصيرًا إلى الجنرال "برتييه" قال فيه: "أيها المواطن الجنرال، أرجو أن تصدر الأمر إلى قائد الميدان بقطع رءوس المسجونين، الذين ألقي القبض عليهم وفي أيديهم سلاح، كلهم. وكذلك بنقل أجسادهم، مقطوعة الرءوس، ليلا إلى ضفة النيل بين بولاق ومصر القديمة، فيُلقى بها في النهر".(٢١) ويسجل "ديترويي" في مذكراته، في تاريخ الثالث من بروميير (الرابع والعشرين من أكتوبر)، أنَّ الجنود الفرنسيين شرعوا في إعدام بعض المتمردين في القلعة سرًا بطعنات الأسلحة المثبتة بالبنادق.(٢٢) ويدل وصف عملية الإعدام، على هذا النحو، أنَّ الجنود الفرنسيين ارتكبوا جرائم إبادة جماعية، فلم يقتصر دورهم على تنفيذ الأحكام فقط.

أما مصمم الأزياء العسكرية "برنوييه"، الذي لم يكن قريبًا من ذلك المشهد بوصفه مدنيًا، فإنَّ الشائعات المروعة ترامت إلى سمعه، ونجده يحاول أن يُلقي بالمسئولية بعيدًا عن الفرنسيين؛ غير أنَّ تفسيره للأمور يبدو خياليًا. يقول "برنوييه" إنه على الرغم من جهل الأتراك، وافتقارهم للكفاءة فإنَّهم أظهروا، أثناء عمليات الإعدام، ذكاء من نوع خاص وضربًا من الإباء يثير الإعجاب. يصف "برنوييه" إجراءات الإعدام التي بدأت صباح يوم الأربعاء: فقد استدعى الجنرال المسئول جلاد المدينة الذي خدم أمراء العثمانيين سابقًا وزوَّده بقائمة بأسماء المحكوم عليهم

بالإعدام. ويحدد أحد المصادر شخصية الجلاد ببرتملي الرومي، قائد فرقة الإنكشارية الجديد. ويقول "برنوييه" إن ضحاياه، فهو يرى أن الضحية هو أي شخص يُقتل ولم يصدر في حقه حكم بالإعدام صادر عن ساحات القضاء، اقتيدوا إلى ساحة كبيرة حيث نادى الجلاد أسماءهم واحدًا بعد الآخر، وأخذهم الجند إلى خارج الساحة عبر باب صغير يؤدي إلى ساحة أخرى. حينئذ يمسك بالأسير حارسان، يقبضان على ذراعيه كأنما يصطحبانه أمام قضاته، فيقترب الجلاد منه ويلقي بحفنة من الرمال على وجهه. وبطبيعة الحال يرفع المحكوم عليه بالإعدام يديه إلى عينيه، ويطأطأ رأسه فيعاجله الجلاد بضربة من سيف دمشقي، كان قد أخفاه في عباءته، تفصل رأسه عن جسده. ويضيف "برنوييه" أنَّ ساحة الإعدام كانت مجهزة بنظام صرف تجري به الدماء، وأن أجساد القتلى كانت ترفع بسرعة، كما كانت الرمال تنثر فوق آثار الدماء، حتى لا يعرف القادم الجديد المصير الذي ينتظره.

ويسجل "برنوييه" بداية تنفيذ الأحكام في السابعة صباحًا؛ ويقول إنَّ العملية انتهت عند الظهر. وبحلول الظهر، أبلغ الجنود رؤساءهم أنَّ المهمة قد أُنجزت فبدا الأمر غريبًا بالنسبة لهم. وكان الجنرال المسئول قد التزم مقره حتى لا يشهد تلك المناظر المروعة، فاعتقد بادئ الأمر أنَّ جنوده يمزحون. انطلق لتوه إلى ساحة الإعدام وهناك كانت دهشته كبيرة، إذ لم يرَ أيا من المحكوم عليهم، أو أي أثر يدل على الانتهاء من تلك العملية الكبيرة. أكد الكابتن "جوبير" للجنرال أنَّ كل من هم على قائمة المدانين قد أُعدموا، واصطحبه كي يقنعه بالأمر إلى مشرحة مؤقتة أقيمت لحفظ الأجساد مقطوعة الرءوس، فرآها مكدسة هناك في كومة. وما إن رأى الجنرال ذلك المشهد المفرط في بشاعته حتى فقد السيطرة على أعصابه فزعا، وظل يسخط ويلعن مئات المرات على ذلك الحكم الذي استلمه وسلَّمه.

إنَّ وصف "برنوييه" لما يتسم "الشرقيون" به من براعة في سفك الدماء يعوزه المصداقية، بغض النظر عمًّا اتصف به من دقة في الوصف ورصد لأهوال يشيب لها الولدان. ولعل العملية التي وصفها وتشمل التغطية على الضربة القاتلة، ونقل أجساد الضحايا، ونثر الرمال على مواقع الدماء، قد استخدمت في بضع حالات؛ غير أنَّ الأمر كله كان ليستغرق عشر دقائق على الأقل لكل حالة، وما كان يمكن لأكثر من عشرة أحكام أن تنفذ في الساعة الواحدة بهذا الأسلوب. ولذلك فإنَّ وصف "ديتروي" المقتضب لما سدده الفرنسيون من طعنات لهؤلاء الرجال، الذين قُيدوا بالحبال غالبًا، معقولٌ أكثر بالنسبة للعدد الأكبر من القتلى - ولا شك أنَّه أسلوب بارع في نتائجه المروعة. ويقول "تيبللو سارجي" إنَّ ثلاثمائة قد قُتلوا بما فيهم خمسة من كبار الشيوخ. وهناك من يحدد العدد بألفي قتيل؛ وإن كان الأمر كذلك فإنَّ المذبحة كانت لتدوم أيامًا بطولها.

ويقول "برنوييه" إنَّ جثث القتلى أُلقي بها في النيل تلك الليلة، فلم يعرف القاهريون مدى "العدالة الحاسمة" التي أنزلها "بونابرت" بأوامر منه. ولعل تماسيح الدلتا أصابتها التخمة في ذلك العام، فهناك ما لا يقل عن ثلاثمائة جثة تمثل حصيلة يوم واحد أُضيفت إلى ما يربو على ثلاثة آلاف مصري قتلوا أثناء التمرد الذي دام ثلاثة أيام. ويدل اشمئزاز "برنوييه" من الإجراءات الانتقامية الخسيسة، التي تعيد إلى الأذهان عصر لويس الرابع عشر أو أفعال الراديكاليين من أتباع "روبسبيير" **Robespierre**، وتبعد كل البعد عن الالتزام بالقانون الذي ميَّز حكومة الإدارة، على تزايد الشكوك بين عدد كبير من الغزاة الفرنسيين في الدعوى المعلنة من جلب الحرية وسيادة القانون إلى وادي النيل.

وقد لاحظ "برنوييه" أنَّ "بونابرت" قد حقن دماء بعض أهم زعماء التمرد وذلك لأسباب سياسية، فهُم، وإن كانوا قد أتوا من الأفعال ما يدينهم على نحو يفوق

غيرهم، يتمتعون بتأثير كبير بين الناس بفضل مراكزهم أو ثرواتهم. ولذلك يشير "برنوييه" من طرف خفي إلى أنَّ بعض أثرياء القاهرة كانوا من طلائع منظمي التمرد، وهي ملاحظة معقولة إن أخذنا في الاعتبار ما جرى من أحداث فيما بعد، كما أنها ملاحظة أهملها الجبرتي في تاريخه إلى حد كبير، فهو يذكر في عجالة أنَّ السيد المقدسي (أو القدسي)، الذي تزعم مجموعة من المتمردين، شيخٌ مغمور وتاجرٌ من تجار القوافل (كان المقدسي ضمن من حُكم عليهم بالإعدام). ويشير "برنوييه" غالبًا إلى كبار التجار القاهريين القائمين على ثمانين بالمائة من التجارة بالقاهرة؛ في حين يلقي المؤرخ المصري باللوم، فيما يخص التمرد، على الشيوخ الأقل منزلة الذين يفتقرون إلى حسن تقدير الأمور، وعلى الغوغاء الذين يفتقرون إلى العقل مما دعاهم إلى اتباع هؤلاء الشيوخ. كذلك فإنَّ "بونابرت" أشار في مذكراته إلى أنَّ الأعيان قد زُجَّ بهم في التمرد. وهناك آخرون، وقد أتى ذكر ذلك سابقًا، ممن نجحوا في نسبة ذلك المشهد الحضري الذي يعبر عن المقاومة الشعبية في أجلى صورها إلى البدو.

ويكشف جنديٌّ فرنسي في مذكراته أنَّ أحياء من المدينة ظلت مستعصية على الإخضاع على مدى ثمانية أيام، وأن بعض الأحياء باتت تشكل خطورة تمنع الجنود الفرنسيين من الدخول إليها لأيام عديدة بعد ذلك.(٢٣) ولذلك فقد كان خروج ذلك الجندي الفرنسي من مصر القديمة إلى مشارف الموسكي، وهو حيٌّ تجاري كبير، أمرًا يفتقر إلى الحكمة. كان أول ما لفت نظر الجندي كومة الأحجار، والأوعية الفخارية المُعدة في نوافذ البيوت كي تلقي على رءوس الفرنسيين الذين شاء حظهم العاثر المرور بتلك الشوارع وقد خلت من المارة، فلم يُر هرٌّ يمر بها. كما شوهدت الجثث المضرجة بالدماء في الطرقات. أما السكان فقد لزموا مداخل بيوتهم يخيم عليهم صمت حزين أبلغ عشرات المرات وأكثر رهبة من صرخات

السكان الفزعين التي تصل إلى عنان السماء. ورأى الجندي فيما شاهده نذيرًا بمذبحة جديدة.

ويقول "برنوييه" إنَّ "بونابرت" جعل من التمرد مبررًا لفرض ضرائب جديدة على المصريين، فقدَرَ غرامة تبلغ اثنا عشر مليون على مدينة القاهرة وحدها (لم يُحدد العملة). ويضيف "برنوييه" أنَّ "بونابرت" لم يأخذ في اعتباره، عند تحديده لهذا المبلغ الخسائر التي مُني بها سكان القاهرة على أيدي الجنود الفرنسيين الذين أعملوا فيهم السلب والنهب، ويسجل في مذكراته ما يلي: "أُقيم في الحي الفرنسي (وهو الحي الذي يقطنه المسيحيون) منذ عدة أيام سوقا يرتاده الجنود الفرنسيون، وقد شوهد في ذلك السوق ما سلبه الفرنسيون أثناء التمرد، وفيه يمكن لمن يريد استبدال ساعة مطعمة بالماس أو الذهب أو الفضة تساوي أكثر من عشرين جنيهًا فرنسيًا بأخرى لا تساوي أكثر من ثلاثة جنيهات فرنسية **three Louis**. كما سجل استياءه من ملاحقة اليونانيين واليهود من أهل القاهرة لهم، واستغلالهم لجهل الفرنسيين بالقيمة الحقيقة للبضائع المصرية. وفي تلك الأثناء، كان "بونابرت" يقيم مراكز شرطة في أحياء القاهرة، وقد حدد مهامها في مراقبة المسلمين بهدف إجهاض أية خطط أو مؤامرات أخرى قد يضطلعون بها مستقبلاً. أما "تبيللو سارجي" فيقول في مذكراته إنَّ القاهريين كلهم أجبروا، بعد التمرد مباشرة، على اعتمار القبعة المثلثة الألوان، في حين ارتفع العلم الفرنسي على المؤسسات العامة كافة. ومع ذلك فإنَّ الجبرتي أشار إلى أنَّ السلطات الفرنسية أسقطت تدريجيًا المطلب باعتمار المصريين القبعة الفرنسية وقد عدَّ هذا التنازل إحدى نتائج التمرد.

أمَرَ "بونابرت" بإقامة تحصينات جديدة تغطي القاهرة ومشارفها من مناطق مجاورة وإن تطلَّب ذلك هدم بعض المساجد (يأسف الجبرتي لهدم مسجد المقس، ومسجد آخر بإمبابة، وكذلك مسجد القازاروني بجزيرة الروضة ضمن مساجد

أخرى). قام مهندسو الحملة العسكريون بتوسعة الطرق وقطعوا أشجار النخيل، كما قام "بونابرت" بتعقب من حامت حوله الشبهات من زعماء التمرد، [٢٤] وبحث جنوده على تفتيش منازل بعض الشخصيات منهم نقيب العميان، وأمين نقابة تجار التوابل وبعض الشيوخ وفتشوها. وكان العميان الذين يمارسون الشحاذة في الطرقات، ويقرأون القرآن، في وضع يسمح لهم بتسقط أنباء العدو، ونقلها على نحو لا يثير الشكوك حولهم. أما تجار التوابل فقد كانوا من الأثرياء؛ وقد وُجهت التهمة إلى إبراهيم أفندي لقيامه بتأجير عصابات من "البلطجية"، وتسليح أفرادها للمشاركة في التمرد. وفي الثالث من نوفمبر، أعلَنَ "بونابرت" حكمًا بإعدام أحد عشر رجلاً عدَّهم ضمن زعماء التمرد.[٢٥] واشتملت القائمة على أسماء سبعة من الشيوخ المغمورين والأقل مكانة مثل الشيخ سيد عبد الكريم، والشيخ بدر القدسي (أو المقدسي)، والشيخ عبد الوهاب الشبراوي. ويؤكد الجبرتي أنَّ الشيخ بدر تمكن من الهروب. وكان "بونابرت" يرغب في إنزال العقاب بمن يحمله صراحة مسئولية التمرد، لكنه خشي أن يفسد أية فرصة للصلح مع وجهاء المدينة إن أقدم علانية على إعدام ما يزيد على عدد محدود من الشيوخ أو التجار أو رجال النقابات الأقل حظًا من الشهرة والمكانة؛ ولعله بادر بإعدام آلاف المتمردين غير أنه نفذ عمليات الإعدام في سرية إلى حد ما، حتى لا يجعل منهم شهداء.

أما المغاربة **North Africans** الذين يقطنون حي الفحامين فقد وجدوا لزامًا عليهم أن يقدموا ترضيات للفرنسيين، فوافق شبابهم على الالتحاق بالجيش الفرنسي، والانخراط في تشكيل خاص بهم. قام الضباط الفرنسيون بتدريب هؤلاء الشباب، وعلَّموهم حمل السلاح وإطلاق النار جماعة، والسير النظامي. ثم قام "بونابرت" بنشرهم في الدلتا ضد المتمردين من الفلاحين. وقد قامت فرقة المغاربة بالهجوم على عمدة قرية آشاما **Ashama** وقتلوه ونهبوا قصره وصادروا ثروته

ومواشيه. وكما يبدو من خبر فرقة المغاربة، فإنَّ الجانبين لم يملكا إلا التصالح، وإن تمَّ ذلك على أساس شكلي. فقد فشل المصريون الذين يفتقرون إلى المدفعية الثقيلة والمشاة المنضبطين عسكريًا في هزيمة الجيش الفرنسي الأفضل إعدادًا وتدريبًا. أما "بونابرت" فقد كان يريد شعبًا خاضعًا، ولا يرغب في تحويل مصر إلى ساحة مقابر كبيرة. ولذلك فقد ركب إليه في الأزبكية كبار شيوخ الأزهر، وسعوا لديه، من خلال مترجمه، كي يعلن الأمان. فما كان من "بونابرت" إلا أنْ مارس ضغوطه عليهم كي يُسلِّموا زعماء التمرد، فذكروا له بعض الأسماء، فأجابهم إجابة المنتصر "إننا نعرف أسماءهم فردًا فردًا". كما رجوه أن يأمر بنقل الجنود من مسجد الحسين حيث تمترسوا. واتخذوا من الجامع إصطبلا لخيولهم، حسب قول الشيخ عبد الله الشرقاوي، الذي انفجر غاضبًا. وافق "بونابرت" على نقل جنوده من المسجد، غير أنه احتفظ بسبعين جنديًا في حي الحسين.

ويسجل الملازم أول "لافال" في مذكراته أنَّ "بونابرت" حلَّ الديوان (أي حكومة المصريين)، إذ إنَّ بعض أعضاء الديوان العام والديوان الخاص حامت حولهم الشكوك فيما يختص بدورهم في التخطيط للتمرد، في حين كانوا يضعون في الوقت نفسه مع الفرنسيين خططَ إدارة الجمهورية الوليدة. ويقول "لافال" إنَّ "بونابرت" وَجَّه حديثًا غاضبًا إلى الشيوخ فقال لهم إنَّ المسلمين فقدوا مكانتهم في مصر لأنَّ أعضاء الديوان أرادوا ذبح الفرنسيين. اجتمع "بونابرت" بشيوخ الأزهر في قاعة مغلقة،(٢٦) ويفسر "برنوييه" ذلك الأمر برغبة "بونابرت" في استخدام الوسائل ذاتها التي استخدمها الشيوخ من قبل لإثارة التمرد. وأعلنهم "بونابرت" بأنَّ توقيعهم على وثيقة كان قد أعدَّها ثم نشرها في مساجد المدينة وفي الأقاليم، هي السبيل الوحيد لإنقاذ أرواحهم من الهلاك. جاء بالوثيقة ما يلي:

يا أهل القاهرة: توجهوا إلى العليّ القدير بالدعاء كي يحفظكم من الفتن ويقيكم ممن يسعون لنشر الشرور في الدنيا. لقد سادت القاهرة اضطرابات عظيمة على أيدي جانب من الناس ومن خالطهم من شرار الخلق، فبثوا الفتنة بين الجنود الفرنسيين والرعايا [كذا]. وقد نتج عن ذلك سقوط قتلى كثيرين بين المسلمين، لكن يد الله الرحمن الرحيم وأدت تلك الفتنة، فكان الجند الفرنسيون وقائدهم الأعلى "بونابرت" هم الأداة التي أبعدت الشرور التي كانت واقعة، فقد منع الجند من حرق المدينة ونهبها، لأنه حكيم وكريم ورحيم يرأف بالمسلمين ويُعنى بالفقراء خصوصًا، وبدون وجوده ما كان لأهل القاهرة أن تقوم لهم قائمة.[٢٧]

ذاع ذلك الإعلان الذي أجراه "بونابرت" على لسان الشيوخ في أنحاء القاهرة، محذرًا إياهم من القيام بمزيد من أعمال العنف، إذ إنَّ الإعلان حمل إليهم تحذيرًا بالإبادة الجماعية. قام "بونابرت" فيما بعد بإعادة الديوان الذي يتصدر أعضاؤه شيوخ المسلمين، وسعى مرة أخرى لعقد صلة قوية مع الأزهر.

ونظرًا للنكسة التي مُني بها "بونابرت" في علاقته بشيوخ السنة من العلماء الذين يمثلون تيار الإسلام الرئيسي، فقد حوّل اهتمامه إلى إسلام العوام وما يتصل به من موضوعات صوفية وأخرى تتحدث عن آخر الزمان. وفي خريف ذلك العام، أصدر "بونابرت" بيانا إلى أهل القاهرة [٢٨] أظهر فيه الشماتة لهلاك "شرار الناس الذين أضلوا جانبًا منكم"، وأعلن الشيوخ والدعاة والأشراف أن "من أعلن نفسه عدوًا لي، لن يلقَ ملاذا له في الحياة الدنيا ولا في الآخرة". ادعى "بونابرت" لنفسه إذن قدرات خارقة، تعينه على تقرير مصائر الآخرين، وإن امتدت تلك

القدرات لآخرة المسلمين! ويقول أيضًا: "هل بلغَ بكم الضلالُ ألا تـرونَ أنَّ القـدر المحتوم يَجري على يديّ؟"، كما ذكرهم بأنَّ الكـون كلـه خاضـع لمـا أسـماه بإمبراطورية القدر.

ويمضي "بونابرت" موجهًا حديثه إلى شيوخ المسلمين يدعوهم لإعلام الناس بأنه منذ خلق الله العالم سُجّل في اللوح المحفوظ أنه قادمٌ من أعماق الغرب لينفـذ المهمة التي أوكلت إليه، فيمحق أعداء الإسلام وينكس الصلبان. كما دعاهم لتوجيه الناس لتدبر أكثر من عشرين آية فيما أطلق عليه "القرآن المقـدس"، كلهـا تتنبـأ بمقدمه وتشرحه. ويقول "بونابرت" أيضًا إنَّ من يستنزل اللعنات علـى الفرنـسيين يجلب اللعنات على نفسه؛ فالمؤمنون حق الإيمان يعاهـدون الفرنـسيين ويـدعون لأسلحتهم بالغلبة. بل إنَّ "بونابرت" بالغ في إدعائه لقوى خفية، فأعلن قدرته علـى حساب كل فرد من المسلمين على خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ فهو كما يدعي مطلق المعرفة وإن أخفوا ما في سرائرهم فلم يطلعوا عليه أحد. وأكد "بونابرت" أن اليوم قادمٌ لا محالة حين تأتي البينة، فيعرف العالم كلـه أنَّ قـوى علويـة كانـت توجهه، وأن قوى البشر ما كانت لتنال منه.

ولعلنا نستنتج من هذا كله أنَّ المصائب المتتالية التي حلت "ببونابرت"، منـذ أن دمَّر نلسون أسطوله، قد أصابته بقدر من عدم التوازن. ومـن ناحيـة أخـرى، يُمكن القول إنّ العلمانية اليعقوبية في العهد الجمهوري الفرنسي، وهي رؤية اتسمت بالثقة المفرطة في علو قدرها إلى حد العجرفة، استمرت في إلهام الفرنسيين حـسًا أبويًا بالتفوق على الشرقيين الذين بدوا لهم قومًا يتطيرون، ويخضعون لـشيوخهم، ويسهل خداعهم. وبناء على ذلك فإنَّ "بونابرت" لم يعدُ إلا أن حاول أن يتلاعب بما لمسه من سذاجة المصريين وتقبلهم للإيحاء، وذلك حين أدعى أنه كائنٌ خـارق لا

يقهر. وعلى أي حال فإنْ نجحت الخدعة في ردع البعض عن الاستمرار في التمرد فإنَّ "بونابرت" يكون قد نال مأربَه ولم يخسر شيئًا.

وهناك احتمال آخر مؤداه أنَّ "بونابرت" أعاد المعتقدات التي يؤمن بها عوام المسلمين، وهي معتقدات اطلع عليها مما نقله إليه مترجموه عن بسطاء الناس والعرافين الذين كان يحاورهم في بعض الأحيان؛ فإسلام العوام في مصر يحوى عنصرًا يختص بأحداث آخر الزمان، والاعتقاد في مجيء المهدى في آخر الأيام. ونجد في التعبيرات التي ساقها "بونابرت" في إعلانه صدى لهذه العقائد؛ ولعله كان يريد الإيحاء بأنه هو نفسه المهدي المنتظر، "فبونابرت" يعرف هذه الأفكار معرفة جيدة.

ذلك أنَّ "بونابرت" كتب قصة قصيرة، في صدر شبابه، تدور حول نبي مُقنع، عاش في العصر الوسيط في خراسان في شرقي إيران. وقد تحدى ذلك النبي الخليفة المهدي في بغداد، وهو الخليفة العادل الذي اتسم عهده بالدعوة إلى السلم وأتباع العلوم، واستخدم الحيلة ليجمع حوله الغوغاء غير أنه لقى نهاية محزنة.[٢٩] وفي مصر، بدا "بونابرت" متوحدًا مع صورة الخليفة، غير أنه في الإعلان السابق، بدا وكأنه ذلك النبي المُقنع. أضف إلى ذلك أن نبوءات نهاية الزمان انتشرت في مصر حينذاك. فمنذ أغسطس نرى "سانت هيلير" قد سجل في مذكراته أنه سمع من العرافين المصريين نبوءات عن حتمية حملة "بونابرت". يقول "سانت هيلير": "إنها نبوءة يُقال إنها محفوظة في كتاب مقدس، تُحدد عام ١٣٠٥ من الهجرة لمقدم المسحيين لإنقاذ مصر ومعاقبة الحكام لكفرهم"، ويضيف "أنَّ الأتراك كلهم يعتقدون أن الله أرسلنا ويحترموننا لهذا السبب".[٣٠] ولا يمكن أن نتيقن من الشك في أن "بونابرت" ربما لجأ إلى نشر تلك النبوءات وأنفق المال في سبيل ذلك.

وقد نقل الجبرتي ذلك الإعلان العجيب في تاريخه، ولا شك أنّ "فنتور دي بارادي" قد ترجمه من الفرنسية إلى العربية لما شابه من أسلوب ركيك. ويقول الجبرتي إنه وجد نفسه مدفوعًا لنقله لما اتصف به "بونابرت" من كذب وادعاء، ولجوئه إلى التأثير على العوام بما ينسبه إلى نفسه من أمجاد بل ورفعة شأن، فهو يدعي أنه نبي أو المهدي المنتظر، وكذلك لاستخدام البرهان بإيراد المقابل proof by the opposite ليقدم البينة على دعواه.(٣١) اتهم الجبرتي إذن، وهو عالم المنطق المدقق والفقيه الذي دربه والده المفتون بفلسفة أرسطو، "بونابرت" بالخطيئة الكبرى وهي الوقوع في خطأ منطقي. وواقع الأمر فإنّ الإعلان يحوي عددًا كبيرًا من الأخطاء المنطقية لا يتسع المجال لذكرها كلها. ومن ناحية أخري، فإنّ "مواريه" زعم أن بعض عرافي القاهرة الذين خدعوا، أو ربما تلقوا الرشى، ساندوا "بونابرت" بوصفه رجل الأقدار فساهموا في تهدئة الناس. بل إنّ بعض هؤلاء العرافين تنبأوا أنّ السلطان الفرنسي سيعلن إسلامه في القريب العاجل فيصبح قدوة لكل جنوده الذين سيحذون حذوه.(٣٢) أما الجيش الفرنسي، حسب ما قال "مواريه"، فقد التزم رجاله بالحكمة العملية التي لا ترى ضيرًا في مخاطبة خرافات المسلمين ما دامت تلك السياسة تخفف من عنائهم، ولكن "الفلاسفة" أغضبهم هذا الاستسلام للخرافة.

وربما بالغ "بونابرت" في تقدير ما للشعور الدينى بخاصة من دور في المعارضة التي لقيها من المصريين، فالزعماء المصريون استغلوا البلاغة الدينية بوصفها وسيلة لتعزيز التحالفات السياسية، غير أنّ الجبرتي والشرقاوي، وكلاهما من طبقة الشيوخ، أرجعا التمرد تحديدًا لاعتراضات دنيوية ضد السياسة الفرنسية في فرض الضرائب ولشعور أعضاء الطوائف وأصحاب المحال التجارية بانعدام الأمن لإزالة البوابات التي تفصل بين الأحياء. كما أنّ "بونابرت" كان يميل إلى

اختلاق الأعذار للطبقتين المتوسطة والعليا وهما الطبقتان اللتان كان لا يزال يرغب في استمالتهما فكان يرى أنّ الأعيان خائفون من الغوغاء وأنهم تورطوا في التمرد بضغط منهم. يخالف هذا التحليل تأكيد الجبرتي الواضح أن الشيخ سيد بدر المقدسي، وهو تاجر قوافل وشيخ متواضع المكانة، قاد الحشود في حي الأزهر. أما المغاربة في حي الفحامين فقد كانوا يخضعون لتنظيم نقابتهم مثلهم في ذلك مثل جماعات حرفية وعرقية أخرى. نخلص إلى أنّ التمرد التلقائي لم يكن واردًا، وأنّ المشتبه في إثارتهم لذلك التمرد هم أصحاب الحرف ورجال الطوائف وأفراد الأمن.

كان لغرق الأسطول، وإعلان السلطان الجهاد، وثورة المصريين، تأثيرٌ مدمر على معنويات الجنود الفرنسيين، فيعبر "مواريه" عن قلقه إذ احتجز في مصر بعيدًا عن فرنسا، وما يشيع بين الضباط من خوف من انتشار الطاعون في ربيع كل عام، كما يعجز عن تصور كيف يمكن للفرنسيين أن يحتموا من مرض قد يودي بصفوفهم على نحو يماثل في كفاءته أسلحةَ المسلمين. كما عبر "مواريه" عن انزعاجه من نبأ قيام العثمانيين بقيادة التحالف الثاني فيقول: "إنْ تعرضت فرنسا لهجوم وإنْ انتهك السلم الذي تركناها عليه، كيف لنا أن نقدم لها العون الذي تحتاجه للدفاع عنها؟". وتعد عبارة "السلم الذي تركناها عليه" نقدًا مستترًا للمخاطرة التي أقدم عليها "بونابرت" باعتدائه على أقليم عثماني مهم، وهي المخاطرة التي أثارت تحالفًا دوليًا آخر ضد الفرنسيين.

كذلك أثارت خيبة الأمل في أساليب "بونابرت" بعض الكآبة؛ فلم يقتصر اعتراض "برنوييه" على عمليات الإعدام دون محاكمة عادلة، بل إنه اعترض على استخدام "بونابرت" ما وصفه بنهج المماليك حين شارك في مهمة لتحصيل الضرائب من إحدى القرى وشهد وحشية الوسائل القسرية في جبايتها.

تزايد اعتماد "بونابرت" عقب الثورة، التي قادها المسلمون المصريون وانتظموا في صفوفها، على الأقليات الدينية، فنشر وحدات من المالطيين في الدلتا وشكّل فرقًا من اليونانيين يبلغ عدد كل منها ألف رجل في القاهرة ودمياط ورشيد.(٣٣) وفي أوائل شهر ديسمبر حرر خطابًا أورد فيه رسالة وجهها إليه أقباط مصر، وسلمها إليه جرجس الجوهري، وهو من أعيان الأقباط وقد شغل منصب المستشار المالي لجمهورية مصر الفرنسية. وقد أشار "بونابرت" في خطابه إلى الأقباط مؤكدًا أنه في المستقبل القريب سيمنحهم حق ممارسة شعائر دينهم علانية، مثلما هو الحال في أوروبا، حيث يتبع كل فرد ما يدين به، وتعهد بمعاقبة القرى التي اغتالت أقباطًا أثناء عدة أحداث للتمرد. وأضاف أنه منذ ذلك الحين يُسمح لهم بحمل السلاح وركوب الحمير والخيل واعتمار العمائم وارتداء ما يروق لهم من ملبس.

إذن التزم "بونابرت" تدريجيًا برفع سمات الانتماء إلى مجموعة هامشية أو تابعة "لذمة المسلمين" في مجتمع مسلم لم يبلغ بعد مرحلة الحداثة. وعلى الرغم من ألوان الحماية التي يسبغها الإسلام على "أهل الكتاب"، فإنَّ الحكام والفقهاء المسلمين في العصر الوسيط وبدايات العصر الحديث سعوا إلى التمييز ضد غير المسلمين بوصفهم رعايا من الدرجة الثانية، فلا يُسمح لهم بارتداء ملابس مشابهة للمسلمين، ولا يجوز لهم أن يستخدموا الشارات التي تميز المرتبة الأعلى التي يحتلها المسلمون. وقد سجل "بونابرت" في نبرة يشوبها الاستياء أنه في حين بادر شيوخ المسلمين بالكشف للفرنسيين عن كنوز البكوات التي خبأوها في بيوت حصينة، فإن الأقباط الذين تولوا أعمال هؤلاء البكوات في الأغلب لم يكشفوا كنزًا واحدًا. ويقول "بونابرت" في هذا المقام إنه إنْ أعاد إلى الأمة القبطية الكرامة وحقوق الإنسان الطبيعية، وهي حقوق فقدوها، فإنه يكتسب بذلك الحق في أن يطلب من أبنائها أن

يظهروا إخلاصًا وحماسة كبيرين في خدمة الجمهورية". وقد واجه "بونابرت" ضرورة أن ينشط لوضع سياسة للأقليات إذ لم يجد مشاركين "طبيعيين"، ولذلك فقد اعتمد فقط على ما يُدعى بحقوق الإنسان الطبيعية، فكانت له بمثابة المكافأة التي يقدمها سعيًا لضم الحلفاء.

وهناك من المقربين من "بونابرت" من تصوَّر دورًا مماثلاً لأبناء الجالية اليهودية القليلة العدد في مصر والشام، وبخاصة أنَّ القائد الأعلى أفصح عن خطط لصدام عسكري مع الجزار باشا حاكم صيدا. تراوح عدد اليهود في القاهرة حينذاك ما بين ثلاثة وخمسة آلاف يعيشون في حي اليهود على مقربة من سوق الذهب.[٣٤] وكانوا قد اشتغلوا لحساب الإنكشارية العثمانية في الأعمال المصرفية في القرن الثامن عشر، لكن علو شأن البكوات الجيورجيين في القرن الثامن عشر قلل من شأنهم، كما أنهم لم يؤدوا دورًا على أية درجة من الأهمية في الاحتلال الفرنسي لمصر. وقد أضاف المؤلف المسرحي "لاوس دي بواسي" **Laus de Boissy** فيما بعد إلى مذكرات الكابتن "ساي" آماله في تأسيس جالية يهودية موالية للفرنسيين في القدس، رآها تحمل فائدة للفرنسيين في مصر. وقد نشر هذا الرأي للمرة الأولى في ربيع عام ١٧٩٩ في دورية فلسفية تحمل عنوان **Décade Philosophique** وهي دورية جماعة تطلق على نفسها اسم **The Ideologues** أو المفكرين، وكان "بونابرت" قريب الصلة بتلك الجماعة:

> **إن استقرار الفرنسيين في مصر والشام يُمكن أن يجلب للأمة اليهودية زمنا سعيدًا. فربما أدى استقبال اليهود في القدس والترحيب بهم إلى توفير سبل تجعل منهم أكثر فائدة وسعادة. فاليهود الذين، تشتتوا في أركان ثلاثة من الأرض، يمكنهم إذا أسسوا مستعمرة مزدهرة هنا أنْ يدعموا**

بقوة استعمار الفرنسيين لمصر. إنَّ اليهود تكال لهم اتهامات برذائل عديدة، ولكنها كلها تنبع من الاضطهاد الذي يئنون تحت وطأته؛ كما أنَّ لهم من الفضائل ما نفتقر إليه في حضارتنا وقوتنا: فهم أبناء مطيعون، وزوجات مخلصات، وآباء رحماء، يمارسون المساواة ويُبدون كرم الضيافة والأخوة فيما بينهم، وهم أيضًا متزنون، وعاملون بجد، ومقتصدون، ومنظمون، وصبورون، ومنتجون. فلا يوجد على ظهر البسيطة من يفوقهم في الاقتصاد في الإنفاق والتفاني في العمل، ولا من يعرف أفضل منهم معجزتا التوفير والعمل. فهم رجال أعمال بالسليقة، لهم روابط تربطهم بالأمم كلها، قادرون على خدمة الجميع أو الانقلاب على الجميع. وهم أثرياء يمتلكون رءوس أموال يمكن أن يقدموها إلى من يعيد لهم أرض أجدادهم. ولعل أفضل ما يوصفون به ما درجنا على قوله بشأن الجنس الآخر ففضائلهم تنبع منهم ورذائلهم ترجع إلينا نحن. إنَّ فاتح مصر يعلم جيدًا أقدار الرجال فلن يخطئ في تقييم المنافع التي يمكنه أن يجنيها من هذا الشعب لتنفيذ خططه الكبيرة.(٣٥)

نرى في تقديم "لاوس دي بويسي" للقدس العثمانية، بوصفها أرض الأجداد ليهود أوروبا، عاملا يؤدي إلى إبعادهم وإعلانهم غرباء عن باريس وروما، وذلك على الرغم من الثناء الذي أغدقه عليهم. ولم يكن بأرض فلسطين آنذاك سوى بضعة آلاف من اليهود وهو عدد قليل لا يُعتد به عمليًا في مخططات "بونابرت"

الاستعمارية. أضف إلى ذلك قياساً على وضع الأقباط، أنه لا يجوز أن نفترض أنَّ هؤلاء اليهود سيتحولون عن حكومتهم العثمانية ويمنحون ولاءهم إلى إحدى القوى الأوروبية.

كما لا يجوز لنا أن نفترض أن "بونابرت" شارك "دي بويسي" آراءه؛ ولكنه كان على علم بها إلى حد بعيد لأنَّ "دي بويسي" كان من المترددين على صالون "جوزفين". ولا يوجد دليل قوي يشير إلى تأييده لمثل ذلك المشروع، ولكنه من الواضح أنَّ الاستعمار الفرنسي في مصر شجع بعض المقربين منه على المبادرة بالتفكير في شكل حديث من أشكال القومية الصهيونية، وهو تفكير رأى في يهود أوروبا أداة نافعة للحركة الاستعمارية ودعى لإزاحتهم إلى قرى فلسطين المتربة، والاستفادة من قوتهم المالية والتجارية المزعومة لأغراض استعمارية.(٣٦)

أما فيما يتصل بعلاقة "بونابرت" بالمصريين، فقد بدأ يشعر شعورًا قويا بعد التمرد في القاهرة أنَّ السياسات التي اتبعها تجاوزت الحد في قسوتها. ولذلك حرر خطابًا في الحادي عشر من نوفمبر إلى الجنرال "برتييه" يحظر حظرًا تامًا ضرب المتمردين للحصول على معلومات منهم، وقد جاء في خطابه ما يلي: "لقد استقر الرأي في مختلف العصور أنَّ تلك الوسيلة للاستجواب التي تعتمد على التعذيب لا تأتي بنتائج طيبة. فهؤلاء البؤساء يقولون ما يخطر على بالهم وما يظنون أننا نريد أن نسمع".(٣٧) ولذلك فإنَّ "بونابرت" منع استخدام التعذيب لجمع المعلومات لأنَّ "العقل والإنسانية" يستنكران اللجوء إليه. ويضيف "بونابرت" أنه لا يقصد منع التأديب الذي يتم عن طريق ضرب المسجون على قدميه وهو في وضع مقلوب، ولكنه حذَّر استخدام ذلك الأسلوب لغرض العقاب.

الفصل الثانى عشر

سقوط الدلتا والجهاد العربي

انتشر التمرد سريعًا في الدلتا بعد أن قضى الفرنسيون الشهرين السابقين على التمرد في محاولة لإخضاعها. وقد ترامى إلى حامية بلبيس نبأ التمرد بالقاهرة، وبدأ أفرادها يتنقلون وأسلحتهم لا تفارقهم، كم ضاعفوا من دوريات الحراسة.[1] وفي الثالث والعشرين من أكتوبر، أرسلت الحامية حملة من الخيالة لاستطلاع المنطقة فوجدوا حوالي اثنا عشر ألف رجل وقد اجتمعوا في معسكر روماني قديم في الصحراء لا يبعد كثيرًا عن القاهرة، وتسلحوا بالبنادق والسيوف والحراب والعصي الغليظة واعتلى بعضهم ظهور الخيل، فشرع الفرنسيون في التخطيط لحملة توَّجه ضدهم.

وفي العاصمة، أمر "بونابرت" ألا تستخدم المدفعية في عمليات التطهير، إذ إنَّ دوي طلقاتها يمكن سماعه لمسافة أميال. وقد خشي "بونابرت" أن يعطى انطباعًا خاطئًا يصل إلى الريف المتمرد باستمرار الثورة. ويدل ذلك الخوف على أن شعور الفرنسيين بخطورة الموقف لم يزل قائمًا. ويشرح السارجنت "فرانسوا" الموقف بقوله إنَّ تحالف الفلاحين والبدو ما زال يستهدف تقديم المساعدة لأصحاب الحرف بالقاهرة. وقد كانت القوات الفرنسية المتمركزة في بلبيس تهدف في واقع الأمر أن تقف سدًا منيعًا ضد أية محاولة لعودة إبراهيم بك من سوريا؛ لكنها اضطرت أن تسير إلى القاهرة للتخفيف عن الجيش الفرنسي بها. واصطدمت وحدة "فرانسوا" بخيالة البدو في طريقها نحو الجنوب الغربي فأبرزت مدافعها وأطلقت نيرانها لتفرقهم. ويقول "فرانسوا" بنبرة يشوبها الرضا إنهم أصابوا بعضهم في مقتل. ولكن الأمور انقلبت رأسًا على عقب مما اضطرهم إلى العودة إلى مخيماتهم

يتبعهم مجموعة من المهاجمين، وقد نجحوا بالكاد أن يصدوهم. وفي مساء اليوم التالي، خرجت الوحدة في تشكيل المشاة المربع وقد دعمتها المدفعية، فقابلوا قوة كبيرة من البدو والفلاحين على ظهور الخيل؛ ولكن الفلاحين ظلوا يتقهقرون تحت وطأة نيران المدفعية وعزفوا عن الاشتباك المباشر. عاد الفرنسيون إلى حصنهم المؤقت الذي بات على مرمي النيران طوال الليل، ففقدوا أحد عشر رجلاً وجرح منهم ستة عشر. ويقدم لنا "رينييه" **Renyier** إحصاءات عن القتلى الذين سقطوا في الهجمات التي شنها الفرنسيون على ثلاث وعشرين قرية وقد نتج عنها تدمير تلك القرى وهروب معظم من بها من رجال؛ يقول "رينييه" إن الفرنسيين نهبوا وحرقوا القرى الثلاث والعشرين التي جرى تحديدها بوصفها الأكثر تمردًا، ونقل الجنود ما بها من حيوانات وطيور وحبوب إلى معسكرهم، وقتلوا كل من بالقرية عدا النساء والأطفال، فبلغ عدد من قتلوا تسعمائة رجل.

ولعل "بوريين" كان يشير إلى تلك الحملة حين أشار إلى الهجوم الفرنسي على بعض القبائل بالقرب من القاهرة بعد أن قام رجالها بتدبير هجوم مفاجئ وذبح عدد كبير من الفرنسيين. لم يكتفِ الفرنسيون بقتل تسعمائة رجل من المتمردين القرويين بل جزوا رءوسهم، وحملت القوات التي خرجت من القاهرة تلك الرءوس المقطوعة معها في طريق العودة لتقدم مشهدًا عامًا مروعًا في ميدان الأزبكية. جمع الفرنسيون حشدًا من الناس ثم فتحوا الأجولة التي نقلوا فيها الرءوس فتدحرجت أمام الناظرين من الحشد المجتمع. وقد اقتنع "بوريين" أنّ ذلك المشهد بث الرعب في قلوب القاهريين مما أدى إلى خضوعهم. كذلك كان "فرانسوا" على ثقة من أنّ نهب القرى الثلاث والعشرين أخمد التمرد. ويقول "فرانسوا" إنّ الأنباء بلغت القرى المجاورة فعرف من بها أن "بونابرت" أخمد التمرد في القاهرة على نحو حاسم، ولذلك سعى عُمَدُ الشرقية، على رأس بعض الوفود، إلى الجنرال

"رينييه" في بلبيس طالبين الرحمة. ويقول "فرانسوا" أيضًا أنهم أبدوا الندم وأنهم ما اتجهوا إلى القاهرة إلا استجابة لأوامر إبراهيم بك. ويستمر "فرانسوا" في روايته فيوضح أنه على الرغم من هذا الانتصار المؤقت فإنَّ حامية بلبيس ما زالت تتعرض لهجمات ولا تزال تحت الحصار الفعلي.

ويسجل "لافاليت"، مساعد "بونابرت" انتشار تمرد القاهرة على طول فرعي النيل وبخاصة في دمياط.[٢] تعرَّضَ الميناءُ المهم الذي يطل على البحر المتوسط للمخاطر مرة أخرى، وكذلك خطوط إمداده مع القاهرة. وقد حرَّرَ القائد الأعلى خطابًا إلى الجنرال "لانوس" بتاريخ السابع والعشرين من أكتوبر جاء فيه أنَّ المسافرين بالعربات التي تجرها الخيول من دمياط إلى القاهرة "تعرضوا للذبح على أيدي سكان قريتي الرملة وبنها العسل في إقليم قليوب، وسكان بطة ومشرف في منوف"، وأصدر "بونابرت" أمره إلى الجنرال "لانوس " بالقبض على عمد تلك القرى وإعدامهم، وأكدَ له أنَّ المالَ سيَرِدُ من دمياط.[٣]

كما حرر القائد الأعلى خطابًا إلى الجنرال "برتييه" في الأول من نوفمبر يأمره فيه بإرسال الجنرال "لان" على رأس قوة من أربعمائة رجل إلى قرية القطا بالقرب من رشيد لعقاب سكانها الذين استولوا في صباح ذلك اليوم على قاربين محملين بالمدافع.[٤] صدر أمر "بونابرت" "لبرتييه" باعتقال عمدة القرية، فإن لم يتمكن من ذلك فعليه أن يحتجز اثني عشر رجلاً من أعيان القرية وأن يبذل كل ما في وسعه لاستعادة الأسلحة التي نهبت. ويقول "جيربوه" إنَّ السكان استولوا أيضًا على أربعة آلاف بندقية، وأن "بونابرت" أرسل بعد أسبوع الجنرال "موراه" وقوة من ألف وثلاثمائة رجل لتعزيز جهود "لان" في استرداد الأسلحة. وتوحي تلك الروايات بأنَّ أهل قرى الدلتا أخذوا أهبتهم لمزيد من المقاومة، وعرفوا أين يحصلون على الوسائل التي تمكنهم من هدفهم. وفي آخر أيام شهر أكتوبر

انقطعت أيضًا أخبار الإسكندرية فلم تصل إلى "بونابرت" وذلك لوقوع اضطرابات حول الرحمانية.

وقد سجل "لافاليت" الأوامر التي أصدرها بإحراق بعض القرى المتمردة لتكون عبرة لغيرها. ويبدو أنَّ ثورة القاهرة قد أحيَّت مخاوف "بونابرت" من رؤية المصريين المسلمين للفرنسيين بوصفهم غزاة صليبيين. ويقول "لافاليت" إنَّ القائد الأعلى يتحرق شوقا ليعرف ما إذا كان سكان المنصورة ما زالوا يحتفظون بذكرى مقاومتهم الناجحة أمام الكونت "آرتواه" Count of Artois حين هاجمهم بقوة أثناء حملة القديس "لوي" Saint Louis (الملك لويس التاسع). ولكن مؤلف هذا الكتاب انتهى، بعد بحث وتقص، إلى أنَّ المصريين فيما يبدو لم يعرفوا اسم الملك لويس التاسع ولم تحفظ ذاكرتهم الأعمال التي خلدت ذكرى أجدادهم.(٥) أما مثقفو مصر فقد كانوا يعرفون بالطبع كل ما يتعلق بالحملات الصليبية، وقد كتب الشيخ عبد الله الشرقاوي، الذي تقلد منصب رئيس جمهورية مصر الفرنسية لبعض الوقت، في تاريخه المختصر عن مصر عن هزيمة الصليبيين على يدي صلاح الدين. أما أهل المنصورة فقد شغلتهم أمور أخرى.

وبينما شكل الفلاحون تحالفات مع البدو في محاولة منهم للتصدي للضرائب الباهظة التي فرضها الفرنسيون، فإنهم دخلوا أيضًا طرفا في صراع مع هؤلاء الرعاة؛ إذ انهارت حينذاك أسس الدولة التركية المصرية. وقد لجأ البدو الذين حرموا من المخصصات وtax farms التي منحها إياهم البكوات إلى أعمالهم الأصلية في تربية الحيوانات، كما سعوا لاستخدام الأراضي للرعي، وقاوموا محاولات القرويين الاحتفاظ بها للزراعة. وفي بعض الأحيان، نتج عن الانقسام إعطاء الفرنسيين الفرصة لإيجاد عملاء جدد بين القرويين. فقد كتب "بونابرت" إلى الجنرال "ليكليرك" بقليوب في الرابع عشر من نوفمبر ليطلعه على شكوى وكيل

الشيخ سيد خليل البكري الزراعي هناك. كتب يقول إنَّ وكيل الشيخ البكري يشكو من قيام العرب بمنع السكان حول قرية ميت غمر من بذر الحبوب في أراضيهم، ويطلب إليه أن يتخذ الإجراءات اللازمة لعقاب هؤلاء العرب ولضمان ألا يأتون بعمل يضر النشاط الزراعي.[٦] وبعد أسبوع، سجل "جيربوه" في مذكراته من موقعه بالمنصورة "اعتداءات العرب على قرى الإقليم". وجدير بالذكر أنَّ البدو والفلاحين تربطهم، في كثير من الأحيان حينما لا يتنافسون على الأرض، علاقة مصالح متبادلة؛ ولكن هذه الصراعات تدل على الأرجح على انهيار المعايير الاجتماعية تحت وطأة الاحتلال. وقد تنافس البدو في الدلتا مع الفرنسيين في سعيهم لجمع إسهامات عينية ما إن حان حصاد المحاصيل الشتوية، وهم بذلك شكلوا تهديدًا للموارد المالية الفرنسية إذ إنَّ "بونابرت" كان يأمل في جمع الضرائب من المحاصيل ذاتها. غير أنّ مصادرة ما يملكه الفلاحون على أيدي الجيوش المتنافسة لم يكن أمرًا جديدًا، فقد اعتاد الأمراء ومماليكهم القيام بالأفعال ذاتها في الحروب الداخلية التي دارت بينهم.

كانت حاجة "بونابرت" للمال الدافعَ إلى فرض ضرائب فرنسية باهظة على الريف المصري. وكان في حاجة إلى ذلك المال كي يدير شئون مصر؛ ولكن الدافع الأكبر تمثل في تمويل مشروعه الوليد لغزو سوريا. وقد سجل "جولواه" في مذكراته في وقت متأخر من ذلك العام ما يلي: "أيام البرد تمتد طويلا، ونقص الأموال في الخزانة العامة بلغ حدًا يهددنا بالتوقف عن العمل في مستشفى إبراهيم بك، وأفران القائد الأعلى، والمدرسة". وقد تسبب الإسراف في فرض الضرائب على السكان في اضطرابات مستمرة. وقد أصدر "بونابرت" إلى جنوده الأوامر بتحصيل "الميري" الشتوي، وهي ضريبة عثمانية على الأرض الزراعية، وكان أوان حصاد الأرز قد حان. ويتذكر "جربوه" مشهد الريف في وقت لاحق من ذلك

الخريف، فقد بدا الريف أكثر جمالا في موسم حصاد الأرز؛ يقول "جربوه": "إنَّ الأرز نباتٌ يعيش في المياه، ويبدأ زرع بذوره في مايو، ويحصد وهو لا يزال أخضر ثم تسحب الحمير أو البقر آلاتٍ لها أسلحة معدنية دائرية لتفصل القشورَ عن الحبوب".(٧)

كذلك سعى "بونابرت" إلى التحصيل العيني فيما يتعلق بالخيول وبعض أنواع الحيوان. وفي أواخر نوفمبر، قاد الجنرال "لوي-نيكولا دافوه" **Louis-Nicholas Davout** ثلاثمائة من الخيالة الفرنسية في هجمة على قبيلة بدوية في الدلتا مستهدفا مصادرة قطيع جمال كبير يملكونه. وكان "بونابرت" في حاجة إلى الجمال لأغراض النقل في حملاته القادمة، وربما بدأ في التخطيط لوحدة تركب الجمال. ساندت سفنٌ يقودها الكابتن عمر، وهو مملوك انضم لخدمة "بونابرت"، الهجوم الذي شنه "دافوه". حاصر الفرنسيون رجال القبائل ملتزمين الحرص على البر، في حين وقفت سفن عُمر حاجزًا يمنع أي أمل لهم في التقهقر عبر النهر. ويقول "دافوه" إنَّ القوة الفرنسية صادرت ما لا يقل عن ألف وخمسمائة جمل وعدد كبير من الأغنام وثلاثين من جاموس الماء، على الرغم مما أبداه البدو من سخط وما أظهروه من رجاء. ويضيف "ديفواه" أنَّ تلك القبيلة طالما رفضت سداد ضريبة الميري ودائمًا ما كانت تلوذ بالفرار عند اقتراب جنود المشاة.(٨) وحين أدرك البدو أنهم محاصرون ولا سبيل لهم للانسحاب استسلموا وسلموا قطعانهم، أما النساء فقد رفعن الصوت بالعويل، وجذبن شعورهن، وصببن لعناتهن على الفرنسيين بحيوية دافقة. وقد أثنى أحد رجال الخيالة الفرنسيين على الدور المساند للبحارة المصريين مُسجلاً أنَّ المسلمين جنودٌ متميزون لا يعتريهم كلل؛ كما وصف عمر بالذكاء الخارق والقيادة الرائعة للوحدة التي شكلها بنفسه. ويضيف أنَّ القوة المصرية إضافة لا غنى عنها للجيش الفرنسي، وأنهم، أي المصريين، يكرهون البدو الذين

تسببوا في معاناة كبيرة لهم في كثير من الأحيان. أما وصف الضباط الفرنسيين للجنود والضباط المسلمين الذين خدموا البكوات فقد غلب عليه الذم. ويقول ضابط الخيالة إنَّ الوحدات المصرية التي شكلها "بونابرت" خففت العبء عن الجيش الفرنسي. وأصبح من الواضح أنَّ "بونابرت" في حاجة إلى مزيد من المتطوعين الشباب.

ويسجل "جربوه" في مذكراته، في شهر ديسمبر، صدور أمر القائد الأعلى موجهًا كل الجنرالات الذين يحكمون الأقاليم أن يحتجزوا أطفال القرى التي شاركت في التمرد من سن اثنى عشر إلى ستة عشر، وأن يبعثوا بهم إليه حتى يحدد الوجهة التي يرسلهم إليها، فحسب قوله يجب دائمًا احتجاز أطفال القرى التي تستحق الإحراق.(٩) ويبدو أنَّ "بونابرت" كان يدير مركزًا بالقلعة يجمع بين وظيفة الملاجئ والتدريب العسكري، في محاولة منه لتوسيع نطاق وحدة الخيالة التي شكلها من أطفال المماليك في أغسطس بإضافة جنود من الفلاحين المصريين. لم يحدث من قبل أن جُند المصريون بهدف إعدادهم كمماليك تحت الحكم العثماني على الرغم من أن بعض المماليك من الأناضول أو القوقاز كانوا ينتمون إلى أصول ريفية.

على الرغم من أن العملية التي وصفها ضابط الخيالة حظيت بجنود متميزين واتسمت بأداء بارع غير أنها لم تكن عملية نموذجية، إذ إنَّ عددًا كبيرا من قرويي الدلتا تعود أصولهم إلى البدو، وقد اعتاد الفلاحون المصريون الهروب أمام جند المماليك، والفيضان وغير ذلك من مخاطر. وفي كثير من الأحيان كان الفلاحون يختفون حين يبرز لهم محصلو الضرائب. ويصف لنا "لوجييه" **Laugier** في الثامن عشر من ديسمبر الحملة التي أمره الجنرال "دوجا" بشنها على رأس قوة من مائتين وثمانين رجلاً ضد قريتين هما نابيلوها وكفر نابيلوها رفضتا سداد الضرائب خمس

مرات متتالية على الرغم من استلامهما مطالب فرنسية محررة بذلك الشأن. يقول الضابط الفرنسي إنه وجد قرية نابيلوها خاوية على عروشها فقد انسحب سكانها إلى كفر نابيلوها. سار "لوجبيه" مع رجاله عبر مستنقعات الدلتا متجهين إلى كفر نابيلوها بما أوتوا من سرعة فوجدوا أنَّ السكان قد لاذوا بالفرار عدا بعض النساء وقليل من الرجال بينهم عمدة القرية. تعهد العمدة بسداد الفلاحين للضرائب، ولكنه هرب هو الآخر حين تركه الفرنسيون على أساس من وعده بجلب بني بلدته الهاربين. فما كان من "لوجبيه" إلا أن أضرم النيران في منزل عمدتي القريتين وعاد خاوي الوفاض.(١٠)

ظل شمال شرقي البلاد في حالة من عدم الاستقرار. وقد أبلغ مهندس يُدعى "فيفر" **Fèvre** زميله "جولواه" في أواخر ذلك الخريف بالموقف الخطير في ذلك الجانب من الدلتا. وكان "فيفر" قد عاد من مهمة تحت إمرة الجنرال "أندريوسي" لرسم خريطة لبحيرة المنزلة.(١١) وقد كلفت تلك المهمة الفرنسيين الكثير أثناء رحلتهم النهرية. فقد فقد الفرنسيون عددًا كبيرًا من قواربهم التي يحمل بعضها عشرين وثلاثين جنديًا ويحمل بعضها الآخر ستين جنديًا، في حين تعرض "أندريوسي" نفسه للاعتداء عليه في طريقه إلى المنزلة. وتدل تلك الأحداث دلالة واضحة على ما يتعرض له التقدم الفرنسي من خطر وما يحمله سكان المنطقة من مقاومة شرسة للفرنسيين. وما أن عاد "فيفر" إلى دمياط حتى أبلغ "جولواه" أنَّ "أندريوسي" وجد المدينة في حالة فوضى شاملة.

ولا يدعونا استكشاف الأسباب التي دعت إلى انتشار اليأس بين الفرنسيين إلى بذل كثير من الجهد، فإنَّ الكابتن "مواريه" يكشف لنا في مذكراته أنَّ حسن طوبار قد عاود هجماته على الفرنسيين حين التزم جنود القاهرة بمواقعهم فيها فلم يغادروها. ويقول "مواريه" إن حسن طوبار وهو مغامر وقرصان من المنزلة،

يسانده فرمان مزعوم أصدره الصدر الأعظم العثماني، شنَّ هجمات بالقوارب في بحيرة دمياط أثناء فترة التمرد في القاهرة.(٢٢) ويدل استغلال طوبار لتمرد القاهرة كي يهاجم دمياط التي تقع على بعد مئات الأميال على أحد فرعي النيل أنَّ المصريين حافظوا على قدرات التواصل عبر نهر النيل وسَعوا في بعض الأحيان إلى تنسيق المقاومة بينهم.

وهناك حكايات تعزي السلطة التي يتمتع بها حسن طوبار إلى تعدد زوجاته وجواريه وأبنائه منهن. فالزواج بالنسبة لطوبار وسيلة لعقد التحالفات مع البدو الأقوياء وغيرهم من القبائل. ولكنه مُني بالهزيمة في نهاية المطاف، وصدر أمر "بونابرت" باعتقاله وتجريده من أملاكه وحريمه، وأُتي به إلى القلعة رهينةً وعبرة لمن يعتبر من بني بلدته. وفيما بعد، أطلق "بونابرت" سراحه واحتفظ بابنه الأكبر رهينة في القاهرة، وأعاد إليه أملاكه شريطة أن يعيش في دمياط تحت المراقبة. غير أنَّ طوبار طالب الفرنسيين بإصرار بضم حريمه إليه. لم يصدر "بونابرت" أية تعليمات بهذا الشأن فقد منحين لآخرين، كما أنه لم يُرِد أن يُعلي من مكانة الزعيم الذي أطلق سراحه للتو. وقد أعاد "كليبر" حريم طوبار إليه فيما بعد حين تأكد من إخلاصه، ورغبة منه في أن يجعل منه نموذجا لأعداء الفرنسيين الآخرين مثل التركي المتمصر مراد بك الذي أراد له أن يتبع السلوك نفسه. ويروي "تيبللو سارجي" حكاية يصف فيها ما درج عليه طوبار الشبق من سهر الليلة تلو الليلة في أحضان النساء من حريمه؛ ويخبرنا "سارجي" أنَّ إحدى نسائه وتدعى زفتية بلغت بها الغيرة مبلغها فدَسَّتْ له سُما ناقعًا في فنجان قهوة.(٢٣)

وهكذا أصبحت نساء الأعيان بيادق في لعبة الصراع التي تمارسها القوة الاستعمارية. لم يُبالِ الضباط الفرنسيون حين وهبوا نساءَ عدوهم المهزوم إلى عملائهم المخلصين كما لو كنَّ غنيمة حرب، ثم حين أعادوهن إليه فيما بعد بمجرد

أن أظهروا لهم الولاء. وفي هذه الرواية فإنّ جريمة زفتية يُنظر إليها من زاوية استشراقية تفسر حدوثها بالمشاعر الملتهبة التي تسود مجتمع الحريم، وبالاعتداء الذي أقدم عليه زعيم مصري شبق ضد كرامة زوجاته. وعلى الأرجح فإنّ "سارجي" لم يكن يعرف من العربية ما يمكنه من فهم معنى اسم الجارية، فهي سوداء اللون مثل الزفت، مما يدل على أنها عبدة سودانية وذلك يضيف بعدًا أكثر تعقيدًا إلى روايته. وواقع الأمر أنّ الحكاية التي يرويها "سارجي" لا يقبلها العقل، فنساء الحريم في مجتمع يعترف بتعدد الزوجات وبملك اليمين لا تقتلن أزواجهن بسبب الغيرة، بل يمكن أن تدس إحدى الزوجات السم لزوجة أخرى أو لجارية مفضلة لدى الزوج. ولا شك أنّ دافع زفتية لقتل سيدها يتصل برد فعلها إما لسوء معاملتها على يديه، أو لاستسلامه المخزي لحكام أجانب يدينون بالمسيحية. وتتبع حكاية "سارجي" نموذج الروايات الإباحية في فرنسا في القرن الثامن عشر من حيث إنها توجه النقد إلى فجور أصحاب السلطة، غير أنها حين انتقلت إلى خلفيتها المصرية أصبحت أيضًا إنذارًا يحذر من مخاطر السلوك الجنسي المسرف للرجال المسلمين.

شيَّد "أندريوسي" في فترة لاحقة أسطولاً من القوارب المسلحة لمطاردة الصيادين الذين تولوا الزعامة في تلك المنطقة. كلف المهندسون بوضع خرائط للبحيرة الكبيرة التي تطل عليها دمياط، وقد وجدوا عناء شديدًا في عملهم الذي تطلب أن يخوضوا في الطين إلى ركبهم. وفي تلك الأثناء استمر الفرنسيون في مشروعهم الذي يهدف إلى بناء تحصينات لتأمين الدلتا. لم يتقدم العمل بالمعدل الذي تمناه "بونابرت" ويعود ذلك في جانب منه إلى أنّ موسم حصاد الأرز يقع في شهر نوفمبر وبالتالي لم يتوفر عدد كاف من البنائين بين الفلاحين. وقد أراد "بونابرت" أن ينتهي العمل في حصن العزبة خصوصًا كي يحمي دمياط من أي

هجوم حين يُرسل الجيوش من هناك وعبر البحيرة في اتجاه الشام. لم تحل إذن مشكلة ثورات الفلاحين؛ ولكن "بيير ميليه" الذي ينتمي إلى فرقة الكشافة يكتب في أواخر عام ١٧٩٨ ما يلي: "تعِمنا بقدر من الهدوء أثناء وجودنا في دمياط فقد سخر القائد الأعلى كل وسيلة ممكنة لتشييد حصون تقينا من إساءات السكان والبدو".(١٤)

وكانت تلك الحصون التي وزعها "بونابرت" على ربوع مصر يدافع عنها عمومًا سلاح المدفعية، فلم تكن تشبه تلك الحاميات سيئة الحظ التي سبقتها مثل حامية المنصورة. وقد صار "بونابرت" أكثر قدرة على نشر الخيالة واستغلالها الاستغلال الأمثل أيضًا.

وكان "بونابرت" من قبل تنقصه الخيول، وعمومًا لم يكن استخدامها ممكنا في أراضي الدلتا لارتفاع منسوب المياه بها وتحولها بفعل الفيضان إلى مستنقعات. وفي ديسمبر حين يقل منسوب المياه بسرعة أقدم "بونابرت" على مصادرة عدد كبير من الخيول وهكذا أصبح من الممكن إرسال الخيالة مرة أخرى لقمع الفلاحين المتمردين. ولم يكن الفرنسيون مع ذلك قادرين على إحباط الثورات المتكررة في الدلتا قبل بدايتها؛ ولكن توفر القوارب النهرية التي تحمل المدافع وزيادة عدد الخيالة وإنشاء حصون جديدة مزوّدة ببعض المدافع كانت عوامل أسهمت كلها في تقليل فرصة تعرض الفرنسيين لمذابح على أقل تقدير. ومع ذلك كله فإنَّ افتقار مصر إلى الأخشاب أصبح يمثل على نحو متزايد عقبة تحول دون تشييد الفرنسيين للحصون والسفن مما دعا بعض الضباط إلى القول بضرورة البحث عن أقرب غابة. وكانت غابات الأرز في لبنان حسب ما جاء في الكتاب المقدس هي الأقرب لمصر وفي زمن "بونابرت" كانت تلك المنطقة ضمن أملاك العثمانيين في الشام.

***

أثار غرس جمهورية مصر الفرنسية في قلب العالم الإسلامي عددًا من ردود الفعل المتباينة، فقد أعلن السلطان سليم الثالث الحرب التقليدية على الفرنسيين بالتنسيق مع حلفائه المسيحيين من البريطانيين والروس. كذلك أعلن السلطان الجهاد ضد جيش الشرق الفرنسي وكلف أحمد باشا الجزار، حاكم صيدا، بإعداد جيش يدين بالولاء للسلطان لمهاجمة الفرنسيين وإخراجهم من مصر.(٤٠) وقد أعلن السلطان أنَّ قتالَ الفرنسيين فرضُ عين على المسلمين. وفي بلاد العرب واليمن أعلن شيوخ ونشطاء المسلمين الحاجة لمتطوعين لدعم مراد بك وقتال قوات الجنرال "لوي ديساي" في صعيد مصر. وهكذا برز في شتاء هذا العام تحديات العالم الإسلامي متمثلة في الجزار باشا، والجهاديين العرب، وقوة المتطوعين من المصريين المسلمين.

استقرت عقيدة "بونابرت" على مبدأ أنَّ الهجوم الجيد خيرُ وسيلة للدفاع، ومن ثمَّ فقد شرع في الاستعداد لجر عدوه إلى ميدان القتال. ولكنه في بادئ الأمر أراد أن ينتهي من تأمين مصر؛ فعلى الرغم من أنَّ الفرنسيين أقاموا التحصينات بإقليم الشرقية فإنهم لم يحتلوا بعد ميناء السويس الأساسي على البحر الأحمر، وهو ميناء يكتسب أهميته من تجارة البن كما كان يمثل نقطة الضعف في دفاع الفرنسيين إذ إنَّ القوات المعادية يمكن أن تنزل هناك. ويعد ميناء السويس أحد أهم ميناءين لمصر على البحر الأحمر، أما الميناء الآخر فهو القصير الذي يقع إلى الجنوب من السويس. لكن "بونابرت" كان يواجه صعوبات في السيطرة على الصعيد لما مثله وجود مراد بك من تحدٍ هناك في حين أنَّ السويس كانت في متناول يده لقربها جغرافيًا من القاهرة. وقد مثلَ التحرك الفرنسي نحو البحر الأحمر تحديًا للسيطرة العثمانية عليه فضلاً عن قطع الطريق البحري المهم الذي يسلكه البريطانيون. وكان العثمانيون قد سمحوا للبريطانيين بجلب بعض البضائع

من الهند عبر المحيط الهندي وبحر العرب ثم البحر الأحمر إلى ميناء السويس حيث تنقل البضائع على ظهور القوافل إلى الإسكندرية. فعلى الأقل، يستطيع "بونابرت" أن يحرم البريطانيين من ذلك الطريق المختصر الذي يناسب السلع الخفيفة غالية الثمن والرسائل العاجلة. وقد أرسل "بونابرت" الجنرال "بون" ليحكم سيطرته على السويس في أوائل شهر نوفمبر. ويتذكر الكابتن "يوجين دي بوهارنيه"، الذي قاد طليعة الجيش، خطورة تلك الحملة التي اضطرَ رجالها، وهم قليلون، إلى السير، وقد عانوا العطش في اتجاه الشرق عبر الصحراء.(١٦) وحين ترامي نبأ الحملة إلى حكماء السويس بعثوا بوفد يُعلن خضوعهم للفرنسيين؛ وفي التاسع من نوفمبر دخل "بوهارنيه" السويس على رأس طليعة الجيش دون أن يطلق طلقة واحدة. وهناك وجد الفرنسيون أربع سفن لا تحمل سلاحًا، وستة قوارب، وتسع سفن تجارية فبسط "بوهارنيه" عليها جميعًا حمايته. استقر الفرنسيون في البيوت الأقوى بناء ليحتموا بها من الأعداء داخل المدينة وخارجها، ولو أنَّ المدينة أصبحت خاوية على عروشها. ويقول الجبرتي إنَّ سكان السويس الأصليين هربوا وأخذوا معهم نساءهم وعمالهم البحريين، وإنَّ الفرنسيين نزلوا على المدينة فنهبوها.

وفي منتصف شهر ديسمبر، وكان ذلك اليوم السابق على اليوم الذي سافر فيه "بونابرت" كي يتفقد السويس، طلب القائد الأعلى من "بوريين" أنَّ يحرر خطابا طويلاً سجل فيه أوامر مفصلة ودقيقة لإعداد القاطية، وهي أرض متقدمة تقع وسط كثبان رملية متحركة، وذلك لما وضعه من خطط من غزو الشام. وقد أمر "بونابرت" بإمداد القاطية باحتياجاتها من دمياط.(١٧) وقد ألح "بونابرت" في طلبه من الجيش تأمين شمال شرقي الدلتا وميناء دمياط، ويعود جانب من هذا الإصرار إلى

القرار الذي اتخذه بالفعل للهجوم على سوريا وحاجته لأن يقدم هذا الإقليم الشرقي له الدعم اللوجيستي.

وفي اليوم التالي، الرابع والعشرين من ديسمبر، سار "بونابرت" في صحبة قوة استطلاع إلى السويس فاتبع طريق قوافل الحج الذي يتخذه حجاج بيت الله الحرام إلى البقاع المقدسة، واصطحب معه إلى جانب الجنود الفرنسيين حاشية من المصريين. ضمت حاشيته المصرية تاجرَ القوافل الشهير أحمد المحروقي، الذي أنقذه من بين أيدي البدو بالقرب من بلبيس في الصيف الماضي، وإبراهيم أفندي، أمين تجارة التوابل، الذي نجا بالكاد من الإعدام بتهمة إثارة الفتنة بعد ثورة القاهرة. كما اصطحب "بونابرت" رجل المال جرجس الجوهري أيضًا.[١٨] كانت تلك الصحبة المكونة من النخبة التجارية والمالية دليلا على أنَّ جانبًا من دوافع "بونابرت" للقيام بتلك الرحلة إلى السويس يتمثل في تأكيد سيطرة جمهورية مصر الفرنسية على تجارة البحر الأحمر وحرصها على توسيع نطاق تلك التجارة. كما قصَد إلى تحصين تلك التجارة ضد أي هجمة مرتدة يقوم بها العثمانيون أو البريطانيون أثناء حملته التي خطط لها في سوريا. مثلت السويس رابطا مهمًا للتجارة المصرية مع شبه الجزيرة العربية، إذ يرسل المصريون القمح من السويس إلى جدة والهضيبة ويتلقون سلعًا قيمة مثل البن.

ولا شك أنَّ فرصة الخروج من القاهرة راقت للكورسيكي دائم الترحال. ويتذكر "دوجوروه" إنه حال خروجهم من المدينة، انطلق القائد الأعلى على جواده ينهب الأرض ويطوي المسافات، وتبعه من معه يحاولون اللحاق به حتى أنهكت خيولهم.[١٩] وفي اليوم التالي دخل الجمع الصحراء، وأقاموا خيامهم ليلا في بقعة منعزلة مهجورة. ارتجف الجنود من شدة البرودة، إذ فقدتْ الصحراءُ في ليل الشتاء ما حفظته من حرارة النهار بسرعة، فأشعلوا نارًا على الطريقة البدوية بحك

عظام الجمال بعضها مع بعض. صحب الفرنسيين زعماءُ قبائل التارابين والبيلي وعلموهم كيف يخلطون في طعامهم أعشابا جافة متوفرة في البيئة المحيطة بهم؛ فالصحراء التي يشير إليها الفرنسيون لم تكن في أغلب الأحوال أرض الكثبان الرملية المهجورة والخالية من أية حياة مما ينطبق على الصحراوات النائية، بل كانت أرضًا لونها بنى وأصفر يميل إلى الخضرة تنتشر بها الشجيرات المعمرة. وفي ليلة السادس والعشرين من ديسمبر، وصل الفرنسيون إلى السويس قبل وصول متاعهم وقد أرهقت خيولهم. ويسجل الجبرتي استنكاره لقيام الجنود الفرنسيين بنهب البن وبضائع أخرى من المدينة قبل وصول القائد الأعلى.

وفي السابع والعشرين من ديسمبر، قام "بونابرت" بجولة في مدينة السويس، وأمر بإنشاء تحصينات بها خشية أن يُنزل البريطانيون جنودهم بها من الهند؛ في حين تقدم إليه من بقي من التجار المحليين بالميناء، وهم قلة، بشكاواهم من النهب الذي وقع على بضائعهم وممتلكاتهم، فوعدهم القائد الأعلى بتعويضهم وطلب منهم قائمة بما فقدوه. وكانت إحدى السفينتين الراسيتين في الميناء، وهي الأكبر حجمًا، قد غرقت بحمولتها من البن المجلوب من اليمن، ويقول الجبرتي إنَّ "بونابرت" أمر "بونابرت" الغواصين الفرنسيين بانتشال البن. وقد أزعج الغزو الفرنسي للسويس تجار موانئ البحر الأحمر فبادر غالب، أمير مكة، بحظر إبحار السفن من جدة إلى تلك الموانئ. لكن "بونابرت" حرَّرَ رسائل إلى أعيان الحجاز في بلاد العرب القريبة يحثهم على استئناف الروابط التجارية مع مصر، كما خاطب شريف مكة نفسه. وعلى الرغم من أنَّ الأمير غالب تلقي إعلان السلطان سليم الثالث بشن الحرب ضد الفرنسيين فإنه أبدى استعدادا حين تلقي رسالة "بونابرت" للتعامل التجاري مع السويس.(٢٠)

ويذكر "دوجوروه" إنه في اليوم الثامن والعشرين من ديسمبر، عَبر "بونابرت" وبعض الجند خليج السويس؛ إذ أتاح لهم انحسار المياه بفعل الجزر أن يخوضوا فيه فلم تعلو المياه عن بطون خيولهم، ونزلوا على البر في شبه جزيرة سيناء على الجانب الآخر من الخليج. شرب الفرنسيون المياه التي تخالطها الملوحة من عيون موسى، وأرسل "بونابرت" العلماء لتفقد المكان فوجدوا آثار مبنى مربع وقناة لنقل الماء إلى ساحل البحر؛ وقد افترض العلماء أنَّ ذلك هو المكان الذي كان يتزوَّد منه تجار البندقية بالماء في الزمن الذي ربطت العلاقات التجارية فيه بين الهند والبندقية عبر البحر الأحمر. كذلك أبدى القائد الأعلى اهتمامًا بالقناة القديمة الجافة التي تزعم المصادر الكلاسيكية أنها ربطت البحر الأحمر بالبحر المتوسط. فهذه القناة توفر آلاف الأميال في رحلة من "مارسيليا" إلى الهند، وإذا قدر للفرنسيين إعادة بناء أسطولهم والتصدي للتفوق البريطاني البحري بكفاءة، فإنَّ قناة مثل هذه قد تسمح لهم أخيرًا بتحدي غريمهم في آسيا. وقد تحدث الجنرال "بيليار" **Belliard** إلى أحد شيوخ الطور الذي سأله عن الغرض من وراء اهتمامهم بجغرافية سيناء، فقال له إنّ تجارة الهند ستعود إلى طريقها القديم إنْ ثبت أنَّ هذا الطريق صالحٌ من الناحية العملية، إذ ستنقل حينذاك منتجات بلاد العرب، والبن، والصمغ إلى النيل وستصبح مصر الخان التجاري للعالم كله وستستعيد مجدها السابق(٢١). اتخذت الهند إذن موقعها في تلك المهمة المحدودة بوصفها الوعد والوعيد معًا على المدى الطويل.

بناء على إصرار "بونابرت"، أمضى الفرنسيون في سيناء في ذلك اليوم فترة طويلة لا تتفق والحكمة، فقد خيَّم الظلام واختفى المرشدون من البدو خشية خوض البحر مساء. وعادة ترتفع مياه الخليج من ثلاثة إلى خمسة أقدام، وتهب الرياح وتسوء الأحوال الجوية، فتختلط التربة الصلبة بالطين الرخو والأرض الرملية

فتنشأ مساحات من الرمال المتحركة. ويمكن لمن يعبر الخليج على ظهر الخيل أنْ يُميز تلك المساحات في ضوء النهار من خلال المياه الرائقة، أما مسافرو الليل فإنَّ طريقهم تكتنفه المخاطر، إذ يمكن أن تغرق الخيول في الطين أو الرمال المتحركة كما يمكن لمياه الخليج أن ترتفع بمعدل سريع بفعل المد. غير أنَّ الفرنسيين، وعددهم ستون رجلاً، لم يشئوا أن تتقطع بهم السبل عن معسكرهم طوال تلك الليلة، فحاولوا العودة محاذرين ومتشبثين بلجام خيولهم.

وفي طريق العودة زلت أقدام جواد "دوجوروه" حين خاض في مياه بلغت ظهره، فسقط فيما يشبه الحوض تحت سطح الماء؛ واضطر الرجل وجواده أن يسبحا إلى الساحل الآخر. ولا تتفق الروايات فيما يخص مواجهة "بونابرت" لحادث مشابه، وهناك رواية تصف كيف اضطر مرافقو "بونابرت" إلى جذبه من شاراته العسكرية المثبتة على كتفيه أثناء عبوره الخليج. وصلت أنباء تلك المغامرة المؤسفة إلى السويس وأثارت قدرًا من الذعر، ولقد تردد في مذكرات الفرنسيين أنَّ "بونابرت" كاد يلقى مصير فرعون فيغرق في البحر الأحمر الذي انطبق عليه. وقد رأى الضباط والجنود غالبًا وجه الشبه ذلك لأنهم شعروا أنَّ مثلهم مثل العبرانيين القدماء، فهم محتجزون في مصر تحت إمرة قائد طاغية يستبدُ بهم مثلما استبدَ خصمُ موسى الملكي بالعبرانيين.

ارتسمت صورة غزو مصر من قبل في مخيلة القنصل الفرنسي "شارل ماجالون"، ولعلها اختمرت في ذهن "بونابرت" نفسه بوصفها خطوة أولى نحو هجمة فرنسية على الهند البريطانية تتمكن معها فرنسا من استعادة ممتلكاتها في الهند. اعتمدت تلك النظرية على حرمان بريطانيا من الهند مما يؤدي إلى خفض مكانتها من إمبراطورية بحرية إلى مجرد جزيرة صغيرة على الساحل الأوروبي قد حَانَ قطافها. ولم يكن من المعقول حشد اثنين وثلاثين ألفا من الجنود الفرنسيين

إلى مصر (ترك "بونابرت" أربعة آلاف منهم في مالطة)، لأنَّ فتح بلد مثل مصر والاحتفاظ به لا يتطلب قوة بهذا العدد. بل كانت خطة "بونابرت" المبدئية تتلخص في التآمر مع زعماء الهند الكبار مثل "تيبو" **Tipu** سلطان "ميسور" **Mysore**، وهم من يواصلون مقاومة الاعتداءات البريطانية على الجنوب، وأن ينقل عشرين ألفا من جنوده إلى الهند عبر البحر الأحمر. وفي وقت متأخر من خريف ذلك العام، وصل سفيرٌ من "ميسور" إلى السويس واتجه إلى القاهرة لمقابلة "بونابرت"، وصرَّح له بأن ما كان يحمله من أوراق سُرِقت منه في جدة ولكنه أكد له أن "تيبو صاحب" يُعِدُّ تجهيزات كبيرة ويركن كثيرًا إلى وصول الفرنسيين، وأنه يرغب في عقد الصلة مع "بونابرت".[٢٢]

وإننا نرى فيما كتبه الضباط في مذكراتهم، في كثير من المواضع، من اقتناع بأنَّ الحملة على الهند باتت مستحيلة، صورة لقرار القائد الأعلى بألا يخاطر بإثارة التمرد بين أفراد جيشه إذا ما أعلن انطلاقه في حملة شرقية شاقة وسابقة لأوانها. ويرِدُ في هذا الصدد تأكيد "لافاليت" أنَّ الهدف السياسي للحملة اصطدم بعقبة كئود حين خسر الفرنسيون أسطولهم، فلم يعد في الإمكان التفكير في نقل الجيش إلى الهند، وإنْ تمَّ ذلك مستقبلا، إذ إنَّ تفوق البريطانيين في البحار كلها صار أمرًا واقعًا لا يقبل النقاش.[٢٣] لكن "بونابرت" لم يفقد الأمل تمامًا في القيام بحملة على الهند؛ ويتذكر "ديزفرنواه" في هذا الصدد تعليق القائد الأعلى على خفة حركة الجمال وسرعتها بعد عودته من الزيارة الاستكشافية للبحر الأحمر.[٢٤] وكان مساعدو "بونابرت" قد تدربوا على ركوب الجمال والانطلاق على ظهورها مسرعين، وقد سابقهم "بونابرت" على ظهر جواده فلم يلحق بهم. ويقول "ديزفرنواه" إنَّ "بونابرت" أضحى متيقنا من أنَّ جيشا يمتطي ظهور الجمال، وهي منتشرة بأعداد كبيرة بمصر، قادرٌ على الوصول إلى الهند بسهولة، وعلى الأرجح فإنَّ قوةً

الغزو ستتجه من الشام على طول نهر دجلة إلى بغداد ومنها شرقا ثم شمالاً إلى "كرمنشاه" **Kermanshah** في إيران، ثم تعبر الهضبة الإيرانية وتدخل أفغانستان ثم تعبر ممر خيبر وتتجه جنوبًا إلى شمال الهند.

ويشبه هذا الطريق خط سير الإسكندر الأكبر في العصر القديم وقد سلكه أيضًا في التاريخ الحديث نادر شاه الإيراني في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الثامن عشر فوَّحدَ إمبراطورية تعتمد على البدو وتمتد من بغداد إلى دلهي. أما خطة "بونابرت"، فعلى الرغم من أنها تتضمن مخاطرة كبيرة ولا تستند إلى احتمالات معقولة، فإنها لم تكن مستحيلة التنفيذ. اتفقت حملتا الإسكندر ونادر شاه في الاستحواذ على الأرض في حملات فائقة السرعة، وفرض الضرائب الباهظة لتغطية نفقات الغزو، والانطلاق في غزوة تالية. وفي كل أرض مفتوحة يسارع المتطوعون للمشاركة طمعًا في الغنائم التي سيحصلون عليها حين تسقط العاصمة التالية. غير أنَّ القائد الفاتح خلف وراءه عقب تلك الانتصارات المتوالية وما تلاها من سلب ونهب أرضًا يبابًا وليس إمبراطورية مزدهرة، ولذا فقد انهار مجال الفاتحين بعد موتهما. وقد تدَّبر "بونابرت" الأمر لا بوصفه خطة محددة وإنما بوصفه خيارًا ضمن خيارات أخرى. وعلى أي حال، فإنَّ أية حملة في غربي آسيا وجنوبيها تتطلب بادئ ذي بدء أنْ ينطلق من سجنه بمصر وأنْ يُخضِعَ الشام.

وفي أواخر شهر يناير كتب "بونابرت" إلى "تيبو" يقول: "إنك بالطبع قد وصلك خبر نزولي إلى ساحل البحر الأحمر يصحبني جيشٌ جرار لا يقهر. وإنني أبادر بمطلب أتوجه به إليك كي تمدني، عن طريق مسقط أو موكا، بتقرير مفصل عن الوضع السياسي من حولك، ذلك لأنني متحمسٌ لإنقاذك من نير الاحتلال البريطاني".(٢٥)

ويرى "لافاليت" أنّ الفرصة الأفضل "لبونابرت" لتخفيف حدة الكارثة التي تمثلت في عزلته بمصر تكمن في استعادة ثقة السلطان سليم الثالث، وكسر التحالف الذي عقده العثمانيون مع البريطانيين والروس. لكن القائد الأعلى اختار المستشرق وعالم الفلك "جوزيف بوشاه" **Jospeph Beauchamp** لمهمة خاصة. وكان "بوشاه" قد أمضى عشر سنوات في بغداد تحت الحكم العثماني حيث شغل عَمُّه منصب القنصل، وكانت الأكاديمية الفرنسية قد كلفته بتحديد خطوط الطول والعرض لبحر قزوين، وهي مهمة حالت الاضطرابات في إيران دون إنجازها حينذاك.(٢٦) وقد تصادف وجوده بمصر حين وصلت الحملة الفرنسية، وكان يتقن المهارات اللغوية، ويتوفر لديه الخبرة بالإقليم على نحو يمكنه من ممارسة مهام الدبلوماسية الدقيقة. وكان "فنتور دي بارادي"، مترجم "بونابرت" إلى اللغة العربية، لا يثق في المترجمين المحليين أو من يُعرفون بالترجمان، ورغب في أن يتمكن الدبلوماسيون الفرنسيون من التفاوض بلغة أهل البلاد.(٢٧)

وقد حدَث أن ألقت سفينة صغيرة مراسيها على ساحل الإسكندرية واحتجز الفرنسيون قبطانها أسيرًا. وكان الرجل من أعيان الآستانة وكان يصطحب معه ولديه. وقد أصر "بونابرت" على أن يستبقي الطفلين بالإسكندرية بوصفهما رهينتين، وطلب من الأب نقل "بوشاه" سرًا إلى العاصمة العثمانية. وافق القبطان على الخطة لحرصه على إطلاق سراحه، وفيما يبدو لثقته أنّ البريطانيين سيسمحون له بالمرور. وكان "بوشاه" مُكلفا بالنزول إلى قبرص أولاً ليجمع معلومات عن الموقف العسكري والسياسي في شرق البحر المتوسط كي يرسلها إلى "بونابرت" في تقرير مخابرات، ثم بالتوجه إلى الآستانة ليتفاوض بشأن إطلاق سراح التجار الفرنسيين والأفراد العسكريين الذين أسروا في سوريا وأن يتابع السماح لهم بالعودة إلى فرنسا أو المجئ إلى مصر. كما كلف "بوشاه" بالتفاوض مع

الصدر الأعظم والإشارة على نحو غير مباشر إلى استعداد الفرنسيين للجلاء عن مصر إذا ما تحقق شرطان: الأول يتمثل في تعهد البريطانيين والروس بألا يسعيان إلى الاستيلاء على ممتلكات العثمانيين في البلقان، والثاني يتمثل في إحياء العثمانيين لعلاقات الصداقة مع فرنسا وقطع علاقاتهم مع بريطانيا وروسيا. وكان "بوشاه" مُحملا بتحذير موَّجه إلى الباب العالي بغزو سوريا في حالة رفض العثمانيين التعامل مع فرنسا. غير أنَّ البريطانيين تمكنوا من أسر "بوشاه" وسلموه إلى العثمانيين الذين حبسوه في الأبراج السبعة مع دبلوماسيين فرنسيين آخرين، فما كان من "بونابرت" إلا أنْ أصدرَ إنذارًا نهائيًا إلى العثمانيين فخيَّرهم بين التفاوض مع "بوشاه" أو غزو سوريا. وهكذا بدأ الغزو.

***

ويذكر "لافاليت" أنه قابل الجنرال "مارمون" حين اصطحب "بوشاه" إلى الميناء في أواخر ديسمبر، وكان الجنرال مسئولا عن أمن الميناء.[٢٨] حينذاك قال الجنرال "للافاليت": "لقد جئتَ في وقت حرج فقد صدر إعلان بتفشي الوباء بين جنودنا"، وأضاف أنَّ الأمر الذي صدر حين وصل الفرنسيون إلى الإسكندرية بحرق ملابس كل من يقضي نحبه بسبب الوباء لم يُنفذ على نحو دقيق، فاستخدم المصريون الأصحاء بعض تلك الملابس مرة أخرى. وحيث إنَّ الفرنسيين ربطتهم علاقات وثيقة ببعض المصريين، فقد أدى الاتصال بهم إلى نشر الوباء بين الفرنسيين. وحقيقة الأمر، أنَّ الجنود الفرنسيين كانوا يعاشرون النساء المصريات، ويقول "مارمون" إنَّ أربعة سقطوا صرعى في اليوم السابق ومن قبلهم ثمانية.

وما هي إلا فترة قصيرة حتى بلغ تعداد صرعى الوباء ثلاثين من الجند الفرنسيين والمدنيين المصريين في اليوم الواحد. حينذاك أصدر الجنرال قراره

باحتجاز الفرنسيين فيما يشبه الحجر الصحي بعيدًا عن السكان المحليين. ويبدي "لافاليت" تشككه في عزل الجند بعيدًا عن النساء المصريات فيقول إنهم مقتنعون أنَّ الوباء أمرٌ لا مفر من المخاطرة بالتعرض له، ولذا فقد ظلت علاقات الجنود بالمصريات مستمرة على الرغم من الأوامر المشددة. ولكن مع مضي الوقت، انتشر الخوف بين الفرنسيين فشنوا حملات من حين إلى آخر استهدفت العاهرات؛ ويقول مسئول المطبعة، جالان **Galland**، فيما بعد إنَّ من تضبط منهن في صحبة الفرنسيين توضع في جوال ويلقى بها في البحر.(٢٩) لم تكن هذه الإجراءات سوى مظهر لهيستيريا جماعية تنطلق من حين إلى آخر فلم تنتظمها سياسةٌ منهجية، ولذا فلم يكن لها أدنى تأثير على تجارة الجنس. ويتذكر "لافاليت" الأوامر التي طلب إليه نقلها إلى أحد الإداريين العسكريين يُدعى "ميشوه" **Michaud** وعشرة رجال كي ينتقلوا من رشيد إلى الإسكندرية. وبعد يومين، صار "ميشوه" وحيدًا بعد مصرع زملائه كلهم. وكان أحدهم، ويُدعى "رينوه" **Renaud**، قد ذهب إلى المدينة لتوقيع أوراق تتيح له تسلم مخصصاته. وفي صباح اليوم التالي شوهد وقد زاغت عيناه، وتضخم لسانه، وتفصَّد عرقا غزيرًا، والتهبت مفاصله ألما. وجاء الطبيب ليفحصه بعصا على بعد، وأوصى له بالماء البارد. وحين حانت ساعة النهاية، طلب "رينوه" ورقة وقلمًا ليكتب رسالة إلى عائلته.

حاول الفرنسيون الحد من انتشار المرض باللجوء إلى الحجر الصحي بل ولغة الجسم، إذ يسجل الكابتن "تورمان" **Thurman** في مذكراته التي دوَّنها في أبي قير في أواخر يناير ما يلي: "إنَّ الشك يسيطرُ على لقاءاتنا، وكذلك الحرص ألا يمس بعضنا بعضًا ولا نقف بحيث نستقبل الريح إذا ما اجتمعنا بآخرين؛ فإذا ما اجتمعنا، ولا يحدث ذلك إلا في حالات الطوارئ، فإننا نجلس في دائرة متباعدين بمقدار بضعة أقدام من بعضنا بعض. كما أننا نعالج الأوراق المالية، والأوامر،

والخطابات بالخل ولا نمسك بها إلا مستعينين بملقاط خشبي".[٣٠] ويسجل "ميليه" من رشيد أعراض المرض الذي يبدأ بحمى شديدة الوطأة، يعقبها صداع مؤلم، وبروز الغدد الليمفاوية في المنطقة حول العانة أو في غيرها من المفاصل حتى تبلغ حجم البيضة. فإذا ظهرت تلك الغدة فقد قضي الأمر فلا يُحسب المريض في عداد الأحياء، ولكن إذا انقضت أربعة أيام تجدد الأمل في نجاته، غير أنَّ ذلك نادرًا ما يحدث. ويضيف "ميليه" أنَّ الفرنسيين فقدوا العدد الأكبر من رجالهم بسبب ذلك المرض.[٣١]

وما لبث انتشار المرض في الإسكندرية والموانئ أن بات ينشر الرعب، فقد تساقط الأطباء الفرنسيون واحدًا بعد الآخر. وقد أطلق أحد الضباط مزحة حين انتشرت أنباء الوباء قال فيها إنَّ الجنود الذين يطاردون مراد بك في صعيد مصر"يخشوننا أكثر من خشيتهم المماليك". وسرعان ما صار دخول المستشفيات العسكرية الفرنسية صغيرة الحجم أمرًا مستحيلا، فاستعان المرضى القادرون على الإنفاق على علاجهم بالأطباء المسلمين (الحكماء) الذين يتقاضون مبالغ باهظة، أو الأطباء الذين يتبعون الوسائل التقليدية في العلاج، وهي طرق متوارثة عن الطب الإغريقي القديم، للعناية بهم. وكان كتاب "القانون" لابن سينا، وهو طبيب وفيلسوف مسلم عاش في العصر الوسيط، يُدرَّس في مدارس الطب الأوروبية في أواخر القرون الوسطى وبدايات العصور الحديثة. وقد انتهى بعض المفكرين في العلوم الطبية بين المسلمين إلى أنَّ الأوبئة تنتشر بالعدوى، فطوروا بذلك ما جاء به الإغريق من نسبة الأوبئة إلى المناخ أو النجوم. وهكذا لم تكن الهوة بين الطب في الغرب والشرق واسعة في العقد الأخير من القرن الثامن عشر مثلما قد نتصور اليوم، كما أنَّ الحكيم المسلم كان يتمتع بميزة الخبرة العملية في تعامله مع هذه الأمراض.

ولا يصح أن نفترض أنَّ الفرنسيين أصابهم ما نسميه اليوم بالطاعون، كما لا يصح أن نتصور أنهم أفلحوا في إدراك المصادر التي انتشر منها المرض؛ فمن المحتمل أنَّ الجنود تعرضوا لعدة أمراض تشمل الدرن، والجمرة الخبيثة **scrofula**. أما فيما يتعلق بالطاعون، فهناك ثلاثة أنواع تتصل بالغدد الليمفاوية، والرئتين، والدم؛ وبصفة عامة، فإنَّ الطاعون ينتقل

عن طريق البراغيث التي تسكن أجسام الحيوان مثل الفأر. وقد زعم الجنود الفرنسيون أنهم أصيبوا بالطاعون وهو مرض يظل في مرحلة الحضانة لعدة أيام. فإذا كان الأمر كذلك فقد أصابتهم العدوى عن طريق لدغات البراغيث التي تعرضوا لها في بيوت الدعارة أو في المساكن القذرة المزدحمة التي تسكنها الفئران. كما يمكن للبكتيريا التي تسبب الطاعون أن تعيش في التربة، ويمكن لعدوى الطاعون الرئوي أن تنتقل سريعًا في خلال ساعات، ويمكن للمرض أن ينتقل عن طريق الجو، أي استنشاق الرذاذ من أنفاس الشخص المصاب. وبما أنَّ "لافاليت" لم يذكر في وصفه لمرض "رينوه" أية غدد ليمفاوية ملتهبة أو متورمة مما يميز الطاعون، فإنَّ الأعراض التي ذكراها تتوافق إلى درجة كبيرة مع النمط الرئوي للمرض الذي أصاب الفرنسيون بالعدوى إما من عشيقاتهم أو من الرذاذ الناتج عن سعال زملائهم. ولم يكن لدى الجنود الفرنسيين أجسامٌ مضادة تحميهم من أمراض مصر المتوطنة، فهم لم يتعرضوا من قبل لمثلها.

ويأسف "لافاليت" لأنَّ أنباء مرض الجنود الفرنسيين في الإسكندرية شجعت البدو خارج المدينة على معاودة هجماتهم. ويتميزُ هؤلاء الرعاة بأنهم محصنون إلى حد ما من الأوبئة لأنهم يعيشون منعزلين عن مناطق الكثافة السكانية بعيدًا عن ناقلات الأمراض مثل الفئران، وعادة ما يصلهم الخبر اليقين عن انتشار الأوبئة في المدن فينتهزون الفرصة ويغيرون عليها لنهبها. وقد تلقى "كليبر" في دمياط رسالة

من "بونابرت" أثناء إعداده العدة للحملة على الشام تكشف أثر ظهور المرض على تلك الخطط، فحولها إلى كبير أطباء الفرقة قائلاً: "إنّ الرسائل التي تلقيتها من المنصورة تجعلني أحشى من خطورة ضم وحدة المشاة الخفيفة الثانية، التي يبدو أنَّ المرض المعدي قد تفشى بين رجالها، مع الفرق الأخرى. ولذلك فإني أريدك أن تجهز تقريرًا مفصلا عن موقف الفرقة، وإذا رأيت أن تلك الوحدة يمكن أن تنقل العدوى إلى الفرق الأخرى، يمكنك أن تعيدها إلى المنصورة".(٣٢)

***

أدى عزوف الأطباء المتزايد عن التعامل مع من سقط مريضًا من الجنود إلى إخلالهم بواجبات مهنتهم الأخلاقية، فقد وجد الأطباء أنفسهم محاطين من كل جانب بأولئك المرضى، كما رأى هؤلاء الأطباء، الذين يعتقدون أنَّ المرض مُعدٍ، أن رعايتهم للمرضى هو بمثابة حكم بالإعدام عليهم أنفسهم. انزعج القائد الأعلى مما يجري فاتخذ إجراءً حاسمًا؛ فقد عرف "بونابرت" أنَّ "بوييه"، مدير قسم الصيدلة، رفض العناية بمرضى الوباء، فأصدر أمرًا بإلزامه بارتداء ثياب النساء والطواف به في المدينة على ظهر جحش يحمل لافتة كتِب عليها: "إنه لا يستحق أن يكون مواطنا فرنسيًا، إنه يخشى الموت" وأمر به فسُجن ثم أعيد إلى فرنسا.(٣٣)

اتخذ "مارمون" إجراءات سريعة فنقل الجنود الفرنسيين بعيدًا عن داخل الإسكندرية، وأقام مستشفى للمتابعة في جامع كبير، وافتتح مستشفي خاصًا لمن تظهر عليه أعراض المرض بوضوح مثل انتفاخ الغدد الليمفاوية. كما أرسى "مارمون" نظاما لمراقبة نشطة للمدينة والميناءين والمستشفى.(٣٤) ومع ذلك فقد فاقت خشية الفرنسيين من الحمى والتهاب الغدد الناتج عن الوباء خشيتهم لقائدهم الأعلى وما يروى عن شدته الأسطورية. أما "بونابرت" فإنه حين يفشل في سياسة

الشدة، فإنه يلجأ كعادته إلى الدعاية فيسرف فيها إسرافا يدعوه إلى إنكار تفشي المرض. وقد حرر خطابًا إلى "دوجا" في الثاني من فبراير جاء فيه ما يلي: "ما زال المرض الذي أبلغتك به موجودًا بيننا، ولكن تطوره لا يثير قلقا، فقد شكلت لجنة من طبيبين من أهل البلاد وطبيب من المستشفي قامت بفحص المرضى الذين يعانون الحمى وانتفاخ الغدد. وقد انتهوا إلى أنّ تلك الأعراض لا صلة لها بالوباء، وأنّ البرد وسوء التغذية وخصوصًا الإسراف في شرب عصير التمر هي الأسباب الأساسية للإصابة به".(٣٥) ومن الصعب تصور أنّ "دوجا" أو غيره التفتوا إلى ما خرجت به تلك اللجنة من آراء التي يناقضها قراره برفض السماح للمرضى من جنود المنصورة بالاختلاط بالفرق الأخرى. أما ما أكده "بونابرت" من محاصرة المرض حينذاك فهو الحقيقة الوحيدة فيما جاء في رسالته. ويتمثل المغزى الرئيسي في تفشي المرض في الإشارة إلى المخاطر الصحية التي باتت تهدد الجيش الفرنسي في الشهور والأعوام التالية.

***

نظر شيوخ الجزيرة العربية إلى مصر بوصفها جارة قريبة ومدخلاً إستراتيجيًا للسيطرة على البحر الأحمر والأقاليم المتاخمة له وكذلك على الحرمين الشريفين. وعلى الرغم من أنّ التجار والأعيان الذين يعتمدون في أعمالهم على التعامل مع مصر تعاونوا في كثير من الأحيان مع النظام الجديد مما أثار غضب الحكومة العثمانية الضعيفة والأسطول البريطاني، فإنّ الملتزمين دينيًا منهم في هذا الإقليم نظروا إلى الغزو الفرنسي بغضب بالغ. ويروي لنا المؤرخ اليمني لطف الله جحاف قصة رد الفعل العربي للغزو الفرنسي وأعمال البطولة التي قام بها متطوعون ذهبوا للجهاد في صعيد مصر.(٣٦) يصف جحاف وصول "بونابرت" إلى مصر فيقول إنّ يد الكفر امتدت إلى مصر وقهرت مسلميها مما أشاع فسادًا كبيرًا.

وقد بلغت المراقبين في اليمن روايةٌ مختلطةٌ عن الغزو تناقلهـا عبـر الـشائعات الحجاج وبحارة البحر الأحمر. وينسب جحاف الحملة الفرنسية إلى تخطيط لتـاجر فرنسي كبير لقى سوء المعاملة على أيدي الأتراك المتمصرين، في إشارة منه إلى "شارل ماجالون"، غير أنه وصف القنصل بأنه ابن ملـك فرنـسا، كمـا قـال إنَّ "ماجالون" قد سجن، ثم أطلق سراحه فعاد إلى فرنسا وتقدم بـشكواه إلـى سـلطان البلاد، "بونابرت"، الذي ما أن سمع بثراء مصر حتى جهز خيوله وجماله، وانطلق في سفن يقصد مصر وقد أهمل كل شيء سواها.

يسرد جحاف رواية من نسج الخيال عن محطة "بونـابرت" الأولـى فـي الأستانة ليحصل من السلطان سليم الثالث على إذن لمروره بمصر في طريقه إلـى الهند، وعن رفض السلطان طلبه في بادئ الأمر إلى أن أظهرت زوجة الـسلطان الأولى تجاوبًا مع مطلب "بونابرت" واستجابت له. غير أنَّ "بونابرت" غزا مالطـة لعداوته للبريطانيين وهو أمرٌ تنبأ به القـرآن. ثـم انطلـق "بونـابرت" ليخـضع الإسكندرية مما أثار انزعاج السلطان الذي أعد الجيـوش لتـسلك طريـق الـشام وتتصدى لتلك الهجمة على أراضيه. وعلى الرغم من افتقار رواية جحـاف للدقـة واحتوائها على عناصر من الخيال الشعبي الذي يذكرنا بألف ليلة وليلة مثل حكايـة الإمبراطورة طيبة القلب، فإنَّ مجمل الرواية لخصت ديناميات الصراع إلـى حـد مُرْضٍ. ولعل الافتقار إلى الدقة يرجع إلى ما سرده "بونابرت" نفسه من ادعاء بأنَّ سليم الثالث بعثه إلى مصر.

ويحكي الجبرتي وقع أخبار غزو الفرنسيين لمصر على أهل الحجاز، ففـي مكة اتجه الناس إلى الحرم الشريف، وقد علا صراخهم وتعلقوا بأستار الكعبة التي تزينها فمزقوها.[٣٧] وعادة ما تصنع كسوة الكعبة في مصر، وتصل مكة مع قافلـة الحجاج كل عام. وقد أعلنت الحشود في مكة بفعلتهم هذه أنَّ التوازن الكـوني قـد

اختل، وأنَّ الإسلام نفسه قد فقد دُرّة من أجمل ما تزيَّن به. ويقول جحاف إنَّ شيخًا يُدعى محمد الجيلاني، من شمال إفريقيا، شرع يهيج النفوس داعيًا إلى الجهاد ضد الفرنسيين. وقد سعت النساء أيضًا للاستماع إلى دعوته للجهاد وتبرعن بمجوهراتهن، ونفائسهن، بل وملابسهن لتمويل ذلك المشروع. وكان الشيخ الجيلاني يتلقى المساعدة في دعوته من محمد با إصلاح الحضرمي من جنوب اليمن، ومن مساعدين كثيرين قدموا السلاح بما في ذلك البنادق. كما كرَّس رجالٌ ينتمون إلى عائلات بارزة من علماء الدين أنفسهم لتلك القضية، نذكر منهم محمد السندي وهو حفيد محمد حياة السندي، المعلم العظيم الذي تخصص في سنة الرسول وهو الذي أسهم أيضًا في نهضة الحركات الإسلامية الإصلاحية في القرن الثامن عشر.[٣٨] أما شريف مكة، الأمير غالب، الذي مد له "بونابرت" أواصر الصلة والذي شرع في التعاون التجاري مع الفرنسيين، فقد هادن الطرفين وقدم التبرعات إلى الشيخ الجيلاني.

بلغت أخبار قتال الفرنسيين لقوات مراد بك مكة في ديسمبر، ونقلت الأخبار نبأ القتال الدائر على الجانب الآخر من البحر الأحمر في مواجهة الحجاز، وكذلك نبأ هزيمة قوات مراد بك أمام الفرنسيين الذي أرغموا قواته على التقهقر. وكان جيش الجنرال "ديساي" يطارد حاكم مصر السابق لشهور عدة بعد أن ألحق به نكسة شديدة في سديمان في أكتوبر.[٣٩] ولكن مراد بك لم يهزم هزيمة نهائية؛ إذ واصل القتال وهو ينسحب جنوبًا على طول نهر النيل. كان "ديساي" يقود قوة من ألف وخمسمائة رجل، ولكنه جيشه خلا من الخيالة، ولذلك كلما كسب جولة كان الأمراء والمماليك والبدو والفلاحين يختفون من أمامه. وقد استمر "بونابرت" بلا كلل ولا ملل في سياسة مصادرة الخيول من الدلتا مما سمح له بتشكيل وحدة من

الخيالة من ثلاثمائة رجل أرسلهم جنوبا مع تعزيزات من المشاة تحت قيادة الجنرال "دافوه" في ديسمبر.

ويذكر محررو المذكرات أنَّ مراد بك نفسه وطبقة الأشراف، وهم من يزعمون أنهم ينحدرون من نسل النبي محمد في صعيد مصر، اتصلوا بأهل مكة وطلبوا متطوعين للانضمام إليهم. ويقول الجبرتي إنَّ ستمائة من المجاهدين تجمعوا من بلاد العرب وأبحروا عبر البحر الأحمر إلى ميناء القصير المصري الذي استعصى على الفرنسيين الاستحواذ عليه. وقد انضم إليهم متطوعون آخرون من ميناء ينبع الذي يقع إلى الشمال من جدة، فزاد عدد المتطوعين إلى ألفي رجل. لحق هؤلاء المجاهدون بمماليك مراد بك، وانضم إليهم أيضًا حسن بك قودافي ومماليكه من إسنا؛ كما تلقى مراد بك تعزيزات من النوبة. وقد رفع وصول أولئك جميعًا الروح المعنوية للمسلمين في صعيد مصر. وبعد أن أحرز "ديساي" نصرًا في طهطا في يناير، قبع بجرجا ينتظر أن يلحق به الأسطول الفرنسي المزود بالتموين؛ إذ إنه تقدم عليه كثيرًا نتيجة لتأخر سفنه التي تبحر عكس اتجاه الريح.

وقد عبَّر "بيليار" عن تشككه القوي في الشائعات التي تتحدث عن وصول قوة من المتطوعين العرب، فكتب في العاشر من يناير: "لا يزال سكان البلاد متأكدين من وصول تعزيزات لمراد بك من القصير. ولا شك أنها شائعة ينشرها هو نفسه لتشجيعهم على التمرد والعصيان؛ إذ لا يُعقل أن يأتي الجند من مكة، فما المصلحة التي يجنونها من القيام برحلة طويلة كهذه؟ ومن يساندون؟ رجالٌ عادوا الأتراك واشتبكوا معهم في حروب على نحو شبه دائم.[٤٠] وقد تشبع "بيليار" وغيره من الضباط الفرنسيين الذين يعبرون عن آراء مماثلة بدعاية "بونابرت" عن البكوات بوصفهم متمردين على السلطان العثماني فلم يخطر ببالهم أنّ تكاتف المسلمين وسخطهم على انتهاكات الكفار قد تؤدي إلى تكوين حركة جهادية ضد

الفرنسيين في الحجاز. وقد وعى الكابتن "ديزفرنواه" هذا الدرس فيما بعد حين كتب يقول: "استفاد مراد من بطء الفرنسيين في التفاوض مع عرب جدة وينبع، مما شجعهم على عبور البحر إلى القصير والانضمام إليه للقضاء على الكفار الذين أتوا لتدمير دين محمد".

وقد دارت رحى معركة في بلدة صغيرة في صعيد مصر تدعى سمهود.[٤١] وكان مراد بك لا يزال يأتمر على ألف وخمسمائة أمير ومملوك، وقد أمدَّه حسن بك بأربعمائة آخرين، بينما جاء حسن آخر من ينبع على رأس قوة من ألف أو ألفي مجاهد من بلاد العرب. انضم أيضًا إلى مراد بك سبعة آلاف من البدو يصحبهم ثلاثة آلاف من القوة غير النظامية للمشاة المصرية. وفي الثامن عشر من يناير هبت ريحٌ مواتية في الوقت المناسب لتدفع بالأسطول الفرنسي الذي يحمل الإمدادات فوصل جرجا بحمولته. وفي اليوم الواحد والعشرين، بينما كان "ديزفرنواه" يتقدم، رأى جماعة كبيرة من الأقباط كان قد أرسلهم من قبل لتحصيل الضرائب يهربون في اتجاهه. أبلغه أولئك أنَّ مراد بك ومسانديه اتخذوا مواقع محصنة في قرية سمهود. وكان الأقباط وهم كثيرو العدد بصفة خاصة في صعيد مصر يقدمون دعمًا أساسيًا للفرنسيين في تلك المنطقة من البلاد.

كتب "ديساي" فيما بعد "لبونابرت" فأخبره أنَّ طليعة جيشه المكونة من الفرقة السابعة من الهوسار **Hussars** دفعت في المقدمة بمجموعتين **platoons** بقيادة الكابتن "ديزفرنواه"، فوقع عليهما هجوم مفاجئ من جنود مكة يدعمهم بعض المماليك. ويكشف ذلك أنَّ المتطوعين الذين يحملون حرابًا في الأغلب كانوا يسيرون على الأقدام في مواجهة الخيالة الفرنسية الخفيفة. تمكن الفرنسيون من دفعهم للخلف فلما وجدوا أنفسهم محاصرين قاموا بمناورة فقتل الفرنسيون بسيوفهم

عشرين منهم في لمح البصر في حين تمكن المجاهدون من إصـــابة أحـــد رجـــال الخيالة الفرنسية برصاصة من إحدى بنادقهم.

أمر "ديساي" جنوده بعدئذ بتشكيل مربعين كبيـــرين ووزع المدفعيـــة علـــى جانبيهما والخيالة فيما بينهما وزحف على سمهود، ثم كلف مجموعتين **companies** من حاملي البنادق تدعمهم مجموعة هوسار من الخيالة الخفيفة يقودهما "ديزفرنواه" بالهجوم على القرية التي يدافع عنها أشراف مكة. ويسجل "ديساي" في مذكراته أنّ العدو اتخذ مواقعه على ضفة قناة، وأنهم أبدوا مقاومة شديدة فقتلوا أحـــد حـــاملي البنادق وجرحوا "راب" **Rapp**، وهو مساعد "ديساي"، أما "ديزفرنواه" فقـــد تلقـــى جرحًا قطعيًا من خنجر في روابط ساعده مما أرغمه على حمل سيفه بيده اليسرى وهو يكافح للخروج من أرض المعركة. وقد نجح في توجيه جواده إلى منتـــصف أحد مربعي المشاة فوصل هنالك ملطخًا بالدماء تعلو جسمه عشرات الجروح.

ثم يزهو "ديساي" حين يروي كيف دارت الدائرة على المجاهدين، فقد انطلق حاملو البنادق حين اقترب العدو في مرمى النيران في هجمة بالأسلحة المثبتة فـــي بنادقهم، وكذلك بكعوب البنادق التي استخدموها بمهـــارة للقتـــل فـــأردوا ثلاثـــين صرعى. يقول "ديساي": "ثم صرنا أسياد القرية". أما بقية المعركة فأحداثها يمكـــن التنبؤ بها؛ إذ أثبت مربعا المشاة والمدفعية أنها تشكيلات منيعـــة تستعـــصي علـــى هجمات خيالة العدو. وهكذا تمكن "ديساي" وقوة تبلغ ألفي وخمسمائة رجل بما فيهم الخيالة الخفيفة من الانتصار على نحو لم يُـــتح لـــه مـــن قبـــل. أطلـــق الأتـــراك المتمصرون نيران بنادقهم عشوائيًا وانطلقت صرخات الحرب عالية من حناجرهم، غير أنهم قوبلوا بوابل من رصاص البنادق وبطعنات من أسلحتها الحادة فضلا عن عاصفة من القنابل فتقهقروا نحو الصحراء الإفريقية. ولمح "ديساي" و"دافوه" مراد

على رأس خيالته في موقع مكشوف فهرع "دافوه" نحوه يتعقبه مع الهوسار الفرنسيين، ولكن البكوات ومماليكهم اختفوا من أمام ناظريهم.

لم يُضف المتطوعون المَكيّون وزنا يُذكر في ميدان القتال، ولكنهم بوصفهم مدنيين غير مدربين لم يجلبوا العار على أنفسهم أيضًا. ولكنهم مع ذلك رفعوا الروح المعنوية لمراد وحلفائه الذين استمروا في حربهم ضد الاحتلال الفرنسي في الصعيد. كما لم يكن أولئك المتطوعون من المجاهدين آخر من جاء من الحجاز إلى مصر. أما مغزى قدومهم إلى مصر فإنه لا يقتصر على احتمال أن يسقط علماء الدين والأهالي بحماستهم المجردة جيشا أوروبيًا حديثا، بل يتخطى ذلك ليشير إلى أنَّ أولئك المجاهدين قد مهدوا الطريق لتحالف العالم الإسلامي ضد الفرنسيين. فالآستانة لا مكة تقود العالم الإسلامي سياسيًا، والسلطان سليم الثالث يحتل موقعًا يفضل موقع الجيلاني لجمع المجاهدين المدربين والمسلحين تسليحًا جيدًا الذين يمكنهم التصدي للجيش الجمهوري. كذلك كان السلطان سليم مستعدًا لعقد تحالفات مع إمبراطوريات مسيحية قوية وهو أمرٌ لم يكن ليخطر للجيلاني ببال، ولكنه زاد من فعالية الرد بدرجة كبيرة. وهكذا فإنَّ فرص النجاح توفرت لإيمان ثابت ومتحضر وعملي على نحو يفوق فرصة الحماسة الدينية وحدها.

وجَّه "بونابرت" عشرة آلاف جندي في أوائل شهر فبراير للهجوم على قوات الجزار باشا في سوريا، كذلك من أجل الاستعداد الجدي لمواجهة الجهاد الذي أعلنه السلطان العثماني. وكانت التحديات الأخرى التي واجهها "بونابرت" ذلك الشتاء في مصر من تمرد عنيد للبدو ورفض الفلاحين للخضوع للضرائب الباهظة والمصادرة أو انتشار الوباء والأمراض المعدية بين جنوده لم تكن عقبات تخطاها بل نذرًا لما هو قادم مستقبلا. كما أصبح من الواضح أنَّ العامة في مصر لا يمكنهم وحدهم التخلص من الاحتلال الفرنسي وإن بذلوا أقصى طاقاتهم، ولكنهم مع ذلك

قتلوا بضعة آلاف من الجنود ويمكنهم على مر الوقت أن يوقعوا خسائر كبيرة بالفرنسيين عن طريق الاستنزاف. أما الفرنسيون فقد قتلوا على الأرجح اثنى عشر ألف مصري بعد مضي ستة أشهر من الاحتلال. ويتمتع الفرنسيون بهامش يميزهم بالمقارنة بالمصريين، وذلك فيما يتصل بالتنظيم والتخطيط ونوع السلاح، ولكنه هامش بسيط ومع ذلك كاف على المدى المتوسط.

رأى "بونابرت" في نفسه أنه الرجل الذي أعاد تشكيل مصر، غير أنّ أثره لم يخدش سوى ظاهر الأمور حتى تلك اللحظة. كان يتكبد ديونا كثيرة ويتأخر في دفع رواتب جنده لشهور عدة، كما أفلتت منه الشرعية الإسلامية التي سعى للحصول عليها بمنطق خيالي وذلك كلما غاب عن مجالس علماء الدين. أما الدلتا فكان عدم الاستقرار يسودها وبخاصة في غربيها؛ كذلك كان عدم الاستقرار يسود مجلس الأولياء والضجة التي يثيرها المتنبئون بنهاية الزمان يتردد صداها في خارج البلاد. وطالما تمكن مراد بك من مرواغة "ديساي"، ظل صعيد مصر والبحر الأحمر نقطة ضعف جمهورية مصر الفرنسية. وهكذا بات جيش "بونابرت" في عزلة عن العالم دون أسطول وفي مواجهة استنزاف مستمر من المعارك، والمرض، والتخريب. ولذلك صارت فرصته الوحيدة لانتزاع الفوز من قبضة الفشل، لا في الاستمرار في تأمين مصر بل في الانعتاق من أسرها، والبحث عن وسيلة لتحييد التهديد القاتل لمشروعه، وهو التهديد الذي يتمثل في التحالف الدولي الثاني ضد فرنسا.

***

قاد "بونابرت" حملته البالغ عدد أفرادها عشرة آلاف رجل ضد الجزار باشا الذي كان يستعد بدوره لغزو مصر الفرنسية في أوائل شهر فبراير. وكان جيش

"بونابرت" قد استولى على العريش على ساحل المتوسط، وهي بمثابة البوابة لشبه جزيرة سيناء وسوريا العثمانية، في العشرين من فبراير بعد حصار دام أسبوعًا، ثم ما لبث أن استولى على غزة بعد خمسة أيام. وفي أوائل شهر مارس، حاصر الفرنسيون يافا وألحقوا العار بالعسكرية الفرنسية لما ارتكبوه من مجزرة بعد سقوطها في الثامن من مارس، بل وقع منهم ما هو أفظع من المجزرة ذاتها حين أمر "بونابرت" بقتل عدة آلاف من أسرى الحرب العثمانيين غير المسلحين. وفي الثامن عشر من مارس وقف الفرنسيون أمام قلعة عكا.

لم يستطع "بونابرت" أن يجلب معه المدفعية الثقيلة في رحلته البرية، وقد حاول أن يشحن قطعًا كبيرة منها من دمياط غير أنَّ سفن النقل الفرنسية وقعت في أيدي البريطانيين فلم تصله. لذلك لم يستطع "بونابرت" الذي استعان بالمدفعية الخفيفة وحدها أن يفتح فجوة في جدران القلعة التي أنشأها الصليبيون، والتي احتمى بها الجزار باشا وجنوده. واصل "بونابرت" دك الحصن بعناد وباستهتار بما يفقده من أرواح جنوده، إذ إنه أدرك أنَّ الأمل في نجاح حملته على الشرق صار على المحك. دفع القائد الأعلى بجنوده نحو القلعة ما لا يقل عن ثلاث عشرة مرة، وفي كل مرة يصدهم جيش الجزار الذي استوعب الأساليب العسكرية الجديدة مؤخرًا وتلقى تدريبًا على النظام الغربي؛ أضف إلى ذلك مساندة البحرية البريطانية له. وقد قضى كثيرٌ من الضباط الذين قابلناهم حتى الآن نحبهم وهم يقاتلون في سوريا، بما فيهم الكابتن المهندس "هوراس ساي" و"الجنرال كارافيللي" ذو الساق الخشبية.

وبحلول أواخر شهر مايو تقبل "بونابرت" على مضض هزيمته أمام عكا، فقواته لم تستطع اقتحام القلعة وبالتالي لم يتوفر لها الأمل في غزو سوريا. عاد "بونابرت" إلى القاهرة وقد استنفدت المعارك والوباء قوة جنوده، ولكنه نشر دعاية

تتحدث عن النجاح الباهر لحملته. طاف القائد الأعلى وجنوده المنهكون حول العاصمة المصرية في استعراض للنصر، وأصدر أمرًا آخر من أوامره التي يتقرب بها إلى المسلمين بوصفه السلطان الأعظم يعِدُ فيه بتشييد جامع كبير لتخليد ذكرى انتصاره.

وفي أواخر شهر يوليو، أنزل الأسطول البريطاني قوة عثمانية من خمسة عشر ألف رجل في أبي قير بالقرب من الإسكندرية. وقد تمكن الجنرال "موراه" من صدها ولكن ذلك كلفه عدة مئات من أرواح الجنود الفرنسيين. أسفرت حملة أبي قير عن كشف الطريق نحو المستقبل الذي سيواجه الفرنسيون المحصورين في مصر، إذ اتضح أنهم سيتعرضون إلى مساع بريطانية وعثمانية متتالية لإزاحتهم، وكذلك لمعاناة يتكبدونها من حرب استنزاف مستمرة. لقد خسر جيش الشرق ما يقرب من ستة آلاف رجل منذ بدأت الحملة. ومع ذلك فقد احتفلت فرنسا في صيف ذلك العام بانتصار أبي قير بوصفه علامة أخرى للمجد العسكري.

كان "بونابرت" قادرًا على تمييز الصفقات الخاسرة، ولذا فقد انسلّ خفية من مصر في أغسطس تاركا وراءه مذكرة قصيرة موّجهة إلى الجنرال "كليبر" الذي فوجئ بما جاء فيها من تحمله مسئولية مصر. كذلك تلقت حبيبته، بولين فوريه، مفاجأة مماثلة حين عرفت بسفره دون أن يصطحبها معه. وصل الكورسيكي إلى فرنسا في التاسع من أكتوبر وانطلق مباشرة إلى "باريس" حيث بدأ في نسج مؤامراته. وفي نوفمبر من عام ١٧٩٩ وصل إلى سدة الحكم من خلال انقلاب فتولى منصب القنصل الأول. كذلك تجددت أواصر الود بينه وبين "جوزفين".

وفي مصر، تمكن "كليبر" أخيرًا أن يقنع مراد بك بالتحالف مع الفرنسيين، ولكن المملوك الجيورجي مات متأثرًا بالوباء بعدئذ بوقت قصير. كما اغتال شابٌ

مصريٌ غاضبٌ "كليبر" في صيف عام ١٨٠٠، ليتولى من بعده "عبد الله مينو" الذي جمع بين انعدام الكفاءة والقسوة الوحشية. كذلك نجح التحالف العسكري العثماني البريطاني في طرد جيش الشرق من مصر في عام ١٨٠١، ومُنِح الجند الفرنسيون حق العودة الآمنة إلى فرنسا على السفن البريطانية. وقد عاد إلى فرنسا كثير من كتاب المذكرات التي ورد ذكرهم في كتابنا على هذا النحو المهين بما فيهم الكابتن "مواريه" (الذي فقد حبيبته زليمة)، والكابتن "ديزفرنواه"، ومصمم الأزياء العسكرية اليعقوبي "فرانسوا برنوييه". أما "بولين فوريه" فقد هربت من مصر في عام ١٨٠٠ بعد أن فشلت محاولة سابقة لها للهرب، وبعد محاولة مزعومة للتقرب من الجنرال "كليبر"، ثم توجهت إلى البرازيل لتبدأ هناك العمل في تجارة الأخشاب. وحين عادت إلى فرنسا في عام ١٨٣٧ استقرت بها حتى تقدم بها العمر.

وقد عاش إبراهيم بك ليرى نهاية حكم البكوات في مصر على يد محمد علي باشا، وهو الضابط الألباني العثماني الذي أصبح فيما بعد نائبًا عن السلطان العثماني في مصر. وقد تخلص محمد على من معظم ما تبقى من المماليك في مذبحة القلعة في عام ١٨١١، وشرع في تطبيق سياسات جديدة لحكم مستبد حديث، صمَّمَ بعضها على نمط سياسات "بونابرت". أما إبراهيم بك فقد مات خامل الذكر في عام ١٨١٨.

إنَّ تجربة "بونابرت" بمصر شكلت سياساته التالية على نحو يفوق ما يقر به المؤرخون الأوروبيون بصفة عامة. ففي عام ١٨٠٤ توَّج "بونابرت" نفسه إمبراطورًا وهو منصب يليق بحكام الشرق الأوسط لا بفرنسا الثورية. كذلك تأثرت علاقته سلبًا بزوجته "جوزفين" التي أصبحت الإمبراطورة (إلى أن طلقها في عام ١٨١٠) نتيجة لما جرى عليه من عادات، اكتسبها أول مرة في مصر، تعطي

السلطان العظيم مساحة من الحرية الجنسية. كما سعى "بونابرت" من خلال الاتفاق الذي وقعه بين الدولة والكنيسة الكاثوليكية أن يحصل على علاقة مشابهة لتلك التي عقدها مع علماء الأزهر من أجل السلام الاجتماعي. إن حكومة الإدارة حين منحت "بونابرت" لقب السلطان الأعظم، والإمبراطور العظيم في وادي النيل، غرست في نفسه عادات لم يعد راغبًا في التخلي عنها. وهكذا عانت فرنسا نفسها بل وبلدان كثيرة في أوروبا من المصير الذي أرادته حكومة الإدارة و"تاليران" لمصر.

الخاتمة

إنّ الغزو الفرنسي لمصر واحتلالها، فيما بين عامي ١٧٩٨ و١٨٠١، صار المحك لدى المؤرخين وقرائهم فيما يتعلق بالموقف تجاه مشروع الإمبراطورية. وكان "بونابرت"، الذي أصبح الإمبراطور نابوليون الأول، من أوائل من أدركوا أنّ الفوضى التي أحدثها في وادي النيل يمكن أن تدمر سمعته، ولذلك فقد أمر بإحراق كثير من مستندات الدولة ذات الصلة بجمهورية مصر الفرنسية. ولكن بعض السجلات العسكرية والمراسلات نجت من الحرق ونشر الكثير منها (وبخاصة في مطلع القرن العشرين على يدي العلامة "كليمان دي لا جونكيير **Clément de la Jonquière**)، ومع ذلك فقد بدا واضحا أنّ "بونابرت" أراد لمذكراته الخاصة عن غزو مصر واحتلالها أن تحل محل الأرشيف الذي أخمد صوته. غير أنّ مسعى "بونابرت" قد خاب، فقد أهمل الباحثون على نحو غريب دوره بوصفه مستشرقا. وواقع الأمر أنّ روايته خضعت للدخول في منافسة مع روايات لشهود عيان كثيرين من المصريين والفرنسيين، وإننا نجد منها ما يتسم بميزة معارضة الدعاية التي نشرها "بونابرت".[١]

وفي النصف الأول من القرن العشرين رأى المؤرخون الفرنسيون مثل "فرانسوا شارل – رو" **François Charles-Roux** في الاحتلال مقدمة لما وصفوه بأمجاد الجزائر الفرنسية.[٢] ولذا فقد رسموا صورة للفلاحين المصريين الذين غمرهم الفرح لمقدم الغزاة الفرنسيين، وقللوا من شأن وحشية المحتلين وجشعهم. وفي كثير من الأحيان رأى أنصار القومية المصرية في مصر، على ما في موقفهم

من غرابة، حملة "بونابرت" بوصفها دفقة قوية لحداثة نشطة زلزلت مجتمعًا تقليديًا وجلبت له الطباعة، والمطبعة، والتجارة الحديثة، والمستشفيات، والعلوم بما فيها علم الآثار الذي تمكن علماؤه في نهاية المطاف من استعادة ماضي مصر الفرعوني عن طريق فك رموز حجر رشيد.

جاء بعد أولئك مؤرخون أشاروا إلى علاقات مصر الاقتصادية والدبلوماسية المكثفة بأوروبا وبلدان البحر المتوسط في القرن الثامن عشر، وأكدوا أنَّ مصر لم تكن أحراشًا عذراء لم تطأها قدم أجنبي تنتظر أن يكتشفها "بونابرت" أو يقودها إلى الحداثة. كما أشاروا إلى أنَّ المخترعات المحددة التي جاء بها جيش الشرق رحلت برحيل الجيش في عام ١٨٠١، ولذلك فلم يكن للحملة أثرٌ على المدى البعيد، إذا ما استثنينا قتل عشرات الآلاف وتمزيق المجتمع العثماني المصري(٣). وقد زادت حدة التشكك في الحملة الفرنسية لدى المؤرخين بحلول عصر التحرر من الاستعمار في خمسينيات القرن الماضي وستينياته؛ ولذلك فقد استبدل بالرأي القومي الرومانسي للمرحلة الفرنسية بمصر رأيٌ ظهر بعد انقلاب الضباط في ١٩٥٢ يصف الحملة الفرنسية بأنها لا تعدو أن تكون احتلالاً استعماريًا.

ولعل "بونابرت"، إن خير، يُفضل أن يتعرض المؤرخون لمشروعه بالنقد لا بالتجاهل المُذِل. فبحلول نهاية عهد الاستعمار في ستينيات القرن العشرين، تدنى مستوى الاهتمام بتاريخ فرنسا في عهد الإمبراطورية بين الدارسين، وبدأ المؤرخون يصورون العواصم الكبرى في عهد ما بعد الاستعمار منتزعة من سياقها التاريخي وفي إطار حدودها الحالية، فيكتبون تاريخ فرنسا وبريطانيا على هذا النسق كما لو كانا لم يحكما فيما بينهما خمسي مساحة العالم في القرن التاسع عشر.(٤) ولذلك فإنَّ المعالجة التركيبية المعاصرة لتاريخ فرنسا الحديث قلما تحوي إشارات إلى مصر والجزائر وفيتنام. ويمثل "فرانسوا فوريه" **François Furet** هذه

الظاهرة حين يكتب ما يلي: "أقدمتُ على حذف ما يتصل بالحملة الفرنسية من هذا العرض لأن لها تاريخها الخاص المستقل عن الأحداث بفرنسا، مع ما لها من أهمية لفهم المسألة الشرقية في القرن التاسع عشر".(٥) وهكذا دوِّن التاريخ الحديث لبلدان مثل مصر على نحو متزايد من ملفاتها الخاصة من منظور دولي يقلل من شأن الاستعمار وتدخلات الاستعمار الجديد. ولذلك فقد أعلن المؤرخون الاجتماعيون في سبعينيات القرن الماضي وما بعده أنَّ سنوات الحملة الفرنسية في مصر لم تترك أثرًا يُذكر على إيقاع الحياة المدنية لاقتصاد مصر وتوزيع الثروة في مجتمعها، وبالتالي لا يصح إسالة الحبر في تدوينه.(٦)

وقد أعاد الناقد الأدبي إدوارد سعيد في كتابه المهم "الاستشراق"، مصر في عهد "بونابرت إلى بؤرة الجدل بين الباحثين في السياسات الإمبريالية والأساليب الاستعمارية في التعرف على العالم؛ وصف سعيد الغزو بوصفه سعي أوروبا للمعرفة الكاملة والسيطرة الشاملة على مجتمع شرقي، فيما يشبه المعرفة المرتبطة بالخطيئة الأولى، وذلك في سياق مركزي حديث لقوة الغرب المهيمنة ومعرفته.(٧) وعندما خططت الحكومتان الفرنسية والمصرية معًا لإحياء ذكرى الحملة الفرنسية لتسليط الضوء على الجانب الإيجابي من تلك الغزوة، تعالت الأصوات المعارضة التي أجبرت وزير الثقافة المصري على إلغاء دور مصر في ذلك الاحتفال.(٨) كما أننا نجد أنّ الجمعية الوطنية في باريس ردت على النقد العنيف للسياسة الاستعمارية بمحاولة سن تشريع في عام ٢٠٠٥ يلزم المدرسين بالتأكيد على الإنجازات الإيجابية للإمبراطورية الفرنسية. وقد وجد الرئيس "جاك شيراك" **Jacques Chirac** أنّ هذا الإجراء يتجاوز الحدود فاستخدم حق النقض ضده.

لقد مثلت حملة "بونابرت" المحاولة الأولى التي تقوم بها إمبراطورية أوروبية لضم مجتمع شرقي مهم يقع في الشرق الأدنى، ولكنها لم تكن الأخيرة.

وما نطلق عليه في يومنا هذا الشرق الأوسط لا يقتصر على كونه مجموعة من الدول القومية لكل تاريخها الخاص، وإنما نحن أمام مجموعة من التفاعلات المعقدة بين تلك الدول والقوى العالمية المسيطرة. ولكن من جانب آخر فإنَّ النظام العالمي قد جرى تشكيله على أيدي سياسيين وشعوب من منطقة الشرق الأوسط. فعلى سبيل المثال، قامت جبهة التحرير الوطنية في الجزائر بطرد الفرنسيين من البلاد في عام ١٩٦٢، وأسست لعلاقة جديدة مع حاضرة المستعمر القديم. فالاستعمار الأوروبي لم ينته لأنَّ ذلك ما أراده الرئيس الفرنسي "شارل ديجول" Charles De Gaulle، بل انتهى عهده حين قرر السياسيون الشرق أوسطيون وشعوبهم ألا يتعاونوا معه، وحين امتلكوا الأدوات التي مكنتهم من التصدي (عن طريق التحول الحضري، والتصنيع، والتعليم الأرقى، والاتصالات الفضلى، والقدرة التنظيمية العالية من خلال الأحزاب السياسية، والتكنولوجيا المتقدمة بما في ذلك التكنولوجيا العسكرية). ومع نهاية الحركة الاستعمارية المباشرة وواسعة النطاق في خمسينيات القرن العشرين وستينياته، بدأ عصرٌ جديدٌ من الاستعمار الجديد تتزعمه دول شمال الأطلسي، وأصبح التغلغل الاقتصادي التعبير الأساسي للسيطرة بالإضافة إلى عمليات عسكرية محددة ومعدودة. كما بدأت أيضًا موجة غير مسبوقة من الهجرة من بلدان الشرق الأوسط إلى أوروبا الغربية كان لها أكبر الأثر على السياسات الأوروبية بل والسياسة العالمية. ونتيجة لذلك كله فإنَّ مفهوم الهوية الفرنسية نفسها أصبح مطروحًا للنقاش.

كذلك لم تكن حملة "بونابرت" حدثًا شاذًا في تاريخ يغلب عليه المركزية الأوروبية كما يقول مؤرخون كثيرون. فقد كان "بونابرت" رائدًا في تسويق ضرب من السياسات الإمبريالية تستغل البلاغة الليبرالية ومؤسساتها لاستنزاف الموارد وتحقيق المكاسب الجيوبوليتيكية. وقد استمر أثناء حكمه الإمبراطوري في الاهتمام

بتجارة بلاد الشام. وقد تحققت رؤية "بونابرت" على أيدي الحكومات الفرنسية التالية. بل إنَّ نبوءته بانهيار الإمبراطورية العثمانية واقتسام القوى الأوروبية لأراضيها تحقق أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها. لقد كان "بونابرت" يشكل بأسلوبه القاسي، الذي لا يدع محلا للاعتبارات الإنسانية، الشرق الأوسط الحديث كما نعرفه اليوم، أي ما يعد حلبة تهيمن عليها القوى الاقتصادية والعسكرية لشمال الأطلسي في سياق ثقافة ومؤسسات سياسية هجينة. إن أوجه الشبه بين خطاب الجنرال الكورسيكي من حيث خططه واستخدامه للأساليب البلاغية وما نراه من حملات شمال الأطلسي في الإقليم تشير إلى أمراض مستعصية تعاني منها جمهوريات عصر التنوير. ويقول إدوارد سعيد في هذا السياق إنَّ المشروع الاستعماري أعلن عن مساعدة الإقليم للخروج من حالة الهمجية التي يعيشها ليستعيد أمجاده الكلاسيكية، وكذلك أعلن عن تعليم الشرق أساليب الغرب الحديثة لينتفع بها ويرقى. كما أراد المشروع الاستعماري التهوين من شأن القوة العسكرية كي يرفع شأن مشروع المعرفة المجيدة التي يكتسبها الشرق أثناء خضوعه لعملية السيطرة السياسية، في حين يقر الغرب باعترافه الكامل بمكانة الشرق في الذاكرة وأهميته لتحقيق الإستراتيجيات الإمبريالية، ودوره "الطبيعي" بوصفه تابعًا لأوروبا".[٩] ومع ذلك فالتقابل الثنائي بين الهيمنة الأوروبية والمقاومة التي يبديها الشرق الأوسط لا يمكن أن تمسك بأطراف تلك العلاقات المعقدة. إنَّ الناجحين من أصحاب السياسات الإمبريالية مسيطرون بالضرورة، غير أنَّ خطاب الخاضعين من الشعوب المقهورة لا يخلو من مواطن قوة حضارية.[١٠] فكيف لنا أن نفهم دفاع "بونابرت" عن النبي محمد، وهو الدفاع الذي نقله عن الفيلسوف الفرنسي "فولتير"؟ وكذلك كيف لنا أن نفهم موافقة الشيخ عبد الله الشرقاوي على إدخال الفرنسيين لمجالس الحكم في الأقاليم المصرية؟ إنَّ التفاصيل المتضاربة في المذكرات، مما

ورد ذكره في كتابنا هذا، توحي بأن فهم الحركة الاستعمارية يستلزم إدراك الاستحواذ المتبادل للنماذج الحضارية بين المستعمِر والمستعمَر.

ومع ذلك فالصراع الرئيسي بين الفرنسيين والمصريين لم يكن صراعًا حضاريًا، بل كان صراعًا حول القوة والموارد، استطاع "بونابرت" بذكاء أن يحوله إلى معركة بلاغية تدور رحاها بين الحرية والتعصب. وبمرور الوقت لم يعد سهلاً أن نميز أيًا من الجانبين يدافع بحرارة عن أي من المبدأين.

FURTHER READING

Recent good biographies of Napoléon Bonaparte include those of Alex Schom and Robert B. Asprey. Readers seeking a better understanding of eighteenth-century France should look at the works of Robert Darnton, Lynn Hunt, Roger Chartier, D. M. G. Sutherland, and Howard Brown, among many others. French attitudes toward the Middle East in this period are discussed by the late Edward Said in his *Orientalism* (New York: Vintage Books, 1978, 2003 [with a new introduction]).

English-language readers desiring more background on modern Egypt should consult Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot's *Short History of Modern Egypt* (Cambridge: Cambridge University Press, 1985) and her *Egypt in the Reign of Muhammad Ali* (Cambridge: Cambridge University Press, 1984). Also invaluable is M. W. Daly, ed., *The Cambridge History of Egypt*, vol. 2: *Modern Egypt, from 1517 to the End of the Twentieth Century* (Cambridge: Cambridge University Press, 1998). The houses of the beys and their Mamluks are analyzed in Jane Hathaway, *The Politics of Households in Ottoman Egypt: The Rise of the Qazdaglis* (Cambridge: Cambridge University Press, 2002). For our period, a primary source is available in paperback: 'Abd al-Rahman al-Jabarti, *Napoleon in Egypt: Al-Jabarti's Chronicle of the French Occupation, 1798*, trans. Shmuel Moreh (Princeton and New York: Markus Wiener Publishing, 1995). J. Christopher Herold, *Bonaparte in Egypt* (New York: Harper & Row, 1962) republished by Pen and Sword in 2005, remains valuable despite the author's dismissive attitude toward and relative lack of knowledge of Arab culture, and has the advantage of covering the entire three years of the French occupation. For the military history side, see David G. Chandler, *The Campaigns of Napoleon* (New York: Macmillan, 1966).

Several of the French memoirs have been translated, including Jean-Pierre Doguereau, *Guns in the Desert: General Jean-Pierre Doguereau's Journal of Napoleon's Egyptian Expedition*, trans. Rosemary Brindle (Westport, Conn.: Praeger, 2002), and Joseph-Marie Moiret, *Memoirs of Napoleon's Egyptian Expedition, 1798–1801*, trans. Rosemary Brindle (London: Greenhill Books, 2001).

الهوامش

الفصل الأول

1. John R. Elting, Swords Around a Throne: Napoleon's Grande Armée (New York: Da Capo Press, 1997), ص ٣٣. Joseph-Marie Moiret, Mémoires sur l'expédition d' Égypte (Paris: Pierre Belfond, 1984), p. 33;

والاقتباسات في الفقرات التالية من المرجع نفسه. ص ٢٣، ٢٥-٢٦. وقد صدرت الترجمة الإنجليزية بعد أن انتهيت من تأليف معظم ما جاء في تلك الصفحات التي وردت فيها الاقتباسات، ولذلك فإنّ الترجمة هي عملي في حين أنّ الإشارات تحيل القارئ إلى النص الفرنسي.

2. Auguste Frédéric Louis Viesse de Marmont, Mémoires du duc de Raguse de 1792 à 1832 (Paris: Parrotin, 1857), p. 350.
3. Jean-Honoré Horace Say with Louis Laus de Boissy, Bonaparte au Caire (Paris: Prault, 7 R. [1799]), p. 3.

نُشر هذا الكتاب دون اسم مؤلفه، ولكن جابرييل جيمار Gabriel Guémard قدّم أدلة مقنعة استمدها من متن الكتاب ومراسلات لبونابرت تدل بما لا يدع مجالاً للشك أنّ المؤلف هو ساي، المهندس في فرقة الهندسة، الذي قضى نحبه في حملة فلسطين في عام ١٧٩٩. انظر:

Gabriel Guémard, Histoire et bibliographie critique de la commission des sciences et arts et de l'Institut d' Égypte (Cairo: Chez l'Auteur, 1936), pp. 94 – 95.

وقد تمكن ساي من إرسال المخطوط إلى فرنسا في عام ١٧٩٩ مع لويس بونابرت Louis Bonaparte، فوقع بين يدي المؤلف المسرحي المغمور لوي دي بواسي Louis de Boissy (أحد روّاد صالون جوزفين بونابرت) الذي أقرّ بأنــه تولى ميمة تحريره وإعادة صياغته. ولذلك فإنني أرى أن الكتاب حظي بمؤلفين. وفيما يتعلق بساي، انظر:

J.-M. Quérard, La France littéraire ou dictionnaire bibliographique, 12 vols. (Paris: Firmin Didot Frères, 1827–1864), 8:500.

أما فيما يتعلق بدي بواسي، فانظر المرجع نفسه: 4:625–626، وكذلك:

Nicolas Toussaint Lemoyne Desessarts, Les siècles littéraires de la France, 7 vols. (Paris: Chez l'auteur, Imprimeur-Libraire, 1800–1803), 7:302–303 via Google Books at http://books.google.com/books?id=TsJ6W15Fj7wC&vid=OCLC05719202&dq=Louis+de+Laus+de+Boissy&jtp=302.

4. Charles Coulston Gillispie, "Scientific Aspects of the French Egyptian Expedition, 1798–1801," Proceedings of the American Philosophical Society 133, no. 4 (Dec. 1989), pp. 447– 474; Patrice Bret, ed. L'Expédition d' Égypte , une enterprise des Lumières, 1798–1801 (Paris: Technique & Documentation, 1999).

5. Napoléon Bonaparte, Lettres d'amour à Joséphine, ed. Chantal de Tourtier Bonazzi (Paris: Fayard, 1981), pp. 46–47; the letter from Bologna cited below is from pp. 137 –138.
6. J. Christopher Herold, Bonaparte in Egypt (New York: Harper & Row, 1962), p. 4.
7. Jean-Gabriel de Niello Sargy, D' Egypte, vol. 1 of M. Alph. de Beauchamp, ed., Mémoires secrets et inédits pour servir à l'histoire contemporaine, 2 vols. (Paris: Vernarel et Tenon, 1825); Christopher Hibbert, Waterloo: Napoleon's Last Campaign (London: Wordsworth, 2005), p. 43.
8. Lynn Hunt, Politics, Culture and Class in the French Revolution (Berkeley: University of California Press, 1984), p. 21.
9. Say/Boissy, pp. 14–15.
10. Quotations in this paragraph are from Napoléon Bonaparte, Correspondence de Napoléon Ier, 34 vols. (Paris: H. Plon, J. Dumaine, 1858–1870), 4:109, 4:113.
11. F. E. Sanglée-Ferrière et al., L'Expédition d' Égypte: Souvenirs, mémoires, et correspondence (Paris: Librairie Historique F. Teissèdre, 1998), pp. 23–24; Louis Joseph Bricard, Journal du canonnier Bricard, 1792–1802 (Paris: C. Delagrave, 1891), p. 299.
12. François Bernoyer, Avec Bonaparte en Égypte et en Syrie, 1798–1800: Dix-neuf lettres inédits, ed. Christian Tortel (Abbeville: Les Presses Françaises, 1976), p. 20.

والاقتباس الوارد فيما يلي من ص ٢٠ أيضا.

13.Malcolm Crook, Toulon in War and Revolution (Manchester: Manchester University Press, 1991).

14.Jean-Joël Brégeon, L' Égypte française au jour le jour, 1798–1801 (Paris: Perrin, 1991), p. 97.

15.Samuel Taylor Coleridge, Confessions of an Inquiring Spirit (New York: Cassell & Co., 1892), http://ibiblio.org/gutenberg/etext01/cfinq10.txt>.

16.Désiré Lacroix, Bonaparte en Egypte (1798–1799), (Paris: Garnier, 1899), pp. 43–44; Roderick Cavaliero, The Last of the Crusaders: the Knights of St. John and Malta in the Eighteenth Century (London: Hollis & Carter, 1960), pp. 216–220.

17. Napoléon I, Napoleon's Memoirs, ed. Somerset de Chair (New York: Howard Fertig, 1988), p. 279.

18. Napoléon, Corr. 4:155, no. 2665.

١٩. إنّ المؤلفات التي وضعت حول الحملة الفرنسية لا تعد ولا تحصى، ولكن معظمها يرد في:

Darrell Dykstra, "The French Occupation of Egypt, 1798–1801," in M. W. Daly, ed., The Cambridge History of Egypt, vol. 2: Modern Egypt, from 1517 to the End of the Twentieth Century (Cambridge: Cambridge University Press, 1998), pp. 113–138.

أما أهم وصف جرى تجميعه من مصادر مختلفة ونشر باللغة الإنجليزية فلا يزال:

J. Christopher Herold, Bonaparte in Egypt (New York: Harper & Row, 1962).

ويُروى تاريخ حملة بونابرت على مصر بوصفها تاريخا عسكريا في:

David G. Chandler, The Campaigns of Napoleon (New York: Macmillan, 1966), pp. 212–245.

وبالإضافة إلى الأعمال التي أثبتها ديكسترا Dykstra، فـإنّ الدراسـات الأحـدث تشمل:

Henry Laurens et al., L'Expédition d' Égypte: 1798–1801 (Paris: A. Colin, 1989), André Raymond, Égyptiens et Français au Caire, 1798–1801 (Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1998); Patrice Bret, L' Égypte, au temps de l'expédition de Bonaparte: 1798–1801 (Paris: Hachette littératures, 1998); Yves Laissus, L'Egypte, une aventure savante: avec Bonaparte, Kléber, Menou 1798–1801 (Paris: Fayard, 1998); and Jean-Jacques Luthi, Regard sur d' Égypte au temps de Bonaparte (Paris: Harmattan, 1999).

20. Charles Maurice de Talleyrand, Essai sur les avantages à retirer de colonies nouvelles dans les circonstances présentes (Paris: Chez Baudouin, Imprimeur de l'Institut National, R. 5 [1797]); Carl Ludwig Lokke, "French Dreams of Colonial Empire Under Directory and Consulate," Journal of Modern History 2, no. 2 (Jun. 1930), pp. 237–250;

أما الاقتباسات التالية من تاليران، وإيشاسيريوه وغيرهما فإنـــها من المقالة نفسها، إلا إذا وردت الإشارة إلى غيرها. ويتوفر رؤية بعيدة النظر لخلفية الغزو في:

Henry Laurens, Les Origines intellectuelles de l'expédition d' Égypte : L'Orientalisme Islamisant en France (1698–1798) (Istanbul and Paris: Editions Isis, 1987).

21.Vincent Confer, "French Colonial Ideas Before 1789," French Historical Studies 3, no. 3 (Spring, 1964), pp. 338–359; Michel Poniatowski, Talleyrand et le Directoire, 1796–1800 (Paris: Librairie Académique Perrin, 1982), pp. 66–74.

22.Bonaparte/Directory, 16 August 1797, in François Charles-Roux, Les Origines de l'expédition d' Égypte (Paris: Librairie Plon, 1910), chap. 10; this quotation appears on p. 298.

كذلك تعتمد الفقرات التالية على شارل – رو.

٢٣. بعض محتويات ذلك الملف لا تزال محفوظة في الرجل الذي عمل مترجمـــا لبونابرت: جان ميشيل فنتور دي بارادي:

Jean Michel Venture de Paradis, Papiers, Bibliothèque Nationale, Département des Manuscrits, 9135.

24. Howard G. Brown, "Mythes et Massacres: Reconsidérer la 'Terreur Directoriale,'" Annales Historiques de la Révolution française, no. 325 (2001), pp. 23–52; this quotation appears on p. 27.

أدين بالفضل في هذه الفقرة والتي تليها إلى براون. أما بالنسبة لفرنسا فـــي ذلـــك العهد، انظر:

Isser Woloch, Jacobin Legacy: The Democratic Movement Under the Directory (Princeton: Princeton University Press, 1970); Martyn Lyons, France Under the Directory (Cambridge: Cambridge University Press, 1975); Jean Tulard, La France de la Révolution et de l'Empire (Paris: Presses Universitaires de France, 1995); D. M. G. Sutherland, The French Revolution and Empire: The Quest for a Civic Order (London: Blackwell, 2003).

25. André François Miot de Melito, Mémoires du comte Miot de Melito, ancien ministre, ambassadeur, conseiller d'état et membre de l'Institut, 3 vols. (Paris, Michel Lévy Frères, 1858), 1: 163; cited in Alan Schom, Napoleon Bonaparte (New York: Harper Perennial, 1998), pp. 64–67.
26. Paul François Barras, Mémoires de Barras, membre du Directoire, ed. Georges Duruy (Paris: Hachette, 1895), pp. 184, 205–215.
27. Howard G. Brown, War, Revolution and the Bureaucratic State: Politics and Army Administration in France, 1791–1799 (Oxford: Clarendon Press, 1995), pp. 216–219.
28. Elie Krettly, Souvenirs Historiques, 2nd ed. (Paris: Nouveau Monde Editions, 2003), p. 42.
29. Louis Antoine Fauvelet de Bourrienne, Memoirs of Napoleon Bonaparte, ed. R.W. Phipps, 4 vols. (New York: Charles Scribner's Sons, 1892), p. 131.

30.See Roger Chartier, "Dechristianization and secularization," in The Cultural Origins of the French Revolution, trans. Lydia G. Cochrane (Durham, N.C.: Duke University Press, 1991), chap. 5.; Charles Gliozzo, "The Philosophes and Religion: Intellectual Origins of the Dechristianization Movement in the French Revolution," Church History vol. 40, no. 3 (Sep.1971), pp. 273–283.

31.Napoléon, Corr., 4:135, no. 2633.

32.Napoléon I, Napoleon's Memoirs, p. 350.

33.F. E. Sanglée-Ferrière et al., L'Expédition d' Égypte , p. 36.

الفصل الثاني

1. Napoléon Bonaparte, Correspondance de Napoléon Ier, 34 vols. (Paris: H. Plon, J. Dumaine, 1858–1870), 4:190, no. 2721.

2. François Bernoyer, Avec Bonaparte en Égypte et en Syrie, 1798–1800: dix-neuf lettres inédits, ed.Christian Tortel (Abbeville: Les Presses françaises, 1976), p. 41.

ما يرد من اقتباسات لاحقة في هذا الجزء يرد في المصدر نفسه. وترد أخبار حملة نابليون على مصر بوصفها تاريخا عسكريا في:

David G. Chandler, The Campaigns of Napoleon (New York: Macmillan, 1966), pp. 212–245.

3. Joseph-Marie Moiret, Mémoires sur l'expédition d' Égypte (Paris: Pierre Belfond, 1984), p. 33;

صدرت الترجمة الإنجليزية بعد أن انتهيت من تأليف معظم ما جاء في تلك الصفحات التي وردت فيها الاقتباسات، ولذلك فإنَّ الترجم هي عملي في حين أنَّ الإشارات تحيل القارئ إلى النص الفرنسي. انظر:

Memoirs of Napoleon's Egyptian Expedition, 1798–1801, trans. Rosemary Brindle (London: Greenhill Books, 2001).

4. Daniel Crecelius, "The Mamluk Beylicate of Egypt," in Thomas Philipp and Ulrich Haarman, eds., The Mamluks in Egyptian Politics and Society (Cambridge: Cambridge University Press, 1998), pp. 128–149; Jane Hathaway, The Politics of Households in Ottoman Egypt: The Rise of the Qazdaglis (Cambridge: Cambridge University Press, 1997).

5. Correspondance intime de l'armée d' Égypte, interceptée par la croisière anglaise (Paris: R. Pincebourde, 1866), p. 11.

6. Grandjean, "Journal," in Gaston Wiet, ed., Journaux sur l'expédition (Paris: Librairie Historique F. Teissedre, 2000), p. 63.

والمصدر نسخة منقولة من طبعة القاهرة ١٩٤٣ التي نشرتها Revue du Caire ولا نجد اسم المحرر "فييت" Wiet لسبب غير معروف، كما أنَّه لا يرد في تلك النسخة تاريخ النشر السابق.

7. Grandjean, ibid., p. 66.

8. Charles Norry, An Account of the French Expedition to Egypt: Comprehending a View of the Country of Lower Egypt, its Cities, Monuments, and Inhabitants, at the Time of the Arrival of the French;. .. Translated from the French (London, 1800), pp. 26–27 (source: Eighteenth Century Collections Online. Gale Group, <http://galenet.galegroup.com.proxy. lib.umich.edu/servlet/ECCO>).

9. Moiret, p. 36.

تحتوي الفقرات اللاحقة على اقتباسات من مواريه: ص ٣٦ – ٣٧.

10. Julia V. Douthwaite, Exotic Women: Literary Heroines and Cultural Strategies in Ancien Régime France (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1992).

11. Napoléon, Corr., 4:198–199, no. 2733.

12. للاستزادة بشأن عدم المساواة في عهد حكومة الإدارة، انظر:

Martin Lyons, France Under the Directory (Cambridge: Cambridge University Press, 1975), chapter 5.

13. Izzet Hasan Efendi Darendeli, Al-Hamlah al-Firansiyyah ‘ala Misr fi Daw’ Makhtut ‘Uthmani, trans. Jamal Sa’id ‘Abd al-Ghani (Cairo: al-Hay’ah al-Misriyyah al-’Ammah li’l-Kitab, 1999), p. 138.

14. Napoléon, Corr., 4:228, no. 2784.

15. Pierre Amedée Jaubert/brother, 20 Messidor 6 (8 July 8, 1798), in Copies of Original Letters from the Army of General Bonaparte in Egypt, Intercepted by the Fleet under the Command of Admiral Lord Nelson. Part the first. With an English translation. (London, 1798, 9th ed.), p. 19 (in Eighteenth Century Collections Online. Gale Group, <http://galenet.galegroup.com.proxy.lib.umich.edu/servlet/ECCO>).

والخطاب الثاني موضع المناقشة في الفقرة مقتبس من المصدر نفسه، ص ٣١.

16. 'Abd al-Rahman Al-Jabarti, Ta'rikh, Muddat al-faransis bi misr, ed. Abd al-Rahim A. Abd al-Rahim (Cairo: Dar al-Kitab al-Jami'i, 2000), pp. 33–41; idem, Napoleon in Egypt: Al-Jabarti's Chronicle of the French Occupation, 1798, trans. Shmuel Moreh (Princeton and New York: Markus Wiener Publishing, 1995), pp. 27–33.

17. Al-Jabarti, udda, pp. 41–46; idem, Napoleon, pp. 33–35; 'Abd al-Rahman al-Jabarti, Muzhir al-taqdis bi dhihab dawlat al-faransis (Cairo: Matba'at al-Risalah, 1969), pp. 36–39; 'Abd al-Rahman al-Jabarti, 'Aja'ib al-athar fi al-tarajim wa al-akhbar, 4 vols. (Bulaq: al-Matba'ah al-Amiriya, 1322/1904, 2nd ed.), 3:4; 'Abd al-Rahman al-Jabarti's History of Egypt ('Ajaibal-athar fi 'l-tarajim wa-'l-akhbar: text), trans. and ed. Thomas Philipp & Moshe Perlmann (Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 1994).

وقد جرت مضاهاة تلك الترجمة الإنجليزية على نسخة بولاق. ولذلك فما يرد من أرقام هي للصفحات في الأصل، غير أنني أود أن أعبر عن عظيم

تقديري لتلك الترجمة واعترافي بفضلها على كتابي هذا، كما أنني أقتبس منها في كثير من الأحيان لاحقا.

للاستزادة بشأن حالة الفزع التي سرت في القاهرة، انظر أيضًا:

André Raymond, Égyptiens et Français au Caire, 1798–1801 (Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1998), pp. 91–93.

18. Al-Jabarti, 'Aja'ib, 3:3–4.

19. Moiret, p. 55.

20. Pierre Millet, Souvenirs de la campagne d' Egypte (1798–1801), ed. Stanislas Millet (Paris: Emile-Paul, 1903), p. 48; Nivin Mustafa Hasan, Rashid fi al-'Asr al-'Uthmani: Dirasah Tarikhiya wa Watha'iqiya (Cairo: Dar al-Thaqafa al-'Ilmiya, 1999).

21. Charles François, Journal du capitaine François, dit le dromadaire d' Egypte 1792–1830, ed. Charles Grolleau, 2 vols. (Paris: Carrington, 1903–1904), 1:195–197.

22. Charles Antoine Morand, Lettres sur l'expédition d' Egypte (De l'Italie à la prise du Caire) (Paris: La Vouivre, 1998), pp. 43–44.

23. François, p. 196.

24. M. Vertray, Journal d'un officier de l'armée d'Egypte, ed. H. Galli (Paris: Charpentier, 1883), p. 36;

ولمراجعة تقييم ديزفرنواه للقتلى في تلك المسيرة، انظر:

Nicolas-Philibert Desvernois, Mémoires du Général Baron Desvernois, ed. Albert Dufourcq (Paris: Plon, 1898), p. 109.

25. Lt. Gen. Augustin-Daniel Belliard, Mémoires du Comte Belliard, ed. M. Vinet (Paris: Berquet et Pétion, 1842), pp. 107–108.

26. Gen. Jean-Pierre Doguereau, Journal de l'expédition d'Egypte, ed. C. de La Jonquière (Paris: Perrin et Cie., 1904), p. 58;

وقد نشرت ترجمة إنجليزية لذلك العمل:

Jean-Pierre Doguereau, Guns in the Desert: General Jean-Pierre Doguereau's Journal of Napoleon's Egyptian Expedition, trans. Rosemary Brindle (Westport, Conn.: Praeger, 2002).

وذلك بعد أن أعددت مذكراتي ودونت فقرات كثيرة، ولذا فالاقتباسات هي من ترجمتي عن الأصل الفرنسي.

27. Desvernois, pp. 109–111.

28. Morand, p. 53.

29. Cites for this paragraph are: D. J. Larrey, Mémoires de chirurgie militaire, et campagnes, vol. 1 (Paris: J. Smith, 1812), pp. 194–95; Louis Antoine Fauvelet de Bourrienne, Mémoires de M. de Bourrienne, 10 vols. (Paris: Ladvocat, 1829), 2:101–102; Édouard de Villiers du Terrage, Journal et souvenirs de l'expédition de l'Égypte (1798–1801) (Paris: Librairie Plon, 1799), p. 49.

30. J. Miot, Mémoires pour servir à l'histoire des expéditions en ïgypte et en Syrie (Paris: Le Normant, 1814), pp. 37–38.

31. Larrey, 1:205; François, 1:198–199.

الفصل الثالث

1. Napoléon Bonaparte, Correspondence de Napoléon Ier, 34 vols. (Paris: H. Plon, J. Dumaine, 1858–1870), 4:232, no. 2793.

2. François Vigo-Roussillon, Journal de campagne (1793–1837) (Paris: Éditions France-Empire, 1981), p. 63.

3. Auguste Frédéric Louis Viesse de Marmont, Mémoires du duc de Raguse de 1792 à 1832 (Paris: Parrotin, 1857), pp. 372–373.

4. François Bernoyer, Avec Bonaparte en Égypte et en Syrie, 1798–1800: Dix-neuf lettres inédits, ed. Christian Tortel (Abbeville: Les Presses Françaises, 1976), p. 53; ïtienne-Louis Malus, L'Agenda de Malus: Souvenirs de l'expédition d' Egypte, 1798–1801, ed. Gen. Thoumas (Paris: Honoré Champion, 1892), p. 52.

5. Damas/Kléber, July 27 1798, in Copies of Original Letters from the Army of General Bonaparte in Egypt, Intercepted by the Fleet Under the Command of Admiral Lord Nelson. Part the first. With an English translation (London, 1798, 9th ed.), p. 77 (in Eighteenth

Century Collections Online. Gale Group. <http://galenet.galegroup.com.proxy.lib.umich.edu/

servlet/ECCO.).

6. Hugh Gough, "Genocide and the Bicentenary: The French Revolution and the Revenge of the Vendée," Historical Journal 30, no. 4 (Dec., 1987), pp. 977–988; Michael Scott Christofferson, "An Antitotalitarian History of the French Revolution: François Furet's 'Penser la Revolution française' in the Intellectual Politics of the Late 1970s," French Historical Studies 22, no. 4 (Autumn, 1999), pp. 557–611; D. M. G. Sutherland, The French Revolution and Empire: A Quest for Civic Order (Oxford: Blackwell, 2003), pp. 13–74.

يرى هاورد براون أنّ النقاش حول المثل الدستورية الفرنسية يتحتم معه الفصل بين تلك المثل واستخدام الدولة للعنف الذي يراه قد حدث بتأثير من فلسفة هوبز، واستجابة لإحساس بعدم الأمان، وشيوع الاضطرابات الجماعية وأحداث التمرد. انظر مؤلفه:

Ending the French Revolution: (Charlottesville: University of Virginia Press, 2006).

7. Vigo-Roussillon, p. 64.

8. Detroye in Clément de la Jonquière, L'Expédition d' Egypte 1798–1801, 5 vols. (Paris: H. Charles-Lavauzelle, 1899–1906), 2:159–160. The following account is based on 'Abd al-Rahman al-Jabarti, Muzhir al-taqdis bi dhihab dawlat al-faransis (Cairo: Matba'at al-

Risalah, 1969), pp. 5–6; Louis Antoine Fauvelet de Bourrienne, Memoirs of Napoleon Bonaparte, ed. R.W. Phipps, 4 vols. (New York: Charles Scribner's Sons, 1892), pp. 155–157; Bernoyer, pp. 55–57; and sources cited below.

9. Sulkowski in la Jonquière, 2:156–158

10. Captain Deponthon in la Jonquière, 2:158–159.

11. Jean-Honoré Horace Say with Louis Laus de Boissy, Bonaparte au Caire (Paris: Prault, 7 R. [1799]), p. 73.

12. Vigo-Roussillon, p. 65; J. Miot, Mémoires pour servir à l'histoire des expéditions en Égypte et en Syrie (Paris: Le Normant, 1814), pp. 62–66.

13. Napoléon, Corr., 4:236–237, no. 2803; Étienne-Louis Malus, L'Agenda de Malus: Souvenirs de l'expédition d' Egypte, 1798–1801, ed. Gen. Thoumas (Paris: Honoré Champion, 1892), p. 56.

14. Michael Winter, Egyptian Society Under Ottoman Rule, 1517–1798 (London: Routledge, 1992).

15. Michel Tuchscherer, ed., Le commerce du café avant l'ère des plantations coloniales (Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale, 2001); Nelly Hanna, Making Big Money in 1600: The Life and Times of Isma'il Abu Taqiyya, Egyptian Merchant (Syracuse, N.Y.: Syracuse University Press, 1998); Ralph S. Hattox, Coffee and

Coffeehouses: The Origins of a Social Beverage in the Medieval Near East (Seattle: University of Washington Press, 1985).

16. Jane Hathaway, "Ottoman Responses to Çerkes Mehmed Bey's Rebellion," in Jane Hathaway, ed., Mutiny and Rebellion in the Ottoman Empire, pp. 108–109; see also Daniel Crecelius, "The Mamluk Beylicate," in Thomas Philipp and Ulrich Haarman, eds., The

Mamluks in Egyptian Politics and Society (Cambridge: Cambridge University Press, 1998), 138–147; Daniel Crecelius and Gotcha Djaparidze, "Relations of the Georgian Mamluks of Egypt with Their Homeland in the Last Decades of the Eighteenth Century," Journal of the Economic and Social History of the Orient 45, no. 3 (September 2002), pp. 320–341.

17. Vigo-Roussillon, p. 65.

18. Joseph-Marie Moiret, Mémoires sur l'expédition d' Égypte (Paris: Pierre Belfond, 1984), p. 42–43; Pierre de Pelleport, Souvenirs militaires et intimes (Paris: Didier & Co., 1857), p. 120; Louis Alexandre Berthier, Mémoires de Maréchal Berthier. .. 1er Partie: Campagne D' Egypte (Paris: Baudouin Frères, 1827), pp. 16–17.

19. Pelleport, pp. 120–121; Moiret, pp. 43 and 43n.

20. Izzet Hasan Efendi Darendeli, al-Hamlah al-Firansiyyah ‘ala Misr fi Daw’ Makhtut ‘Uthmani, trans. Jamal Sa’id ‘Abd al-Ghani (Cairo: al-Hay’ah al-Misriyyah al-’Ammah li’l-Kitab, 1999), p. 148.

٢١.هذا الاقتباس وما يليه من اقتباسات من:

‘Abd al-Rahman al-Jabarti, ‘Aja’ib al-athar fial-tarajim wa al-akhbar, 4 vols. (Bulaq: al-Matba’ah al-Amiriya, 1322/1904, 2nd ed.), 3:7, as translated by the team under Philipp and Perlmann.

22. Édouard de Villiers du Terrage, Journal et souvenirs de l’expédition de l' Égypte (1798–1801) (Paris: Librairie Plon, 1799), p. 50; Kléber/Dumuy, 17 July 1798; Kléber/Bonaparte, 21 July 1798; Kléber/Menou, 24 July 1798, in Henry Laurens, Kléber en Égypte, 1798–1800, 2 vols. (Cairo: Institut Français de l’Archéologie Orientale, 1988), 1:134–135, 1:145–152, 1:155; Henry Laurens et al., L’Expédition d' Egypte: 1798–1801 (Paris: A. Colin, 1989), p. 99.

23. Bernoyer, p. 57.

24. Charles François, Journal du capitaine François, dit le dromadaire d’ Egypte 1792–1830, ed. Charles Grolleau, 2 vols. (Paris: Carrington, 1903–1904), 1:202–203.

25. Moiret, p. 34;

كما ترد إشارة أخرى إلى أطفال القرى العراة في برنوييه ص ٨٤.

26. Nada Tomiche. “The Situation of Egyptian Women in the First Half of the Nineteenth

Century," in P. M. Holt, ed., The Beginnings of Modernization in the Middle East (Chicago:

University of Chicago Press, 1968), pp. 171–184, esp. p. 175.

27. Kenneth M. Cuno, The Pasha's Peasants: Land, Society and Economy in Lower Egypt,1780–1858 (Cambridge: Cambridge University Press, 1992), chapter 3.

٢٨. اعتمدت في هذه الفقرة والتي تليها على مواريه ص ٤٥ – ٤٦؛ وللاطـلاع على حريق القرية، انظر برنوييه ٥٨

29. François, 1:203–204.

الفصل الرابع

١. الوصف التالي لموقعة الأهرامات يستند إلى:

M. Vertray, Journal d'un officier de l'armée d'Egypte, ed. H. Galli (Paris: Charpentier, 1883), pp. 56–59; Alfred de Besancenet, Le Général Dommartin en Italie, et en Égypte (Paris: Téqui, 1887), p. 410; Pierre de Pelleport, Souvenirs militaires et intimes (Paris: Didier & Co., 1857), pp. 121–124; Nicolas-Philibert Desvernois, Mémoires du Général Baron Desvernois, ed. Albert Dufourcq (Paris: Plon, 1898), pp. 121–128; Joseph-Marie Moiret, Mémoires sur l'expédition d' Egypte, (Paris: P. Belfond, 1984), pp. 46–51; Louis Alexandre Berthier, Mémoires de Maréchal Berthier. .. 1er Partie: Campagne D' Egypte (Paris: Baudouin

Frères, 1827), pp. 17–22; David G. Chandler, The Campaigns of Napoleon (New York: Macmillan, 1966), pp. 219–227; John Dellinger, "Napoleonic Wars: Battle of the Pyramids," HistoryNet.com at <http://www.historynet.com/wars_conflicts/napoleonic_wars/3459076

html?page=1&c=y>; James W. Shosenberg, "The Battle of the Pyramids: Futile Victory," in Aryeh Shmuelevitz, ed., Napoleon and the French in Egypt and the Holy Land, 1798–1801 (Istanbul: Isis Press, 2002), pp. 235–251; and 'Abd al-Rahman al-Jabarti, Muzhir al-taqdis bi dhihab dawlat al-faransis (Cairo: Matba'at al-Risalah, 1969), pp. 39–43.

2. Napoléon Bonaparte, Correspondence de Napoléon Ier, 34 vols. (Paris: H. Plon, J. Dumaine, 1858–1870), 4:251, no. 2834.

الاقتباسات التالية عن موقعة الأهرامات يرويها بونابرت من المصدر نفسه.

٣. لمراجعة المعلومات عن القوات الفرنسية، انظر:

Pierre Dominique Martin, Histoire de l'expédition française en Égypte, 2 vols. (Paris: J.-M. Eberhart, 1815), 1:203–204;

بعض الأرقام الخاصة بالجنود الأرقاء وردت في بيسانسينيه، المرجع نفسه، وبعضها الآخر من :

Leila 'Abd al-Latif Ahmad as citedin Daniel Crecelius, The Roots of Modern Egypt (Minneapolis: Bibliotheca Islamica, 1981), p.21.

Battle (New York: Viking Press, 1976); 4. John Keegan, The Face of

كذلك أدين بالفضل لزميلي جون شاي John Shy لما أبداه مــن ملاحظــات بشأن الحروب في القرن الثامن عشر، ولكني حريص أيضا على نــسبة أي خطــأ لنفسي.

5. Etienne Geoffroy Saint-Hilaire, Lettres d' Egypte, 1798–1801 (Paris: Paleo, 2000), p. 43.

6. ‘Abd al-Rahman al-Jabarti, ‘Aja’ib al-athar fi al-tarajim wa al-akhbar, 4 vols. (Bulaq: al-Matba’ah al-Amiriya, 1322/ 1904, 2nd ed.), 3:10.

7. Jean-Honoré Horace Say with Louis Laus de Boissy, Bonaparte au Caire (Paris: Prault, 7 R. [1799]), p. 79.

8. Auguste Frédéric Louis Viesse de Marmont, Mémoires du duc de Raguse de 1792 à 1832 (Paris: Parrotin, 1857), p. 385.

٩. هذا الاقتباس وما يليه من:

Laval, “Journal,” in Gaston Wiet, ed., Journaux sur l’-expédition d' Egypte (Paris: Librairie Historique F. Teissedre, 2000), pp. 176–178; Étienne-Louis Malus, L’Agenda de Malus: Souvenirs de l’expédition d' Egypte, 1798–1801, ed. Gen. Thoumas (Paris: Honoré Champion, 1892), p. 66; Édouard de Villiers du Terrage, Journal et souvenirs de l’expédition de l’Égypte (1798–1801) (Paris: Librairie Plon, 1799), p. 71; Charles François, Journal du Capitaine François (dit le Dromedaire d’Egypte), 1792–1830, ed. Charles Grolleau, 2 vols. (Paris: Charles

Carrington, 1903–1904), 1: 216; on mustaches see Saint-Hilaire, p. 50; on blindness see Say/de Boissy, p. 98.

10. Richard Bulliet, The Camel and the Wheel (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1975); quotations from Lavalette are Comte de Lavalette, Mémoires et souvenirs du Comte de Lavalette (Paris: Mercure de France, 1994), pp. 188–189.

11. Say/de Boissy, pp. 136–38; Desvernois, p. 128.

12. Napoléon, Corr., 4:240, no. 2817.

13. Say/de Boissy, p. 126; Malus, L'Agenda, pp. 64–65.

14. Al-Jabarti, 'Aja'ib, 3:11.

15. Ibid., 3:11–13.

16. Say/de Boissy, p. 104.

17. François Bernoyer, Avec Bonaparte en Égypte et en Syrie, 1798–1800: Dix-neuf lettres inédits, ed. Christian Tortel (Abbeville: Les Presses françaises, 1976), p. 75.

18. Eugène de Beauharnais/Josephine, Giza, 6 Thermidor 6 (24 July 1798), in Frédéric Masson, "Les Préliminaires de la divorce impériale," Revue de Paris 6 (Nov.-Dec. 1900): 227–243; this quotation on p. 236.

19. Louis Antoine Fauvelet de Bourrienne, Mémoires de M. de Bourrienne, 10 vols. (Paris: Ladvocat, 1829), 2: 212.

20. Napoléon Bonaparte/Joseph Bonaparte, 7 Thermidor 6 (25 July 1798), no. 36, portfolio 13, Lettres, "Le site Tascher de La Pagerie," at <http://www.tascher-de-la-pagerie.org/>; this letter at <http://www.tascher-de-la-pagerie.org/fr/index.php?menu=lettres&ID=36>.

21. Louis Constant, Mémoires de Constant, premier valet de chambre de l'empereur, sur la vie privée de Napoléon, sa famille et sa cour, 6 vols. (Paris: Ladvocat, 1830), 1:36–38.

22. Bernoyer, p. 68.

23. Napoléon, Corr., 4:260, no. 2846.

24. Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot, Women and Men in Late Eighteenth-Century Egypt (Austin: University of Texas Press, 1995); Jane Hathaway, The Politics of Households in Ottoman Egypt: The Rise of the Qazdaglis (Cambridge: Cambridge University Press, 1997), chap. 6; Leslie Peirce, The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire (New York: Oxford University Press, 1993).

لمراجعة تاريخ المرأة في العصر المملوكي الوسيط، انظر:

Ahmad Abd ar-Raziq, La femme au temps des mamlouks en Égypte (Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1973).

٢٥. هذه النقطة وما يليها من:

Jean-Gabriel de Niello Sargy, D' Egypte, vol. 1 of M. Alph. de Beauchamp, ed., Mémoires secrets et inédits pour servir à l'histoire

contemporaine, 2 vols. (Paris: Vernarel et Tenon, 1825), 1:72, 182, 194, 199; al-Jabarti, 'Aja'ib, 3:19.

26. Napoléon, Corr., 4:267, no. 2860.

27. Eugène de Beauharnais, Mémoires et correspondance politique et militaire du prince Eugène, ed. Albert du Casse (Paris: Michel Lévy frères, 1858), pp. 43–44. For Nefise see Agnieszka Dobrowolska, "Lady Nafisa and her sabil," Al-Ahram Weekly Online, no. 757 (25–31 August 2005) at

<http://weekly.ahram.org.eg/2005/757/heritage.htm>.

28. Niello Sargy, 1:182.

الاقتباسات من نييللو سارجي في الفقرات التالية ترد من المصدر نفسه.

29. André Raymond, Artisans et commerçants au Caire au XVIIIe siècle (Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1999); idem, Arab Cities in the Ottoman Period (London: Ashgate, 2002), chapter 15; Gabriel Baer, Egyptian Guilds in Modern Times (Jerusalem: Israel Oriental Society, 1964); Pascale Ghazaleh, Masters of the Trade: Crafts and Craftspeople in Cairo, 1750–1850 (Cairo: American University in Cairo Press, 1999).

30. Napoléon, Corr., 4:294, no. 2920.

31. André Raymond, Le Caire des Janissaires: L'apogée de la ville ottomane sous 'Abd al-Rahman Katkhuda (Paris: CRNS Editions, 1995), p. 68; for coffee in the eighteenth century, see Raymond,

Artisans et commerçants; idem, "A Divided Sea: The Cairo Coffee Trade in the Red Sea Area During the Seventeenth and Eighteenth Centuries," in C. Bayly and L. Fawazwith R. Ilbert, eds., Modernity and Culture from the Mediterranean to the Indian Ocean (New York: Columbia University Press, 2002), pp. 46–57; "Kahwa," Encyclopedia of Islam Online, and the articles in Michel Tuchscherer, ed., Le commerce du café avant l'ère des plantations coloniales (Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale, 2001), by Idris Bostan, André Raymond, and Julien Berthaud.

32. Napoléon, Corr., 4:307, nos. 2949 and 2950; Al-Jabarti, 'Aja'ib, 3:13.

33. Anon., Journal d'un dragon d' Egypte (14e Dragons) (Paris: E. Dubois, 1899).

34. Napoléon, Corr., 4:288–289, no. 2911.

35. Malus/Cafarelli, 17 Thermidor (4 August 1798), Malus/Cafarelli, 19 Thermidor (6 August 1798), in Clément de la Jonquière, L'Expédition d' Egypte 1798–1801, 5 vols. (Paris: H. Charles-Lavauzelle, 1899–1906), 2:349–350.

36. Desvernois, p. 129.

الفصل الخامس

١. هذه الإشارات لحملة الشرقية حسب وصف ديزفرنواه وما يليها مستمدة من مذكراته المعنونة

Mémoires du Général Baron Desvernois, ed. Albert Dufourcq (Paris: Plon, 1898), pp.130–133.

أما الإشارات إلى تقارير الكابتن مالوس عن تلك الفترة فإنها مستمدة من:

Malus/Cafarelli, 17 Thermidor (4 August 1798), Malus/Cafarelli, 19 Thermidor (6 August 1798), in Clément de la Jonquière, L'Expédition d' Egypte 1798–1801, 5 vols. (Paris: H. Charles-Lavauzelle, 1899–1906), 2:349–350.

القارئ مدعو لعقد المقارنة مع:

Kenneth M. Cuno, The Pasha's Peasants: Land, Society and Economy in Lower Egypt,1780–1858 (Cambridge: Cambridge University Press, 1992).

3. Napoléon Bonaparte, Correspondence de Napoléon Ier, 34 vols. (Paris: H. Plon, J. Dumaine, 1858–1870), no. 2834.
4. Napoléon, Corr., 5:307, no. 3950; Jean-Gabriel de Niello Sargy, D' Egypte, vol. 1 of M. Alph. de Beauchamp, ed., Mémoires secrets et inédits pour servir à l'histoire contemporaine, 2 vols. (Paris: Vernarel et Tenon, 1825), 1:77–79, 87; Étienne-Louis Malus,

L'Agenda de Malus: Souvenirs de l'expédition d' Egypte, 1798–1801, ed. Gen. Thoumas (Paris: Honoré Champion, 1892), p. 75.

جديرٌ بالذكر أنَّ الهجاء الخاص بأسماء تلك القبائل لا يتبع معيارًا موحدًا ويظهر مشوهًا في تلك المصادر.

5. Napoléon, Corr., 4:319–320, no. 2975.

6. 'Abd al-Rahman al-Jabarti, Muzhir al-taqdis bi dhihab dawlat al-faransis (Cairo: Matba'at al-Risalah, 1969), pp. 51–53; idem, Aja'ib al-athar fi al-tarajim wa al-akhbar, 4 vols. (Bulaq: al-Matba'ah al-Amiriya, 1322/ 1904, 2nd ed.), 3:14–15.

7. Detroye in Clément de la Jonquière, L'Expédition d' Egypte 1798–1801, 5 vols. (Paris: H. Charles-Lavauzelle, 1899–1906), 2:371.

الاقتباسات التالية من "ديتروي" مأخودة من المصدر نفسه.

يعتمد الوصف التالي لمعركة الصالحية على:

Bonaparte, Corr., 4:357–361, no. 3045; al-Jabarti, 'Aja'ib, 3:14–15; Izzet Hasan Efendi Darendeli, al-Hamlah al-Firansiyyah 'ala Misr fi Daw' Makhtut 'Uthmani, trans. Jamal Sa'id 'Abd al-Ghani (Cairo: al-Hay'ah al-Misriyyah al-'Ammah li'l-Kitab, 1999), pp. 161–164; Desvernois, pp. 132–133; Lt. General Augustin-Daniel Belliard, Mémoires du Comte Belliard, ed. M. Vinet (Paris: Berquet et Pétion, 1842), pp. 11–115; Malus, L'Agenda, pp. 81–84; Detroye in la Jonquière, 2:375–376; Charles François, Journal du capitaine François, dit le dromadaire d' Egypte 1792–1830, ed. Charles Grolleau, 2 vols. (Paris: Carrington, 1903–1904), 1: 217–221;

أما فيما يتعلق بالأحداث التالية، انظر:

Étienne Geoffroy Saint-Hilaire, Lettres d' Egypte, 1798–1801 (Paris: Paleo, 2000), pp. 59–60.

9. Napoléon, Corr., 4:334, no. 3005.

10. Belliard, p. 114.

11. Jane Hathaway, "The Military Household in Ottoman Egypt," International Journal of Middle East Studies 27, no. 1 (Feb. 1995), pp. 39–52.

١٢. واعتمد مؤلف هذا الكتاب في رصده للخلاف بين مراد وإبراهيم في ثمانينيات القرن الثامن عشر، ولغزوة الغازي حسن باشا على

al-Jabarti, 'Aja'ib, 2:79–124; M. Arribas Palau, "Sobre la expedición del capitán bajá Gazi Hasan a Egipto (1786–1787)," Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islámicos

en Madrid 22 (1984): 207–257; Daniel Crecelius, "Orders of Ghazi Hasan Pasha to the

Egyptians," al-Majallah al-Ta'rikhiyah al-'Arabiyah li al-Dirasat al-'Uthmaniyyah nos. 17–18, (1998): 23–33; François Charles-Roux, Les Origines de l'expédition d' Egypte (Paris: Librairie Plon, 1910), chap. 6; and Daniel Crecelius and Gotcha Djaparidze, "Relations of the Georgian Mamluks of Egypt with Their Homeland," Journal of the Economic and Social History of the Orient, 45, no. 3 (2002), pp. 320–341.

13. André Raymond, Égyptiens et Français au Caire, 1798–1801 (Cairo: Institut Français

d'Archéologie Orientale, 1998), pp. 68–69.

14. Crecelius, "Orders of Ghazi Hasan Pasha," p. 28.

15. Hathaway, "Military Household," p. 47.

16. Napoléon, Corr., 4:252, no. 2834.

17. Cuno, The Pasha's Peasants.

18. Napoléon, Corr., 4:266, no. 2858; cf. Patrice Bret, L'Égypte, au temps de l'expédition de Bonaparte: 1798–1801 (Paris: Hachette littératures, 1998), pp. 113–118.

19. Magdi Guirguis, "The Organization of the Coptic Community in the Ottoman Period,"

Nelly Hanna and Raouf Abbas, eds., Society and Economy in Egypt and the Eastern Mediterranean 1600–1900: Essays in Honor of André Raymond (Cairo and New York: American University in Cairo Press, 2005), pp. 201–216, this quotation on p. 209; see also Muhammad 'Afifi, al-Aqbat fi Misr fi al-'Asr al-'Uthmani (Cairo: al-Hay'ah al-Misriya al-'Amma li al-Kitab, 1992).

20. Napoléon, Corr., 4:270, no. 2868.

21. Al-Jabarti, Muzhir, p. 57; idem, Mudda al-faransis bi misr, ed. Abd al-Rahim A. Abd al-Rahim (Cairo: Dar al-Kitab al-Jami'i, 2000), p. 83; idem, Napoleon in Egypt: Al-Jabarti's Chronicle of the French

Occupation, 1798, trans. Shmuel Moreh (Princeton and New York: Markus Wiener Publishing, 1995), p. 54.

22. Napoléon, Corr., 4:348, no. 3030.

23. Ibid., 4:382–383, no. 3080.

24. Ibid., 4:285, no. 2902.

25. Ibid., 4:378, no. 3074.

26. Al-Jabarti, 'Aja'ib, 3:24.

27. Napoléon, Corr., 4:286–287, no. 2907.

الفصل السادس

1. Prosper Jollois, Journal d'un ingénieur attaché a l'expédition d'Égypte, 1798–1802 (Paris: Ernest Leroux, 1904), pp. 51–53.

اعتمد المؤلف على المرجع نفسه في اقتباساته من جولواه التي ترِد في الفقرات التالية.

2. Copies of Original Letters from the Army of General Bonaparte in Egypt, Intercepted by the Fleet under the Command of Admiral Lord Nelson. Part the first. With an English translation (London, 1798, 9th ed.), in Eighteenth Century Collections Online. Gale Group. <http://galenet.galegroup.com.proxy.lib.umich.edu/servlet/ECCO>.

٣. هذا الوصف إعادة صياغة لما جاء في:

Brian Lavery, Nelson and the Nile: The Naval War Against Bonaparte 1798 (London: Chatham Publishing, 1998),

كما يعتمد أيضًا على:

Michèle Battesti, La Bataille d'Aboukir 1798: Nelson contrarie la stratégie de Bonaparte (Paris: Economica, 1998).

4. Lavery, p. 221.

هذا الاقتباس وما يليه من اقتباسات وملاحظات منقول عن:

Étienne-Louis Malus, L'Agenda de Malus: Souvenirs de l'expédition d'Égypte, 1798–1801, ed. Gen. Thoumas (Paris: Honoré Champion,1892), pp. 88–89; Auguste Frédéric Louis Viesse de Marmont, Mémoires du duc de Raguse de 1792 à 1832 (Paris: Parrotin, 1857), p. 392; Jollois, p. 54; Boyer/Bonaparte, 10 Thermidor 6 (27 July 1798), Correspondance intime de l'armée d'Égypte, interceptée par la croisière anglaise (Paris: R. Pincebourde, 1866), pp. 39–42.

6. Comte de Lavalette, Mémoires et Souvenirs du Comte de Lavalette (Paris: Mercure de France, 1994), p. 191.

7. Marmont in Émile Brouwet, ed., Napoléon et son Temps: Catalogue de lettres autographes, de documents et de souvenirs napoléoniens faisant partie de la collection de M. Émile Brouwet; troisième partie (London: Sotheby, 1936), p. 28; Louis Antoine Fauvelet de Bourrienne, Memoirs of Napoleon Bonaparte, ed. R.W. Phipps, 4 vols. (New York: Charles Scribner's Sons, 1892), p. 163.

8. Bourrienne, Memoirs, ed. Phipps, p. 165.

9. Nicolas-Philibert Devernois. Mémoires du Général Baron Desvernois, ed. Albert Dufourcq (Paris: Plon, 1898), p. 134.

10. André François Miot de Melito, Mémoires du comte Miot de Melito, ancien ministre, ambassadeur, conseiller d'état et membre de l'Institut, 3 vols. (Paris, Michel Lévy frères, 1858), p. 80.

11. LeRoy/Jacotin. 6 Prairial 8, in Jacotin, Papiers, BN 11275.

12. Auguste Napoléon Joseph Colbert-Chabanais, Traditions et souvenirs; ou, Mémoires touchant le temps et la vie du général Auguste Colbert (1793–1809), 5 vols. (Paris: F. Didto frères, 1863–73), 2:89;

اطلع هذا المؤلف على مذكرات غير منشورة لبيير- دافيد إدوار كولبير- شابانيه Pierre-David Edouard Colbert-Chabanais، وهو ضابط شاب أرستقراطي الأصل نجا بالكاد من حملة التطهير في عام ١٧٩٦، والتحق بجيش الشرق، وأصيب في صعيد مصر. ووفقًا لرواية ذلك المؤلف فإنه ينقل بصفته شاهد عيان ما سمعه من زميل قديم لبونابرت في إيطاليا يدعى الجنرال جواكيم موراه Joachim Murat.

13. 'Abd al-Rahman al-Jabarti, 'Aja'ib al-athar fi al-tarajim wa al-akhbar, 4 vols. (Bulaq: al-Matba'ah al-Amiriya, 1322/1904, 2nd ed.), 3:15.

14. Étienne Geoffroy Saint-Hilaire, Lettres d' Égypte, 1798–1801 (Paris: Paleo, 2000). p. 43.

١٥. الوصف التالى لمهرجان النيل مستمد من:

al-Jabarti,'Abd al-Rahman al-Jabarti, Muzhir al-taqdis bi dhihab dawlat al-faransis (Cairo: Matba'at al-Risalah, 1969), pp. 53–54; idem, 'Aja'ib, 3:14–15; Jean-Honoré Horace Say with Louis Laus de Boissy, Bonaparte au Caire (Paris: Prault, 7 R. [1799]), pp. 129–135; Desvernois, Mémoires, pp. 135–137; Le Courrier de L'Égypte in Clément de la Jonquière, L'Expédition d' Égypte 1798–1801, 5 vols. (Paris: H. Charles-Lavauzelle, 1899–1906), 2:480; and Henry Laurens et al., L'Expédition d' Égypte: 1798–1801 (Paris: A. Colin, 1989), pp. 110–111.

وفيما يتعلق بالنيل بوصفه أبـًا للمصريين، انظر:

François Bernoyer, Avec Bonaparte en Égypte et en Syrie, 1798–1800: Dix-neuf

lettres inédits, ed. Christian Tortel (Abbeville: Les Presses françaises, 1976), p. 127.

16. Kenneth Cuno, The Pasha's Peasants (Cambridge: Cambridge University Press, 1992), pp. 17–19.

17. Huda Lutfi, "Coptic Festivals of the Nile," in Thomas Philipp and Ulrich Haarman, eds., The Mamluks in Egyptian Politics and Society (Cambridge: Cambridge University Press, 1998), pp. 254–282; this quotation appears on p. 265.

18. Bernoyer, p. 72; cf. Edward William Lane, An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, 5th edn., ed. Edward Stanley Poole (London: John Murray, 1860), p. 454.

19. Ibid., p. 76; al-Jabarti, ‘Aja’ib, 2:106–107;

فيما يتعلق بحالة العري التي كان الدراويش عليها، انظر:

Victor Cousin, Fragments Philosophiques, vol. 2 (Paris: Ladrange, 1838, 2nd ed.), p. 391,

حيث يشير المرجع إلى خطاب حرره الديوان إلى مينو.

20. Pierre Millet, Souvenirs de la campagne d' Égypte (1798–1801), ed. Stanislas Millet (Paris: Emile-Paul, 1903), pp. 54–55.

21. Charles François, Journal du Capitaine François (dit le Dromadaire d’Egypte), 1792–1830, ed. Charles Grolleau, 2 vols. (Paris Charles Carrington, 1903–1904), 1: 222–223.

22. Jean-Gabriel de Niello Sargy, D' Égypte, vol. 1 of M. Alph. de Beauchamp, ed., Mémoires secrets et inédits pour servir à l’histoire اعتمدcontemporaine, 2 vols. (Paris: Vernarel et Tenon, 1825), 1:142;
مؤلف هذا الكتاب على هذا المرجع فيما يلي من صفحات.

pp. 142–175,

وكذلك على مؤلف

Édouard de Villiers du Terrage, Journal et souvenirs de l’expédition de l’Égypte (1798–1801) (Paris: Librairie Plon, 1799), p. 69.

23. Napoléon Bonaparte, Correspondence de Napoléon Ier, 34 vols. (Paris: H. Plon, J. Dumaine, 1858–1870), 4:352–53, no. 3040.

24. Kléber in Henry Laurens, Kléber en Égypte, 1798–1800, 2 vols. (Cairo: Institut Français de l'Archéologie Orientale, 1988), 1:209–211, 213.

25. Gen. Jean-Pierre Doguereau, Journal de l'expédition d'Egypte, ed. C. de La Jonquière (Paris: Perrin, 1904), pp. 83–84.

26. Auguste Frédéric Louis Viesse de Marmont, Mémoires du duc de Raguse de 1792 à 1832 (Paris: Parrotin, 1857), pp. 371, 393–395, 398;

انظر أيضًا رواية مينو في:

La Jonquière, 2:113–116; Villiers du Terrage, pp. 65–66; Jollois, p. 53.

هناك تضارب في المصادر فيما يتعلق بتاريخ وقوع ذلك الحدث فمنها ما يذكر وقوعه في منتصف شهر أغسطس، وهو ما سجله فيه دي تيراج في مذكراته، وبعضها الآخر يحدد لحدوثه أوائل شهر سبتمبر. ويعد هذا المصدر أفضل مما تلاه فيما يخص تاريخ الأحداث؛ كذلك من المحتمل خروج حملتين انتهيا بكارثة ثم اختلط الأمر على مسجلي المذكرات فضموا الحدثين في حدث واحد.

27. Report of Lt. Col. Théviotte in Paul Guitry, L'Armée de Bonaparte en gypte (Paris: Ernest Flammarion, 1898), pp. 144–147; Pierre-François Gerbaud, Le Capitaine Gerbaud, 1773–1799, ed. Maxime Mangerel (Paris: Plon, 1910), pp. 237–239; Niqula al-Turk, Dhikr Tamalluk Jumhur al-Firansawiyyah al-Aqtar al-Misriyyah wa al-Bilad al-Shamiyyah, ed. Yasin Suwayd (Beirut: al-Farabi, 1990), pp. 51–52; Millet, p. 57; J. Christopher Herold, Bonaparte in Egypt (New York: Harper and Row, 1962), pp. 139–140; Cuno, p. 93.

28. Laurens, L'expédition, pp. 122–123.

29. A. Galland, Tableau de l'Égypte pendant le séjour de l'armée française, 2 vols. (Paris: Cerioux et Galland, R. 11 [1804]), 1:50–51.

30. Millet, 57.

31. Niello Sargy, 148.

الفصل السابع

1. Napoléon Bonaparte, Correspondence de Napoléon Ier, 34 vols. (Paris: H. Plon, J. Dumaine, 1858–1870), 4:363, no. 3050.

2. Dominique Vivant Denon, Voyage dans la Basse et la Haute Égypte (Paris: Editions 1998 [first published 1802]), pp. 95–96.

٣. اعتمد المؤلف فيما ورد على المصادر والمراجع التالية:

al-Jabarti, Mudda al-faransis bi misr, ed. Abd al-Rahim A. Abd al-Rahim (Cairo: Dar al-Kitab al-Jami'i, 2000), pp. 77–78; idem, Napoleon in Egypt: Al-Jabarti's Chronicle of the French Occupation, 1798, trans. Shmuel Moreh (Princeton and NewYork: Markus Wiener Publishing, 1995), p. 51; Niqula al-Turk, Dhikr Tamalluk Jumhur al-Firansawiyyah al-Aqtar al-Misriyyah wa al-Bilad al-Shamiyyah, ed. Yasin Suwayd (Beirut, al-Farabi, 1990), p. 46; Nicolas-Philibert Desvernois, Mémoires du Général Baron Desvernois, ed. Albert

Dufourcq (Paris: Plon, 1898), p. 137; Jean-Gabriel de Niello Sargy, d' Égypte, vol. I of M. Alph. de Beauchamp, ed., Mémoires secrets et inédits pour servir à l'histoire contemporaine, 2 vols. (Paris: Vernarel et Tenon, 1825), 1:176–177; Étienne-Louis Malus, L'Agenda de Malus: Souvenirs de l'expédition d' Égypte, 1798–1801, ed. Gen. Thoumas (Paris: Honoré Champion, 1892), pp. 89–90; Joseph-Marie Moiret, Mémoires sur l'expédition d' Égypte (Paris: Pierre Belfond, 1984), p. 58; Detroye in Clément de la Jonquière, L'Expédition d' Égypte 1798–1801, 5 vols. (Paris: H. Charles-Lavauzelle, 1899–1906), 2:481–82; Édouard de Villiers du Terrage, Journal et souvenirs de l'expédition de l' Égypte (1798–1801) (Paris: Librairie Plon, 1799), pp. 71–72. See also Georges Spillman, Napoléon et l'Islam (Paris: Librairie Académique, 1969); Henry Laurens, Orientales I: Autour de l'expédition d' Égypte (Paris: CNRS Editions, 2004), pp. 147–164; John W. Livingston, "Shaykh Bakri and Bonaparte," Studia Islamica 80 (1994), pp. 125–143; and Mary Kathryn Cooney, "Egypt Was Worth a Turban: Bonaparte's Flirtation with Islam," in Aryeh Shmuelevitz, ed., Napoleon and the French in Egypt and the Holy Land, 1798–1801 (Istanbul: The Isis Press, 2002), pp. 87–100.

4. Denon, Voyage, p. 97.

5. Pierre Millet, Souvenirs de la campagne d' Égypte (1798–1801), ed. Stanislas Millet (Paris: Emile-Paul, 1903), p. 63.

6. Jean-Honoré Horace Say with Louis Laus de Boissy, Bonaparte au Caire (Paris: Prault, 7 R. [1799]), p. 126.

7. Pierre de Pelleport, Souvenirs militaires et intimes (Paris: Didier & Co., 1857), p. 429.

8. Napoléon Bonaparte, Campagnes d' Égypte et de Syrie, ed. Henry Laurens (Paris: Imprimerie Nationale, 1998), pp. 142–147; Louis Antoine Fauvelet de Bourrienne, Memoirs of Napoleon Bonaparte, ed. R. W. Phipps, 4 vols. (New York: Charles Scribner's Sons, 1892), 1:170n.

9. Bonaparte/Kléber, 12 Thermidor 6 (30 July 1798), no. 2880, in Christian Cherfils, Bonaparte et l'Islam d'après les documents français et arabes (Paris: A. Pedone, 1914), pp. 19–20.

10. Napoléon, Campagnes, pp. 140–141; Mustapha al-Ahnaf, "Cheikh al-Mahdi (1737–1815): uléma, médiateur et businessman," Monde الاقتباسات arabe, n. 1, 2ème série (1er semestre 1999), pp. 115–149.
الواردة من المصدر نفسه

11. Napoléon, Corr., 4:420, no. 3148.

12. Napoléon, Corr., 4:413, no. 3136; M. Abir, "The 'Arab Rebellion' of Amir Ghalib of Mecca (1788–1813)," Middle Eastern Studies 3 (1971), 185–200.

13. Desvernois, Mémoires, pp. 135–137; Étienne Geoffroy Saint-Hilaire, Lettres d' Égypte,

1798–1801 (Paris: Paleo, 2000), p. 57.

14. La Jonquière, 2:8–9.

15. Gen. Dupuis/Deville, 19 August 1798, in Paul Guitry, L'Armée de Bonaparte en Égypte (Paris: Ernest Flammarion, 1898), p. 152.

16. Moiret, p. 79.

17. Moiret, p. 80; المراجعة ما ورد عن الرسول (ص) في شرب الخمور، انظر ص ١٠٠

18. François Bernoyer, Avec Bonaparte en Égypte et en Syrie, 1798–1800: Dix-neuf lettres inédits, ed. Christian Tortel (Abbeville: Les Presses françaises, 1976), pp. 126–127.

19. Auguste Frédéric Louis Viesse de Marmont, Mémoires du duc de Raguse de 1792 à 1832 (Paris: Parrotin, 1857), p. 422.

20. Moiret, pp. 104–113.

21. Ibid., p. 180.

٢٢. هذه المغامرة في مذكرات برنوييه، ص ١٠٨ – ١١٦

٢٣. المصدر يشير إلى مائتي فاثوم، والفاثوم الواحد يساوي ست أقدام

24. 'Abd al-Rahman al-Jabarti, 'Aja'ib al-athar fi al-tarajim wa al-akhbar, 4 vols. (Bulaq: al-Matba'ah al-Amiriya, 1322/1904, 2nd ed.), 3:162.

25. Charles de Secondat de Montesquieu, L'Esprit des lois, ed. Laurent Versini (Paris: Gallimard, 1995), p. 113; on the web at http://www.ecole-alsacienne.org/CDI/pdf/1400/14055_MONT.pdf

26. G.-H. Bousquet, "Voltaire et l'Islam," Studia Islamica 28 (1968): 109–126; this quotation p.110n.

27. Rebecca Joubin, "Islam and Arabs through the Eyes of the Encyclopédie: The 'Other' as a Case of French Cultural Self-Criticism," International Journal of Middle East Studies 32, no. 2 (May 2000): 197–217.

28. Napoléon, Campagnes, pp. 152–153.

الفصل الثامن

1. Kléber/Bonaparte, 28 August 1798, in Clément de la Jonquière, L'Expédition d' Égypte

1798–1801, 5 vols. (Paris: H. Charles-Lavauzelle, 1899–1906), 2:75–78.

2. Kléber, "Journal," in la Jonquière, 2:104; Henry Laurens et al., L'Expédition d' Égypte: 1798–1801 (Paris: A. Colin, 1989), p. 107.

3. Dugua/Bonaparte, 18 Fructidor 6 (4 September 1798), in la Jonquière, 2:130–131.

4. Napoléon Bonaparte. Correspondence de Napoléon Ier, 34 vols. (Paris: H. Plon, J. Dumaine, 1858–1870), 4:471–72, no. 3252.

5. Verdier/Dugua, 15 September 1798; and Laugier, "Journal," in la Jonquière, 2:134–137, 136n.

6. Jean-Honoré Horace Say with Louis Laus de Boissy, Bonaparte au Caire (Paris: Prault, 7 R. [1799]), pp. 153–154.

7. Napoléon, Corr., 4:390, no. 3091; Henry Laurens et al., L'Expédition d' Égypte: 1798–1801 (Paris: A. Colin, 1989), pp. 111–112.

8. Sarah C. Maza, Private Lives and Public Affairs: The Causes Célèbres of Prerevolutionary France (Berkeley: University of California Press, 1993), pp. 60–62; Sarah Maza, "Luxury, Morality, and Social Change: Why There Was No Middle-Class Consciousness in Prerevolutionary France," Journal of Modern History 69, no. 2. (June 1997), pp. 199–229, esp. 224–228; Susan Maslan, Revolutionary Acts: Theater, Democracy, and the French Revolution (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2005); Cyrole Triolaire, "Contrôle Social et arts du spectacle en province pendant le consulat et l'empire: L'exemple du Puy-de-Dôme," Annales historiques de la Révolution française 333 (2003), pp. 45–66, quotation on p. 47; Bonaparte/Tallien, 16 Vendémiaire 7 (7 October 1798), in Émile Brouwet, ed., Napoléon et son Temps: Catalogue de lettres autographes, de documents et de souvenirs napoléoniens faisant partie de la collection de m.

Émile Brouwet; troisième partie (London: Sotheby, 1936), p. 3; François Bernoyer, Avec Bonaparte en Égypte et en Syrie, 1798–1800: Dix-neuf lettres inédits, ed. Christian Tortel (Abbeville: Les Presses françaises, 1976), p. 93; Etienne Geoffroy Saint-Hilaire, Lettres d' Égypte, 1798–1801 (Paris: Paleo, 2000), p. 103.

9. Say/de Boissy, p. 161; see also Edmond et Jules de Goncourt, La Femme au dix-huitième siècle (Paris: G. Charpentier, 1877), pp. 74–75, at <http://freresgoncourt.free.fr/texfemmeau/8e/texte.htm>; Louis Laus de Boissy, La Vraie Republicaine (Paris: De l'Imprimerie de Cailleau, 1794); Eugène Jauffret, Le Théâtre revolutionnaire (1788–1799) (Paris: Furne, Jouvet et Cie., 1869), pp. 296–297.

10. Say/de Boissy, pp. 118–120;

لمراجعة استخدام المرأة للشعر العربي في التعبير عن ذاتها قارن مـــا ورد في المرجع التالي:

Lila Abu-Lughod, Veiled Sentiments: Honor and Poetry in a Bedouin Society (Berkeley: University of California Press, 1986).

11. Robert Darnton, The Forbidden Bestsellers of Prerevolutionary France (New York: Norton, 1996); Lynn Hunt, ed., The Invention of Pornography: Obscenity and the Origins of Pornography, 1500–1800 (New York: Zone Books, 1993); Christie McDonald, "Changing Stakes: Pornography, Privacy, and the Perils of Democracy." Yale French Studies 100 (2001), pp. 88–115.

12. Jean-Gabriel de Niello Sargy, d' Égypte, vol. 1 of M. Alph. de Beauchamp, ed., Mémoires secrets et inédits pour servir à l'histoire contemporaine, 2 vols. (Paris: Vernarel et Tenon, 1825), 1:335–338.

13. Prosper Jollois, Journal d'un ingénieur attaché à l'expédition d' Égypte, 1798–1802 (Paris: Ernest Leroux, 1904), p. 49; Édouard de Villiers du Terrage, Journal et souvenirs de l'expédition de l' Égypte (1798–1801) (Paris: Librairie Plon, 1799), p. 58; Say/de Boissy, p. 147; Niqula al-Turk, Dhikr Tamalluk Jumhur al-Firansawiyyah al-Aqtar al-Misriyyah wa al-Bilad al-Shamiyyah, ed. Yasin Suwayd (Beirut, al-Farabi, 1990), p. 27; Henry Laurens et al., L'Expédition d' Égypte: 1798–1801 (Paris: A. Colin, 1989), p. 114;

لمراجعة ما دار من نقاش بفرنسا عن غطاء الرأس ثلاثي الألوان أثناء عهد حكومة الإدارة، انظر:

Jennifer Heuer, "Hats On for the Nation! Women, Servants, Soldiers and the 'Sign of the French,'" French History 16, no. 1 (2002) pp. 28–52.

14. 'Abd al-Rahman al-Jabarti, Muzhir al-taqdis bi dhihab dawlat al-faransis (Cairo: Matba'at al-Risalah, 1969), pp. 59–60; 'Abd al-Rahman Al-Jabarti, Ta'rikh Muddat al-faransis bi misr, ed. Abd al-Rahim A. Abd al-Rahim (Cairo: Dar al-Kitab al-Jami'i, 2000), pp. 91–92; idem, Napoleon in Egypt: Al-Jabarti's Chronicle of the French Occupation, 1798, trans. Shmuel Moreh (Princeton and New York: Markus Wiener Publishing, 1995, pp. 59–60; idem.,'Aja'ib

alathar fi al-tarajim wa al-akhbar, 4 vols. (Bulaq: al-Matba'ah al-Amiriya, 1322/1904, 2nd ed.), 3:16–17.

15. Say/de Boissy, p. 148.

16. Wajda Sendesni, Regard de l'historiographie Ottomane sur la révolution française et l'expédition d' Égypte: Tarih-i Cevdet (Istanbul: Les Editions Isis, 2003), pp. 79–117,

وترد هذه النقطة في صفحة ٨٥.

للاستزادة فيما يخص العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والدولة العثمانية في ذلك العصر، انظر:

Ismail Soysal, Fransiz ihtilali ve Türk-Fransiz Diplomasi Münasebetleri (1789–1802) (Ankara: Türk Tarih Kurumu Basimevi, 1987), esp. chapters 14–15. وذلك في الفترة التي يغطيها هذا الكتاب

وللاطلاع على الخلفية التاريخية، انظر:

Fatma Müge Gçek, East Encounters West: France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century (Oxford: Oxford University Press, 1987); Henry Laurens et al., L'Expédition d' Égypte: 1798–1801 (Paris: A. Colin, 1989), p. 132–141.

17. Stanford J. Shaw, Between Old and New: The Ottoman Empire Under Sultan Selim III,

1789–1807 (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1971), p. 147; subsequent quotation on p. 148.

18. Alan Schom, Napoleon Bonaparte (New York: Harper Perennial, 1998), pp. 26–27; cf. Louis Antoine Fauvelet de Bourrienne, Memoirs of Napoleon Bonaparte, ed. R. W. Phipps, 4 vols. (New York: Charles Scribner's Sons, 1892), pp. 28 – 37.

19. Michel Poniatowski, Talleyrand et le Directoire, 1796–1800 (Paris: Librairie Académique Perrin, 1982), pp. 432–434, 454–456.

20. Shaw, Between Old and New, pp. 255–257; Soysal, Fransiz ihtilali, pp. 208–254.

21. مراسلات روفان الواردة في هذه الفقرة وما يليها من فقرات مستمدة من:

Ruffin/Talleyrand, 14 Thermidor 6 (1 August 1798); and Ruffin/Talleyrand, 23 Thermidor 6 (10 August 1798), in La Jonquière, 2:600–609; see also Soysal, Fransiz Ihtilali, p. 241.

22. Bonaparte/Grand Vizir, 5 Fructidor 6 (22 August 1798), in Napoléon, Corr. 4:379, no. 3076.

23. Shaw, Between Old and New, pp. 263–265; Soysal, Fransiz Ihtilali, pp. 243–44; Izzet Hasan Efendi Darendeli, al-Hamlah al-Firansiyyah 'ala Misr fi Daw' Makhtut 'Uthmani, trans. Jamal Sa'id 'Abd al-Ghani (Cairo: al-Hay'ah al-Misriyyah al-'Ammah li'l-Kitab, 1999), pp. 182–183, 188–195.

24. Soysal, Fransiz Ihtilali, p. 244; La Jonquière, 2:233–235

25. Imperial Firman, ca. 1 September 1798, in Joseph Kabrda, Quelques firmans concernant les relations Franco-Turques lors de l'expédition

de Bonaparte en Égypte (1798–1799) (Paris: Imprimerie Nationale, 1947), Ottoman text, p. 6; Kabrda's translation on pp. 74–78; Rudolph Peters, Islam and Colonialism: The Doctrine of Jihad in Modern History (The Hague; New York: Mouton, 1979).

26. Darendeli, al-Hamlah, pp. 177–182; Kevin McCranic, "The Operations and Effectiveness of the Ottoman Navy During Napoleon's Invasion of Egypt, 1798–1801," in Aryeh Shmuelevitz, ed., Napoleon and the French in Egypt and the Holy Land, 1798–1801 (Istanbul: Isis Press, 2002), pp. 155–164; this period, pp. 155–158.

27. Al-Jabarti, 'Aja'ib, 3:18–21; Niello Sargy, 1:184.

28. "Firman du Grand Vizir," in Joseph-Marie Moiret, Mémoires sur l'expédition d' Égypte (Paris: Pierre Belfond, 1984), pp. 74–76.

29. Abdullah al-Sharqawi, Tuhfat al-Nazirin fiman waliya Misr min al-Muluk wa al-Salatin, ed. Rihab Abd al-Hamid al-Qari (Cairo: Madbuli, 1996), pp. 122–123.

30. For ulema culture and sciences in the eighteenth century, see Peter Gran, The Islamic Roots of Capitalism: Egypt, 1760–1840 (Austin: University of Texas Press, 1979).

31. Nicolas-Philibert Desvernois, Mémoires du Général Baron Desvernois, ed. Albert Dufourcq (Paris: Plon, 1898), p. 142.

الفصل التاسع

١. راجع الوصف المفصل للقتال في أحياء المنزلة فيما سجله جان-جابرييـل دي نييللو سارجي في:

D' Égypte, vol. 1 of M. Alph. de Beauchamp, ed., Mémoires secrets et inédits pour servir à l'histoire contemporaine, 2 vols. (Paris: Vernarel et Tenon, 1825), 1:148–174; see also Niqula al-Turk, Dhikr Tamalluk Jumhur al-Firansawiyyah al-Aqtar al-Misriyyah wa al-Bilad al-Shamiyyah, ed. Yasin Suwayd (Beirut: al-Farabi, 1990), 52–54; Pierre-François Gerbaud, Le Capitaine Gerbaud, 1773–1799, ed. Maxime Mangerel (Paris: Plon, 1910), pp. 250–252; Jean-Honoré Horace Say with Louis Laus de Boissy, Bonaparte au Caire (Paris: Prault, 7 R. [1799]), pp. 140–141; Joseph-Marie Moiret, Mémoires sur l'expédition d' Égypte (Paris: Pierre Belfond, 1984), pp. 73–74; Pierre Millet, Souvenirs de la campagne d' Égypte (1798–1801), ed. Stanislas Millet (Paris: Emile-Paul, 1903), pp. 57–60; Clément de la Jonquière, L'Expédition d' Égypte 1798–1801, 5 vols. (Paris: H. Charles-Lavauzelle, 1899–1906), 2: 129–191; Henry Laurens et al., L'Expédition d' Égypte: 1798–1801 (Paris: A. Colin, 1989), pp. 125–126.

2. Gerbaud, p. 246; Millet, p. 61.

3. Millet, pp. 57–59; Gerbaud, p. 250.

4. Napoléon Bonaparte, Correspondence de Napoléon Ier, 34 vols. (Paris: H. Plon, J. Dumaine, 1858–1870), 5:5–6, no. 3374.

5. Daniel Bates, "The Role of the State in Peasant-Nomad Mutualism," Anthropological Quarterly 44, no. 3 (July 1971): 109–131.

6. See Mona Ozouf, La fête révolutionnaire, 1789–1799 (Paris: Gallimard, 1976); tr. Alan Sheridan, Festivals and the French Revolution (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1988).

7. Lynn Hunt, Politics, Culture and Class in the French Revolution (Berkeley: University of California Press, 1984), pp. 19–20.

8. للاطلاع على مصادر خاصة بعيد الجمهورية الفرنسية انظر

La Jonquière, 2:22–29; Say/de Boissy, pp. 141–149; Nicolas-Philibert Desvernois, Mémoires du Général Baron Desvernois, ed. Albert Dufourcq (Paris: Plon, 1898), pp. 138–140; Moiret, pp. 64–65; Charles Norry, An Account of the French Expedition to Egypt: Comprehending a View of the Country of Lower Egypt, Its Cities, Monuments, and Inhabitants, at the Time of the Arrival of the French;. .. Translated from the French (London, 1800) , pp. 26–27, Eighteenth Century Collections Online. Gale Group. <http://galenet.galegroup.com.proxy.lib.umich.edu/servlet/ECCO>, p. 19; François Bernoyer, Avec Bonaparte en Égypte et en Syrie, 1798–1800: Dix-neuf lettres inédits, ed. Christian Tortel (Abbeville: Les

tienne-Louis Malus, L'Agenda de ـPresses françaises, 1976), pp. 79–80; Malus: Souvenirs de l'expédition d' Égypte, 1798–1801, ed. Gen. Thoumas (Paris: Honoré Champion, 1892), pp. 92–93; Niello Sargy, 1:176–177; Prosper Jollois, Journal d'un ingénieur attaché a l'expédition d' Égypte, 1798–1802 (Paris: Ernest Leroux, 1904), pp. 61–62; Pierre de Pelleport, Souvenirs militaires et intimes (Paris: Didier & douard de Villiers du Terrage, Journal et ـCo., 1857), pp. 130–131; souvenirs de l'expédition de l' Égypte (1798–1801)(Paris: Librairie Plon, 1799), p. 76; Henry Laurens et al., L'Expédition d' Égypte: 1798–1801 (Paris: A. Colin, 1989), pp. 120–121, J. Christopher Herold, Bonaparte in Egypt (New York: Harper and Row, 1962), pp. 153–155;

وللاطلاع على ما يتعلق بالأهرامات الاحتفالية في فرنسا الثورية، انظر:

Arthur Maxime Chuquet, L'École de Mars, 1794 (Paris: E. Plon, Nourrit, 1899), p. 195.

9. Joseph F. Byrnes, "Celebration of the Revolutionary Festivals Under the Directory: A Failure of Sacrality," Church History 63, no. 2 (June 1994): 201–220.

10. Bonaparte, Corr., 5:1, no. 3365.

11. Say/de Boissy, p. 142.

12. Robespierre in Hunt, Politics, p. 46.

13. Say/de Boissy, p. 139.

14. Ibid., pp. 166–167.

15. Ibid., p. 107.

يرى المؤلف في هذه السطور إضافة يمكن نسبتها إلـــى لاوس دي بواســـي لأنـــها تكشف عن معرفة بالمناظرات التي جرت في فرنسا بعد وصول الحملة إلى مصر، وهي من الأمور التي يصعب على هوراس ساي الإحاطة بها.

16. Lynn Hunt, The Family Romance of the French Revolution (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1992).

17. Bernoyer, pp. 85–86.

18. Sarah C. Maza, Private Lives and Public Affairs: The Causes Célèbres of rerevolutionary France (Berkeley: University of California Press, 1993), pp. 279–280.

19. Darcy Grimaldo Grigsby, "Rumor, Contagion, and Colonization in Gros's Plague-Stricken of Jaffa (1804)," Representations no. 51 (Summer, 1995), pp. 1–46.

20. Bernoyer, p. 86.

21. Hunt, Politics, p. 28.

22. Gen. Jean-Pierre Doguereau, Journal de l'expédition d'Egypte, ed. C. de la Jonquière (Paris: Perrin et Cie., 1904), pp. 69–70.

23. Ibid., pp. 70–77; see also, Louis Frank, "Mémoire sur le commerce des nègres au Kaire, et sur les maladies auxquelles ils son sujets en arrivant," trans. Michel Le Gall, in Shaun E. Marmon, ed., Slavery in the Islamic Middle East (Princeton, N.J.: Markus Wiener, 1999),

pp. 69–88; and Patrice Bret, L' Égypte au temps de l'expédition de Bonaparte, 1798–1801 (Paris: Hachette Littératures, 1998), pp. 132–138.

24. Etienne Geoffroy Saint-Hilaire, Lettres d' Égypte, 1798–1801 (Paris: Paleo, 2000), p. 81;

وتوجد الملاحظة التالية الخاصة بحريم الشيخ الفيومي على صفحة ١١٧

25. Admiral Perée/La Jolle, July 28, 1798 in Copies of Original Letters from the Army of General Bonaparte in Egypt, Intercepted by the Fleet under the Command of Admiral Lord Nelson. Part the first. With an English translation. (London, 1798, 9th ed.), p. 121. Eighteenth Century Collections Online. Gale Group. <http://galenet.galegroup.com.proxy.lib.umich.edu/servlet/ECCO>.

26. Niello Sargy, 1:193–195.

٢٧. يروي برتوييه تلك المغامرة تفصيلاً ص ٩٨ – ١٠١

٢٨. للاطلاع على ما يخص تجارة الرقيق بين السودان ومصر في ذلك العصر، انظر:

Terence Walz, Trade Between Egypt and Bilad as-Sudan, 1700–1820 (Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, 1978);

وللاطلاع على الخلفية التاريخية من العصر الوسيط، انظر:

Ahmad Abd ar-Raziq, La femme au temps des mamlouks en Égypte (Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1973), pp. 49–57.

29. Bernoyer, p. 99.

30. Napoléon Bonaparte, Campagnes d' Égypte et de Syrie, ed. Henry Laurens (Paris: Imprimerie Nationale, 1998), p. 153.

31. Doguereau, pp. 70–77.

32. Niello Sargy, 1:218–19.

33. Sue Peabody, There Are No Slaves in France (Oxford: Oxford University Press, 1996).

34. Claudine Hunting, "The Philosophes and Black Slavery: 1748–1765," Journal of the History of Ideas 39, no. 3 (Jul.-Sep., 1978), pp. 405–418; the quotations are on p. 411.

35. Yves Benot, Les Lumières, l'esclavage, la colonisation (Paris: Éditions de la Découverte, 2005), pp. 252–263; Jean-Daniel Piquet, "Robespierre et la liberté des noirs en l'an II," Annales historiques de la Révolution français 323 (2001): 69–91; Arthur L. Stinchcombe, Sugar Island Slavery in the Age of Enlightenment: The Political Economy of the Caribbean World (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1995); Laurent Dubois, Avengers of the New World: The Story of the Haitian Revolution (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2004).

الفصل العاشر

1. Pierre-Louis Cailleux in Antoine Bonnefons et al., Souvenirs et cahiers sur la campagne d'Egypte (Paris: Librairie Historique F. Teissedre, 1997), p. 100.

2. Charles François, Journal du Capitaine François (dit le Dromadaire d'Egypte), 1792–1830, ed. Charles Grolleau, 2 vols. (Paris: Charles Carrington, 1903–1904), 1: 228–229.

3. Murat/Bonaparte, 10 Vendémiaire 7 (October 1, 1798), in Jean-François Massie, François Lanusse, General de Division, 1772–1801 (Pau: Imprimerie graphique Marrimpouey successeurs, 1986), pp. 124–125.

4. Fugière/Bonaparte, 6 Oct. 1798 and 10 Oct. 1798, in Clément de la Jonquière, L'Expédition d' Égypte 1798–1801, 5 vols. (Paris: H. Charles-Lavauzelle, 1899–1906), 2:291–293; Napoléon Bonaparte, Correspondence de Napoléon Ier, 34 vols. (Paris: H. Plon, J. Dumaine, 1858–1870), 5:66–67, no. 3484.

5. Edward B. Reeves, "Power, Resistance and the Cult of Muslim Saints in a Northern Egyptian Town," American Ethnologist 22, no. 2 (1995): 306–323.

6. Abd al-Rahman al-Jabarti, 'Aja'ib al-athar fi al-tarajim wa al-akhbar, 4 vols. (Bulaq: al-

Matba'ah al-Amiriya, 1322/1904, 2nd ed.), 3:21.

7. Louis Thurman, Bonaparte en Égypte: Souvenirs Publiés (Paris: Émile Paul, 1902), pp. 52–53.

8. Niqula al-Turk, Dhikr Tamalluk Jumhur al-Firansawiyyah al-Aqtar al-Misriyyah wa al-Bilad al-Shamiyyah, ed. Yasin Suwayd (Beirut, al-Farabi, 1990), p. 59; cf. André Raymond, Égyptiens et Français au Caire, 1798–1801 (Cairo: Institut Français d'Archéologie Orientale, 1998), pp. 110–113.

9. Napoléon Bonaparte, Campagnes d' Égypte et de Syrie, ed. Henry Laurens (Paris: Imprimerie Nationale, 1998), p. 151.

10. 'Abd al-Rahman al-Jabarti, Muzhir al-taqdis bi dhihab dawlat al-faransis (Cairo: Matba'at al-Risalah, 1969), pp. 57–59; idem, Ta'rikh Muddat al-faransis bi misr, ed. Abd al-Rahim A. Abd al-Rahim (Cairo: Dar al-Kitab al-Jami'i, 2000), pp. 83–89; idem, Napoleon in Egypt: Al-Jabarti's Chronicle of the French Occupation, 1798, trans. Shmuel Moreh (Princeton and New York: Markus Wiener Publishing, 1995), 54–59.

11. Napoléon, Corr., 4:470–471, no. 3248; Turk, p. 59.

12. Jean-Gabriel de Niello Sargy, d' Égypte, vol. 1 of M. Alph. de Beauchamp, ed., Mémoires secrets et inédits pour servir à l'histoire contemporaine, 2 vols. (Paris: Vernarel et Tenon, 1825), 1:181–184.

13. Raymond, pp. 303–306.

14. Turk, p. 59; Victor Cousin, Fragments Philosophiques, vol. 2 (Paris: Ladrange, 1838, 2nd ed.), p. 447; Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot, "Social and Political Changes After the French Occupation," in Irene Bierman, ed., Napoleon in Egypt (Reading, U.K.: Ithaca Press, 2003), p. 104.

15. Al-Jabarti, 'Aja'ib, 3:162.

16. J. Miot, Mémoires pour servir à l'histoire des expéditions en Égypte et en Syrie (Paris: Le Normant, 1814), pp. 97, 239–240.

17. Niello Sargy, 1:392.

18. Eugéne de Beauharnais, Mémoires et correspondance politique et militaire du prince Eugène, ed. Albert du Casse (Paris: Michel Lévy frères, 1858), p. 44.

19. A. Galland, Tableau de l' Égypte pendant le séjour de l'armée française, 2 vols. (Paris: Cerioux et Galland, R. 11 [1804]), 1:171–172.

20. François Bernoyer, Avec Bonaparte en Égypte et en Syrie, 1798–1800: dix-neuf lettres inédits, ed. Christian Tortel (Abbeville: Les Presses françaises, 1976), pp. 94–98.

21. Miot, pp. 81, 99–100.

22. Gen. Jean-Pierre Doguereau, Journal de l'expédition d'Egypte, ed. C. de la Jonquière (Paris: Perrin et Cie., 1904), p. 101.

23. Niello Sargy, 1:193–195; cf. Patrice Bret, L' Égypte, au temps de l'expédition de Bonaparte: 1798–1801 (Paris: Hachette littératures, 1998), pp. 132–138. For Niello on Pauline, see Niello Sargy, 1:199–206.

24. Bernoyer, pp. 93–95.

25. Ibid., pp. 116–125.

26. Napoléon, Corr., 5:216, nos. 3774 and 3775.

27. Beauharnais, p. 46.

28. Al-Jabarti, 'Aja'ib, 3:24–25; Stanford J. Shaw, Between Old and New: The Ottoman Empire Under Sultan Selim III, 1789–1807 (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1971), pp. 260–261; Henry Laurens et al., L'Expédition d' Égypte: 1798–1801 (Paris: A. Colin, 1989), pp. 144–148.

29. Raymond, pp. 122–123.

30. Al-Jabarti, 'Aja'ib, 3:25; Jean-Honoré Horace Say with Louis Laus de Boissy, Bonaparte au Caire (Paris: Prault, 7 R. [1799]), p. 162.

31. Al-Jabarti, Tarikh Mudda, p. 125; idem, Napoléon in Egypt, p. 83.

٣٢. اعتمد مؤلف هذا الكتاب في وصفه لثورة القاهرة على المــصادر والمراجــع الآتية:

Étienne Geoffroy Saint-Hilaire, Lettres d' Égypte, 1798–1801 (Paris: Paleo, 2000), pp. 69–73; François Vigo-Roussillon, Journal de campagne (1793–1837) (Paris: Éditions France-Empire, 1981), p. 76; Niello Sargy, 1:186–193; Nicolas-Philibert Desvernois, Mémoires du Général Baron Desvernois, ed. Albert Dufourcq (Paris: Plon, 1898), pp. 144–145; Anon., Journal d'un dragon d' Égypte (14e Dragons) (Paris: E. Dubois, 1899), p. 40; al-Jabarti, 'Aja'ib, 3:24–27; al-Jabarti, Mudda, pp. 123–140; idem, Napoléon in Egypt, pp. 84–95; Turk, pp. 59 ff; and sources cited below. Recent accounts by contemporary historians include Henry Laurens et al., L'Expédition d' Égypte: 1798–1801 (Paris: A. Colin, 1989), pp. 148–153 and Raymond, pp.124–138.

33. Al-Jabarti, 'Aja'ib, 3:24–25; al-Jabarti, Mudda, pp. 124–125; idem, Napoléon in Egypt, pp. 84–85; Turk, p. 59; Bernoyer, p. 88.

34. Say/de Boissy, p. 162; al-Jabarti, Mudda, pp. 124–125; idem, Napoléon in Egypt, p. 85.

35. Al-Jabarti, 'Aja'ib, 3:25–30 (trans. Philipp and Perlmann); Say/de Boissy, p. 162.

36. Al-Jabarti, Mudda, p. 130; idem, Napoléon in Egypt, p. 86; Say/de Boissy, p. 163; Niello Sargy, 1:185; Édouard de Villiers du Terrage,

Journal et souvenirs de l'expédition de l' Égypte (1798–1801) (Paris: Librairie Plon, 1799), p. 83.

37. Al-Jabarti, 'Aja'ib, 3:25–26; al-Jabarti, Mudda, p. 131; idem, Napoléon in Egypt, p. 87; Say/de Boissy, p. 163; Niello Sargy, 1:185.

38. Napoléon Bonaparte, Campagnes d' Égypte et de Syrie, ed. Henry Laurens (Paris: Imprimerie Nationale, 1998), p. 162; Niello Sargy, 1:185; al-Jabarti, Mudda, p. 126; idem, Napoléon in Egypt, p. 84.

39. Al-Jabarti, Aja'ib, 3:25–26; Niello Sargy, 1:185; Desvernois, pp. 144–145.

الفصل الحادي عشر

1. Jean-François Detroye in Clément de la Jonquière, L'Expédition d' Égypte 1798–1801, 5 vols. (Paris: H. Charles-Lavauzelle, 1899–1906), 2: 279.

2. Jean-Pierre Doguereau, Journal de l'expédition d'Egypte, ed. C. de la Jonquière (Paris: Perrin et Cie., 1904), pp. 90–91; François Bernoyer, Avec Bonaparte en Égypte et en Syrie, 1798–1800: dix-neuf lettres inédits, ed. Christian Tortel (Abbeville: Les Presses françaises, 1976), pp. 88–89.

3. Bernoyer, p. 88; Charles Norry, An account of the French expedition to Egypt: comprehending a view of the country of Lower Egypt, its cities, monuments, and inhabitants, at the time of the arrival of the French;. .. Translated from the French (London, 1800), Eighteenth Century Collections Online. Gale Group. <http://galenet.galegroup.com.proxy.lib.

umich.edu/servlet/ECCO>, pp. 22–23.

4. Jean-Gabriel de Niello Sargy, D' Égypte, vol. 1 of M. Alph. de Beauchamp, ed., Mémoires secrets et inédits pour servir à l'histoire contemporaine, 2 vols. (Paris: Vernarel et Tenon, 1825), 1:187.

5. 'Abd al-Rahman Al-Jabarti, Ta'rikh Muddat al-faransis bi misr, ed. Abd al-Rahim A. Abd al-Rahim (Cairo: Dar al-Kitab al-Jami'i, 2000), pp. 131–132; idem, Napoleon in Egypt: Al-Jabarti's Chronicle of the French Occupation, 1798, trans. Shmuel Moreh (Princeton and New York: Markus Wiener Publishing, 1995), p. 87

6. Napoléon Bonaparte, Campagnes d' Égypte et de Syrie, ed. Henry Laurens (Paris: Imprimerie Nationale, 1998), p. 163.

7. Bonaparte, Campagnes, p. 163; Niello Sargy, 1:186.

8. Bonaparte, Campagnes, p. 163–64; Doguereau, pp. 90–91; Étienne-Louis Malus, L'Agenda de Malus: Souvenirs de l'expédition d' Égypte, 1798–1801, ed. Gen. Thoumas (Paris: Honoré Champion, 1892), p. 95.

9. Pierre de Pelleport, Souvenirs militaires et intimes (Paris: Didier & Co., 1857), p. 131; Bonaparte, Campagnes, p. 163.

10. Louis Antoine Fauvelet de Bourrienne, Mémoires de M. de Bourrienne, 10 vols. (Paris: Ladvocat, 1829), 2:182.

11. Dogeureau, pp. 92–93; Louis Antoine Fauvelet de Bourrienne, Memoirs of Napoleon Bonaparte, ed. R.W. Phipps, 4 vols. (New York: Charles Scribner's Sons, 1892), p. 176; Nicolas-Philibert Devernois, Mémoires du Général Baron Desvernois, ed. Albert Dufourcq (Paris: Plon, 1898), p. 145.

12. Al-Jabarti, Mudda, pp. 133–134; idem, Napoleon in Egypt, p. 89; Dogeureau, p. 93; Bernoyer, p. 89.

13. Al-Jabarti, Mudda, pp. 134–135; idem, Napoleon in Egypt, p. 90.

14. Bernoyer, pp. 89–90.

15. Pelleport, pp. 131–132.

16. Ibid., p. 132.

17. François Vigo-Roussillon, Journal de campagne (1793–1837) (Paris: ditions France-Empire, 1981), p. 76.

18. Bernoyer, pp. 90–92.

كذلك يعتمد مؤلف هذا الكتاب على هذا المصدر فيما يلي من فقرات.

19. Grandjean, "Journal," in Gaston Wiet, ed., Journaux sur l'expédition d' Égypte (Paris: Librairie Historique F. Teissedre,

2000), pp. 98–100; Detroye in La Jonquière, 2:282; Étienne Geoffroy Saint-Hilaire, Lettres d' Égypte, 1798–1801 (Paris: Paleo, 2000), p. 75.

20. Laval, "Journal," in Wiet, ed., Journaux, pp. 181–182.

21. Napoléon Bonaparte, Correspondence de Napoléon Ier, 34 vols. (Paris: H. Plon, J. Dumaine, 1858–1870), 5:89–90, no. 3527.

22. Detroye in la Jonquière, 2:283.

23. Alex. Lacorre, "Journal d'un commis aux vivres," in Paul Guitry, L'Armée de Bonaparte en Égypte (Paris: Ernest Flammarion, 1898), p. 168.

24. 'Abd al-Rahman al-Jabarti, 'Aja'ib al-athar fi al-tarajim wa al-akhbar, 4 vols. (Bulaq: al-Matba'ah al-Amiriya, 1322/1904, 2nd ed.), 3:27–33.

25. Napoléon, Corr., 5:112, no. 3571.

26. Laval, "Journal," in Wiet, ed., Journaux, pp. 181–182.

27. Bernoyer, p. 92.

28. Bonaparte in Joseph-Marie Moiret, Mémoires sur l'expédition d' Égypte, (Paris: P. Belfond, 1984), p. 79.

29. Andrew Martin, "The Mask of the Prophet: Napoleon, Borges, Verne," Comparative Literature 40, no. 4 (Autumn, 1988), pp. 318–334.

30. Saint-Hilaire, p. 42.

31. Al-Jabarti, Mudda, pp. 168–169; idem, Napoléon in Egypt, pp. 113–114.

32. Moiret, p. 80. ٧٦ الاقتباس التالي على صفحة

33. Napoléon, Corr., 5:98, no. 3542, and la Jonquière, 2:290;

للاطلاع على شئون الأقباط، انظر:

Napoléon, Corr.,5:184–185, no. 3717.

34. André Raymond, Égyptiens et Français au Caire, 1798–1801 (Cairo: Institut Français

d'Archéologie Orientale, 1998), pp. 63–64.

35. Jean-Honoré Horace Say with Louis Laus de Boissy, Bonaparte au Caire (Paris: Prault, 7 R. [1799]), p. 99n.

أعتقد أنني أول مؤرخ يتمكن من نسبة تلك السطور إلى مؤلفها الأصلي: لاوس دي بواسي؛ وكان بعض المؤرخين ينسبونها إلى لوسيان بونابرت (إذ إنها ذيلت بالتوقيع بالأحرف الأولى: L.B. إلى لاوس بواسي).

36. Henry Laurens, Orientales I: Autour de l'expédition d' Égypte (Paris: CNRS Editions, 2004), pp. 121–142.

37. Napoléon, Corr., 5:128; no. 3605.

الفصل الثاني عشر

1. Charles François, Journal du Capitaine François (dit le Dromadaire d'Egypte), 1792–1830, ed. Charles Grolleau, 2 vols. (Paris: Charles Carrington, 1903–1904), 1: 232–144; Louis Antoine Fauvelet de Bourrienne, Mémoires de M. de Bourrienne, 10 vols. (Paris: Ladvocat, 1829), 2:185; idem, Memoirs of Napoleon Bonaparte, ed. R. W. Phipps, 4 vols. (New York: Charles Scribner's Sons, 1892), 1:177.

2. Comte de Lavalette, Mémoires et Souvenirs du Comte de Lavalette, (Paris: Mercure de France, 1994), pp. 193–194.

3. Napoléon Bonaparte, Campagnes d' Égypte et de Syrie, ed. Henry Laurens (Paris: Imprimerie Nationale, 1998), 5:97, no. 3540.

4. Napoléon Bonaparte, Correspondence de Napoléon Ier, 34 vols. (Paris: H. Plon, J. Dumaine, 1858–1870), 5:107, no. 3565; Pierre-François Gerbaud, Le Capitaine Gerbaud, 1773–1799, ed. Maxime Mangerel (Paris: Plon, 1910), pp. 264–265.

5. Lavalette, pp. 193–194.

6. Napoléon, Corr., 5:133, no. 3616; Gerbaud, pp. 259, 267.

7. Prosper Jollois, Journal d'un ingénieur attaché a l'expédition d' Égypte, 1798–1802 (Paris: Ernest Leroux, 1904), p. 77; Gerbaud, 259.

8. Anon., Journal d'un dragon d' Égypte (14e Dragons) (Paris: E. Dubois, 1899), p. 49; for Captain Umar, see Napoléon, Corr., 5:97, no. 3541.

9. Gerbaud, p. 273.

10. Laugier in Clément de la Jonquière, L'Expédition d' Égypte 1798–1801, 5 vols. (Paris: H. Charles-Lavauzelle, 1899–1906), 2:461–2.

يرد الاسم في النص الفرنسي: تابيلوها، غير أن الأمر لا يعدو أن يكون تصحيفاً استبدل بالنقطة الواحدة على الحرف الأول من الكلمة نقطتين. فنابيلوها قرية في البحيرة التي تقع إلى الغرب من المنصورة.

11. Jollois, p. 75.

12. Joseph-Marie Moiret, Mémoires sur l'expédition d' Égypte (Paris: Pierre Belfond, 1984), pp. 72–73.

13. Jean-Gabriel de Niello Sargy, D' Égypte, vol. 1 of M. Alph. de Beauchamp, ed., Mémoires secrets et inédits pour servir à l'histoire contemporaine, 2 vols. (Paris: Vernarel et Tenon, 1825), 1:172–174.

14. Pierre Millet, Souvenirs de la campagne d' Égypte (1798–1801), ed. Stanislas Millet (Paris: Emile-Paul, 1903), p. 66; La Jonquière, 2:457.

15. Letters from Sultan Selim III to the Muslims and to Cezzar Pasha in Haydar Ahmad Shihab, Ta'rikh Ahmad Jazzar Basha (Beirut: Librairie Antoine, 1955), pp. 123–130.

16. Eugène de Beauharnais, Mémoires et correspondance politique et militaire du prince Eugène, ed. Albert du Casse (Paris: Michel Lévy frères, 1858), pp. 47–48; François, p. 45; La Jonquière, 2:443–502; al-Jabarti's description below from 'Abd al-Rahman al-Jabarti, Muzhiral-taqdis bi dhihab dawlat al-faransis (Cairo: Matba'at al-Risalah, 1969), p. 100.

17. Bonaparte/Daure, 3 Nivose R. 7 (23 December 1798), in Émile Brouwet, ed., Napoléon et sonTemps: Catalogue de lettres autographes, de documents et de souvenirs napoléoniens faisant partie de la collection de M. Émile Brouwet; troisième partie (London: Sotheby, 1936), p. 7; Bonaparte/Caffarelli, 22 Dec. 1798, in la Jonquière, 2:476.

18. Abd al-Rahman al-Jabarti, 'Aja'ib al-athar fi al-tarajim wa al-akhbar, 4 vols. (Bulaq: al-Matba'ah al-Amiriya, 1322/1904, 2nd ed.), 3:36–37.

19. General Jean-Pierre Doguereau, Journal de l'expédition d'Egypte, ed. C. de La Jonquière (Paris: Perrin et Cie., 1904), pp. 103–113; Bourrienne, Mémoires, 2:190–197; idem, Memoirs, 1:181–182.

20. M. Abir, "The 'Arab Rebellion' of Amir Ghalib of Mecca (1788–1813)," Middle Eastern

Studies, 3 (1971), pp. 192–193; Lutf Allah Jahhaf, Nusus Yamaniya 'an al-hamla al-Faransiya 'ala Misr, ed. Sayyid Mustafa Salim (Cairo: Markaz al-Dirasat al-Yamaniyah, 1975), pp. 128–129.

21. Lt. Gen. Augustin-Daniel Belliard, Mémoires du Comte Belliard, ed. M. Vinet (Paris: Berquet et Pétion, 1842), p. 176.

22. Doguereau, pp. 132–133.

23. Lavalette, p. 194.

ويعتمد مؤلف هذا الكتاب على المصدر نفسه لما يلي ذلك من نقاط.

24. Nicolas-Philibert Desvernois, Mémoires du Général Baron Desvernois, ed. Albert Dufourcq (Paris: Plon, 1898), pp. 146–148.

25. Bourrienne, Mémoires,2:188–189; idem, Memoirs,1:179.

٢٦. عرض جوزيف بوشامب لبحوثه في الفلك والجغرافيا في العراق وإيران محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس;Ms. 10157

أما فيما يختص بوصف بونابرت لمهمته، انظر:

Corr. 5:199, 201, nos. 3742 and 3746; Henry Laurens et al., L'Expédition d' Égypte: 1798–1801 (Paris: A. Colin, 1989), pp. 160–170.

27. Jean Michel de Venture de Paradis, "Mémoire sur la nécessité d'encourager en France l'étude des langues Orientales," Papiers,

Bibliothèque Nationale, Département des Manuscrits, 9137, foll. 2b–8b.

28. Lavalette, pp. 195–198.

29. A. Galland, Tableau de l' Égypte pendant le séjour de l'armée française, 2 vols. (Paris: Cerioux et Galland, R. 11 [1804]), 1:171.

30. Louis Thurman, Bonaparte en Égypte: Souvenirs Publiés (Paris: Émile Paul, 1902), p. 76.

31. Millet, pp. 61–62.

32. Kléber in Henry Laurens, Kléber en Égypte, 1798–1800, 2 vols. (Cairo: Institut Français de l'Archéologie Orientale, 1988), p. 366.

33. Édouard de Villiers du Terrage, Journal et souvenirs de l'expédition de l' Égypte (1798–1801)(Paris: Librairie Plon, 1799), p. 93; Napoléon, Corr., 5:239, no. 3818.

34. Paul Triaire, Dominique Larrey et les Campagnes de la Révolution et de l'Empire (Tours: Maison Alfred Mame et Fils, 1902), p. 210.

35. Bonaparte/Dugua, 14 Nivose R. 7 (2 February 1799), in Brouwet, ed., Napoléon et son Temps, p. 11.

36. Jahhaf; Henry Laurens et al., L'Expédition d' Égypte: 1798–1801 (Paris: A. Colin, 1989), p. 160.

37. Al-Jabarti, 'Aja'ib, 3:44.

38. John Voll, “Muhammad Hayya al-Sindi and Muhammad ibn ‘Abd al-Wahhab: An Analysis of an Intellectual Group in Eighteenth-Century Madina,” Bulletin of the School of Oriental and African Studies 38, no. 1 (1975), pp. 32–39.

39. Philippe Bourdin, “Le sultan dévoilé,” in Annales historiques de la Révolution française 324, [En ligne], mis en ligne le 22 mai 2006. http://ahrf.revues.org/document365.html>. Consulté le 15 novembre 2006; Jean-Joël Brégeon, L' Égypte française au jour le jour, 1798–1801 (Paris: Perrin, 1991), pp. 132–143; J. Christopher Herold, Bonaparte in Egypt (New York: Harper and Row, 1962), chapter 8.

40. Belliard in la Jonquière, 2:518; cf. Donzelot/Berthier, 18 January 1799, in ibid., 2:525; Desvernois, p. 157.

41. Desaix/Bonaparte, 9 Pluviose R. 7 (28 January 1799), in la Jonquière, 2:531–532; Desvernois, pp. 160–163.

الخاتمة

1. Philippe de Meulenaere, Bibliographie raisonnée des témoignages oculaires imprimés de l’expédition d’Egypte (1798–1801) (Paris: F. et R. Chamonal, 1993).

2. François Charles-Roux, Bonaparte, gouverneur d' Égypte (Paris: Plon, 1936); idem, Bonaparte: Governor of Egypt, translated from the French by E. W. Dickes (London, Methuen & Co., Ltd., 1937).

3. James L. Gelvin, "Napoleon in Egypt as History and Polemic," in Irene Bierman, ed.,

Napoleon in Egypt (Reading, UK: Ithaca Press, 2003), pp. 139–160.

4. Edward W. Said, Culture and Imperialism (New York: Knopf, 1993).

5. François Furet, Revolutionary France, 1770–1880, trans. Antonia Nevill (London: Blackwell, 1995), p. 199.

6. Peter Gran, Islamic Roots of Capitalism: Egypt, 1760–1840 (Austin: University of Texas Press, 1979).

7. Edward W. Said, Orientalism (New York: Vintage Books, 1978).

8. Thomas Koszinowski, "Die Kontorverse um die Feiern zum Ägypten-Feldzug Napoleons," Nahost-Jahrbuch (1998), pp. 191–196; Elliott Colla, "'Non, non! Si, si!': Commemorating the French Occupation of Egypt (1798–1801)," MLN, 118.4 (2003) 1043–1069.

9. Said, Orientalism, p. 86.

10. Homi K. Bhabha, The Location of Culture (London: Routledge, 2004).

المؤلف في سطور:

أ.د. خوان كـــول

- من مواليد ولاية نيومكسيكو، بالولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٥٢.
- مفكر أمريكي متخصص في تاريخ الشرق الأوسط وجنوب آسيا.
- حصل على درجة الليسانس في التاريخ والآداب من جامعة نورثوسترن ١٩٧٥، ودرجة الماجستير من الجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٧٨، ودرجة الدكتوراه في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس في مجال الدراسات الإسلامية وتخرج فيها عام ١٩٨٤.
- يعمل حاليًا أستاذًا للتاريخ بجامعة ميتشجان، حيث يشغل كرسي ريتشارد بي. ميتشل للتاريخ.
- رئيس جمعية دراسات الشرق الأوسط في أمريكا الشمالية منذ نوفمبر ٢٠٠٤
- – يجيد العربية والفارسية والأرديه، وقد ترجم ثلاثة مجلدات من أعمال الشاعر جبران خليل جبران العربية إلى الإنجليزية.
- يكتب مدوَّنة عن شئون الشرق الأوسط منذ ٢٠٠٢ تحت عنوان: "تعليقٌ قائمٌ على معلومات" أو "تعليق خبير ببواطن الأمور" **Informed Comment**، في موقع www.juancole.com
- يتبنى موقفـــاً معاديًا للاستعمار، ويرى في الولايات المتحدة قوة استعمارية، ويوجه نقده لسياسات إسرائيل الخارجية والعسكرية، وبخاصة ما يتصل بتعاملها مع الفلسطينيين، وكذلك لسياسة بلاده المؤيدة لإسرائيل.

من أهم مؤلفاته:

– Engaging the Muslim World, Palgrave Macmillan, 2009. ISBN 0230607543

– The Ayatollahs and Democracy in Iraq, Amsterdam University Press, 2006. ISBN 9789053568897

– "Historiography of the Muslim Brotherhood", essay in Middle East Historiographies: Narrating the Twentieth Century by Israel Gershoni et al., 2006.

– Colonialism and Revolution in the Middle East: Social and Cultural Origins of Egypt's `Urabi Movement. Princeton: Princeton University Press, 1993. Paperback edn., Cairo: American University in Cairo Press, 1999.

المترجم في سطور:

أ.د. مصطفى رياض

- من مواليد القاهرة ١٩٥٥
- حصل على الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة عين شمس ١٩٨٨.
- يعمل حاليـًا أستاذًا للأدب الإنجليزي بكلية الآداب، جامعة عين شمس.
- عضو اللجنة العلمية لترقية أعضاء هيئة التدريس في تخصص الأدب الإنجليزي.
- عضو مجلس إدارة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- عضو الهيئة الاستشارية للمركز القومي للترجمة، القاهرة، في مجال الآداب واللغات.
- له عدة بحوث في الأدب الإنجليزي والأدب المقارن أهمها:

"Al-Mazini's Humorous Prose: Some Sources in Twain and Jerome," Philology: Literature and Linguistics Series 24, Al-Alsun Faculty, Ain Shams University: Al-Alsun Press, 1995.

"The Absurd in Naguib Mafouz's Plays," The Sixth International Symposium on Comparative Literature, 21st-23rd November 2000. Modernism and Post Modernism: East and West. Eds. Hoda Guindi and Galila Ragheb. Cairo University, 2001: 565-583.

"Bertold Brecht's Puntila and His Man Matti, and Alfred Farag's ʿAli Janah el Tabrizi wa Tabiʿuhu Quffa: A People's Theatre," The Seventh International Symposium on Comparative Literature, 17th-19th December, 2002. Trans/Inter-Cultural Communication. Eds. Mona El Halawany and Mohamed Abdel ʿAty. Cairo University, 2003: 479-497.

"Self-fashioning and Identity in Autobiography: Louis Awad's Awraq El Omr and Ihab Hassan's Out of Egypt," Bulletin of the Faculty of Arts: Literature and Linguistics 63:3 (July 2003) Faculty of Arts, Cairo University: Cairo University Publishing Unit, 131-161.

وترجمات في الآداب، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، منها ترجمة:

- Baum, Lawrence. The Supreme Court. 5th ed. Washington D.C.: Congressional Quarterly Inc., 1995. (Arabic edition, 1998: المحكمة العليا)

- Honoré, Tony. About Law: An Introduction. Oxford: Oxford University Press, 1995. (Arabic edition, 1998: آراء في القانون)

المراجع في سطور:

أحمد زكريا الشـِّلق

- من مواليد طنطا ١٩٤٨.
- حصل على الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة عين شمس ١٩٨١.
- يعمل حاليًا أستاذًا للتاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب، جامعة عين شمس.
- حصل على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام ٢٠١١
- حصل على جائزة جامعة عين شمس التقديرية في العلوم الاجتماعية عام ٢٠١١.
- رئيس تحرير سلسلة "مصر النهضة" التي تصدرها دار الكتب والوثائق القومية.
- رئيس تحرير سلسلة "ذاكرة الكتابة" التي تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ولجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة.
- مقرر اللجنة العلمية لمركز تاريخ مصر المعاصر بدار الكتب والوثائق القومية.

من أهم مؤلفاته:

- حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية، دار المعارف، ١٩٧٩.
- حزب الأحرار الدستوريين، دار المعارف، ١٩٨٢.

- رؤية في تحديث الفكر المصري، جزآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤، ١٩٨٨.
- الحزب الديمقراطي المصري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.
- العرب والدولة العثمانية ١٥١٦ – ١٩١٦، مصر العربية للنشر ٢٠٠٢.
- الحداثة والإمبريالية: الغزو الفرنسي وإشكالية نهضة مصر، دار الشروق ٢٠٠٦.
- طه حسين: جدل الفكر والسياسية. المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٨.
- تطور مصر الحديثة، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١١.
- ثورة يوليو والحياة الحزبية، دار الشروق ٢٠١١.

بالإضافة إلى عشرات البحوث والدراسات في المؤلفات المشتركة والدوريات العلمية.

التصحيح اللغوى: أيمن صابر
الإشـــراف الفنى: حسن كامل